



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغفلة



الرأيا  
عليكم يا صابغين

www. **Ghaemiyeh** .com  
www. **Ghaemiyeh** .org  
www. **Ghaemiyeh** .net  
www. **Ghaemiyeh** .ir

أنت دعيت

# الإمام الصادق

## والمذاهب الأربعة

مع إضافات وتحقيقات علمية

المجلد الثاني



دار الفکر للطباعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الامام الصادق و المذاهب الاربعه

كاتب:

اسد حيدر

نشرت في الطباعة:

دار التعارف للمطبوعات

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

5	الفهرس
18	الامام الصادق و المذاهب الاربعه المجلد 2
18	اشارة
24	الجزء الثالث
24	اشارة
26	عرض و تمهيد
26	نوعية البحث:
27	تفاوت المذاهب فى الانتشار:
30	نظرة فى التعصب المذهبى:
34	الإمام الصادق
34	اشارة
34	مدرسته و طابعها:
34	اشارة
35	مواقفه من ساسة عصره:
37	الصراع بين المدرسة و الدولة:
38	نواة المدرسة و تاريخ نشأتها:
41	صمود مذهب امام الحكام:
41	اشارة
43	التببيه الأول: التابعون و الإمام الصادق:
46	التببيه الثانى: تلامذة الإمام و مركزية الكوفة:
48	التببيه الثالث: مدرسة الإمام و معنى التشيع:
52	أخطاء و أكاذيب
52	المؤلفون و الشيعة:

53	مع أحمد أمين في كتبه:
54	أخطاء التصيبي: .....
56	مع ابن عبد ربّه: .....
59	أحلام ابن العماد: .....
60	أسطورة ابن سبأ: .....
64	الإمام الصادق .....
64	إشارة .....
64	مؤهلات الإمام الصادق ومكانته: .....
68	أصحاب الإمام الصادق ع .....
68	أبان بن تغلب .....
68	نسبه و أقوال العلماء فيه: .....
70	علمه و شيوخه: .....
71	تلامذته: .....
72	مكانته و كفايته العلمية: .....
73	مؤلفاته: .....
74	أبان بن عثمان: .....
75	بريد العجلي: .....
76	جميل بن دراج: .....
76	جميل بن صالح: .....
76	حماد بن عثمان: .....
77	حماد بن عيسى: .....
77	حبيب بن ثابت: .....
77	حمزة بن الطيار: .....
80	مؤمن الطاق .....
80	إشارة .....

80	نسبه و أقوال العلماء فيه:
82	علمه و نبوغه:
82	مناظراته و احتجاجه:
85	مؤلفاته:
86	وصية الإمام الصادق له:
87	آراء و مناقشات:
88	هشام بن الحكم
88	إشارة
90	صلته بالإمام الصادق:
92	عصره:
95	شيوخه و تلامذته:
95	مؤلفاته:
96	أجوبته و مناظراته:
98	نموذج من مناظراته:
101	مع هشام في تهمة:
105	الجاحظ في الميزان:
108	رسالة الجاحظ في تفضيل علي عليه السلام:
112	عود على بدء:
115	هل تؤاخذ الأمة بقول الفرد؟!
122	وصية الإمام موسى له:
124	و خلاصة القول:
126	الفرق الإسلامية
126	إشارة
126	تمهيد:
127	الخوارج:

128	آراء الخوارج و فرقههم:
129	فرق الخوارج:
129	اشارة
129	الأزارقة:
129	النجادات:
130	الأباضية:
130	الصفرية:
131	العجاردة:
132	المعتزلة:
132	اشارة
132	فرق المعتزلة:
134	المرجئة و فرقههم:
136	الجبرية:
137	نسبة أبى حنيفة إلى المرجئة:
138	تقولات حول فرق الشيعة:
140	حول فرق الغلاة:
142	الإمام الصادق
142	اشارة
142	تمهيد:
143	وصايا الإمام الصادق ع
143	وصية عامة إلى جميع أصحابه:
146	وصيته لعنوان البصرى:
147	وصيته عليه السلام لعمر بن سعيد:
147	وصيته للمفضل بن عمر:
148	وصيته لحرمان بن أعين:



149	.....	حكمه عليه السلام:
149	.....	اشارة
151	.....	ومن حكمه:
154	.....	المذاهب الأربعة
154	.....	اشارة
154	.....	تمهيد:
155	.....	الالتزام بالمذاهب الأربعة:
156	.....	التطرف بالتزام المذهب:
160	.....	الإمام أبي حنيفة لا يلزم بالرجوع إليه:
161	.....	الإمام مالك ينهى عن التقليد:
163	.....	الإمام الشافعي ينهى عن التقليد:
164	.....	الإمام أحمد يحارب التقليد:
166	.....	أسباب التعصب المذهبي وتطور الدعوة:
170	.....	آراء حول الاجتهاد والتقليد
170	.....	اشارة
171	.....	الاجتهاد:
173	.....	التقليد:
173	.....	بين طائفتين:
174	.....	حجة المقلدين:
180	.....	التلفيق:
181	.....	نسبة المذهب إلى أبي حنيفة:
182	.....	طريق الأصول للمذاهب:
183	.....	الشيعة والاجتهاد:
183	.....	الخلاصة:
186	.....	الإمام الشافعي

186	تمهيد:
187	نسبه ونشأته:
190	طلبه العلم في مكة:
192	طلبه العلم في المدينة:
193	ولاية الإمام الشافعي:
194	الإمام الشافعي في بغداد:
197	الإمام الشافعي في مصر:
198	الإمام الشافعي وحياته العلمية:
198	مناقبه:
201	شيوخه وتلامذته:
203	تلامذته ورواة مذهبه:
205	المصريون:
207	كتبه وآثاره:
207	إشارة
208	كتاب الأم:
210	الاختلاف حول كتاب الأم:
215	بين قديم وجديد:
219	آراؤه في القرآن:
221	رأيه في الرؤية:
223	رأيه في الصفات:
224	رأيه في الإمامة:
225	رأيه في علم الكلام:
226	تنبيه:
228	عصر الإمام الشافعي وأحداثه:
228	إشارة

229	.....	بذخ الدولة العباسية:
234	.....	اضطهاد الدولة العباسية للعلويين:
235	.....	الحسين صاحب فخ:
237	.....	الزندقة في عرف العباسيين:
240	.....	نشاط العلماء وتأييد الدولة:
241	.....	الخلاصة:
243	.....	أخباره:
243	.....	اشارة
245	.....	الإمام الشافعي في مصر:
247	.....	مذهبه الجديد:
249	.....	الطعون على الشافعي:
252	.....	الإمام الشافعي والتشيع:
258	.....	نتيجة وحكم:
259	.....	دفاع الشافعية:
260	.....	مذهبه وانتشاره:
262	.....	تعقيب وتصويب
262	.....	حول تمييز الشافعي:
264	.....	التناقض في التصوير:
266	.....	مذهبه الفقهي:
267	.....	نهيه عن مذهبه القديم:
268	.....	الخصومة المذهبية:
269	.....	تناجح الخلافات المذهبية:
272	.....	الجزء الرابع
272	.....	اشارة
276	.....	تقديم و بيان

276	.....	اشارة
276	.....	نوعية البحث:
276	.....	منهج البحث:
279	.....	التعصّب للمذاهب:
281	.....	التحامل على مذهب أهل البيت:
283	.....	البحث و الزوائد:
286	.....	الإمام الصادق
286	.....	اشارة
287	.....	ولادته:
287	.....	نشأته:
288	.....	معاصرته للحكم الأموى:
294	.....	الإمام الصادق
294	.....	اشارة
294	.....	تمهيد:
295	.....	نهيه عن المنازعات و فض الخصومة لدى حكام الجور:
297	.....	نهيه عن الولاية للظالمين:
297	.....	حثّه على صلة الرّحم:
299	.....	حثّه على مساعدة الضعفاء و أبناء السبيل:
303	.....	حثّه على العمل و طلب الرزق الحلال:
304	.....	نبذ من أعماله و أقواله:
309	.....	حول أخطاء بعض الكتاب:
310	.....	الدعوة العباسية:
311	.....	أساليب الدعوة:
316	.....	دعوة الإمام الصادق للخلافة:
322	.....	الإمام الصادق

322	.....	اشارة
322	.....	موقف الإمام الصادق واتجاهه للإصلاح: ..
322	.....	اشارة
325	.....	أسس الدعوة إلى الإصلاح: ..
326	.....	مهمة الداعي: ..
328	.....	شخصية الداعي: ..
329	.....	ملاحظات حول دعوته الإصلاحية: ..
332	.....	الإمام الصادق
332	.....	اشارة
332	.....	تمهيد: ..
333	.....	انطباعات مالك بن أنس: ..
333	.....	انطباعات سفيان الثوري: ..
334	.....	انطباعات زيد بن علي: ..
335	.....	انطباعات مالك بن أنس: ..
336	.....	انطباعات أبي حنيفة: ..
337	.....	انطباعات المنصور الدوانيقي: ..
340	.....	انطباعات ابن أبي ليلى: ..
341	.....	انطباعات عمرو بن عبيد: ..
344	.....	الإمام الصادق
344	.....	اشارة
344	.....	تمهيد: ..
346	.....	حكمه وأقواله: ..
362	.....	حكمه تعاليم إسلامية: ..
364	.....	جهاده و دفاعه عن الإسلام: ..
368	.....	مشكلة الغلاة

- 368 ..... المؤرّخون ومشكلة الغلاة:
- 370 ..... أسباب نشأة الغلاة:
- 372 ..... الدعوة الإسلامية وخصومها:
- 374 ..... رؤساء الغلاة ومواقف الإمام ضدهم:
- 374 ..... أبو الخطاب الأسدي:
- 377 ..... بزيع بن موسى:
- 378 ..... بشار الشعيري:
- 379 ..... معمر النهدي:
- 380 ..... حمزة الزبيدي:
- 380 ..... صائد النهدي:
- 380 ..... بيان التبان:
- 381 ..... المغيرة بن سعيد:
- 381 ..... إشارة:
- 382 ..... براءة الإمامين الباقر والصادق من المغيرة:
- 385 ..... أبو منصور العجلي:
- 387 ..... دراسة حركة الغلاة ناقصة:
- 387 ..... إشارة:
- 388 ..... الغلاة والشيعة:
- 389 ..... حركة الغلاة ضد الإسلام:
- 392 ..... حوار و تصويب:
- 395 ..... موقف مع شيخ أزهرى:
- 400 ..... الناقمون على الإسلام وأهل البيت:
- 402 ..... المنحرفون عن الحق والشيعة:
- 410 ..... الإمام الصادق:
- 410 ..... إشارة:

- 410 ..... تمهيد:
- 411 ..... موقف الإمام من الزنادقة و الشبه الفكرية:
- 420 ..... طرق معيشة العباد:
- 421 ..... سلوك الوالى مع الرعية:
- 423 ..... التوحيد فى أجوبة الإمام للمفضل بن عمر:
- 423 ..... اشارة
- 424 ..... المجلس الأول فى خلق الإنسان:
- 426 ..... المجلس الثانى فى ذكر الحيوان:
- 427 ..... المجلس الثالث فى ذكر السماء:
- 427 ..... المجلس الرابع فى ذكر آفات الدهر:
- 428 ..... مناظرات الإمام حول الإسلام و مبادئه:
- 432 ..... خلاصة الصراع بين دعوة الإمام الإصلاحية
- 442 ..... الإمام أحمد بن حنبل
- 442 ..... اشارة
- 442 ..... تمهيد:
- 443 ..... نسبه:
- 444 ..... ولادته و نشأته:
- 446 ..... نبوغه و شهرته:
- 447 ..... صلته بالمتوكل:
- 450 ..... الإمام أحمد بن حنبل
- 450 ..... اشارة
- 450 ..... المحنة:
- 450 ..... اشارة
- 452 ..... أدوار المحنة:
- 452 ..... اشارة

- 456 ..... امتحان أحمد بن حنبل: .....
- 456 ..... فى عهد المعتصم: .....
- 460 ..... شركاء فى المحنة: .....
- 463 ..... أوضاع المحنة فى عصر الإمام أحمد: .....
- 466 ..... الإمام أحمد بن حنبل .....
- 466 ..... إشارة .....
- 466 ..... مناقبه: .....
- 470 ..... شيوخه: .....
- 472 ..... تلامذته: .....
- 472 ..... إشارة .....
- 473 ..... أحمد بن محمد بن هانى المعروف بالأثرم: .....
- 473 ..... أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبد العزيز المروزي: .....
- 474 ..... إبراهيم بن إسحاق الحربى: .....
- 474 ..... صالح بن أحمد بن حنبل: .....
- 474 ..... عبد الله بن أحمد بن حنبل: .....
- 475 ..... كتبه وآثاره: .....
- 475 ..... إشارة .....
- 476 ..... مسند الإمام أحمد: .....
- 482 ..... الإمام أحمد بن حنبل .....
- 482 ..... إشارة .....
- 482 ..... عصره: .....
- 484 ..... أحداث عصره: .....
- 484 ..... إشارة .....
- 488 ..... المأمون: .....
- 493 ..... المعتصم: .....



- 495 ..... الوائق:
- 496 ..... المتوكل:
- 499 ..... الدولة العباسية و بداية الضعف:
- 501 ..... اتهام أحمد بالميل للعلويين:
- 503 ..... شيوخ الإمام أحمد من الشيعة:
- 505 ..... أقوال العلماء:
- 508 ..... مذهبه و انتشاره:
- 510 ..... الفقه الحنبلي:
- 510 ..... اشارة
- 512 ..... كتب الفقه الحنبلي:
- 513 ..... أصول الفقه الحنبلي:
- 514 ..... بين معسكرين:
- 516 ..... انتصار المحدثين:
- 523 ..... ملاحظات حول انتصار الحنابلة:
- 528 ..... نظرة عامة:
- 533 ..... تعريف مركز

اشارة

عنوان و نام پديدآور: الامام الصادق و المذاهب الاربعة / اسد حيدر

مشخصات نشر: دارالكتاب الاسلامي - بيروت - لبنان - 1422

زبان: عربي

مشخصات ظاهري: 4ج

موضوع: امام صادق عليه السلام

موضوع: مذاهب اربعة - اهل سنت

ص: 1





عنوان و نام پديدآور: الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حيدر

مشخصات نشر: دارالتعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان - 1422

زبان: عربى

مشخصات ظاهرى: 4ج

موضوع: امام صادق عليه السلام

موضوع: مذاهب اربعه - اهل سنت

ص: 4

بسم الله الرحمن الرحيم

ص: 5



الجزء الثالث

إشارة

ص: 7





هذا هو الجزء الثالث من كتابنا الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أضعه بين يدي القراء. وقد نهجت فيه منهجى الذى سرت عليه فى الجزءين الأول والثانى، مبتدنا بذكر الإمام الصادق عليه السلام فى بيان موجز عن تاريخ حياته، ونشاط مدرسته، وبعض تعاليمه. ولم أتوسع فى البحث-كما يتطلبه الموضوع-إذ لا يمكن إعطاء شخصيته حقها من الإحاطة والبيان، فإن ذلك أمر يشق على الباحث حصوله مهما أنفق من جهد فى هذا السبيل، وفى أى ناحية يسلك ليفرغ منها فراغا تاما يجد نفسه فى البداية لا فى النهاية؛ لأن شمول البحث لجميع جوانب شخصية الإمام الصادق عليه السلام ومزاياه التى أتصف بها، وأعماله التى قام بها، لإعلاء كلمة الإسلام وتوحيد صفوفها، وهو من الصعوبة بمكان. ولهذا التجأت إلى أفراد البحث فى ذلك بجزء خاص به، كما أن الفترة التاريخية التى عاشها الإمام عليه السلام، كانت مليئة بأحداث تأثر بها مجتمعه الذى كان يتصل به، ويرتبط بواقعه، فكان يعالج تلك المشاكل بحنكة وتدبر، عن بصيرة ومعرفة بعاقبة الأمور. وكانت الظروف تقضى على رجال أهل البيت عليهم السلام أن يكونوا محور آمال الأمة؛ لأن الثورة قامت باسمهم، وقد ارتفعت هتافات الثوار بالدعوة لهم، وإسناد الحكم إليهم، وكان هو عليه السلام زعيم أهل البيت وسيدهم فى عصره، وهو أعلم الناس بتلك الأمور، وما يؤول إليه الأمر بين العباسيين والعلويين، كما أنه درس تلك الأوضاع وعاش مع أحداث مختلفة، ومشاكل متراكمة. فكان موقفه عليه السلام

أخرج موقف يقفه زعيم ديني يحمل رسالة الإسلام، ويريد تطبيق نظامه في عصر هبّت فيه زويدة الأهواء، و اختلفت الآراء، و ذهب الناس فيه مذاهب شتى، و سلكوا طرقا متباينة، فالموقف إذا يحتاج إلى قيادة حكيمة، و سياسة إسلامية مركزة، فكان موقفه عليه السلام موقف القائد المحنك، الذي يسير على هدى من دينه، و بصيرة من أمره، و لقد ظلم التاريخ موقفه، و ألجم عن التصريح بأعماله و آثاره، و لو أفصح التاريخ عن جميع مآثره و جليل أعماله-و لم يكن محظورا عليه ذلك-لاتسعت دائرة البحث عن إدراك جوانب تاريخ حياته. و من الحق هنا الاعتراف بالقصور عن إدراك شخصيته و مكانتها في تاريخ الإسلام، و ما لها من الأثر العظيم في التشريع الإسلامي. و ليس ذلك، لغموض يكتنف جوانب عظمته، أو وجود زوائد في دراسة حياته، أو اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته و علو مقامه بدون حق، كل ذلك لم يكن، و إنما اتساع دائرة معارفه، و تعدد نواحي شخصيته، و عظيم أثره في بعث الفكر الإسلامي، و تدفق ينبوع آرائه، و جهاده المتواصل في سبيل توجيه الأمة بآثاره الخالدة و تعاليمه القيّمة، هو السبب في قصور الباحث عن إدراك الغاية المطلوبة بسهولة. و التزمت أن أذكر في كل جزء إماما واحدا من الأئمة الأربعة. فذكرت في الجزء الأول: الإمام أبا حنيفة، و في الثاني: الإمام مالكا، و في هذا الجزء الإمام الشافعي، مقتصرًا على ذكر أنسابهم و مناقبهم و نشأتهم و نبوغهم، و ذكر شيوخهم و تلامذتهم، دون استقصاء لآرائهم و فقههم. و في الجزء الرابع يأتي ذكر الإمام أحمد بن حنبل. و في بقية الأجزاء سنعرض إلى الموازنة و المقارنة بين المذاهب الإسلامية.

### تفاوت المذاهب في الانتشار:

تكلّمت فيما مضى عن أسباب نشأة المذاهب و انتشارها و كثرة عددها، و قد اقتصرت على ذكر البعض منها، مع بيان موجز عن حياة رؤسائها و منزلتهم العلمية. و أشرت إلى أسباب اندراس تلك المذاهب و بقاء الأربعة منها: الحنفي، و المالكي، و الشافعي، و الحنبلي. و قد اتضح لنا أن للحكومات دخلا في نصره المذاهب و انتشارها، فإذا كانت الحكومة قوية و أيّدت مذهبًا من المذاهب، تبعه الناس بالتقليد، و ظل سائدا إلى أن تزول الدولة.

و انتشار المذاهب و عظيم الإقبال عليها لا يدل على قوتها الروحية، و عواملها الذاتية، فقد رأينا أن قوة الدعاة و تدخّل السلطة أقوى عامل لنشر المذهب (فأىّ مذهب كان أصحابه مشهورين، و أسند إليهم القضاء و الإفتاء، و اشتهرت تصانيفهم فى الناس، و درسوا درسا ظاهرا، انتشر فى أقطار الأرض، و لم يزل ينشر كل حين. و أى مذهب كان أصحابه خاملين، و لم يولّوا القضاء و الإفتاء، و لم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين) (1). و المذاهب الأربعة نفسها كانت تختلف بالقوة و الانتشار، فقد رأينا المذهب الحنفى هو أكثر المذاهب انتشارا، و أعظمها إقبالا، لقوة أنصاره و كثرة دعائه فى البداية و النهاية، إذ كانت نواة شهرته من غرس أبى يوسف قاضى قضاة الدولة العباسية، فهو ناشر المذهب أو مؤسسه-إن صح لنا أن نقول ذلك-و قد كان أبو يوسف و جيهها فى الدولة، مقبولا عند الخلفاء، له منزلة لا يشاركه فيها أى أحد. فكان لا يولى قاضيا إلا من انتسب لمدرسة أبى حنيفة. و استمر القضاء فى نشر المذهب فى جميع الأقطار، مستمدين قوتهم من السلطة التنفيذية، حتى أصبح مذهب أبى حنيفة هو المذهب الرسمى للدولة. و لما اعتنق الأتراك مذهب أبى حنيفة أثر ذلك فى قوته و انتشاره فى العصور المتأخرة، و ناهيك بما للأتراك من قوة فى الدولة، و قسوة فى الحكم، و استبداد فى الأمر، و قد ناصروه بكل حول و قوة، و كان انتصارهم لطمعهم فى الخلافة. فإن السلطان سليمان طمع فى الخلافة الإسلامية، و هى لا تكون إلا فى قریش باتفاق المذاهب إلا الحنفى فإنه جوّز أن يتولى الخلافة غير قرشى، فحمل الناس على اعتناق هذا المذهب. و قد رأينا انتصار العباسيين لمالك بن أنس-بعد غضبهم عليه-فقد أمروا بقصر الفتوى عليه، و أعلن ذلك بأمر الدولة، و نودى-غير مرة علنا-ألا يفتى الناس إلا مالك (2) و أمروا عمّالهم باستشارته فى الأمر، و عدم القطع دونه، فهذا المنصور يقول لمالك: إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكّة، أو أحد عمّال الحجاز، فى ذاتك،

ص: 11

1-1) حجة الله البالغة للدهلوى ج 1 ص 151.

2-2) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 206.

أو ذات غيرك، أو سوء سيرة في الرعية، فاكتب إليّ بذلك، أنزل بهم ما يستحقون، وقد أكتب إلى عمالي بها أن يسمعوا منك ويطيعوك في كل ما تعهد إليهم، فانهم عن المنكر وأمرهم بالمعروف توجر على ذلك، وأنت خليق أن تطاع و يسمع منك (1). وكان مالك يأمر الحرس ليأخذوا شخصا إلى السجن، ويأمر بإطلاقه حين يرى ذلك. ويجلس مالك عند الوالي فيعرض عليه السجن فيقول له: اقطع هذا واضرب هذا مائة وهذا مائتين واصلب هذا إلخ (2). وعلى أي حال فإن مالك بن أنس قد لحظته الدولة وقربته، إذ وجدت منه عونا ومؤازرة، فقربوه وأحسنوا إليه، ورفعوا مجلسه، ونشروا علمه، وأجزلوا له العطاء، وأصاب منهم ثروة طائلة، ومع هذا فهم مدينون لمالك في مؤازرتهم ومعاونتهم والركون إليهم. وكان انتشار مذهبه في الأندلس يرجع لفضل القضاة، وقوة السلطة، إذ حملوا الناس على اعتناق مذهبه بالسيف كما مرّ بيانه. أما المذهب الشافعي فقد تعرّضنا لذكره وعوامل انتشاره، وستأتي زيادة بيان في ترجمته، كما تعرّضنا لانتشار مذهب الإمام أحمد، وقد رأينا الإعراض عنه محسوسا. ولم يكن كغيره من المذاهب شهرة، بل اقتصر انتشاره في بغداد أما في سائر الأقطار فكان قليلا جدا، حتى إن بعضهم لم يعدّه من المذاهب المعمول بها، وذكر مكانه مذهب الظاهري. ولما امتد سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلي ضربة قاضية، وأخذ المذهب يتضاءل شيئا فشيئا. أما في مصر فلم تكن له أي شهرة هناك، فقد كان في العصور المتأخرة عدد شيوخ الأزهر 312 شيئا من جميع المذاهب، وعدد طلابه 9069، وكان من بينهم 28 طالبا من الحنابلة، و 3 شيوخ منهم فقط، ولكنه ظهر في القرن الثامن عشر ميلادي في صورة قوية جديدة، بظهور الوهابيين الذين يتبنون في مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية. وقد تطرّفوا في ذلك إلى حدّ بعيد، وسيأتي الكلام على ظهورهم وتعاليمهم عند كلامنا في مذهب أحمد بن حنبل.

ص:12

1-1) مالك الخولي ص 318.

2-2) مالك الخولي ص 319 نقلا عن القاضي عياض في الترتيب ج 1 ص 27.

وقد رأينا كيف تغلّبت روح التعصّب المذهبي الشديد، كما تغلّبت الفكرة القائلة بتحريم تقليد غير المذاهب الأربعة. و تطورت الدعوة إلى ذلك بصورة واسعة وأخذ نشاطها يزداد حتى جعل من قلد غير هذه المذاهب خارجا عن الدين. فكان هناك نزاع واحتدام وتعصّب حتى بين معتقّيها، أدّى إلى معارك دامية، واتّهام البعض للبعض الآخر و تكفير قوم لآخرين، حتى قال قائل الحنفية: لو كان لى الأمر لأخذت الجزية من الشافعية (1). وأصبح كلّ يحتكر الإيمان بالله والتصدق بنبىّه لأبناء مذهبه. وأن الجذّة وقف عليهم ولا نصيب لأحد فيها معهم، خلافا لما جاء به النبى (صلى الله عليه وآله) وخروجاً على تعاليم الإسلام حتى قال أحد الحنابلة: إنه من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم. وقد اندفع المتطرّفون من معتقّي المذاهب الأربعة لبذل جهدهم فى جعل رئيس مذهبهم هو المؤسس لعلوم الإسلام، والمرجع الأعلى للتشريع، وأن العلم مقصور عليه، والاجتهاد لا يليق إلاّ به. وقد استفدوا كل إمكانياتهم فى تصويره بصورة لا تشبهها صورة (فهو ملك بصورة البشر) (2) وتمسّ كوا بأقوال أئمتهم تمسّ كما جعلهم يقدّمونها على كتاب الله وسنّة رسوله (3) فكان يقال لهم: قال رسول الله يقولون: قال فلان (4) - أى رئيس المذهب - ويأفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم (5). وعلى أى حال فإن تلك الاتجاهات التى سار عليها المتعصّبون للمذاهب، قد استولت على كثير من أتباعها، وقد يكون ذلك نتيجة للظروف التى مرّت بها الأمة الإسلامية، من تدخّل عناصر خارجة عن الإسلام، لتشويه سمعة المسلمين والإساءة إلى المجتمع، من بث روح الفرقة وإثارة الشغب، و من المؤسف أن نجد البعض (قدمهم على الأنبياء عند تعارض كلامهم - أى أئمة المذاهب - مع الحديث الصحيح،

ص:13

1-1) مرآة الزمان القسم 1 ج 8 ص 44.

2-2) أبو حنيفة للسيد عفيفى المحامى ص 6.

3-3) همم ذوى الأبصار ص 51.

4-4) توالى التأسيس للحافظ ابن حجر ص 76.

5-5) الاعتصام للشاطبى ج 3 ص 259.

فإنهم يردون كلام النبي المعصوم- مع اعتقاد صحة سنده- لقول نقل عن إمامهم، ويتعللون باحتمالات ضعيفة (1). كما وقد دفعهم التعصب إلى أنهم (إذا وقفوا على آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة تخالف مذهبهم، صاروا يؤولونها على غير تأويلها، ويصرفونها عن ظاهرها إلى ما تقرر عندهم من المذاهب والمشارب، وطفقوا يطعنون على من عمل بفحواها الظاهر و مبنائها الباهر، كأن الدين- عندهم- هو ما جاء عن آبائهم وأسلافهم دون ما جاء عن الله في كتابه، أو عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم) (2). و مهما يكن من الأمر فإن تلك الاتجاهات كانت من تدخل عناصر دخيلة في الإسلام، بعيدة عن مبادئه، وإلا كيف يصح أن يقدم مسلم تشبعت فيه روح الإسلام إلى هذه الأمور المخالفة للحق، والتي يتبرأ منها الإسلام، كما أن أئمة المذاهب هم أنفسهم لا يعرفون ذلك في أنفسهم. ولو استنطقنا تاريخ حياة أولئك الأئمة، لأجاب بالإنكار على ما يرتكبه المتعصبون من مخالفة الواقع، وقد ألفوا كتباً تختص بمناقبتهم، و جمعوا فيها ما لا يقبله العقل، ولا يرتضيه الذوق، من أمور لا صلة لها بالواقع. كما قد تساهلوا في نقل كل ما سمعوا، وأثبتوا كل ما وجدوا، من دون التفات إلى المؤاخذات. و يجب علينا- إن أردنا دراسة شخصية أحد من أئمة المذاهب، أو إعطاء صورة عنها- أن لا نقتصر على اقتفاء ما نقلته السنة المعجبين به. فإن العقل يشهد بوضع أكثرها، وعدم ارتباطها بالحقيقة، ولهذا كان البحث عن المذاهب أمراً شاقاً مجهداً؛ لما يكتنف الموضوع من غموض وتعقيد، ويحتاج إلى تأمل واستفراغ واسع، لإعطاء النتيجة عند الوصول إلى الغرض المطلوب. وربما يبدو للبعض سهولة البحث في الموضوع. ولكن الحقيقة غير هذا، بل هو موضوع شائك يحتاج إلى جهد وعناء. والخلاصة: إن مشكلة التعصب للمذاهب الأربعة هي أعظم مشكلة حلت في المجتمع الإسلامي، أدت إلى اختلاف في الآراء، وتشتت في الأهواء، واضطراب حبل الموادة، وتكدير صفو الأخوة. و كان من وراء ذلك خطر عظيم، وانحطاط

ص:14

1-1) الوحدة الإسلامية للسيد رشيد رضا ص 45.

2-2) الدين الخالص للسيد محمد صديق حسن ج 3 ص 263.

فظيح، وقد تنبّه المسلمون لدفع ذلك الخطر، فى اتخاذ الطرق الناجحة لإصلاح الوضع و جمع الكلمة، وقد تجاوبت أصوات المصلحين بالدعوة إلى الوحدة و لكن ذهبت صرختهم فى واد و نفختهم فى رماد!! لأن المتعصبين للمذاهب قد سيطرت عليهم عوامل العاطفة، فحالت بينهم و بين التفكير بسوء عاقبة ذلك الانقسام الذى أوجده المتعصبون، و قد مرّ المجتمع الإسلامى -على أثر ذلك- بفترات مائجة بالفتن و الفوضى و الحوادث الدامية، حتى تصدع كيان المجتمع الإسلامى، و طغى تيار التعصّب، و استفحل خطر الانقسام و تلبدت سحب الفرقة فى سماء المسلمين، و التقوا على صعيد الحقد و الخصومة، و تحلّلوا من رابطة المودة و الإخاء فكانت حوادث مؤسفة، من إراقه دماء، و نهب أموال، و حرق دور، و إعلان مسبة البعض للبعض الآخر أو تكفير فرقة لأخرى، و جعلوا الدين وسيلة للتغلب، و طريقا لنجاح الخصومة فوضعوا أحاديث، و اختلقوا مناقب و وضعوا بذلك كتباً مليئة بأوهام و خرافات تتعلّق بنصرة المذهب و إعلاء كلمته. و كان كبار الأمة و صلحاؤها يقفون موقف المناوأة و المعارضة لهذه الأوضاع، و لكن السواد تغلبت عليه دعاية العناصر المتداخلة، بمعاونة السياسة العمياء. و على تطاول الأيام و امتداد التاريخ لا نعدم من مشاهدة تلك الخلافات و لا زال دعاة الفرقة، و أعوان الاستبداد يسايرون ركب الإسلام عبر التاريخ لتحقيق أهدافهم، و لكن جولة الباطل ساعة و جولة الحق إلى قيام الساعة.





المدرسة و المذهب و الشيعة

مدرسته و طابعها:

إشارة

كانت الفترة التي عاشها الإمام الصادق عليه السلام فترة محنة تمر بها الأمة، فقد كان الحكم الأموي حكما جائرا؛ إذ ابتعدت السلطة عن أحكام الإسلام، فكانت نهاية الحكم الأموي مثل بداية قيامه؛ إذ صبغت بالدم نهايته كما كانت بدايته. وقامت دولة بني العباس، وهي تلبس لباس الدين، وترفع شعار الدعوة لمناصرة آل محمد، والانتقام من أعدائهم، وهي تحاول أن تكسب ود المسلمين. وبعد أن تكشفت سياسة بني العباس، وزال القناع عن وجه حكمهم، اعتبر الناس عهدهم امتدادا لحكم بني أمية الجائر. فأصبح المسلمون في معترك عصيب. . . تحركت في جوانحهم الثورة و تآقت نفوسهم لتحقيق الإصلاح، وكان البيت العلوي هو محط آمال الأمة، فساندهم رجال الدين، وانضوى بعض الفقهاء تحت رايتهم. وفي ذلك المعترك الرهيب برزت شخصية الإمام الصادق وهو يحمل للأمة مبادئ الإسلام، وينشر تعاليمه، ويرفع صوت الإنكار على الظلم، ويدعو للإصلاح بكل جهد، وشارك الأمة في محنتها إذا امتزجت مشاعره بمشاعر الأفراد، وتوجهت إليه الأنظار، وانضم إليه رجال الفكر و دعاة الإصلاح؛ لأنه عليه السلام يعرف كيف يبدأ الدعوة، وكيف يداوى النفوس من الأمراض الاجتماعية، فكانت دعوته سلمية، تهدف لتنوير الرأي العام، والحض على التمسك بأحكام القرآن، وقد توسعت آفاق دعوته، كما انتشر دعائه من تلامذته في كل مكان، فأصبحت مدرسته منهلا لرجال الأمة و مصدر العلوم الإسلام.

و كان طابع مدرسة الإمام الصادق الذي طبعت عليه، و منهجها الذي اختصت به -من بين المدارس الإسلامية- هو استقلالها الروحي، و عدم خضوعها لنظام السلطة، و لم تقسح المجال لولاة الأمر، بأن يتدخلوا في شئونها، أو تكون لهم يد في توجيهها و تطبيق نظامها، لذلك لم يتسنّ لذوى السلطة استخدامها في مصالحهم الخاصة، أو تتعاون معهم في شئون الدولة. و من المستحيل ذلك- وإن بذلوا جهدهم في تحقيقه- فهي لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين، و لا تركز إليهم، كما لا تربطها و إياهم روابط الألفة، و لم يحصل بينها و بينهم انسجام. و بهذا النهج الذي سارت عليه، و الطابع الذي اختصت به، أصبحت عرضة للخطر. فكان النزاع بينها و بين الدولة يشتد و العداء يتضخم، فلا الدولة تستطيع التنازل بمنهج المدرسة فتكسب ودها و تسعد بمعاونتها، و لا المدرسة في إمكانها أن تتنازل لإرادة الدولة، فتؤازرها و تسيّر بخدمتها و تتعاون معها، و كيف يكون ذلك؟! و هي منذ نشأتها الأولى ترتبط بالثقلين كتاب الله و عتره رسوله صلى الله عليه و آله و سلم و هما متلازمان متكاتفان لن يفترقا في أداء واجبهما لإرشاد الأمة و هدايتها. فالقرآن ينهى عن معاونة الظالمين و الركون إليهم و لا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (1).

### مواقفه من ساسة عصره:

و من الواضح أن مبدأ العدالة- و هو من أعظم مبادئ الشريعة الإسلامية- أصبح في عهد أولئك الولاة لا يعمل به. فهم جبايرة ظلمة، لا يصلحون لمركز الولاية على المسلمين، و ليس لهم كفاءة على التحلّي بصفات الخلافة، و لا قدرة لهم على تنفيذ أحكام الإسلام، فهم لا يصلحون للولاية و لا تجب طاعتهم بحال. و إنّ في مؤازرتهم و المعاونة معهم خروجاً عن أمر الله، و مخالفة لكتابه. و بذلك لا تكون ملازمة بين العترة و بين الكتاب إن داهنوا الظلمة أو ركنوا إليهم. فسياسة أهل البيت تقضى بحرمة معاونة الظالمين، و عدم الركون إليهم. و منهجهم في توجيه الأمة لا يتعدّى حدود ما أمر الله به، فهم و القرآن يسيرون جنباً إلى جنب في أداء الرسالة و مهمة التبليغ، و هم أئمة للعدل و حماة للدين، و دعاة للصالح. و قد برهنوا على أعمالهم بما كانوا يتحلّون به من مكارم الأخلاق، و جميل الصفات،

ص: 18

وشدة محافظتهم على نواميس الشرع. وقد اتضح لنا من سيرتهم ما لا حاجة إلى إطالة البحث فيه. وقد روى الحسن بن علي بن شعبة أن سائلا سأل الإمام الصادق عن وجوه المعاش، فكان من جوابه (عليه السلام): «... وأما وجه الحرام من الولاية فولاية الجائر وولاية ولاته، فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم محرم معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير». وصحّ عن الإمام الصادق أنه قال لأصحابه: «ما أحب أن أعقد لهم-أى الظلمة- عقدة أو وكيت لهم وكاء، ولا مدة بقلم. إن الظلمة وأعوان الظلمة يوم القيامة فى سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد». وكان ينهى عن المرافعة إلى حكاهم، ولا يرى لزوم ما يقضون به، لأن حكمهم غير نافذ، كما كان يشتد على العلماء الذين يسيرون فى ركاب الدولة ويأمر بالابتعاد عنهم حيث يقول: «الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتّهموهم» (1). وقد حاول المنصور أن يستميل الإمام الصادق فى عدة مرات، ولكنّها محاولة فاشلة فلم يزل يبتعد عنه، ويعلن غضبه عليه، ولا تأخذه فى الحق لومة لائم. كما أعلن مقاطعته له فكتب المنصور إليه: لو لا تغشانا كما تغشانا سائر الناس. فأجابه الإمام عليه السلام: «ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت فى نعمة فنهنك عليها، ولا تعدها نعمة فنعزيك بها فلم نغشاك؟!» فكتب إليه المنصور ثانية: تصحبنا لتصححنا. فأجابه الإمام: «من أراد الدنيا فلا ينصحك و من أراد الآخرة فلا يصحبك». وبهذا يتجلى موقف الإمام الصادق من حكام عصره، وابتعاده عنهم، وهو النهج الذى أمر أتباعه أن ينهجوه، وقد أبدى ذلك فى كثير من مواقفه وأعلن للأمة وجوب مقاطعة الظالمين وحرمة معاونتهم ليحد من نشاطهم فى هضم حقوق الناس، واستيلائهم على مقدراتهم، واستبدادهم بالأمر وجورهم فى الحكم. وكانت محاولة المنصور لجذب شخصية الإمام إليه وطلب الاتصال به لغرض

ص:19

تضييق دائرة المقاطعة التي أعلنها الإمام الصادق، والتي سار عليها كثير من الناس. وسيأتي مزيد بيان لمواقفه مع المنصور وإعلان غضبه عليه، وقد عرف المنصور بالشدة والقسوة وعدم مبالاته في إراقة الدماء و كان يقتل على الظنة والتهمة ويحاسب من يتهمه بالإنكار عليه أشد المحاسبة، ولا- يلين في شيء من ذلك، كما لا- يتورع عن ارتكاب ما حرّمه الله تعالى. والمنصور على ما فيه من الظلم وسوء المعاملة للرعية، كان يتمنى أن يكون في دولته مثل الحجاج بن يوسف، ذلك السفّاح المستهتر، فكان يقول: والله لو ددت أنى وجدت مثل الحجاج بن يوسف، حتى أستكفيه أمرى وأنزله أحد الحرمين (1). ومعنى ذلك أنه كان يتمنى أن يقضى على أهم مصدر للتشريع الإسلامى، فيضع السيف في حملة الحديد ورجال العلم الذين يحتفون بالإمام الصادق ويتفقهون عليه، ويملاً السجون من الصلحاء، و يصبغ وجه الأرض من دماء الأبرياء. وقد أشرنا إلى طرف من أعمال المنصور وسوء سيرته، وما كان يلقي الإمام الصادق منه في سبيل الدعوة إلى الله تعالى (2).

### الصراع بين المدرسة و الدولة:

و كانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام بعيدة عن التأثر بآراء الحكّام، الذين يفرضون إرادتهم على العلم والعلماء، ويحاولون أن تكون لهم السلطة الدينية إلى جانب السلطة التنفيذية، مما يؤدّي إلى الفوضى الكاملة في الحكم عند ما يستغلّون الدين، ويتخذون من رجاله وسيلة لاشتغال الناس عن مؤاخذتهم، ويدينون لهم بالطاعة الكاملة ويحل الإيمان بتقديسهم محل الإيمان بالله!! أما مدرسة الإمام الصادق عليه السلام فإن الصراع بينها وبين الدولة كان على أشده، والعداء بالغاً نهايته، الأمر الذي جعل المدرسة عرضة للخطر، ولكتّنها رغم ذلك صمدت لتلك الهجمات التي توجهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود. وقد تحملت بطش الجبارين، وعسف الظالمين، فأدت رسالتها على أكمل وجه. وكان منها النتائج الصالح، الذي يفيض على الأمة خيراً وبركة، و يطفح بالعلم والحكمة والعرفان، و خرّجت عددا وافرا من رجال العلم، و حملة الحديث. ولم تكن كل تلك المعارضات من قبل ولاة الجور

ص:20

[1-1] الطبرى ج 9 ص 298. [1]

[2-2] الإمام الصادق و المذاهب الأربعة ج 2. [2]

لتعوقها عن مواصلة كفاحها في الدعوة إلى الحق، والخير والعدل والمساواة والأخوة الإسلامية العامة، والمدنية الصحيحة والحضارة الراقية، ومحاربة أهل الأهواء والبدع والضلالات، ويتضح ذلك من تعاليم العترة الطاهرة-زعماء هذه المدرسة- وسيرتهم العادلة و شدة اهتمامهم بتوجيه الأمة نحو دينهم الذي يتكفل لهم بالسعادة، ويدعوهم إلى الأهداف الكريمة، والغايات السامية، والأغراض الشريفة، والمثل العليا، بتطبيق نظامه على جميع الطبقات.

### نواة المدرسة و تاريخ نشأتها:

إن تاريخ نشأة مدرسة الإمام الصادق عليه السلام هو أسبق من جميع المدارس الإسلامية، إذ لم يكن الإمام الصادق عليه السلام هو الواضع لحجرها الأساسى، والغارس لبذرتها الأولى، بل كان الواضع لحجرها والغارس لبذرتها هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله و سلم. فقد وضع منهاجها ونظامها، وحثّ الناس على الانتهاء إليها، إذ قرن العترة بكتاب الله العزيز بقوله صلى الله عليه وآله و سلم: «إني مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله و عترتى أهل بيتى، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا». الحديث (1) كما صرّح فى كثير من تعاليمه بلزوم اتباع أهل بيته و الأخذ عنهم و أنهم لسفينة نوح من ركبها نجا، و من تخلف عنها غرق، كما أشار النبى الأعظم إلى لزوم اتباعهم فى كثير من أحاديثه. فالمدرسة كانت نشأتها فى عهد صاحب الرسالة، و كان رئيسها الأول هو الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام و هو أفضى الأمة و أعلمهم، و هو نفس محمد صلى الله عليه وآله و سلم، و كان ملازما له فى جميع أوقاته، يأخذ عنه العلم، و يتلقى التشريع العملى، فهو صاحبه فى سفره و حضره و حربه و سلمه، يقيم أتى أقام، و يرحل أتى ارتحل. و رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم هو معلّم علىّ و متولى تربيته و نشأته، فكان عليه السلام باب علم مدينة الرسول و أمينه على سرّه. فكان له من الكفاءة و الاستعداد ما جعله مرجعا لأحكام الأمّة، و إماما هاديا. و قد عوّّل النبى عليه فى جميع شئونه لاتصافه بصفات الإمامة، و إنكار ذلك مكابرة و مغالطة، و لا حاجة بنا إلى إطالة البحث و رحم الله المتنبى إذ قال:

ص:21

---

1-1) إن هذا الحديث الشريف لجدير ببسط القول فى ما جمعه من مقاصد جليلة، و أمور يجب على كل مسلم أن يتدبّرهما، و قد ألف علماؤنا فى بيان مقاصده رسائل عديدة.

و تركت مدحى للوصى تعمدا إذ كان نورا مستطيلا كاملا

و إذا استطل الشىء قام بنفسه و صفات ضوء الشمس تذهب باطلا

ولما انتقل على عليه السلام إلى جوار ربّه تزعم الحركة العلمية و ترأس المدرسة الإمام الحسن عليه السلام سبط الرسول، و ريحانته، فكان عليه السلام محطاً لآمال الأمة، و مرجعاً لأحكامها. و لكن الظروف القاسية و الحوادث المتتالية في عهد معاوية لم تسمح للمدرسة أن تتقدم على الوجه المطلوب، و سارت بخطى ثقيلة، لأنها قابلت جور معاوية بكل ما لديها من قوة في إعلان الغضب عليه، و قد قابلها بسياسة لا تعرف الرحمة، و شدة لا تعرف الهوادة، حتى أريقت دماء بعض المنتمين إليها، و هدمت دورهم. كل ذلك في سبيل الدعوة إلى الإصلاح. و جاء دور الحسين بن علي عليه السلام و هو أعظم الأدوار و أهمّها. و معاوية قد عظمت شوكته و امتد سلطانته، و كثر بطشه و فتكه، و تلاعب بالأحكام و حرّف الكلم عن مواضعه، و أخذ يتتبع رجال الفكر و خيار الأمة، و يقتلهم تحت كل حجر و مدر. و مهّد الأمر لابنه يزيد- و هو الفاسق الذى لا يختلف اثنان على حق في إجرامه و كفره -فأصبح خليفة للمسلمين، و إماماً يتربع على عرش الخلافة الإسلامية، (و هو الفاسق المستهتر الذى أباح الخمر و الزنا و حط بكرامة الخلافة إلى مجالسة الغانيات، و عقد حلقات الشرب في مجلس الحكم، و ألبس الكلاب و القروذ جلاجل من ذهب، و منات من المسلمين صرعى الجوع و الحرمان) (1). و أصبحت الأمة الإسلامية في حالة سيئة، لم يسهل احتمالها على نفوسهم. فعمّ التأثير جميع البلاد، حتى لم يجد الحسين عليه السلام طريقاً للسكوت. فنهض منتصراً للحق، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، حتى أريق في ذلك دمه، و استبيح حرمه، فكانت نهضته صرخة داوية ترددها الأجيال من بعده، و تلقى عليهم دروس التضحية و التفانى في سبيل إنقاذ الأمة من براثن الظلمة، و كانت منهجا لثورات إصلاحية مرّت عليها الأجيال من بعده، اقتداء به، و عملاً بدروسه القيّمة، فسلام عليه يوم ولد و يوم استشهد و يوم يبعث حيا (2).

ص: 22

1-1) الثائر الأول في الإسلام لمحمد عبد الباقي ص 79.

2-2) من وحى ذكرى الطف و مواسم إحياء الثورة الحسينية كتبنا «مع الحسين في نهضته» الذى هيأناه بإضافات و تنقيحات لطبعته الثانية إن شاء الله.

و من بعده انتقلت رئاسة المدرسة لولده زين العابدين الإمام علي بن الحسين عليه السّلام وهو أروع أهل زمانه وأتقاهم، وأعلم الأمة. وقد اشتدت الرقابة عليه من قبل الأمويين بصورة لا مجال لأحد أن يتظاهر بالانتماء لتلك المدرسة، إلا من طريق المخاطرة والمغامرة. ومع هذه الشدة وتلك الرقابة فقد كان سيرها محسوسا وكفاحها متواصلا وخرّجت عددا وافرا من علماء الأمة، الذين أصبحوا مرجعا للأحكام ومصدرا للأحاديث. وعلى عهد الإمام زين العابدين وتحت وطأة السياسة الوحشية والجور الأموي بدأت مرحلة جديدة إذ كان الإمام علي بن الحسين أمام أمرين: إما أن يبقى نفسه لمواصلة الرسالة والاضطلاع بأعباء الولاية الشرعية، وإما أن ينجزّ لِمَا تعمل من أجله أمية للقضاء على آل محمّد و قتله بعد إذ نجّاه الله بأية باهرة وحكمة بالغة والله أعلم حيث يجعل رسالته. وهكذا كان عهد ولده الإمام الباقر عليه السّلام من بعده في أول الأمر، ولكن ما أن دب الضعف في جسم الدولة الأموية، حتى بعث النشاط في مدرسة أهل البيت عليهم السّلام فقام الإمام الباقر بواجبه، ونشر معالم الإسلام وأحيا مآثر السنّة، فكانت حلقة درسه في مسجد النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ومسجد مكة «ابن ماحل» هي أعظم حلقات الدروس. ولما جاء عصر الإمام الصادق وكان أزهر العصور، اتّسع فيه نطاق الحركة العلمية ونشأت المدارس الإسلامية، وكان في كل بلد عالم يرجع إليه، وكانت مدرسة الإمام الصادق في المدينة جامعة إسلامية كبرى، تشد إليها الرحال، وترسل إليها البعثات من سائر الأقطار الإسلامية لانتهاج العلم إذ وجدوا عنده ضالّتهم المنشودة وغايتهم المطلوبة، ولم يذكر التاريخ لنا أنه سئل عن شيء فأجاب: بلا أدري، أو أن مناظرا قطعه، بل كان هو المتفوق في كل علم، والمحلّق في كل مناظرة، واشتهر عنه أنه كان يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني فإنّه لا يحدثكم أحد بمثل حديثي» (1). وكيف لا يكون كذلك؟ وهو وارث علم جدّه أمير المؤمنين عليه السّلام الذي اشتهر عنه هذا القول، ولم يستطع أحد أن يقول ذلك إلا أفحم، وعلي هو باب مدينة علم الرّسول لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

ص:23



فالإمام الصادق يروي عن أبيه الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن الحسين بن علي، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام. وهذا الإسناد هو المعروف بالسلسلة الذهبية. وهو أصح الأسانيد وأقواها (1).

## صمود مذهب أمم الحكام:

### إشارة

ومهما يكن من أمر، فإن ما يبدو لنا بوضوح: أن ذلك الانفصال وعدم التأثير بآراء الحكام هو الذي أوجد تلك المرونة في المذهب الجعفري، لأنه يستقى من ينبوع لم يكدر صفوه التعليم الاستعماري بما فرضه على العلم والعلماء، ولما كان غلق باب الاجتهاد هو من مقترحات الدولة وتشريع السياسة، فلم يلتزم المذهب الجعفري به، ولم يخضع لذلك النظام الجائر الذي يفضي مؤداه إلى الجمود الفكري وتحجير العقل، ورد نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة (2). ومن الواضح أن عدم الالتزام بما تفرضه الدولة، هو خروج عن الطاعة وعمل يستوجب العقاب والمقاومة. وقد عرف معتنقو مذهب أهل البيت عليهم السلام بأنهم لا يرون لزوم طاعة أولئك الحكام الذين تربعوا على عرش الخلافة بدون حق، فلم يؤازروهم، ولم يتعاونوا معهم اقتداء بأئمتهم واتباعاً لأوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مقاطعة الظلمة، وحرمة المعاونة لهم، لأن ليس في نظام الملوك الذي أوجده الأمويون والعباسيون قواعد الخلافة ومبادئ الحكم الإسلامي إلا ما اقتضته مصالحهم الشخصية، وهو نظام زمني يقوم على المظاهر والأشخاص، وليس نظاماً دينياً يقوم على الإيمان والعقيدة. كانت الطبقة الحاكمة تعد من لا يؤازرها ويتعاون معها خصماً يجب القضاء عليه، لأن عدم التعاون مع الدولة هو عدم الاعتراف بأهليتها للحكم، وانتقاد لسياستها وسيرة رجالها. لذلك اتجهت قوة الدولة لمعارضة مذهب أهل البيت عليهم السلام واتهام منتحليه بسوء العقيدة، والخروج عن الإسلام، فسلكوا في تحقيق ذلك تلك الطرق الخداعة،

ص: 24

1-1) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ص 55.

2-2) سيأتي الكلام حول الاجتهاد والتقليد، وقد تقدم في الجزء الأول نقل آراء بعض العلماء ورؤساء المذاهب في لزوم فتح باب الاجتهاد.

وأسندوا إلى الشيعة ما ليس من عقائدهم، وأوعزوا إلى الوعّاظ في المساجد، و القصاص في الطرقات، وإلى العلماء المرتزقة الذين يطلبون ود السلطان طلباً لمنفعة، و استدرارا لنعمة، و حيازة لصلة الملوك ليقوموا بكل ما يأمرونهم به من مخالفة الحق، باتهام الشيعة: بأنهم يكفّرون جميع الصحابة (و العياذ بالله) و أنهم لا يعملون بالقرآن. . . و ألزموهم بأن يذكروا ذلك محفوفاً بشواهد يتقبلها السذج و عوام الناس، حتى تمكنت في نفوسهم، و لهجت بها ألسنتهم، كأنها حقيقة لا تقبل أى جدل و نقاش. و بدون تفكير و تدبر انتشرت في ذلك المجتمع السائر في ركاب الدولة فكرة بغض الشيعة، و أنّي لذلك المجتمع بأن يظفر أفرادها بالتفكير الحر و تحكيم العقل، و قد فرضت السلطة عليهم تلك الافتعالات بقوة القاهرة، لا يستطيعون لها دفعا و لا يجدون. عن الإذعان لها سبيلا، و الناس مع القوة عند ضعف الإيمان، و لكن الحق لا بد أن يظهر مهما طال الزمن و ادلهمت الخطوب. و على أى حال فليس من العسير أن يقف المتتبع على بواعث تلك الافتعالات التي أوجدتها عوامل السياسة، و قوة الإرهاب، و سلطة الاستبداد، التي شوّهت الحقيقة، و غيرت مجرى الواقع، و إن الوقوف أمام ذلك التيار أمر لا يتحمّله إلا رجال الفكر و حاملو ثقل العقيدة الإسلامية. و صفوة القول أن المذهب الجعفرى قد انتشر على وجه البسيطة، و لم تقف أمامه تلك المحاولات التي بذلها رجال السلطة و أعوانهم في محوه و الوقوف أمام انتشاره، و لم تقض عليه كما قضت على بقية المذاهب التي لا يروقها انتشارها، كما لم تقف أمامه تلك المجازر و الفظائع السود التي يقوم بها خصومه. و قد أشرنا فيما سبق من أجزاء الكتاب إلى عوامل إنشاء المذاهب و اختيار رؤسائها، و لذا لزم أن ننبّه هنا إلى أن تسمية «المذهب الجعفرى» لم تكن على منوال التسميات الأخرى التي تتعلّق بإرادة السلطان، و إنما كانت هذه التسمية نتيجة لنشاط مدرسة الإمام الصادق و صورة لرعايته لطلابه و منتسبى مدرسته. فكما أشرنا سابقا أنّه عليه السّلام كان يتحرى قابلياتهم و يتولى توجيههم و رعايتهم و حثّهم على العمل و العلم فيسمعهم أرق عبارات الود و أعذب ألفاظ الاحترام، و كان يسميهم «أصحاب جعفر بن محمّد» و يسعى إلى ذبوع تميزهم في الفقه و استقلال أقوالهم، و كان عليه السّلام

يصرح بسروره إذا اشتهر أصحابه بالورع و حسن الخلق، و أن يوصف واحدهم ب (الجعفرى) و سنأتى على تفصيل ذلك. و ما دنا بصدد البحث عن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام فلا بد لنا من التنبيه على أمور ثلاثة:

### التنبيه الأول: التابعون و الإمام الصادق:

قد يبدو للبعض أن الإمام الصادق عليه السلام حضر عند أحد من التابعين، أو روى عنه، و منشأ هذا أن بعض من ترجم للإمام الصادق ذكر أنه روى عن نافع و عطاء و عروة بن الزبير و الزهرى. و هذا القول لا يثبت التبع، و هو بعيد عن الصواب، بل هى كلمات يلوكها من يرسل القول على عواهنه، و يعطى الآراء جزافا، و ينقل الأقوال بدون تثبت و تمحيص، فإننا لم نجد فى حديثه أنه أسند عن أى واحد من الناس سوى آبائه الطاهرين عليهم السلام فإذا أراد أن يسند فسلسلة حديثه هكذا: حدثنى أبى الباقر، قال: حدثنى أبى زين العابدين، قال: حدثنى أبى الحسين، قال: حدثنى أبى على بن أبى طالب، قال: حدثنى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. و هو أصح الأسانيد عند علماء الحديث كما تقدم، و هو الترياق المجرّب كما سمّاه بعض العلماء. و ربما أرسل حديثه بدون إسناد و لكنه أعطى قاعدة مشهورة بقوله: حديثى حديث أبى و حديث أبى حديث جدى و حديث أبىه حديث أبىه حديث على بن أبى طالب و حديث على حديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. كما أننا بعد البحث و التبع لم نجد فى كتب الرجال من يذكره فى عداد من حضر على هؤلاء، نعم إلاّ الخزرجى صاحب الخلاصة ذكره فى من أخذ عن عطاء، و هو كما قلنا بعيد عن الصواب، على أن بعض هؤلاء قد كان يحضر عند الإمام الباقر كمحمّد بن المنكدر، و الزهرى، فلا يتصور أن الصادق كان يحضر على أحد فى عهد أبىه الباقر، إذ لم يكن هناك نقص فيحاول إكماله على أيدى هؤلاء، و بعد وفاة أبىه، فقد استقل بالفتوى، و تزعم المدرسة، و انتشر ذكره، و أصبح هو المتفرد بالزعامة. و أمّا قولهم: أنه حضر عند عروة بن الزبير المتوفى سنة 92 هـ و سمع منه فهذا من الغرابة بمكان، لأن عروة لا تخفى حاله على الإمام الصادق عليه السلام و ما كان

يتصف به من الشذوذ، وعدم الاستقامة بتقرّبه إلى الأمويين، وهو من الوضّاع الذين اتخذهم معاوية أعوانا يستعين بهم على مهماته في وضع الأحاديث الكاذبة، والذين أطلقنا عليهم أعضاء (لجان الوضع). قال أبو جعفر الإسكافي المعتزلي: إن معاوية وضع قوما من الصحابة وقوما من التابعين، على رواية أخبار قبيحة في على عليه السّلام تقتضى الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلفوا ما أرضاه. منهم أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير (1). فمن كانت هذه حاله كيف يصح أن ينسب إلى الصادق الرواية عنه؟ وكذا الزهري فقد كان من أعوان الأمويين والمتصلين بخدمتهم والمؤازرين لهم، وكان قطب رحي أداروا به مظالمهم، وجسرا يعبرون عليه إلى بلاياهم، وسلّما إلى ضلالهم، داعيا إلى غيهم، سالكا سبيلهم، يدخلون الشك به على العلماء، ويقتادون به قلوب الجهال. كما جاء في رسالة الإمام زين العابدين عليه السّلام إليه يرشده بها لطريق الحق والصواب. وقد انقطعت صلته بالإمام زين العابدين بعد أن نهل من علمه وتعلم منه حتى جرّه الأمويون إلى قصورهم وأغروه بخدمتهم وتنفيذ أغراضهم. ومن كانت هذه صفته، فهو مسلوب العدالة، ولا يوثق بحديثه، فكيف يكون مصدرا لحديث أهل البيت؟ ولعل الذي أوقع صاحب هذا القول-وهو رواية الصادق عن الزهري-أنه اشتبهه عند ما رأى في عداد تلامذة الزهري رجلا يسمى بجعفر، فتوهم أنه الصادق كما سبق مثل هذا الاشتباه لكثير من المؤرخين، إذ نسبوا الشهرة بالزجر، والفأل، والتنجيم، لجعفر بن محمّد الصادق. ولم يفرّقوا بينه وبين جعفر بن محمّد الفلكي، المعروف بأبي معشر البلخي، فإنه كان مشهورا في الزجر، والفأل، والتنجيم، وكان عصره مقاربا لعصر الإمام الصادق، ونقل الناس أخباره في ذلك، ولا يستبعد أن أعداء جعفر بن محمّد أشاعوا ذلك، للحط من كرامته وبخس حقه من العلم، والنيل من مكانته الرفيعة، وقد ردّد هذا القول كثير من الكتّاب بدون وقوف على حقيقة الأمر. قال ابن كثير: إن الذي نسب إلى جعفر بن محمّد الصادق من علم الزجر

ص: 27

و الطرف، واختلاج الأعضاء، إنما هو منسوب إلى جعفر بن محمد بن أبي معشر الفلكي، وليس بالصّادق، وإنما يغلطون (1). قلت بل أكثرهم كان يعتمد ذلك، ولا شيء هناك إلا عوامل السياسة، ولا أذهب بك بعيدا في الاستدلال على ذلك، أو أرجع بك إلى تلك العصور التي سيطرت عوامل السياسة على عقول أبنائها، فأعمتها عن الحق، وأبعدتها عن الصواب، ولكنى أسلك بك أقرب الطرق في أقرب العصور-عصر النور أو القرن العشرين-هذا الدكتور أحمد أمين يقع في هذا الغلط، أو يتغافل عن الحقيقة! يقول في «فجر الإسلام»: في هذا العصر كان العلم-ولا سيما الديني-يدرس في المساجد، يجلس الأستاذ في المسجد، وحوله الآخذون عنه، على شكل حلقة، و تكبر الحلقة و تصغر تبعا لقدرة الأستاذ. إلى أن يقول: وكذلك كان يفعل جعفر الصادق في المدينة-أي أنه يجلس و يجلس الآخذون حوله حلقة-قالوا: و كان يشتغل بالكيمياء و الزجر و الفال (2). و لا يخفى على القارئ اللبيب سرعة انتقال الأستاذ أحمد أمين لنقل ذلك القول و إيراد ذلك الغلط، و ما يقصده في ذلك، كما لا تخفى نزعة العدائية للشيعنة، فلا يروقه أن يذكر حلقة درس رئيس مذهبهم في المسجد، و إعطاء ما يلزم لها من النقل التاريخي، إن كان مؤرخا منصفًا، ولكنه يثقل عليه ذلك. و خلاصة القول: إن الإمام الصادق لم يرو عن أحد من التابعين، و لم يحضر حلقة درس أي واحد منهم، أما في حياة أبيه، فقد كان في غنى عن ذلك، و أما من بعده فإنه أصبح المبرز في كل فن، و المرجع الأعلى في الأحكام، و كانت حلقة درسه تضم رجال العلم من رؤساء المذاهب و غيرهم، كسفيان الثوري، و شعبة بن الحجاج، و سفيان بن عيينة، و مالك بن أنس، و أبي حنيفة، و يحيى بن سعيد القطان، و أيوب السجستاني، و عبد الملك بن جريج و غيرهم. فليس من المعقول أن يكون-رئيس مدرسة تضم أمثال هؤلاء-يحضر درس من هو أقل درجة منه، بل هم أقل درجة من كثير من تلامذته. و إن أمثال هذه الأقوال إنما تقال لمجرد المبالغة في التقدير و التوثيق في حق من يريدون رفع

ص:28

1-1) البداية و النهاية ج 11 ص 51. [1]

2-2) فجر الإسلام ص 165.

مقامه، وليس بمستطاع لأى أحد أن يأتيها برواية للإمام الصادق فى سندها أحد أولئك القوم.

### التنبيه الثانى: تلامذة الإمام ومركزية الكوفة:

إذا أردنا أن نرسل نظرة إحصاء لتلامذة الإمام الصادق عليه السلام من حيث البلدان النائية التى ينتسبون إليها فسنجد الكوفيين أكثرهم عددا!! وعلى وجه التقريب: يكون عددهم قد يتجاوز الألف. وعكسها الشام فإن عدد تلامذته المنتسبين إليها لا يتجاوز العشرة!! وأسباب ذلك ربما تعود للنزعة التى يتصف بها كل من البلدين. فالكوفة كانت تناصر أهل البيت عليه السلام وتشجع لهم، والشام على عكس ذلك. وبهذا أصبحت الكوفة محل اهتمام الخلفاء الذين يجعلون من أهل البيت خصوما ويعتقدون بأنه لا يستقر أمر الخلافة ما لم يتخذوا لها التدابير للقضاء على نشاطهم العلمى والسياسى. لذلك نجد الدولة الأموية تهتم بأمر الكوفة وتحاول إخضاعها بالقوة عند ما تعين ولاية لا-رحمة فى قلوبهم، ولا-وازع دين يردعهم عن الفتك وإراقة الدماء كالحجاج، وزياد، وعبيد الله بن زياد، و خالد القسرى. وكذا العباسيون اتخذوها مركزا للخلافة، لتكون تحت مراقبة الخليفة مباشرة. . . هذا من جهة. ومن جهة أخرى: إن الكوفة كانت مركزا تجاريا وصناعيا ملحوظا فى حياة المجتمع الإسلامى فى القرن الأول الهجرى، وازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية، وهى ما سمّوها عمل الوشى والخز. وكانت هذه المصنوعات تلقى رواجاً فى الأقطار الإسلامية (1) وكانت محاطة بقوى كثيرة وفيها من غير المسلمين عدد كبير، كالنصرانية فى الحيرة وغيرها، ووفد عليها أربعة آلاف من رعايا الفرس عرفوا بحمراء الديلم (2). وقد كثرت الهجرة إلى الكوفة من ذوى العقائد المتباينة، واختلطوا بمجتمع الكوفة وكان أكثر هؤلاء يترقبون الفرص للفتك بالمسلمين، انتصارا لدياناتهم التى قضى عليها الإسلام. ثم زخرت الكوفة بالموالى، فكان لهم أثر محسوس فى تطور الحياة الاجتماعية وبهذا أصبحت الكوفة تموج بعناصر مختلفة، لا تتحد فى الرأى، ولا تتفق فى

ص:29

1-1) الأغانى ج 2 ص 173.

2-2) البلاذرى فى فتوح البلدان ص 289.

الاتجاه، وهذا الاختلاط يوجد اضطراباً، وعدم الاستقامة في الأمور، وكان له أثر واضح في أخلاق أهل الكوفة، وقد لحظه حذيفة بن اليمان من قبل فيئته في خطاب له قائلاً: (يا معشر أهل الكوفة، إنكم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس، فغيرتم بذلك زمان عمر و عثمان، ثم غيرتم وفشت فيكم خلال أربع: بخل، و خبّ (1) و غدر و ضيق، لم تكن فيكم واحدة منهن، فنظرت في ذلك فإذا ذلك في مولديكم، فعلمت من أين يأتي، فإذا الخب من قبل النمط، و البخل من قبل فارس، و الغدر من قبل خراسان، و الضيق من قبل الأهواز) (2). و حين اتسع نطاق الحركة العلمية كانت الكوفة مركزاً هاماً لمختلف العلوم، وقد ظهر علم الكلام، و كثر الجدل حول العقائد، و أهمها البحث عن الأمانة. و قد ازداد نشاط ذوى العقائد الفاسدة، و الآراء الشاذة، فأظهروها على سبيل النقاش العلمى، فكانت تلك الآراء تأخذ مفعولها فى المجتمع، و يتناقلها الناس و مصدرها الكوفة، و هى شيعية فتنسب تلك المقالة إلى الشيعة. و كانت السياسة تؤيد ذلك بغضاً للشيعة و وسيلة للقضاء عليهم، و قد اتبع المؤرخون للفرق تلك الخطة، فنسبوا للشيعة فرقا كثيرة من ذوى المقالات الفاسدة بدون إنصاف أو تعقل، و ما ساقهم إلى ذلك إلا الجهل بعقائد الشيعة، أو البغض لهم اتباعاً لأسيادهم و مجاراة للظروف. و لا أطيل الحديث-و الحديث شجون- حول تلك الدعاية الكاذبة، فى نشر الآراء الشاذة، و العقائد الفاسدة، التى يبثها أعداء الإسلام ليقبّلها ضعفاء النفوس، و المصابون فى تفكيرهم، فينسبونها للشيعة و لا ربط لها بعقائد الشيعة، إلا أنّ الكوفة كانت مصدراً لها و الكوفة شيعية، و قد تعمد أولئك النفر أن يعلنوا سب الصحابة ليكون ذلك طريقاً لمؤاخذه شيعة آل محمّد، الذين تأدّبوا بأدابهم و اتّبّعوا أوامرهم، كما أن موجة الغلو قد ظهرت فى الكوفة دون غيرها من البلدان، و كان القصد من ذلك ما قلناه و هو أن أعداء آل محمّد أرادوا الوقيعة فى أتباعهم فأشاعوا الغلو فى بلد يعرف أهله بالتشيع لهم و الانتساب إليهم. و قد عالج أهل البيت تلك المشكلة الخطيرة. و عرفوا تلك الدوافع التى دعت

ص:30

1-1) الخب بفتح الخاء المعجمة: الغدر و الخداع و الغش.

2-2) حركات الشيعة المتطرفين نقلاً عن ابن مسكويه، تجارب الأمم ص 435 ليدن.

هؤلاء إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، و اتضحت لهم غايات خصومهم، الذين يريدون أن يوقعوا بهم المكروه، فأعلنوا البراءة منهم، و جاهروا في لعنهم، و أمروا شيعتهم بالابتعاد عنهم، و إليك بعض النصوص في ذلك: روى هشام بن الحكم: أنه سمع أبا عبد الله الصادق يقول: «كان المغيرة يتعمد الكذب على أبي، و يأخذ كتب أصحابه و يدس فيها الكفر و الزندقة و يسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى أصحابه، و يأمرهم أن يبثوها في الشيعة فكل ما كان في كتب أبي من الغلو فذلك مما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم». . يظهر لنا أن حركة المغيرة كانت حركة يهودية ضد الإسلام، كما أشار الإمام الصادق في قوله: «لعن الله المغيرة بن سعيد، و لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر و الشعبة، إن المغيرة كذب على أبي» إلخ (1).

### التنبيه الثالث: مدرسة الإمام و معنى التشيع:

إننا إذ نعبر عن المدرسة، فإنما المقصود بذلك هو تعاليم المذهب و انتشاره، لأن مذهب أهل البيت ينسب للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لما اشتهر به من العلم و كثرة التعاليم في تلك الفترة، و هي بين شيخوخة الدولة الأموية و طفولة الدولة العباسية، و إلا فمذهب الشيعة هو مذهب أهل البيت، و عنهم يأخذون الأحكام، لأنهم أصدق الناس في الحديث، و أشدهم محافظة على أداء رسالة التبليغ، و اتباعا لأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم إذ قرنهم بالكتاب العزيز الدال بكل صراحة على وجوب اتباع أهل البيت و التمسك بهم، فإنه نجاة من الضلالة. و هذا هو التشيع بمعناه الجلي، و لهذا أخذنا عنوان الكتاب لأن ظروف نشأة المذاهب لا تشمل المذهب الشيعي و لم يخضع لأي ظرف منها، كيف و هو في جذوره يمتد إلى زمن الرسالة، و لم يكن في وجوده أثر لمصلحة إلا مصلحة الدين أو سبب إلا سبب العقيدة. و برز اسم الإمام الصادق في تلك المرحلة التي ظهرت فيها دوافع إيجاد المذاهب فكان أولى أن يطلق اسمه على المذهب تمييزا لا- مساواة و بدواعي تلك الفترة و بإشارة من الإمام عليه السلام الذي كان يوجه أصحابه و يعين مهامهم الدينية و الاجتماعية و ما ينبغي لهم القيام به في ظل تلك

ص:31



المرحلة التي ماجت بالأفكار المختلفة و الأصول و المنابع. و جعل الإمام لكل واحد من أصحابه دورا مخصوصا في تلك المرحلة. وراح يعدّهم لتحمل المسؤوليات الدينية بأعلى درجة من التفقه و التقوى، فكان الإمام الصادق ينظر إلى أن يقال في أصحابه: «رحم الله جعفر بن محمد ما أحسن ما أدب به أصحابه». و هذا هو التشيع في إحدى مراحل المهمة. و على أى حال، فإن محور التشيع و ركيزته الأساس إطاعة صاحب الرسالة و التمسك بأهل بيته و الاقتداء بتعاليمهم و موالاتهم و نص أهل اللغة بمعناه: يقول الحافظ الأزهرى: الشيعة قوم يهونون هوى عترة النبي و يوالونهم (1). و قال في القاموس: و شيعة الرجل بالكسر أتباعه و أنصاره، و قد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليّا و أهل بيته حتى صار اسما خاصا لهم (2). و قال في التاج: إذا قيل فلان من الشيعة عرف أنّه منهم، و في مذهب الشيعة كذا أى عندهم، و أصل ذلك من المشايعة و المطاوعة (3). و قال الجوهري: شيعة الرجل أتباعه و أنصاره، يقال: شايعه و يقال ولاءه (4). و يقول ابن منظور الإفريقي: و أصل الشيعة الفرقة من الناس، و يقع على الواحد و الاثنين و الجمع و المذكر و المؤنث بلفظ واحد و معنى واحد، و قد غلب هذا الاسم على من يتولى عليّا و أهل بيته «رضوان الله عليهم أجمعين» حتى صار اسما خاصا، فإذا قيل: فلان من الشيعة عرف أنّه منهم (5). و بهذا القول نفسه قال ابن الأثير في «النهاية ج 2 ص 246» و كذا في «صبح الأعشى ج 13 ص 236» و «مجمع البحرين» في مادة شيع و غيرها من معاجم اللغة. و قال أبو حاتم الرازى: (إن أول اسم ظهر في الإسلام هو الشيعة، و كان هذا لقب أربعة من الصحابة هم: أبو ذر، و سلمان، و عمّار، و المقداد، حتى أن أوان صفين فاشتهر بين موالى على رضى الله عنه) (6).

ص: 32

- 1-1 (1) لسان العرب ج 10 ص 55. [1]
- 2-2 (2) القاموس ج 3 ص 47. [2]
- 3-3 (3) تاج العروس ج 5 ص 405. [3]
- 4-4 (4) الصحاح ج 1 ص 63. [4]
- 5-5 (5) لسان العرب ج 10 ص 55. [5]
- 6-6 (6) روضات الجنات ص 88. [6]

وقال ابن النديم: لما خالف طلحة والزبير على علي عليه السلام وأبيا إلا الطلب بدم عثمان، وقصدهما على عليه السلام ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جلّ اسمه سمي من اتبعه على ذلك الشيعة، فكان يقول: شيعي. . . ولنا الآن بصدد الإحاطة بتعريف الشيعة، أو تعيين الزمن الذي نشأت به، ولا نريد أن نطيل الكلام في نقل الاختلاف في سبق هذا الاسم أو تأخره، إذ من الثابت أن هذا الاسم كان على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. لكن ما يؤسف له أن بعض ذوى الفهم المعكوس قد حملوا اسم الشيعة على غير معناه، وشرقوا في ذلك وغربوا، وقد اضطربت أقوالهم وخرجوا عن منطوق العلم في تجاوز الحد، وارتكبوا أمورا لا تليق بمن يتزَيُّ بالعلم، إذ هي تدل على نقص في الإدراك، وخلل في التفكير! وقد ساهم المستشرقون في هذه الافتعالات ووسعوا دائرة الطعن على الشيعة، وتبعهم بعض كتّاب العصر الحاضر، بدون التفات إلى نوايا أولئك القوم الذين يحاولون تشويه تاريخ الإسلام. ومما تجدر الإشارة إليه: هو أن البعض يتعمد استعمال هذا الاسم على عمومه وحيث كان اسم التشييع يدل على الاتباع فقد أطلق المؤرخون اسم الشيعة على أنصار العباسيين واتباعهم، فيقولون: شيعة المنصور أو شيعة الرشيد مثلا، ويذكرون لهم كثيرا من الحوادث. وأهم هذه الفرقة هم الشيعة الراوندية وهم شيعة المنصور الدوانيقي الذين غلوا في حبّه، بل عبدوه من دون الله. ولا بد من الانتباه إلى ما في بعض نصوص المصادر من ذكر تسمية «الشيعة» وملاحظة السياق وطبيعة الأحداث، فقد جرى بعض المؤرخين على هذا الإطلاق وهم يعنون به أنصار العباسيين ورجالهم أو حتى ملوكهم. ومن الغريب أن بعض كتّاب العصر الحاضر عند ما ذكر فرق الشيعة وبيّن عقائدهم التي خبط فيها خبط عشواء جعل الراوندية من شيعة آل محمّد وهذا نص قوله: الراوندية فرقة من غلاة الشيعة ناهضت العلويين في أيام العباسيين، وذهبت إلى أن أحق الناس بالإمامة هو (العباس بن عبد المطلب) لأنه عمّ النبي، ثم يأتي من بعد العباس أبناؤه، إلى أن يقول: وقد غلت الراوندية أو فريق منهم (بل كلهم) فعبدوا أبا

جعفر المنصور و طاروا قائلين (أنت أنت) أى أنت الله (1). ولا ندري كيف يتفق هذا مع عقائد الإمامية (سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم) . و ليس من الصعب الوقوف على كثير من شذوذ الكتاب الذين دونوا أسماء الفرق و ألحقوا بفرق الشيعة من ليس منهم عند ما نعرف عقائد الشيعة الإمامية و لكن الأغراض و الأهواء قد انحرفت بكثير ممن كتب عن الشيعة. و قد ساعد على ذلك خوض بعض الكتاب المعاصرين فى بحوث تقصر همهم عن الإيفاء بشروطها، و تعجز قدراتهم عن الإحاطة بظروفها، و لكن بعضها قد بحث بما فيه بيان الحق و ليس فيه ما يسبب لمن لم يتزود بالاطلاع الكافى ارتباكاً أو خطأً، فإن قضية استغلال العباسيين لمشاعر النعمة الكبرى التى اعتملت بها النفوس تجاوباً و تعاطفاً مع أهل البيت الأطهار هى من الحقائق التى لم يختلف عليها، و أن العباسيين ركبوا تلك الموجة و أخفوا ما بأنفسهم مستغلين شمولهم بالتسمية، و لكنهم لم يجسروا على الإعلان عن نواياهم حتى مر عهد ملكهم الأول السفاح، و جاء المنصور فبدأت جولة الحرب الجديدة و نزع القناع الأسود عن وجهه. و مسألة شمول العباسيين بآل البيت قيد إطلاقها بالمعارضة الشديدة و الإنكار الواضح من قبل الشيعة، لأن إطلاقها بالشكل الذى استخدمه العباسيون قد جرّ الأمة إلى بلوى جديدة حملت أناساً ظلمة جدد إلى مواقع الحكم و السلطان، و أصبح الأمر واضحاً بتطورات الأحداث و مجريات السياسة، فكيف نفعل مع خدمة الحكام الذين صرّعهم شيطان التعصب فى تلك الظروف المظلمة، و راحوا يوسعون فى دلالة التسمية مكابرة و عناداً؟ و إنما تركوا لمن أتى من المعاصرين مادة تساعدهم على القول بدون تثبت.

ص:34

### المؤلفون و الشيعة:

رأينا أن أكثر من كتب حول الشيعة. قد استندوا لأقوال أفوام عاشوا في عصور احتدام النزاعات، و اشتداد عواصف الطائفية، و إيقاد نار البغضاء بين طوائف المسلمين: من حنفية و شافعية و حنبلية و أشعرية و معتزلة. . . مما أدى إلى ارتباك جبل الأمن، و حل عرى المودة، و هدم صروح الوحدة. تلك أمور كانت تتأججها و خيمة يتألم لها قلب كل مسلم، لما أصاب المسلمين من الانحطاط و التأخر. و انتهى ذلك النزاع إلى حالة مؤسفة، عند ما تحوّل إلى عقيدة و مبادئ، و استمد كل قوته من أمور و همية لا مساس لها بالدين، فهم في جانب، و هو في جانب آخر إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ و الإسلام يدعو إلى كلمة التوحيد، و توحيد الكلمة، و بثّ روح الأخوة، لتتم سعادة البشر في اتّباع أوامره و الوقوف عند زواجره. نعم إنهم كتبوا عن الشيعة بدون تثبّت، و استندوا لأقوال قوم دعاهم حب الشغب و خدمة السلطة إلى اختراع تلك الاتهامات. و قد تقول أكثر المقلّدين لهم، و الناقلين عنهم، فزادوا في الطين بلة. و لقد ساروا تحت ظلام الأوهام، و لا يعرفون إلاّ ما قيل، و لا يقولون أى شىء، تقليدا للسلف و خضوعا للعاطفة. و كنا نأمل من جيلنا الحاضر و أبناء عصر النور، أن لا تميل بهم نزعة الهوى، و لا تخفف العاطفة و زنهم، و لا يلجئوننا إلى نشر تلك الفضائح، و إخراج تلك الدفائن، و نحن بأمس الحاجة إلى اتجاه واحد، و اتحاد كامل، لإيجاد قوة إسلامية

متكاتفه، تقف أمام تيار الإلحاد الجارف، ورد هجمات خصوم الإسلام، و الوقوف أمام عدوانهم الغاشم، و تحرير الأمة الإسلامية من قيود الاستعباد، و رفع كابوس الاستعمار، برفع لواء كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» و أناشيدنا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات:10] وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا [آل عمران:103]. و قد يكون في هذا الكلام صدمة لمن لا يرتضى التفاهم بين المسلمين لإزالة سوء التفاهم، لأننا وجدناهم لا يعيشون إلا في ظلمة الفتن و من وراء حجب التمويه و الأكاذيب، فهم مع الباطل فلا يروق لهم إظهار كلمة الحق لثقلها على بعض النفوس!! لكننا نرى أنه من الخير استمرارنا بهذه الصراحة، لأننا نفضل مواجهة الحقيقة بأقصى ما يمكننا من ذلك، لإظهار الحق و اتباعه، و الحق أحق أن يتبع.

### مع أحمد أمين في كتبه:

إذا فليس من الحق قول أحمد أمين: (و الحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، و من كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية، و نصرانية، و زردشتية، و هندية، و من كان يريد استقلال بلاده، و الخروج على مملكته. إلى أن يقول: فاليهودية ظهرت في التشيع في القول بالرجعة و قال الشيعة إن النار محرمة على الشيعة إلا قليلا، كما قال اليهود لن تمسنا النار إلا أياما معدودات. . (إلخ) (1). نعم ليس من الحق أن يتقول على الشيعة بهذا، أو يقلد ما كتبه المستشرقون و هم الذين دعاهم حب الشغب لإثارة الطائفية بين المسلمين. و في الواقع أن الرجل اتبع آراء الغربيين، الذين يكتبون عن الإسلام بداعي الحقد و الوقية في أهله و هو في هذا المورد- بالأخص- قد اتبع المستشرق (ولهوسن) حيث يقول: إن العقيدة الشيعية نبتت من اليهودية أكثر مما نبتت من الفارسية. و اتبع أيضا قول المستشرق (دوزي): إن العقيدة الشيعية أساسها فارسي، فالعرب تدين بالحرية، و الفرس يدينون بالملك و بالوراثة في البيت المالک، و لا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة، و قد مات محمد و لم يترك ولدا، فأولى الناس بعده على بن أبي طالب فمن أخذ الخلافة منه-كأبي بكر و عمر و عثمان و الأمويين- فقد اغتصبها من مستحقها. و قد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى

ص:36

الملك نظرة فيها معنى إلهي. فنظروا النظر نفسه إلى علي وذريته وقالوا: إن طاعة الإمام أول واجب، وإن إطاعته إطاعة الله (1). وهذا هو مضمون عبارة أحمد أمين بتصريف وزيادة. ونحن الآن لا نريد أن نتعرض لجميع ما كتبه أحمد أمين عن الشيعة وأئمتهم من سادات أهل البيت وسلالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. نعم لا نريد أن نذكر جميع أقواله وتقولاته، ولا نقف طويلا في رده، ولكن شيئا واحدا نريد أن نقوله هو: إن أحمد أمين كاتب له شهرة فائقة، وآثار كثيرة. ولكن مما يؤسف له أن الرجل لم يكن واقعيًا، بل كان ينقاد للعواطف بسرعة، ويخضع للنزعات ويستسلم للشكوك التي تموج في صدره. فهو يجهل نفسه أمام الواقع ويفقد الجرأة الأدبية عند ما تتجلى الحقيقة أمامه. ويتضح ذلك من مؤلفاته ومقالاته! إن أحمد أمين أديب كاتب، ولكن لم تكن له خبرة في علم الرجال، ولا إمام بعلم الحديث. وله أخطاء في التاريخ، فكان اللازم عليه أن يتجنب الخوض في أمور ليست من اختصاصه، ليدفع بذلك نقصا جرّه إلى نفسه، و عيبا لصقه بها. وهو فيما يذهب إليه-في كثير من الآراء- يبرهن على نقص في إدراكه ودراسته، فيستسلم إلى آراء المستشرقين الذين انطوى اهتمامهم بالمواضيع الإسلامية على أهداف قذرة أملاها عليهم الاستعمار. وبمزيد الأسف أن «أمين» وعد أن يكون أمينًا ويتدارك ما أخطأ فيه ولكنه لم يفعل؟!!

### أخطاء القصيمي:

ولا نريد أن نتعرض للقصيمي (2) في صرعه، فهو مصروع لشدة داء (الهستيريا) ومدفوع بحركة لا شعورية، فلا حاجة إلى التعرض له ولأمثاله، ممن ابتلى بداء الشغب، وحب التفرقة بين المسلمين، خدمة للاستعمار واستدراار لصلته، و طلبا لنائله، نعم لا نريد أن نتعرض لخرافات و سفاستفه، وأخطائه وأكاذيبه، فقلما يترفع عن مناقشته من أوقف نفسه لخدمة أعداء الإسلام. ولكننا نود أن ننبّه لشيء واحد من أخطائه وأكاذيبه وهو قوله في ج 2 ص 38:

ص: 37

1-1) فجر الإسلام ص 277.

2-2) هو الشيخ عبد الله القصيمي، ومؤلف كتاب «الصراع بين الوثنية والإسلام» .

استفتى أحد الشيعة إماما من أئمتهم و لا أدري أ هو الصادق أم غيره؟ فى مسألة من المسائل فأفتاه فيها، ثم جاء من قابل و استفتاه فى المسألة نفسها فأفتاه بخلاف ما أفتاه عام أول، و لم يكن بينهما أحد حينما أفتاه بالمرتين، فشك ذلك المستفتى فى إمامته و خرج من مذهب الشيعة و قال: إن كان الإمام إنما أفتانى تقية فليس معنا من يتقى فى المرّتين، و قد كنت مخلصا لهم عاملا فيما يقولون؛ و إن كان مأتى هذا هو الغلط و النسيان فالأئمة ليسوا معصومين إذن. و الشيعة تدعى لهم العصمة، ففارقهم و انحاز إلى غير مذهبهم. و هذه الرواية مذكورة فى كتب القوم. لا أريد أن أسائل القصيمي عن الكتب التى ذكرت فيها هذه الحادثة. و لا ألزمه بأن يبيّن لنا اسم الرجل السائل أو الإمام المسئول، فالقصيمي جوابه-كثله-كذب و افتعال بيّن. فإذا كذب فى النقل يكذب فى الجواب. و دائرة الكذب غير محدودة، تمتد إلى حيث لا نهاية. و إنى قد أقيت القصيمي و كتابه فى (سلة المهملات) (1) فلا أحب التعرّض لهفواته، إلاّ بهذه فقط لأنه أراد أن ينال من كرامة الإمام الصادق عليه السّلام بإسناد هذه الحكاية له على وجه التردد، و قد اشتبه عليه الأمر فى ذلك. أو هو يتعمد ارتكاب الخطأ. و إن هذه القضية نقلها على غير وجهها فإتّها لم تكن فى كتب الشيعة و لم يكن المسئول هو الإمام الصادق، بل غيره من أئمة المذاهب و إليك نصّها: جاء رجل من أهل المشرق إلى أبى حنيفة بكتاب منه بمكة عام أول. فعرضه عليه مما كان يسأل (و فى نسخة سئل عنه) فرجع أبو حنيفة عن ذلك كله. فوضع الرجل التراب على رأسه ثم قال: يا معشر الناس أتيت هذا الرجل عاما أولا فأفتانى بهذا الكتاب، فأهرقت به الدماء، و أنكحت به الفروج، فرجع عنه هذا العام. قال ابن قتيبة: حدّثنى سهل بن محمّد: قال حدّثنا المختار بن عمر: إن الرجل قال له-أى لأبى حنيفة-: كيف هذا؟ قال: رأيا رأيته فرأيت العام غيره. قال: فتؤمننى أن لا ترى من قابل شيئا آخر. قال أبو حنيفة: لا أدري كيف يكون ذلك. فقال له الرجل: لكننى أدري أن عليك لعنة الله. انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص 62-63 المطبوع بمطبعة كردستان بمصر، الطبعة الأولى سنة 1326 هـ.

ص:38

---

1-1) هو عنوان موضوع يأتي فى هذا الكتاب إن شاء الله.

هذه هي الحكاية التي أخطأ القصيمي في نسبتها للإمام الصادق أو غيره من الأئمة مع تصرّف فيها منه. ولا أستبعد أن الرجل لا يفرق بين أن يكون أبو حنيفة إماماً للحنفية أو للشيعة، لأن كتابه لم يتركز على قواعد علمية، ولا على نقل صحيح. بل هو هوس وتهريج، وتقول بالباطل. فلا نود مناقشة رجل يحور الوقائع، ويغيّر النص، ويتعمّد الكذب، ولا عتب عليه فهو إنسان أفلت من عقال التعقل، وخرج على الموازين، وحارب الإسلام بدافع الطمع بما في أيدي أعدائه من صهيينة وملاحدة، لهذا نعرض عن الاستمرار في بيان أباطيله وأضاليه، وها نحن نلقيه في سلة المهملات.

### مع ابن عبد ربّه:

و من الخطأ الإصغاء لأخطاء ابن عبد ربّه-فيما ينقله في ذم الشيعة-من الأمور التي يتبيّن لدى العين الباصرة أنّها باطلة، أملاها التعصب والتشاحن المذهبي. وهي من وضع أقوام تقرّبوا للدولة، بوضع خرافات لمسوا رغبتهم في نشرها، ولم يلتفتوا إلى أي مؤاخذة أو نقص. وخذ مثلاً لذلك ما نقله عن مالك بن معاوية (1) أنه قال لى الشعبي-و ذكرنا الرفضة-: يا مالك إني درست الأهواء كلّها فلم أرقوما أحقق من الرفضة ثم قال: أحذرك الأهواء المضلّة شرها الرفضة، فإنّها يهود هذه الأمة، يبغضون الإسلام، كما يبغض اليهود النصرانية ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتاً بأهل الإسلام، وبغيا عليهم. إلى أن يقول: قالت اليهود لا يكون الملك إلّا في آل داود و قالت الرفضة: لا يكون الملك إلّا في آل علي بن أبي طالب، واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرفضة، و اليهود لا ترى الطلاق شيئاً، وكذلك الرفضة. إلى أن قال: واليهود تستحل دم كل مسلم وكذلك الرفضة، إلى آخر ما نقله من هذه الأسطورة، وما فيها من الأمور التي تضحك الثكلى. كما أن مثل هذا لا يصدر عن رجل مثل الشعبي (2) المعروف بالعلم في جهل أمثال هذه الأمور، و يصدر عنه ما يكذبه الواقع قبل الوجدان. صحيح أننا لا نتوقع من الشعبي الدفاع عن الشيعة بعد تحولاته و انقلاباته في المواقف والآراء، و بعد

ص:39

1-1) العقد الفريد ج 1 ص 259. [1]

2-2) هو عامر بن شراحيل، ولد في خلافة عمر بن الخطاب، و توفي سنة 103 هـ. روى عن علي و ابن مسعود و عمر و لم يسمع منهم، و عن أبي هريرة و عائشة، و هو من رجال الصحاح الستة.



أن استقرت سيرته على مسالمة الحكام و مسايرة مؤسساتهم فى الموقف من الشيعة، إلا أنا نستبعد أن يكون الشعبى واحدا من علماء السوء الذين اصطنعتهم الدولة، وقد يصدر من الشعبى ما يناقض سيرته الماجنة و ما يخالف به الشيعة لكن ليس إلى هذا الحد من الافتراء و السقوط. هذا من جهة. و من جهة أخرى: إن وفاة الشعبى كانت سنة 102 هـ و ظهور اسم الرافضة سنة 121 هـ-122 هـ كما يقولون. و قبل هذا التاريخ لم يعرف أحد هذا الاسم وقالوا: إن زيد بن على سمّاهم بذلك، عند ما خرج بالكوفة سنة 121 هـ و لم يذهب أحد إلى سبق هذا الاسم و اشتهاره قبل هذا التاريخ، مع أن الناقل و هو مالك بن معاوية لم يعرف و ليس له ذكر فى كتب الرجال قط، و لكن هذا من اختراع ابن عبد ربه، أو لُقنه بها بعض القصاصين، الذين استخدمتهم السلطة لمحاربة مذهب أهل البيت و لا أستبعد أن هذه التسمية و نسبتها لزيد من اختراعات الأصمعى و مجونه، فهو راوى قصة الشيعة مع زيد فى حربه بالكوفة (1) و قضية زيد مشهورة و ثبوت الشيعة معه فى حربه أمر لا ينكر، و لكنها حيلة سياسية استعملها الأمويون لتفرقة بعض الناس عنه إذ دسّوا أدواتهم و عبيدهم بين صفوف أصحاب زيد مستخدمين قضية الشيخين لأغراضهم السياسية- هذا على فرض صحة الخبر- فتوسّلوا إلى إنقاذ حكمهم بمثل هذه الوسيلة و القضاء على ثورة عمّ قلوب أصحابها الإيمان بالإسلام و فاضت صدور جنودها بمشاعر الولاء لآل بيت النبى المصطفى و النعمة على الظالمين المضلين. و قد قامت تهمة الرفض فى ظلال روح النصب و أفياء العداء لآل البيت النبوى الكريم، و رغم انفضاح بواعثها و تلفيقها فقد ظلت مداد الأقلام و مضامين الأسفار، لأن الظالمين أقاموا سياستهم على ذلك و أذعن الكتّاب و المحترفون و مالوا إلى هوى المتسلطين و دواعى النفع، و إلا فإن من الإسرائيليات و العقائد اليهودية التى أفساها كعب الأحبار- و هو فى عرفهم الثقة المأمون و التابعى الجليل- ما يكفى لتجريد الأقلام و صرف الأموال لتشذيب ما علق بأذهان الناس و الدعوة إلى رفض ما بثّه فيهم اليهود من تجسيم و تشبيه و خرافات و أساطير لا تليق إلا بأهلها من قتلة الأنبياء. و لتأمل فى ختام القول عن ابن عبد ربّه هذه النقطة المهمّة: و هى استسهال

ص:40

الاتهام بالتشيع والرمى بالمغالاة فى أهل البيت لا لشيء إلا لأن الحقيقة قد روعيت و الوقائع قد ذكرت لأن العدا للشييع يقضى على أتباع المتسلطين و ورثة السلف السائرين فى ركاب الظلمة ياهمال الحقائق و إغفال الوقائع. و ابن كثير يتهم ابن عبد ربّه بالشييع لأن ابن عبد ربه تكلم عن سيرة خالد بن عبد الله القسرى و التى يراها ابن كثير غير صحيحة فتحمله المغيرة على الدخول فى دينه و يجعل من التشيع لأهل البيت سبيلا لتوهين ما عرف من سيرة خالد بن عبد الله القسرى مما لم يستطع ابن كثير نفسه منه فكاكا فذكر شيئا منها مرغما. و لكن كل الجرائم تهون دون بطش خالد و جرائمه التى تتفق فى منحها مع القسوة و الغلظة التى اتصف بها النواصب و دعاة السلفية. فيدافع ابن كثير الحافظ عن خالد بما لفظه: و الذى يظهر أن هذا لا يصح عنه فإنه كان قائما فى إطفاء الضلال و البدع. . . و قد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح لأن صاحب العقد كان فيه تشيع شنيع و مغالاة فى أهل البيت، و ربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيع، و قد اغتر به شيخنا الذهبى فمدحه بالحفظ و غيره. اه. نعم ابن كثير وحده يفهم هذا التشيع الغريب و الذى رأى الاتهام به دفاعا عن القائم بإطفاء الضلال و البدع. و خالد باعتراف ابن كثير نفسه و تحريره أنه كان متهما فى دينه، و بنى لأمه كنيسة فى داره، لأن أمه كانت نصرانية و يدعى بابن النصرانية. و لبت الأمر ينتهى بهذا الحد من الفضائل، بل أن خالد جمع «الإيمان» من أطرافه و بتحرير ابن كثير أيضا لقول ابن خلكان كان فى نسبه يهود فانتموا إلى القرب و كان يقرب من شق و سطيح. و مثل هذه النماذج جديدة بأن تكون منزهة لأن لديها الاستعداد النفسى لحمل راية العنف و الشدة فيكون العدا لها صادرا من الجهة التى تقف بوجه الظلم و العنف. يطلق ابن كثير على صاحب العقد الفريد تهمة التشيع و بذلك يكشف عن واحد من الأمور التى يتعجل بها فى الحكم. و ما أكثرها فى منهجه. لقد كان ابن عبد ربه من رجال بلاط عبد الرحمن الناصر الأموى، و نظم فى سيرته ملحمة، و لما جاء فيها ذكر الخلفاء لم يذكر الإمام على، و جعل معاوية رابع الراشدين، فذكر أبا بكر و عمر و عثمان و معاوية مما حدا بعالم أندلسى هو منذر بن سعيد البلوطى للرد عليه قائلا: أو ما على - لا برحت ملعنا يا ابن الخبيثة - عندكم بإمام

وقد حملته أمويته على عدم ذكر اسم الإمام الكاظم عليه السلام وهو يورد رسالته عليه السلام إلى هارون الرشيد وقد بعثها إليه من السجن والتي جاءت في أغلب المصادر وأمهات كتب التراجم والتي يخاطب فيها الرشيد: «إنه لن ينقضى عنى يوم من البلاء إلا انقضى عنك يوم من الرخاء حتى تقضى جميعا إلى يوم ليس له انقضاء ويخسر فيه المبطلون». فيذكرها في العقد الفريد: أن الرشيد حبس رجلا فلما طال حبسه كتب إليه. ويذكر المعنى و بلفظ آخر وهو مما ينفرد به. وليت الأمر يقف عند هذا الحد، ولكنهم توسعوا في الكذب، حتى استخدموا السنة الشياطين. وإليك مثلا من ذلك:

### أحلام ابن العماد:

نقل أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى (2) عن الأعمش-بلا سند-أنه قال: خرجت في ليلة مقمرة أريد المسجد، فإذا أنا بشيء عارضنى، فاقشعر منه جسدى، وقلت أمن الجن أم من الإنس؟ فقال: من الجن. فقلت: أم مؤمن أم كافر؟ فقال: بل مؤمن. فقلت: هل فيكم من هذه الأهواء والبدع شىء؟ قال: نعم. ثم قال: وقع بينى وبين عفريت من الجن اختلاف فى أبى بكر وعمر، فقال العفريت: أنهما ظلما عليا واعتديا عليه. فقلت: بمن ترضى حكما؟ فقال: بإبليس. فأتيناه فقصصنا عليه القصة فضحك، ثم قال: هؤلاء من شيعتى وأنصارى، و أهل مودتى. ثم قال: ألا أحدثك بحديث؟ قلنا: بلى. قال: أعلمكم أنى عبدت الله تعالى فى السماء الدنيا ألف عام فسميت فيها العابد، و عبدت الله فى الثانية ألف عام فسميت فيها الزاهد، و عبدت الله فى الثالثة ألف عام فسميت فيها الراغب، ثم رفعت إلى الرابعة، فرأيت فيها سبعين ألف صف من الملائكة يستغفرون لمحبى أبى بكر وعمر، ثم رفعت إلى الخامسة فرأيت فيها سبعين ألف ملك يلعنون مبغضى أبى بكر وعمر. انتهى. هذه هى أسطورة ابن العماد ينقلها للطعن فى الشيعة وإظهار فضل أبى بكر وعمر، تقدّمها ليتضح للقارئ مدى الشوط الذى لعبه الجهل فى عقول الناس، حتى

ص: 42

1-1) رب: بمعنى رابع و اختصرت للضرورة الشعرية.

2-2) شذرات الذهب ج 1 ص 25. [1]

استخدموا الشياطين في أكاذيبهم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد (1) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (2).

## أسطورة ابن سبأ:

ومن الأساطير التي أخذت مفعولها في المجتمع، وتأثر بها أهله تأثراً جعلهم يرسلونها إرسال المسلمات، هي أسطورة عبد الله بن سبأ. تلك الشخصية الموهومة التي لا وجود لها في التاريخ، وإنما هي أحاديث خرافة وضعها القصاصون وأرباب السمر والمجون. في أواسط الدولتين الأموية والعباسية إذ بلغ الترف والنعيم أقصاه، وكلما اتسع العيش وتوفرت دواعي اللهو اتسع المجال للوضع، وراجت سوق الخيال، ونسج القصص والأمثال، كى تأنس بها ربّات الحجال. والترف والنعمة (3). ولقد اندفع أعداء الشيعة في القرون المتوسطة إلى جعل أسطورة عبد الله بن سبأ ذات شأن في تاريخ الإسلام، وأسندوا إليه أموراً يابها البحث المبرأ من الهوى، ويرفضها العقل السليم، فقد اخترعوا له أفعالا ومواقف، وأسندوا إليه قصصا وقائع، وأبسوه أبراد العظيمة، وادعوا له الشجاعة والبسالة؛ فهو الذي أثار حرب الجمل، وهياً جيش مصر لحرب عثمان، وأقام في الكوفة يثير الفتنة على عثمان وعمّاله، ويسير في أنحاء الأقطار الإسلامية بسرعة البرق ليوقد الفتنة، ويعود للمدينة فيؤلب الناس على عثمان، وتأثر به كثير من كبار الصحابة. إلى آخر ما هنالك من الأمور العجيبة التي حقت بها شخصية عبد الله بن سبأ! وقد نص كثير من القدماء المحققين على نفي وجود شخصية عبد الله بن سبأ، وأنها أسطورة وضعها أعداء الشيعة (4). . . وكذلك ذهب جماعة من المتأخرين إلى نفيها (5) وللمستشرقين آراء كثيرة في ذلك: يقول برناردو لويس: (ونسب كثير من

ص: 43

1-1 (1) سورة الحج آية 5. [1]

2-2 (2) سورة المؤمنون آية 97. [2]

3-3 (3) أصل الشيعة وأصولها ص 84. [3]

4-4 (4) عبد الله بن سبأ للأستاذ السيد مرتضى العسكري فهو خير كتاب في هذا الموضوع، فقد تتبع فيه أصل وضع هذه الأسطورة.

5-5 (5) الفتنة الكبرى لطلحة حسين ج 1 ص. وخطط الشام لمحمد كرد علي ج 6 ص 251-256. [4]

المؤرخين المسلمين بدهاء التشيع الثوري إلى رجل اسمه عبد الله بن سبأ وهو يهودى يمانى، عاصر علياً، و كان يدعو إلى تأليهه، فأمر على بحرقه لما دعا إليه، و من هنا قيل إن أصل التشيع مأخوذ من اليهودية. و لكن البحث الحديث قد أظهر أن هذا استباق للحوادث و أنه صورة مثل بها الماضى و تخيلها الرواة فى القرن الثانى الهجرى من أحوالهم و أفكارهم السائدة). فهو يذهب بهذا إلى أن فكرة عبد الله بن سبأ من تخيل الرواة نظراً للأفكار السائدة، و الأحوال التى كانوا عليها فى انتحال القصص و الخرافات (1) و أظهر فلهاوزن، و فريد لندر بعد دراسة نقدية: أن المؤامرات و الدعوة المنسوبة إلى عبد الله بن سبأ من اختلاق المؤرخين. و قال كائتانى: (إن مؤامرة مثل هذه بهذا التفكير و هذا التنظيم، لا يمكن أن يتصورها العالم العربى عام 35 هـ بنظامه القبلى القائم على سلطان الأبوة، و أنها تعكس العصر العباسى الأول بجلاء). و الغرض أن أمثال هذه الأساطير و اختراع تلك الخرافات لا تخفى على من أعطاهها نظرة صادقة، و وقف وقفة متريث يريد أن يعرف الواقع، و يصل إلى معرفة البواعث التى أدت إلى وضعها من قبل سلف مخدوع يسير وراء توجيهات الدولة. و قد تبعهم كثير من أبناء الجيل الحاضر و ضربوا على و ترهم لتصبح تلك الأمور الخرافية قواعد ثابتة الأصول و ما هى فى عرف الحق إلا: وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ أُجْتَسَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَقَعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (2) و سيأتى فى الجزء السادس من هذا الكتاب بحث مستفيض عن هذه الأسطورة. و صفوة القول أن الاتهامات التى وجهت للشيعة، إنما تعود لأسباب سياسية، قد اتخذها الحكام وسيلة للقضاء عليهم، و محو مذهبهم الذى أصبح عبئاً ثقيلاً على كاهل الدولة، و شبحاً مخفياً يقض مضاجعهم، لأنه يتصل بأهل البيت، و هم أعداء للباطل و حرب على الظالمين. و قد اتضح إعلانهم الانفصال عن دولة لا تحترم الحقوق، و تسير بالأمة على

ص:44

1-1) أصول الإسماعيلية ص 86-87.

2-2) سورة إبراهيم 26-27. [1]

غير هدى، حتى عرف المنتمون لهم بذلك أتباعا لهم واقتداء بهم. فكانت من أبرز معالم سيرة أئمة أهل البيت وأهم خصائص مسيرة شيعتهم، تعاهدها الأئمة الأطهار بالرعاية لكي يعلم الحكام أن أمر العقيدة أبعد من مرامهم وأكبر من سياستهم. قال الأنباري: كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام أربع عشرة (مرة) أستأذنه في عمل السلطان، فلما كان آخر كتاب كتبه: «إني أخاف على خيط عنقي وأن السلطان يقول: إنك رافضي، ولسنا نشك في أنك تركت العمل للسلطان للترفض. فكتب إلي أبو الحسن: «إني قد فهمت كتبك، وما ذكرت من الخوف على نفسك، فإن كنت تعلم أنك إذا وليت عملت في عملك بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» إلى آخر الكتاب (1). فيظهر جليا أن عدم معاونة الدولة والعمل لها آنذاك، يوقع الإنسان بتهمة التشيع، الذي هو من أعظم الذنوب في ذلك العصر؛ لأنهم-أى الشيعة-معارضون لذلك النظام! وناهيك بما يلقي المعارضون لحكام الجور من مقاومة و تنكيل. فإذا رأينا في بعض مراحل حكم بني العباس من عرف بالتشيع والولاء لأهل البيت وهو في محل من الدولة أو في مسؤولية من الحكم ولم يخف انتماءه، فذلك أن الكثير بقي على أمل إقامة الأمر على ما كانت عليه الثورة ضد حكم الأمويين، كما أن كثرة شيعة أهل البيت الساحقة، و تزايد أعداد العلماء منهم و ذوى الكفاءة في الشؤون المختلفة جعل من التخلص منهم أمرا عسيرا. و الذين كانوا في الولاية و العمل لأهل الجور منهم لا يفتأون يتصلون بالأئمة عليه السلام فيرشدهم إلى سبل خدمة الرعية و طرق تجنب ظلم الناس كما كان عليه النجاشي مع الإمام الصادق، و الأنباري الذي تقدم ذكره مع الإمام الرضا عليه السلام. فانتشار مذهب أهل البيت يعتبر في الواقع اتساعا للمعارضة، لذلك اجتهد حكام الجور في معارضته و التنكيل بأهله، و لكنه استطاع أن يصمد لتلك الأعاصير الجائحة، و يتخطى تلك العقبات الهائلة، فانتشر على وجه البسيطة، فكان عدد المنتمين إليه مائة مليون أو يزيدون. و جدير بمن يريد دراسة المذهب الجعفري أن يزن أقوال بعض علماء الرجال الذين ساروا في ركاب الدولة، و نفخوا ببوقها-عند ما يترجمون لعلماء الشيعة-

ص:45

فيقولون مثلاً: فلان صدوق إلا أنه مبتدع أو أنه سيئ المذهب، أو زائع عن الحق. كما قال الذهبي في ترجمة أبان بن تغلب: إنه صدوق إلا أنه مبتدع، فلنا صدقه وعليه بدعته. إلى آخر ما هنالك من أقوال بعيدة عن الصواب. وإذا أردنا أن نسانلهم عن بدعتهم فلا شيء هناك إلا مخالفة ما شرعته السياسة لا ما شرعه الإسلام؟! وقد رأيت قبل قليل كيف جعلت الأهواء من خالد بن عبد الله القسري المتهم في دينه قائماً بإطفاء البدع، و ابن عبد ربّه السني متشيعاً و مغالياً. نقول هذا ونحن نأسف للأسف الشديد على ذوى التفكير من أبناء العصر أن يعولوا على أقوال قوم جرفهم تيار التعصب، أو كان فهمهم للمذهب الجعفرى فهما عاطفياً!! لذلك نرى أكثر من كتاب عن تأريخ التشريع الإسلامى و بيان المذاهب فيه، قد أهمل ذكر جعفر بن محمد الصادق. ولئن دل إهمالهم له على شيء فإنما يدل على اعتزازهم بتلك النعرات الطائفية، و تلوث وجدانهم بالرواسب التى ورثوها من السلف المخدوع ليضعوها فى طريق وحدة المسلمين، فى الوقت الذى يكونون فيه بأمس الحاجة إلى إزالة ما خلفته تلك العصور المظلمة من عقبات تحول بينهم و بين التفاهم و الوحدة، و ما أوجههم إليها اليوم لمقابلة أعداء الإسلام الذين يكيدون له بكل ما لديهم من حول و قوة، و ما أخذناه ما هو إلا أمثلة قليلة للقضايا الكبرى التى اختلقها أعداء الشيعة و غيرها مما لا يحاط به و لا يحصى، و نحن فى هذا العصر نطالب بأن تتبع طرق التفكير السليم و المنطق الصحيح من خلال الإجابة على سبب هذا التحايل و الكره، و لما ذا يبقى المرء أسير نظرة الأنظمة المتعسفة الذين اتجهوا ضد الشيعة لأنهم يمثلون خطراً؟! . و لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم. ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمَ آزَكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [سورة البقرة:232].

## مؤهلات الإمام الصادق و مكانته:

انتشر ذكر مدرسة الإمام الصادق عليه السلام في جميع الأقطار الإسلامية، فأصبحت جامعة إسلامية كبرى تقصدها وفود الأمصار، حتى كان عدد المنتمين إليها أربعة آلاف كلهم من حملة الحديث. ولم يعرف لأحد من أئمة المذاهب من التلاميذ مثل ما عرف للإمام الصادق، مع تباعد أقطارهم. فكان تلاميذه، من: العراق، و مصر، و خراسان، و حمص، و الشام، و حضرموت و غيرها. و مما يلفت النظر أن أكثر تلاميذه كانوا من الكوفة و المدينة. لانتشار التشيع في الأولى و نشأته في الثانية. و أن هذا العدد و هو 4000 طالب في مدرسته لم يكن هائلا- كما قد يبدو للبعض - و هو قليل بالنسبة لذلك العصر من حيث اتساع نطاق الحركة العلمية و اتجاه الناس لإحياء ما درس من السنن. و لأن الإمام الصادق عليه السلام هو سيد أهل البيت في عصره و وارث علم جدّه، و كان لأهل البيت نشاط علمي؛ فلا غرابة أن اتجهت إليه الأمة الإسلامية تنتهل من ينبوع علمه، فضلا عن أنه قد اتّصف بجميع الصفات التي تؤهله لأن يتزعم الحركة العلمية في عصر نهضتها، و قد (نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، و انتشر صيته في جميع البلدان) (1) (وروى حديثه خلق لا يحصون) (2). و كانت له (نواح كثيرة يعذب فيها القول، و تفيض في شأنها المعاني

1-1) الصواعق المحرقة لابن حجر ص 120. [1]

2-2) الخلاصة للخزرجي ص 54.



والدراسات، و من أبرز ذلك: أنه عليه السلام كان - بشخصيته و علمه - موضع احترام و تقدير و حب، من أهل الإيمان و العلم في عصره، لا فرق بين الخاصة و العامة، و لا بين من يتبعونه و يعتقدون بنصيّة إمامته، و من يتبعون المذاهب الأخرى. كلهم عرفوه إماما جليلا، و عالما قويا، و صادقا إذا حدّث، و منصفا إذا فكّر، لا هدف له إلاّ الحق، و لذلك لُقّب بالصادق، و هي نفحة من نفحات جده الأعظم رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم حيث كان ملقبا بالصادق (1). و لا نستغرب قول من يعترف بعدم استطاعته لإحصاء تلامذته، و رواة حديثه، و قد نقلنا من أوثق المصادر بعضا منهم من سائر الناس، دون خواصه، و سنواصل نشر الآخرين منهم. و على أي حال فإن الناشرين لفقه الإمام جعفر بن محمد خلق كثير. و لكن فقهه الذي أراد الله تعالى أن يكون خالدا مع الزمن، و هو المتبع عند الشيعة، و المرجع في أهم الأحكام، انحصر تلقيه في جماعة اختصوا بالإمام الصادق و واصلوا دراستهم عنده، و كانوا من العدالة و الوثاقة بمنزلة تجعلهم أهلا لقبول ما يروى عنهم من فقهه، الذي ينبع فيضه من بحار آبائه، الذين هدى الله بهم الأمة، و أوجب محبتهم على الخاصة و العامة. و قد أشرنا فيما سبق إلى أن عددا من تلامذته، و هم أربعمائة قد ألفوا في فقهه و الرواية عنه أربعمائة كتابا، و هي أصول الفقه للمذهب الجعفري المعروفة بالأصول الأربعمائة. و قد جمعت هذه الكتب في الكتب الأربعة و هي: الكافي، و الاستبصار، و التهذيب، و من لا يحضره الفقيه. و كان الإمام الصادق ينظر إلى أصحابه على قدر كفايتهم الموهوبة كل على حسب استعداده و تمكّنه، فاخص بجماعة منهم، فكانوا خير معين على حل المشاكل التي تحل بالمجتمع، و التي يهتم بها الإمام الصادق أشد الاهتمام. فهم يقومون بتنفيذ الخطط التي يرسمها لهم، و تحت إشرافه يكون قيامهم بها، فهو المصدر الأول و المنتهى الأخير لتلك التعاليم التي تقوم بها النخبة الصالحة من أصحابه. و كانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الاجتماعية و السياسية، و في

ص: 48

محاربة أهل الإلحاد والزندقة، و مناظرة أهل العقائد الفاسدة، و الفرق الشاذة، و مقابلة الظلمة فى شدة الإنكار عليهم، و توجيه الانتقاد إليهم. بطرق مختلفة. و كان عليه السلام يشيد بذكر خالص أصحابه، و يظهر للناس كفايتهم. و حيث كانت ترد عليه الوفود من سائر البلاد الإسلامية للاستفادة مرة، و للمناظرة أخرى. فقد جعل لكل واحد من أصحابه وظيفة خاصة يقوم بها عند ما يعول فى الجواب عليه، إظهارا لفضله و علو منزلته. فجعل أبان ابن تغلب للفقهاء، و أمره أن يجلس فى المسجد فيفتى الناس. و وكل لحمران بن أعين الأجوبة عن مسائل علوم القرآن، و زرارة بن أعين للمناظرة فى الفقه، و مؤمن الطاق للمساجلة فى الكلام، و الطيار للمناظرة فى الاستطاعة و غيرها، و هشام بن الحكم للمناظرة فى الإمامة و العقائد. و كان منهم جماعة يتجولون فى الأمصار، و أمدهم بالأموال للتجارة. و القصد من ذلك أن يمتزجوا بالمجتمع. لتوجيه الناس و الدعوة إلى مذهب أهل البيت عليه السلام. و هكذا كان يوجه أصحابه و يجعل لكل واحد جهة، و على كل واحد أداء رسالة خاصة. و لا يسعنا- و نحن بهذه العجالة- أن ندرس حياة أولئك العظماء الذين وقفوا إلى جانب أهل البيت، و اتبعوا الحق أينما سارت ركائبه. فكانوا أعلاما يهتدى بهم، و علماء يرجع إليهم فى أهم المسائل العلمية، مع خطورة الموقف، و عظيم المراقبة من قبل السلطة، و معارضة أعوانها لهم، و قد وقفوا بصلابة الإيمان، و نفاذ البصيرة، يتحدون كل مقابلة، و اجتازوا كل الصعاب التى تعترضهم؛ ليصلوا إلى الهدف الذى عاهدوا الله على الوصول إليه، و إن دراسة حياتهم دراسة مستفيضة أمر ليس بالهين إدراكه و لهذا فقد اكتفينا بالإشارة للبعض بالإمامة موجزة و عرض قليل؛ إتماما للغرض و وفاء بالوعد. و قد ألف علماءنا كتباً مطولة فى تراجمهم و دراسة حياتهم. و قد رأينا لزاماً أن نتكلم عن هشام بن الحكم بصورة واسعة بالنسبة لغيره، لا بالنسبة لدراسة حياته، لنعرف بذلك منهجه فى تفكيره و بيان عقيدته. و نقف على بواعث الاتهام له بتلك العقائد الفاسدة، عسانا نوفق لكشف تلك الحجب التى غطت وجه الحقيقة فى معرفة هشام و دراسة شخصيته. أما أصحاب الإمام الصادق عليه السلام فأخذنا بعضاً من البارزين منهم ممن أسهموا فى الحركة العلمية، و اشتهروا بالفقه و الرواية و علوم القرآن و فنون الإسلام، فتوسعنا فيهم و أوردنا تراجم الآخرين من تلامذته و رواة حديثه.



نسبه وأقوال العلماء فيه:

أبان بن تغلب بن رباح (1) هو أبو سعيد البكري الجريري المتوفى سنة 141 هـ كان جليل القدر، عظيم المنزلة، لقي الإمام زين العابدين، و الباقر، و الصادق، و كانت له حلقة في المسجد. و قال ياقوت الحموي: كان قارئاً لغويا فقيها إماميا، ثقة عظيم المنزلة، جليل القدر، روى عن علي بن الحسين، و أبي عبد الله عليه السلام و سمع من العرب و صنّف غريب القرآن وغيره. و قال الذهبي: أبان بن تغلب شيعي جلد صدوق، لكنه مبتدع، فلنا صدقه و عليه بدعته. و قد وثقه أحمد بن حنبل و ابن معين. روى عنه موسى بن عقبة و شعبة و حماد بن زيد و ابن عيينة و جماعة. و قال ابن عدى: له نسخ عامتها مستقيمة، إذ روى عنه ثقة، و هو من أهل الصدق في الرواية و إن كان مذهبه مذهب الشيعة، و هو في الرواية صالح لا بأس به. و قال الحاكم: كان قاص الشيعة و هو ثقة، و مدحه ابن عيينة بالفصاحة. و قال أبو نعيم في تاريخه: مات سنة 140 هـ و كان غاية من الغايات.

ص: 51

---

1-1) ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر ج 1 ص 93، و طبقات ابن سعد ج 6 ص 250، و فهرست ابن النديم ص 308، و معجم الأدباء ج 1 ص 117، و [1] بغية الوعاة ص 176، و ميزان الاعتدال ج 1 ص 4، و خلاصة تهذيب الكمال ص 13، و شذرات الذهب ج 1 ص 210، و طبقات القراء لشمس الدين الجزري ج 1 ص 86، و مرآة الجنان ج 1 ص 293، و منهج المقال، و الخلاصة، و فهرست الشيخ الطوسي وغيرها.

وقال العقيلي: سمعت أبا عبد الله يذكر عنه عقلا و أدبا و صحة حديث، إلا أنه كان غالبا في التشيع. وقال ابن سعد: كان ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات. وقال الأزدي: كان غالبا في التشيع و ما أعلم به في الحديث بأسا. خرج حديثه مسلم في صحيحه، و الترمذي، و أبو داود، و النسائي، و ابن ماجة. و هو ممن أجمعوا على قبول روايته و صدقه، و اعترفوا بعلو منزلته، فلا يضر قول من زاغ عن الحق في طعنه-في أبان- كإبراهيم الجوزجاني (1) حيث يقول: أبان زائع مذموم المذهب مجاهر. قال ابن حجر: و أما الجوزجاني فلا عبرة بحطه على الكوفيين، فالتشيع في عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل علي عليه السلام على عثمان، و أن عليا كان مصيبا في حروبه و أن مخالفه مخطئ، و ربما اعتقد بعضهم أن عليا أفضل الخلق بعد رسول الله، و إذا كان معتقد ذلك و رعا ديننا صادقا مجتهدا فلا ترد روايته. و علي أي حال فلا يهمنا قول الجوزجاني، و لا نود أن نخوض في بحث يقصينا عن الغاية، و نكتفي بأن نحيل القارئ المنصف المتجرد عن نزعة الهوى إلى مراجعة تاريخ حياة الجوزجاني، و يقف هناك وقفة قصيرة فيعرف نزعة الرجل التي اتصف بها، فهو خارجي يرى رأى الحرورية (2) و كان شديد الميل على علي عليه السلام يذهب مذهب أهل الشام الذين تغدّت أدمغتهم بأباطيل معاوية و أضاليله، حتى سلك الناس طرقا ملتوية و زاغوا عن الحق اتباعا لمن لا يروق له قول الحق! و قد اتصف الجوزجاني أيضا بأنه حريزي المذهب، أي يذهب مذهب «حريز بن عثمان» المعروف بالعداء لعلي بن أبي طالب عليه السلام فقد كان حريز (3) أموي النزعة شامي النشأة يحمل على علي، و قيل: إنه يسبّه.

ص: 52

- 
- 1- 1) هو إبراهيم بن يعقوب السعدي المتوفى سنة 256 هـ سكن دمشق، كان من المتحاملين على أهل البيت و يتجاهر بنصب العداء لهم.
  - 2- 2) تهذيب التهذيب ج 1 ص 181-183. [1]
  - 3- 3) حريز بن عثمان الرحبي المتوفى سنة 163 هـ من رجال البخاري الأربعة، و كان معروفا بالنصب. و يقول: لا أحب عليا لأنه قتل آبائي. و حكى الناس عنه أيضا سوء الاعتقاد و فساد المذهب، و لكن البخاري خرج حديثه و وثقه، كما وثقه أحمد بن حنبل. ترجمته في تاريخ بغداد ج 8 ص 265-270 و الخلاصة ص 64 و غيرهما.

و من الغريب أنّهم يصفون من عرف ببغض على عليه السّلام بالصّلافة في السّنة كما وصفوا على بن الجهم والجوزجاني. و لا أدري أى سنّة هذه التي يتصف بها مبغض على عليه السّلام؟! أجل أين قول الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: «يا على لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق» و هذا الحديث خرّجه الحفاظ من طرق متعددة، و رواه مسلم، و النسائي، و ابن عبد البر. و الطبري، و غيرهم. و قد كان أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يعرفون إيمان الرجل بحبّه لعلى، و نفاقه ببغضه له، متّخذين من هذا الحديث قاعدة مطردة. و كيف كان فإن بدعة أبان التي وصفه بها الجوزجاني و الذهبي هي موالاته لعلى، و صلافة الجوزجاني في السّنة هي بغضه لعلى، و الحكم في هذا للقارئ المنصف.

### علمه و شيوخه:

و كان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التي امتازت بآتقاد الذهن، و وفور العقل، و بعد الغور، و الاختصاص بعلم القرآن، و هو أوّل من ألّف في ذلك. و كان فقيها يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه، و إذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فيحدث الناس. و له علم باختلاف الأقوال، و قد شهد له معاصروه بالفضل و التفوّق. و يكفيه-شهادة في التقدّم-أن الإمام الباقر و الإمام الصادق أمراه أن يحدث الناس في مسجد النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و كلّ يقول له: «اجلس في مسجد المدينة و أفت الناس فإنّي أحب أن يرى في شيعتي مثلك». و أخذ أبان علمي الفقه و التفسير عن أئمة أهل البيت عليه السّلام فقد حضر عند الإمام زين العابدين، و من بعده عند الإمام الباقر، ثم عند الإمام الصادق فهؤلاء شيوخه و أساتذته، و هو من كبار أصحابهم و الثقات في رواياتهم. و قد عدّ علماء الرجال من جملة أساتذة أبان جماعة منهم: الحكم بن عتيبة الكندي المتوفى سنة 115 هـ و هو من رجال الصحاح الستة، و من حملة الحديث و أعلام الأئمة.

وفضيل بن عمرو الفقيمي أبو النظر الكوفي المتوفى سنة 110 هـ خرّج حديثه مسلم والأربعة. وأبو إسحاق عمرو بن عبد الله الهمداني السبيعي، المتوفى سنة 127 هـ وهو أحد أعلام التابعين، ومن رجال الصحاح الستة.

### تلامذته:

وروى الحديث عنه خلق كثير منهم: موسى بن عقبة الأسدي المتوفى سنة 141 هـ من رجال الصحاح الستة، وثقه ابن معين، وأحمد، وأبو حاتم. وقال مالك: عليكم بمغازي موسى بن عقبة. وقد صنّف فيها وأجاد. وشعبة بن الحجاج تقدمت ترجمته في الجزء الأول. وحماد بن زيد بن درهم الأزدي أبو إسماعيل الأزرق البصري الحافظ المتوفى سنة 197 هـ عن إحدى وثمانين سنة. قال ابن مهدي: ما رأيت أحفظ منه ولا أعلم بالسنة ولا أفقه بالبصرة منه. وقال أحمد: هو من أئمة المسلمين. وسفيان بن عيينة تقدمت ترجمته في الجزء الأول. ومحمد بن خازم التميمي أبو معاوية الضرير المتوفى سنة 195 هـ خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، وروى عنه أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وابن المديني وابن معين. وكان أحفظ الناس لحديث الأعمش. وعبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم أبو عبد الرحمن المروزي المتوفى سنة 181 هـ أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. قال ابن المبارك: كتبت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف، وثقه جماعة. هؤلاء الذين ذكرهم ابن حجر في «تهذيب التهذيب» والخزرجي في «خلاصة تذهيب الكمال» وغيرهما. وهذه عادة علماء الرجال أن يذكروا من تلامذة الشخص بعضا ويتركوا آخرين. ويعبرون عن ذلك بقولهم: وجماعة، وآخرين، وخلق كثير. ونظرا لمنزلة أبان العلمية ومكانته في الفقه، وكثرة الآخذين عنه. لا بد وأن يكون له عدد كثير من التلاميذ، وحيث لا يمكننا إحصاؤهم فنعول في ذلك بالرجوع

إلى «جامع الرواة» فقد ذكر عددا وافرا ممن روى عن أبان، وأشار إلى موضع الرواية عنه في كتب الأصحاب.

### مكانته و كفايته العلمية:

وصفوة القول: أن أبان بن تغلب شخصية إسلامية، قد أهمل التاريخ أكثر مآثره، وبخسه أكثر علماء الرجال حقّه، ولم يعطوه ما يستحقه من البيان. والأسباب غير مجهولة، فإن تدوين التاريخ جاء في عصور قد اشتدت فيها النعرة الطائفية، فأسرع أكثر الكتّاب والمؤرخين إلى مجارة الدولة، والخضوع لأوامر السلطة. وإن أبان من أعيان الشيعة، والشيعة-كما لا يخفى-هم الحزب المعارض لسلطان الجور، و حكام الاستبداد. وكيف نرجو من أولئك المؤرخين أن يعطوا رجال الشيعة حقّهم من البيان مع بخسهم حق عترة الرّسول وأئمة الهدى؟! فإنّهم يتحرّجون عن ذكر ما لهم من المآثر، وما خصّهم الله به من الفضائل، فتراهم عند ترجمة أى واحد من الأئمة يستعملون الإيجاز المخل. لقد عاش أبان بن تغلب مدة من الزمن وهو ملازم لأهل البيت عليه السّلام يأخذ عنهم، حتى أنّه كان يحفظ عن الإمام الصّادق ثلاثين ألف حديث (1). وكان الإمام الصّادق يرشد إليه فى أخذ الأحكام، ورواية الحديث. قال سليم بن أبى حبة: (كنت عند أبى عبد الله الصّادق عليه السّلام فلما أردت أن أفارقه ودّعته وقلت: أحب أن تزودنى). فقال: «أنت أبان بن تغلب فإنّه قد سمع منى حديثا كثيرا، فما روى لك فاروه عنى». و مما يدل على إحاطة أبان و تفوقه فى الحديث أنّه كان يجلس فى مسجد النّبى فيجىء إليه الناس و يسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال، ثم يذكر قول أهل البيت و يسوق أدلته و مناقشته، لأنّه يرى أن الحق مع أهل البيت و أن قولهم الفصل. يحدثنا عبد الرّحمن بن الحجّاج قال: كنا فى مجلس أبان فجاءه شاب فقال: يا أبا سعيد أخبرنى كم شهد على بن أبى طالب من أصحاب النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم؟ فقال له أبان:

ص:55



كأنك تريد أن تعرف فضل علي بن أبي طالب و من تبعه من أصحاب رسول الله؟ فقال الرجل: هو ذاك. فقال أبان: والله ما عرفنا فضلهم- أى الصحابة- إلاّ باتباعهم إياه- يعنى عليا- فقال أبو البلاد: (عض ببظر أم رجل من الشيعة فى أقصى الأرض و أذناها يموت أبان لا تدخل مصيبته عليه). فقال أبان: يا أبا البلاد أ تدرى من الشيعة؟ الشيعة الذين إذا اختلف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم أخذوا بقول علي عليه السلام و إذا اختلف الناس عن علي، أخذوا بقول جعفر بن محمد عليه السلام. و قال أبان: مررت بقوم يعيبون عليّ رواية جعفر بن محمد فقلت: كيف تلو منونى فى روايتى عن رجل ما سألته عن شىء إلاّ قال: قال رسول الله؟

### مؤلفاته:

1- غريب القرآن: و هو أول تأليف فى ذلك، فصار أساسا لعلم اللغة و قد ذكر شواهد من الشعر، فجاء فيما بعد عبد الرحمن بن محمد الأزدي الكوفي فجمع من كتاب أبان، و كتاب محمد بن السائب الكلبي، و أبى ورق عطية بن الحرث فجعلهما كتابا واحدا، و بين فيه ما اختلفوا فيه و ما اتفقوا عليه فتارة يحىء كتاب أبان مفردا و تارة مشتركا. 2- كتاب الفضائل. 3- كتاب معانى القرآن. 4- كتاب القراءات. 5- كتاب الأصول فى الرواية على مذهب الشيعة، ذكره ابن النديم فى الفهرست. و له مناظرات و مجادلات و قراءة للقرآن مفردة مقررة عند القراء. قال محمد بن موسى: ما رأيت أقرأ منه قط. و قال محمد بن إبراهيم الشافعي: كان أبان مقدما فى كل فن من العلم: فى القرآن، و الفقه، و الحديث و الأدب و اللغة. و على أى حال فقد كان أبان من رجال الأمة المبرزين فى العلم و من حملة فقه آل محمد، حفظ عن الإمام الصادق عليه السلام ثلاثين ألف حديث، و كان لعظم منزلته

إذا دخل المدينة تقوضت إليه الحلق وأُخليت له سارية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ (1). ولقد كان من المقرّر المضمّن في دراسة مشاهير الرواة عن الإمام الصادق عليه السلام وحملة فقهه بنفس الأسلوب الذي سرت عليه في دراسة حياة «أبان» من ذكر الشيوخ والتلاميذ والأقوال فيه مع مراعاة الاختصار. لكنني تبينت جلياً عدم استطاعتي استيفاء هذا الغرض لأن ذلك مما يضيق به وسع الكتاب. فالتجأت إلى حذف كثير مما أعدته من الدراسات لهذا الجزء، وفضلت الاختصار على دراسة حياة أبان بن تغلب، ومؤمن الطاق، وهشام بن الحكم كما هو المقرر في الأصل، واكتفيت بدراسة حياة الآخرين بالاختصار مرة وبالإشارة أخرى. واخترنا مختصرين عدداً منهم:

## أبان بن عثمان:

أبان بن عثمان بن يحيى بن زكريا اللؤلؤي (2) المتوفى سنة 200 هـ. كان من أهل الكوفة، وكان يسكنها تارة ويسكن البصرة أخرى. وقد أخذ عنه من أهل البصرة: أبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو عبد الله محمد بن المثنى، وأبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام. روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن موسى بن جعفر، وما عرف من مصنفاته إلا كتاب جمع فيه المبدأ، والمبعث، والمغازي، والوفاء، والسقيفة والردة. ولأبان أصل يرويه الشيخ الطوسي عن عدة من الأصحاب. وكان أبان من الستة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم، والإقرار لهم بالفقه، وهم: جميل بن دراج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحماد بن عيسى، وحماد بن عثمان، وأبان بن عثمان. وقد روى عن أبان خلق كثير، منهم الحسن بن علي الوشاء، وعلي بن الحكم

ص: 57

1-1) قاموس الرجال 1 ص 74.

2-2) معجم الأدباء ج 1 ص 108-109، و[1] لسان الميزان ج 1 ص 24، وبغية الوعاة ص 177، وفهرست الشيخ الطوسي ص 18، و[2] منهج المقال ص 16، و[3] جامع الرواة ج 1 ص 12-15، و[4] غيرها من كتب الرجال والأدب.

الكوفي، وفضالة بن أيوب، والحسين بن سعيد، وصفوان بن يحيى، وعيسى الفراء، وجعفر بن سماعة وغيرهم. وكان هو أيضا يروى عن جماعة من أصحاب الإمام، كزرارة، والفضيل بن يسار، وعبد الرحمن بن أبي عبد الله وغيرهم كما هو موجود في كتب الحديث.

### بريد العجلي:

وبريد بن معاوية العجلي (1) هو أبو القاسم الكوفي المتوفى سنة 150 هـ. كان من أصحاب الإمام الباقر، وولده الإمام الصادق. وهو من حملة الحديث ورجال الفقه، وله منزلة عند أهل البيت عليهم السلام من الوثاقة وعلو القدر. وورد مدحه في روايات صحيحة، كما أجمعت الشيعة على تصحيح ما صح عنه. والذي يظهر أن له منزلة سامية في نشر حديث أهل البيت، لذلك نجد الخصوم قد وضعوا أحاديث في ذمّه ليحطوا من قدره، ويصرفوا الناس عنه، ولكنها لم تقف في طريقه، أو تعرقل سيره المتواصل في نشر المذهب، وبث الأحكام. وهو من الستّة الذين عرفوا بأنهم أفقه الناس وهم: زرارة بن أعين، ومعرفة بن خربوذ، وبريد العجلي، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي. وأفقه الستة زرارة. وقال الإمام الصادق: «زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد العجلي وأبو جعفر الأحمول أحب الناس إليّ أحياء وأمواتا». روى الحديث عن الإمام الباقر والإمام الصادق، وروى عنه داود بن يزيد بن فرقد، والحكم وإسماعيل ابنا حبيب. والقاسم بن عروة ومنصور بن يونس، وعبد الله بن المغيرة، وخلق كثير. وكان بريد من المؤلفين في عصر الإمام الصادق. له كتاب يرويه عنه علي بن عقبة بن خالد الأسدي. وقد تقدم ذكر بريد في الجزء الثاني من هذا الكتاب، في جملة أصحاب الإمام الباقر عليه السلام فلا حاجة إلى إطالة البحث. كما تقدمت هناك ترجمة بكير بن أعين، ومحمد بن مسلم، وزرارة بن أعين،

ص: 58

---

1-1) منهج المقال للأستاذ أبادي ص 66، و [1] جامع الرواة ج 1 ص 117-119، و [2] الإمام الصادق للمظفر ص 147-148، وغيرها كتقنيح المقال للمامقاني، ورجال أبي علي، ورجال الشيخ محمد طه نجف.

و جابر الجعفي، و عبد الملك بن أعين، و أبي حمزة الثمالي، و حمران بن أعين، و كلهم من الثقات و حملة فقه الإمام الباقر و ولده الإمام الصادق عليه السلام. و إن التعرض لدراسة حياتهم أمر يقصينا عن الموضوع، لانتساع دائرة البحث فنكتفي بما ذكرناه عنهم من الإشارة هناك.

### جميل بن دراج:

و جميل بن دراج بن عبد الله أبو علي النخعي (1) مولا هم الكوفي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام و ولده أبي الحسن موسى عليه السلام و كان ثقة. و هو من الستة الذين أجمعوا على تصحيح ما يصح عنهم. توفي في أيام الإمام الرضا عليه السلام و كان كثير الحديث، فقيها، زاهدا، متعبدا، له مؤلفات، منها كتاب اشترك هو و محمد بن حمران فيه. و له كتاب اشترك هو و مرازم بن حكيم فيه، و له أصل يرويه الشيخ الطوسي عن الحسين بن عبيد الله. روى عنه الحديث خلق كثير كالحسن بن محبوب، و صالح بن عقبة. و عبد الله بن جبلة، و أبو مالك الحضرمي و محمد بن عمرو و غيرهم. و كان لجميل أخ يقال له نوح بن دراج، و كان قاضيا في الدولة العباسية و قد اشتدت الملامة عليه من قبل أصحاب الإمام الصادق لأن القضاء من قبل الدولة يعد مؤازرة لهم، و كان نوح من رواة حديث الإمام الصادق، و لكنه اعتذر أنه لم يتول القضاء حتى سأل أخاه جميلا.

### جميل بن صالح:

و جميل بن صالح الأسدي الكوفي. من أصحاب الإمام الصادق و ولده موسى عليه السلام. ثقة له أصل، روى عنه جماعة كالحسن بن محبوب و سعد بن عبد الله و عمار بن موسى الساباطي محمد بن عمر و غيرهم.

### حماد بن عثمان:

و حماد بن عثمان بن زياد الرواسي الكوفي المتوفى سنة 190 هـ.

ص: 59

---

1-1) فهرست الشيخ الطوسي ص 44، و [1] جامع الرواة ج 1 ص 165، و [2] منهج المقال ص 78 و [3] غيرها.

هو من الستة الذين أقرت الطائفة لهم و تصحيح ما يصح عنهم. روى حماد عن الإمام الصادق و ولده موسى الكاظم، و عن جماعة من أصحابهما عليه السلام. و روى عنه جماعة منهم: محمد بن الوليد، و علي بن مهزيار، و صفوان بن يحيى و غيرهم.

### حماد بن عيسى:

و حماد بن عيسى بن عبيدة الجهني (1)الواسطي ثم البصري، غريق الجحفة المتوفى سنة 308 هـ من أصحاب الإمام الصادق و الكاظم عليهم السلام و هو من الستة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم.

### حبيب بن ثابت:

و حبيب بن ثابت الكاهلي (2)مولاهم أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة 122 هـ من التابعين و من رجال الصحاح الستة. روى عن زين العابدين و الإمام الباقر و ولده الصادق، و عنه مسعر و الثوري و شعبة و أبو بكر النهشلي، وثقه العجلي و أبو زرعة و خلق كثير. قال ابن معين: له نحو مائتي حديث.

### حمزة بن الطيار:

و حمزة بن محمد الطيار كان من رجال الفقه و المتفوقين في علم الكلام و له مناظرات مع خصوم أهل البيت، كما دلت على ذلك آثاره و وردت من أحاديث أهل البيت في مدحه. منها ما رواه أبان الأحمر عن الطيار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بلغني أنك كرهت مناظرة الناس و كرهت الخصومة. فقال: «أما كلام مثلك فلا يكره. من إذا طار أحسن أن يقع، و إن وقع أحسن أن يطير، فمن كان هكذا فلا نكره كلامه». إلى غير ذلك من الأحاديث التي لم نذكرها للاختصار. كما لم نذكر جماعة منهم: داود بن فرقد، و حميد بن المثنى العجلي، و داود الرقي، و زيد الشحام، و سدير الصيرفي، و عبد الرحمن البجلي، و داود بن يزيد الكوفي العطار، و داود بن كثير، و روح بن عبد الرحيم الكوفي، و عبد الله بن أبي يعفور

ص:60

1-1) خلاصة تذهيب الكمال ص 78، و جامع الرواة ج 1 ص 273، و [1] منهج المقال ص 122.

2-2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 187، و [2] المعارف لابن قتيبة ص 268، و الخلاصة للخزرجي و غيرها.

الكوفي، و عبد الله بن شريك، و عبد الله بن مسكان، و العلاء بن رزين، و عمر بن حنظلة، و شعيب العقرقوفى، و المعلى بن خنيس. و كل هؤلاء قد أعددنا لهم ترجمة وافية، و لكن ضيق المجال حال بيننا و بين نشرها. و مما يلزم التنبيه عليه: أن أكثر من دُون فى مناقب أئمة المذاهب قد نسبوا إلى أئمتهم من المشايخ و التلاميذ ما لا يتصل بالواقع، و لا أصل لتلك النسبة، إذ التبع ينفى ذلك، فمثلا نجد عدد تلاميذ أبى حنيفة من الكثرة بمكان، و لكن الواقع أن تلاميذه الذين سمعوا منه و حضروا عنده لا يتجاوز عددهم أكثر من ستة و ثلاثين. أما المشايخ فإنهم يخطئ كثيرا فيهم. و قد تقدم فى الجزء الأول من هذا الكتاب تكذيب دعوى سماع أبى حنيفة من الصحابة بما لا حاجة إلى إعادته، و هذا كثير عندهم فى نسبة مشايخ أو تلاميذ للشخص بدون تثبت. فمثلا إنهم يقولون: إن محمّد بن الحسن بن فرقد الشيبانى صاحب أبى حنيفة و مدون فقهه، قد سمع من عمرو بن دينار. و هذا غير صحيح لأن عمرو بن دينار قد توفى سنة 115 هـ و كانت ولادة محمّد بن الحسن سنة 129 هـ فكيف يصح سماعه من عمرو بن دينار الذى توفى قبل ولادته بأربعة عشر عاما؟ و حذرا من وقوع هذا الاشتباه نوّكد: أن العدد الذى بيّناه فى تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام هو أربعة آلاف أو يزيدون. هذا العدد لم يكن فيه شىء من الادعاء أو خروج عن حدود الواقع، و إنما هو نتاج تتبع و تمحيص و تحمّل مشقة و عناء. و نستطيع أن نقول: إن عددهم كان أكثر من هذا. و بهذه المناسبة أود أن أتبه على شىء له أثر فى الموضوع و هو: أن الشيخ الخالصى ذكر فى حديثه عن الإمام الصادق عليه السّلام - كما جاء فى سلسلة أشعة من حياة الصادق عليه السّلام الحلقة الأولى ص 34- أن محمّد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة كان من جملة تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام. و هذا شىء ينفرد به الشيخ الخالصى! إذ التحقيق لا يؤيد ذلك. و كما قلنا: إننا لم نثبت فى عداد تلامذة الإمام الصادق من لا تصح فى حقه تلك النسبة، و لا نريد أن نلقى الأشياء جزافا، دون تثبت، فالتاريخ يحاسبنا على ذلك. و الذى اعتقده أن الأمر اشتبه على الشيخ، و ذلك أن عبد الله بن الحسن الشيبانى،

أخو محمّد بن الحسن الشيباني، كان من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام ورواة حديثه. و من قواعد التصنيف و الترجمة لدى الشيعة أن يكون بأثر و أن يدل على الترجمة خبر، فكتب الرجال تضم تراجم من استحق الترجمة بعلمه، أو اقتضت الأمانة العلمية التنويه به، و لذلك فإن ما أحصى من تلامذة الإمام الصادق هو ما كان بالشواهد و الأثر. على أن من أهم ما يجب التركيز عليه بالقول هو أن تلامذة الإمام الصادق لم يكن لهم دور كدور تلامذة رؤساء المذاهب كأي حنيفة و الشافعي و مالك و أحمد في تبويب الأقوال و جمع الآراء و انتهاج الاستقلال من بعدهم ليدخل المذهب في دور التأسيس و الإعلان، لأن تلامذة الإمام الصادق لا مزيد لهم على ما تلقوه منه عليه السّلام إلا في مجال الدربة و الإعداد للاجتهاد في الحوادث، أما أصول المذهب و قواعده فالحمد لله هي من جذور الإسلام تمتد بامتدادها و لا تبدأ بعصر دون آخر أو فترة دون أخرى. و كان الإمام الصادق عليه السّلام يقول لأصحابه: «إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما رووا عنا، فانظروا إلى ما رووه عن علي عليه السّلام فاعملوا به» .

إشارة

محمد بن علي بن النعمان

نسبه و أقوال العلماء فيه:

محمد بن علي بن النعمان البجلي الكوفي (1) أبو جعفر، مولا هم الأحول، الملقب بمؤمن الطاق. و هو من أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام و لقبه خصومه -شيطان الطاق- و يقال: إن أول من لقبه شيطان الطاق أبو حنيفة، لمناظرة جرت بين مؤمن الطاق و الخوارج، و كانت الغلبة له و أبو حنيفة حاضر فلقبه بذلك. و هناك رأى آخر فى سبب لقبه فى قول: قال ابن أبى طى: إنه نسب إلى سوق فى طاق المحامل بالكوفة، كان يجلس للصرف بها، فيقال: إنه اختصم مع آخر فى درهم زيف فغلب. فقال أنا شيطان الطاق. و الصحيح: أن هذه النسبة كانت من خصومه و أعدائه الذين تفوق عليهم بالمناظرة، و أعجزهم عن المقابلة له، فالتجئوا إلى لغة الانتقاص كما يأتى. و لما بلغ هشام بن الحكم ذلك لقبه: مؤمن الطاق، فعرف بذلك بين الطائفة. و ذكره المرزبانى فى شعراء الشيعة و أورد من شعره ما رواه عمارة بن حمزة و ذلك: أن المنصور كان إذا ذكر مدح ابن قيس الرقيات المتوفى سنة 85 هـ لعبد الملك بن مروان تغيظ منه و شق عليه. فقال عمارة: يا أمير فيكم رجل من أهل الكوفة أجود مما قال قيس. قال: و من هو؟ قال: مؤمن الطاق و أنشده:

ص:63

1-1) لسان الميزان ج 5 ص 200، و فهرست ابن النديم ص 250، و [1] تكملة الفهرست ص 8، و الملل و النحل للشهرستانى ج 1 ص 113، و جامع الرواة ج 1 ص 158، و [2] منهج المقال ص 210، و [3] فهرست الشيخ الطوسى ص 121، و [4] لباب الأنساب ج 2 ص 42، و الكنى و الألقاب ج 2 ص 298-299 و [5] ضحى الإسلام ج 3 ص 270-271 و غيرها.



يا من لقلب قد شقّه الوجع يكاد مما عناه ينصدع

أمسى كنيبا معذبا كمدا تظل فيه الهموم تصطرع

عن ذكر آل النبي إذ قهروا واللون منى مع ذاك ملتجع

قالت قريش ونحن أسرته والناس ما عمروا لنا تبع

قالت قريش منا الرسول فما للناس فى الملك دوننا طمع

قد علمت ذاك العريب فما تصلح إلا بنا و تجتمع

فإن يكونوا فى القول قد صدقوا فقد أقرؤا ببعض ما صنعوا

لأن آل الرسول دونهم أولى بها منهمو إذا اجتمعوا

و إتهم بالكتاب أعلمهم والقرب منه والسبق قد جمعوا

ما راقبوا الله فى نبيهم إذ بعد وصل أهله قطعوا

(1) ووصفه المرزبانى بقوله: أبو جعفر محمّد بن على بن النعمان، وإنما سمي بالطاق لأنه كان بطاق المحامل بالكوفة يعانى الصرّف، و كان من الفصحاء البلغاء، و من لا يطاول فى النظر، و الجدل فى الإمامة، و كان حاضر الجواب. و ذكر له عدة مناظرات مطولة و مختصرة، و كانت له الغلبة فيها. و قال ابن النديم فى ترجمته: أبو جعفر محمّد بن النعمان الأحول، نزل طاق المحامل بالكوفة، و تلقبه العامة بشيطان الطاق، و الخاصة تعرفه بمؤمن الطاق، و شيعة-أى أصحابه-تسميه شاه الطاق أيضا. و هو من أصحاب أبى عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام. و لقد لقي زيد بن على زين العابدين و ناظره على إمامة أبى عبد الله و لقي على بن الحسين زين العابدين عليه السّلام و قيل: إنما سمي شيطان الطاق لأنه كان يتصرف و يشهد الدنانير، فلاحاه قوم فى دينار جرّبوه و بهرجه هو، فأصاب و أخطئوا، و ألزمهم الحجة، فقال: أنا شيطان الطاق. يعنى طاق المحامل بالكوفة موضع دكانه، فلزمه هذا اللقب. و كان حسن الاعتقاد و الهدى، حاذقا فى صناعة الكلام. سريع الخاطر و الجواب. ثم ذكر مناظراته مع أبى حنيفة و ستأتى. قال أبو خالد الكاملى: رأيت أبا جعفر صاحب الطاق و هو قاعد فى الروضة،

ص:64

قد قطع أهل المدينة إزاره، وهو دائب يجيئهم ويسألونه، فدنوت منه وقلت: إن أبا عبد الله نهانا عن الكلام. فقال: أو أمرك أن تقول لي؟ فقلت: لا والله ولكنه أمرني أن لا أكلم أحدا. قال: فاذهب وأطعه فيما أمرك. فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته بقصة صاحب الطاق، فتبسم أبو عبد الله عليه السلام وقال: «يا أبا خالد إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير، وأنت إن قصوك لن تطير» (1).

### علمه ونبوغه:

وكان محمد بن علي بن النعمان كثير العلم، متفوقا في معارفه، قويا في حجته، تعددت فيه نواحي العبقرية والنبوغ-فهو عالم-بالفقه، والكلام، والحديث، والشعر، وكان قويا العارضة، سريع الجواب واضح الحجّة. اشتغل بالتجارة وتقل بين أكثر المدن الإسلامية، وعرف بتشيّعه وإخلاصه لأهل البيت عليهم السلام ولقى من عنت خصومهم والمناوئين لهم ما نغص عليه عيشه، ولكن لم يحل ذلك بينه وبين الإعلان بمبده، والجهر في دعوته. وكان يتمتع بشخصية فدّة، يعترف له الناس بالفضل والعلم، والنبوغ والتفوق. وقد كان عصره يقضى على المفكرين-من أمثاله-بكبت الشعور وكمّ الأفواه، وتمويه الحقائق، ولكنه لم يخضع لذلك الحكم الجائر، فهو لا يزال يدعو بالحق، ويعلن بفضل عليّ، ويظهر تمسكه بأبنائه.

### مناظراته واحتجاجه:

كان مؤمن الطاق يمتاز بقدرة فائقة على الجدل، وقوة في التفكير، ومهارة في الاستنباط. ويكاد المؤرخون يجمعون على تفوقه، في سرعة الجواب وقوة العارضة. وإذا أردنا استقصاء مناظراته فالأمر يستلزم الإطالة، ولكننا نكتفي ببعض منها، وهي كثيرة مبعثرة في بطون الكتب. 1-اجتمع قوم من الخوارج وقوم من الشيعة بالكوفة عند أبي نعيم النخعي، فقال أبو حذرة الخارجي: أن أبا بكر أفضل من عليّ وجميع الصحابة بأربع خصال: فهو ثان لرسول الله دفن في بيته، وهو ثاني اثنين معه في الغار، وهو ثاني اثنين صلى

ص:65

بالناس آخر صلاة قبض بعدها رسول الله، وهو ثاني صديق من الأمة. فردّ عليه شيطان الطاق-على حد تعبير الدكتور أحمد أمين-وقال: يا ابن أبي حذرة، أترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيوته التي أضافها الله إليه، ونهى الناس عن دخولها إلا بإذنه، ميراثا لأهله وولده؟ أو تركها صدقة على جميع المسلمين؟ فإن تركها ميراثا لولده وأزواجه فقد ترك تسع زوجات، فليس لعائشة إلا نصيب إحداهن، أى لم يكن لها أن تدفن أبا بكر فى بيته ونصيبها لا يسمح بذلك. وإن تركها ميراثا لجميع المسلمين فإنه لم يكن له نصيب من البيت إلا كما لكل رجل من المسلمين. وأما قولك: إنه ثانى اثنين إذ هما فى الغار، فإن مكان على فى هذه الليلة على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبذل مهجته دونه أفضل من مكان صاحبك فى الغار. وأما قولك: فى صلاته بالناس، فقد تقدم ليصلى بالناس فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فخرج النبي وتقدم فصلى بالناس وعزله عنها، ولو كان قد صلى بأمره لما عزله من تلك الصلاة. وأما تسميته بالصديق، فهو شىء سَمَّاه الناس. إلى آخر المناظرة (1). 2- عن أبى مالك الأحمسى قال: خرج الضحاک الشادى بالكوفة فحكم و تسمى بامرة المؤمنين، و دعى الناس إلى نفسه. فأتاه مؤمن الطاق، فلما رأته الشراة وثبوا فى وجهه فقال لهم: جانح، فأتوا به صاحبهم، فقال له مؤمن الطاق: أنا رجل على بصيرة من دينى فأحببت الدخول معكم. فقال الضحاک لأصحابه: إن دخل هذا معكم نفعكم. ثم أقبل مؤمن الطاق على الضحاک فقال: لم تبرأتم من على بن أبى طالب، واستحللتم قتله و قتاله؟ قال الضحاک: لأنه حكم فى دين الله. قال مؤمن الطاق: و كل من حكم فى دين الله استحللتم دمه و قتاله و البراءة منه؟ قال: نعم. قال: فأخبرنى عن الدين الذى جئت أناظرک عليه، لأدخل معك إن غلبت

ص:66

حجتي حجتك، أو حجتك حجتي، من يوقف المخطئ على خطئه ويحكم للمصيب بصوابه؟ فلا بد لنا من إنسان يحكم بيننا. فأشار الضحاك إلى رجل من أصحابه وقال: هذا الحكم بيننا، فهو عالم بالدين. قال مؤمن الطاق: وقد حكمت هذا في الدين الذي جئت أناظرک فيه؟ قال: نعم. فأقبل مؤمن الطاق على أصحاب الضحاك فقال: إن صاحبكم قد حكم في دين الله فشأنكم به. فاختلف أصحابه وأسكتوه، و خرج مؤمن الطاق منتصرا. 3- كانت الخصومة بين مؤمن الطاق وأبي حنيفة شديدة جدا، لأننا نرى كثرة المناظرة بينهما، وأهمها في الإمامة والتفضيل، وبدون شك أن أبا حنيفة لم يكن معروفا بعلم الكلام، وليس له قوة على مقابلة من تفوق به. وإن مؤمن الطاق كان معروفا بعلم الكلام وقوة الحجّة، وسرعة الجواب، وشدة العارضة. فهو دائما يتفوق في مناظراته، ويسمو في حجّته. قال ابن حجر: وقعت له-أي لمؤمن الطاق-مناظرة مع أبي حنيفة في شيء يتعلّق بفضائل علي، فقال أبو حنيفة كالمنكر عليه: عمّن رويت حديث رد الشمس لعلی؟ فقال مؤمن الطاق: عمّن رويت أنت عنه يا سارية الجبل. وقال أبو حنيفة له يوما: ما تقول في المتعة؟ قال: حلال. قال أبو حنيفة: أيسرک أن تكون بناتک وأخواتک يمتع بهن؟ قال مؤمن الطاق: شيء أحله الله، ولكن ما تقول أنت في النبیذ؟ قال: حلال. قال مؤمن الطاق: أيسرک أن تكون بناتک وأخواتک نباذات «هن»؟ ولما مات الإمام الصادق عليه السلام قال له أبو حنيفة: قد مات إمامک. قال: لكن إمامک من المنظرین. أو لا-يموت إلى يوم القيامة. وفي لفظ الخطيب البغدادي: لما مات جعفر بن محمد التقى هو-أي مؤمن الطاق-وأبو حنيفة. فقال له أبو حنيفة: أما إمامک فقد مات، فقال شيطان الطاق: أما إمامک فمن المنظرین إلى يوم الوقت المعلوم (1).

ص: 67

وقال الخطيب: كان أبو حنيفة يتهم شيطان الطاق بالرجعة، وكان شيطان الطاق يتهم أبا حنيفة بالتناسخ. فخرج أبو حنيفة يوماً إلى السوق فاستقبله شيطان الطاق ومعه ثوب يريد بيعه، فقال له أبو حنيفة: أتبيع هذا الثوب إلى رجوع علي؟ فقال: إن أعطيتني كفيلاً أن لا تمسح قرداً بعتك. فبهت أبو حنيفة (1). وله معه مناظرة في إبطال الطلاق الثلاث (2). وقد أَلَّف مؤمن الطاق كتاباً في مناظراته مع أبي حنيفة، ولم نذكر هنا شيئاً من تلك المناظرات الكثيرة معه، واقتصرنا منها على هذا القدر القليل. ولم يكن من رأبى التعرض لأمثال هذه المناظرات، التي جرت بين مؤمن الطاق وأبي حنيفة، ولكنني وقفت على بعض كتب الحنيفة-التي دونت في مناقب إمامهم- فوجدتهم يذكرونها بصورة معكوسة، فأحببت أن أثبت على هذا الخطأ، لأن الذين ذكروا هذه المناظرات- على وجهها الصحيح- كانوا أقدم من هؤلاء المحرفين. فهذا ابن النديم وهو من علماء القرن الرابع، إذ كانت وفاته سنة 385 هـ قد ذكرها في الفهرست. أما الذين نقلوها على العكس فهم المتأخرون، كابن البزاز الكردي المتوفى سنة 627 هـ. والخوارزمي المتوفى سنة 568 هـ. وكذلك الخطيب البغدادي المتوفى سنة 463 هـ ذكرها في تاريخه. ذكرها بصورتها الواقعية ولكن الحنيفة جعلوا الغالب هو المغلوب، وهذا شأن كتاب المناقب في كثير من القضايا والمتتبع يقف على أمور من التحريف والتحوير تبعث على العجب والاستغراب.

### مؤلفاته:

وكيف كان فإن مؤمن الطاق من فرسان حلبة علم الكلام ومن أبطال الرجال الذين حملوا رسالة التشيع فتحملوا الأذى في جنب الله، ووقف مواقف مشرفة في الدفاع عن آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. كما أنه أَلَّف كتباً قيّمة في شتى المواضيع الهامة وقد ذكر منها الشيخ الطوسي وابن النديم الكتب الآتية: 1- كتاب الإمامة. 2- كتاب المعرفة.

ص: 68

1-1) تاريخ بغداد ج 13 ص 409، و [1] تكملة فهرست ابن النديم ص 8.

2-2) البحار ج 4 ص 371. [2]

3- كتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضل. 4- كتاب في أمر طلحة و الزبير و عائشة. 5- كتاب إثبات الوصية. 6- كتاب افعال، لا تفعل. و له كتاب المناظرة مع أبي حنيفة.

### وصية الإمام الصادق له:

للإمام الصادق عدة وصايا يوصى بها أصحابه بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وقد ذكرنا جملة منها في الجزء الثاني، و نقتطف هنا فصولاً من وصيته لمؤمن الطاق. قال عليه السلام: «يا ابن النعمان إياك و المرء فإنه يحبط عملك، و إياك و الجدال فإنه يوبقك، و إياك و كثرة الخصومات. فإنها تبعدك من الله. إن من كان قبلكم يتعلمون الصمت، و أنتم تتعلمون الكلام. كان أحدهم إذا أراد التعبد يتعلم الصمت قبل ذلك. إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء، و صبر في دولة الباطل على الأذى، أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقاً، و هم المؤمنون. إن أبغضكم إلى المترسسون المشاءون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم، ليسوا مني و لا أنا منهم، إنما أوليائي الذين سلموا لأمرنا، و اتبعوا آثارنا. يا ابن النعمان إنا أهل بيت لا يزال الشيطان يدخل فينا من ليس منا و لا من أهل ديننا، فإذا رفعه و نظر إليه الناس أمره الشيطان فيكذب علينا، و كلما ذهب واحد جاء آخر. يا ابن النعمان إن أردت أن يصفو لك و د أخيك فلا تمازجته، و لا تماريته و لا تباهيته. و لا تطلع صديقك من سرّك إلا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك، فإن الصديق قد يكون عدوك يوماً. يا ابن النعمان ليست البلاغة بحدة اللسان، و لا بكثرة الهديان، و لكنها إصابة المعنى و قصد الحجة. يا ابن النعمان لا تطلب العلم لثلاث: لتراثي به، و لا لتباهي به، و لا تماري. و لا تدعه لثلاث: رغبة في الجهل، و زهادة في العلم، و استحياء من الناس» (1).

ص: 69

زعم المتقولون على مؤمن الطاق: أنه كان من المشبهة، و تنسب إليه فرقة يقال لهم شيطانية من مذهبهم التشبيه. و أنه كان يقول: إن الله تعالى إنما يعلم الأشياء إذا قدرها، و التقدير عنده الإرادة، و للإرادة فعل (1) و أنه كان يذهب إلى أن الإله على صورة الإنسان و لا يسميه جسماً (2) إلى غير ذلك من الأقوال التي نطق بها من لا يبالي بمؤاخذة و لا يدرى ما يقول؟! إنها لعمر الله فرية، و تقوّل بالباطل، و نحن لا نستغرب اتهام مؤمن الطاق بما يخالف عقيدته، لأنه كان حرباً على ذوى الآراء الفاسدة. و قد أعطى نصيباً وافراً من قوة العارضة و سرعة الجواب، فكان يقيم الدليل على خصمه، و يرغمه على الاعتراف بالخطأ. و من الواضح: أن تلك المناقشات التي كانت تدور فى أندية الكوفة كان أكثرها يهدف إلى تشويش الأفكار، و التلاعب بالعقول، لوجود طائفة من الدخلاء كان غرضهم ذلك. و كان مؤمن الطاق و بقية خواص الأئمة قد بذلوا جهدهم فى مقاومة أولئك الخصوم، الذين يريدون الفتك بالإسلام و أهله، فكان أهون شىء عليهم أن ينسبوا لأولئك الصفوة ما يخالف عقائدهم، و الظروف تساعدهم على ذلك عند ما أطلق الباطل من عقاله، فدفع صاحبه إلى اتهام البرىء و براءة المتهم. و يكفيننا فى براءته و علو منزلته و حسن عقيدته، ما ورد فى مدحه و الشاء عليه من أئمة الهدى. و قد كان من أحب الناس إلى الإمام الصادق. فقد صح عنه أنه كان يقول: «أربعة أحب الناس إلى أحياء و أمواتا: بريد بن معاوية العجلي، و زرار بن أعين، و محمد بن مسلم، و أبو جعفر الأحول». فلا تضره تهجمات أولئك القوم الذين ألقوا مقاليد أمورهم للعاطفة، فاتهموه بما هو برىء منه، و رموه بما لا يليق بشأنه. وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا [النساء: 112].

ص:70

1-1) لباب الأنساب ج 2 ص 42.

2-2) الفرق بين الفرق للبغدادى ص 131، و [1] ستأتى مناقشة هذه الأقوال فى دراسة حياة هشام بن الحكم.

إشارة

«يا هشام ما زلت مؤيدا بروح القدس»

الإمام الصادق

«رحم الله هشاما كان عبدا ناصحا»

الإمام الرضا

(لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف)

هارون الرشيد

نسبه و نشأته و أقوال العلماء فيه:

هشام بن الحكم الكندي (1) أبو محمد البغدادي المتوفى سنة 197 هـ. كانت نشأته بالكوفة و واسط، و يدخل بغداد للتجارة، و لكنه استقام بها بعد مدة من الزمن، و نزل قصر وضاح بالكرخ من مدينة السلام، له دار بواسط. و كان يتجول للتجارة ينتقل من بلد إلى آخر و هو يرشد الناس و يدافع عن مذهب أهل البيت و يناظر الملحدين فيفحّمهم و رجع الكثيرون إلى التوحيد تسليما لقوة الحجّة و خضوعا للحق، و هو من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام و من خواص ولده موسى الكاظم عليه السلام.

ص: 71

1-1) فهرست ابن النديم ص 249، و التكملة ص 7، و الملل و النحل ج 1 ص 308، و [1] لسان الميزان ج 6 ص 194، و المراجعات لشرف الدين ص 300-301، و [2] الانتصار للخياط في عدة مواضع، و ضحى الإسلام ج 3 ص 268، و عقد الفريد ج 1 ص 360، و عيون الأخبار لابن قتيبة ج 2 ص 150، و حياة هشام بن الحكم للشيخ محمد الحسين المظفر (مخطوط) و جامع الرواة ج 2 ص 313، و [3] نهج المقال ص 356، و حياة هشام للشيخ محمد صالح الشيخ راضى «مخطوط» و غيرها.



نشأ هشام بن الحكم بالكوفة، وكانت الكوفة مصطرباً للآراء، و موطناً لاختلاف المذاهب التي استوطنتها، وقوى بها انتشار علم الكلام، و ازدهرت أرجاؤها بحلقات العلم ورجال الفكر، فكانت هناك خصومات و جدل و نزاع بين أصحاب المذاهب المختلفة، و الآراء المتفرقة و الفرق المتعددة. و قد اتخذ كل فريق علم الكلام وسيلة للانتصار على خصمه، و وسيلة لتأييد رأيه و تصحيح مذهبه. و كان هشام بن الحكم من أبرز شخصيات ذلك العصر، يمتاز بقوة شخصيته التي جعلته مطمئناً لأنظار علماء عصره، لتفوقه و مهارته و شدة خصومته، و قوة حجته؛ و يصف ابن النديم هشاماً بقوله: هشام بن الحكم من متكلمي الشيعة، ممن فتق الكلام في الإمامة، و هذب المذهب و النظر، و كان حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب. سئل هشام عن معاوية أشهد بدراً؟ قال: نعم، من ذاك الجانب-أى من جانب المشركين. و يقول الشهرستاني: هشام بن الحكم صاحب غور (1) في الأصول لا- يجوز أن يغفل عن إزاماته على المعتزلة، فإن الرجل وراء ما يلزمه الخصم، و دون ما يظهره من التشبيه. و قال الزركلى: هشام بن الحكم فقيه، متكلم، مناظر، من أكابر الإمامية، ولد بالكوفة. فانقطع إلى يحيى بن خالد، فكان القيم بمجالس كلامه (2). و يقول الدكتور أحمد أمين: أما هشام بن الحكم فيظهر أنه أكبر شخصية شيعية في علم الكلام، و كان من تلاميذ جعفر الصادق عليه السلام و كان جدلاً قوى الحججة، ناظر المعتزلة و ناظروه، و نقلت في كتب الأدب له مناظرات كثيرة، دل على حضور بديهته و قوة حجته، إلى أن يقول: و الجاحظ يشدد عليه في المناقشة و يغضب في نقده. و ستأتى بقية الأقوال فيه.

ص: 72

- 
- 1-1) غور كل شىء قعره، و عمقه، و صاحب غور هو من تعمق فى علمه، حتى وصل إلى حقيقته، و منه فلان بعيد الغور أى متعمق النظر و هو بحر لا يدرك غوره. انظر فى التعليق الملل و النحل ج 1 ص 311. [1]
- 2-2) الأعلام ج 3 ص 1123. [2]

اتصل هشام بمدرسة الإمام الصادق عليه السلام وأصبح من أبرز رجالها في الحكمة والدراية، والعرفان، والفقه، والحديث. ويقال: إنّه كان قبل اتصاله بالإمام يذهب إلى رأى جهم بن صفوان (1)، ولكنه تركه عند ما اجتمع بالإمام الصادق عليه السلام في مدينة الوحي، وقد اكتظ المجلس بوفود الأمصار وطلاب العلم، فرأى من هيبة الإمام وروحانيته، وسمع ما طرق سمعه من أجوبته لسائله، وحسن بيانه و عذوبة ألفاظه، ما أفقده الاعتزاز بنفسه، وعرف عجزه عن مقابله في مسائله. وكان الإمام الصادق عليه السلام قد عرف هشاماً وسمع به من قبل، فاتجه إليه ليوجهه إلى الحق، ويرشده إلى الهدى، فألقى إليه سؤالاً بما كان قد اختص هشام به، فلم يستطع الجواب عنه، وعرف الحق فاتبعه «و الحق أحق أن يتبع». و انقطع إلى الإمام الصادق عليه السلام فأصبح من خواصه، ومن أبرز رجال مدرسته، فكان من أشهر رجال العلم، ومن أبطال الفلسفة، يمثل في مواقفه البطولة والجرأة الأدبية، يسير مع الحق أينما سارت ركائبه. وفاز بالتفوق على مناوئيه بواضح الحجّة، وساطع البرهان، واستجاب الله دعوة الإمام الصادق فيه: «يا هشام ما زلت مؤيداً بروح القدس». كان هشام شديد الإخلاص، قوى الإيمان، راسخ العقيدة، يدافع عن مذهب أهل البيت، ويتشدد في مناقشته للخلافات المذهبية، وتقنيد آراء المتكلمين من سائر الفرق الإسلامية الذين تأثروا بانتقال الفلسفة اليونانية. وكان يخرج منتصراً في جميع مواقفه، لما عرف فيه من قوة الحجّة وسعة التفكير، وبذلك أصبح في خطر من قبل الدولة-كما هو شأن المفكرين وأهل الآراء الحرّة من أمثاله-وقد عرف هشام بشدة مناظرته في الإمامة، وانتصاره للعلويين، وهم خصوم الدولة وأهل الحق الشرعي. وقد خشى الرشيد من اتساع نشاط هشام، وتقوّقه على أكثر المفكرين من رجال عصره. فحاول الفتك به والقضاء عليه.

ص:73

1 - 1) جهم بن صفوان إليه تنسب الفرقة الجهمية، ظهرت بدعته بترمد و قتله سلم بن أحوز المازني بمرو، آخر الدولة الأموية، وافق المعتزلة في نفى الصفات الأزلية وزاد عليهم: أنه لا يجوز أن يوصف البارئ بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى تشبيهاً، فنفي كونه حياً عالماً، وأثبت كونه فاعلاً خالقاً لأنه لا يوصف شيء بالفعل والخلق. إلى آخر أقواله في الملل والنحل ج 1 ص 113. [1]

ولكن يحيى بن خالد البرمكى كان يدافع عن هشام، و يلطف الجوّ، لأنّه كان مختصاً به، حتى تغيّر قلبه على هشام لأسباب هناك، فأعرض عن دفاعه. و جرى بحث الإمامة في مجلس البرمكى و الرشيد يسمع من وراء الستر، فاشتدت المناظرة و كانت الغلبة لهشام، فغضب الرشيد و قال: إن لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف. و لكن الرشيد بما عرف عنه من عداً لأهل بيت النبوة و مقاومته لآثارهم، يرى في هشام مبتدعاً. روى أن ملك الصفد كتب إلى الرشيد يسأله أن يبعث إليه من يعلّمه الدين، فدعا يحيى بن خالد فعرض عليه الكتاب، فقال يحيى: لا- يقوم بذلك إلاّ رجلاً ببابك: هشام بن الحكم، و ضرار [بن عمرو من شيوخ المعتزلة] فقال: كلا، إنهما مبتدعان فيلقنان القوم ما يفسدهم و يغويهم بالمسلمين، ليس لذلك إلاّ أصحاب الحديث (1). و كان هشام قد احتل منزلة في حركة مدرسة الإمام الصّادق الفكرية، و عمل بتوجيهات الإمام الصّادق إلى جانب تلامذة الإمام الآخرين ممن مهروا في الكلام و اختصوا بأفانين الجدل في عصر ساد الأوساط ما يشبه الموجة التي تكاد يعتورها نفس الأفكار لو لا تلقى رجال الأمة لها بالتصدي للتخفيف منها و التحكم في شططها و انحرافها حتى تنساب برقة و تصب في مجرى العقيدة بلا شوائب و أكار. و قد عزم الإمام الصّادق على انتشال هشام بن الحكم من مؤثرات ذلك العصر ثم هداه الله إلى ما يريده من الإمام و أصبحت له مكانة في النشاط الديني و الفكري و احتل منزلة خاصة في نفس الإمام الصّادق. يروى يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السّلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إني رجل صاحب كلام و فقه و فرائض و قد جئت لمناظرة أصحابك، فقال له أبو عبد الله عليه السّلام: «كلامك هذا من كلام رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أو من عندك؟» فقال: من كلام رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بعضه و من عندي بعضه. فقال له أبو عبد الله عليه السّلام: «فأنت إذن شريك رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم؟» قال: لا. قال: «فسمعت الوحي عن الله؟» قال: لا. قال: «فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم؟» قال: لا. قال: فالتفت أبو عبد الله عليه السّلام إلى فقال: «يا يونس بن يعقوب هذا قد خصم نفسه» قبل أن يتكلم، ثم قال: «يا يونس، لو كنت تحسن الكلام كلمته» قال

ص: 74

يونس: فيا لها من حسرة، فقلت: جعلت فداك، سمعتك تنهى عن الكلام و تقول: «ويل لأصحاب الكلام يقولون هذا ينقاد و هذا لا ينقاد، و هذا ينساق و هذا لا ينساق، و هذا نعقله و هذا لا نعقله؟» فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولي و ذهبوا إلى ما يريدون». ثم تأتي رواية ابن يعقوب لتبين عظيم المكانة التي عليها هشام فيقول: أخرج أبو عبد الله عليه السلام رأسه من الخيمة فإذا هو ببعير يخبّ، فقال: «هشام و رب الكعبة». فظننا أن هشاما من ولد عقيل كان شديد المحبة لأبي عبد الله عليه السلام فإذا هشام بن الحكم قد ورد و هو أول ما اختطت لحيته و ليس فينا إلا من هو أكبر سنا منه، قال: فوسع له أبو عبد الله عليه السلام و قال: «ناصرنا بقلبه و لسانه و يده» ثم قال لحمران بن أعين: «كلم الرجل الشامي» فكلمه حمران فظهر عليه، ثم كلمه الآخرون ممن حضر مجلس الإمام. . . يقول ابن يعقوب: ثم قال للشامي: «كلم هذا الغلام» يعني هشام بن الحكم، فقال: نعم. ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا، يعني أبا عبد الله عليه السلام فغضب هشام حتى ارتعد، ثم قال له: أخبرني يا هذا، أربك أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ما ذا؟ قال: كلفهم و أقام لهم حجة و دليلا على ما كلفهم، و أزاح في ذلك عندهم. فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟ قال الشامي: هو رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. قال له هشام: فبعد رسول الله من؟ قال: الكتاب و السنة. قال له هشام: فهل ينفعنا اليوم الكتاب و السنة فيما اختلفنا فيه حتى يرفع عنا الاختلاف و مكنا من الاتفاق؟ قال الشامي: نعم. قال له هشام: فلم اختلفنا نحن و أنت و جنتنا من الشام تخالفنا و تزعم أن الرأي طريق الدين، و أنت تقر بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين؟ فسكت الشامي كالمفكر، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «ما لك لا تتكلم؟» قال: إن قلت أنا ما اختلفنا كابر، و إن قلت إن الكتاب و السنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه. . . ثم يقوم الشامي بسؤال هشام، و يجيب هشام حتى يخرج الشامي من مجلس الإمام و هو على الهدى.

#### عصره:

كان عصر هشام من أزهى العصور في الكلام بجميع أصوله، لكثرة الفرق. و جعل هاتيك الأصول الكلامية مبتنية على القواعد المنطقية. و كانت الرغبة ملحة في

النظر و الجدل، فكانت المجالس تعقد للمناظرة، و تشد الرحال للمدارسة و الاحتجاج، و لا سيما فى الإمامة، لأنها الأصل الذى يصحح للخليفة-بالشكل المعهود-أن يستولى به على العباد و البلاد باسم الشريعة، و يصحح له أن يكون ولى الأمر الذى تجب طاعته على الأمة، أو يمنعه عن التصرف فى مقدرات البلاد، و القبض على رقاب العباد، و يأبى له من أن يكون الحجّة من الخالق إلى المخلوق. فالملوك من أمية و بنى العباس وقفوا سدًا دون سيل الكلام فى الإمامة لئلا يشيع رأى الشيعة فيها، و أجموا الأفواه، و حجروا العقول، و منعوا حرية القول، و ساروا بالناس سيرة إرهاب و تهديد. فكان هشام بن الحكم واسطة القلادة فى تلك الأندية، يساجل فى كل أصل، فإن انتهت الخصومة إلى الإمامة، أدلى بحجته، مصرحًا إن أمن من العقاب، و ملوحًا إن خاف النكال. لأن إثبات الإمامة فى الأئمة الاثنى عشر هدم لصروح إمامة الأوائل، و ثل لعروش الأواخر (1). و كان لمجلس يحيى البرمكى الذى يعقد فى بغداد للمناظرة أثر كبير فى تنوير العقول، و لا يعقد ذلك المجلس إلاّ تحت إشراف هشام و رئاسته. و من الحق أن نقول: إن هشامًا كان من مفاخر الأمة الإسلامية، فقد جتّد نفسه لخدمة الحق، و نشر مبادئ الإسلام، و قد تصدّى للرد على أعداء الدين، و رفع الغشاوة من بعض العقول التى قد ركبها الشطط، و غلبها الغرور. سأل ضرار هشام بن الحكم عن الدليل على الإمام بعد النبىّ صلّى الله عليه و آله و سلّم فقال هشام: الدلالة عليه ثمان دلالات: أربع منها فى نعت نسبه، و أربع منها فى نعت نفسه. أما الأربع التى فى نعت نسبه: فأن يكون معروف القبيلة، معروف الجنس، معروف النسب، معروف البيت. و ذلك أنه إذا لم يكن معروف القبيلة معروف الجنس معروف النسب معروف البيت. جاز أن يكون من أطراف الأرض و فى كل جنس من الناس، فلما لم يجوز أن يكون الدليل إلاّ فى أشهر الأجناس، و لما لم يجوز أن يكون إلاّ فى هذا الجنس لشهرته؛ لم يجوز أن يكون إلاّ هكذا، و لم نجد جنسًا فى العالم أشهر من جنس

ص:76

مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جِنْسُ الْعَرَبِ الَّذِي مِنْهُ صَاحِبُ الْمَلَّةِ وَالدَّعْوَةُ الَّتِي ينادى بِاسْمِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ عَلَى الصَّوَامِعِ وَالمَسَاجِدِ فِي جَمِيعِ الْأَمَاكِنِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَوَصَلَ دَعْوَتُهُ إِلَى كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ عَالَمٍ وَجَاهِلٍ مَعْرُوفٍ غَيْرِ مَنْكَرٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَلَمْ يَجْزِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْقَبِيلَةِ الَّتِي فِيهَا صَاحِبُ الدَّعْوَةِ لِاتِّصَالِهَا بِالْمَلَّةِ، لَمْ يَجْزِ أَنْ يَكُونَ إِلَّا- فِي هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ بَيْتُ النَّبِيِّ لِقَرَبِ نَسَبِهِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِشَارَةً إِلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، ثُمَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ إِشَارَةً إِلَيْهِ اشْتَرَكَ أَهْلُ هَذَا الْبَيْتِ، وَادْعَيْتُ فِيهِ، فَإِذَا وَقَعَتِ الدَّعْوَةُ فِيهِ وَقَعَ الْاِخْتِلَافُ وَالفَسَادُ بَيْنَهُمْ وَلا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِشَارَةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ دُونَ غَيْرِهِ لِثَلَا يَخْتَلِفُ فِيهِ أَهْلُ هَذَا الْبَيْتِ أَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ وَأَعْلَمُهُمْ وَأَصْلَحُهُمْ لِذَلِكَ الْأَمْرِ. وَأَمَّا الْأَرْبَعُ الَّتِي فِي نَعْتِ نَفْسِهِ: فَأَنْ يَكُونَ أَعْلَمَ الْخَلْقِ، وَأَسْخَى الْخَلْقِ، وَأَشْجَعَ الْخَلْقِ، وَأَعَفَّ الْخَلْقِ وَأَعَصَمَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، لَمْ تَصِبْهُ فِتْرَةٌ وَلا جَاهِلِيَّةٌ، وَلا بَدٌّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ قَائِمٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْأَبَاضِيُّ- وَكَانَ حَاضِرًا-: مِنْ أَيْنَ زَعَمْتَ يَا هِشَامُ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَمَ الْخَلْقِ؟ قَالَ: إِنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا لَمْ يُؤْمِنْ أَنْ تَتَقَلَّبَ شَرَائِعُهُ وَأَحْكَامُهُ، فَيَقْطَعُ مِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الْحَدُّ، وَيَحَدُّ مِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَطْعُ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ. قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ زَعَمْتَ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ؟ قَالَ: إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا لَمْ يُؤْمِنْ أَنْ يَدْخُلَ فِيهَا دَخْلٌ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الذُّنُوبِ، فَيَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَقِيمُ عَلَيْهِ الْحَدَّ كَمَا يَقِيمُهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِذَا دَخَلَ فِي الذُّنُوبِ لَمْ يُؤْمِنْ أَنْ يَكْتُمَ عَلَى جَارِهِ وَحَبِيبِهِ وَقَرِيبِهِ وَصَدِيقِهِ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَّأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ. قَالَ لَهُ: فَمِنْ أَيْنَ زَعَمْتَ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ أَشْجَعَ الْخَلْقِ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ قِيمَهُمُ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْحَرْبِ، فَإِنْ هَرَبَ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبِ اللَّهِ وَلا يَجُوزُ أَنْ يَبُوءَ الْإِمَامَ بِغَضَبِ اللَّهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا لَقَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ. قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ زَعَمْتَ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ أَسْخَى الْخَلْقِ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ سَخِيًا لَمْ يَصْلِحْ لِلْإِمَامَةِ، لِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَى نَوَالِهِ وَفَضْلِهِ وَالقِسْمَةِ بَيْنَهُمْ بِالسُّوِيَّةِ، وَليَجْعَلَ الْحَقَّ فِي مَوْضِعِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ سَخِيًا لَمْ تَتَّقِ نَفْسَهُ إِلَى أَخْذِ شَيْءٍ مِنْ حَقُوقِ النَّاسِ وَالمُسْلِمِينَ، وَلا يَفْضُلُ نَصِيْبَهُ فِي الْقِسْمَةِ

على أحد من رعيته، وقد قلنا إنه معصوم فإذا لم يكن أشجع الخلق وأعلم الخلق وأسخى الخلق وأعفّ الخلق لم يجز أن يكون إماما (1). ولما كان هشام قد عرف بالتفوّق، وقوة الحجّة، وسرعة الجواب، واثقاد الذهن، فقد أصبح ذكره حديث الأندية، وقد تحامل عليه خصومه فنسبوه إلى ما لا يليق بشأنه، ولا يتسق مع اعتقاده (لأنّ الرأى العام فى ذلك العهد من أنصار الخلافة المعهودة، ولا تصغى العامة للحجج إذا خالفت الرغبة) فتوجهوا إليه بتلك الطعون الشائنة، والتي لا تمت بشيء من الحقيقة كما سنوافيك بجملة منها.

### شيوخه و تلامذته:

أخذ هشام علم الفقه، والحديث والتفسير، وغيرها عن الإمام الصادق عليه السلام وكان ملازما له منذ نشأته، وروى عنه أحاديث كثيرة فى مختلف الأحكام. وكان الإمام الصادق يكرمه ويرفع من مقامه، وله أصل يرويه الشيخ الطوسى عن جماعة من الأصحاب. ولما انتقل الإمام الصادق إلى جوار ربه، أصبح هشام من خواص الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وروى الحديث وأخذ عنه علما كثيرا. أما تلامذته: فخلق كثير، توجد رواياتهم عنه فى كتب الفقه والحديث منهم: النضر بن سويد الصيرفى الكوفى من تلامذة الإمام الكاظم، و كان من الثقات، المشهورين بالعدالة وصحة الحديث. ونشيط بن صالح العجلي مولا هم الكوفى، عدّه الشيخ فى رجاله من تلامذة الصادق والكاظم. ويونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين، كان من أصحاب الكاظم والرضا. وله مؤلفات كثيرة؛ وكان ثقة عظيم المنزلة. وغيرهم مما لا يسع المجال لذكرهم.

### مؤلفاته:

كانت لهشام بن الحكم مؤلفات فى شتى العلوم، ذكر منها ابن النديم:

ص:78

1-كتاب الإمامة. 2-كتاب الدلالات على حدوث الأشياء. 3-كتاب الرد على الزنادقة. 4-كتاب الرد على أصحاب الاثنين. 5-كتاب الرد على هشام الجواليقي. 6-كتاب الرد على أصحاب الطباع. 7-كتاب الشيخ والغلام. 8-كتاب التدبير. 9-كتاب الميزان. 10-كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول. 11-كتاب اختلاف الناس فى الإمامة. 12-كتاب الوصية والرد على من أنكراها. 13-كتاب فى الجبر والقدر. 14-كتاب الحكمين. 15-كتاب الرد على المعتزلة فى طلحة والزبير. 16-كتاب القدر. 17-كتاب الألفاظ.

### أجوبته و مناظراته:

نشأ هشام تحت ظلال مدرسة أهل البيت، و تغذى منها تعاليمه القيمة، و ثقافته العالية. و امتاز بقوة شخصيته التى جعلته محطاً لأنظار علماء عصره، و قد تجرّد لنصرة مذهب أهل البيت، و ناضل فى الدفاع عنهم، و لم تقعد به ملاقاته عنت أو تكبد أذى. و كان يقصده الكثير من علماء عصره الذين عرفوا بقوة المناظرة ليناظروه و يحاجوه فى مختلف العلوم. و كان هو كذلك يتعرّض لمناظرتهم و يقصد علماء الأمصار و رؤساء الحلقات العلمية للمناظرة، طلباً لإظهار الحق و دفعا للباطل. و نظراً لما كان يمتاز به هشام من قوة العارضة، و غزارة العلم، و سرعة

ص:79



الجواب، فقد ترأس مجلس المناظرة الذي كان يعقده يحيى بن خالد البرمكى مساء كل جمعة ببغداد، وهو يضم جميع علماء الفرق، و رؤساء الأديان، و أهل الآراء، فكانوا لا يخوضون فى مسألة حتى يحضر هشام فيكون قوله الفصل، و حكمه العدل. و كان الرشيد يحضر ذلك المجلس من وراء الستار- فى بعض الأوقات- يستمع لتلك المناظرات و يصغى لتلك الأقوال. و أراد بعضهم أن يوقع الشر فى قلب الرشيد على هشام، فألقى إليه سؤالاً- فى قضية مخاصمة العباس لعلى عليه السلام فى ميراث النبى، و هو لا يعلم بمكان الرشيد. قال السائل: يا أبا محمد (و هى كنية هشام) أما علمت أن علياً نازع العباس إلى أبى بكر؟ قال هشام: نعم. قال السائل: فأيهما كان الظالم لصاحبه؟ فتوقف هشام و قال فى نفسه: إن قلت: العباس خفت الرشيد، و إن قلت: علياً ناقضت قولى و عقيدتى. ثم قال هشام: لم يكن فيهما ظالم. فقال السائل: أفيختصم اثنان فى أمر و هما محققان جميعاً؟ قال هشام: نعم، اختصم الملكان إلى داود و ليس فيهما ظالم، و إنما أراد أن ينبهاه. كذلك اختصم هذان إلى أبى بكر ليعلماه ظلمه. فأمسك الرجل (1) و وقع الجواب عند الرشيد موقع القبول و مال قلبه لهشام. و له كثير من أمثال هذا من الأجوبة المسكتة، و الكلمات التى كان يتفوق بها على خصومه. قال ابن النديم بعد وصفه بقوة الحجّة و سعة التفكير: و كان هشام يقول: ما رأيت مثل مخالفتنا! عمدوا إلى من ولاه الله من سمائه فعزلوه (يعنى علياً) و إلى من عزله الله من سمائه فولوه (يعنى أبى بكر). و يذكر قصة مبلغ سورة براءة، و مرد أبى بكر، و إيراد على عليه السلام بعد نزول جبرائيل عليه السلام قائلاً لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «لا يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك». فرد أبى بكر و أنفذ علياً عليه السلام (2).

ص: 80

- 
- 1-1) العقد الفريد ج 1 ص 360، و [1] عيون الأخبار لابن قتيبة ج 2 ص 150. و [2] ضحى الإسلام ج 3 ص 268.  
 2-2) تكملة فهرست ابن النديم ص 7.

و على أى حال فإن لهشام بن الحكم أجوبة و مناظرات قد احتفظ التاريخ ببعضها، و هى خير شاهد لقوة شخصيته فى شتى العلوم. و لا يسعنا الآن بسط القول فيها، بل نذكر نموذجا منها، و إليك ثبوتا فى بعضها: 1-مناظرته مع الإباضية. 2-مناظرته مع أحد البراهمة. 3-مناظرته فى ضرورة احتياج الناس إلى حجة. 4-مناظرته مع جماعة من أهل الشام فى مجالس متفرقة فى أمور شتى. 5-مناظرته فى بيان أحقية على بالخلافة دون غيره. 6-مناظرته فى أفضلية على عليه السلام على جميع الأمة و تفنيد الاستدلال بآية (ثانى اثنين). 7-مناظرته فى إثبات وجوب الموالاة لعلى عليه السلام. 8-مناظرته فى لزوم طاعة الإمام الحق. 9-مناظرته مع أبى شاعر الديصانى. 10-مناظرته مع الجاثليق. 11-مناظرته فى نفى الجهة و عدم الاثنية. 12-مناظرته مع ابن أبى العوجاء. 13-مناظرته مع أبى حنيفة فى عدة مواطن. 14-مناظرته مع إبراهيم بن يسار المعتزلى. 15-مناظرته مع أبى الهذيل العلاف. و غير ذلك كثير متفرق فى الكتب التاريخية و الأدبية.

### نموذج من مناظراته:

تصدى هشام لمناظرة أهل الكلام، و الرد على الملحدين و الزنادقة، و يكاد المؤرخون يجمعون على تفوقه فى المناظرة و سرعة الجواب و قوة العارضة، و إليك نموذجا من مناظراته: 1-جاء إليه رجل ملحد فقال له: يا هشام أنا أقول بالاثنين و قد عرفت إنصافك و لست أخاف مشاغبتك.

فقام هشام- وهو مشغول بثوب ينشره- وقال: حفظك الله هل يقدر أحدهما أن يخلق شيئاً لا يستعين بصاحبه عليه؟ قال: نعم. قال هشام: فما ترجو من اثنين؟ واحد خلق كل شيء أصح لك. فقال الرجل: لم يكلمنى أحد بهذا قبلك. 2- ودخل المؤبد على هشام بن الحكم فقال له: يا هشام حول الدنيا شيء؟ قال: لا. قال المؤبد: فإن أخرجت يدى منها ثم شيء يردّها؟ قال هشام: ليس ثم شيء يردك ولا شيء تخرج يدك فيه. قال: فكيف أعرف هذا؟ قال هشام: يا مؤبد أنا وأنت على طرف الدنيا فقلت لك: يا مؤبد، إني لا أرى شيئاً. فقلت لى: ولم لا ترى؟ فقلت لك: ليس هاهنا ظلام يمنعنى. قلت لى: يا هشام إني لا أرى شيئاً. فقلت لك: ولم لا ترى؟ قلت: ليس ضياء أنظر فيه. فهل تكافأت الملتان فى التناقض؟ قال: نعم. قال هشام: فإن تكافأتا فى التناقض لم تكافأ فى الإبطال أن ليس شيء. فأشار المؤبد بيده: أن أصبت. و عاد إليه المؤبد فقال: هما فى القوة سواء. قال: فجوهرهما واحد؟ فقال المؤبد لنفسه- و من حضر يسمع-: إن قلت: إن جوهرهما واحد عاد فى نعت واحد، وإن قلت: مختلفا اختلفا أيضاً فى الهمم والإرادات ولم يتفقا فى الخلق، فإن أراد هذا قصيراً أراد هذا طويلاً. . ولما عجز عن الجواب التفت إليه هشام فقال: كيف لا تسلم! قال: هيهات (1)!

ص:82

[1-1] عيون الأخبار ج 5 ص 152. [1]

3- قال هشام لأبي الهذيل (1): إذا زعمت أن الحركة ترى فلم لا زعمت أنها تلمس؟ قال: لأنها ليست بجسم فيلمس، لأن اللمس إنما يقع على الأجسام. فقال له هشام: فقل إنها لا ترى لأن الرؤية إنما تقع على الأجسام. فرجع أبو الهذيل سائلا: من أين قلت: إن الصفة ليست الموصوف ولا غيره؟ قال هشام: من قبل أنه يستحيل فعلى أنا، ويستحيل أن يكون غيري، لأن التغاير إنما أوقعه على الأجسام والأعيان القائمة بأنفسها، فلما لم يكن فعلى قائما بنفسه، ولم يجز أن يكون فعلى أنا، وجب أنه لا أنا ولا غيري. وعلّة أخرى أنت قائل بها: زعمت يا أبا الهذيل أن الحركة ليست مماسة ولا مباينة، لأنها عندك مما لا يجوز عليه المماسّة ولا المباينة، فلذلك قلت أنا: إن الصفة ليست أنا ولا غيري، وعلّتي في أنّها ليست أنا ولا غيري علتك في أنّها لا تماس ولا تباين، قال المسعودي: فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جوابا (2). ذكرنا هذه المناظرة لا بقصد أن نعطي صورة عن هشام بن الحكم فيها، ولكننا نود أن ننبه على خيانة للنقل و جناية على التاريخ و تهجم على الحقائق بما ارتكبه ابن حجر العسقلاني فإنه ذكر (3) ما هذا نصه: وقال المسعودي: قال أبو الحسن الحنات مات أبو الهذيل سنة 227 هـ و تنازع أصحابه في مولده فقال قوم سنة إحدى و ثلاثين و قال قوم: سنة أربع. و ذكر (أى المسعودي) مناظرة بينه و بين هشام بن الحكم الرافضي، و أن هشاما غلبه أبو الهذيل فيها. هذا و قد أوقفناك على نص عبارة المسعودي و أن هشاما غلب أبا الهذيل و لم يرد جوابا. و الحكم للقارئ المنصف. 4- اجتمع هشام في إحدى رحلاته إلى البصرة بعمره و بن عبيد المتوفى سنة 144 هـ و تناظرا في الإمامة، و كان عمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة في

ص: 83

- 
- 1- 1) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول البصرى، أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة 235 هـ شيخ المعتزلة و مقدمهم و مقرر الطريقة و المناظر عليها، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل، و له آراء و أقوال و إليه تنسب الفرقة الهذيلية من المعتزلة.
- 2- 2) مروج الذهب ج 4 ص 54. [1]
- 3- 3) لسان الميزان ج 5 ص 214.

سائر الأعصار، و هشام يذهب إلى أنها نص من الله ورسوله على بن أبي طالب عليه السلام و على من يلي عصره من ولده الطاهرين. فقال هشام لعمر بن عبيد: أليس قد جعل الله لك عينين؟ قال: بلى. قال: و لم؟ قال: لأنظر بهما في ملكوت السموات و الأرض فأعتبر. قال: فلم جعل لك سمعاً؟ قال: لأسمع به التحليل و التحريم و الأمر و النهي. قال: فلم جعل لك فماً؟ قال: لأذوق المطعوم، و أجيب الداعي. ثم عدد الحواس كلها. قال: و لم جعل لك قلباً؟ قال: لتؤدى إليه الحواس ما أدركته، فيميز بين مضارها و منافعها. قال هشام: فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك و لا- يخلق لك قلباً تؤدى هذه الحواس إليه؟ قال عمرو: لا. قال: و لم؟ قال: لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح لها. فقال هشام: يا أبا مروان (كنية عمرو بن عبيد) إن الله تبارك و تعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح، و يترك هذا الخلق كله لا يقيم لهم إماماً يرجعون إليه؟ قال المسعودي: فتحير عمرو و لم يأت بفرق يعرف (1).

### مع هشام في تهمته:

نضج علم الكلام في العصر العباسي الأول، و انتشر الخلاف و كثر الجدل و كان النزاع يملأ حلقات العلم، و المناظرات تقع في مجالس الخلفاء، و في المساجد، و في الشوارع.

ص: 84

---

1-1) مروج الذهب ج 4 ص 55، و علل الشرائع ص 194، و الطبرسي ص 200 و أمالي المرتضى وغيرها.

و كان للمعتزلة نشاط في الحركة الكلامية، فقد كانوا يبحثون عن أهم المسائل ويصطدمون مع خصومهم. إلى جانب ذلك نراهم قد تعرّضوا لمسائل تكاد تكون سوفسطائية مثل: الإله قادر على الظلم أو لا؟ هل الجنة مخلوقة اليوم أو لا؟ هل قدرة الله تتعلّق بالمحال أو لا؟ هل الكافر قادر على الإيمان و المؤمن قادر على الكفر؟ إلى كثير من أمثال ذلك. مع اختلافهم في الإمامة و السياسة، و كل هذه الآراء تكوّن جوا مضطربا و نزاعا علميا، و قد حصل ذلك في عصرهم و بعد عصرهم. و كان هشام بن الحكم شديد الخصومة لهم، قوى الحجّة عليهم، واسع الفكر. و له شهرة في علم الكلام، لذلك ترأس مجلس المناظرة في بغداد، و كان يقصد حلقات العلم فيمتحن رؤساءها بما يفحّمهم فيه، فكان انتصاره عليهم سببا لاتهامه بما لا يليق بشأنه، و لا صلة له بالواقع. و كان الجاحظ من أشد الناس عداء لهشام، فنسب إليه تلك المفتريات هو و النظام إبراهيم بن سيار، و جاء ابن قتيبة في (مختلف الحديث) فأرسلها إرسال المسلمات، و كذلك الخياط المعتزلي كما جاء في كتاب «الانتصار». و ليس من العسير علينا أن نستشف بواعث تلك الاتهامات الموجهة لهشام من قبل خصومه مع براءته من ذلك. و لا يصح لنا أن نساق مع المندفعين بتيار الهوى و الخاضعين للعاطفة، الذين اتهموه بتلك التهم الشنيعة بدون التفات إلى الواقع، أو استناد إلى مصدر وثيق، و إنما كانت بدافع الانتقام منه و الحقد عليه لكونه يغلب خصمه بمنطقه و يقطعه ببراهينه. كما كان الحكم على هشام بتلك التهم صادرا عن طائفية بغيضة رغبة في تشويه الحقيقة، أو اقتناع بما دبرته عوامل عصر هشام، من الاعتداء على المفكرين من رجال الأمة، و تطبيقه بوسائل عنيفة و حشوية. و لم يخف على المتتبعين ما أحدثه ذلك التطور الفكري، من وجود خلافات مذهبية و فوارق طائفية أدت إلى خصومة عنيفة، خرجت عن حدود العلم و المنطق الصحيح، بل عن حدود العقل و الاتزان. و كان الموقف السياسي يؤثّر في كفة الخلاف، و يؤيد حركة النزاع الطائفي من وراء الستار لغاية التفريق، و الوصول لأمر لا تحصل إلاّ بذلك، طبقا لقاعدة (فرّق تسد) و هي خطة سلكها الأمويون و اتبعهم العباسيون، فصارت مركبا لحكام الاستبداد و أمراء الجور.

و اتضح لنا مما سبق أن الموقف العدائي للشيعة قد تعدّى حدود المنطق، و بلغ إلى الهوس و التهريج، و التقوّل بالباطل، كل ذلك يرمى إلى تشويه الصورة الحقيقية، و تنفير الناس عن عقائدهم التي لا تستطيع سياسة تلك العصور أن تتركها بدون معارضة و مقاومة، و بالأخص فيما يتعلّق بالإمام. و لتقف عند هذا الحد من التعرّض لتلك التقولات على الشيعة و نعود لبعض ما قيل عن هشام في اتهامه. كما أننا لا نريد أن نستقصى ذلك و لا لنجهد أنفسنا في الرد على تلك التقولات، فالأمر أوضح من أن يدعونا إلى ذلك. فشخصية هشام لها مقومات واقعية، تستمد اتجاهاتها من واقع تعاليم الدين الحنيف و لا يضّرّه تقولات أعدائه و إليك بعضها منها: 1- يقول عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة 429 هـ في بيان مذاهب المشبهة: و من هذا الصنف هشامية منتسبة إلى هشام بن الحكم الرافضي، الذي شبّهه معبوده بالإنسان، و زعم لأجل ذلك أنه سبعة أشبار بشبر نفسه و أنه جسم ذو حدّ و نهاية، و أنّه طويل، عريض، عميق، و ذو لون و طعم و رائحة و قد روى عنه أن معبوده كسيكة الفضة المستديرة (1). هذا ما يقوله صاحب الفرق بين الفرق و هو عار عن الصحة، بعيد عن الواقع، لأن آثار هشام من كتب و مناظرات تدل بوضوح على إيمانه باللّه، فكتابه التوحيد و غيره من كتب الرد على الملحدين تتكفل صدق ما نقوله عنه. و كذب ما يقوله البغدادي و من سار على نهجه الذي لا يعتمد على الحق، و لا يركن إلى الصواب بل هو محض افتراء و تقوّل بالباطل، و مجرد أوهام فاضت بها أحقاد المناوئين، فراحوا يذكرون عن هشام و طائفته بما لا يمت إلى الواقع بصلة، و نحن إذا أمعنا النظر في أسباب هذه الحملات على هشام، فإنّنا نجد مصدرها المعتزلة، فإنّهم خصومه لأنّه كان شديدا عليهم؛ مفندا لآرائهم. و سنوضح موقف الجاحظ- و هو من كبار المعتزلة- من هذه المعركة، و كيف صبّ جام غضبه على هشام بأسلوبه الساخر، فكانت اتهامات هشام من صوغ الجاحظ و إنتاجه الأدبي.

ص:86

2- ويقول محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملقب الشافعي المتوفى سنة 377 هـ في كتابه التنبيه: الفرقة الثانية عشر من الإمامية هم أصحاب هشام بن الحكم، يعرفون بالهشامية، وهم الرافضة الذين روى فيهم الخبر أنهم يرفضون الدين بحب علي (رضي الله عنه) فيما يزعمون، وكذب أعداء الله وأعداء رسوله وأصحابه، وإنما يحب عليا من يحب غيره، وهم أيضا ملحدون لأن هشاما كان ملحدا دهريا، ثم انتقل إلى الدهرية والمانوية، ثم غلبه الإسلام فدخل في الإسلام كارها، فكان قوله في الإسلام بالتشبيه والرفض. وأما قوله بالإمامة فلم نعلم أن أحدا نسب إلى علي عيبا مثل هشام. . . والله نحمده قد نزع عن علي وولده العيوب والأرجاس وطهرهم تطهيرا، وما قصد هشام التشيع ولا محبة أهل البيت، ولكن طلب بذلك هدم أركان الإسلام، والتوحيد والنبوة. انتهى. هكذا يقول الملقب. وإذا أردنا أن نسائل هذا الشيخ عن المصدر الذي استمد منه معلوماته عن هشام، وعلى أي شيء اعتمد في كيل هذه الاتهامات، وما الذي عرفه عن هشام فاستوجب أن ينسب إليه الإلحاد؟ وهل نقل عن مصدر موثوق به. كل ذلك لم يكن، وإنما يحتج بما نقل عن هشام في قوله بإمامة علي عليه السلام وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصّ علي إمامته، وأن عليا أفضل الأمة. وإليك نص ما نقله الملقب عن هشام إذ يقول: فزعم هشام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصّ علي إمامته، وأنها أفضل الأمة. وبقوله: «من كنت مولاه فعلى مولاه». وبقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي» وبقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وبقوله: «تقاتل علي تأويل القرآن كما قاتلت علي تنزيلة» وأنه-أي عليا-وصى رسول الله وخليفته في ذريته، وهو خليفته في أمته، وأنه أفضل الأمة وأعلمهم، ولا يجوز عليه السهو ولا الغفلة ولا العجز، وأنه معصوم، وأن الله عزّ وجلّ نصبه للخلق إماما ولكن لا يهملهم، وأن المنصوص على إمامته كالمنصوص على القبلة وسائر الفرائض. . . إلخ. هذه هي المزاعم التي استنتج منها الشيخ الملقب مقاصد هشام من التشيع، فهشام بن الحكم في نظر هذا الشيخ إنما كان عدوا للإسلام، وأصبح ملحدا غير مؤمن، لأنه يذهب إلى إمامة علي بالنص، وأنه خليفة رسول الله في أمته. ونحن لا نلوم هذا الشيخ على هذيانه وتمردّه على الواقع، ولكننا نلوم الرجل



المثقف الذى يريد أن يخدم الأمة بنشر هذه الفضائح (1) وإخراج هذه الجيف، فلا- نطيل الوقوف هنا فالزمن أئمن و الوقت من ذهب. و عند الله تجتمع الخصوم. 3- وقال ابن حجر (2): هشام بن الحكم أبو محمد الشيبانى من أهل الكوفة، و كان من كبار الرافضة و مشاهيرهم، و كان مجسما يزعم أن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه، و يزعم أن علم الله محدث. ذكر ذلك ابن حزم. بدون مستند و لا سند، و إنما هذا مجرد تهجم على الأبرياء كما هو شأن ابن حزم. و على هذه اللغة و هذه اللهجة سار كل من تعصب على هشام. و قد ثبت من التحقيق أن هذه الجمل التى يسوقونها للانتقاص من هشام و الحط من كرامته، إنما هى مفتعلات الجاحظ و مفترياته. لأنه كان شديد القسوة على من يخالفه. و قد عرف بالانتصار للمعتزلة، و كان هشام حربا عليهم ناظر علماءهم و انتصر عليهم. و الجاحظ معروف بأسلوبه التهكمى اللاذع، الذى كان يتذرع به فى كثير من مهماته، فتراه عند ما يأخذ بعض الأشخاص بالتصوير التهكمى يقدم لك الصورة الدقيقة الرائعة، التى تثير فى نفسك كل ما يمكن من النفور و البغض. و هو إذ يتهجم على هشام يسلك سبيل السخرية و التهكم، فيقول: إن هشاما مجسم يدعى أن إلهه سبعة أشبار بشبر نفسه، له طول و عرض، و طوله مثل عرضه إلى آخر قوله فى اتهام هشام. و هذا أمر لا يحتاج إلى تحمّل مشقة فى الرد، لأن خصومة الجاحظ لهشام و لأمثاله أوضح من أن تخفى. و حيث كان الجاحظ هو بطل الخصومة لهشام، و هو مصدر تلك الاتهامات الباطلة فلا بد لكفة الميزان أن تحويه لتكشف نقصه مهما كان لاسمه صدى فى ميدان الأدب و مكانة فى رحابه.

### الجاحظ فى الميزان:

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى مولا هم المعروف بالجاحظ المتوفى سنة

ص: 88

- 
- 1-1) نشر هذا الكتاب عرة العطار مدير مكتبة نشر الثقافة الإسلامية فى مصر و علق عليه و حققه محمد زاهد الكوثرى.  
2-2) لسان الميزان ج 6 ص 194.

250 هـ أو سنة 255 هـ تلميذ النظام، وهو من رؤساء المعتزلة و متكلميهم، وله شهرة عظيمة في أدبه، كما أن له مؤلفات كثيرة في شتى العلوم والفنون، اتصل بالحكام والأمراء والخلفاء، وتقرّب إليهم بتصنيف الكتب والرسائل، وبها يتعصّب لمذاهبهم ويعضد بها آراءهم وينقض بها آراء مخالفيهم، طلبا لجوائزهم و نيلا لرفدهم. ولا نريد البحث عن علمه، ولكننا نريد أن نعرف: هل كان الجاحظ رائده الحق؟ وضالته الحقيقية ينشد الوصول إليها عن طريق الثبوت والتجربة والبرهان؟ أم كان له غرض خاص يطلبه ويسعى لتحقيقه. ولو كان الجاحظ يهدف إلى غاية معينة، ويلتزم فكرة، يجند لها قلمه لا يتعد عن المتناقضات و سار في خطّ مستقيم، فكم جاء بقول و أتى بعده بما يناقضه، و كم أبدى فكرة و أتى بما ينفيها، فهو متقلّب الرأى ضعيف العقيدة. و يتجلى لنا الأمر- إذا عرفنا منزلته و صدقه- عند ما نسائل عنه علماء الرجال، و نصغى لما وصفوه به و ما عرفوه عنه. قال أبو جعفر الإسكافي، وهو من كبار المعتزلة و علمائهم: إن الجاحظ ليس على لسانه من دينه و عقله رقيب، وهو من دعوى الباطل غير بعيد، فمعناه نزر، و قوله لغو، و مطلبه سجع، و كلامه لعب و لهو، يقول الشيء و خلافه، و يحسن القول و ضده، ليس له من نفسه واعظ، و لا لدعواه حد قائم (1). و قال ابن أبي دؤاد: الجاحظ أثق بظرفه و لا أثق بدينه (2). و قال الذهبي: كان الجاحظ من أهل البدع. و قال ثعلب: الجاحظ ليس بثقة و لا مأمون، كان كذابا على الله و على رسوله و على الناس. و قال أبو منصور في مقدمة تهذيب اللغة: و ممن تكلم في اللغات بما حصره لسانه، و روى عن الثقات ما ليس من كلامهم الجاحظ، و كان قد أوتى بسطة في القول، و بيانا عذبا في الخطاب، و مجالا في الفنون، غير أن أهل العلم ذبّوه و عن الصدق دفعوه (3).

ص: 89

1-1 (1) شرح النهج ج 3 ص 267. [1]

2-2 (2) تاريخ بغداد ج 12 ص 218. [2]

3-3 (3) لسان الميزان ج 4 ص 356-357.

و حكى الخطيب عنه: أنه كان لا- يصلى. وقال الإسكندري: الجاحظ كان عثمانيا ينتصب يفضل عثمان على عليّ (1). وقال ابن قتيبة: الجاحظ هو آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة استشارة، وأشدهم تطلقاً لتعظيم الصغير حتى يكبر، وتصغير العظيم حتى يصغر، و يبلغ به الاقتدار على أن يعمل الشيء و نقيضه، و يحتج للعثمانية على الرفضة، و مرة للزيدية على العثمانية و أهل السنة، و مرة يفضل عليا «رضى الله عنه» و مرة يؤخره، و يعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوز في الحجة، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما يعرفون، و تشكيك الضعفة من المسلمين و تجده يقصد في كتبه للمضاحيك و العبث يريد بذلك استمالة الأحداث و شراب النبيذ، و يستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم إلى أن يقول: و هو مع هذا من أكذب الأمة، و أضعفهم لحديث، و أنصرهم لباطل (2). هذه صورة عن الجاحظ نقدمها ليقف القارئ على أثر طعنه و تهجمه، و رميه الأبرياء من الأمة بما ليس فيهم، فهو غير مستقيم و لا- حدّ لتقلّبه و تلوّنه. يختلق الاتهامات، و يبتدع الأقوال، و يكذب في نقله. إن الجاحظ موهوب في أدبه، بارع في تهكمه و سخريته، له قدرة على تصوير الأشياء التي يخترعها من نفسه، و لا يهمله أن تتناقض أقواله و تضطرب آراؤه، فتراه يؤلف في الأمور المتناقضة، و الأشياء المتفرقة. نرى الجاحظ يميل مع الهوى و يساير الظروف، فهو إذ يخالف الواقع و يسلم قياده لهواه-تراه في مورد آخر يرجع إلى الحقيقة و يعطيها حقها من البيان، و يتبين لك تكلفه عند مخالفته للواقع، و انحرافه عن الصواب، و له رسائل عديدة متفرقة يستقصى فيها الحجج لنفسه، و يؤيدها بالبراهين، و يعضدها بالأدلة فيما يتصوّر من عقله، و ما يوحيه الهوى، و يفرضه عليه تماجنه و عبثه. ألف الجاحظ رسائل في أمور متناقضة تشهد على عدم استقامته، فهو ينتصر للعثمانية، و يذهب إلى تأخير على عليه السلام في الفضيلة، و يمدح معاوية بن أبي سفيان منتصرا له من على عليه السلام و شيعته، و يذكر إمامة آل مروان و بنى أمية بما شاء له الهوى

ص:90

1-1) تاريخ آداب اللغة ص 84.

2-2) مختلف الحديث لابن قتيبة ص 71-72.

والعصبية والمجون، ثم ينفلت من أسر هواه ويعود إلى رشده، ويترك الأخذ بالأراء والأهواء، فيؤلف رسالة في بنى أمية، ويصفهم بما يلزمه الواقع، ويجعل معاوية ظالما سفاكا للدماء، جائرا في الحكم، مخالفا لأحكام الإسلام. ويكتب رسائل في تفضيل علي عليه السلام والانتصار له، ويقدم الحجج و يقيم الأدلة والبراهين، وهو يصرح: بأنه عاد إلى رشده، وأفلت من عقال هواه وأخذ اليقين وترك الشك والظن، وإليك نصّ رسالته التي ذهب بها إلى تفضيل علي على جميع الأمة. وقد ذكرها الاربلي في كشف الغمة.

### رسالة الجاحظ في تفضيل علي عليه السلام:

قال: هذا كتاب من اعتزل الشك والظن، والدعوى والأهواء، وأخذ باليقين والثقة من طاعة الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و بإجماع الأمة بعد نبئها عليه السلام مما يتضمنه الكتاب والسنة، وترك القول بالأراء، فإنّها تخطئ وتصيب، لأن الأمة أجمعت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شاور أصحابه في الأسرى بيدر، و اتفق على قبول الفداء منهم فأنزل الله تعالى: مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ . فقد بان لك: أن الرأي يخطئ ويصيب ولا يعطى اليقين، وإنما الحجّة لله ورسوله وما أجمعت عليه الأمة من كتاب الله وسنة نبئها. ونحن لم ندرك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ولا أحدا من أصحابه الذين اختلفت الأمة في أحقّهم، فنعلم أيهم أولى، ونكون معهم كما قال تعالى: وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ نعلم أيهم على الباطل فنتجنبهم؟ وكما قال تعالى: وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا حَتَّىٰ أَدْرَكْنَا الْعِلْمَ فطلبنا معرفة الدين وأهله، وأهل الصدق والحق، فوجدنا الناس مختلفين بيرا بعضهم من بعض، ويجمعهم في حال اختلافهم فريقان: أحدهما، قالوا: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مات ولم يستخلف أحدا. وجعل ذلك إلى المسلمين يختارونه، فاختروا أبا بكر. والآخرون، قالوا: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ استخلف عليا، فجعله إماما للمسلمين بعده. و ادعى كل فريق منهم الحق. فلما رأينا ذلك وقفنا الفريقين لنبحث ونعلم المحق من المبطل؟ فسألناهم جميعا: هل للناس بدّ من وال يقيم أعيادهم، ويجبى زكاتهم، ويفرقها

على مستحقيها، ويقضى بينهم، ويأخذ لضعيفهم من قويهم و يقيم حدودهم؟ فقالوا: لا بد من ذلك. فقلنا: هل لأحد يختار أحدا فيوليه،  
بغير نظر من كتاب الله وسنة نبيه؟ فقالوا: لا يجوز ذلك إلا بالنظر. فسألناهم جميعا عن الإسلام الذي أمر الله به؟ فقالوا: إنه الشهادتان، و  
الإقرار بما جاء من عند الله، و الصلاة، و الصوم، و الحج- بشرط الاستطاعة- و العمل بالقرآن يحل حلاله و يحرم حرامه. فقبلنا ذلك منهم  
لإجماعهم. ثم سألناهم جميعا: هل لله خيرة من خلقه، اصطفاهم و اختارهم؟ . فقالوا: نعم. فقلنا: ما برهانكم؟ فقالوا: قوله تعالى: وَرَبُّكَ  
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ . فسألناهم: من الخيرة؟ فقالوا: هم المتقون. فقلنا: ما برهانكم؟ فقالوا: قوله تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ  
اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . فقلنا: هل لله خيرة من المتقين؟ قالوا: نعم، المجاهدون بأموالهم بدليل قوله تعالى: فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ  
عَلَى الْقَاعِidin دَرَجَةً . فقلنا: هل لله خيرة من المجاهدين؟ قالوا جميعا: نعم السابقون من المهاجرين إلى الجهاد بدليل قوله تعالى: لَا  
يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ . فقبلنا ذلك منهم لإجماعهم عليه، و علمنا أن خيرة الله من خلقه المجاهدون السابقون إلى  
الجهاد. ثم قلنا: هل لله منهم خيرة؟

قالوا: نعم. قلنا: من هم؟ قالوا: أكثرهم عناء في الجهاد، وطعنا وضربا وقتلا في سبيل الله، بدليل قوله تعالى: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ . فقبلنا منهم ذلك، و علمنا و عرفنا: أن خيرة الخيرة أكثرهم في الجهاد عناء، و أبدلهم لنفسه في طاعة الله، و أقتلهم لعدوه. فسألناهم عن هذين الرجلين على بن أبي طالب و أبي بكر أيهما كان أكثر عناء في الحرب، و أحسن بلاء في سبيل الله؟ فأجمع الفريقان على أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام أنه كان أكثر طعنا و ضربا و أشد قتالا، و أذب عن دين الله و رسوله. فثبت بما ذكرناه من إجماع الفريقين، و دلالة الكتاب و السنة أن عليا أفضل. و سألناهم-ثانيا-عن خيرته من المتقين؟ فقالوا: هم الخاشعون، بدليل قوله تعالى: **وَ أُرزِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ**. هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. **مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ** . و قال تعالى: **أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** . ثم سألناهم: من الخاشعون؟ فقالوا: هم العلماء، لقوله تعالى: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** . ثم سألناهم جميعا: من أعلم الناس؟ قالوا: أعلمهم بالقول، و أهداهم إلى الحق، و أحقهم أن يكون متبوعا و لا يكون تابعا بدليل قوله تعالى: **يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ فَجَعَلَ الْحُكْمَ لِأَهْلِ الْعَدْلِ**. فقبلنا ذلك منهم، و سألناهم عن أعلم الناس بالعدل من هو؟ قالوا: أدلهم عليه. قلنا: فمن أدل الناس عليه؟ قالوا: أهداهم إلى الحق. و أحقهم أن يكون متبوعا و لا يكون تابعا بدليل قوله تعالى: **أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ** **إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** فدل كتاب الله و سنة نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و الإجماع: أن أفضل

الأمة بعد نبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لأنه إذا كان أكثرهم جهادا كان أتقاهم، وإذا كان أتقاهم كان أخشاهم، وإذا كان أخشاهم كان أعلمهم، وإذا كان أعلمهم كان أدل على العدل، وإذا كان أدل على العدل كان أهدى الأمة إلى الحق، وإذا كان أهدى كان أولى أن يكون متبوعا، وإن يكون حاكما لا تابعا ولا محكوما. وأجمعت الأمة-بعد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم-أنه خلف كتاب الله تعالى ذكره وأمرهم بالرجوع إليه إذا نابهم أمر، وإلى سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فيتدبرونهما ويستنبطوا منهما ما يزول به الاشتباه فإذا قرأ قارئهم: وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ فيقال له: اثبتها، ثم يقرأ: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ وفي قراءة ابن مسعود-إن خيركم عند الله أتقاكم- وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ . فدلَّت هذه الآية على أن المتقين هم الخاشعون. ثم يقرأ فإذا بلغ قوله: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ فيقال له: اقرأ حتى ننظر هل العلماء أفضل من غيرهم أم لا؟ فإذا بلغ قوله تعالى: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ علم أن العلماء أفضل من غيرهم. ثم يقال: اقرأ، فإذا بلغ إلى قوله: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ . قيل: قد دلَّت هذه الآية على أن الله قد اختار العلماء وفضّلهم ورفعهم درجات، وقد أجمعت الأمة على أن العلماء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين يؤخذ عنهم العلم كانوا أربعة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن العباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت. وقالت طائفة: عمر. فسألنا الأمة: من أولى الناس بالتقديم إذا حضرت الصلاة؟ فقالوا: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يؤم القوم أقرؤهم. ثم أجمعوا على أن الأربعة كانوا أقرأ من عمر، فسقط عمر. ثم سألنا الأمة: أي هؤلاء الأربعة أقرأ لكتاب الله، وأفقه لدينه فاختلفوا، فأوقفناهم حتى نعلم. ثم سألناهم: أيهم أولى بالإمامة؟

فأجمعوا على أن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم قال: الأئمة من قريش. فسقط ابن مسعود وزيد بن ثابت. وبقي علي بن أبي طالب وابن عباس، فسألنا: أيهما أولى بالإمامة؟ فأجمعوا: علي أن النبي قال: إذا كان عالمان فقيهان من قريش فأكبرهما سنا وأقدمهما هجرة. فسقط عبد الله بن العباس وبقي علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فيكون أحق بالإمامة، لما أجمعت عليه الأمة و لدلالة الكتاب والسنة عليه. انتهى. ذكر هذه الرسالة (1) أبو الحسن علي بن السعيد فخر الدين عيسى بن أبي الفتح الأربلي وقال: إنها نسخت عن مجموعة للأمير أبي محمد الحسن بن عيسى المقتدر بالله. وبهذا نكتفي عن الحديث حول الجاحظ، كما أننا لا نود أن نتعرض لذكر ابن حزم وتشنيعه على هشام وقسوته في اتهامه، ويكفينا في ابن حزم ما عرف عنه من التهجم على العلماء بدون استناد حتى قيل: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان. إذ كل واحد منهما يفتك بالمسلمين ظلما وعدوانا. وقد تحامل ابن حزم على الشيعة بما لا يتقبله العقل، ولا ندرى من أي مصدر استقى ذلك. فلنترك مناقشته و علي الله حسابه.

### عود على بدء:

إن دراسة حياة هشام والوقوف على آرائه وأقواله توقف القارئ النبيه على أسباب اتهامه بتلك التهم الشنيعة التي تناقض الحقيقة، ولا تتفق مع عقيدته وإيمانه. وقد أشرنا لبعض الأسباب التي دعت خصومه لرميه في ذلك، وهناك شيء آخر وهو: أن هشام كان ذا شخصية قوية وفكر واسع ورأي صائب، وهو صلب في إيمانه، قوي في عقيدته، لا يتنازل عنها لسلطان، ولا يجارى الأغلبية الساحقة، ولم ينقطع يوما ما أمام مناظر، أو يهزم في قول أو يغلب في حجاج، وكانت المعركة الفكرية تدور حول الإمامة وما شاكلها، وكان هشام يخالف في رأيه سلطان عصره،

ص: 95



و يناظر على صحة قوله و صواب رأيه، فهو مع أهل البيت يناضل عن حقهم، و يحاجج في لزوم اتباعهم، و لم يعبأ في مخالفة الأغلبية، و لم يبال بالاضطهاد المنتظر بحق كل من يخالف رأى الدولة. و إن كان رأياها هو الرأى السائد و القول المتبع. فلذلك تكونت حول شخصيته تلك المؤامرات و الدسائس، التى تتكيف بمزاج العصر و أوضاعه؛ لأن أعظم سلاح يقاوم به من يخالف آراء ملوك ذلك العصر هو الاتهام بالبدعة، و الرمى بالإلحاد و الزندقة. و يكفى للاستدلال على براءة هشام من ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: «يا هشام ما زلت مؤيدا بروح القدس». و قوله: «هذا ناصرنا بقلبه و لسانه». و قوله: «هشام رائد حقنا المؤيد لصدقنا، و الدافع لباطل أعدائنا، من تبعه و تبع أمره تبعنا، و من خالفه فقد عادانا». و قال علم الهدى السيد المرتضى: فكيف يتوهم عاقل -مع ما ذكرناه- على هشام هذا القول: بأن ربّه سبعة أشبار بشبره، و هل ادعاء ذلك عليه (رضوان الله عليه) مع اختصاصه بالمعوم بالصادق، و قربه منه و أخذه عنه إلاّ قدح فى أمر الصادق، و نسبته للمشاركة فى الاعتقاد الذى نحلوه هشاما، و إلاّ كيف لم يظهر عنه من النكير عليه، و التباعد له بما يستحقه المقدم على هذا الاعتقاد المنكر، و المذهب الشنيع (1). و وردت فى حقه روايات مدح من بقية الأئمة عليهم السلام كقول الإمام الرضا عليه السلام عند ما سئل عن هشام: «رحمه الله كان عبدا ناصحا و أودى من قبل أصحابه حسدا منهم له». و قال الإمام الجواد عليه السلام: «هشام بن الحكم رحمه الله ما كان أذبه عن هذه الناحية». و صفوة القول: إن هشام بن الحكم كان عظيم المنزلة، رفيع المكانة ثقة فى الحديث، مبرز فى الفقه و التفسير و سائر العلوم و الفنون. و الشىء الذى يلفت النظر، هو وجود بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تنص على الطعن فى عقيدة هشام، و قد ذكرها الأصحاب فى معرض النقد و الرد، إذ هى -بدون شك- مكذوبة لا صلة لها بالصحة.

ص:96

فمن ذلك: ما أشاعوه عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال في هشام: إنه ضال مضل، شرك في دم أبي الحسن الكاظم عليه السلام ولما شاعت هذه المقالة قدم جماعة من الشيعة إلى الإمام الرضا عليه السلام يسألونه عن ذلك القول، وعن مبلغه من الصحة لكي يتبرءوا من هشام إن صح ذلك. فتقدم إليه موسى بن المشرق يسأله عن ذلك القول، وهل يتولون هشاما أم يتبرءون منه؟ فأجابته الإمام بلزوم موالاته هشام، وقال له: «تولوه، إذا قلت لك فاعمل به ولا تريد أن تغالب به، أخرج الآن فقل لهم-أى الشيعة-: قد أمرنى بولاية هشام». وقال عليه السلام «رحمه الله-أى هشاما-كان عبدا ناصحا وأوذى من قبل أصحابه حسدا منهم له» (1). ومنهم: عن محمد بن زياد قال: سمعت يونس بن ظبيان يقول: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقلت له: إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً إلا أنى أختصر لك منه حرفاً: يزعم أن الله جسم لأن الأشياء شيان: جسم وفعل فلا-يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل. فقال أبو عبد الله: «ويله، أما علم أن الجسم محدود متناه، والقدرة محدودة متناهية، فإذا احتمل الحد الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً». هكذا ادعى يونس بن ظبيان أنه سمع ذلك في حق هشام. ويونس، هذا هو ممن يكيد لهشام ويبغضه، لأن يونس من الغالين الذين شوّهوا سمعة المذهب، وهو من أصحاب أبي الخطاب. قال ابن الغضائري: يونس بن ظبيان كوفي غال كذاب، وضاع للحديث. روى عن أبي عبد الله، لا يلتفت إلى حديثه. وقال النجاشي: إنه مولى ضعيف جدا لا يلتفت إلى ما رواه، كل كتبه تخليط، وقد ورد لعنه على لسان الأئمة. وعلى أى حال، فإن هشام بن الحكم من المعذّبين فى الله، وهو أجلّ من أن

ص:97

تنسب إليه تلك الأُمور، وأعظم منزلة من كل ما يرمونه به، فلا يلتفت إلى تلك الخرافات والأوهام والبدائس التي حيكت حول شخصيته.

## هل تؤاخذ الأمة بقول الفرد؟! !

و لم يكف خصوم هشام صوغ تلك العبارات و اختراع تلك الحكايات في ذمّه و الحط من كرامته، حتى تجاوزوا الحدّ في ذلك، و نسبوا تلك الآراء المفتعلة لمجموع الشيعة، و هذا من الخطأ الفاحش. و لو سلمنا جدلاً أن هشام بن الحكم كان يعتقد بما نقل عنه (و العياذ بالله) فهل يصح لهم أن يجعلوا ذلك الرأى لمجموع الشيعة، و أن تلك العقائد المكذوبة هي من عقائد الشيعة؟ و هل يصح لهم مؤاخذه الكل بجريمة الجزء؟ و هذا أمر لا يبرّره منطق سليم، لأن جميع الهيئات و الطوائف في المجتمع الإنساني لا تخلو من أفراد يحطّون من قدرها و يسيؤون إلى سمعتها!! و قد استساغوا ذلك في حق الشيعة بنسبة الآراء الفردية لمجموع الأمة، و هذا كثير لا حصر له و لسنا بصددّه الآن. و كما قلنا: إذا سلمنا جدلاً بصحة ما يقولونه في هشام (و ليس لقولهم نصيب من الصحّة) فهل يصح أن يجعل ذلك الرأى لمجموع الشيعة؟ و قد سلك هذه الطريقة الملتوية و ارتكب هذا الخطأ الفاحش جماعة من القدماء و بعض المتأخرين و لم يكتفوا بالافتراء على هشام بل جعلوا ذلك لمجموع الشيعة إفكا و زورا. و على سبيل المثال نذكر ما يقوله الخياط المعتزلى في كتابه «الانتصار»، بعد أن ذكر تلك المفتريات عن هشام بن الحكم منتصراً لأشياخه، و مقلداً للجاحظ في إفكه و بهتانه. قال: الرافضة تعتقد أن ربها ذو هيئة و صورة، يتحرك و يسكن، و يزول و ينتقل، و أنّه غير عالم فعلم. إلى أن يقول: هذا توحيد الرافضة بأسرها إلا نفر منهم يسير أصحابوا المعتزلة و اعتقدوا التوحيد، فنفتهم الرافضة عنهم و تبرءوا منهم. أما جملتهم و مشايخهم مثل هشام بن سالم، و شيطان الطاق، و على بن ميثم، و هشام بن الحكم، و السكاك، فقولهم ما حكيت عنهم. ثم يقول: الرافضة تقول: إن ربّها جسم ذو هيئة و صورة، يتحرك و يسكن و يزول و ينتقل.

فهل على وجه الأرض رافضى إلاّ وهو يقول: إن الله صورة. و يروى فى ذلك الروايات و يحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم إلاّ من صحب المعتزلة منهم. إلى آخر أقواله و تقولاته فى كتاب «الانتصار» فى مواطن متعددة. و لا أريد مناقشة هذا الافتراء و الدسّ، و هذه الأقوال التى لا ربط لها بالحقيقة، و لا مساس لها بالواقع، و لكن من الحق أن نؤاخذ بهذا الانحراف، و نحاسبه على هذا الشذوذ فى سلوك تلك الخطة الملتوية، و قد سار على هذا كثير ممن كتب عن الشيعة بدون تفكير و تدبّر، و ذكروا فرقا للشيعة بأسماء من ينسبون إليهم رأيا فرديا، و هو افتراء و تقول بالباطل. و لئن صح هذا السلوك و استساغوا هذه اللغة فيصح للشيعة عندئذ هذا الاستعمال فيقيسوا مجموع الأمة بالفرد و ينسبوا الآراء الفردية للجميع. و قد اشتهر جماعة من علماء المذاهب الأخرى و المقدمين عندهم بشذوذ فى الآراء و فساد فى الاعتقاد و إليك منهم: 1- شهاب الدين يحيى بن حبش، فقد اشتهر عنه أنه كان زنديقا، و له عقيدة الانحلال و التعطيل، و له أشياء منكرا، و كان بارعا فى علم الكلام مناظرا محججا (1). 2- محمّد بن جمال الباجرى الشافعى المعروف بالشمس، و قد عرف بالزندقة و الإلحاد، و له أتباع ينسبون إليه، و يعكفون على ما كان يعكف عليه (2). 3- الرفيع الجيلى الشافعى قاضى القضاة بدمشق المتوفى سنة 642 هـ. قال ابن شهبة فى تاريخه: إنه كان فاسد العقيدة دهرىا مستهزئا بأمر الشريعة. و يقول ابن العماد: إنه سار سيرة فاسدة. مع قلة دين و فساد عقيدة، مع استعمال المنكرات و حضور صلاة الجمعة سكرانا (3). 4- عبد الله بن محمّد بن عبد الرزّاق الحربوى بن الخوام الشافعى، فإنه نسب الوزير رشيد الدولة إلى الربوبية بتقريضه تفسيره حتى قال شاعر وقته: يا حزب إبليس ألا فابشروا إن فتى الخوام قد أسلما

ص: 99

1- 1) شذرات الذهب ج 4 ص 29، و [1] مرآة الجنات ج 3 ص 437.

2- 2) البداية و النهاية لابن كثير ج 14 ص 14. [2]

3- 3) شذرات الذهب ج 5 ص 214. [3]

و كان فيما قال في كفره إن رشيد الدين رب السّما

وقال لى شيخ خبير به ما أسلم الشيخ بل استسلما

(1) فهل يصح هنا أن نؤاخذ الأمة بهذا الرأى الفردى، كما أخذوا الشيعة بما ينسب للحسن بن هانى الشاعر الأندلسى فى مدحه للمعز بقوله: ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار

وقالوا: إن الشيعة بلغوا فى الغلو درجة بعيدة، و مثلوا له بقول الحسن بن هانى (2). و مما يؤسف له أن هذا القول صدر من مثقف من أبناء عصر النور، فما قولنا فى أبناء العصور المظلمة. و هذا القول هو أحد الدواعى التى ألجأتنا إلى إعطاء هذه الصورة و إثبات هذا العرض. 5- محمّد بن العلى أبو عبد الله الحكيم الترمذى الشافعى. كان يفضل الأولياء على الأنبياء، و قد ألف كتابا فى ذلك سمّاه ختم الولاية، و قال: إن للأولياء خاتما كما لأنّ للأنبياء خاتما، و إنّه يفضل الولاية على النبوة محتجا بالحديث: «الأولياء يغبطهم النبيون و الشهداء». قال: لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم (3). 6- الركن عبد السلام بن وهب بن عبد القادر الجيلانى الحنبلى المتوفى سنة 611 هـ. كان داعية للانحلال و حكم بكفره، و كان يخاطب النجوم و يقول لزحل: أيها الكوكب الدرّى المضىء المنير أنت تدبر الأفلاك و تحيى و تميت و أنت إلهنا. و له فى حق المريخ من هذا الجنس (4). 7- صدقة بن الحسين البغدادى الحنبلى المتوفى سنة 267 هـ. كان بارعا فى فقههم و أصولهم، و المقدم فى عصره عندهم، مع سوء اعتقاده

ص: 100

1-1 (1) الدرر الكامنة ج 2 ص 292. [1]

2-2 (2) أثر التشيع فى الأدب العربى لمحمّد سيد جيلانى ص 89.

3-3 (3) طبقات الشافعية ج 2 ص 20.

4-4 (4) شذرات الذهب ج 5 ص 45. [2]

وفساد رأيه، ورداءة مذهبه. قال ابن الجوزى فى المنتظم: إنه يعترض على القدرة، وأورد له من الشعر ما يدل على سوء معتقده. كقوله: لا توطنها فليست بمقام واجتنبها فهى دار الانتقام

أتراها صنعة من صانع أم تراها رمية من غير رام

وقد وضعوا فيه مناما بعد موته عند ما سئل عن حاله فقال: غفر لى بتميرات تصدقت بها على أرملة (1). 8- إسماعيل بن على الملقب بفخر الدين الفقيه الحنبلى المتوفى سنة 616 هـ. كان من المشهورين فى علم الكلام، قرأ المنطق والفلسفة على ابن مرقيس الطبيب النصرانى، و كان يتردد عليه إلى بيعة النصرى، و صنف كتابا سماه نواميس الأنبياء، يذكر أنهم كانوا حكماء، كهرمس، و أرسطاطاليس و كان متسامحا فى دينه متلاعبا به، إلى آخر ما نقل عنه من الآراء الفاسدة، و الأمور القبيحة (2). كان أحد العلماء العارفين بالمذهب، و نسبت إليه أشياء قبيحة و آراء فاسدة (3). 9- إبراهيم الملقب بشمس الدين الحنبلى المتوفى سنة 610 هـ. 10- إبراهيم بن يوسف أبو إسحاق الأوسى المالكى المتوفى سنة 611 هـ المعروف بابن المرأة، كان فقيها مالكيا غلب عليه علم الكلام. ذكره ابن حبان فى زنادقة أهل الأندلس (4). 11- أبو معن النميرى من كبار المعتزلة، قال ابن قتيبة: و من المشهور عنه أنه رأى قوما يتعادون إلى الجمعة لخوفهم فوت الصلاة فقال: انظروا إلى البقر أنظروا إلى الحمر. ثم قال لرجل من إخوانه: أنظر ما صنع هذا العربى بالناس (5)؟ 12- و محمد اللوشى الغرناطى المتوفى سنة 776 هـ فقد نسب إلى الزندقة

ص: 101

1-1 (1) لسان الميزان ج 3 ص 186.

2-2 (2) شذرات الذهب ج 5 ص 41. [1]

3-3 (3) شذرات الذهب ج 5 ص 40. [2]

4-4 (4) لسان الميزان ج 1 ص 127.

5-5 (5) نفس المصدر ج 2 ص 83.

و الإلحاد والانحلال، والخروج عن الدين، وانتقاص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى غير ذلك مما اتصف به (1). وغير هؤلاء ممن يطول المقام ببسط القول فيهم، كالشيخ نجم الدين بن خلكان (2) وإسماعيل بن عبد الله الرعيني، والفخر الرازي المؤرخ الكبير والمفسر الشهير (3) وأبو حيان التوحيدي الشافعي وغيرهم ممن رمى بالإلحاد والزندقة وسوء العقيدة ونسبت إليه آراء فاسدة. وإذا أردنا أن نتوسع في الموضوع ونرجع إلى أعيان المذاهب و من عليهم مدار أحكامها فالأمر أفضح. فهذا محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة 189 هـ، وهو عماد المذهب الحنفي وقوامه، وعليه مدار أحكامه، لما قام به من التأليف ونشر المذهب، وإذا صح التعبير فنقول: هو إمام المذهب الحنفي الثاني، ومع هذا فقد رموه بالإرجاء وغيره، كما حكى عن أحمد بن حنبل أنه قال فيه: إنه مرجئ. وقد ردّ شريك القاضي شهادته و وقعت بينه وبين أبي يوسف منافرة، فكان أبو يوسف يقول: محمد بن الحسن جهمي. إلى غير ذلك من الأقوال فيه (4) و من أعيان الحنفية: بشر بن غياث المريسي المتوفى سنة 218 هـ فقد وصفوه: بأنه ضال مبتدع، ونص أبو زرعة على زندقته، وقال الأزدي: أنه على غير طريقة الإسلام. و إنه كان ينكر عذاب القبر وسؤال الملكين، والصراط والميزان، إلى آخر ما روى عنه من الأقوال المنكرة، والآراء الفاسدة (5). وكذلك محمد بن شجاع الثلجي المتوفى سنة 267 هـ. من فقهاء الحنفية، وله الرئاسة في وقته، وقد نسب إلى البدعة. سئل عنه أحمد بن حنبل فقال: مبتدع صاحب هوى. وقال الساجي: إن

ص: 102

- 
- 1-1) شذرات الذهب ج 6 ص 46. [1]  
 2-2) انظر مرآة الجنان ج 4 ص 242. [2]  
 3-3) شذرات الذهب ج 5 ص 21. [3]  
 4-4) وفيات الأعيان ج 3 ص 224، ولسان الميزان ج 5 ص 121.  
 5-5) لسان الميزان ج 2 ص 30، والفوائد البهية في تراجم الحنفية ص 54، والفرق بين الفرق للبغدادى ص 124. [4]

محمد بن شجاع كان كذابا، احتال في إبطال حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نصره لأبي حنيفة. وقال ابن الجوزي: كان يضع الحديث في التشبيه وينسبه لأهل الحديث (1). هذا عرض تاريخي موجز لجماعة اتهموا بسوء الاعتقاد فتحملوا مسئولية دون غيرهم، بوسعنا أن نذكر من الشخصيات العظيمة التي نسبوا إليها آراء فاسدة ومذاهب ذميمة، كأبي الحسن الأشعري (2) إمام أهل السنة، وشيخ الطريقة في الاعتقاد فقد وصفوه بالبدعة والضلالة، وأنه أنكر نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد موته، كما أنكر عذاب الله للعصاة والكفار، وأنه تعالى لا يجازي المطيعين على إيمانهم وطاعتهم. وكان يقول: بتكفير العوام (3) إلى غير ذلك مما نسبوه له، وما اتهموه فيه. وكذلك ابن تيمية وابن القيم الجوزية وتاج الدين السبكي وغيرهم. إننا لا نستعمل تلك الطريقة الملتوية، وذلك القياس المعكوس، فلا نقيس الأمة بالفرد، ولا نؤاخذ السليم بالسقيم، بل نشب في الحكم على الشخصيات الإسلامية، فلا نتسرع بقبول الاتهام ما لم يتضح الأمر، لأننا قد عرفنا أثر ذلك التطور الذي حدث في البلاد الإسلامية، فهو عامل من أخطر العوامل التي لعبت دورها في الحياة العقلية، في تلك العصور الماضية. إلى جانب ذلك يلزمنا أن لا نهمل عوامل السياسة، والتهاكك على السيادة في تفريق صفوف الأمة، وجعلها أحزابا وفرقا! . والغرض: أن قياس الأمة بالفرد من الأمور التي لا يقرها المنطق. وقد سلكوا في اتهام الشيعة طرقا غير صحيحة، وكالوا لهم الذم جزافا، بدون تمحيص وتدبر، ولعبوا في التاريخ وخاضوا فيه بالباطل فَذَرُّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ولا نريد أن نقابلهم بالمثل ولا نقيم معهم الحساب، بل نتركهم ليوم الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فهم مسئولون أمام الله عن بذور التفرقة

ص: 103

1-1) الفوائد البهية ص 172.

2-2) أبو الحسن الأشعري: هو على بن إسماعيل يرجع نسبه إلى أبي موسى الأشعري، توفي سنة 324 هـ كان معتزليا ويعد من كبارهم و متكلميهم، ثم رجع عن الاعتزال و ألف كتبا في العقائد، فأصبح شيخ طريقة أغلب أهل السنة وعليه المدار في الاعتقاد.

3-3) طبقات الشافعية ج 2 ص 278-285.



التي زرعوها في حقول التاريخ فاجتنت ثمرتها الأجيال؛ فكان من أثر تسمم الثمرة أن يهاجمنا في كل آونة بعض من أبناء هذا العصر ممن أخذ التقليد بعنقه. فسَيِّره طوع إرادته، و حرمة حرية التفكير، و لكننا لا نود مقابله بل نمّر على ما نقرأ له مرّ الكرام، داعين الله له بالشفاء من الأمراض العقلية. و صفوة القول: إن تلك العصور التي عظم فيها التطاحن قد كدّرت صفوة الأخوة، و غيرت مجرى الواقع. و الشيء الذي نود أن ننّبّه عليه في ختام هذا العرض: هو أنّه لما لم يكن الاتهام مبنياً على أساس وثيق، و قاعدة بيّنة، كثر الخلط و الخبط، و لم يفرقوا بين السليم و السقيم، و المتهم و البريء. و إليك أمثلة من ذلك: 1- إن اسم الجعفرية أصبح علماً لأتباع جعفر بن محمد الصادق، و به يعرفون. و توجد هناك فرقان من المعتزلة عرفنا بالجعفرية: الأولى: أتباع جعفر بن حرب الثقفي المتوفى سنة 224 هـ. و الثانية: أتباع جعفر بن مبشر الهمداني المتوفى سنة 226 هـ، و كلاهما من المعتزلة و لهما آراء و أقوال شاذة اشتهرت عنهما، و تناقلها الناس، و تبعهما على ذلك خلق عرفوا بالجعفرية، فجاء من لا يفرق بين الحق و الباطل و لا يعرف إلاّ اتباع هواه، فخلط هذين الفرقتين مع الفرقة الجعفرية الشيعية، و نسب تلك الأقوال الشاذة إليهم بدون تفكير و تدبر!! 2- قولهم في المفضل بن عمر أنّه كان يلعب بالحمام، و إنه من أصحاب أبي الخطاب، مع العلم بأن المفضل هو أجلّ من ذلك، و لكنهم لم يفرّقوا بينه و بين المفضل بن عمر الصيرفي، الذي كان من الخطابية و من المخالفين لقواعد الإسلام، فخلطوا بين هذا و ذاك و لم يهتدوا للفرقة، و لعل أكثرهم يتعمد ذلك للوقعة في المفضل، لأنه شيعي من خواص الإمام الصادق. 3- إن من المعتزلة فرقة تعرف بالهشامية، و هم أصحاب هشام بن عمر الفوطي، و كان معاصراً لهشام بن الحكم، و قد ذهب إلى أشياء منكورة. و أنت عند مراجعتك لما اتهم به هشام من تلك الأمور المفتعلة تجد أكثرها من أقوال الفوطي، لأنهم خلطوا في ذلك، و لم يفرّقوا بين هشام بن الحكم و بين هشام بن عمرو الفوطي!!

و كثير من هذا الخبط و الخلط، مما يطول بنا الحديث عنه و الحديث شجون. و لنعد إلى الحديث عن هشام و مكانته، و نرى من الخير أن نذكر هنا وصية الإمام موسى بن جعفر له، فهي من غرر الوصايا، و جوامع الكلم، و على ضئونها نأخذ صورة عن منزلة هشام. و قد اقتطفنا منها قليلا، و هي طوييلة:

### وصية الإمام موسى له:

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام موصيا هشاما: «يا هشام، من أراد الغنى بلا مال، و راحة القلب من الحسد، و السلامة في الدين، فليتضرع إلى الله في مسأله بأن يكمل له عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، و من قنع بما يكفيه استغنى، و من لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبدا. يا هشام، من صدق لسانه زكى عمله، و من حسنت نيته زيد في رزقه، و من حسن برّه ياخوانه و أهله مدّ في عمره. يا هشام، لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها، و لا تمنعوها أهلها فتظلموهم. يا هشام، كما تركوا لكم الحكمة؛ فاتركوا لهم الدنيا. يا هشام، إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه ثلاث خصال: يجيب إذا سئل، و ينطق إذا عجز القوم عن الكلام، و يشير بالرأى الذى فيه صلاح أهله. فمن لم يكن فيه شيء منهن فجلس فهو أحمق. يا هشام، إن العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه، و لا يسأل من يخاف منعه، و لا يعد ما لا يقدر عليه، و لا يرجو ما يعتف برجائه، و لا يتقدم على ما يخاف لعجز عنه. يا هشام، رحم الله من استحيا من الله حق الحياء فحفظ الرأس و ما حوى، و البطن و ما وعى، و ذكر الموت و البلى، و علم أن الجدة محفوفة بالمكاره، و النار محفوفة بالشهوات. يا هشام، من كف نفسه عن أعراض الناس أقال الله عشرته يوم القيامة، و من كف غضبه عن الناس كف الله عنه غضبه يوم القيامة. يا هشام، تعلم من العلم ما جهلت، و علم الجاهل مما علمت. عظم العالم لعلمه، و صغر الجاهل لجهله و لا تطرده، و لكن قرّبه و علمه.

يا هشام، عليك بالرفق، فإن الرفق يمن، و الخرق شؤم، إن الرفق والبر وحسن الخلق يعمر الديار، و يزيد في الأعمار. يا هشام، إن مثل الدنيا مثل الحية مسّها لئىن، و فى جوفها السم القاتل. يحذرها الرجال ذوو العقول، و يهوى إليها الصبيان بأيديهم. يا هشام، إن الزرع ينبت فى السهل و لا ينبت فى الصّفا، فكذلك الحكمة تعمر فى قلب المتواضع، و لا تعمر فى قلب المتكبر الجبّار، لأن الله جعل التواضع آلة العقل، و جعل التكبر آلة الجهل، ألم تعلم أن من شمخ إلى السقف شجّه، و من خفض رأسه استظل تحته و أكّته، و كذلك من لم يتواضع لله خفضه الله و من تواضع لله رفعه. يا هشام، إياك و مخالطة الناس و الأئس بهم، إلا أن تجد بهم عاقلا و مأمونا فأنس به، و اهرب من سائرهم كهربك من سباع الضارية. و ينبغى للعاقل إذا عمل عملا أن يستحى من الله. و إذا مرّ بك أمران لا تدرى أيهما خير و أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإن كثير الصواب فى مخالفة هواك. يا هشام، من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه. و ما أوتى عبد علما فازداد من الدنيا حبا إلا ازداد من الله بعدا، و ازداد الله عليه غضبا. يا هشام، إياك و الطمع، و عليك باليأس مما فى أيدي الناس، و أمت الطمع من المخلوقين، فإن الطمع مفتاح للذل و اختلاس العقل، و اختلاق المروءات و تدنيس العرض، و الذهاب بالعلم. و عليك بالاعتصام بربك و التوكّل عليه، و جاهد نفسك لتردّها عن هواها، فإنّه واجب عليك كجهاد عدوك». قال هشام: قلت أى الأعداء أوجبهم مجاهدة؟ قال عليه السلام: «أقربهم إليك، و أعداهم لك، و أضرّهم بك، و أعظمهم لك عداوة، و أخفاهم لك شخصا-مع دنوه منك. . .» . يا هشام، من أكرمه الله بثلاث فقد لطف له: عقل يكفيه منونة هواه، و علم يكفيه منونة جهله، و غنى يكفيه مخافة الفقر. يا هشام، احذر هذه الدنيا و احذر أهلها، فإن الناس فيها على أربعة أصناف: رجل متردى معانق لهواه، و متعلّم مقرئ كلما ازداد علما ازداد كبيرا يستعلى بقرائه و علمه على من هو دونه، و عابد جاهل يستصغر من هو دونه فى عبادته، يحب أن

يعظّم ويوقّر، و ذو بصيرة ولا- يقدر على القيام بما يعرفه فهو محزون مغموم بذلك، فهو أمثل أهل زمانه و أوجبهم عقلا». ثم ذكر عليه السلام العقل و جنده و الجهل و جنده. و تركنا ذلك اختصارا.

## و خلاصة القول:

إن هشام بن الحكم قد عز بولائه لأهل البيت، و ناظر جميع أهل الفرق في التوحيد و الإمامة، و ضحّى براحته في سبيل مبدئه، و بذل أقصى الجهد من أجل إصلاح العقيدة و القضاء على البدعة. و كان يستمد تعاليمه من ينبوع أهل بيت النبوة، هداة الخلق، و أئمة العدل. و قد لقي العنت من حساده و منافسيه، و كان عرضة للخطر من قبل سلطان عصره حتى أصبح مشردا عن البلاد. و قد طلبه هارون الرشيد أشد الطلب حتى أدركه الموت بالكوفة مختفيا، و أوصى أن يحمل في جوف الليل، و يدفن بالكناسة، و تكتب رقعة على قبره: هذا قبر هشام بن الحكم- الذي طلبه أمير المؤمنين- مات حتف أنفه. و بلغ هارون الرشيد ذلك فقال: الحمد لله الذي كفانا أمره. و كان هارون قد أخذ به خلقا كثيرا من تلامذته و أصحابه، و منهم إخوانه. فأفرج عنهم بعد موته و أطلقهم. لقد كان هشام من المفكرين المصلحين، الذين خدموا الأمة بإخلاص النية و صدق العزيمة و رجاحة الرأي. و له القدر المعلى في نصرة مذهب أهل البيت، و إنك عند ما تتبع آثاره الخالدة تجده يلتفت إلى النوادر من الفروع. و إلى الغوامض من المسائل، و له كلمات خالدة ذكرها العلماء في مختلف المواضيع: في التوحيد، و النبوة و الإمامة، و قد ضاق المجال عن استقصائها. و قد كانت لي رغبة شديدة في إحياء مآثره و الإحاطة بدراسة شخصيته دراسة وافية غير أني لما وجدت الشيخ محمد حسين المظفر قد كتب رسالة كبيرة قيمة فيه. تركت الميدان لفارس الحلبة. فرحم الله هشاما، لقد أودى في سبيل نصرة الحق، و كان من الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (1). و هنا ينتهي حديثنا عن أصحاب الإمام الصادق، و لم نذكر كثيرا منهم طلبا للاختصار. و ستأتي الإشارة إلى الأعيان منهم كهشام بن سالم الجواليقي، و هشام بن الأحمر، و هشام بن المثنى الرازي، و غيرهم، و بالله نستعين و منه نستمد التوفيق.

ص: 107



في عصر الإمام الصادق

### تمهيد:

لعل خير ما يعكس لنا أهمية الدور الذي لعبته مدرسة الإمام الصادق عليه السلام والنشاط العلمي الذي قامت به في ذلك العصر، و اتساع نفوذها وكثرة روادها هو ما نجده في انتماء رجال من أهل العلم إليها، وحضورهم عنده لانتهاج العلم، وأخذ الأحكام، فقد كانت مدرسته عليه السلام جامعة إسلامية، يؤمها المسلمون من مختلف الطوائف، وشتى الفرق، فهي مدار الحركة الفكرية، والمحرك الذي تدور عليه آمال الموجهين وحملة الدعوة الإسلامية، وقد أثرت تعاليمه عليه السلام في كثير من أولئك الرجال فاعتدلوا في آرائهم. و الإمام أبو حنيفة الذي عرف بكثرة القياس وطرح أكثر الأحاديث؛ يكشف لنا أهمية هذه المدرسة وعظيم أثرها إذ يقول: (لولا السنتان لهلك النعمان) والسنتان هما اللتان حضر بهما عند الإمام الصادق وكان الإمام الصادق يشتد عليه في كثرة القياس وينظره في ذلك، و بهذا يتضح أن أبا حنيفة في أخذه أقوال الإمام الصادق، واتباع أمره يعد نفسه في نجاة من الهلكة، وربما يكون ذلك في تركه القياس، و أخذه بالأحاديث الصحيحة. ومهما يكن من أمر فقد حدثنا التاريخ عن أولئك الرجال الذين ينتمون لفرق مختلفة قد حضروا عند الإمام الصادق وناظرهم، وفند كثيرا من آرائهم، وقد كان عليه السلام يتحرى من برز منهم مخافة اشتداد خطره واستفحال أمره، فإن لم يأت كبقية أصحاب الفرق والمعتقدات والأفكار الذين يقصدونه للكلام والمناظرة، وجه أصحابه وأوصاهم بطريقة الوعظ وبمنهج الكلام الذي يختص بهذا الجانب، فيمضى

الأصحاب في حلقاتهم و دروسهم على تلك الطريقة و ذلك المنهج، و من قصده من أصحاب الفرق و الأقوال بعد سماعه ما تتحدث به الركبان و تلهج به الألسن من علم الإمام الصادق يلق من الإمام حججا ساطعة و براهين واضحة لا يملك معها الإنسان إلا أن يثوب إلى رشده أو يكابر و يعاند. و من الضروري التعرف على أهم تلك الفرق الإسلامية، التي نشأت في عصره أو سبقتة بدون إحاطة أو إسهاب في البيان.

## الخوارج:

نشأت هذه الفرقة بصفيين، عند ما طلب معاوية التحكيم من الإمام على عليه السلام، و هي خدعة حربية استعملها معاوية و دله عليها ابن العاص عند ما أحس بالهزيمة و لمس الضعف في جيشه، و عرف تفوق على بحقه، و إن الحق مع على عليه السلام و قد انضم لجيشه رجال مخلصون قد رسخ الإيمان في قلوبهم. أراد معاوية أن يوقع الشك، و يحدث الفرقة في صفوف جيش الإمام عليه السلام و قد وقع ما أراد معاوية، فقد نفرت طائفة لم يترسخ الإيمان في قلوبهم و مرقوا من الدين، و لم يقبلوا تحكيم أحد في كتاب الله و رأوا أن التحكيم خطأ، لأن حكم الله في الأمر واضح جلي، و التحكيم يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيهما المحق؟ و ليس يصح هذا الشك، لأنهم و قتلهم إنما حاربوا و هم مؤمنون. هذه المعاني المختلجة في نفوسهم صاغها أحدهم في الجملة الآتية: (لا حكم إلا لله) فسرت هذه الجملة سير البرق إلى من يعتنق هذا الرأي، و تجاوزتها الأنحاء فأصبحت شعار هذه الطائفة (الخوارج). و على أي حال، فقد تكونت هذه الفرقة من عناصر مختلفة، و ظهرت منهم مخالفة على عليه السلام و تجرءوا على مقامه. و نسبوا إليه ما لا يليق بشأنه. و قد نظموا أمورهم، و قاموا بأمر لم يكن وليد وقته و إنما هو أمر مدبر من ذي قبل، فكانت حرب النهروان، و قضى الإمام على عليه السلام على زعمائهم. و استمروا على اعتقادهم و حماسهم، و كانوا يظنون أنهم أشد فرق المسلمين دفاعا عنه، و أظهروا غضبهم على كثير من الخلفاء، و استعملوا ألفاظا معسولة في الدعوة إلى مبادئهم، و تظاهروا بالهدف إلى العدل و المساواة، و لكنهم تلبسوا بالظلم إلى أبعد حد، و أباحوا دماء جميع المسلمين، و خضبوا البلاد الإسلامية بالدماء.

و كانوا يتهورون فى دعوتهم، و يتشددون فى عقيدتهم، و يرون إباحة دماء المسلمين الذين يخالفون عقيدتهم، فالمسلم المخالف لهم لا عصمة لدمه. و من طريف أخبارهم: أنهم أصابوا مسلماً و نصرانياً فقتلوا المسلم و أوصوا بالنصرانى، و قالوا: احفظوا ذمة نبيكم فيه. و قتلوا عبد الله بن خباب و فى عنقه مصحف، و قالوا: إن الذى فى عنقك يأمرنا أن نقتلك، فقرّبوه إلى شاطئ النهر فذبحوه و بقروا بطن زوجته. و ساوموا نصرانياً نخلة له، فقال: هى لكم. فقالوا: و الله ما كنا لناخذها إلا بثمن، فقال لهم النصرانى: ما أعجب هذا؟ أقتلون مثل عبد الله بن خباب و لا تقبلوا منا ثمن نخلة؟! .!

## آراء الخوارج و فرقهم:

اتفق جمهور الخوارج على نظريتين: 1- نظرية الخلافة: و هى أن الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح من المسلمين، و يستمر الخليفة ما قام بالعدل مبتعداً عن الزيف و الخطأ، فإن حاد و جب عزله أو قتله. 2- إن العمل جزء من الإيمان، و ليس الإيمان الاعتقاد وحده، فمن لم يعمل بفروض الدين و ارتكب الكبائر فهو عندهم كافر. و لم يفرّقوا بين ذنب يرتكب عن قصد و سوء نية و خطأ فى الرأى و الاجتهاد يودى إلى مخالفة الصواب، و بهذا كفّروا جميع فرق المسلمين و أباحوا دماءهم. و الخوارج لا يرون أن يختص الخليفة ببيت من العرب، فليست الخلافة فى قريش عندهم، و ليست لعربى دون أعجمى، و الجميع فيها سواء، بل يفصّلون أن يكون الخليفة من غير قريش ليسهل عزله أو قتله. و بهذا استمالوا العناصر غير العربية، و جلبوا الموالى إليهم، لأن آراء الخوارج من شأنها أن تجعل للموالى الحق فى أن يكونوا خلفاء، لذلك التحق بهم عدد كثير من الموالى، و لو لا- تعصب بعض الخوارج عليهم لآزداد عددهم، لأن هذه الآراء تفسح المجال لتدخل الدخلاء فى الإسلام، و مع ذلك فقد تكونت فرقة منهم انضمت لفرقة الخوارج، و هم اليزيدية أتباع يزيد بن أنيسة الخارجى، و ادّعوا أن الله سبحانه و تعالى



يبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتابا ينسخ الشريعة المحمدية. وكذلك تكونت فرقة الميمونية، أتباع ميمون العجردى؛ وأظهروا عقائد المجوس، فكانوا يبيحون نكاح بنات الأولاد وبنات الأخوة، وبنات أولاد الأخوات.

## فرق الخوارج:

### إشارة

ذكر للخوارج فرق كثيرة قاربت العشرين فرقة على حسب اختلافهم فى الآراء، وأهم فرقهم المشهورة:

### الأزارقة:

وهم أتباع نافع بن الأزرق، وكان من أكبر فقهاءهم. وقد كفر جميع المسلمين. وقال: إنّه لا يحل لأحد من أصحابه أن يجيبوا أحدا من غيرهم إذا دعاهم إلى الصلوة، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم، ولا أن يتزوجوا منهم، ولا يتوارث الخارجى وغيره، وهم مثل كفار العرب وعبدة الأوثان، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. ودارهم دار حرب، ويحل قتل أطفالهم ونسائهم، ولا تحل التقية، واستحل الغدر بمن خالفه. وأسقطوا الرجم عن الزانى إذ ليس له فى القرآن ذكر، كما أسقطوا حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء. وقالوا: يجوز أن يبعث الله نبيا يعلم أنه يكفر بعد نبوته، أو كان كافرا قبل البعثة. وكان أصحاب نافع من أقوى فرق الخوارج وأكثرهم عددا، خرجوا من البصرة معه، فتغلبوا على الأهواز وما وراءها من بلدان فارس وكرمان، وقتلوا عمال تلك النواحي واشتدت شوكتهم ووقعت حروب بينهم وبين الدولة الأموية بما لا يسع المجال لذكرها.

### النجدة:

وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفى. وهم الذين خالفوا نافعا وانفردوا بتعاليم منها: إن المنخطفى بعد أن يجتهد معذور. وإن الدين أمران: معرفة الله، ومعرفة رسوله، وما عدا ذلك فالناس معذرون بجهله إلى أن تقوم عليهم الحجّة، ومن أذاه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور. وأن من كذب كذبة صغيرة

أو كبيرة أو نظر نظرة وأصرّ عليهما فهو مشرك. و من شرب الخمر أو زنا أو سرق غير مصرّ على ذلك، فهو مسلم. و يوجبون قتل من خالفهم من المسلمين.

### الأباضية:

و هم أتباع عبد الله بن أباض التميمي، الذي خرج أيام مروان الحمار. آخر ملوك بني أمية، و لا يزال أتباعه إلى اليوم في المغرب، و لعلمهم هم البقية من جميع فرق الخوارج الكثيرة. فقد انقرضت تلك الفرق و لم تبق منهم باقية إلاّ الأباضية، و هم على عقيدتهم في تكفير جميع المسلمين، و يعتذرون عنهم بأنهم يذهبون إلى تكفيرهم لا على سبيل الشرك، بل يرون أنّهم كفّار نعمة. و من جملة آرائهم: أن دماء مخالفيهم حرام في السرّ لا في العلانية، و دارهم دار توحيد. و إنهم ليسوا مشركين و لا مؤمنين، و يسمونهم كفّارا، و لا يحل من غنائمهم في الحرب إلاّ الخيل و السّلاح. و لا يزال الأباضيون يؤلّفون جماعات عديدة في إفريقية الشمالية، و يوجد فريق آخر بزنجبار بإفريقية الشرقية. أما الوطن الأصلي للأباضيين الذين يهاجرون منه إلى إفريقية الشرقية فهو بلاد عمان العربية. و قد حاولوا في السنوات الأخيرة أن ينهضوا همّتهم و نشاطهم و أن يستعيدوا الشعور بكيانهم. و تقسم الأباضية ذاتها إلى ثلاثة شعب هي: الحفصية، و الحارثية، و اليزيدية.

### الصفريّة:

و هم أتباع زياد بن الأصفر، و قولهم في الجملة كقول الأزارقة في أن أصحاب الذنوب مشركون، لكنهم أقلّ تطرّفًا منهم، و أشدّ من غيرهم؛ فلا يرون قتل أطفال مخالفيهم و نسائهم، و الأزارقة يرون ذلك. و اختلفوا في مرتكب الكبائر فلم يتفقوا على إشراكه، فمنهم من يرى أن ما كان من الأعمال عليه حد واقع لا يسمى صاحبه إلاّ بالاسم الموضوع له، و سمّاه الله به كالسارق و الزاني، و ما ليس فيه حد فمرتكبه كافر. و من زعماء الصفريّة: أبو هلال مرداس، الذي خرج أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة، على عبيد الله بن زياد.

و منهم: عمران بن حطان، وقد انتخبه الخوارج إماما لهم، و هو القائل يمدح عبد الرحمن بن ملجم المرادى: يا ضربة من منيب ما أراد بها  
إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنى لأذكره يوما فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

و أجابه جماعة، منهم عبد القادر البغدادى المتوفى 429 هـ: يا ضربة من كفور ما استفاد بها إلا الجزاء بما يصلية نيرانا

إنى لألعنه دينا و ألعن من يرجو له أبدا عفوا و غفرانا

ذاك الشقى لأشقى الناس كلهم أخفهم عند رب الناس ميزانا

و عمران بن حطان قد خرّج حديثه البخارى و وثّقه، و هذا من مزايا صحيحه و امتيازه.

### العجاردة:

و هم أتباع عبد الكريم بن عجرد، و كانت العجاردة مفترقة عشرة فرق، ثم افترقوا فرقا كثيرة، منها ما يتعلّق بالقدر و قدرة العبد، و منها ما يتعلّق بأطفال المخالفين. و قد فارقوا الأزارقة فى عدم استحلال أموال مخالفيهم. هذا جملة القول فى أهم الخوارج. و قد بلغت فرقهم عشرين فى العدد و كل فرقة تخالف الأخرى فى تعاليمها و آرائها، إلا أنّهم اتفقوا على النظريتين السابقتين. كما أجمعوا على تكفير: على، و عثمان، و أصحاب الجمل، و الحكمين، و من رضى بالتحكيم، و صوّب الحكمين أو أحدهما، و اعترفوا بصحة خلافة الشيخين. و بهذا قد اكتسبوا الرضا من أكثر من كتب عن الفرق، فإنّك تجد اللهجة خفيفة فى التعبير عنهم، و ربما و صفوا زعماءهم بالزهد و الصلاح. فالخوارج-مع عظيم إجرامهم-لا يوصفون بما وصف به الشيعة، فهم يكفّرون عليا، و لكن لا يعد هذا جرما فى نظر المتطرفين، فلم يعبروا عنهم كما يعبرون عن الشيعة بتلك العبارات القبيحة، و الألفاظ المستهجنة، و هم يوالون عليا و يذهبون لأحقّيته بالخلافة. و بدون شك أن حركة الخوارج كانت من أكبر العوامل التى هدّدت المسلمين

بأخطار شتى، وقد اتخذوا تكفير جميع فرق المسلمين وسيلة لنشاط دعوتهم، لأن ارتكاب الجرائم-بمبرر-يميل إليه أهل الشغب و الأهواء. و لو لم يكن من مبدئهم وجوب الخروج على أئمة الجور لاستخدمتهم سياسة تلك العصور، و لعززت جانبهم للفتك بمن يريدون الفتك به. و لكن ذلك الاعتقاد-و هو وجوب الخروج-هو الذى أوجب أن تقاومهم السلطة، فتدور رحى الحرب معهم مدة من الزمن، و قد سجّل التاريخ عنها حوادث كثيرة.

## المعتزلة:

### إشارة

يطول بنا الحديث عن المعتزلة إن أردنا بيان فرقها، و أسباب افتراقها و آرائها السياسية و الدينية، و نشاطها الفكرى، و حياتها العقلية. و قد اختلف فى تاريخ نشأتها، و تسميتها بهذا الاسم، فهل كانت على عهد الصحابة أم على عهد الحسن البصرى، لاعتزال واصل بن طاء حلقة درس الحسن؟ إلى كثير من الأبحاث حول هذه الفرقة. و نحن نكتفى بإلمامة موجزة لبيان الغرض فى ذلك: الأكثر على أن الاعتزال نشأ فى البصرة، عند ما اعتزل واصل بن عطاء المتوفى سنة 131 هـ حلقة درس الحسن البصرى، لمخالفته إياه فى مسألة مرتكب الكبيرة، فقال واصل: أنا أقول إن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق، بل هو فى منزلة بين المنزلتين، أى أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن و لا كافر، لكنه فاسق، و الفاسق يستحق النار بفسقه.

## فرق المعتزلة:

قال الخياط فى كتاب «الانتصار»: ليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، و العدل، و الوعد، و الوعيد، و المنزلة بين المنزلتين، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فإذا كمنت فى الإنسان هذه الأصول الخمس فهو معتزلى. و افرقت المعتزلة إلى فرق كثيرة، منهم: 1-الواصلية و هم أصحاب واصل بن عطاء. 2-الهديلية و هم أصحاب أبى الهذيل العلاف.

3-النظامية و هم أصحاب النظام إبراهيم بن سيار. 4-الحائضية و هم أصحاب أحمد بن حائظ. 5-البشرية و هم أصحاب بشر بن المعتمر. 6-المعمرية و هم أصحاب معمر بن عباد السلمى. 7-المزدارية و هم أصحاب عيسى، المكنى بأبى موسى الملقب بالمزدار. 8-الشمامية و هم أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى. 9-الهشامية و هم أصحاب هشام بن عمر الفوطى. 10-الجاحظية و هم أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ. 11-الخياطية و هم أصحاب أبى الحسين الخياط. 12-الجبائية و هم أصحاب أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى. و غيرهم. كما هو مذكور فى كتب أهل المقالات و الفرق، و قد ذكروا لهم أقوالا شاذة و آراء فاسدة. و قد ألف الأشعرى كتابا فى تكفير النظام. و يتفق المعتزلة فى الاعتقاد بأن الله تعالى قديم، و القدم أخص وصف لذاته و نفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا: هو عالم لذاته، قادر لذاته، حى لذاته، لا بعلم و قدرة و حياة، هى صفات قديمة و معانى قائمة به لأنه لو شاركته الصفات فى القدم- الذى هو أخص الوصف-لشاركته فى الإلهية. و اتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق فى محل. و هو حرف و صوت كتب أمثاله فى المصاحف حكايات عنه، فأينما وجد فى المحل عرض فقد فنى فى الحال. و اتفقوا على أن الإرادة، و السمع، و البصر، ليست معانى قائمة بذاتها. و اتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله-خيرها و شرها-مستحق على ما يفعله ثوبا و عقابا فى الدار الآخرة، و الربّ منزه أن يضاف إليه شر و ظلم. و اتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلاّ الصالح و الخير، و يجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد. و أما الأصلح و اللطف ففى وجوبه خلاف عندهم و سمو هذا النمط عدلا. و اتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة و توبة استحق الثواب

و العوض و التفضّل، و معنّى آخر وراء الثواب. و إذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار، و يكون عقابه أخف من عقاب الكفّار. و سموا هذا النمط عدلا و وعيدا. و اتفقوا على أصول المعرفة و شكر النعمة واجبان قبل ورود السمع. و الحسن و القبح يجب معرفتهما بالعقل، و اعتناق الحسن واجب، و اجتناب القبيح واجب كذلك. و ورود التكاليف أطفاف للبارى تعالى، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء امتحانا و اختبارا. و اختلفوا فى الإمامة و القول فيها-نصا و اختبارا-كما هو بيّن فى مقالاتهم و آراء فرقتهم. و لسنا هنا بصدد الاشتغال بتفصيل أقوالهم و آرائهم. و إن أهم غرض هو معرفتهم بموجز من القول، لأن المعتزلة كونوا جوا فكريا، و برعوا فى علم الكلام، و كانت الخصومة شديدة بينهم و بين رجال الشيعة، الذين اشتهروا فى هذا العلم؛ كما أن النزاع بينهم و بين الأشاعرة و المجسمة بلغ إلى درجة الخروج عن حدود المقبول، و تعدى إلى التهريج و الاعتداء، كما هو المذكور فى تاريخ عصورهم.

### المرجئة و فرقتهم:

و هم الذين يبالغون فى إثبات الوعد، و هم عكس المعتزلة المبالغين فى إثبات الوعيد، فهم يرجون المغفرة و الثواب لأهل المعاصى، و يرجئون حكم أصحاب الكبائر إلى الآخرة، فلا- يحكمون عليهم بكفر و لا فسق و يقولون: إن الإيمان إنما هو التصديق بالقلب و اللسان فحسب، و إنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فالإيمان عندهم منفصل عن العمل. و منهم من زعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب؛ و إن أعلن الكفر بلسانه، و عبد الأوثان أو لزم اليهودية و النصرانية، و عبد الصليب، و أعلن التثليث فى دار الإسلام، و مات على ذلك، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله، و هو ولى الله، و من أهل الجنة، ذكر ذلك ابن حزم. و كلمة الإرجاء على معنيين: أحدهما: التأخير مثل قوله تعالى: قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ أَي أمهله و أخره. ثانيهما: إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم-المرجئة-على الجماعة بالمعنى الأول

فصحيح. لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد. وأما بالمعنى الثانى فظاهر، لأنهم كانوا يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفك مع الكفر طاعة. ولقد اضطربت الأقوال حول نشأة هذه الفرقة وبدء تكوينها، ولم نستطع بهذه العجالة تحديد ذلك على وجه التحقيق. ويرى النوبختى أن نشأتها لما قتل على عليه السلام بسيف ابن ملجم المرادى واتفقت بقية الناكثين والقاسطين و تبعه الدنيا على معاوية فسموا المرجئة، وزعموا أن أهل القبلة كلهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان، ويرجون لهم جميعا المغفرة (1). وفى الواقع أن هذه الفرقة سياسية، ولكنها أخذت تخلط السياسة بأصول الدين، فهم أعوان الأمراء والمنضون تحت لوائهم، يؤيدون دولتهم مع ارتكابهم المحارم، وانغماسهم بالجرائم. وقد فسح هذا المبدأ للمفسدين والمستهترين طريق الوصول إلى غاياتهم بما يرضى نهمهم، وقد اتخذوه ذريعة لمآثمهم، ومبررا لأعمالهم القبيحة، وساترا لأغراضهم الفاسدة. وقد أيّدوا-برأيهم هذا-خلفاء الدولة الأموية، تأييدا عمليا، فهم فى الواقع قد فتحوا باب الجرأة على ارتكاب المحارم، وأيّدوا المجرمين، ووازروا الظلمة، وهوتوا الخطب فى العقاب والمؤاخذة. و افتقرت المرجئة إلى خمسة فرق-كل فرقة تضلل أختها- وهم: (1) البيونسية-أصحاب يونس النميرى. (2) العبيدية-أصحاب عبيد بن مهران الكوفى. (3) الغسانية-أصحاب غسان الكوفى، وهو غير غسان بن أبان المحدث كما توهم بعضهم، فإن غسان بن أبان يمانى وهذا كوفى. (4) الثوبانية-أصحاب أبى ثوبان المرجئى. (5) التومنية-أصحاب أبى معاذ التومنى.

ص:118

و لكل فرقة أقوال و آراء، ذكرها المؤلّفون في الفرق، و لا يتسع المجال بهذا العرض للتعرّض لذكرها بأكثر من هذا.

## الجبرية:

الجبر هو نفى الفعل عن العبد حقيقة، و إضافته إلى الربّ حقيقة، و زعمت هذه الفرقة: أن الإنسان لا يخلق أفعاله، و ليس له مما ينسب إليه من الأفعال شيء، فقوام هذا المذهب نفى الفعل عن العبد، و إضافته إلى الربّ تعالى. و قد اختلفت الأقوال في نشأة هذه الفرقة، و من هو القائل بها أولاً؟ فقيل: إن أول من قال بهذه النحلة رجل يهودى، و قيل الجعد بن درهم، أخذها عن أبان بن سميعان، و أخذها أبان عن طالوت بن أعصم اليهودى. فهي على هذا فكرة يهودية، و قد ضل بها خلق كثير. و بهذا المذهب لا يكون للإنسان كسب و لا إرادة و لا اختيار و لا تصرّف، فيما وهبه الله من نعمة العقل على حسبه، فكيف يكون له مطمع في ثواب أو خوف من عقاب؟ و قد انتشر هذا المبدأ و مبدأ المفوضة: و هم الذين يقولون بتفويض الأفعال إلى المخلوقين، و رفعوا عنها قدرة الله و قضائه، عكس المجبرة الذين أسندوا الأفعال إليه تعالى، و أنه أجبر الناس على فعل المعاصى، و أجبرهم على فعل الطاعات، و أن أفعالهم في الحقيقة أفعاله، فكان أثر هاتين الفكرتين شيئاً في المجتمع الإسلامى، تصدّى الإمام الصادق عليه السلام للردّ على هؤلاء، و أعلن العقيدة الصحيحة و رأى السديد في التوسّط بين الأمرين فقال عليه السلام: «لا- جبر و لا- تفويض و لكن أمر بين أمرين» و خلاصته: أن أفعالنا من جهة، هي أفعالنا و تحت قدرتنا و اختيارنا؛ و من جهة أخرى، هي مقدورة لله تعالى، و داخله في سلطانه، فلم يجبرنا على أفعالنا حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصى، لأن لنا القدرة على الاختيار فيما نفعل، و لم يفوض إلينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق و الأمر و هو قادر على كل شيء و محيط بالعباد. و اعتقاد الشيعة في ذلك وسط بين المذهبين، كما بيّنه أئمة الهدى، و دلّت عليه كلمة الإمام الصادق المشهورة.



وبالجملة، فإن عصر الإمام الصادق عليه السلام كان عصر مجادلات ونظر، و اتسعت فيه دائرة الخلاف، و قد رأينا موقفه فى مقابلتهم، و ردع أهل الآراء الفاسدة و العقائد المخالفة للإسلام. و قام خلّص أصحابه و أعيانهم بقسط وافر من ذلك النضال دفاعا عن تعاليم الإسلام الصحيحة. و قد مرّت بعض مناظراتهم، كما احتفظ التاريخ بقليل منها. و قبل أن نتخطى موضوع البحث عن الفرق، يلزمنا ذكر ما يتصل بالبحث، و توضيح بعض الأمور التى لها صلة بالموضوع:

### نسبة أبى حنيفة إلى المرجئة:

ذكر أصحاب المقالات: أن أبى حنيفة كان من المرجئة، و حكى عنه غسان الكوفى الذى تنسب إليه الفرقة الغسانية: أنه كان على مذهبه، و يعدّه من المرجئة، لأن أبى حنيفة كان يذهب إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان، و أن الإيمان لا يزيد و لا ينقص. قال وكيع: سمعت الثورى يقول: نحن المؤمنون، و أهل القبلة عندنا مؤمنون فى المناكحات، و المواريث، و الصّلاة، و الإقرار. و لنا ذنوب و لا ندرى ما حالنا عند الله؟. قال وكيع: و قال أبو حنيفة: من قال بقول سفيان هذا فهو عندنا شاك، نحن المؤمنون هنا و عند الله حقا. قال وكيع: و نحن نقول بقول سفيان. و قول أبى حنيفة عندنا جراءة. و على هذا فإن أبى حنيفة كان يذهب إلى أن العمل ليس جزءا من الإيمان. و خالفه كثير من الفقهاء و المحدّثين، الذين يرون أن العمل يدخل فى تكوين الإيمان، من حيث تأثيره فيه بالزيادة و النقصان، و أبو حنيفة يرى أن الإيمان لا يزيد و لا ينقص و هو يعتبر أن إيمان أهل السماء و أهل الأرض واحد كما تنص على ذلك الرواية عنه أنه قال: (إيمان أهل الأرض و أهل السماوات واحد، و إيمان الأولين و الآخرين و الأنبياء واحد، لأنّا كلّنا آمنّا بالله و وحده، و صدّقناه، و الفرائض كثيرة مختلفة، و كذا الكفر واحد، و صفات الكفار كثيرة و كلّنا آمنّا بما آمن به الرسل إلخ. . . (1).

ص: 120

و يروى عنه غير هذا، كما حدّث أبو إسحاق الفزاري أنّه سمع أبا حنيفة يقول: إيمان أبي بكر الصديق وإيمان إبليس واحد، قال إبليس: يا رب. وقال أبو بكر الصديق: يا ربّ. قال أبو إسحاق: و من كان من المرجئة ثم لم يقل هذا انكسر عليه قوله (1). وكذلك يحكى عنه فى مساواة إيمان آدم وإيمان إبليس. و يقول محمد بن عمرو: سمعت أبا مسهر يقول: كان أبو حنيفة رأس المرجئة. وقال عمر بن سعيد بن سالم: سمعت جدى يقول: قلت لأبى يوسف: أ كان أبو حنيفة مرجئا؟ قال: نعم. قلت: أ كان جهميا؟ قال: نعم. قلت: فأين أنت منه؟ قال: إنما كان أبو حنيفة مدرسا، فما كان من قوله حسنا قبلناه و ما كان قبيحا تركناه. و مثله عن محمد بن سعيد عن أبيه (2). و كانت هذه التهمة وسيلة للتشنيع على أبى حنيفة، و ناله كثير من العلماء بالطعن و خالفوه فى مسألة الإيمان. و قد جاء عن أبى حنيفة (3) ما يبين الفرق بين مذهبه و مذهب المرجئة الذين أهملوا ناحية العمل بالطاعة، و عدم إدخالها بالحساب.

### تقولات حول فرق الشيعة:

إن موضوع البحث عن الفرق و تعددها موضوع مضطرب شائك، و لا يستطيع الكاتب أن يجزم بكل ما نقله أهل المقالات، لأنهم قد أفرطوا إلى أبعد حد، و تقبلوا كل نسبة على حسب مفهومها السطحى بدون تثبت و تأمل. و قد تعصّب أكثرهم على من يخالف رأيه، فينقل عنهم آراء على غير وجهها و لا يصح قول مخالف ما لم يؤيد بثبوت من غير طريقه. و إن هناك آراء فردية نسبوها لجماعة لا وجود لها، و قد تعصّب أكثر الكتاب فى الموضوع، فنقلوا المذاهب على خلاف الواقع، و أكثرهم قد افتعل فرقا خيالية كقولهم فى عدّ فرق الشيعة: إن منهم الهشامية و هم فرقتان: فرقة تنسب

ص: 121

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 13 ص 273. [1]

2-2 (2) المصدر السابق ص 375. [2]

3-3 (3) الفقه الأكبر ص 9.

إلى هشام بن الحكم والأخرى تنسب إلى هشام بن سالم الجواليقي، ونسبوا إليهما آراء خاطئة، وأقوالا كاذبة. وكذلك جعلوا من فرق الشيعة فرق: الزرارية، نسبة إلى زرارة بن أعين. والشيطنانية نسبة إلى شيطان الطاق، وهو محمد بن النعمان المعروف عند الشيعة بمؤمن الطاق. وكل هذا من الأمور المترجلة التي لا حقيقة لها، وإنما هي افتعال وتقول بالباطل، إذ الشيعة تستمد من مصدر واحد، وتستقى من ينبوع أهل البيت. وقد شق على مرضى النفوس أن يبلغ رجال الشيعة درجات رفيعة في العلم بلغت حد التميز الذي يجتذب النفوس ويستميل العقول، حتى كان لكثير منهم جماعة يعرفون باسم من يتصدرهم كجماعة زرارة، وهم في مطارحاتهم ومناظراتهم يشبعون المسائل بحثا واستقصاء، وتدور ما بين جماعة فلان من أصحاب الإمام الصادق وجماعة فلان من أصحاب الإمام أيضا مناقشات هي على نمط ما يجري بين حلقات العلماء اليوم فاختلفوا من المتعلمين على زرارة والمتصلين به فرقة. فزرارة-كما مر-من مشاهير رجال الشيعة وهو من أصحاب الإمام الباقر والإمام الصادق، وهو شيخ الأصحاب في زمانه ومتقدمهم قارئاً فقيها متكلماً، ومؤمن الطاق من أحب الناس إلى الإمام الصادق كما قال عليه السلام أحياء وأمواتا. ومؤمن الطاق المتميز بقوة التفكير وعمق النظرة ووضوح الحجج وسعة العلم، كان له دوره البارز في التوجيه والإرشاد وعقد المناظرات وخوض المجادلات، فكان حاضر الجواب حاذقاً في فن الكلام، شد إليه الأنظار؛ فنسبوا إليه فرقة «الشيطنانية» والتسمية تكشف عن القصد والغرض من وراء اختراع هذه الفرق واختلاقها، فأطلق لقب «شيطان الطاق» من قبل أعداء الشيعة وخصوم مؤمن الطاق-كما مرّ بنا-. وأوضح شيء من هذا الشذوذ هو إجماعهم على وجود فرقة السبائية المنسوبة لعبد الله بن سبأ، تلك الشخصية الموهومة، وما قضيته إلا أسطورة سياسية. والشيء الذي يلزنا التنبيه عليه: هو متابعة بعض المؤلفين لبعض، فإن الشهرستاني قد كتب في الفرق، معتمداً على عبد القاهر البغدادي، والأسفرائيني كان تلميذ عبد القاهر وصهره، وألفاظهما في التعبير واحدة. أما ابن حزم فذاك فارس ميدان التعصب والتقول على الشيعة. قال الرازي في مناظرته مع أهل ما وراء النهر، في المسألة العاشرة عند ذكره

لكتاب «الملل والنحل»: إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العالم بزعمه، إلا أنه غير معتمد عليه، لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى «بالفرق بين الفرق» من تصانيف الأستاذ أبي منصور البغدادي، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين، ولا يكاد ينقل مذهبهم على الصحيح. ثم إن الشهرستاني نقل مذاهب الفرق الإسلامية من ذلك الكتاب، فلهذا السبب وقع الخلل فيه. وعلى أى حال، فإن موضوع الفرق يحتاج إلى دقة في البحث و تأمل في سير الحوادث و التطور. و هو إلى الآن لم ينل دراسة عادلة، و خوضا دقيقا و غريبة و تمحيصا، فإن حصر الفرق الإسلامية بهذا العدد غير وجيه، و الحديث الذى يشير إلى تعددها فيه مناقشة من حيث الدلالة و السند، لاختلاف ألفاظه و إن كثرت طرقه. و عسى أن ينال هذا الموضوع دراسة دقيقة لطرح الزوائد، و إيضاح دسائس المغرضين، و بيان خطأ المؤرخين فى ذلك. و من الغريب أن ينفرد الدكتور أحمد أمين فى كتابه «ظهر الإسلام» يعدّ القرامطة و الزنج من فرق الشيعة! بل لا غرابة فى تجاوز الدكتور و تحديده للشيعة، فقد برهن على تعصّبه الشائن و تجاهله المعيب، إذ هو كما يقول الشاعر: إن يسمعوا الخير أخفوه و إن علموا شرا أذاعوا و إن لم يعلموا كذبوا

و يؤلمنى أن أقول: إن الدكتور يفقد توازنه عند ما يتناول الشيعة بالبحث كما يتجرّد عن جميع معلوماته، و يتخلّى عن تفكيره و إدراكه، و كان بوسعه أن يدقّق و يبحث كأديب أو مؤرخ، و لكنه مقلد للمستشرقين الذين يتقولون على المسلمين و يثيرون الفتن و يفتعلون الأقاويل. كما كان بوسعه أن يتثبت و أن يقارن بين عقائد الشيعة و عقائد القرامطة و الزنوج، إن وجد مصدرا يذكر ذلك. و كم كان يسعدنا لو أثبت ما أدّى إليه الحوار معه، و دوّن ما أقره على نفسه من تعصّب و تحامل، و أنجز ما وعد من إعلان العدول عن أقواله.

### حول فرق الغلاة:

تركنا البحث هنا عن فرق الغلاة، اكتفاء بما مرّ فى الأجزاء السابقة، و سيأتى فى الجزء الرابع مزيد بيان. و قد ذكرنا هناك أن حركتهم كانت ضد الإسلام بصورة عامة،

و ضد أهل البيت بصورة خاصة، لأن انتحالهم حب أهل البيت يفتح لخصومهم طريق الوقيعة في أتباعهم، وقد وقع ذلك بدون التفات إلى التباين بين تعاليم أهل البيت وبين ما يذهب إليه الغلاة. وكما قلت سابقا: إن الكوفة قد عرفت بالتشيع، وهي تموج بعناصر مختلفة لكثرة المهاجرين إليها، من المدن المجاورة لها والنائية عنها، وذلك عند اتساع نشاط الحركة العلمية، فكانت جماعة المتداعلين في الإسلام يثون سمومهم في ذلك المجتمع، ويتناقل الناس مع مساعدة السلطة تلك الأخبار، فتنسب للكوفة، والكوفة شيعية. وقد أعلن الإمام الصادق براءته منهم، و جهر بلعنهم، وقد دخل الكوفة عدة مرات ينشر تعاليم الإسلام الصحيحة، ويظهر للملأ فساد عقائد الغلاة، واصل كفاحه في مقابلتهم حتى بادت جماعتهم بتلك السرعة، وقبرها في مقرها الأخير، ولم يبق لهم أثر إلا في بطون الكتب. وأبت نفوس من يضربون على وتر سياسة تلك العصور، و يترنحون بنغمات الهجاء والطعن على شيعة أهل البيت، إلا أن يقيموا تلك الرمم البالية، و يخرجوا تلك الجيف النتنة لتكون عارا على الإسلام، و منظرا بشعا، يدل عليه من لا يود إظهار محاسنه للأجيال انتصارا لدينهم، و انتقاما لأسلافهم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى و العذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار .

للإمام الصادق عليه السلام من التراث الفكري والفكر الخوالد، والآراء والحكم والمواعظ ما لا يحيط بها الإحصاء، أو تنالها يد الحصر والتتبع إلاً بجهد ومشقة. وهي على كثرتها قليلة بالنسبة إليه، لما قام به من التوجيه والإرشاد والهداية في عصر ضلّت به قافلة الأئمة، وحدا بالركب غير سائقه، فقام عليه السلام بما يجب عليه أن يقوم به من الإرشاد والدعوة إلى الصلاح والإصلاح، يلتمس كل ما يجد فيه طريقاً للوصول إلى الغاية التي ينشدها، فهو حيث كان وأينما حل لا ينفك عن تأدية رسالته في الإرشاد إلى الهدى، والدعوة إلى الحق، ويحاول أن ينتصر المجتمع الإسلامي على ميوله ونزعاته، ويهدّب نفوسهم من دنس الرذائل ويحملهم على اعتناق الفضائل، ويودّ للمسلم أن يكون كما أراد الله له وجاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فهو حريص على هداية الأمة، يواصل جهاده في مكافحة الأوضاع الشاذة، ويعلن آراءه ضد نظام ذلك الحكم الجائر. ولقد كان عليه السلام دوماً صوت إصلاح داوي، وصرخة إرشاد عالية، يدعو الناس إلى التمسك بمبادئ الإسلام وهدى القرآن، وقد عرف أوضاع الأمة، وما أصابها من تفكك وهوان، ورأى أن الداء وراء تحكّم النزعات في النفوس، وأن الدواء هو التزام مبادئ الدين وأحكامه، وأن رسوخ العقيدة في القلوب قوة لأفراد الأمة، ومنعة لكيان المجتمع من تحكّم النزعات، وانتشار الرذيلة، كما أنّها سلاح فائق يرهب ولاية الجور، فكان عليه السلام لا تقوته فرصة دون أن يدعو إلى اعتناق الفضائل ومحاربة الرذيلة، ليصبح المجتمع متماسكاً يستطيع أن يوحد كلمته في مقابلة الظالمين، الذين استبدوا بالحكم، وابتعدوا عن الإسلام.

وإن الثورة الدموية ضدهم لا- تعود على المجتمع إلا بالضرر، لأنهم أناس عرفوا بالقسوة وسوء الانتقام، ولهم أعوان يشدون أزرهم، و أنصار يدافعون دونهم، فالإمام الصادق عليه السلام كان يهتم بإصلاح الوضع الداخلي. فكان يرسل وصاياه عامة شاملة، وينطق بالحكمة عن إخلاص و صفاء نفس، و حب للصالح العام ليعالج المشاكل الاجتماعية. و انتظم من أصحابه رجال عهد إليهم بمهمات الإصلاح، و كلّفهم بأعمال الخير، كما كوّن منهم معلّمين و رواة في ظل مدرسته، و مجاهدين و دعاة في مسير ركبته. كان عليه السلام يدعو الناس إلى الورع عن محارم الله و الخوف منه تعالى و الامتثال لأوامره، و الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، و جعل يوم الحساب ماثلاً أمام أعينهم، مع حثّهم على التكسب و طلب الرزق كما كان يحث على العمل و يعمل بنفسه، و ينهى عن الكسل و البطالة. و يأمر بطلب الرزق كما أمر الله تعالى. يحدثنا العلاء بن كامل: أنه جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام فقال له: يا أبا عبد الله ادع الله أن يرزقني في دعة. فقال عليه السلام: «لا أدعو لك، أطلب كما أمرك الله و رسوله». و على أي حال فإن حكم الإمام و وصاياه تشرق على وجه الزمان إلى آخر الزمان، و قد ذكرنا في الجزء الثاني طرفاً منها، و نحن هنا نذكر بعض ما لم نذكره في ذلك الجزء من تلك الوصايا القيّمة، و الحكم الخالدة، سواء كانت عامة شاملة يرسلها إلى الأطراف النائية، أم كانت وصايا خاصة لبعض الأفراد، و هي كالأولى في عمومها و شمولها، و إليك طرفاً من ذلك.

## وصايا الإمام الصادق ع

### وصية عامة إلى جميع أصحابه:

«صبروا النفس على البلاء في الدنيا، فإن تتابع البلاء فيها، و الشدة في طاعة الله و ولايته، و ولاية من أمر بولايته، خير عاقبة عند الله في الآخرة، من ملك الدنيا و إن طال تتابع نعيمها، و زهرتها و غضارة عيشها في معصية الله و ولاية من نهى الله عن ولايته و طاعته، فإن الله أمر بولاية الأئمة الذين سمّاهم في كتابه بقوله: وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . . إن الله أتم لكم ما آتاكم من الخير. و اعلموا أنه ليس من علم الله و لا من أمره أن يأخذ أحد من خلق في دينه بهوى و لا رأى و لا مقاييس، قد أنزل الله القرآن و جعل فيه

تبيان كل شىء، و جعل للقرآن و تعلم القرآن أهلا، لا يسع أهل علم القرآن-الذين آتاهم الله علمه-أن يأخذوا فيه بهوى و لا رأى و لا مقاييس، أغناهم الله عن ذلك بما آتاهم من علمه و خصهم به، و وضعه عندهم، و كرامة من الله أكرمهم بها. و هم أهل الذكر الذين أمر الله هذه الأمة بسؤالهم. . . أكثروا ذكر الله ما استطعتم فى ساعة من ساعات الليل و النهار، فإن الله تعالى أمر بكثرة الذكر له، و الله ذاكر لمن ذكره من المؤمنين. و اعلموا أن الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلا ذكره بخير، فاعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد فى طاعته، فإن الله لا يدرك شىء من الخير عنده إلا بطاعته، و اجتناب محارمه. و اتبعوا آثار رسول الله و سنته فخذوا بها، و لا تتبعوا أهواءكم و آراءكم فتضلوا، فإن أضل الناس عند الله من اتبع هواه و رأيه بغير هدى من الله. و أحسنوا إلى أنفسكم ما استطعتم، فإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتم فلها. و جاملوا الناس و لا تحملوهم على رقابكم، و إياكم و سب إعداء الله-حيث يسمعونكم-فيسبوا الله عدوا بغير علم. و اعلموا أنه لن يؤمن عبد من عبده حتى يرضى عن الله فيما صنع الله إليه، و صنع به على ما أحب و كره. و عليكم بالمحافظة على الصلوات و الصلاة الوسطى، و قوموا لله قانتين كما أمر الله المؤمنين فى كتابه من قبلكم. و عليكم بحب المساكين المسلمين، فإن من حقرهم و تكبر عليهم فقد زل عن دين الله، و الله له حافر و ماقت. و قد قال أبونا رسول الله: أمرنى ربي بحب المساكين المسلمين منهم. و اعلموا أنه من حقر أحدا من المسلمين ألقى الله عليه المقت منه حتى يمقته الناس، و الله له أشد مقنا، فاتقوا الله فى إخوانكم المسلمين المساكين منهم، فإن لهم عليكم حقا أن تحبواهم، فإن الله أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بحبهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله و رسوله، و من مات على ذلك مات من الغاوين.



وإياكم والعظمة والكبر، فإن الكبر رداء الله تعالى، فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذله يوم القيامة. وإياكم أن يبغى بعضكم على بعض، فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير الله بغيه على نفسه، وصارت نصرة الله لمن بغى عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله. وإياكم أن يحسد بعضكم بعضاً، فإن الكفر أصله الحسد. وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم، فيدعو الله عليكم، فيستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: إن دعوة المظلوم مستجابة. وليعن بعضكم بعضاً، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: إن معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام. وإياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: ليس لمسلم أن يعسر مسلماً، ومن أنظر معسراً أظله الله يوم القيامة بظلمه، يوم لا ظل إلا ظله. واعلموا أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا من دون ذلك كلهم، إلا طاعتهم له، فجدوا في طاعة الله، إن سرركم أن تكونوا مؤمنين حقاً، ولا قوة إلا بالله. وإياكم ومعاصي الله أن تركبوها، فإنه من انتهك معاصي الله فركبها، فقد أبلغ في الإساءة إلى نفسه، وليس بين الإحسان والإساءة منزلة، فالأهل الإحسان عند ربهم الجنة، والأهل الإساءة عند ربهم النار، فاعملوا بطاعة الله، واجتنبوا معاصيه، واعلموا أنه ليس يغنى عنكم من الله أحد من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا من دون ذلك، فمن سره أن تنفعه شفاعة الشافعين؛ فليطلب إلى الله أن يرضى عنه. وإياكم أن تشره أنفسكم إلى شيء مما حرم الله عليكم، فإنه من انتهك ما حرم الله عليه هاهنا- في الدنيا- حال الله بينه وبين الجنة ونعيمها، ولذاتها وكرامتها الدائمة لأهل الجنة أبد الأبدين. واعلموا أنه بس الحظ الخطر لمن خاطر بترك طاعة الله، وركب معصيته، فاختر أن ينتهك محارم الله، في لذات دنيا منقطعة زائلة عن أهلها، على خلود نعيم

فى الجنة ولذاتها، وكرامة أهلها، ويل لأولئك، ما أخبى حظهم، وأخسر كرتهم وأسوأ حالهم عند ربهم يوم القيامة، استجبروا الله أن يجيركم فى مثالهم أبدا وأن يبتليكم بما ابتلاهم به ولا قوة لنا ولكم إلا به. فاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام، وأن يجعل ألسنتكم تنطق بالحق حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك، وأن يجعل منقلبكم منقلب الصالحين ولا قوة إلا بالله، والحمد لله رب العالمين (1)» .

### وصيته لعنوان البصرى:

وعنوان هو شيخ بصرى قدم المدينة لطلب العلم، اتصل بمالك بن أنس، ثم اتصل بالإمام الصادق، فقال له الإمام: «إذا أردت العلم فاطلب أولا فى نفسك حقيقة العبودية». قال عنوان البصرى: فقلت: ما حقيقة العبودية؟ فقال الإمام الصادق: «ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما حوَّله الله ملكا، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، بل يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله، ولا يدبر العبد لنفسه تديرا، وجملة اشتغاله هى فيما أمره الله به ونهاه عنه، وإذا لم ير العبد فيما حوَّله الله ملكا هان عليه الإنفاق فيما أمره الله، وإذا فرض تدبير نفسه إلى مدبره هانت عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل بما أمره الله به ونهاه عنه، لا يتفرغ إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا، فلا يطلبها تفاخرا وتكاثرا، ولا يطلب عند الناس عزّا وعلوا، ولا يدع أيامه باطلة، فهذا أول درجة المتقين، قال الله تعالى: تِلْكَ أَدَارُ الْأَجْرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ». فقال عنوان: يا أبا عبد الله أوصنى. فقال: «أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتى لمريدى الطريق إلى الله، والله أسأل أن يوفقك لاستعمالها: ثلاثة منها فى رياضة النفس، و ثلاثة منها فى الحلم، و ثلاثة منها فى العلم، فاحفظها وإياك والتهاون بها.

ص:129

أما اللواتى فى الرياضة: فإياك أن تأكل ما لا تشتهيئه فإنه يورث الحمق و البله، و لا تأكل إلا عند الجوع، فإذا أكلت فكل حلالا و سمّ الله تعالى، و اذكر حديث النبى صلى الله عليه و آله و سلم: ما ملأ آدمى وعاء أشد شرا من بطنه، فإن كان و لا بد فثلث لطعامه، و ثلث لشربه، و ثلث لنفسه. و أما اللواتى فى الحلم: فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشرا، فقل له: إن قلت عشرا لم تسمع واحدة. و من شتمك فقل له: إن كنت صادقا فيما تقوله فأسأل الله أن يغفر لى، و إن كنت كاذبا فأسأل الله أن يغفر لك. و من وعدك بالخيانة فعده بالنصيحة و الوفاء. و أما اللواتى فى العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، و إياك أن تسألهم تعنتا و تجربة، و إياك أن تعدل بذلك شيئا، و خذ بالاحتياط فى جميع أمورك ما تجد إليه سبيلا، و اهرب من الفتيا فرارك من الأسد، و لا تجعل رقبتك للناس جسرا (1)» .

### وصيته عليه السلام لعمر بن سعيد:

قال عمرو بن سعيد بن هلال: قلت لأبى عبد الله الصادق عليه السلام: إنى لا أكاد ألقاك إلا فى السنين، فأوصنى بشىء آخذ به. قال عليه السلام: «أوصيك بتقوى الله و صدق الحديث، و الورع و الاجتهاد، و اعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع معه، و إياك أن تطمح نفسك إلى من فوقك، و كفى بما قال عزّ و جلّ: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ . و قال عزّ و جلّ لرسوله: وَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . فإن خفت شيئا من ذلك، فاذا عيش رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فإنما كان قوته الشعير، و حلواه التمر، و وقوده السعف إذا وجدته. و إذا أصبت بمصيبة فاذا ذكر مصابك برسول الله، فإن الخلق لم يصابوا بمثله قط» .

### وصيته للمفضل بن عمر:

قال عليه السلام: «أوصيك و نفسى بتقوى الله و طاعته، فإن من التقوى الطاعة

ص:130

[1-1] الاثنى عشرية [1] للسيد ابن القاسم العيتانى ص 93. و الإمام الصادق للمظفر ج 2 ص 58-61 نقلا عن البحار. [2]

و الورع و التواضع لله، و الطمأنينة و الاجتهاد، و الأخذ بأمره، و النصيحة لرسله، و المسارعة فى مرضاته، و اجتناب ما نهى عنه، فإن من يتق الله فقد أحرز نفسه من النار بإذن الله، و أصاب الخير كله فى الدنيا و الآخرة. و من أمر بتقوى الله فقد أفلح الموعظة، جعلنا الله من المتقين برحمته». و من وصيته-أيضا- للمفضل بن عمر: «أوصيك بست خصال تبليغهن شيعتى». قال المفضل: و ما هى يا سيدى؟ قال عليه السلام: «أداء الأمانة إلى من ائتمنك، و أن ترضى لأخيك ما ترضى لنفسك، و اعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب، و أن للأمور بغتات فكن على حذر، و إياك و مرتقى جبل إذا كان المنحدر و عرا، و لا تعدن أخاك ما ليس فى يدك و فاؤه» .

### وصيته لحمران بن أعين:

قال عليه السلام: «يا حمران انظر إلى من هو دونك و لا تنظر إلى من هو فوقك فى المقدره، فإن ذلك أقنع لك بما قسم لك، و أحرى أن تستوجب الزيادة من ربك. و اعلم: أن العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير اليقين. و اعلم: أن لا ورع أنفع من تجنّب محارم الله، و الكفّ عن أذى المؤمنين و اغتيابهم، و لا عيش أهنأ من حسن الخلق، و لا مال أنفع من القنوع باليسير المجزى، و لا جهل أضر من العجب». و هكذا كان الإمام الصادق عليه السلام يواصل أصحابه بوصاياهِ القِيمة، و تعاليمه التى تدل على شدة اهتمامه بتوجيه الدعوة إلى الرشاد و طريق الهدى. و كان يرسل وصاياهِ العامة مع من يحضر عنده من أصحابه، و يلزمهم أن يبلغوا من يلقونه من أصحابهم كقوله: «أقرءوا من لقيتم من أصحابكم السلام، و قولوا لهم: فلان بن فلان-يعنى نفسه-يقروكم السلام، إني و الله ما أمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد و الاجتهاد. و إذا صليتم الصبح و انصرفتم، فبكروا فى طلب الرزق و اطلبوا الحلال، فإن الله عزّ و جل سيرزقكم و يعينكم عليه» .

ويحدثنا زيد الشحام: قال: قال لى أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «أقرأ-من ترى أنه يطيعنى منكم-السلام، وأوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ و الورع فى دينكم، والاجتهاد لله وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براء أو فاجرا، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمر بأداء الخيط والمخيطة. صلوا عشائركم، واشهدوا جنازتهم، وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع فى دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، وقيل هذا جعفرى، يسرنى ذلك ويدخل علىّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان غير ذلك دخل علىّ بلاؤه وعاره». ونقف عند هذا الحد من ذكر وصاياه التى كان يوجهها إلى أصحابه، وقد ذكرنا بعضا منها فى الجزء الثانى، ولكثرتها لا نستطيع حصرها فى جزء واحد، وسنواصل نشرها إن شاء الله تعالى فى بقية الأجزاء.

## حكمه عليه السلام:

### إشارة

كانت وصاياه عليه السلام هى لغته فى مخاطبة العقول وطريقته فى تربية النفوس يستمدها من الدين والعقيدة، ويتجه بها إلى المجتمع والأفراد. وأما حكمه عليه السلام فهى خلاصة المعانى وصفوة الأفكار، يقولها لمختلف الأغراض الدينية والأخلاقية والاجتماعية بخبر وأمر ووصف تنم عن عمق إيمانه وكمال شخصيته وعظيم خصاله وكل قول يرقى إلى الحكمة يأتى عن دراية وتجربة، فما ظنك بإمام يتولى بنفسه مواجهة الأخطار التى تهدد المجتمع من مصادرها السياسية والفكرية ويتبنى أمر المسلمين فى مرحلة تشتد فيها وسائل الحكام فى مراقبته والإيقاع به، ويرى نفسه مسئولا عن الأمة مهما تزايد ظلم الحكام وجورهم؛ فهو يدنو من المجتمع الإسلامى فى عمومته وتعدد أقطاره. ويعايش الأفراد وتصرفاتهم معايشة المصلح الموجه والحكيم المرشد. وإليك باقة من تلك الحكم الخوالة: \* «أفضل الملوك من أعطى ثلاث خصال: الرأفة، والجود، والعدل، وليس

يحب للملوك أن يفرطوا (أى يقصروا) فى ثلاث: فى حفظ الثغور، و تفقد المظالم، و اختيار الصالحين لأعمالهم». \* «ثلاثة لا يعذر المرء فيها: مشاورة ناصح، و مداراة حاسد، و التحجب إلى الناس». \* «احذر من الناس ثلاثة: الخائن، و الظلوم، و النمام. لأن من خان لك خانك، و من ظلم لك سيظلمك، و من نم إليك سينم عليك». \* «ثلاثة من تمسك بهن نال من الدنيا بغيته: من اعتصم بالله، و رضى بقضاء الله، و أحسن الظن بالله». \* «كل ذى صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يحتلب بها المكسب: أن يكون حاذقا فى عمله، مؤديا للأمانة فيه، مستميلا لمن استعمله». \* «إذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة أشياء، تعرضوا لدخول الوهن عليهم، و شماتة الأعداء بهم، و هى: ترك الحسد فيما بينهم لئلا يتحزبوا فيتشتت أمرهم، و التواصل ليكون ذلك حاديا لهم على الإلفة، و التعاون لتشملهم العزة». \* «ثلاثة لا يصيبون إلا خيرا: أولو الصمت، و تاركو الشر، و المكثرون ذكر الله عزّ و جلّ. و رأس الحزم التواضع». فقال له بعضهم: و ما التواضع؟ قال: «أن ترضى من المجلس بدون شرفك، و أن تسلّم على من لقيت، و أن تترك المراء و إن كنت محقا». \* «خذ من حسن الظن بطرف تروح به و تروح به قلبك». \* «من ظهر غضبه ظهر كيده، و من قوى هواه ضعف عزمه، و من أنصف من نفسه رضى حكما لغيره». \* «العجب يكلم المحاسن، و الحسد للصديق من سقم المودة، و لن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشر عليهم من فضلك». \* «العز أن تذل للحق إذا أزمك». \* «من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، و المعارضة قبل أن يفهم، و الحكم بما لا يعلم». \* «من أدب الأديب دفن أدبه».

\* «إن خير ما ورث الآباء لأبنائهم الأدب لا المال، فإن المال يذهب والأدب يبقى». \* «لا تطعنوا في عيوب من أقبل إليكم بمودة، ولا توقفوه على سيئة يخضع لها، فإنها ليست من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا من أخلاق أوليائه» .

### و من حكمه:

«العلم جنة. والصدق عز. والجهل ذل. وحسن الخلق مجلبة للمودة. والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس. والحزم مشكاة الظن. والله ولى من عرفه. والعامل غفور والجاهل ختور. وإن شئت أن تكرم فلن. وإن شئت أن تهان فاخشن. ومن كرم أصله لان قلبه، ومن خشن عنصره غلظ كبده. ومن فرط تورط. ومن خاف العاقبة ثبت فيما لا يعلم. ومن هجم على أمر من غير علم جدد أنف نفسه». . و نكتفى بهذا الموجز من البيان لبعض وصايا الإمام الصادق وحكمه، وسيأتى كثير منها فى ثنايا البحث، وإن استقصاءنا لها يستلزم وضع مؤلف كبير فى ذلك، لأنها تشتمل على أمور هامة و مواعظ نافعة تتناول كل نواحي الحياة ومشاكل عصره، وقد بذل جهده عليه السلام فى إيجاد قوة فعالة تنجيه نحو الخير ليحيا المسلمون حياة طيبة، ولا يحصل ذلك إلا فى توثق العلاقات بينهم، وإيجاد المحبة فى قلب المسلم لأخيه المسلم وقمع غرائز الأثرة، والابتعاد عن الرذائل، واتباع المثل العليا فى الإسلام. وكان الإمام الصادق وحيد عصره فى مختلف العلوم والفنون، وظهرت فى شخصيته آثار الوراثة بأجلى صورها، إذ هو رضيع ثدى الإيمان، ووليد بيت الوحي، ووارث علم النبى، وحافظ تراثه. وكانت الآمال تتركز حول شخصيته، لذلك لم نجد مدرسة إسلامية تطاول مدرسته فى الشهرة، أو تماثلها فى منهجها الذى سارت عليه. وقد انتشر مذهبه فى أقطار الأرض -رغم تلك الحواجز التى وقفت فى طريقه-فهو بقوته القدسية قد دلل المصاعب، وصارع الحوادث، وشق طريقه إلى التقدم. ومهما تكن العوامل فى صرف الناس عنه-فإنها لم تؤثر أثرها المطلوب. إذ العقيدة أكبر مؤثر فى تكوين العقل الإنسانى-رقيا وانحطاطا-فإن الناس لا يجهلون ما لأهل البيت من الأثر العظيم فى المجتمع الإسلامى، وقد منحهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم صفة لا يشاركون فيها أحد، وهى الاقتران بالكتاب وعدم افتراقهما إلى آخر الزمن. فهم دعاة

للخير و أئمة للهدى، و سفن النجاة إذا طغت أمواج النفاق. و هم أكثر الناس زهدا فى الحياة و فناء فى الله. و قد بذلوا نفوسهم الزكية لحفظ تعاليم الإسلام، و لم تقف أمامهم مقاومة الأعداء. و تحمّلوا قسوة الطغاة و عنت الباغين، و جور المستبدين، انتصارا للحق و ثورة على الباطل. و امتازوا بقوة الإيمان و صدق النيّة، و إخلاص العمل فى سبيل حفظ الإسلام و نشر تعاليمه و إحياء مآثره، و قد قال أمير المؤمنين على عليه السّلام: «فأين تذهبون و أنى توفكون، و الأعلام قائمة و الآيات واضحة، و المنار منصوبة، فأين يتاه بكم، بل كيف تعمهون و بينكم عترة نبيكم و هم أئمة الحق، و أعلام الدّين، و السنة الصدق». و يقول الإمام الصّادق عليه السّلام: «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، و اتبعوا أثرهم؛ فلن يخرجوكم من هدى، و لن يعيدوكم فى ردى» (1). و يقول الإمام الصّادق عليه السّلام: «نحن أصل كل خير، و من فروعنا كل بر، فمن البر: التوحيد، و الصيام، و كظم الغيظ، و العفو عن المسيء، و رحمة الفقير، و تعهد الجار، و الإقرار بالفضل لأهله. و عدونا أصل كل شر، و من فروعهم كل قبح و فاحشة، فمنهم: الكذب، و البخل، و النميّة، و القطيعة، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم بغير حقّه، و تعدى الحدود التى أمر الله، و ركوب الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و الزّنا، و السرقة و كل ما وافق ذلك من القبيح، و كذب من زعم أنّه معنا و هو متعلّق بفروع غيرنا». و إلى هنا ينتهى بحثنا فيما شرعنا فيه حول مدرسة الإمام الصّادق و حملة فقّهه، و بيان الفرق فى عصره، و بيان بعض تعاليمه من حكمه و وصاياه. و ننتقل الآن مع القارئ الكريم، إلى دراسة تتعلّق بالمذاهب الأربعة. من حيث الالتزام بأخذ الأحكام الشرعية عن الأئمة الأربعة دون غيرهم، و لا يصح العمل إلاّ بذلك. فعلينا إذا أن ندرس القضية، و نقف على الأمر، و هل كان هذا الالتزام أمرا شرعيا قرّره الإسلام؟ و هل أن باب الاجتهاد مغلق بعد الأئمة الأربعة، و متى كان هذا الالتزام؟ و بأى تاريخ وقع؟ و ما هى أسبابه و عوامله؟

ص: 135

1-1) شرح نهج البلاغة ج 1 ص 152.





## إشارة

التزام وآراء

## تمهيد:

إن أهم موضوع في تاريخ التشريع الإسلامي هو موضوع غلق باب الاجتهاد، وادعاء استحالته لأحد غير أئمة المذاهب الأربعة: أبو حنيفة، و مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل. وأن تقليدهم لازم، ولا يصح العمل إلا بما جاء عنهم، وأن من المستحيل حصول ملكة الاجتهاد لأحد غيرهم حتى أن البعض يرى أن من يقلد غيرهم زنديق، وأن العمل لا يصح إلا بالأخذ عن واحد من هؤلاء الأئمة، فهم أعلم الأمة و سادات الأئمة إلى غير ذلك من الادعاءات. وقد تقدم الكلام عن أسباب نشأة المذاهب وعوامل انتشارها وإيضاح ما لعله لم يتضح من هذا الموضوع، تتعرض هنا لما يتعلّق فيه من بيان تاريخ الالتزام، بالأخذ عن الأئمة الأربعة، وبيان العوامل التي أدت إلى الجمود الفكري، فأغلق باب الاجتهاد في وجوه المسلمين، وادّعى استحالته بعد ذلك الزمن، وأن من يدعى ذلك يوصم بالجهل، ويؤاخذ بدعواه، وربما رمى بالزندقة، ومع ذلك فإن البعض من أهل السنّة يعارضون هذه الفكرة، ويقفون أمام هذه الدعوة بشدة إن ساعدتهم الظروف على ذلك، فهم يوافقون الشيعة في حرية الرأي، وعدم القول بغلق باب الاجتهاد. ولقد أثر هذا الالتزام بوحدة المسلمين، ففرّق كلمتهم ونشبت بين معتقّي المذاهب حروب دموية، نتيجة للخلافات المذهبية، وادعاء كل فريق أن الحق له دون غيره، وأن إمامه هو المنفرد بمنزلة العلم و أهلية الاتباع، واندفعوا بكل وسيلة لرفع مقام رئيس المذهب إلى منزلة لا يدانيه فيها أحد، وتحكم التعصب الطائفي، وكثر الجدل، وعظم الخلاف بين أتباع أئمة المذاهب (و د ب التقليد في صدورهم ديب

النمل وهم لا يشعرون، و كان سبب ذلك تراحم الفقهاء و تجادلهم فيما بينهم (1). و بلغ الأمر بهم فى صوغ عبارات المدح و الثناء إلى ما يقف العقل أمامه موقف الرد و الإنكار، كما ذهبوا إلى أعلمية هؤلاء الأئمة على جميع المسلمين، و أنهم بلغوا درجة العصمة عن الخطأ؛ و أن الله لا يقبل عمل عامل إلا من طريقهم و كل يعتقد أفضلية إمامه على بقية الأئمة، و أن مذهبه هو الصواب. إلى غير ذلك من التفريط و الغلو، مما لم يعرفه معاصرو أولئك، و لم يجدوه هم فى أنفسهم.

### الالتزام بالمذاهب الأربعة:

تطورت الدعوة إلى المذاهب الأربعة، و تكثرت العوامل لاتباعهم بصورة خاصة، و قد ذكرنا فى الجزء الأول أسباب نشأتها و عوامل انتشارها بما لا حاجة إلى إعادته. و الغرض: إن الالتزام بهذه المذاهب الأربعة كان بصورة تدريجية، حتى أدى ذلك على مرور الزمن، إلى أن ينحصر أخذ الأحكام عنها دون غيرها من المذاهب الإسلامية على كثرتها و انتشارها. و الشيء المحصل من جميع الأقوال أن الأخذ بها و لزوم التقليد كان فى القرن الرابع، أما الالتزام بها دون غيرها و وجوب أخذ أقوالهم و ترك أقوال الآخرين و عدم السماح بالاجتهاد و الاستنباط يرجع تاريخه إلى سنة 645 هـ و ذلك عند ما رأت السلطة أن تحصر الأخذ عن المشايخ الأربعة: أبى حنيفة، و مالك، و الشافعى، و أحمد. فأحضر مدرسو المدرسة المستنصرية إلى دار الوزير، و تقدم إليهم أن لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم، و لا يلزموا الفقهاء بحفظ شىء منها، بل يذكرون كلام المشايخ تأدباً معهم و تبركاً بهم، و أجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى -مدرّس الحنابلة- بالسمع و الطاعة، ثم مدرّس المالكية سراج الدين عبد الله الشرماسحى، و قال: ليس لأصحابنا تعليقة، فأما النقط من مسائل الخلاف فما أرتبه. و أما شهاب الدين الزنجانى مدرّس الشافعية، و أفضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغانى مدرّس الحنفية فإنهما قالا ما معناه: (إن المشايخ كانوا رجالاً و نحن رجال).

ص: 138

1-1) حجة الله البالغة ج 1 ص 153.

و نحو ذلك من إبهام المساواة فانتهت صورة الحال، فتقدم الخليفة أن يلتزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم، فأجابوه بالسمع والطاعة (1). وبذلك أصبح الالتزام بهذه المذاهب أمرا رسميا لا يمكن خلافه، وقضى على غيرها من المذاهب المعمول بها فى ذلك الوقت- على قلة اتباعها- كمذهب سفيان الثوري، ومذهب داود بن علي الظاهري، حتى أدت الحالة إلى محو الجميع، وبقاء المذاهب الأربعة نظرا لما أظهرته السلطة من تهديد وتوعيد، وترغيب وترهيب (و لم يبق لأهل السنة إلا المذاهب الأربعة السابقة، لأنها وجدت من الملوك والوزراء من يحمل الناس عليها، وينشئ لها تلك المدارس، ويحبس عليها تلك الأوقاف، فلما طال العهد بها على الناس أخذوا يتعصبون لها وينكرون ما عداها من المذاهب السابقة) (2).

### التطرف بالتمزام المذهب:

واتسع الخلاف وكثر الجدل، وعظمت الفرقة، وذهب كل إلى تأييد مذهبه وتصويب رأيه، وإبراز صرة إمام مذهبه فى صفحة الوجود بإطار الغلو والعنصرية الادعائية، لا العنصرية الواقعية، جهلا منهم بعاقبة الأمر، واتباعا لهوى سلطان لا يروق له اتحاد الأمة. وقد اندفع المتطرفون إلى أبعد حد من الشذوذ، ولم يصغوا لأهل الاعتدال والتوازن منهم، ولم يجعلوا وزنا لأقوال أئمتهم، وما هو ماثور عنهم: بأنهم لم يصلوا إلى تلك الدرجة التى يدعونها لهم، فإنهم بشر يخطئون ويصيبون، وأن أقوالهم لا قيمة لها تجاه الأثر والنصوص النبوية، كما يأتى بيانه. لم يسمعوا ذلك، بل وصفوهم بما تهوى أنفسهم، كما وصفوا أبا حنيفة بأنه: سراج الأمة، وسيد الأئمة، ومحيى السنة، وأنه إذا تكلم خيل إليك أن ملكا يلقنه، وما كلم أحدا فى باب من أبواب الفقه إلا ذل له، وإذا أشكلت مسألة على أعلم الناس سهلها عليه. كما تجد ذلك فى كتب مناقبه للمكى، والكردرى وغيرهما. وأنك لتدهش من تلك الألفاظ الفارغة، التى لا تجد فيها سوى التهجم على

ص: 139

1-1 (1) الحوادث الجامعة ص 216-217. [1]

2-2 (2) ميدان الاجتهاد ص 11.

الحقائق، و مخالفة الحق و الواقع!!! إذ هي وليدة عصور متأخرة لا يعرفها معاصروه، و لم يشهد له بذلك علماء عصره، و قد كان أكثرهم ينكرون عليه و يردّون فتاواه. منهم: أيوب السجستاني، و جرير بن حازم، و همام بن يحيى، و حماد بن سلمة، و أبو عوانة، و على بن عاصم، و سفيان الثوري، و سفيان بن عيينة، و مالك بن أنس و غيرهم، و كلماتهم في الرد عليه مشهورة مدونة (1). و كان هو بنفسه لا يرى ذلك، و يعترف بأنّه يخطئ و يصيب، كما يتضح ذلك من أقواله المدونة و المشهورة عنه (2). و الشيء الذي يلفت النظر هو تكرارهم لكلمة تنسب إلى الشافعي، و قد جعلوها من أعظم المؤيّدات لأتباع مذهب أبي حنيفة و هي: أنّه كان يقول: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. مع أن المشهور غير هذا. و العبارة لم تصدر إلّا من قبل دعاة المذهب، إذ المعروف عن الشافعي أنّه كان يقول: أبو حنيفة يضع أول المسألة خطأ ثم يقيس الكتاب كلّه عليه. و يقول: ما أشبه رأي أبي حنيفة إلّا بخيط سحارة، و هي شيء يلعب به الصبيان، تمده هكذا فيجيء أصفر، و تمده فيجيء أخضر. و يقول: رأيت أبا حنيفة في النوم و عليه ثياب و وسخة فقال: مالي و لك (3)؟ و كان الشافعي يفضل مالكا على أبي حنيفة. و اشتهرت مناظرته لمحمّد بن الحسن الشيباني. قال محمّد بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال لي محمّد بن الحسن: أيهما أعلم، صاحبنا أو صاحبكم؟ - يعني مالكا و أبا حنيفة- قلت على الإنصاف؟ قال: نعم. . . قلت: فأنشدك الله من أعلم بالقرآن صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: صاحبكم- يعني مالكا. قلت: فمن أعلم بالسنة، صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: اللهمّ صاحبكم. قلت: فأنشدك الله من أعلم بأقوال أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و المتقدمين، صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: صاحبكم.

ص: 140

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 13. و [1] الانتقاء و جامع بيان العلم و فضله لابن عبد البر و غيرها.

2-2 (2) حجة الله البالغة ج 1 ص 157.

3-3 (3) آداب الشافعي لابي حاتم الرازي ص 171-174.

قال الشافعي: قلت فلم يبق إلا القياس. و القياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول على أي شيء يقيس (1)؟ هذه هي أقوال الشافعي في أبي حنيفة. و تدلنا بكل وضوح على بطلان ما نسبوه إليه من أن الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. و كذلك أقوال أحمد بن حنبل في مدح أبي حنيفة، فإن التتبع يرفع الوثوق بها، و قد اشتهر عنه قوله: إذا رأيت الرجل يتجّب أبا حنيفة و رأيه و النظر فيه، و لا يطمئن إليه و لا إلى من يذهب مذهبه، و يغلو، و لا يتخذه إماما، فارجو خيره (2). و كان يشتد على أصحاب الرأي في استعمال الحيل فيقول: هذه الحيل التي وضعها هؤلاء-أبو حنيفة و أصحابه-عمدوا إلى السنن فاحتالوا في نقضها. أتوا الذي قيل لهم أنه حرام، فاحتالوا فيه حتى أحلّوه. و قال أيضا: إنهم يحتالون لنقض سنن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم (3). و سئل أحمد عن مالك فقال: حديث صحيح و رأي ضعيف. و سئل عن أبي حنيفة فقال: رأي ضعيف و حديث ضعيف. و ما أكثر الشواهد التي تدل على خلاف ما يذهبون إليه من الإفراط و الاندفاع و راء العاطفة، و التمسك بأشياء بعيدة عن الصواب. فقد كثر الجدل و عظم الخلاف (حتى آل بهم التعصّب إلى أن أحدهم إذا ورد عليه شيء من الكتاب و السنّة على خلاف مذهبه يجتهد في دفعه بكل وسيلة من التأويلات البعيدة، نصره لمذهبه و لقوله) (4). و نقل الرازي عن أكبر شيوخه في تفسير قوله تعالى: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنَّهُ قَالَ: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، و كانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوها، و لم يلتفتوا إليها،

ص: 141

- 
- 1-1) آداب الشافعي لابن أبي حاتم الرازي ص 159-160. و مناقب الفخر ص 101. و مناقب مالك للسيوطي و الزواوي ص 10-12. و حلية الأولياء ج 6 ص 329. و طبقات الفقهاء ص 42 و غيرها.
- 2-2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 247. [1]
- 3-3) طبقات الحنابلة ج 2 ص 151-152. [2]
- 4-4) أبو شامة في مختصر المؤمل ص 14-15.

و بقوا ينظرون إليّ كالمتعجب- يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق الأكثرين من أهل الدنيا. قال أبو شامة (1): و كانت تلك الأزمنة مملوءة بالمجتهدين، فكل صنف على ما رأى، و تعقب بعضهم بعضا مستمدّين من الأصليين: الكتاب و السنّة، و ترجيح الراجح أقوال السلف المختلفة بغير هدى، و لم يزل الأمر على ما وصفت، إلى أن استقرت المذاهب المدونة، ثم اشتهرت المذاهب الأربعة و هجر غيرها، فقصرت همم اتباعهم إلا قليلا منهم، فقلدوا بعد ما كان التقليد حراما لغير الرسل، بل صارت أقوال أئمتهم بمنزلة الأصليين-الكتاب و السنّة-و ذلك معنى قوله تعالى: **إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَعَدِمَ الْمُجْتَهِدُونَ وَ غَلَبَ الْمُتَقَلِّدُونَ**، و كثر التعصّب و كفروا بالرّسول حيث قال: «يبعث الله في كل مائة سنة من ينفى تحريف الغالين و انتحال المبطلين» و حجروا على رب العالمين، مثل اليهود، أن لا يبعث بعد أئمتهم وليا مجتهدا، حتى آل بهم التعصّب إلى أن أحدهم إذا أورد عليه شيء من الكتاب و السنّة على خلافه يجتهد في دفعه بكل سبيل من التأويلات البعيدة نصره لمذهبه و لقوله. . إلخ (2). و هنا يستوقفنى الفكر طويلا عند ما أتأمل أقوال العلماء المبرزين، الذين ينتسبون لأحد المذاهب، و أنّهم كيف كانوا يتشدّدون فى النهى عن التقليد و مضاره، و كيف كانوا يخالفون رئيس المذهب فى اجتهادهم و أنّهم لم يعرفوا عن أئمة المذاهب ما يدعيه المتأخرون عنهم من المبالغات، و ذلك التشديد فى وجوب تقليد إمام بعينه. فكم الفرق بين الفريقين؟ و إن الأمر ليعث على الاستغراب! و إن المتتبع يقطع ببطلان ما يذهب إليه المتأخرون، و أنّهم قد خالفوا أئمتهم و رؤساء مذاهبهم فى اتباع تلك الأمور المبتدعة، و تعصّبهم لمذاهبهم بما لا يرضى به أولئك الأئمة الذين ادّعوا أنّهم لهم متبعون، و وصفوهم بأقصى ما يتصور من المدح و الثناء، و جعلوا تقليدهم

ص:142

1-1) هو شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المتولد فى 596 هـ المتوفى سنة 665 هـ.

2-2) مختصر المؤمل للرد إلى الأمر الأول ص 14-15.

و الرجوع لأقوالهم أمراً إلزامياً. ولا نعلم من أين جاء هذا الالتزام، و الأئمة أنفسهم ينهون عن ذلك؟! و لجلاء الأمر نضع صورة موجزة من أقوال أئمة المذاهب.

### الإمام أبي حنيفة لا يلزم بالرجوع إليه:

إن أقوال أبي حنيفة و آثاره تدل على عدم الإلزام بالرجوع إليه، و أخذ قوله دون غيره، و أن حكمه هو الصواب لا غير، حتى أدى الأمر إلى أن يتعصب أكثر اتباعه في تقديم قوله على الآثار الصحيحة. و كيف ساغ لهم ذلك و هو ينهى عنه؟! كما كان ينهى عن تقليده، بما اشتهر عنه أنه كان يقول: (إذا صح الحديث فهو مذهبي). و قوله: لا ينبغي لمن لا يعرف دليلى أن يفتى بكلامى. و فى رواية: حرام على من لا يعرف دليلى. و كان يقول: هذا رأى النعمان بن ثابت-يعنى نفسه- و هو أحسن ما رأيت، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب (1). و قال: هذا الذى نحن فيه رأى لا يجبر أحد عليه، و لا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شىء أحسن منه فليأت به (2). و قيل لأبى حنيفة: إذا قلت قولاً و كتاب الله يخالفه؟ قال: اتركوا قولى بكتاب الله. فقيل: إذا كان خبر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم؟ فقال: اتركوا قولى لقول رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. فقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولى لقول الصحابة (3). و قد اشتهر منع الفتوى بدون معرفة الدليل على أكابر أصحاب أبي حنيفة. قال عصام بن يوسف: كنت فى مأتم، فاجتمع فيه أربعة من أصحاب أبي حنيفة: زفر بن الهذيل، و أبو يوسف، و عافية بن يزيد، و آخر، فكلهم أجمعوا على أنه قال: لا يحل لأحد أن يفتى بقولنا ما لم يعلم من أين قلناه. قال الشيخ صالح بن محمد العمرى: إن هؤلاء الأئمة لا يبيحون لغيرهم أن يقلدوهم بغير أن يعلموا دليل قولهم (4).

ص: 143

1-1 (1) حجة الله البالغة ج 1 ص 152-153.

2-2 (2) الانتقاء ص 140.

3-3 (3) الوحدة الإسلامية ص 97.

4-4 (4) إيقاظ همم ذوى الأبصار ص 72.



وقال أبو الليث السمرقندي: باب من يصلح للفتوى؟ قال الفقيه: لا ينبغي لأحد أن يفتي إلا أن يعرف أقوال العلماء-يعنى أبا حنيفة و صاحبيه-و يعلم من أين قالوا، ويعرف معاملات الناس، فإن عرف أقوال العلماء و لم يعرف مذاهبهم. . . إلخ. وقال أبو يوسف بمثل قول أبي حنيفة و هو قوله: حرام على من لم يعرف دليلنا أن يفتي بقولنا (1).

### الإمام مالك ينهى عن التقليد:

وقد اشتهر عن مالك: أنه كان ينهى عن التقليد و الرجوع لقول أى أحد دون كتاب الله و سنة رسوله. و يعلن معارضته لمن كان يتعصب له و يدعى أعلميته على جميع الأمة. و يتضح من مطاوى كلماته أن الحديث الذى ادّعوه فى فضله، و هو حديث عالم المدينة، لم يكن يعرفه مالك، و إن كان معروفا فلا- يرى انطباقه عليه لوجود من هو أعلم منه، و المأثور عن مالك فى ذلك كثير، كقوله: إنما أنا بشر أخطئ و أصيب، فانظروا فى رأى فكل ما وافق الكتاب و السنة فخذوه، و كل ما لم يوافق الكتاب و السنة فاتركوه. و كان مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة، و يصرح فى موطنه بأنه أدرك العمل على هذا، و هو الذى عليه أهل العلم ببلدنا. و يقول فى غير موضع إذا سئل عن شىء: ما رأيت أحدا أقتدى به يفعل (2) أى يفعل ذلك الشىء المسئول عنه. و روى محمد بن محمد بن سنه بسنده عن مالك أنه قال: إنما أنا بشر أخطئ و أصيب، فانظروا فى رأى، فكل ما وافق الكتاب و السنة فخذوه، و كل ما لم يوافق فاتركوه. و روى مثله عن أحمد بن مروان المالكي (3). و كان رأى مالك: أن من ترك قول أحد من الصحابة لقول تابعى أنه يستتاب. و قد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يستتاب.

ص:144

1-1) الدين الخالص ج 4 ص 180.

2-2) أعلام الموقعين لابن القيم ج 2 ص 186.

3-3) الدين الخالص ج 4 ص 182.

فكيف بمن ترك قول الله و الرسول لقول من هو دون إبراهيم أو مثله (1) وهذا على سبيل المثال لا التشخيص منه. وقد اشتهر عن مالك كثرة قوله: لا أدري. فى كثير من المسائل، وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال فى اثنين وثلاثين منها: لا أدري. وسئل من العراق عن أربعين مسألة، فما أجاب منها إلا فى خمس. قال أبو مصعب: قال لنا المغيرة: تعالوا نجمع كل ما نريد أن نسأل عنه مالكا. فمكثنا نجمع ذلك، ووجه به المغيرة إليه، وسأله الجواب، فأجاب مالك فى بعضه، وكتب فى الكثير منه: لا أدري (2). و الروايات عنه فى «لا أدري» و «لا أحسن» كثيرة، حتى قيل: لو شاء رجل أن يملأ صحيفة من قول مالك: «لا أدري» لفعل. وقيل لمالك إذا قلت- أنت- يا أبا عبد الله: لا أدري فمن يدري؟ قال: ويحك؟ أعرفتي؟ و من أنا؟ و أيش منزلتي حتى أدري ما لا تدرين؟ ثم أخذ يحتج وقال: قد ابتلى عمر بن الخطاب بهذه الأشياء، فلم يجب فيها. وقال عبد الله بن مسلمة: دخلت على مالك- أنا و رجل آخر- فوجدناه يبكي، فسلمت عليه، فرد عليّ، ثم سكت عنى و هو يبكي، فقلت: يا أبا عبد الله ما الذى يبكيك؟ فقال لى: يا ابن قعب أبكى لله على ما فرط منى من هذا الرأى و هذه المسائل. وقد كان لى سعة فيما سبقت. فقلنا له: ارجع عن ذلك. فقال: و كيف لى بذلك وقد سارت به الركبان (3). و سأل رجل مالكا عن مسألة، و ذكر أنه أرسل فيها من مسيرة ستة أشهر من المغرب فقال له: أخبر الذى أرسلك أنه لا علم لى بها. قال: و من يعلمها؟ قال مالك: من علمه الله. و سأله رجل عن مسألة استودعه إياها أهل المغرب، فقال: ما أدري، ما ابتلينا بهذه المسألة ببلدنا، و لا سمعنا أحدا من أشياخنا تكلم فيها، و لكن تعود. فلما كان من الغد جاء الرجل و قد حمل ثقله على بغله يقوده، فقال: مسألتي. فقال مالك: ما أدري ما هى؟

ص:145

- 1-1 (1) أعلام الموقعين لابن القيم.
- 2-2 (2) الموافقات ج 4 ص 288.
- 3-3 (3) الوحدة الإسلامية ص 107.

فقال الرجل: يا أبا عبد الله تركت خلفي من يقول: ليس على وجه الأرض أعلم منك. فقال مالك غير مستوحش: إذا رجعت إليهم فأخبرهم إنى لا- أحسن (1). وهذا مما يدل على خطأ ذلك الاعتقاد الذى كوته عوامل غير مشروعة، وأيدته ظروف خاصة، لذلك أنكر عليهم مالك، إذ هو لم يعرف من نفسه ما قد ادّعاه فيه غيره، وكذلك لم يكن يعرف المتّصلون بمالك، والذين عرفوا منزلته كما عرفه النّاءون عنه، وأخذوا عنه صورة مكبرة رسمتها يد المبالغة والغلو، فأنكر مالك عليهم ما يدّعون فيه من العصمة والوصول إلى درجة الإحاطة بكل العلوم. واتسع الأمر بعد مالك حتى أصبح قوله يقدم على الكتاب والسنة كما أشرنا لذلك.

### الإمام الشافعى ينهى عن التقليد:

وكذلك الإمام الشافعى كان ينهى عن التقليد، ويدعو إلى العلم من طريقه. وقد روى عنه أنّه قال: مثل الذى يطلب العلم بلا حجة كمثّل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه، وهو لا يدري. ذكره البيهقى. وقال إسماعيل بن يحيى المزنى فى أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعى ومن معنى قوله: لأقربه على من أراد، مع إعلامية نهية-أى الشافعى-عن تقليده وتقليده غيره، لينظر فيه لدينه، ويحتاط فيه لنفسه (2). ومختصر المزنى هذا قد أصبح للشافعية فيه اعتقاد وتمسك شديد، وامتلات به البلدان، حتى أن المرأة كانت إذا جهزت للدخول على زوجها حمل فى جهازها مصحف ونسخة من مختصر المزنى (3). وقال ابن حجر فى توالى التأسيس: قد اشتهر عن الشافعى: (إذا صح الحديث فهو مذهبي). قال ابن القيم: هذا صريح فى مدلوله، وأن مذهبه ما دل عليه الحديث لا قول له غيره، ولا يجوز أن ينسب إليه ما خالف الحديث، فيقال هذا مذهب الشافعى، ولا يحل الإفتاء بما خالف الحديث على أنه مذهب الشافعى، ولا الحكم به، صرح بذلك جماعة من أئمة أتباعه.

ص:146

1-1) الموافقات لأبى إسحاق الشاطبى ج 4 ص 287-288.

2-2) أعلام الموقعين ج 2 ص 181.

3-3) مختصر المؤمل ص 35.

وقد اعترف الشافعي بعدم إحاطته بالأخبار الصحيحة، كما روى عن أحمد بن حنبل أنه قال: قال الشافعي: أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه (1) ولذلك قال أبو ثور: إن الشافعي ما كان يعرف الحديث، وإنما كنا نوقفه عليه ونكتبه. و قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: ما من أحد إلا و تذهب عليه سنة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و تعزب عنه، فمهما قلت من قول، و أصّلت من أصل، فيه عن رسول الله خلاف ما قلت، فالقول ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و هو قولى، و جعل يردد هذه الكلمات. و قال أيضا: أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن ليدعها لقول أحد. و ستأتى زيادة بيان لهذه الأقوال عند بحثنا عنه.

### الإمام أحمد يحارب التقليد:

و كذلك الإمام أحمد بن حنبل فإن المأثور عنه و المشهور من أقواله أنه كان يحارب التقليد، و يحث الناس على طلب الحكم من دليبه، و يقول: كثرة التقليد عمى فى البصيرة (2). و قال أبو داود: قلت لأحمد: الأوزاعى هو أتبع من مالك؟ فقال أحمد: لا تقلد دينك هؤلاء، ما جاء عن النبى و أصحابه فخذ به (3). و كان ينهى عن الكتابة عنه و يقول: لا تكتبوا عنى و لا تقلدوني، و لا تقلدوا فلانا و فلانا، و خذوا من حيث أخذوا (4). و قال أحمد أيضا: لا تقلدنى، و لا تقلّد مالكا، و لا الثورى و لا الأوزاعى، و خذ من حيث أخذوا. و قال: من قلّة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال (5).

ص: 147

- 
- 1-1) البداية و النهاية ج 9 ص 327، و [1] طبقات الحنابلة ج 1 ص 282، و [2] آداب الشافعي لابن أبى حاتم ص 95، و ميزان الشعرانى ج 1 ص 26 و مجموعة الرسائل المنبرية ج 3 ص 99.
- 2-2) جلاء العينين للآلوسى ص 105.
- 3-3) أعلام الموقعين ج 2 ص 181.
- 4-4) مختصر المؤمل لأبى شامة ص 31.
- 5-5) أعلام الموقعين ج 2 ص 182.

قال صاحب المنار: وقد كان هذا الإمام الجليل متأخرا قليلا عن «الأئمة الثلاثة» وإن أدرك بعضهم وصحب أحدهم وكان قد رأى بوادر التزام تقليد الذين تكلموا فى الأحكام وكتبوا فيها، وعلم أن مالكا «رحمه الله» قد ندم قبل موته إذ نقلت أقواله وفتاويه قبل موته، ولذلك لم يدون مذهبا، واقتصر على كتابة الحديث، ولكن أصحابه جمعوا من أقواله وأجوبته وأعماله ما كان مجموعته مذهبا، كما قال العلامة ابن القيم (1). وقال سلمة بن المسيب: سمعت أحمد بن حنبل يقول: رأى الأوزاعي ورأى مالك، ورأى أبى حنيفة كله رأى، وهو عندى سواء وإنما الحجة فى الآثار (2)!. يقول السيد صديق حسن، بعد نقله لأقوال أئمة المذاهب فى النهى عن تقليدهم: فإنهم -رضى الله عنهم- قد نهوا عن الرأى والتقليد، وصرح بعضهم بأن الاستحسان بدعة، ولكن مقلديهم باللسان دون الجنان، لم يرضوا بهذا النهى وقالوا نحن مقلدوكم شنتم أو أبيتم -وهم والله يعلم- أنهم كاذبون. (الدين الخالص ج 4 ص 373). والشىء الذى نود التنبيه عليه هنا أن أتباع أحمد قد تمسكوا بتقليده والأخذ بأقواله، بل جعلها بعضهم كأقوال النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهى بمثابات ما يروى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من الآثار (3). هذا ما أردنا ذكره فى هذا العرض الموجز عن أئمة المذاهب، ونحن لا نريد أن نحط من كرامة واحد منهم، أو نتعصب عليه، ولكنى كما قلت سابقا: إن من الحق والإنصاف أن نعطى شخصية كل واحد من أئمة المذاهب حقها من الدراسة المتجردة عن التعصب والتحيز، وأن لا- نتقاد للعواطف، ولننظر الواقع بعين تبصر الحقائق كما هى. وبدون شك أن ذلك التعصب الطائفى قد أوجد مشاكل اجتماعية فرقت الكلمة وكدرت صفو الأخوة. وما أحوج المسلمين إلى الإلفة والاتحاد وهى دعوة رفع الأئمة بها أصواتهم وكان تعاليمهم تحث على الوحدة والاتفاق. فالتعصب ينافى المبادئ

ص:148

1-1) الوحدة الإسلامية ص 117.

2-2) الإيقاظ للغلاف ص 28.

3-3) طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ج 2 ص 176. [1]

الصحيحة ويدعو إلى الفرقة، ونحن بأمر الحاجة إلى التفاهم من طريق العلم والواقع. ولا يتسنى لنا حصول الغرض إلا برفع تلك الزوائد التي أوجدتها عوامل التعصب، وأن لا نقيم ووزنا لعوامل السياسة التي قضت على المسلمين باتساع شقة الخلاف، فهي تساعد الضعيف ليقوى على مقابلة خصمه، فإذا ما بلغ الغاية أو كاد؛ سحبت يد المساعدة خلسة لتضمها للجانب الآخر!!! وهكذا على ممر الزمن واختلاف العصور.

### أسباب التعصب المذهبي و تطور الدعوة:

والغرض: إن التعصب قد شوّه وجه الحقيقة، وقلب الأمور عن واقعها، ولعل أسباب ذلك تعود إلى ما يلي: 1- كان لتطور الدعوة إلى الالتزام بالمذاهب الأربعة، أثر في تحيز كل جانب إلى المذهب الذي يعتنقه، مما يؤدي إلى الاندفاع بنوع من التعصب وراء طلب المؤيدات لذلك المذهب، بدون التفات إلى مؤاخذه، أو استناد لأمر ملموس. وكانت الظروف تساعد على تنمية تلك الاندفاعات، إذ وجدت نشاطا ساذجا في المجتمع، وقبولا في العقول المتبلبلية، فكالت المدح لها جزافا ما شاءت بدون حساب. 2- إن التزاحم على مناصب الدولة من قضاء وتولى حسبة، كان يؤدي إلى المجادلة والمناضلة والتحزب، ولا يحصل من وراء ذلك إلا خلاف وتباعد، وادعاء كل الحق في جانبه، وأن مذهبه هو المذهب الذي لا يقبل الله عملا إلا به، وأن رئيس المذهب هو المنفرد بعلوم الإسلام لا غير، لتكون له الغلبة على غيره. وقد تزلفوا للأمراء والخلفاء طلبا للحصول على ذلك المنصب (ولذلك تجد الوطيس لم يحم إلا بين الحنفية والشافعية، لأن المناصب كانت محصورة فيهم) (1). 3- مزاحمة المذهب الجعفرى وانتشاره في المجتمع الإسلامى، مع بذل الجهد من السلطات في معارضته، والقضاء على المنتهين إليه مرة، وبتشجيع غيره من المذاهب تارة أخرى، مما يبعث معتنقيها على التفانى في التعصب لها، والتحامل على هذا المذهب الذي فرض نفسه على المجتمع بدون مشجع مادي.

ص: 149

وقد أفصح التاريخ عن كثير من ذلك مما لا حاجة لذكره الآن. و من المناسب أن نختم هذا الفصل بما ذكره الأستاذ السيد محمّد رشيد رضا، في جواب الأسئلة التالية الموجهة إليه من باريس، من صديقه أحمد زكى بك و هي: 1- متى أقفل باب الاجتهاد؟ و ما ذا ترتب على هذا الإقفال من المنافع والمضار؟ الجواب: زعموا أنه أقفل بعد القرن الخامس، و لكن كثيرا من العلماء اجتهدوا بعد ذلك، فلم يكونوا يعملون إلا بما يقوم عندهم من الأدلة، و لا يخلو زمن من هؤلاء، كما صرح بذلك علماء الشافعية. و لو لا خوفهم من حكومات الجهل لبينوا للناس مفسد التقليد الذى حرمه الله. و دعوهم إلى العمل بالدليل كما أمر الله، و قد علمت الحكومة العثمانية-منذ عهد قريب- بأن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد و العمل بالدليل، فشدت عليهم النكير حتى سكتوا عن الجهر بذلك. و لا نعرف فى ترك الاجتهاد منفعة ما، و أما مضاره فكثيرة و كلها ترجع إلى إهمال العقل و قطع طريق العلم، و الحرمان من استقلال الفكر. و قد أهمل المسلمون كل علم بترك الاجتهاد فصاروا إلى ما نرى. 2- ما معنى قولهم أقفل باب الاجتهاد؟ الجواب: معناه أنه لم يبق فى الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد، و لا يرجى أن يكون ذلك فى المستقبل، و إنما قال هذا القول بعض المقلّدين، لضعف ثقتهم بأنفسهم، و سوء ظنّهم بالناس، و زعمهم أن العقول دائما فى تدلّ و انحطاط، و غلو فى تعظيم السابقين. و قد رأى أن تلك الشروط-أى شروط الاجتهاد-ليست بالأمر الذى يعز مثاله، و تعلم أن سنّة الله تعالى فى الخلق الترقى إلا أن يعرض مانع، كما يعرض لنمو الطفل مرض يرجعه القهقرى. كان آخر الأديان أكملها. 3- ما معنى هذه العبارة: قفل باب الاجتهاد، عند العامة و عند أهل التحقيق؟ الجواب: العامة يقلّدون آباءهم و رؤساءهم فى قولهم: إن أهل السنّة ينتمون إلى أربعة مذاهب من شدّ عنها فقد شدّ عن الإسلام. و لا يفهمون أكثر من هذا.

و أما المشتغلون بالعلم أو السياسة، فالضعفاء المقلدون منهم يفهمون من الكلمة ما فسرناها به في جواب السؤال السابق، ويحتجّون على ذلك بأن الناس قد أجمعت كلمتهم على هذه المذاهب، فلو أجزى للعلماء الاجتهاد لجاؤونا بمذاهب كثيرة، تزيد الأمة تفريقاً، وتذهب بها في طرق الفوضى. والمحققون، يعلمون أن منشأ هذا الحجر هو السياسة، فالسلاطين والأمرء المستبدون لا يخافون إلا من العلم، ولا علم إلا بالاجتهاد. فقد نقل الحافظ ابن عبد البر وغيره الإجماع على أن المقلد ليس بعالم، ونقله عنه ابن القيم في (أعلام الموقعين) وهو ظاهر، إذ العالم بالشيء هو من يعرفه بدليله، وإنما يعرف المقلد أن فلانا قال كذا فهو ناقل لا عالم. وربما كانت آلة (الفوتوغراف) خيراً منه.





<حول الاجتهاد و التقليد: > أغلق باب الاجتهاد و التقليد في وجوه المسلمين، و أصبح الالتزام بالمذاهب الأربعة لازماً، حتى جعلت أحكام الإسلام مقصورة على الأئمة الأربعة دون غيرهم، لأن درجة الاجتهاد مستحيلة على أى أحد من علماء الأمة (كما يقولون) مع سهولة الوصول إليها. وقد اتضحت لنا الأسباب التي دعت إلى هذا الالتزام، وقد وقفنا على الأمور التي أدت إلى قفل باب الاجتهاد. و معناه الضربة القاضية على حرية الفكر بل على الإسلام، الذي جاء للناس كافة ليساير مختلف العصور و الشعوب. يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي: و إنى أستطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة، و بوسائل القهر و الإغراء بالمال، و لا شك أن هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب الأربعة- التي نقلدها اليوم- لبقى جمهور يقلدها أيضا و لكانت الآن مقبولة عند من ينكرها، فنحن إذا في حل من التقليد بهذه المذاهب الأربعة التي فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة، و في حل من العود إلى الاجتهاد في أحكام ديننا لأن منعه لم يكن إلا بطريق القهر، و الإسلام لا يرضى إلا بما يحصل بطريق الرضى و الشورى بين المسلمين، كما قال تعالى: وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (1). و قد ذكرنا فيما سبق عرضا موجزا لأقوال العلماء الأعلام من الأمة في الإنكار على غلق باب الاجتهاد، و منع المسلمين من الاهتداء بهدى القرآن و صحيح الحديث، و الاقتصار على أقوال المذاهب الأربعة، و ليس من الصحيح الاعتقاد بأنهم أحاطوا

ص:153

بأسرار القرآن وعلوم الحديث، فدونها في كتبهم أو لقنوها لتلامذتهم، مع أن كلماتهم تدل على عدم بلوغهم تلك الدرجة من الكمال؛ و لا ارتياب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة و مالك و الشافعي و أحمد، و عاشوا إلى اليوم، لداموا مجتهدين مجدين يستنبطون لكل قضية حكما و كلما زاد تعمقهم زادوا فهما و تدقيقا. إلى آخر ما تعرضنا لذكره من الآراء و الأقوال في الإنكار على غلق باب الاجتهاد، و منعه و (و هو سر تأخر المسلمين، و هو الباب المرن الذي عند ما قفل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم، فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغير و يبدل لاعتبارات سياسية). و على أي حال فإن هناك طائفة من العلماء يحاولون رفع ذلك الجمود الفكري و فتح باب الاجتهاد الذي دعت السياسة لإقفاله، حيث لم يعرف هناك دليل شرعي يؤيد ما ذهب إليه المقلدون و القائلون بلزومه، و وجوب الرجوع إلى المذاهب الأربعة دون غيرها من علماء الأمة. و قد عقد ابن القيم فصلا طويلا في أعلام الموقعين استقصى فيه أدلة القائلين بذلك و إبطالها بالأدلة القوية، كما قد ألفت رسائل عديدة لهذا الغرض، و كلها تدعو إلى التحرر من تلك القيود التي أخذت بأعناق العلماء، و إذا رفع أحد منهم صوته بالدعوة إلى رفع تلك القيود ألقى في غيابت السجن، و لقي العذاب و التنكيل، لأن السلطان كان مؤيدا لأهل التقليد، لأنهم آلة السياسة و أعوان الرئاسة، فكان صوت المصلحين بينهم خافتا و مقامهم خافيا. و ها نحن أولاء نلقى نظرة خاطفة حول الاجتهاد و التقليد، و نقف على شروط الاجتهاد كما وقفنا على كلمات الأئمة من الدعوة إليه و النهي عن التقليد، و نستطرد حجج القائلين به.

### الاجتهاد:

الاجتهاد في اللغة: بذل المجهود و استفراغ الوسع في فعل من الأفعال. و لا يستعمل إلا فيما فيه كلفة، فيقال: اجتهد في حمل حجر الرحي. و لا- يقال: اجتهد في حمل خردلة. ثم صار هذا اللفظ في عرف العلماء مخصوصا ببذل الفقيه وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة.

والاجتهاد التام: أن يبذل الوسع في الطلب بحيث يحس من نفسه بالعجز عن مزيد طلب. وقال في كشف اصطلاحات الفنون: (الاجتهاد في اللغة استفراغ الوسع في تحصيل أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقة. وفي اصطلاح الأصوليين: استفراغ الفقيه الوسع في تحصيل ظن بحكم شرعي. والمستفراغ وسعه في ذلك التحصيل يسمى مجتهدا بكسر الهاء. ثم ذكر بعد ذلك بحثا في التعريف والقول بتجزى الاجتهاد-أى جواز كونه في بعض الأحكام دون بعض-و شروط المجتهد فقال: (للمجتهد شرطان: 1- معرفة البارى تعالى وصفاته، و تصديق النبى بمعجزاته، و سائر ما يتوقف عليه علم الإيمان، كل ذلك بأدلة إجمالية و إن لم يقدر على التحقيق و التحصيل، على ما هو دأب المتبحرين فى علم الكلام. 2- أن يكون عالما بمدارك الأحكام و أقسامها، و طرق إثباتها و وجوه دلالتها، و تفاصيل شرائطها و مراتبها، و جهات ترجيحها عند تعارضها، و التقصى عن الاعتراضات الواردة عليها فتحتاج إلى: معرفة حال الرواة، و طرق الجرح و التعديل، و أقسام النصوص المتعلقة بالأحكام، و أنواع العلوم الأدبية من اللغة و الصرف و غير ذلك، هذا فى حق المجتهد المطلق الذى يجتهد فى الشرع) اه. و جعل الشاطبى فى الموافقات العمدة فيها: فهم العربية متنا و أسلوبا. و معرفة مقاصد الشريعة، و أجاز تقليد المجتهد لغيره فى الفنون التى هى مبدأ الاجتهاد، كأن يقلد المحدثين فى كون هذا الحديث صحيحا و هذا ضعيفا، من غير أن يعرف هو حال الرواة و طرق الجرح و التعديل. و من الأقوال ما يجمع بين التزام الاجتهاد و التقليد، و هى مما اقتضاه الحال فى مواجهة تحرير المسائل و مقالات المتأخرين فى الأصول، حيث ينم تصريحهم عن رغبة فى الاجتهاد أو عمل به بالفعل، و قد ورد هنا قول محمّد بن عبد العظيم الرومى الموردي الحنفى فى الفصل الأول من كتابه (القول السديد) الذى ألفه سنة 1052 هـ: (اعلم أنّه لم يكلف الله أحدا من عباده بأن يكون حنفيا أو مالكيا أو شافعيا أو حنبليا، بل أوجب عليهم الإيمان بما بعث محمّدا صلّى الله عليه و آله و سلّم و العمل بشريعته، غير أن العمل بها متوقف عليها. و الموقوف له طرق، فما كان منها مما يشترك به العوام و أهل النظر

كالعلم بفريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج والوضوء إجمالاً، و كالعلم بحرمة الزنا والخمر واللواط و قتل النفس وغير ذلك مما علم من الدين بالضرورة، فذلك لا يتوقف فيه على اتباع مجتهد ومذهب معين، بل كل مسلم عليه اعتقاد ذلك. فمن كان في العصر الأول فلا يخفى وضوح ذلك في حقه، ومن كان في الأعصار المتأخرة فلوصول ذلك إلى علمه ضرورة من الإجماع والتواتر و سماع الآيات و السنن، أى الأحاديث الشريفة المستفيضة المصرحة بذلك في حق من وصلت إليه. و أما ما لا يتوصل إليه إلا بضرب من النظر و الاستدلال، فمن كان قادراً عليه بتوفر الآلة و جب عليه فعلاً كالأئمة المجتهدين (رضى الله عنهم) و من لم يكن له قدرة عليه؛ و جب عليه الاتباع إلى من يرشده إلى ما كلف به ممن هو أهل النظر و الاجتهاد و العدالة.

### التقليد:

التقليد: هو قبول قول بلا حجة. و ليس من طرق العلم لا- في الأصول و لا في الفروع، إلا أنه لما كان الظن في الفروع كافياً للعمل، و في الأصول غير كاف؛ جاز في الفروع دون الأصول. و قال قوم: إن طريق معرفة الحق: التقليد، و إن ذلك هو الواجب، و إن النظر و البحث حرام (1)!!! قال الذين جوزوا التقليد أيضاً في الأصول: إن النظر لو كان واجباً لفعلة الصحابة و أمروا به، و لكنهم لم يفعلوا، و لو فعلوا لنقل عنهم كما نقل النظر في الفروع. و دليل الجمهور في منع التقليد في الأصول: انعقاد الإجماع على وجوب العلم بالله تعالى، و لا يحصل ذلك بالتقليد لإمكان كذب المقلد، إذ أن صدقه إنما يعرف بالضرورة أو النظر، و الأول منتف، و إذا علم ارتفع التقليد.

### بين طائفتين:

ها نحن ذا بعد هذا البيان الموجز للاجتهاد و التقليد نقف بين طائفتين من المسلمين، و كل واحدة تخالف الأخرى فيما تذهب إليه من حيث الاجتهاد و التقليد،

ص: 156

وأنّ النزاع لا يزال يشتد، كلما اتسع الفكر وانتشر العلم ورفعت القيود كانت كفة الفائزين بالجواز أرجح. وإن استقصاء حجج كل من الطرفين يستدعى الإطالة في الموضوع والخروج عن شرط الكتاب، ولكننا نكتفي بالإشارة للبعض منها، والاطلاع على التفصيل في الكتب المختصة بذلك. وإن أكثرها فائدة واستقصاء هو كتاب «الدين الخالص» للسيد صديق حسن وكتاب «أعلام الموقعين لابن القيم الجوزية» فليراجع من أراد الوقوف على ذلك.

### حجة المقلدين:

لقد سرت روح التقليد سريانا عاما بعد أن كان مرید الفقه يشتغل أولا بدراسة الكتاب، ورواية السنة، اللذين هما أساس الاستنباط، أما في هذا الدور-أى دور غلق باب الاجتهاد-فأصبح مرید الفقه يتلقى كتب إمام معيّن، ويدرّس طريقته التي استنبط بها ما دونه من الأحكام، فإذا أتم ذلك صار من العلماء الفقهاء. ومنهم من تعلو به همّته فيؤلّف كتابا في أحكام إمامه. ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه أن يقول في مسألة من المسائل قولاً يخالف ما أفتى به إمامه. كأن الحق كله نزل على لسان إمامه وقلبه، حتى قال طليعة فقهاء الحنفية في هذا الدور، أبو الحسن عبيد الله الكرخي: كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة. و كل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ. وبمثل هذا أحكموا دونهم أرتاج باب الاختيار. و التزم كل منهم مذهبا معينا لا يتعداه. و يبذل كل ما أوتى من مقدرة في نصرة ذلك المذهب جملة و تفصيلا. مع أنه لا يخطر ببال هؤلاء الفحول ثبوت العصمة لأى إمام في اجتهاده، و قد كان الأئمة أنفسهم يعترفون بجواز الخطأ عليهم، و أن تكون هناك سنّة لم يطلعوا عليها (1). و على هذا سارت قافلة الزمن، و لم يكن هناك طريق لرفع ذلك التحجير. و إيقاف تسريبات تلك الروح. و من يحاول الاجتهاد و الاتصال بالأدلة الشرعية يكون نصيبه النكال و التعذيب، و يرمى بالبدعة و الضلالة. و قد وقع ذلك لكثير من العلماء. و على أى حال فقد احتج القائلون بلزوم التقليد بأمور:

ص:157

1- قوله تعالى: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وبقوله تعالى: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ وقالوا: إنَّ أهل الذکر و أولى الأمر هم العلماء. 2- إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أرشد إلى التقليد و سؤال من لا يعلم لمن يعلم، فقال فى حديث صاحب الشجة: «أ لا سألوأ إذا لم يعلموا إنما شفاء العمى السؤال» (1). 3- تصريح الشافعى بتقليده لعمر: فى الضبع بعير، أى كفارة قتل الضبع بعير، أنه قال: قلته تقليدا لعمر، و فى مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب، تقليدا لعثمان. و فى مسألة الجد مع الأخوة، تقليدا لزيد. و عنه (أى عن زيد) قبلنا أكثر الفرائض. و هذا أبو حنيفة ليس معه فى مسائل الأبار إلا تقليد من تقدمه من التابعين فيها. و هذا مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة. و قال محمد بن الحسن الشيبانى: يجوز للعالم أن يقلد من هو أعلم منه، و لا يجوز له أن يقلد من هو مثله. 4- استدلوا بقول عمر: إنى لأستحى من الله أن أخالف أبا بكر. و قال لأبى بكر: رأينا تبع لرأيك. إلى آخر ما أورده من الاحتجاج لذلك. و أنت ترى أن حججهم خارجة عن محل النزاع. أما الآيات فهى عامة، فما الدليل على تخصصها بالأربعة، و أنه لا يجوز سؤال غيرهم؟ و أن جميع ما ذكره لا- يصلح لإثبات المدعى. و قد أجاب عنه مانعو التقليد و فندوا ما ذهبوا إليه. و قال أبو عمر: يقال لمن قال بالتقليد لم قلت به و خالفت السلف فى ذلك فإنهم لم يقلدوا؟ فإن قال: قلت لأن كتاب الله لا علم لى بتأويله، و سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لم أحصها، و الذى قلده قد علم ذلك، فقلدت من هو أعلم منى.

ص: 158

1 - 1) أخرجه أبو داود و ابن ماجه عن جابر قال: خرجنا فى سفر، فأصاب رجلا منا حجر فشججه فى رأسه، ثم احلم فسأل أصحابه: هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله أ لا سألوأ إذا لم يعلموا» الحديث.

قيل له: أما العلماء إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب، أو حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا شك فيه، ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض، فما حجتك في تقليد بعضهم دون بعض وكلهم عالم؟ ولعل الذى رغبت عن قوله أعلم من الذى ذهبت إلى مذهبه. فإن قال: قلدته لأنى أعلم أنه على صواب. قيل له: علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع؟ فإن قال: نعم. أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل. وإن قال: قلدته لأنه أعلم منى. قيل له فقلد كل من هو أعلم منك، فإنك تجد من ذلك خلقا كثيرا، ولا تحصى من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك. فإن قال: قلدته لأنه أعلم الناس. قيل له: إذا أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحا!! إلى أن يقول: ولا خلاف بين أئمة الأمصار فى فساد التقليد (1). وعلى أى حال فإن روح التقليد قد سرت وأشرب قلوب المقلدين حب التعصب للمذهب الذى يتبعونه، و حكموا بخلو الأرض من القائلين لله بحجة، وقالوا: لم يبق فى الأرض عالم منذ الأعصار المتقدمة. فقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد أبى حنيفة، وأبى يوسف وزفر بن الهذيل، ومحمد بن الحسن الشيبانى، والحسن بن زياد اللؤلؤى، وهذا قول كثير من الحنفية. وقال بكر بن العلاء القشيري: ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة. وقال آخرون: ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي، وسفيان الثوري، وكيع بن الجراح، وعبد الله بن المبارك. وقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي. وعند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم لله بحجة، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم، ولم يحل لأحد بعد أن ينظر فى كتاب الله ولا سنة رسوله لأخذ الأحكام منها،

ص: 159



و يقضى و يفتى بما فيهما حتى يعرضه على قول مقلده و متبوعه، فإن وافقه حكم به و أفتى به، و إلا رده و لم يقبله. و هذه أقوال-كما ترى-قد بلغت من الفساد و البطلان و التناقض و القول على الله بلا علم، و إبطال حججه، و الزهد فى كتابه و سنة رسوله (1). و إن منهم من أقام رؤساء المذاهب مقام الأنبياء (بل إن من اتباعهم من قدمهم عليهم عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح، فإنهم يردون كلام النبى المعصوم مع اعتقادهم صحة سنده، لقول نقل عن إمامهم، و يتعللون باحتمالات ضعيفة كقولهم: يحتمل أن يكون الحديث نسخ، و يحتمل أن عند إمامنا حديثاً آخر يعارضه!) . و لا شك أن هؤلاء المقلدين قد خرجوا بغلوهم فى التقليد عن التقليد، لأنهم لو قلّدوا الأئمة فى آدابهم و سيرتهم و تمسكهم بما صح عندهم من السنة لما ردّوا كلام المعصوم لكلام غير المعصوم، الذى يجوز عليه الخطأ و الجهل بالحكم، و كانوا يأمرّون بأن يترك قولهم إذا خالف الحديث. بل تسلّق هؤلاء الغالون-بمثل ذلك-إلى القرآن نفسه، و هو المتواتر القطعى و الإمام المبين. و تجرأ بعضهم أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ دينه من الكتاب، لأنه لا يفهمه، و إنما يفهمه رجال الدين، فيجب عليه أن يأخذ بكل ما قالوا و إن خالف الكتاب، و لا يجوز له أن يأخذ بالكتاب إذا خالف ما قالوا، بل لا يجوز لأحد أن يقول: هذا حلال و هذا حرام، لأن الله قال كذا، أو لأن رسول الله قال كذا، بل لأن فلانا الفقيه قال كذا (2)!!! . و جملة القول أنهم انقسموا إلى فئتين، فئة ترى بقاء القديم على قدمه و المحافظة على إبقاء ما قرر فى تلك العصور، حتى عدوا محاولة الخروج عن ذلك ضلالاً و بدعة. و فئة ترى وجوب حل تلك القيود و إطلاق حرية الفكر و الرجوع إلى أصول

ص:160

1-1 (1) أعلام الموقعين ج 2 ص 256-257.

2-2 (2) الوحدة الإسلامية ص 45-46.

استتباط الحكم، وكلمما طال الزمن اتسع نشاط هذا الرأي وكثر الإنكار على من يقول بغلق باب الاجتهاد. ذكروا يوماً في مجلس السيد جمال الدين الأفغانى (1) قولاً للقاضى عياض، واتخذوه حجة، واشتد تمسكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحي، بأنه لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه. فقال جمال الدين: يا سبحان الله إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله، وتناول فهمه وزمانه، أفلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة؟. وذكروا أن باب الاجتهاد مسدود لتعدّ شروطه. فتنفّس جمال الدين الصعداء وقال: ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد، أو أى إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين؟! وأن يهتدى بهدى القرآن، وصحيح الحديث، أو أن يجدّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منها، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه، ولا ينافى جوهر النص. إن الله بعث محمّداً رسولاً بلسان قومه العربى يفهمهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه ما يقوله لهم وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومهم. وقال: إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وفى مكان آخر إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. فالقرآن ما أنزل إلا ليفهم، ولكى يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه. وفهم أحكامه، والمراد منها (2).

ص: 161

1-1) السيد جمال الدين بن صفتر أو صفدر ولد سنة 1254 هـ 1838 م، وتوفى يوم الثلاثاء 9 مارس سنة 1897 م 1314 هـ بالآستانة، و ينتهى نسبه إلى الحسين بن على عليهما السلام، وعشيرته قوية فى الأفغان، وهم محل احترام وتقدير الأفغانيين، ونشأ جمال الدين بينهم وسافر إلى البلاد الإسلامية يدعو للإصلاح، ولقى أذى كثيراً فى سبيل ذلك من أعلام النهضة ورجال الحرية. ترك منهجه واضحاً عند الكثيرين وكان له الفضل فى بعث روح الفكر وتجديد حركتها بالتصدى للجمود والتعصب.

2-2) خاطرات جمال الدين للمخزومى ص 177-178. [1]

وكان تلميذه الشيخ محمد عبده (1) يدعو لفتح باب الاجتهاد، وينكر الجمود على القديم، ويدعو لحل تلك القيود، وإطلاق حرية الفكر، والرجوع الصحيح إلى قواعد الدين. وكان يناضل عن هذه الفئمة بلسانه وقلمه، وإليك بيان وجهة نظره في قوله: (وارتفع صوتي في الدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه من ينابيعها الأولى، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من غلظه وخبثه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبًا بالتعويل عليها في آداب النفس وإصلاح العمل (2). وقام السيد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده في المطالبة بفتح باب الاجتهاد، وشدّد النكير على من يذهب إلى غلقه، في لزوم اتباع مذهب معين، ومن أقواله: (ولا نعرف في ترك الاجتهاد منفعة ما، وأما مضاره فكثيرة، وكلها ترجع إلى إهمال العقل، وقطع طريق العلم، والحرمان من استغلال الفكر، وقد أهمل المسلمون كل علم بترك الاجتهاد، فصاروا إلى ما نرى) (3). وذكر (أنه لو لا خوفهم-أى العلماء-من حكومات الجهل لبئنا مفسد التقليد الذي حرمه الله، ودعوا الناس إلى العمل بالدليل كما أمر الله، وقد علمت الحكومة العثمانية منذ عهد قريب، بأن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد، والعمل بالدليل، فشددت عليهم النكير حتى سكتوا عن الجهر) (4). ويقول الدكتور أحمد أمين: وقد أصيب المسلمون بحكمهم على أنفسهم بالعجز وقولهم بإفقال باب الاجتهاد؛ لأن معناه أنه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد، ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل وإتّما قال هذا القول بعض

ص:162

- 
- 1-1) هو الشيخ محمد بن عبده خير الدين المتوفى 8 جمادى الأولى سنة 1333 هـ 1905 م كان حامل لواء نهضة العلم في مصر، وهو تلميذ السيد جمال الدين الأفغانى و [1] له آثار قيمة و ذكر جميل.
- 2-2) أعلام الإسلام ص 99.
- 3-3) الوحدة الإسلامية ص 137.
- 4-4) نفس المصدر ص 45.

المقلّدين لضعف ثقتهم بأنفسهم و سوء ظنّهم بالناس وزعمهم عكس ما يقول أصحاب النشوء و الارتقاء من دعواهم أن العقل دائما فى تدن و انحطاط، و غلوهم فى تعظيم السابقين . . . (1). و قد تقدم فى الجزء الأول بعض ما يتعلّق بمسألة الاجتهاد و التقليد و ذكرنا هناك آراء كل من الفريقين من العلماء المعاصرين و غيرهم.

### التلّفيق:

و هو الأخذ برأى إمام فى مسألة، و العدول عن رأيه إلى رأى غيره فى مسألة أخرى. و قد وقع الخلاف فى جوازه و منعه. و قال الشاطبي: إنّه ليس للمقلد أن يتخير فى الخلاف، كما إذا اختلف المجتهدون على قولين، فوردت كذلك على المقلّد، فقد يعد بعض الناس القولين بالنسبة إليه مخيرا فيهما، كما يخير فى خصال الكفّارة، فيتبع هواه و ما يوافق غرضه. إلى أن يقول: و قد أدى إغفال هذا الأصل إلى أن صار كثير من مقلدة الفقهاء يفتى قريبه أو صديقه بما لا يفتى به غيره من الأقوال، اتباعا لغرضه و شهوته، أو لغرض ذلك القريب و ذلك الصديق. ثم أورد قصصا عن القضاة و المفتين الذين طلبوا الرخص فى الفتوى، نزولا لرغبة السلطان أو الأصدقاء و الأقارب، كقصة قاضى قرطبة الذى قضى بما يرضى المخلوقين، و قصة يحيى بن لبانة عند ما عزل عن القضاء لسقوط عدالته، و لكنه عاد إلى المنصب عند ما أفتى الخليفة بما يرضيه (2). و أجاز ذلك آخرون. و قد نسبوا التخير فى القولين، و تتبع الرّخص لأكثر أصحاب الشافعى. و قد منع الحنفية ذلك، و لكنه واقع عندهم فى أكثر الفتاوى. و استدلل المجوزون: بما فعله أبو يوسف من التلّفيق، و ذلك أنّه لما صلّى بالناس الجمعة، فأخبر بوجود فارة فى ماء الحمام الذى كان قد اغتسل منه للجمعة، فقال: نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: (إذا بلغ الماء قلّتين لم يحمل خبثا) (3). و كان أبو يوسف و محمّد بن الحسن - و هما عماد المذهب الحنفى - يكتبران فى

ص: 163

1-1 (1) يوم الإسلام ص 189.

2-2 (2) الموافقات ج 4 ص 137-141.

3-3 (3) القول السديد ص 24.

العبيدين تكبير ابن عباس، لأن هارون الرشيد كان يحب تكبير جدّه (1). قال الأستاذ السيد محمّد رشيد رضا في تعليقه على قول الشاطبي في الاعتصام في الوجه الثامن من الوجوه التي جعلها لمعرفة الانحراف عن السنّة والميل للبدعة؛ (و من فروع هذه البدعة أن بعضهم يستحل أن يجعل المرجح لأحد القولين في الفتوى ما يعطيه المستفتون من الدراهم، فإذا جاء مستفتيان في مسألة واحدة فيها خلاف يطلب أحدهما الفتوى بالجواز أو الحل، والآخر يطلب الفتوى بالمنع أو الحرمة، يفتى من كان منهما أكثر بذلاً للمفتى، فهو تارة يفتى بالحل وتارة يفتى بالحرمة، والقاعدة في ذلك ما صرّح به بعض الفقهاء في بعض الكتب التي تدرس في الأزهر: (نحن مع الدراهم قلة و كثرة) فإذا كان القولان المتناقضان صحيحين في المذهب؛ جاز أن يكون السحت هو المرجح في الفتوى. و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم (2) اه. وقال الشيخ محمّد عبد الله دراز شارح الموافقات: بل أخرجوا الأمر عن كونه قانوناً شرعياً وعدّوه متجراً، حتى كتب بعض المؤلفين في الشافعية ما نصه: (نحن مع الدراهم كثرة و قلة) (3).

### نسبة المذهب إلى أبي حنيفة:

وقبل أن نترك الكلام حول الاجتهاد والتقليد لا بد لنا من الإشارة لأمر: إن المذهب الحنفي لم يكن ينتسب لأبي حنيفة لأنه مرجع جميع أحكامه و مصدر فقهه، ولكن تلك النسبة اصطلاحية. فإننا نجد أن المذهب قد تكوّن من مجموعة أقوال و آراء لأبي حنيفة و لأصحابه من بعده، و أن أصول المذهب مشتملة على أقوال أبي يوسف (4) و أبي حنيفة، و محمّد بن الحسن. و كان أبو يوسف و محمّد بن الحسن يجتهد كل منهما، وربما يتفق مع قول أبي حنيفة أو يخالفه، كما أن أبا يوسف و محمّد بن الحسن كانا يختلفان في كثير من

ص: 164

1-1) حجة الله البالغة ج 1 ص 158.

2-2) كتاب الاعتصام ج 3 ص 268.

3-3) الموافقات ج 4 ص 135.

4-4) بحثنا في الجزء السابع في سيرة أبي يوسف و إفتائه بحسب رغبة المستفتى.

المسائل، على أن نقطع بأن كثيرا من الحوادث و الوقائع لم يكن لأبي حنيفة فيها رأى، ولكن استنبطها المجتهدون المتأخرون عنه، بل لم تكن فيها رواية عن أبي يوسف وغيره من الطبقة الأولى من مجتهدى المذهب، فنسبت تلك المسائل التي استخرجها المتأخرون إلى المذهب باعتبار أن هؤلاء مجتهدون فى المذهب فحسب، وإن كانت لهم ملكة الاستنباط والاستدلال والقوة فى الاجتهاد. ومن مجموع تلك الأقوال التى صدرت عن أبى حنيفة وأصحابه، وما خرّجه المتأخرون تكوّن المذهب الحنفى. فأصبح المجموع ينسب لأبى حنيفة. والظاهر أن منعهم اجتهاد أى أحد، والالتزام بقول إمام المذهب، لا يعود لأبى حنيفة وحده، وإنما هو لأبى حنيفة وأصحابه معا.

### طريق الأصول للمذاهب:

إن أصول الفقه للمذاهب قد اتفقت طريقتهم فى الأصول فى الجملة، وإن أصولهم لم تكن كأصول المذهب الشافعى، فهو يعد فى الواقع أصلا لأصولهم وإن خالفوه فى كثير منها. فالحنفية قد اتفقت طريقة استنباطهم فى الجملة مع أصول الاستنباط عند الشافعى، وكذلك المالكية اتحدت طريقتهم مع أكثر ما جاء فى رسالة الشافعى، والخلاف بينهم وبينه أكثر مما بينه وبين الحنفية، وقد تجاوز الخلاف التفصيلات إلى بعض الأصول العامة، فعمل أهل المدينة حجة عندهم. وقد شدّد الشافعى عليه فى رده فى مواضع كثيرة من كتاب «الأم». و الحنابلة قد أخذوا بأصول الشافعى، ولكنهم لم يتصوروا إجماعا غير إجماع الصحابة، وفى التحقيق أنّهم- وإن خالفوا الشافعى فى ظاهر الأصل- فإنهم لم يتعدوا روح الرأى عند الشافعى، لأن الشافعى- وإن أطلق حجية الإجماع- فلم يفرضها فى عصره ولا فى أمره، فالفرق فى الإجماع بين الشافعى وأحمد ليس كبيرا، وإن كان فى ظاهر القول لا يبدو صغيرا. ومن هذا نرى المذاهب الأربعة تتلاقى أصولهم و تتقارب ينابيع استنباطهم، ولا تتباعد، وإن جاءت الفروع مختلفة اختلافا كبيرا فى بعض الأحيان (1).

ص: 165

كان من المناسب ذكر شروط الاجتهاد عند الشيعة في هذا البحث، و لكن رأينا تأخير ذلك لمحله، عند ذكرنا لنهضة الشيعة العلمية، و أنهم لم يخضعوا لنظام السلطة في غلق باب الاجتهاد، إذ لم يكن تعليمهم يدخل تحت نظام الدولة، و لم تخضع مدارسهم لذلك المنهج الذي سارت عليه أكثر المدارس الإسلامية، بل ساروا على منهج أهل البيت في عدم مؤازرة الدولة (و باب الاجتهاد عندهم لم يغلق، و لا زال مفتوحا، و هذا مما يفاخر به الشيعة سائر جماعات المسلمين اليوم) (1). و من الخطأ القول بأن الشيعة تقدّم أقوال الأئمة على نصّ الكتاب و حديث الرسول، كيف و إن أئمة أهل البيت هم حملة علم الكتاب و سنّة رسوله، فهم المبلّغون لهما، و هم أصدق الناس حديثا و أتقاهم و أشدهم خوفا من الله، و أزهدهم في الحياة الدنيا. و إنّ الغلو الذي يدّعون على الشيعة في أهل البيت، إنما هو دون الغلو في أبي حنيفة و مالك و الشافعي و أحمد، من إعطاء أقوالهم و آرائهم منزلة تهجر النصوص القرآنية و الأحاديث النبوية في جانبها. و سيتضح ذلك في بحث الفقه إن شاء الله.

### الخلاصة:

إن تفرق المسلمين و اختلافهم في المذاهب، و تعصّب كل لمذهبه و الانتصار له قد ملأ جو العالم الإسلامي بفتن يتبع بعضها بعضا، و كان التعصب و التحزب وراء أن يشهر المسلمون سيوفهم بعضهم على بعض، و السبب الذي حلّل دماءهم و أموالهم و أعراضهم. و حرّف الكتاب و السنّة ثم صيرهما كالعدم بسد باب الاجتهاد. ثم ترتب على هذا الافتراق تقويم كل لعمود الشقاق، و صار كل منهم يعتز بمن مال إليه من الملوك على خصمه، و عظمت المجادلة و اشتدت المناضلة. و أسباب ذلك ترجع إلى التزلف للأمرأ و الخلفاء، و التزاحم على منصب القضاء، كما ذكر ذلك الغزالي وغيره، و قد شدّد النكير على من ينتقل من مذهب لآخر.

ص:166

و حدث من وراء ذلك فتن و مشاغبات بين المذاهب، كما حدث للسمعاني (1) عند ما انتقل من مذهب النعمان إلى مذهب الشافعي، فقامت الحرب على ساق، و اضطرت بين الفريقين نيران فتنة كادت تملأ ما بين خراسان و العراق، و اضطرب أهل مرو لذلك اضطرابا، و ذلك في سنة 468 هـ و أدى الأمر إلى غلق باب الجامع، و رفعوا الأمر للسلطان، فنفاه من مرو و لم يعد إليها إلا بعد مدة (2). و كثير أمثال السمعاني قد واجهوا مصائب عند تحولهم من مذهب إلى مذهب. و أدى الخلاف بين المذاهب إلى رمي بعضهم بعضا بالكفر، كما صرح القشيري في كلامه للوزير عند ما أراد حل مشكلة الخلاف بين الحنبلية و الشافعية. و كان القشيري زعيم الشافعية فقال للوزير: أي صلح يكون بيننا؟ إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دين أو تنازع في ملك. فأما هؤلاء فإنهم يزعمون أننا كفار، و نحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقه كافر، فأى صلح يكون بيننا (3)؟ و ذهب بعضهم إلى لزوم تعزيز من انتقل من مذهب لمذهب، و عدم قبول شهادته (كما اشتهر بين الحنفية، من أن الحنفي إذا انتقل إلى مذهب الشافعي يعزر، و إذا كان بالعكس يخلع، و قيل لا تقبل شهادته) (4) و منعوا اقتداء بعض أهل المذاهب ببعض الآخر. بل تجد الحنفي في كثير من البلاد لا يصلّي خلف الشافعي. و كسر بعضهم سبابة مصلّ لرفعه إياها في التشهد لأن ذلك محرّم عندهم، كما ذهب إليه الكيداني و غيره من الحنفية، و اختلفوا في تزويج الحنفية بالشافعي، لقول بعضهم: لا يصح ذلك لأنها تشك في إيمانها، يعني أنّ الشافعية و غيرهم من الأشعرية يجوزون أن يقول المسلم: أنا مؤمن إن شاء الله. و قال آخرون: يصح نكاحها-أي الشافعية- قياسا على الذمية (5)، إلى غير ذلك من الأمور البعيدة عن روح الإسلام و لا يقرّها أولئك الأئمة و لا يرضون بها. و بهذا الاختلاف وقع من الفتن بين المختلفين في الفروع و في الأصول ما سوّد

ص:167

- 
- 1-1) هو منصور بن أحمد التميمي أبو المظفر السمعاني المتوفى سنة 489 هـ بمرو كان حنفي المذهب، فنشر المذهب الشافعي مدعيا إن الله أمره بذلك في الرؤيا، إذ رأى رب العزة و المقام فقال له: عد إلينا، فأول ذلك بأنه أراد مذهب الشافعي.
  - 2-2) طبقات الشافعية ج 4 ص 23-25. [1]
  - 3-3) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج 1 ص 22.
  - 4-4) إيقاظ همم ذوى الأبصار ص 76.
  - 5-5) الوحدة الإسلامية 145-146.



وجه التاريخ، وكدر صفو الأخوة، وذهب بجهود المصلحين أدراج الرياح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وفي الحقيقة إن مبعث ذلك إنما هو حب الرئاسة والأثرة، وشغب المتدخلين في صفوف المسلمين لإيقاد نار البغضاء والحقد، ولورجعنا إلى الواقع نجد ذلك الشذوذ والتطرف الذي ارتكبه المتعصبون بعيدا كل البعد عن الدين. ولم يكن الأمر ليصل إلى هذا الحد من التطاحن والتفرق لولا الأخذ بأساليب الحكام والميل إلى سبلهم في حماية أشخاصهم ومصالح ملكهم. وقد كان غلق باب الاجتهاد من تصرفات الحكام بعد أن تمكن غيرهم من توجيه الأحداث كما يشاؤون، والتدخل في معتقدات الناس وأفكارهم، وحتى يأمنوا جانب العلماء خشية مضيهم على ما ركبه الله فيهم من آلة العقل وأداة التفكير فيقولوا أو يفتوا بما يضر الجور ويقف بوجه الظلم، فأغلقوا الباب الذي كان يمكن أن يتسلل منه هذا الخطر. وبذلك دخلت الأمة في دور من الجمود والحجر-وصفنا جانبنا منه في الأجزاء السابقة، وسنأتي على صور منه فيما يأتي من أجزاء-. ولم يخضع الشيعة لمثل هذه السياسة التعسفية وإنما بقي للعقل مكانته، فكيف تهمل وسيلة من وسائل التدبر والحكمة التي-بضبطها بقواعد الاستخدام الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة-تنتج أحكام ليس فيها شطط الرأي ولا ميل الهوى. ومن نتائج البعد عن العقل ومجافة الصواب انقياد المسلم لما ارتآه الحكام لمصلحتهم، واتفقت الأدلة على منافاته لروح الأخوة الإسلامية. و بعد أن مرّت تلك الأدوار وما فيها-وفي ذمة التاريخ ذلك-فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى الوحدة والتفاهم، لرفع تلك الأشواك التي غرست في طريق تفاهم المسلم مع أخيه، لأننا في مشاكل أمام خصوم الإسلام لا يحلّها إلاّ الاتحاد والرجوع إلى الأمر الأول، واتباع أوامر الرسول وتعاليم القرآن، وأخذ العلم من أهله، وأن نعرف الحق حقا فننتبعه والباطل باطلا فننتجنبه، لنعيش عيش سعادة وهناء تحت ظلال الدين الحنيف. وإلى الله نبتهل أن يجعل كلمة الإسلام هي العليا. وأن يجمع شمل المسلمين وينصرهم على خصومهم الذين يكيدون لهم ويسعون في تفريق كلمتهم، وما النصر إلاّ من عند الله. وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .

مرّ بنا من قبل أن البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة معقد يحتاج إلى مزيد من العناية، لكثرة الحكايات و القصص التي لا تتسق مع الواقع و لا أثر لها في تمييز الطابع الذي طبع عليه، لذلك نرى من الحق علينا أن نتناول دراسة حياة كل واحد منهم من طرقها المختلفة، لكي يتسنى لنا الوقوف على الواقع بعد التمهيص و التثبت في جميع ما ورد بمختلف المصادر، من أمور متباينة و أقوال متناقضة، كان مبعثها اندفاع بعض معتققي المذهب وراء العاطفة، و الخروج عن حدود الواقع، إذ العاطفة تغلب على العقل فتعطله، و تطغى على الواقع فتخفيه، و تجعل الأمور الوهمية كحقائق لا تقبل النقاش و الجدل، و بذلك تضاعفت تلك الصعوبات التي تقف أمام الباحث، و ها نحن أمام البحث عن حياة الإمام الشافعي، و قد وقفنا على كثير من الزوائد فأهملنا ذكرها، و إن من الغريب أن يجمد بعض أساتذة العصر الحاضر على ما وقفوا عليه في دراسة حياة الإمام الشافعي بدون تمحيص، و كان الواجب يقضى عليهم أن يتبعوا الحقائق التاريخية و لا يقتنعوا بكل ما ورد، و إليك مثلا من ذلك: الأستاذ على فكري، الأمين الأول لدار الكتب المصرية، يحدثنا أن الشافعي سافر إلى العراق في حياة الإمام مالك و دخل الكوفة و اجتمع بأبي يوسف و محمد بن الحسن الشيباني و جرت بينهم مناظرات و مسائل، و نزل في الكوفة ضيفا على محمد بن الحسن و نسخ كتبه. ثم ذكر رحلته إلى بلاد فارس و ما حولها من بلاد العجم، ثم سافر إلى بلاد ربيعة و مضر و شمال العراق حتى وصل إلى جنوب بلاد الروم -وهي الأناضول الآن- و عرج على حرّان و أقام فيها زمنا، ثم سافر منها إلى فلسطين و أقام في الرملة في جنوب بيت المقدس. و قد استغرقت هذه السياحة حولين

كاملين من سنة 172 هـ إلى سنة 174 ثم رجع إلى المدينة لرؤيا مالك. إلى آخر ما ذكره (1). وجميع ما ذكره لا أصل له، والأستاذ عوّل على مخيلته أو على كتب لا يعتمد عليها. وكان بوسعها- وهو الأمين الأول لمكتبة عامة- أن يراجع ويبحث وينقب عن مصادر يستمد منها ما يكتب. كان بوسع الأستاذ أن يقف على الحقائق التاريخية، وأن يعلم أن رحلة الشافعي كانت لبغداد لا للكوفة، وذلك سنة 184 هـ وهي الرحلة الأولى، وأن وفاة أبي يوسف كانت سنة 182 أو 183 هـ أي قبل دخول الشافعي لبغداد بأكثر من سنة. وكان بوسع الأستاذ أن يعرف وفاة الإمام مالك وهي سنة 179 هـ وأن رحلة الشافعي سنة 184 هـ ليتضح له أن رحلة الشافعي كانت بعد وفاة مالك بخمس سنوات. ولعله استند في بعض ما نقله إلى الرحلة التي وضعها عبد الله بن محمد البلوي، وهي مكذوبة لا أصل لها؛ كما نص على ذلك حفاظ الحديث، كأبي نعيم، والفخر الرازي، وابن حجر وابن القيم وغيرهم. وكثيرا من الأمور التي تخالف الواقع أو ردوها على علاقتها في ترجمة الشافعي بدون تثبت وترو. وعلى أي حال فإن من الحق أن نتناول دراسة حياة الإمام الشافعي من مختلف المصادر، ولنا الحق في التنبيه على بعض ما يخالف الواقع خدمة للعلم و طلبا للحق، والله المسدد للصواب.

### نسبه و نشأته:

أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. ولد سنة 150 هـ نهار الجمعة آخر يوم من رجب. وقيل في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة، وقيل غير ذلك على اختلاف الأقوال. واختلفوا في محل ولادته، فقيل: بغزة، أو عسقلان، أو اليمن. وهناك قول

ص:170

شاذ: أنه ولد بمكة، وقد أجهد أصحاب المناقب أنفسهم بالجمع بين هذه الروايات ولا حاجة لذكرها هنا. أما وفاته فكانت سنة 204 هـ بمصر، وحمل على الأعناق من الفسطاط حتى دفن في مقبرة بنى زهرة، وتعرف بتربة ابن عبد الحكم وفيه يقول الشاعر: أكرم به رجلا ما مثله رجل مشارك لرسول الله في نسبه

أضحى بمصر دفينا في مقطمها نعم المقطم والمدفون في تربه

والمطلب الذى ينتهى إليه الشافعى هو أحد أولاد عبد مناف الأربعة، وهم: المطلب، وهاشم، وعبد شمس جد الأمويين، ونوفل. و المطلب هو الذى ربى عبد المطلب ابن أخيه هاشم جد النبى صلى الله عليه وآله وسلم. فالشافعى بهذا السياق قرشى النسب، يلتقى مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى عبد مناف. هذا ما عليه الأكثر. وذهب بعضهم: أن الشافعى لم يكن قرشيا بالنسب، بل كان قرشيا بالولاء. فهو مولى لهم وليس منهم، لأن شافعا جده كان مولى لأبى لهب، فطلب من عمر أن يجعله من موالى قريش فامتنع، فطلب من عثمان ذلك ففعل، فعلى هذا التقدير يكون الشافعى من موالى قريش كما ذكر ذلك بعض المالكية والحنفية (1). وأما أمه فهى من الأزد وكنيتها أم حبيبة كما ذكر ذلك الساجى، والأبرى والبيهقى والخطيب والأردستانى وغيرهم. وقيل: إنها أسدية، مستدلين على ذلك بما روى عن الشافعى: أنه لما قدم مصر سأله بعضهم أن ينزل عنده فأبى وقال: أنزل على أخوالى الأسديين فنزل عليهم (2). وقيل إنها فاطمة بنت عبد الله، أبو عبيد بن الحسين بن الحسن بن على بن أبى طالب. قال الرزى: وهذا القول شاذ رواه الحاكم، وضعفه البيهقى، وذهب المقرئ إلى نفيه، ولكن السبكى ذهب إلى تأييده وليس له شاهد على ذلك. وقيل أيضا: إنها فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى

ص: 171

1-1) مناقب الشافعى للفخر الرازى ص 3-5. وهاشم الانتقاء لابن عبد البر ص 66. و الشافعى لمحمد أبو زهرة ص 15.

2-2) طبقات الشافعية ج 1 ص 100. [1]

طالب، أو أنّها بنت عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (1). وعلى أى حال: إن الادعاء بكرامة قرشية علوية مخالفة لما عليه الإجماع وعلماء النسب، ولكن ذلك منصب محض وادعاء يخالف ما جاء عن الشافعي في عدة روايات: أن أمه أزدية لا قرشية و انعقد الإجماع على ذلك. أما أبوه إدريس فلم يفصح التاريخ عن شيء من حياته وسيرته ووفاته، ولم يحتفظ إلا بالاسم فقط، فليس له ترجمة في جميع الكتب التي ذكرت الشافعي، ولا في غيرها من كتب الحديث والرجال والأدب. وبذلك حرمانا معرفة كثير من الأمور التي نود أن نعرفها عن حياة إدريس والد هذا الإمام العظيم. وقد ذكر بعضهم أشياء مرتجلة لا صحة لها كقول هداية الله الحسيني: إن والد الشافعي سلّمه للتفقه إلى مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة. وهذا غير صحيح بالإجماع، لأن جميع الروايات متضافرة على أن الشافعي نشأ يتيما في حجر أمه، وتولت تربيته عند ما خشيت عليه الضيعة، فأرسلته إلى مكة وهو ابن عشر سنين. فالشافعي إذا لم يترب في ظلال أبيه، ولم يتول ذلك إلا أمه، ولا نعلم أنّه عرف أباه وحدث عنه، كما لا نعلم هل ولد الشافعي في حياة أبيه أم أنّه مات أبوه وهو حمل في بطن أمه؟ وهل أن إدريس كان في مكة ورحل إلى اليمن. وما هي أسباب رحلته؟ كل ذلك مجهول وفي ذمة التاريخ. وجاء في مقدمة كتاب «الأم»: أن والد الشافعي كان رجلا حجازيا فقيرا خرج مهاجرا من مكة إلى الشام وأقام بـ «غزة» و«عسقلان» ببلاد فلسطين، ثم مات بعد ولادة الشافعي بقليل. ولكن هذا القول لم يستند إلى نص تاريخي، وأيا كان فالروايات مختلفة والأقوال متفرقة في ولادته ومحلها، وهجرته ووقتها وكذلك رحلاته المتعددة وتحصيله للعلم بأي زمن. فهل كان من صغر سنّه أم بعد نشأته. وكذلك دخوله إلى مكة فقيل: إنّها لما بلغ من العمر سنتين وأصبح قرّة عين والدته، فرأت أمه أن تحمله إلى مكة المكرمة، صونا لنسبه من الضياع إذا بقي في غزة، فهاجرت به، ونزلت

ص: 172

---

1-1) مناقب الرازي 6. وطبقات السبكي ج 1 ص 100-249. وتوالى التأسيس ص 46. و مشارق الأنوار للعدوى ص 181. وإسعاف الراغبين للصبان وغيرها.

بجوار الحرم بحى يقال له «شعب الخيف» ولما ترعرع أرسلته أمه إلى الكتّاب، و حفظ القرآن و عمره سبع سنوات. وقيل: إن الشافعى ولد بغزّة و حمل إلى عسقلان و دخل مكة و هو ابن عشر.

### طلبه العلم فى مكة:

كان دخول الشافعى إلى مكة و هو صغير السن، و لما ترعرع سلمته أمه إلى الكتّاب فحفظ القرآن الكريم، و تعلم الكتابة، و كان حريصا على استماع الحديث، و كان يكتب على الخبز مرة و على الجلود أخرى. و خرج إلى البادية فلازم هذيلًا، و حفظ الأشعار، و كان يرحل برحيلهم و ينزل بنزلهم، فرجع إلى مكة ينشد الأشعار و يذكر الآداب و الأخبار، و قد تأثر بالبداوة و اكتسب من هذيل فصاحتهم، كما يحدث عن نفسه (1). و يظهر أن مقامه فى البادية كان أكثر من عشر سنين، و فى إحدى الروايات أنه أقام عشرين سنة (2) و فى أخرى سبع عشرة سنة، كما حدّث هو عن نفسه (3). و فى هذه المدة لم تكن له شهرة علمية، و لم يتجه لطلب الفكر و لم يعرف به. قال النووى: كان الشافعى فى ابتداء أمره يطلب الشعر و أيام العرب و الأدب، ثم أخذ فى الفقه، ثم ذكر سبب ذلك (4). و أفاد كثيرا من ملازمته أهل البادية، و ظهر عليه ذلك بقدرته الشعرية و تمكنه من اللغة و معرفته بفنونها مما لا يخفى فى بعض إجاباته و أقواله و ما روى عنه من شعره. و قد صرح الشافعى بسبب اتجاهه لطلب الفقه فيما يروى عنه أنه قال-بعد أن ذكر ابتداء تعلّمه للقرآن و الكتابة فى مكة-: ثم إنى خرجت عن مكة فلزمت هذيلًا فى البادية أتعلّم كلامها، و أخذ طبعها، و كانت أفصح العرب، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرحل برحيلهم و أنزل بنزلهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار و أذكر الآداب و الأخبار و أيام العرب، فمرّ بى رجل من الزبيريين من بنى عمى، فقال لى: يا أبا عبد الله عزّ علىّ أن لا يكون مع هذه اللغة و هذه الفصاحة و الذكاء فقه (5).

ص:173

1-1 (1) معجم الأدباء ج 17 ص 284-285. [1]

2-2 (2) البداية و النهاية لابن كثير 10-252. [2]

3-3 (3) معجم الأدباء ج 17 ص 285.

4-4 (4) تهذيب الأسماء و اللغات ج 1 ص 46. [3]

5-5 (5) معجم الأدباء ج 17 ص 284. و [4] تهذيب الأسماء ج 1 ص 46. و [5] الحلية ج 9 ص 70.

فهو لهذا الحد و طول ذاك الزمن لم يعرف الفقه، و كان قول الزبيرى سببا لتوجيهه إلى طلب الفقه و الحديث، فقصد لمجالسة مسلم بن خالد الزنجى -مفتى مكة المتوفى سنة 180 هـ- و هو أول شيوخ الشافعى. و روى النووى عن مصعب بن عبد الله الزبيرى قال: كان الشافعى فى ابتداء أمره يطلب الشعر و أيام العرب، ثم أخذ فى الفقه؛ و كان سبب ذلك: أنه كان يسير يوما و خلفه كاتب لأبى، فتمثل الشافعى بيت شعر، فقرعه الكاتب بسوطه ثم قال: مثلك يذهب بمروتة!! أين أنت من الفقه، فهزّه ذلك، فقصد مجالسة مسلم بن خالد الزنجى (1). و الذى نستظهره من مجموع الروايات، أن اتجاه الشافعى لطلب العلم كان فى العقد الثالث من عمره، و على رواية ابن كثير أن بقاءه فى البادية عشرين سنة. فىكون طلبه للفقه فى العقد الرابع، أى بعد تجاوزه الثلاثين من عمره، فتكون ملازمته لمسلم بن خالد الزنجى قصيرة جدا. فما يروى عن الحميدى أنه قال: سمعت خالدا الزنجى و قد مر على الشافعى و هو يفتى، و هو ابن خمس عشرة سنة، فقال: يا أبا عبد الله افت فقد آن لك أن تفتى، فإنه لا أصل له، نظرا لما بين أيدينا من الأدلة التاريخية المصرحة بأن الشافعى لم يعرف بالفقه إلا من بعد مدة طويلة، مع أن الحميدى لم يدرك مثل هذا التاريخ. قال الخطيب البغدادى بعد نقل هذه الحكاية: (و ليس ذلك بمستقيم لأن الحميدى كان يصغر عن إدراك الشافعى و له تلك السن) (2). و من الغريب إرسال ذلك إرسال المسلمات، و قد جعلوا هذا النقل من المؤيدات لعلم الشافعى و علو منزلته، لأنه كان يفتى و هو ابن خمس عشرة سنة. و بعضهم يرجع إلى الورا فيقول: إنه كان يفتى و هو ابن عشر سنين! و كل ذلك غير صحيح لأن المشهور عن الشافعى أنه قدم مكة و هو ابن عشر سنين أو أكثر و تعلم القرآن فيها، و انصرف إلى حفظ الأشعار، و لازم هذيلًا، و كان مقامه فى البادية أكثر من عشر سنين، و قيل عشرين سنة، و قيل سبع عشرة سنة كما تقدم بيانه. و مها يكن من أمر فإن الشافعى لم يعرف الفقه و الحديث و هو فى مكة، ولكنه

ص:174

1-1) تهذيب الأسماء و اللغات ج 1 ص 46. [1]

2-2) تاريخ بغداد ج 2 ص 64. [2]

اتصل بعد ذلك بمالك بن أنس، ورحل إلى المدينة لتعلم الفقه والحديث، وواصل دراسته، فكانت له تلك الشهرة بعد مدة طويلة. قال ابن حجر: انتهت رئاسة الفقه في المدينة إلى مالك، ورحل الشافعي إليه و لازمه، وأخذ عنه، وانتهت رئاسة الفقه إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد بن حماد ليس فيها شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث. وكان محمد بن يونس بالبر ويتعاهده بالأعطيات بخمسين دينارا فما فوقها بين حين وآخر، وبمحمد اكتمل بدر الشافعي، وبه تخرج حتى أصبح له شأن في العلم. . .

### طلبه العلم في المدينة:

اتجه الشافعي لطلب الفقه، وحضر على بعض علماء مكة كخالد الزنجي وسعيد بن سالم القداح، واشتهر مالك بن أنس في المدينة وشاع ذكره، فتاقت نفس الشافعي إلى الهجرة للمدينة طلبا للعلم والحضور عند مالك بن أنس، فأخذ وصية من والي مكة إلى والي المدينة يطلب منه إيصال الشافعي إلى مالك. قال الشافعي: فأوصلت الكتاب إلى والي، فلما أن قرأه قال: يا فتى إن مشي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا راجلا أهون عليّ من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه. فقلت: أصلح الله الأمير إن رأى يوجه إليه ليحضر. قال: هيهات ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا. قال: فواعدته العصر وركبنا جميعا، فوالله لكان كما قال. فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير: قولي لمولاك إنني بالباب. فدخلت فأبأت، ثم خرجت فقالت: إن مولاى يقرؤك السلام ويقول: إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف. فقال: قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة، فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعت، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة، فرفع إليه والي الكتاب (1).

ص: 175



وهنا يحدثنا الشافعي عن انتقاد مالك له بحمله الكتاب من الوالى وتأثره من ذلك، يقول الشافعي: إن مالكا عند ما قرأ الكتاب رمى به من يده، ثم قال: سبحان الله أو صار علم رسول الله يؤخذ بالوسائل؟ . فأجابه الشافعي معتذرا وأخبره بقصته. اتصل الشافعي بمالك وأخذ عنه وقرأ الموطأ، ولا نعرف بالضبط متى كان قدوم الشافعي إلى المدينة و حضوره عند مالك، و كم كانت سنّته يوم ذاك. و الأخبار مضطربة مشوشة جدا لا نكاد نلمس الواقع منها، فالحكايات الواردة عن الشافعي مختلفة. فمرة أنه اتجه لمالك بعد عودته من البادية، و أخرى بعد وفاة خالد الزنجي. و على أى حال: فالمحصل من مجموع الروايات أنه قدم على مالك و قد تجاوز عمره الثلاثين سنة. و ما يرويه ابن حجر فى مناقب الشافعي أنه حضر عند مالك و عمره ثلاث عشرة سنة هو خطأ بيّن و نقل بدون تثبّت، إذ لا خلاف بأن وروده على مالك كان بعد عودته من البادية، و قد مكث فيها مدة تزيد على خمس عشرة سنة. و من المحقق أن ملازمته لمالك كانت أربع سنوات، و توفى مالك سنة 179 هـ فيكون عمر الشافعي 29 سنة. و بقى الشافعي بعده فى ضنك من العيش، و بسبب ذلك كانت رحلته إلى اليمن مع وإليها و ليس له ما يستعين به من المال، فرهن داره و أخذ ثمنها.

### ولاية الإمام الشافعي:

نشأ الشافعي يتيما فى حجر أمه كما تقدم، و لما اتصل بمالك اتسعت حاله بواسطته، لأنه كان يرعاه و يقوم بشئونه، فلما توفى مالك سنة 179 هـ اشتد الأمر عليه و ضاقت حالته، فاتفق أن والى اليمن قدم المدينة، فكلمه بعض القرشيين فى أن يصحبه. فأخذه ذلك الوالى معه و استعمله فى أعمال كثيرة (1) فبقى فى العمل خمس سنوات، و بهذه المدة كان متجها للعمل و الولاية، و خمد ذلك النشاط الذى فى نفسه نحو الاتجاه لطلب العلم، لأنه مشغول فى تدبير شئون السلطان و معاملة الناس إلى سنة 184 هـ و هى السنة التى قدم فيها لبغداد المرة الأولى بسبب المحنة و اتهامه بالميل للعلويين. و أن مطرفا كتب إلى الرشيد: إن أردت اليمن لا تفسد عليك، فأخرج محمّد بن إدريس. فحمل إلى بغداد، و قد جاء عن الشافعي: أنه نقل من اليمن إلى ولاية نجران فأحسن السيرة هناك.

ص: 176

قدم الشافعي العراق ثلاث مرّات، الأولى سنة 184 هـ حمل من اليمن إلى بغداد بسبب اتهامه بالميل للعلويين، والثانية سنة 195 هـ بعد أن مات هارون الرشيد، والثالثة سنة 198 هـ. أما الأولى: فكانت بسبب اتهامه بالميل للعلويين، أو أن عامل اليمن تغيّر عليه و ثقل مقامه هناك، لأن الشافعي كان يعارض ظلم ذلك الوالي، و ينبه الناس على مؤاخذته. و أن الشافعي أحسن إدارة العمل و نال ثناء الناس مما أوجب تغيّر قلب الوالي عليه، و اتهامه بالميل للعلويين، و ذلك أعظم جرم تعاقب عليه الدولة، و إن كان هذا الاتهام و تلك القضية أشبه شيء بالأساطير. و على أي حال: فقد حمل الشافعي إلى بغداد بتهمة المخالفة للدولة و الانضمام لجانب العلويين. و تعرض بتلك التهمة إلى خطر شديد، و لكنه دافع عن نفسه، و توسط له الفضل بن الربيع و تشفع له، فنجّا بعد أن قتل من كان معه. و سيأتي البحث عن أسباب التشيع و عن ميله للعلويين. و إذا أردنا البحث عن محنة الشافعي و قدومه لبغداد، و ما قابل به الرشيد عند اجتماعه، و مناظرته مع محمّد بن الحسن الشيباني، فالأمر يستدعي إطالة البحث و اتساع شقّة المناقشة، للمناقضات في تلك الرحلة المروية عن الشافعي. ففي بعضها: أنّه ناظر أبا يوسف (1) و هذا غير صحيح لأن وفاة أبي يوسف كانت سنة 182 هـ أو 183 هـ أي قبل ورود الشافعي بسنتين أو بأكثر من سنة. و في بعضها: أن محمّد بن الحسن انتصر للشافعي، و أخرى أنه حرض الرشيد على قتله و وصفه بأنّه يريد الخروج على الدولة، و أن الرشيد سأل أبا يوسف عن صدق هذه الدعوى فأيدّها. و هناك اختلاف في حمله إلى العراق، هل كان من اليمن أم من مكة؟ فابن عبد البر، يروى بسند عن المزني عن الشافعي أنّه قال: رفع إلى هارون الرشيد أن بمكّة قوما من قريش استدعوا رجلا علويا كان باليمن، فاجتمع إليه من قريش فتية جماعة، يريدون أن يبايعوه و يقوموا به، فأمر الرشيد يحيى بن خالد بن برمك أن

ص: 177

يكتب إلى عامله بمكة أن يبعث إليه ثلاثمائة رجل كلهم من قریش، مغلولة أيديهم إلى أعناقهم. قال الشافعي: فأشخصت فيمن أشخص مغلولا، فلما وردنا العراق أتى بنا إلى دار يحيى بن خالد وقال لنا: يا معشر قریش قد رفع عليكم أمر كبير وعسى الله أن ينجيكم من البلاء إن كنتم قد بغى عليكم، والذي أراه أن تقدموا من أنفسكم رجلا يخاطب الرشيد عنكم وعن نفسه، فقالوا كلهم: هذا الشافعي يخاطبه. ثم حكى عن نفسه دفاعه عنها وعنهم، فكانت النتيجة أن عفى الرشيد عن الجميع وأمر لهم بجائزة (1). وبصورة أخرى: أنه حمل من الحجاز مع تسعة من العلويين فضربت أعناقهم، ونجا الشافعي وأكرمه الرشيد. ورواية الفخر الرازي التي يفترض أن تكون دقيقة في التاريخ التي نضمها ففيها مشاورة الرشيد لأبي يوسف في أمر الشافعي بشأن هذه الحادثة التي يثبتها الرازي بأنها وقعت في سنة 184 هـ. ومعلوم أن وفاة أبي يوسف كانت قبل سنة أو سنتين من هذا التاريخ على اختلاف في الروايات كما مرّ. وفي الحلية: إن السبب في حمله من اليمن: أن خارجيا خرج على هارون الرشيد، فأرسل الرشيد إليه جيشا فقبض عليه وحمل إلى العراق معه الشافعي، وأحضروا جميعا وأمر بقتلهم، فعرض الشافعي عليه قصته مع الخارجي وبيّن له نسبه، وذكر كلاما استحسنه الرشيد وطلب إعادته، وقال له: كثر الله في أهل بيتي مثلك وعفى عنه، إلى آخر الاختلاف في الصور، والزمان، والأسباب. ومهما يكن من أمر فإن الغرض من اتساع هذا الحادث، وإيراده بصور مختلفة هو التعصب للشافعي، ووصفه بعلو المنزلة واتساع العلم وقوة الحجّة، ونبوغه على القرشيين، كما رأيت في الصورة المتقدمة، بأن أولئك القرشيين الذين حملوا معه وكانوا ثلاثمائة رجل كأن الله سلب منهم كل موهبة الدفاع عن النفس، وقوة الحجّة، وطلاقة اللسان، وبلاغة البيان وهم أهلهم، فليس لهم قابلية على الدفاع، ولم يملكوا من الشجاعة والجرأة قليلا أو كثيرا فيها، وانفرد الشافعي بالجرأة وقوة البيان وثبات القلب، وهو شاب قد تجاوز الثلاثين من عمره، وحاشا قریشا أن يمثلوا موقفا كهذا الموقف، ولكن دائرة الاختراع واسعة، والتقول لا حد لها. وقد اعترف الشافعي

ص: 178

1-1 (1) الانتقاء ص 96.

2-2 (2) الحلية ج 9 ص 81.

نفسه بقصوره عن إدراك منزلة الطالبين وإحجامه عن الكلام بحضورهم كما يروى: أنه حضر الشافعي مجلسا فيه بعض الطالبين فقال: لا أتكلم في مجلس أجدهم أحق بالكلام مني، ولهم الرئاسة والفضل (1). وقد وضع عبد الله بن محمد البلوي صورة لهذه الرحلة تتضمن أشياء كثيرة لا أصل لها (2) وهي طويلة، ذكر فيها دخول الشافعي على الرشيد مقيدا بالحديد، وسؤال الرشيد له بمختلف العلوم والفنون، و جواب الشافعي له، ووعظه، وبكاء الرشيد و من حضر، إلى آخر ما فيها من الأمور المكذوبة التي لا تمت بالواقع، وقد نص ابن حجر (3) وابن القيم الجوزية (4). وغيرهما على وضعها. وخلاصة القول: إن مجموع الروايات في محنة الشافعي وحمله لبغداد مضطربة كل الاضطراب، وتشتمل على أشياء لا صحة لها، كما تشتمل على ما لا يصح صدوره من الشافعي كما نقلوا عنه في جوابه للرشيد-عند الدفاع عن نفسه من تهمة المبايعه للعلويين-أنه قال للرشيد: أَدَع من يقول أنى ابن عمه (يعنى الرشيد) وأصير إلى من يقول أنى عبده (يعنى العلويين)؟ . . . إن هذا من التجنى على الحقائق والتهجم على الواقع بأن ينسب العلويين إلى اتخاذ المسلمين عبيدا، وأنهم يسرون تحت طغيان الأنانية التي لا توضح لهم إلا طريق الاستبعاد للناس، والاستعلاء عليهم والاحتقار لهم، وحاشاهم من ذلك وهم أبعد ما يكون عن اتصافهم بما يخالفون ما طبعوا عليه، من اتباع نظم الإسلام، وإن الناس عندهم سواسية لا يتفاضلون إلا بالأعمال الصالحة، وهم لم يكونوا كغيرهم ممن ولى أمر المسلمين الذين لا يشعرون إلا بوجودهم الخاص، ولا يفكرون إلا نحو ما يعود عليهم بالنجاح، ولا يرون إلا مصلحة أنفسهم، ولا يقيمون لمصالح الأمة وزنا. كل هذا لم يكن له أثر عند العلويين، وحاشاهم من ارتكاب ما يخالف نظام الإسلام وأحكامه. و صدور مثل هذا القول من الشافعي تقوّل عليه بالباطل، ولا يصح

ص:179

1-1) الفهرست لابن النديم ص 295. [1]

2-2) الحلية ج 9 ص 85-91. و مناقب الفخر الرازي ص 23-27.

3-3) مناقب الشافعي لابن حجر ص 71.

4-4) مفتاح السعادة ص 565.

ذلك عنه. وقد صح عنه أنه بايع ليحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى. قال ابن العماد: قام يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى، وبث دعواته في الأرض، وبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراقين، وبايعه من العلماء: محمد بن إدريس الشافعي، وسليمان بن حرير (1). وفي هذه المحنة التي امتحن بها الشافعي كان له أسوة بمن قبله من أئمة المذاهب، فأبو حنيفة قتل مسموما بدعوى أنه لم يقبل القضاء، ومالك بن أنس ضرب بالسياط لفتوى تخالف رأى السلطان، وليس ببعيد أن مخترع هذه المحنة أراد مساواة الشافعي بمن قبله وبعده، فإن أحمد بن حنبل امتحن في مسألة خلق القرآن، وكذلك قالوا أن الشافعي امتحن باتهامه بالميل للعلويين، وذكرها بصورة موسعة وألفاظ مختلفة. وهي من تصرّف كتاب المناقب والمنتصرين للمذهب.

## الإمام الشافعي في مصر:

قدم الشافعي إلى مصر سنة 198 هـ ونزل بالفسطاط ضيفا كريما على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، فأكرم مثواه وأزره، وكانت لمحمد بن عبد الله مكانة في مصر ورئاسة علمية، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحدا، وتأكدت بينه وبين الشافعي مودة وإخاء، وقام في معاونة الشافعي ومؤازرته ونشر علمه. وكان قدوم الشافعي إلى مصر في صحبة الوالي من قبل المأمون، وهو العباس بن موسى بن العباس، فلقي هناك إقبالا من المالكية، لأنه من أشهر تلامذة مالك بن أنس، وكان يقول: هذا قول أستاذنا (يعنى مالكا). ولما استقل بأرائه، ووضع الكتب في الرد على مالك؛ تنكر له المالكية وعارضوه وأرادوا إخراجه من مصر، واتهموه بالتشيع مرة، وبمقاومة السلطة أخرى، حتى اغتالوه فمات بسبب ضربة على رأسه سنة 204 هـ. والذي يظهر أن الشافعي عاد إلى مكة وبقي مدة، ثم رجع سنة 200 هـ وفيها سطع نجمه وكثر أتباعه رغم تعصب الحنابلة عليه وإذائهم له.

ص:180

إن من الحق والإنصاف أن نعطي شخصية كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة حَقَّها من الدراسة والعناية العلمية، وأن نتناول سيرهم من غير تعصب وتحيز، وننظر إلى ما كتب عنهم بعين تبصر الحقيقة، ونبرز جوهر تلك الشخصيات التي أخذت محلها من التشريع الإسلامي. ومهما يكن من أمر فإن المؤثرات الاجتماعية والأحداث السياسية تشوّه سير البحث، ولا- يستنتج الباحث منها الغاية المطلوبة، إذ أن أكثرها مبالغات أو جدها التعصّب الطائفي، عند ما كثر الجدل وعظم الخلاف بين أنصار المذاهب، وخاصة المؤرخين و الراوين الذين ساروا على ما تقتضيه ظروفهم المعاشية أو السياسية، لا لما يقتضيه واقع الأئمة الملموس، وقد وصفوهم بصفات بعيدة عن الحقيقة، إذ جعلوهم في أعلى درجة من الكمال، وأرفع منزلة من العلم. بحيث يتمتع على أي مخلوق أن يصل إلى تلك المنزلة! ولا حاجة بنا إلى إعادة النظر في الأمور، ولسنا نرغب أن نستقصى القول فيما أدعى للشافعي من تلك المناقب الموضوعة، نعم لا بد لنا من التعرض للأحاديث التي استدّلوا بها على تقديم الشافعي على غيره، و ترجيح مذهبه على سواه، في لزوم الأخذ به، ووجوب اتباعه، و الاقتداء به، وإلى القارئ طرفا من تلك الأحاديث: 1- من يرد هوان قريش أهانه الله. 2- من أحب قريشا أحبّه الله، و من أبغض قريشا أبغضه الله. 3- إذا اجتمعت جماعات من قريش فالحق مع قريش، و هي مع الحق. 4- إنما نحن و بنو المطلب هكذا- و شيبك بين أصابعه. 5- أمان أهل الأرض من الاختلاف الموالاة لقريش. 6- هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على منخريه.

7- الأئمة من قريش. 8- إن الله يبعث لهذه الأمة على كل مائة سنة من يجدد لها دينها. وبهذه العمومات بنوا حصر الأخذ عن الشافعي و  
وجوب الرجوع إليه. قال السبكي بعد إيراد هذه الأحاديث: والغرض الأعظم تبين أنه (أى الشافعي) قرشي مطلبى، وذلك أمر قطعي، و  
من أجله سقنا ما أوردناه من الأحاديث. ثم يمضى فى الاستدلال على انحصار هذه الأحاديث و تخصيص عموماتها فى الشافعي، وهى  
حصر المبتدأ بالخبر (1). والواقع غير هذا! فإن هذه الأحاديث مع فرض صحتها هى عامة شاملة، ولا سبيل إلى حصرها بالشافعي، و  
الاستدلال بها غير وجيه. وقد فرعوا على هذه الأحاديث أشياء كثيرة. منها حرمة نسبة الخطأ للشافعي فى مسألة ما، لأن ذلك إهانة له، و  
إهانة القرشي غير جائزة، ومنها وجوب الحذر من معاندة الشافعي وبغضه و عداوته (2). ومنها لزوم تقديم الشافعي، و الابتداء بذكره لقول  
النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدموا قريشا و تعلموا من قريش. إلى آخر ما هنالك من أمور أثبتوها فى تقديم الشافعي على غيره. و كان  
إمام الحرمين، و ابن السمعاني، و الكيا الهراسي، و غيرهم يقولون لتلامذتهم: يجب عليكم التقييد بمذهب إمامكم الشافعي، و لا عذر لكم  
عند الله تعالى فى العدول عنه (3). و مهما يكن من أمر فإن هذه الأحاديث لا تنهض حجة على المطلوب، و ليس فيها ما يصلح لإثبات  
المدعى. و قد أجاب عنها أصحاب المذاهب الأخرى بأجوبة كثيرة، منها: 1- أن المراد بحديث (قدموا قريشا) إنما هو فى الخلافة لا العلم.  
2- إن قوله: تعلموا من قريش و لا تعلموها. فهذا الخبر لا أصل له.

ص: 182

1-1 (1) طبقات الشافعية ج 1 ص 101.

2-2 (2) مناقب الفخر ص 136.

3-3 (3) ميزان الشعراني ج 1 ص 40.

و كيف يظن به-عليه الصّلاة و السّلام-أن يقول: اتركوا جهال قريش على جهلهم فلا تعلموها. هذا محال. ثم قالوا: إن الشّافعي كان قريشياً، و لم يكن له معلم من قريش، و إنما أخذ علمه من غير قريش، كمالك بن أنس، و محمّد بن الحسن، و خالد الزنجي، و هؤلاء من غير قريش (1). 3- و قال ابن الجوزي: فأما قوله: قدّموا قريشاً. فقد قال إبراهيم الحربي: سئل أحمد بن حنبل عن ذلك، فقال: يعنى الخلافة. و يقول: فإن قالوا (أى الشّافعية): إن الشّافعي كان فصيحاً فمسلّم، و ذلك لا يعطى التقدّم على غيره، لأن التقدّم بكثرة العلم. على أنه قد أخذ عليه كلمات فقالوا: قد قال: ماء مالح. و إنما يقال ماء ملح. و قال: إذا أشلا كلباً (يريد أغراه) و إنما الأشلاء عند العرب الاستدعاء. و قال: ثوب يسوى كذا، و العرب تقول يساوى. ثم ذكر ابن الجوزي أدلة ترجيح أحمد بن حنبل على الشّافعي بالعلم (2). و صفوة القول: إن ادعاء الشّافعية بالأحاديث، فى لزوم اتباع الشّافعي لا يقرّها المنطق الصحيح، و إن جميع حججهم لا تنهض فى إثبات المدعى. على أننا نناقش فى أصل لزوم الرجوع إلى مذهب معين، و أنه أمر لا دليل عليه. و قد بيّنا ذلك فى البحث السابق، بإشارة موجزة حول الاجتهاد و التقليد. فإذا كان أصل الالتزام لا أصل له، فلا حاجة إلى هذا التكلّف. كما لا حاجة إلى ذكر كثير من المناقب التى أسندوها للشّافعي و غيره، من منامات و غيرها، تدل بمؤداها على لزوم اتباعه و الأخذ بمذهبه. و الخلاصة: أن أتباع كل إمام قد أحاطوا شخصية إمامهم بهالة من التقديس، و سلكوا سبلاً مختلفة و طرقاً متعددة، لإقامة الدليل على أعلمية إمامهم، و أولويته

ص: 183

1-1) مناقب المكي ج 2 ص 143-145.

2-2) مناقب أحمد ص 502.



بالاتباع دون غيره، فنشبت خلافات وظهرت ضغائن، ومرت الأمة نتيجة ذلك بفترة محزنة، توترت فيها العلاقات الاجتماعية، وصبغت بالحدة والعنف. ولقد كان الهدف الأول لاختراع تلك الأمور ونشرها هو إثبات علمية ذلك الإمام، وأهليته للإتباع، لينتشر المذهب و يكتب له النجاح. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل امتدت الحركة الادعائية هذه لترتكز على قاعدة قوية يكون لها أثرها في رسوخ المذهب وثبوته في القلوب، وذلك ادعائهم بالبشائر النبوية! فكل سلك جانبا من الادعاء على صاحب الرسالة، وقد ساهم القصاصون وأعوان السلطة بنشر تلك الأكاذيب.

### شيوخه و تلامذته:

تلقى الشافعي الفقه والحديث على شيوخ من مكة، والمدينة، واليمن، وبغداد، وقد ذكر ابن حجر منهم عددا يتجاوز الثمانين، أما غيره فاقصر على المشهورين منهم. ونحن نشير إليهم هنا بترجمة قصيرة وهم تسعة عشر: خمسة من مكة، وستة من المدينة، وأربعة من اليمن، وأربعة من العراق. وقد ترك الفخر الرازي ذكر محمد بن الحسن الشيباني تعصبا، ولا مجال لتركه فإن الشافعي قد اعترف بأخذه العلم عنه، وأنه حمل عنه علما كثيرا و نمت مواهبه في ملازمته، ويعد في الواقع من أشهر شيوخه، بعد مالك بن أنس، وأول شيخ تلقى الشافعي عنه العلم هو: 1- مسلم بن خالد المخزومي أبو خالد المكي، المعروف بالزنجي المتوفى سنة 180 هـ وهو من موالى مخزوم، وهو أول شيوخ الشافعي، وابتدأ بأخذ الفقه والحديث عنه، ثم انتقل إلى المدينة وحضر عند مالك، ولم يكن مسلم بن خالد ممن يعتمد عليه في الحديث، فقد طعن عليه وضعفه كثير من الحفاظ، كأبي داود، وأبي حاتم، والنسائي، خرج حديثه ابن ماجه وأبو داود (1). 2- سعيد بن سالم القداح، أبو عثمان الخراساني، ثم المكي المتوفى سنة 171 هـ وكانت له حلقة مسلم بن خالد الزنجي، بعد أن توفي مسلم، وقد أخذ الشافعي عنه وروى حديثه، وكان سعيد يرمى بالإرجاء (أي أنه من المرجئة).

ص:184

3- داود بن عبد الرحمن العطار المتوفى سنة 175 هـ. قال الشافعي: ما رأيت أروع منه. ووثقه ابن معين. ولم تكن ملازمة الشافعي له كغيره من شيوخه، ولعل أخذه عنه كان قليلا. 4- سفيان بن عيينة بن أبي عمران المتوفى سنة 198 هـ تقدمت ترجمته في هذا الكتاب في أسماء تلامذة الإمام الصادق، وهو من رؤساء المذاهب البائدة. 5- مالك بن أنس الأصبحي المتوفى سنة 179 هـ تقدمت ترجمته في الجزء الأول والثاني. 6- عبد الله بن نافع الصائغ، مولى بني مخزوم المتوفى سنة 206 هـ. 7- يحيى بن حسان بن حيان، البكري المصري المتوفى سنة 208 هـ. 8- إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى أبو إسحاق المدني المتوفى سنة 184 هـ. وقد أكثر الشافعي من الرواية عنه. وهو عندهم ضعيف. وقد رموه بالكذب. وطعنوا على الشافعي بالأخذ عنه، ولكن الشافعي كان يرى إبراهيم صدوقا، وإنما رمى بالكذب لغايات هناك، وقد روى الربيع بن سليمان عن الشافعي أنه كان يقول: لئن ينحر إبراهيم من بعد أحب إليه من أن يكذب. وكان ثقة في الحديث. وإبراهيم هذا كان من تلامذة الإمام الصادق وخرّيج مدرسته، وكان يروى أحاديث أهل البيت عليهم السلام وله مؤلف مبوب في الحلال والحرام على مذهب أهل البيت، وهو أستاذ الواقدي، وكتب الواقدي أكثرها مأخوذة عنه. وحيث كان الشافعي يعتمد على كتبه وروايته، فكان مرة يصرح باسمه و مرة أخرى يوّرئ عنه فيقول: حدّثني الثقة، حدّثني من لا أتهمه. 9- حماد بن أسامة الكوفي، مولى بني هاشم المتوفى سنة 201 هـ. 10- وكيع بن الجراح بن مليح الرواسي، أبو سفيان الكوفي المتوفى سنة 196 هـ. 11- إبراهيم بن سعد الأنصاري الزهري، المتوفى سنة 183 هـ تقدمت ترجمته في تلامذة الإمام الصادق عليه السلام. 12- محمد بن الحسن الشيباني القاضي، تلميذ أبي حنيفة، قال الشافعي: حملت عن محمد بن الحسن الشيباني حمل بختي (نوع من الإبل، ليس عليه إلاّ

سماعى) وقال: كان محمّد بن الحسن جيد المنزلة، فاختلقت إليه، فلزمته وكتبت كتبه (1). و لذلك قالوا: إن محمّد بن الحسن أغزر منه (أى من الشّافعى) علما وأخطر أثرا، وأن علم الشافعى راجع إليه و مأخوذ عنه. 13-عبد الوهّاب بن عبد المجيد بن الصلت البصرى المتوفى سنة 194 هـ تقدمت ترجمته فى هذا الكتاب فى تلامذة الإمام الصّادق. 14-هشام بن يوسف أبو عبد الله قاضى صنعاء، المتوفى سنة 197 هـ و هو من الأبناء، سمع معمرا، و ابن جريح، و أخذ عنه ابن المدائنى، توفى قبل عبد الرزّاق بن همام (2). 15-إسماعيل بن إبراهيم الأسدى القرشى. مولاه أبو بشر البصرى المتوفى سنة 193 هـ و يعرف بابن عليّة، و هى أمّه، مولاة لبني أسد بن خزيمه و لما ولى إسماعيل بن عليّة القضاء كتب إليه ابن المبارك: يا جاعل العلم له بازيا يصطاد أموال المساكين

تحتال للدنيا و لذاتها بحيلة تذهب بالدين

فصرت مجنونا بها بعد ما كنت دواء للمجانين

أين رواياتك فيما مضى عن ابن عون و ابن سيرين

أين رواياتك فى سردها فى ترك أبواب السّلاطين

إن قلت أكرهت فذا باطل زل حمار العلم فى الطين

(3)

### تلامذته و رواة مذهبه:

نقل مذهب الشّافعى عن طريقين: أحدهما تلامذته، و الثانى كتبه. أما رواة مذهبه فمنهم من العراق. و منهم من مصر (4). و العراقيّون هم: 1-خالد اليمانى الكلبى، أبو ثور البغدادى المتوفى سنة 240 هـ و قد تقدمت

ص: 186

1-1) آداب الشافعى لابن أبى حاتم ص 23-32.

2-2) طبقات فقهاء اليمن للجعدى ص 67.

3-3) تهذيب التهذيب ج 1 ص 278. [1]

4-4) الانتقاء لابن عبد البر ص 104-115، و توالى التأسيس لابن حجر ص 37-43. و مناقب الشافعى للرازى ص 13. و طبقات الشافعية ج 1 ص 186-299.

ترجمته فى المذاهب البائدة، و الحق أن عدّه فى رواة مذهب الشّافعى غير صحيح، فإن الرجل كان مجتهدا مطلقا، و له مذهب قد اعتنقه كثير من الناس، و اشتهر الأخذ به فى القرن الثانى، و لكنه اندرس، شأنه شأن غيره من المذاهب التى لم تحظ بتشجيع فيكتب لها البقاء، و له كثير من المسائل قد خالف فيها الشّافعى، و سيأتى بيانها. 2-الحسن بن محمّد بن الصباح الزعفرانى البغدادى المتوفى سنة 260 هـ و هو أثبت رواة المذهب القديم للشّافعى، و كان يذهب مذهب أهل العراق، فتركه و تفقه للشّافعى. 3-الحسن بن على الكرابيسى تفقه أولا على مذهب العراقيين، ثم تفقه للشّافعى و سمع منه و من غيره و قد تجنب الناس روايته. لأن أحمد بن حنبل طعن عليه فى مسألة اللفظ، لأنه كان يقول: لفظى بالقرآن مخلوق. 4-أحمد بن عبد العزيز البغدادى كان من كبار أصحاب الشّافعى الملازمين له ببغداد، ثم صار من أصحاب ابن داود و تبعه على رأيه، و له مسائل خالف بها الشّافعى. 5-أبو عبد الرحمن أحمد بن محمّد بن يحيى الأشعرى البصرى، كان يشبّه بالشّافعى و يوصف به، لأنه انتصر للمذهب و دافع عن أصحابه، لمكانته من السلطان، و علو منزلته فى الدولة، فقد كان رفيع المنزلة عندهم، له جاه عظيم. و قد أجهد نفسه فى نصرة مذهب الشّافعى و انتشاره، حتى وصف بما أشرنا إليه. 6-أحمد بن محمّد بن حنبل إمام المذهب الحنبلى (ستأتى ترجمة حياته) و الشىء الذى نود الإشارة إليه هو أن الحنابلة يجعلون الشّافعى تلميذ أحمد بن حنبل، و يعدّونه فى عداد من أخذ عنه و تعلّم منه، و يستدلّون بقول أبى حاتم: إن أحمد بن حنبل أكبر من الشّافعى. تعلم الشّافعى أشياء من معرفة الحديث من أحمد بن حنبل و كان الشّافعى فقيها، و لم تكن له معرفة بالحديث، فربما قال لأحمد هذا الحديث محفوظ؟ فإذا قال أحمد: نعم، جعله أصلا و بنى عليه. و قال إسحاق بن حنبل: كان الشّافعى يأتى أبا عبد الله أحمد بن حنبل عندنا ها هنا عامة النهار يتذاكرون الفقه. و قال أبو بكر الأثرم فيما كتبه إلى المروزى: و أخبرت أن الشّافعى له معرفة بالحديث مما تعلمه منه (أى من أحمد بن حنبل).

و عن عبد الله بن أحمد قال: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث و الرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحا فأعلموني أن يكون كوفيا، أو بصريا، أو شاميا، حتى أذهب إليه إذا كان صحيحا. هكذا ذكر ابن رجب في طبقات الحنابلة (1) وقال ابن الجوزي: و ممن حدث عن أحمد بن حنبل: الشافعي. و قد ذكره في عداد تلامذته. و لكن الشافعية جعلوا أحمد بن حنبل تلميذا للشافعي. 7- داود بن علي الظاهري، إمام أهل الظاهر، أخذ عن الشافعي، و لكنه لم يكن من رواة المذهب و ناشريه، بل كان له مذهب مستقل و له أتباع، و لا زال مذهبه معمولا به مدة من الزمن، و كان من أشهر علماء المذهب: ابن حزم صاحب كتاب المحلى.

## المصريون:

و انتشر مذهب الشافعي في مصر أكثر من غيره، لأن أصحاب الشافعي في مصر قاموا بنشر المذهب، و تأليف الكتب، و قد ساعدت الظروف على ذلك كما يأتي، فكان للشافعي أصحاب من مصر لهم يد في نشر مذهبه، و له تلامذة كثيرون، كان أشهرهم: 1- يوسف بن يعقوب البويطي أو يعقوب المصرى المتوفى سنة 231 هـ في سجن بغداد، لأنه لم يقل في مسألة خلق القرآن. و كان البويطي من أكبر أصحاب الشافعي، و ناشري مذهبه، و هو خليفته على حلقة درسه، و كان الشافعي يحيل عليه في الفتيا إذا جاءته مسألة، و يعد في الواقع من أكبر أنصار المذهب و دعائه، فقد كان يدنى الغرباء و يقربهم، و يعرفهم فضل الشافعي و كتبه، حتى كثر الطالبون لكتب الشافعي، و كان يقول: كان الشافعي يأمر بذلك، و يقول لى أصبر للغرباء. و غيرهم من التلاميذ حتى كثر أتباعه و قوى انتشار المذهب، فحسده ابن أبي الليث الحنفى قاضى مصر و عاداه، و بسبب ذلك أخرجه أيام المحنة فى خلق القرآن، و حمل مع من حمل من أهل مصر، و حبس ببغداد و مات فى السجن سنة 231 هـ.

ص: 188

2- إسماعيل بن يحيى المزني أبو إبراهيم المصري المتوفى سنة 264 هـ كان من أكبر أنصار الشافعي وناشرى مذهبه، حتى قال الشافعي في حقه: المزني ناصر مذهبي. وقال أيضا في وصفه: لو نظر الشيطان لغلبيه (1). وله في مذهب الشافعي كتب كثيرة، منها: الجامع الكبير، و الجامع الصغير و المختصر، و المنثور، و المسائل المعتمدة، و الترغيب في العلم، و كتاب الوثائق، و كتاب نهاية الاختصار. و اشتهر كتاب «المختصر» بين الناس، و امتلأت به البلدان، و كان للناس فيه اعتقاد شديد حتى أن المرأة إذا جهزت للدخول على زوجها حمل في جهازها مصحف و نسخة «مختصر المزني» (2) و كان المزني من المجتهدين في المذهب، و ممن له حرية الاستنباط، و كان ممن ينهى عن التقليد و الجمود كما جاء في مقدمة المختصر. 3- الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي المتوفى سنة 270 هـ كان من موالى مراد، و مؤذن جامع الفسطاط، و هو راوى كتب الشافعي، و ثقوه في الحديث على غفلة فيه، و تقدم روايته على غيره، فلو تعارض هو و المزني في رواية قدّم أصحاب الشافعي روايته على رواية المزني، و قد رحل الناس إليه لتلقى كتب الشافعي، و كان الشافعي يحبه حتى قال له: لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه. 4- الربيع بن سليمان بن داود الجيزي، أبو محمد الأزدي مولا هم المصري المتوفى سنة 256 هـ روى عن الشافعي أحاديثا، و لم يرو كتبه، و كان ضعيفا في الحديث. و من المصريين أيضا: حرملة بن يحيى بن حرملة، أبو حفص المصري المتوفى سنة 266 هـ صحب الشافعي و روى عنه كتبا لم يروها الربيع بن سليمان. و منهم: قحزم بن عبد الله بن قحزم، و أبو حنيفة القبطي المتوفى سنة 271 هـ صحب الشافعي و أخذ عنه و كتب كثيرا من كتبه، و روى عنه عشرة أجزاء في السنن و الأحكام. و يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى ولد سنة 170 هـ و توفى سنة 264 هـ

ص: 189

1-1 (1) طبقات الشافعية للسبكي ج 1 ص 238. [1]

2-2 (2) مختص المؤلف لأبي شامة ص 35.

وسمع الحديث من ابن عيينة وابن وهب، وتفقه على الشافعي، و انتهت إليه رئاسة العلم المصري، وفيه يقول الشافعي: ما رأيت بمصر أحدا أعقل من يونس بن عبد الأعلى. ومحمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة 268 هـ. كان من أصحاب الشافعي، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحدا. قال المزني: نظر إليه الشافعي فأتبعه بصره، وقال: (وددت لو أن لي ولدا مثله وعلّي ألف دينار). وقال أبو إسحاق الشيرازي: انتهت إليه رئاسة العلم بمصر، وكانت بينه وبين الشافعي مؤاخاة صادقة، ومودة صافية. ولما مرض الشافعي، وأحس بدنو منيته، وطلب إليه أصحابه أن يذكر من يخلفه في حلقة أشار إلى البويطي، دون ابن عبد الحكم، وكان قد استشرف لها وأرادها، فأغضبه ذلك وترك مذهب الشافعي، وانتصر لمذهب مالك، وأخذ يرد على الشافعي، فهو إذا من تلامذة الشافعي ولم يكن من ناشري المذهب. هؤلاء هم أشهر أصحاب الشافعي، الذين انتشر بهم علمه بما ألفوا وصنّفوا.

## كتبه و آثاره:

### إشارة

يمتاز الشافعي عن غيره من أئمة المذاهب الأربعة بنسبة الكتب التي عرف أنّه صنفها بنفسه، فكان عليها اعتماد المتمذهبين بمذهبه: كرسالة أدلة الأحكام وهي رسالة أصولية، وكتاب اختلاف الحديث، وكتاب المسند، والأمالى، وجمع الكافي، وعيون المسائل، والبحر المحيط، وهذه الكتب الأربعة تعرف بالقديم. وإن من سبقه من الأئمة لم يظهر له مثلما ظهر للشافعي، فمالك بن أنس له كتاب «الموطأ» فحسب، وأبو حنيفة ليس له شيء من التأليف إلا ما يقال من نسبة كتاب «العالم والمتعلم» وقد تقدم الخلاف في ذلك، وسيأتي الكلام حول كتب الإمام أحمد. أما أهم كتاب ينسب إلى الشافعي فهو كتاب «الأم» المطبوع في ستة مجلدات، وهو المرجع لفقهاء الشافعي قديمه وجديده. وأهم شيء نود الوقوف عليه في هذا البحث هو: هل «الأم» من تأليف الشافعي أو هو لغيره ونسب إليه؟

لقد وقع الخلاف حول هذا الكتاب، وكثر الجدل في نسبته للشافعي، وأنه أكب على تأليفه بنفسه، فبعضهم يذهب إلى ذلك. والبعض الآخر ينفى ذلك، ويذهب إلى عدم نسبته للشافعي. وإذا نحن أردنا أن نلحظ الكتاب في قراءة موضوعية نجد أننا كثيرا ما نصطدم بعبارات توجب التشكيك في صحة القول بأن الشافعي هو مؤلف هذا الكتاب. ولعل من الخير أن نضع بين يدي قرائنا المحترمين، بعضا من الشواهد على ذلك: منها-افتتاح كثير من فصوله بهذه العبارة: «أخبرنا الربيع، قال: قال الشافعي-كما ورد في مطلع الجزء الأول وكثير من فصول الكتاب، وفي كتاب الحيض والاستحاضة في عدة موارد، وفي ص 58 قال: قال الربيع: قال الشافعي، وهو الذي نقول به: إن أقل الحيض يوم وليلة. وأكثره خمسة عشر. وفي كثير من فصول الكتاب، يحكى الربيع بن سليمان أقوال الشافعي وآراءه كما في ص 60 ج 1 وكذلك في ص 67 و 72 و 73 إلى غير ذلك. وإن المؤيدات لنفى دعوى تأليف الشافعي كثيرة لا تحصى، ففي ص 74 في باب الأذان قال الربيع: أخبرنا الشافعي قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد (1) وغيره، عن جعفر بن محمد عليه السلام إلى أن يقول قال الشافعي: وبهذا كله نأخذ. ومن أهم المؤيدات، أن الربيع كان ينص في بعض الموارد على سماعه من الشافعي، وفي بعضها أنه لم يسمع ذلك منه. وورد في باب غسل الميت ص 248 أخبرنا الربيع بن سليمان أنه قال: لم أسمع هذا الكتاب من الشافعي، وإنما أقرأه على المعرفة. وتقع في الكتاب عبارة: قيل للشافعي فأجاب بكذا. كما تكثر فيه عبارة: (سألت الشافعي بكذا فأجاب بكذا) كما في السؤال عن ولوغ الكلب في الإناء ج 7 ص 94 وغيره.

ص: 191

(1-1) إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى هو أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ومن أكبر شيوخ الشافعي وقد أكثر الرواية عنه و ستأتي ترجمته.



و يأتي أيضا: قلت للشافعي كذا، فأجابني بكذا. إلى آخر ما هنالك من الشواهد والتعليقات للربيع و للبيطي، كما في ج 5 ص 144، 59، 183، 145 أكبر دليل على ذلك. و يجد المتتبع لفصول الكتاب، صراحة في عدم تأليف الشافعي لهذا الكتاب، كما في باب الصلح، و الحوالة، و الوكالة، و الوليمة، و إقرار الوارث و غيرها. و على أي حال: فإن للقول في عدم نسبة الكتاب للشافعي مجالا. و أنه لم يؤلفه بنفسه، و لا أكب على كتابته، و لكن أقرب الاحتمالات: إن الكتاب هو مجموعة آرائه و أقواله دونها تلامذته، كغيره من أئمة المذاهب، مع زيادات في التخريج على أصول المذهب. و على الأقل فإن القطع بعدم نسبة جميع الكتاب للشافعي لا مجال لإنكاره، فهو إما تأليف البيطي أو الربيع بن سليمان. و قد آيد ذلك الغزالي في الإحياء، و أبو طالب المكي في قوت القلوب. قال أبو حامد الغزالي: كان الشافعي رحمه الله أخي محمّد بن عبد الحكم، و كان يقربّه و يقبل عليه و يقول: ما يقيمني بمصر غيره، فاعتل محمّد فعاده الشافعي رحمه الله فقال: مرض الحبيب فعده فمرضت من حذري عليه

و أتى الحبيب يعودني فبرأت من نظري إليه

و ظن الناس من صدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقتة إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمّد بن عبد الحكم و هو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي: سبحان الله! أيشك في هذا! أبو يعقوب البيطي. فانكسر لها محمّد، و مال أصحابه إلى البيطي، مع أن محمّد قد حمل عنه مذهبه كله. لكن البيطي كان أفضل و أقرب إلى الزهد، فنصح الشافعي لله و للمسلمين و ترك المداهنة، و لم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى. فلما توفي، انقلب محمّد بن عبد الحكم عن مذهبه، و رجع إلى مذهب أبيه. و درس كتب مالك. و أثر البيطي الزهد و الخمول، و لم يعجبه الجمع و الجلوس في الحلقة، و اشتغل بالعبادة، و صنّف كتاب «الأم» الذي ينسب الآن إلى الربيع بن

سليمان ويعرف به، وإنما صنّفه البويطى، ولكن لم يذكر نفسه فيه، ولم ينسبه إلى نفسه، فزاد الربيع فيه وتصرف (1). هذا هو النص الذى أورده الغزالي، على نفي نسبة كتاب الأم للشافعى، وإنما ألفه البويطى، ثم نسبه الربيع بن سليمان إلى نفسه، وزاد فيه وتصرف. والغزالي هو من أئمة الشافعية، الذين عليهم المعول. وقال أبو طالب المكى: إن البويطى هو الذى ألف كتاب الأم وأعطاه الربيع، وصار يعرف به، لأنه اعتزل الناس بالبويطة من سواد مصر، وصنّف كتاب الأم الذى ينسب الآن للربيع بن سليمان ويعرف به، وإنما هو جمع البويطى، لم يذكر نفسه فيه، وأخرجه إلى الربيع فزاد فيه (2). وهذا نص صريح فى تأكيد المدعى، وقد مرّت العصور على نسبة الكتاب للشافعى، وأنّه أكبّ على تأليفه، مع وجود هذه النصوص والشواهد التى يتجلى منها عدم صحة هذه النسبة، لمن يتتبع فصول الكتاب، من وجود تلك العبارات الدالة بصراحة على نفي تلك النسبة كما قدمناه، وكذلك فى بقية الأبواب المسبوقة بعبارة (أخبرنا الربيع بن سليمان قال: أخبرنا الشافعى) كما فى باب الصلح، والحوالة، والوكالة، والوليمة وإقرار الوارث وغيرها. وتسمية هذا الكتاب باسم الأم تسمية جديدة وأحيانا ما يرد ذكره فى الكتاب ولعله من فعل الشراح (3). وبهذه الأمور أصبح التشكيك فى نسبة الكتاب للشافعى، بل جزم أكثرهم بأن الشافعى لم يؤلفه. وحقبة أنه جامع لأقواله وآرائه التى لم يقصد منها تصنيف كتاب بعينه ولو قدّم كذلك، لسلم ما فيه من علم من التشكيك ورفع عنه التردد.

### الاختلاف حول كتاب الأم:

وقد ثار الخلاف فى مصر حول هذه المسألة، وكثر الجدل فيها، وهو: هل أن كتاب «الأم» ألفه الشافعى أو ألفه البويطى؟

ص: 193

1-1 (1) الإحياء ج 2 ص 190. [1]

2-2 (2) قوت القلوب للمكى ج 4 ص 135. [2]

3-3 (3) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص 255.

فمنهم، من ينفي تأليف الشافعي لهذا الكتاب، وأنه عكف على كتابته و تأليفه في هذا الموضوع النهائي. و منهم، من يرى أن الشافعي أملاه على تلامذته في حلقة درسه، و قسم آخر يرى أن الشافعي أملى مسائل، و كتب مسائل، و تحدّث بمسائل، ثم ترك علمه و رسائله و أماليه وديعة في خزائن أصحابه و صدورهم بعد موته، فجاء البويطي فصنّف من ذلك كله كتاب الأم و أعطاه الربيع، فزاد فيه و تصرّف. و لكل قول مرجحات و مؤيّدات. يقول الدكتور أحمد أمين: (فليس يستطيع أحد أن يقول أن ما بين دفتي الكتاب الذي بين أيدينا هو من تأليف الشافعي، و أنه عكف على كتابته و تأليفه في هذا الموضوع النهائي. كما أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن في «الأم» مذهب الشافعي بقوله و عبارته، فالظاهر أنّها أمال أملاها الشافعي في حلقتة، و كتبها عنه تلاميذه، و أدخلوا عليها تعليقات من عندهم، و اختلفت رواياتهم بعض الاختلاف) (1). و كتب الدكتور زكي مبارك رسالة خاصة في هذه المسألة تحت عنوان: (إصلاح أشنع خطأ في تاريخ الشريعة الإسلامي، كتاب الأم لم يؤلفه الشافعي، و إنّما ألفه البويطي و تصرّف فيه الربيع بن سليمان). يقول في المقدمة: (و ملك الدنيا بأسرها لا يساوى عندي تصحيح هذه الغلطة التي درج عليها الناس منذ أجيال، و هي نسبة كتاب الأم إلى الشافعي رحمه الله، مع أن الشافعي لم يؤلف ذلك الكتاب، و لم يعرفه على الإطلاق، لأنه ألف بعد وفاته بسنين). و يقول: إن الفرق عظيم بين كتاب يؤلفه الشافعي أو يمليه و يرويه عنه أصحابه، و كتاب يؤلف بعد وفاته بسنين، الفرق عظيم جدا بين هذين في التأليف و التصنيف، إلّا أن تكون الحقائق الأدبية في مصر مما يكال و يوضع في الأعدال. و يستمر الأستاذ مبارك في مناقشته، و بحثه حول الكتاب- و هو المعروف بدقة البحث و سلامة الذوق- و يقيم الأدلة على ما يدّعيه، من إثبات تأليف الكتاب للبويطي، لا للشافعي، و يصف لنا مهاجمة الناس له، و قيام المعركة حول إثارة هذه

ص:194

المسألة، وأن المعركة تنتهي على أن الشافعي لم يعرف كتاب الأم بصورته، وأنه لا مفرّ من الاعتراف بأثر أبي يعقوب البويطي، و الربيع بن سليمان في تأليف ذلك الكتاب. ويقول: كتب الله لنا النصر في تلك الحرب الشعواء، واعترف خصومي بأن الشافعي لم يعرف كتاب الأم في حياته، اعترفوا في محادثات شخصية و تلفونية، و سألتهم أن يذيعوا ما اقتنعوا به فلم يفعلوا، لأن الاعتراف بالهزيمة يصعب على كثير من الناس. ولكنهم لم يكونوا جميعا في درجة واحدة من المكابرة، فقد تقرد الرجل الفاضل الأستاذ محمّد عرفة-وكيل كلية الشريعة-بكلمة وقعت منه قضاء و قدرا، في مقال نشره بالبلاغ في مساء السبت 28 شعبان سنة 1352 هـ إذ قال: (إلا أنه يحتمل أن يكون الشافعي أملى كتابه الأم كتبا متفرقة و مسائل مجزأة، و الذي جمعه و جعله كتابا مستقلا، و سماه بهذا الاسم هو الربيع بن سليمان، و نحن نرجح هذا الاحتمال). هذا كلام وكيل كلية الشريعة بالجامع الأزهر، فما ذا ينتظر الناس من الفوز لرأى زكى مبارك، من أن يوافقه وكيل كلية الشريعة من حيث لا يحتسب. و يختم الأستاذ زكى مبارك رسالته، التي نشرها حول إثارة هذا الموضوع فيقول: و أظهر ما تكون عقبة التوحيد في الفقه الإسلامي، فقد رأينا كيف يتفق فقهاء الشافعية على إضافة مؤلفات أصحاب الشافعي إلى الشافعي، و مضوا على ذلك الرأى الموحد إلى اليوم، حتى رأينا من فقهاء عصرنا من يضجر و يحزن و يكتب حين يسمع من يقول: إن للبويطي و الربيع بن سليمان يدا في تأليف كتاب الأم، لأن في ذلك إشراكا بالشافعي رحمه الله! و لا ننسى أن من فقهاء الشافعية جماعة أنطقت الرسول عليه السلام بمدح الشافعي قبل أن يولد بزمان، فزعمت أنه قال: (عالم قريش يملأ طباق الأرض علما) و أن المقصود بهذا الحديث محمّد بن إدريس الشافعي. إلى أن يقول: لقد مرت أجيال و المسلمون يعتقدون أنه ليس لأحد بعد الأئمة الأربعة أن يجتهد في الشريعة الإسلامية، و الخارج عن المذاهب الأربعة-و هو رأى الجمهور-صاحب بدعة، و كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة في النار!

و من المؤسف، أن تتغلغل هذه العقيدة في الجماهير الإسلامية. حتى نجد من يسأل عن مذهب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم أ شافعي هو أم مالكي؟! و غفلة العوام فرع عن غفلة الخواص! فإن لم يكن ذلك كذلك-كما كانوا يعبرون-فلم يصرخ بعض الناس فيقولون في جريدة يومية: أنه يعزّ عليه أن ينسب كتاب الأم إلى غير الشافعي؟ مع أن في فحول المتقدمين من نسبه إلى البويطي و الربيع، مع أن الأدلة تظافرت على أنه ألف بعد وفاة الشافعي بسنين؟ يقولون: إن أصحاب الشافعي كانوا جميعا عالة عليه. و نحن نقول: لو لا أصحاب الشافعي لكان مصيره مصير الليث بن سعد، فقد كان من كبار الأئمة، و لكن قعد عنه أصحابه فضاع. و في عصرنا شاهد لذلك، فلو لا رشيد رضا لما كان محمّد عبده، و هل استطاع الشيخ محمّد عبده أن يظفر بكلمة ثناء! و هل جرى في الدنيا أنه الأستاذ الإمام و أنه (لوثر) هذا الجيل؟ لو لا عناية رشيد رضا بطبع مؤلفاته، و إذاعة ما وعى عنه من مختلف الأقوال. إن التلميذ المخلص شريك أستاذة في الفضل، فلا تغضبوا من قيمة أصحاب الشافعي لتصح لكم في الشافعي عقيدة التوحيد، فبعض التوحيد و ثنية لو تعلمون. انتهى. و في الرسالة مباحث قيمة لم يتسع الوقت لإعطاء صورة عنها. و بهذا ينتهي بحثنا حول شبهة كتاب الأم، و نسبته للشافعي. و للشافعي كتب أخرى في علوم مختلفة، كالتفسير و اللغة و غيرها. كما أنهم نسبوا إليه معرفة كثير من العلوم، و التحقيق لا يقر ذلك، و التتبع لا يثبت. فمن ذلك: إن بعض من درسوا الشافعي ينسبون إليه تعلم اليونانية، معتمدين على ما نقله الرازي عن الشافعي: أنه عند ما دخل على الرشيد بتلك التهمة، سأله الرشيد عن علمه، فكان مما جاء في هذه المحاوره: قال الرشيد: فكيف علمك بالطب! قال الشافعي: أعرف ما قالت الروم مثل أرسطاطاليس و جالينوس، و قرقور يوس، و أبو قليس بلغاتها، و ما نقله أطباء العرب، و قننه فلاسفة الهند، و نمقته علماء الفرس. و القصة مكذوبة لا يعتمد عليها، لاشتغالها على أمور متناقضة و أشياء مكذوبة، و أوضح ما فيها من الكذب أن السؤال من الرشيد كان بمحض أبي يوسف، مع القطع بأن الشافعي دخل بغداد بعد وفاة أبي يوسف، و لم يجتمع به قط. و كذلك تشتمل

القصة على مناقشات فقهية تخالف مذهب الشافعي، قديمه وجديده (1). فليس من التحقيق العلمي التمسك بشيء مما جاء في هذه القصة، لأن راويها كذاب وضاع، وهو محمد بن عبد الله البلوي، وحاله أشهر من أن يذكر، ولم نجد نسبة تعلمه للطب واللغة اليونانية إلا في هذه الرواية التي لا يعتمد عليها، ونص على ذلك كثير من المحققين. وليس لنا غرض في نفي ذلك عنه، إلا الالتزام بشرط الدراسة من التعرض لكثير من الأمور التي هي بعيدة عن الواقع. أما الكلام حول علم الأصول، وهل كان الشافعي هو الواضع له، أو أنه أول من ألف فيه؟! فذلك ما يستدعي بيانه الإطالة في البحث لاستلزامه الرجوع إلى البحث عن تاريخ علم الأصول ونشأته، وهو متأخر عن علم الفقه لأنه ميزان له، فالفقه هو المادة التي توزن، والمادة سابقة على الميزان. وقد أشرنا في الجزء الثاني في فصل تدوين العلم: أن الإمام الباقر عليه السلام كان هو الواضع الأول لقواعده وأسسها، وقد ألف تلامذته رسائل في مسائله. ومهما يكن من أمر فلا مجال إلى الاعتراف بوضع الشافعي لعلم الأصول، ولا يمكن التمسك بما نقله البعض في ذلك، لبعده عن الحقيقة، وعدم مطابقته للواقع، لأننا نجد من كان قبل عصر الشافعي من علماء الإسلام من كان يستعمل في استنباطه للحكم كثيرا من القواعد الأصولية، للوقوف على حقيقة الحكم الوارد من الشارع. وكان لكل مذهب أصول وقواعد، وقد ألف أبو يوسف كتابا في أصول الفقه، كما أن قواعد أصول الفقه المالكي كانت سابقة على الشافعي، وقد ألف محمد بن الحسن الشيباني كتابا أسماه أصول الفقه. وتدعى الحنفية أن أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة هو أبو يوسف (2). وذكر ابن النديم كثيرا من كتب الأصول لمن هو أسبق في التأليف من الشافعي من معاصريه وغيرهم. وقد تقدم القول بأن الإمام الباقر عليه السلام هو الذي وضع قواعد علم الأصول

ص: 197

---

1-1) وقد رد ابن القيم هذه الرواية، ورفضها ابن حجر وابن كثير، ونص الجميع على كذبها. وقد أوردها الفخر الرازي بدون سند.  
2-2) مناقب أبي حنيفة للمكي ج 1 ص 245.

وفتح أبوابه، وأول من صنّف فيه هو هشام بن الحكم المتوفى سنة 179 هـ صنّف كتاب (الألفاظ و مباحثها) ثم من بعده يونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين، وهو مبحث تعارض الحديثين، و مسائل التعادل و التراجيح. و قد ذكر ابن النديم مؤلفات الشيعة فى الأصول لمن هو أسبق من الشافعى، و قد مر البحث فى ذلك فى الجزء الثانى من هذا الكتاب. و نحن لا ننكر أن الشافعى له يد فى علم الأصول، و أنه وسع الدائرة فى بعض المسائل، إلا أنه لم يكن واضعا لهذا العلم، بل هو مؤلف و له الرسالة المشهورة، و قد تصدّى أبو سهل النوبختى، و هو من علماء الشيعة، فنقضها و بيّن أخطاء الشافعى فيما كتب عن علم الأصول. و لكننا نذكر أن يكون هو الواضع الأول لعلم الأصول، و هو ادّعاء لا يثبت أمام التفاصيل التى حوتها كتب الشيعة، و التى تبين الأبواب التى جرى عليها الإمام الباقر فى مسانله و أقواله، و تظهر القواعد التى وضعها فى استخراج الأحكام و تصنيف المسائل و التى برزت أيضا بمنهج الإمام الصادق و مدرسته الكبرى.

### بين قديم و جديد:

تختلف أقوال الشافعى و فتاواه فى كثير من الموارد، و قد عرف عنه أنه عدل عن فتواه فى العراق، و عرفت بالمذهب القديم، و هو الذى تحمّله عنه تلامذته فى العراق و أخذوا عنه، و حفظوا مسانله، و دوّنوا كتبه كالزعفرانى و الكرايسى و غيرهما. و من كتب المذهب القديم المنسوبة للشافعى: الأمالى، و مجمع الكافى. و لما دخل مصر رجع عما أفتاه فى العراق، و ما دوّن عنه، حتى روى البويطى: إن الشافعى قال: لا أجعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى (1) هذا مع العلم بأن تلك الآراء و الأقوال قد انتشرت و أخذها من تتلمذ عليه فى بغداد، و لا نعلم معنى هذا النهى و مؤداه-إن صح عنه-فهل كان الرجوع عنها لعدم مطابقتها للحق؟ أم أن استعداده الاجتهادى كان قاصرا عن إدراك الواقع الذى أدركه فى مصر؟! و صفوة القول: أن ما تقدم يضع بين يدى الباحث حقيقة مذهبية طريفة هى تأثر ذهنية الفقيه بالمحيط الجغرافى؛ و هذا ما لم يصل إليه التصور أو الإدراك، فالشافعى صاحب المذهب المعروف هو الذى تفرّد مذهبه بهذه الصبغة (صفة الجديد و صفة

ص: 198

القديم) فمذهبه الجديد هو ما أملاه في مصر، وأخذ عنه تلامذته هناك، والقديم هو مذهبه في بغداد؛ وقد عدل عنه ونهى عن نقله، ولكن تلامذته في بغداد لم يبلغهم نهيه وعدوله، فدونهاها وتناقلوها وانتشرت بينهم، ولهذا تجد الأقوال عن الشافعي مختلفة. فيأتي في المسألة قولان أو أكثر، وقد يثبت رجوعه عن أحدها أو لا يثبت، فيبقى القولان ثابتين في المذهب منسويين إليه، كما جاء في كتاب الأم وغيره. وقد يعتبر هذا الاختلاف دليلاً على النقص في اجتهاد الشافعي لأن عدم الجزم دليل على نقص العلم. ذكر الفخر الرازي في المسألة الحادية عشرة: أنهم- أي العلماء القائلين بنقص اجتهاد الشافعي- قالوا: إنه- أي الشافعي- ما كان كاملاً في الاجتهاد لأنه توقف في أكثر مسائل الفقه. وتساوت عنده الأدلة، وذلك يدل على ضعف الرأي وقلة الفقه (1). واعتذر الرازي: بأن هذا يوجد عند أبي حنيفة أيضاً في مسألة الماء المستعمل في الوضوء، فقد نقلوا عن أبي حنيفة ثلاث روايات: 1- رواية محمد بن الحسن عن أبي حنيفة أنه طاهر. 2- رواية أبي يوسف أنه نجس نجاسة خفيفة. 3- رواية الحسن أنه نجس نجاسة غليظة، ولهم من هذا الباب مسائل كثيرة، فثبت أن هذا الإشكال مشترك من الجانبين (أي من الشافعي وأبي حنيفة في اختلاف الأقوال). وسنوقف القارئ الكريم على كثير من ذلك. وقد جعلوا قول الشافعي الجديد ناسخاً لقوله القديم، كما أنهم قد أكثروا من الاعتذار عن وجود هذا الاختلاف الذي جعله بعض العلماء نقصاً في اجتهاد الشافعي وإدراكه. قال أبو منصور البغدادي: وليس الشافعي أجلاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سئل عن قذف الرجل امرأته، حتى نزلت آية اللعان، وقد روى: أن المؤمن وقاف والمنافق وثاب. وأنت ترى أن هذا النوع من الدفاع عن الشافعي لا موجب له، وهو تعصب محض وقياس مع الفارق، فليس من الصحيح أن تقاس حوادث الشافعي بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم

ص: 199



الذى كان يستمد تعاليمه من السماء، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. على أن الشافعى قد أراحهم من هذا التكلف، فإنه لم يدع العصمة والكمال، وقد دلت أقواله على خلاف ما يدعونه له، من صفة الإنسان الكامل الذى لا يعتريه الخطأ والنسيان، كما تقدم بيانه. وحدث البويطى عن الشافعى أنه قال: صنفت هذه الكتب فلم آل فيها الصواب، فلا بد وأن يوجد فيها ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله، فما وجدتم فيه ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله فإني راجع عنه إلى كتاب الله وسنة رسوله. وقال المزنى: قرأت كتاب «الرسالة» على الشافعى ثمان مرات، فما من مرة إلا وقد كان يقف على خطأ، فقال لى الشافعى: أبى الله أن يكون كتابا صحيحا غير كتابه تعالى. فقول أبى منصور فى نصرة الشافعى خطأ محض وجرأة على مقام الرسالة، وليس بغريب على من انغمس فى بحر التعصب للمذهب بأن تصدر منه أمثال هذه المخالفات، فقد ترك قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم لقول صاحب المذهب، وقد مرّ أن بعضهم يسأل عن مذهب النبى صلى الله عليه وآله وسلم هل كان حنفيا أم شافعيًا. ولسنا الآن بصدد البحث عن هذا، ولكن الغرض أن أقوال الشافعى قد اختلفت فى كثير من المسائل، فهو قد أفتى فى بغداد بمسائل، ثم أعرض عنها فى مصر، فسميت تلك الأقوال بالمذهب القديم. وإن أقواله القديمة منشورة فى أبواب الفقه المختلفة، وأخذ العلماء يوازنون بينها، واختلفت ترجيحاتهم وتصحيحاتهم فيها، بل تناولوا ما رجحه الشافعى نفسه بالدراسة والفحص، فكانوا يرجحون القول الآخر إذا وجدوا حديثا صحيحا-سيرا على قاعدة الشافعى التى سنّها لنفسه-إذا صح الحديث فهو مذهبى. قال البجرمى: الفتوى على ما فى الجديد دون القديم، وقد رجح الشافعى عنه، وهذا كله قديم لم يعضده حديث، فإن اعتضد بحديث فهو مذهب الشافعى، فقد صح عنه أنه قال: إذا صح الحديث فهو مذهبى، واضربوا بقولى عرض الحائط. ولكن بعض الشافعية تردد فى الأخذ بالحديث إن عارض قول الشافعى، لأنه عساه يكون منسوخا فى نظره أو مؤولا، أو صح عند غيره بطريق أقوى من طريقه، وبعضهم إذا وجد حديثا يخالف رأيا ماثورا عن الشافعى يأخذ بالحديث الصحيح، ويترك رأى الشافعى.

وقد أفتى المتقدمون من فقهاء الشافعية بعدة مسائل في القديم، و ترجيحها على الجديد، و اختلفوا في عددها، و حاولوا حصرها في عدد قليل أو أكثر، و قد منع بعضهم الحصر. و حصرها بعضهم في اثنين و عشرين، منها: عدم وجوب التباعد عن النجاسة في الماء الراكد الكثير، و التثويب في الأذان، و عدم انتقاض الوضوء بمس المحارم، و طهارة الماء الجارى ما لم يتغير، و عدم الاكتفاء في الاستنجاء بالحجر إذا انتشر البول، و تعجيل صلاة العشاء، و عدم مضي وقت المغرب بمضي خمس ركعات، و عدم قراءة السورة في الأخيرتين، و المنفرد إذا أحرم الصلاة ثم أنشأ القدوة (أى جواز ذلك)، و كراهية تقليد أظافر الميت، و عدم اعتبار النصاب في الركاز، و شرط التحليل في الحج بعذر المرض، و تحريم جلد الميتة بعد الدباغ. و لزوم الحد بوطء المحرم بملك اليمين، و قبول شهادة فرعين على كل من الأصليين. إلى آخر ما ذكر. و صفوة القول: إن اختلاف الشافعية في أقوال الشافعي المختلفة قد فتحت لهم أبواب الترجيح، و التخريج، و الموازنة بين أقواله و تطبيقها على الأحاديث، فما كان له شاهد من الحديث قدم على ما لم يكن له شاهد، و اشترطوا لذلك شروطا يأتي بيانها. و هاتان الناحيتان (القديم و الجديد) تظهران جليا في كتاب الأم، و في اختلاف الشافعية المتأخرين، إذ يذكرون للمسألة قولين، و يقصدون القديم و الجديد. و قد مرّ أن اتباع أئمة المذاهب يجعلون أقوالهم هي بمنزلة أقوال النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ربما ترك قوله صلى الله عليه و آله و سلم لقولهم. و قد قيل في أسباب تحول الشافعي عن أقواله في بغداد: أن انتقاله من بغداد إلى مصر، و تقلبه في عادات جديدة أثر ذلك في تبدل رأيه. و غير بعيد أن الشافعي عند ما كان في بغداد كان يرى نفسه تلميذا لمالك بن أنس، و بعد ذهابه لمصر بقى مدة ينقل أقوال أستاذه، ثم تحوّل إلى مرحلة النضوج الاجتهادى في تعمقه و دراسته، فهجر ما قاله أولا، و انتقد أستاذه مالكا، و وضع الكتب في الرد عليه، و أعلن بحرمة العمل في قوله الأول، و منع من نقله عنه. و لكن مدة بقائه بمصر لا تساعده على اكتساب تلك الملكة الاجتهادية، و ذلك الأفق الواسع من العلم كما ينقل عنه.

قيل أن الشافعي كان يرى أن القرآن كلام الله غير مخلوق ويقول: إن الله سبحانه وتعالى يقول: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. ومسألة خلق القرآن من المشاكل المهمة التي حلت بالجامعة الإسلامية. والتي أدت إلى موجة كلامية في تاريخ الإسلام، نجم عنها تباعد وعداء، واتهام بالكفر، ورمى بالزندقة والإلحاد. وإثارة للفتن، وإيقاد لنار البغضاء، حتى عد من لم يقل بخلق القرآن خارجا عن الدين ويقتل. وقد تطورت هذه المسألة بعد وفاة الشافعي، وظهر الامتحان بها في سنة 218 هـ ففيها دعا المأمون المحدثين والقضاة إلى القول بخلق القرآن، محتجا على أنه محدث، وكل محدث مخلوق، وهذا الرأي السائد عند كثير من علماء عصره. وكان معارضو هذا الرأي يقولون: إن القرآن كلام الله تعالى: القائم بذاته المقدسة، وما كان قائما بذاته لا يكون مخلوقا (1). وأخذ المأمون جماعة من الفقهاء فحبسهم وماتوا في السجن (2). وأجاب كثير منهم تقيّة. طمعا في الوظائف، وإبقاء على النفس. ويتجاوز عدد الذين أجابوا أكثر من ستين عالما كلهم من كبار المحدثين، كیحیی بن معین المتوفى سنة 233 هـ. ومحمد بن سعد صاحب كتاب الطبقات المتوفى سنة 230 هـ وقتيبة بن سعيد المتوفى سنة 240 هـ وغير هؤلاء يأتي الكلام عليهم إن شاء الله تعالى. ولقد تجاوز أكثر الفقهاء الحد في هذه المسألة، فذهبوا إلى كفر من قال بخلق القرآن، وبطلان نكاحه، وأن امرأته قد بانت منه. فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

ص: 202

- 
- 1-1) سيأتي بحث هذه المشكلة بمزيد من البيان في الجزء السابع ضمن بحث أسباب التخلف والتأخر.
  - 2-2) منهم يوسف بن يحيى البويطي خليفة الشافعي في مصر، مات في سجن بغداد سنة 206 هـ، ونعيم بن حماد الخزاعي، مات في السجن سنة 228 هـ، وعبد الأعلى بن مسهر الغساني، مات في سجن المأمون سنة 208 هـ وغيرهم سيأتي بيانهم في الجزء الرابع إن شاء الله.

وقال: إن من وقف وقال: لا أقول أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق، فقد ضاهى الكفر، و من زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، لا يجالس ولا يكلم. وكان أحمد بن حنبل لا يقبل توبة أحد ممن يقول بخلق القرآن، بل كان يرتب عليهم آثار الكفر وأحكامه، فلم يشيع جنازتهم، ولم يصل على واحد منهم، و حرم الكلام معهم. ولقد أخذت هذه المسألة دورها في ذلك العصر، حتى أن امرأة جاءت إلى القاضي فقالت: طلقني فإن زوجي يقول بخلق القرآن. ثم اتسعت الحالة فخرجت عن اعتقاد البشر إلى الجن، وأنهم يقولون بذلك إلى آخر ما فيها من تطور وتآزم كما سيأتي في الجزءين الرابع والسابع إن شاء الله. وبالجملة، فإني أرى أن ما ينقل عن الشافعي من التشدد في هذه المسألة لا يخلو بعضه من مبالغة، كما لا يخلو من زيادة-نسبة للظروف المتأخرة-إذ المسألة في عصر الشافعي لم تأخذ أثرها في المجتمع بذلك الشكل الذي يجعلنا نثق بصحة كل ما جاء عن الشافعي فيه، مع أنا لا نريد أن ندفع عن الشافعي ما كان يراه، أو نقول بعدم صحة النقل عنه، ولكننا نشك في تشدده في أمر من يقول بخلق القرآن! . . . قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: من حلف باسم من أسماء الله فحنت فعلية الكفارة، لأن اسم الله غير مخلوق، و من حلف بالكعبة أو بالصفة والمروة فليس عليه كفارة. لأنه مخلوق و ذاك غير مخلوق (1). وقال الربيع بن سليمان: حدثني من أثق به قال: كنت حاضرا في المجلس فقال حفص الفرد: القرآن مخلوق. فقال الشافعي: كفرت بالله العظيم. وقال الربيع أيضا: حضر عبد الله بن عبد الحكم، و يوسف بن عمر، و حفص الفرد، و كان الشافعي يسميه حفص المنفرد، فسأل حفص عبد الله بن الحكم وقال: ما تقول في القرآن؟ فأبى أن يجيبه، ثم سأل يوسف بن عمر فلم يجبه، و كلاهما أشار

ص: 203

للشافعي، فسأل الشافعي. فاحتج عليه الشافعي، و أقام الحجة عليه بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، و كَفَر الشافعي حفصا. قال الربيع: فلقيت حفصا في المجلس فيما بعد فقال: أراد الشافعي قتلى (1).

## رأيه في الرؤية:

قال الربيع: كنت يوما عند الشافعي، و جاءه كتاب من الصعيد يسألونه عن قوله تعالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . فكتب الشافعي: لما حجب قوما بالسخط، دل على أن قوما يرونه بالرضا. قال الربيع: أو تدين بذلك؟ قال: و الله لو لم يدن محمد بن إدريس إنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا (2). و بهذا يتضح لنا رأى الشافعي: أن الرؤية محققة في الآخرة، و لو لا ذلك لما عبد الله في الدنيا. و قد اختلف المسلمون في رؤية الله تعالى، فذهب قوم إلى جوازها في الدنيا و الآخرة. و منعها آخرون في الدنيا و وقوعها في الآخرة، كما هو مذهب الشافعي. و ذهب أهل البيت عليهم السلام و شيعتهم إلى استحالة الرؤية في الدنيا و الآخرة، و عدم إمكانها لأنه تعالى لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا، كالأجسام. و الهيئات، و علل ذلك بأن الباصرة لا تكون في حيز الممكنات ما لم تتصل أشعة البصر بالمرئي، و يمتنع اتصال شيء ما بذاته جل و علا. و للإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام أسلوب آخر في تقرير هذا الوجه، يوافق رأى الفلاسفة من أهل هذا العصر. أخرج الكليني في باب إبطال الرؤية، من كتاب التوحيد من أصول الكافي، بسنده إلى أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن

ص:204

1-1 (1) آداب الشافعي ص 195.

2-2 (2) طبقات الشافعية ج 1 ص 231. [1]

الثالث أسأله عن الرؤية؟ فكتب عليه السلام: «لا تجوز الرؤية-عقلا- ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء (1) ينفذ البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي أو المرئي لم تصح الرؤية». قال سيدنا شرف الدين: إن العقل الذي عرفنا الله تعالى به يحكم مستقلا بامتناع رؤية البارئ سبحانه، سواء أكانت الرؤية بصرية، أم قلبية، أم خيالية، أم وهمية، لا امتناع لوازمها بحكم العقل. نعم، ندرك بأبصارنا آيات الله في عجائب مخلوقاته إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ

وندرك ببصائرنا أنه هو الله، الذي لا-إله-إلا-هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم. وعن الإمام الرضا عليه السلام أخرجه الكليني في أصول الكافي بسنده إلى صفوان بن يحيى قال: سألتني أبو قرعة المحدث أن أدخله على الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك، فأذن لي، فأدخلته عليه، فسأله عن الحلال والحرام حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرعة: إنا روينا أن الله قسم الرؤية والكلام بين النبيين، فقسم الكلام لموسى، ولمحمد الرؤية فقال الإمام عليه السلام: «فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الإنس والجن في أنه لا تدركه الأبصار، ولا يحيطون به علما، وليس كمثلته شيء؟ أليس هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟» قال أبو قرعة: بلى. قال عليه السلام: «كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعا فيخبرهم: أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله، ويقول لهم عن الله: أنه لا تدركه الأبصار، ولا يحيطون به علما، وليس كمثلته شيء؟ ثم يقول لهم: أنا رأيت الله بعيني، وأحطت به علما، وهو على صورة البشر. أ ما تستحون؟! ما قدرت الزنادقة أن ترميه صلى الله عليه وآله وسلم بهذا، أن يكون يأتي من عند الله بشيء ثم يأتي بخلافه! . . .» قال له أبو قرعة: فإنه تعالى يقول: وَلَقَدْ رَأَوْهُ نَزَّلَةً أُخْرَى .

ص: 205

---

1-1) الهواء كنه المعنى الذي يعبر عنه فلاسفة اليوم بالأثير الممتد عندهم من عين الرائي إلى المرئي.

فقال الإمام عليه السلام: «إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال تعالى: ما كَذَبَ الْفُؤَادُ ما رَأَى يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى فأيات الله غير الله تعالى. وقد قال عزّ من قائل: وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا فإذا رآته الأبصار فقد أحيط به علما. قال أبو قرة: أفتكذب الروايات؟ قال الإمام: «إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يحاط به علما، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء». ودخل رجل من الخوارج على محمد الباقر عليه السلام فقال له: أي شيء تعبد فقال عليه السلام: «الله». قال الرجل: رأيت؟ قال: «بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبهه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات، ذلك الله لا إله إلا هو». ولا حاجة إلى الاسترسال بذكر الشواهد على خطأ هذه الفكرة بما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من تنزيه الله عزّ وجلّ عن إدراك البصر له وتحديد، فهو لا يحويه مكان ولا يخلو منه مكان. أما ما ورد عن الشافعي في هذا فهو يوافق أغلبية الجمهور، وقد نقلوا عنه غير ذلك، وأنه لا يرى هذا الرأي، واتبع في نفي الرؤية لله تعالى أستاذه مسلم بن خالد الزنجي، وإبراهيم الأسلمي، وقد نقل ذلك الهمداني في طبقات المعتزلة. وأن الشافعي لم يصرح بأن الرؤية تكون بالبالصيرة، بل كان يطلق ذلك ويقول: إن الله يراه أولياؤه في الآخرة. والروايات عنه مضطربة، ولكن أصحابه جعلوا رأيه الصحيح هو ما عليه أغلب بقية المذاهب من الرؤية والإدراك بالحواس.

### رأيه في الصفات:

عن يونس بن عبد الأعلى المصري، قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي يقول-وقد سئل عن صفات الله وما ينبغي أن يؤمن به:- لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أمته، لا يسمع أحدا ممن

خلق الله قامت عليه الحجة: أن القرآن نزل به و صح عنه بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فما روى عنه العدل، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو والله كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعدور بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، ونحو ذلك أخبار الله سبحانه وتعالى، أتانا أنه سمع وأن له يدين، بقوله: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ وَأَنْ لَّهُ يَمِينًا وَقَوْلُهُ: وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ وَأَنْ لَّهُ وَجْهًا، بقوله: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ وَقَوْلُهُ: وَيَتَّقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَأَنْ لَّهُ قَدَمًا، بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (حتى يضع الرب فيها قدمه) يعنى جهنم. وأنه يضحك من عبده المؤمن بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- للذي قتل في سبيل الله-: أنه لقي الله وهو يضحك إليه (1) وأنه يهبط كل ليلة إلى سماء الدنيا بخبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأنه ليس بأعور، بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- إذ ذكر الدجال- فقال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم، كما يرون القمر ليلة البدر» وأن له أصبعًا، بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «ما من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل». فإن هذه المعاني التي وصف الله بها نفسه. ووصفه بها رسوله. مما لا تدرك حقيقته بالرؤية والفكر، فلا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد إنهاء الخبر إليه بها. فإن كان الوارد بذلك خبرا يقوم في الفهم مقام المشاهدة في السماع، وجبت الدينونة على سامعه بحقيقته والشهادة عليه، كما عاين وسمع من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. ولكن يثبت هذه الصفات وينفى التشبيه، كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذكره، فقال: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

### رأيه في الإمامة:

كان الشافعي يرى أن الإمامة في قريش، ولا يشترط البيعة. روى عنه تلميذه حرملة أنه قال: كل شيء غلب على الخلافة بالسيف، واجتمع عليه الناس فهو خليفة. فالعبرة عنده في الخلافة بأمرين: كون المتصدي لها قريشياً، واجتماع الناس عليه، سواء أكان الاجتماع سابقاً على إقامته خليفة، كما في حال الانتخاب والبيعة، أم لا حقاً لتنصيبه نفسه خليفة، كحال التغلب، وهذا لا يسمى اجتماعاً. ولم يشترط الهاشمية، بل القرشية كافية. وكان يرى: أن على بن أبي طالب هو

ص: 207



الإمام الحق في عصره، وأن معاوية وأصحابه كانوا الفئة الباغية، ولذلك اتخذ في كتاب السير سنة على عليه السلام في معاملة البغاة، كما هو مدون و ثابت في كتاب الأم وغيره من كتب الشافعية، لذلك اتهم الشافعي بأنه رافضي. كما تقدم بيانه. فهو لا يبالي بأن يظهر حب آل محمد. وإن اعترضت حواجز في طريق إظهار الحب، كما شاءت السياسة بأن يرمى محب أهل البيت بكل تهمة، ويكون عرضة للخطر. و قد أعلن الشافعي ذلك بقوله: إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

و كان يذكر عليا بكل إعجاب و تقدير، و له أشعار في مدحه تأتي في محلها. و سئل يوما عن علي عليه السلام فقال: ما أقول في رجل أخفت أوليائه فضائله خوفا، و أخفت أعدائه حسدا، و شاع له من هذين ما ملأ الخافقين. و أخذ هذا المعنى السيد تاج الدين فقال: لقد كتبت آثار آل محمد محبوبو همو خوفا و أعداؤهم بغضا

فشاع لهم بين الفريقين نبذة بها ملأ الله السماوات و الأرضا

و حكى البيهقي في مناقب الشافعي: أنه قيل إن أناسا لا يصبرون على سماع منقبة لأهل البيت، فإذا أراد أحد أن يذكر شيئا من ذلك قالوا تجاوزوا عن هذا فهو رافضي، فأنشأ الشافعي يقول: إذا في مجلس ذكروا عليا و سبطيه و فاطمة الزكية

يقال تجاوزوا يا قوم هذا فهذا من حديث الرافضيه

برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حب الفاطمية

و سيأتي في باب اتهامه بالتشيع زيادة بيان لهذا. هذا موجز البيان في رأيه في الإمامة. أما رأيه في الخلافة و الخلفاء، فكان يقول: الخلفاء خمسة: أبو بكر، و عمر، و عثمان، و علي، و عمر بن عبد العزيز، أما الباقيون في نظره فهم ملوك.

### رأيه في علم الكلام:

المعروف عن الشافعي أنه كان يبغض علم الكلام و ينهى عنه، حتى ذهب إلى عدم جعل كتب الكلام من كتب العلم، كما حدث الربيع: أن الشافعي كان يقول: لو أن رجلا أوصى بكتبه من العلم و فيها كتب الكلام؛ لم تدخل كتب الكلام في تلك الوصية.

وكان يرى لزوم تعزير أهل الكلام، وضربهم وإهانتهم، وأن يطاف بهم في العشائر. واشتهر عنه أنه كان يقول: إياكم والكلام. وكان يقول: ولئن يتلى الله المرء بكل ما نهى عنه- ما عدا الشرك به- خير من أن ينظر في الكلام. وهذا التشديد من الشافعي يدل على بغضه لعلم الكلام، وعدم الرضا بتعلمه والنظر فيه. وهذا غريب جدا فإن العصر الذي نشأ فيه الشافعي قد نضج فيه الكلام، واتسع نشاط المتكلمين، وأثاروا في المجتمع مسائل كثيرة، وقد كثر النقاش والجدل، وكان لا بد لكل عالم أن يلتمس الدلائل والبراهين الفلسفية، لتقوية جانبه والرد على مخالفيه. وكان لا بد من الانهزام أمام ذلك التيار. إذا لم يكن هناك استعداد وقابلية للمقابلة والرد عند خوض تلك المعارك التي دارت رحاها في عصره. وقد علّل الرازي نهى الشافعي عن علم الكلام وبغضه: بأن المعتزلة قد حرصوا الخلفاء على أذى العلماء، وقد كانوا هم القوامين على هذا العلم، وأن الفتن العظيمة وقعت في ذلك الزمان بسبب خوض الناس في مسألة خلق القرآن، وأهل البدع استعانوا بالسلطان وقهروا أهل الحق، ولم يلتفتوا إلى دلائل المحققين، وتلك الحكايات والواقعات مشهورة، فلما عرف الشافعي أن البحث عن هذا العلم في ذلك الزمان ليس لطلب الحق، وليس لله وفي الله، بل لأجل الدنيا والسلطنة، فلا جرم أنه تركه وأعرض عنه وحرّم من اشتغل به. وفي الواقع أن التعليل بعيد عن الواقع، لأن تلك الأمور التي أشار إليها كانت بعد موت الشافعي، و أن أكثر ما ذكره يحتاج إلى إثبات. وعلى أي حال: فهل كان الشافعي مع نهيه عن علم الكلام على جهل به؟ مع أنا نرى له ما يدل أنه يتعاطاه و يناظر فيه!!! وبهذا نكتفي عن بيان آرائه، و سنعود إن شاء الله تعالى.

### تنبيه:

لم أتعرض لذكر حديث (عالم قریش) الذي استندت إليه الشافعية في البشارة بالشافعي، لأنني كنت مطمئنا من عدم صحة الاستدلال به-إن قلنا بصحته- إذ لا مجال للمغالطة و تضييع الوقت في ذلك، ولكني رأيت الكثير من علماء الشافعية قد

أخذ هذا الحديث بعين الاعتبار، ورتب عليه نتائج تلزم بوجوب اتباع الشافعي. يقول بعضهم: في هذا الحديث (أى حديث عالم قريش) علامة بيّنة، إذا تأمله الناظر المميز علم أن المراد به رجل من قريش ظهر علمه، وانتشر في البلاد، وكتب كما تكتب المصاحف، ودرسه المشايخ والشبان في مجالسهم، وأجروا أقاويله في مجالس الحكام والقراء، وأهل الآثار وغيرهم. وهذه صفة لا نعلمها في أحد غير الشافعي، فهو عالم قريش الأفضل (1). هكذا نظر هذا الإنسان لهذا الحديث، فتلقفها من جاء بعده، فإنهم ينقلون هذه العبارة بالنص، وليس كل إنسان مصيباً في رأيه، فالنظر بصيب وخطئ. وبدون شك أن هذا كان متأثراً بالبيئة التي يعيش فيها والمجتمع الذي يندمج فيه. ولا أريد أن أتحدث عن جميع فقرات هذه الكلمة التي أصبحت كمنهج متبع، ولكني أريد أن اتساءل: هل كانت قريش على درجة من الانحطاط والخمول والجهل ليكون الشافعي حامل لواء نهضتها، ولسانها الناطق، وعالمها الأوحى؟ وهل بلغ الشافعي بعلمه تلك الدرجة التي لم ينالوها، وعرف من غوامض العلوم ما لم يعرفوه؟ وهل كان انتشار علمه عن نفسه لنفسه، أو بمشجع من عوامل لتهيأت لمن هو دونه لكان علمه منتشراً مقبولاً؟ أما الجواب عن هذه الأسئلة فيسير لا عناء في الحصول عليه، لأن التاريخ طافح بتكذيب تلك الادعاءات الكاذبة. وحاشا قريشا- وهم أعلم الناس ومفخرة العرب- أن تمر عليها قرون لا تعرف بالعلم، ولم ينشر لها شيء، إلا بعد أن بعث الشافعي، فبعثها من رقدتها! ونحن إذا أردنا أن نتصدى للرد وتعرض للنقد نخرج عن موضوع البحث. وإن هذا الفهم الذي فهمه ذلك الإنسان وتابعه مقلّادوه. لم يكن فهم عقل وتفكير، بل هو فهم تلقين من ناحية معينة، والحقيقة شيء والعاطفة شيء آخر، لأن العاطفة طاغية تسيطر على العقل فتطفئ شعلته، وتطفئ على الواقع فتضيعه، وتحكم

ص:210

على الفكر بالجمود، ولكن من أين يستطيع الوصول إلى الواقع من كبّلته قيود التقليد، وأثقلته أوزار التعصّب الممقوت؟! أما الحديث الذي أشرنا إليه فهو: عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (اللهم أهد قريشا، فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما). و مع التسليم بصحة هذا الحديث، فإن انطباقه على الشافعي بعيد جدا، لوجود الكثير من علماء قريش ممن له أهلية الاتصاف بذلك، ولكن أكثر علماء الحديث قد ذهبوا إلى وضع هذا الحديث، وقد نص على ذلك ابن أبي الحوت في (أسنى المطالب) والأسفرائيني في سفر السعادة وغيرهما.

## عصر الإمام الشافعي وأحداثه:

### إشارة

يمتد عصر الشافعي من آخر خلافة المنصور المتوفى سنة 158 هـ إلى أول خلافة المأمون، أي من سنة 150 هـ إلى سنة 204 هـ وعلى هذا فقد أدرك الشافعي ثمانين سنين من خلافة المنصور، و خلافة المهدي المتوفى سنة 165 هـ و خلافة الهادي المتوفى سنة 170 هـ و خلافة الرشيد المتوفى سنة 193 هـ و الأمين المقتول سنة 198 هـ. و ستة سنين من خلافة المأمون. ونحن إذا أردنا أن نلاحظ أدوار الدولة العباسية، نجد هذه الفترة من أزهى العصور وأهمّها، وإن كانت لا تخلو من حوادث هامّة، تهدد كيان الدول و تنغص عيش أربابها، ولكن تلك الحوادث كانت هينة بالنسبة لقوة الدولة، عند ما استقر أمرها و تمكن سلطانها، و ازدهرت حياتها في امتداد نفوذها، و اتساع دائرتها. فهي تمتد من الأندلس إلى الممالك التي تصاقب الصين شرقا. و كانت المملكة الإسلامية واسعة الأطراف، و قد أخذت المدن الإسلامية حضارتها في العلم، و التجارة، و الصناعة، و نشطت الحركة العلمية، و اقتبس العلماء من فلسفة اليونان. كما نشطت حركة الترجمة، و انتشر علم الكلام. و قد ساهم الخلفاء بتشجيع تلك الحركة. إلى آخر ما هنالك من عوامل امتياز ذلك العصر، من مظاهر فكرية و اجتماعية و اقتصادية، و في ذلك العصر بلغت الدولة العباسية أوج عظمتها، عند ما استطاعت أن ترغم خصومها على عدم المعارضة، بوسائل البطش و الإرهاب، و استعمال أنواع ألوان التعذيب، و كانت لا تعف عن ارتكاب أشنع وسائل العنف، تحقيقا لسيادتها.

و يكفى أن نستدل على ذلك بما ارتكبه في معاملة العلويين وأنصارهم، و من كانوا يخشون معارضته لسيرتهم الملتوية، و أعمالهم الشاذة، عند ما كبلوا الأمة بقيود جديدة من العبودية، و سلبوا حرية المجتمع، و تلاعبوا بالأموال، و جعلوها وقفا على أنفسهم، و لا ينال منها إلا المتقربون منهم و عامة الناس منها محرومون، و تقننوا بذاك الثراء الطائل في وجوه حياتهم، في الشراب و الطعام، و غير ذلك من وسائل العيش. فكانت حياتهم مضرب المثل في الرغد و السرف و البذخ.

## بذخ الدولة العباسية:

تدفقت الأموال على الدولة العباسية من جميع الأقطار، و امتلأت خزائنها بما يجيبه العمال، بمختلف الطرق و شتى الوسائل، حتى أنهم كانوا يستولون على أموال الناس و أملاكهم بدون حق، لأنهم لا يحاسبون على ذلك من قبل الخليفة. كما حدث المسعودي: عن الرجل الهمداني الذي أراد والي همدان أن يغتصب ضيعته، التي تساوى ألف ألف درهما، فامتنع. فكبّله بالحديد، و حمله إلى المنصور، فأودع في السجن أربعة أعوام لا يسأل عنه، و لا ينظر في أمره (1). كما أن المنصور نفسه كان يأخذ أموال العمال الذين يعزلهم و يجعلها في بيت خاص، و أوصى بتسليمها إليهم بعد موته، و لا نعرف أسباب المنع لها في حياته! و قد جاء في وصيته لولده المهدي: و قد جمعت لك من الأموال ما أن انكسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند و النفقات، و الذرية و مصلحة البعوث، فاحتفظ بها، فإنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا، و ما أظنك تفعل (2). و لا نعلم مقدار هذه الثروة الطائلة، و الوفرة الهائل الذي كنزه المنصور من أموال الأمة الإسلامية، و أبنائها يعانون الحرمان، و يمتنعون من حقهم في بيت مال المسلمين. و لما ولي المهدي (3) و كان عكس أبيه في إنفاق الأموال و الإسراف، فإن

ص:212

1-1 (1) مروج الذهب ج 3 ص 115. [1]

2-2 (2) الكامل لابن الأثير ج 6 ص 6. [2]

3-3 (3) المهدي هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، المتوفى سنة 169 هـ و كان سبب موته أنه خرج إلى الصيد فتبع وحشا، فدخل الوحش خربة و تبعته الكلاب و تبعها المهدي، فدق ظهره في باب الخربة لشدة عدوه فمات لساعته، و قيل أنه أكل طعاما مسموما، و كانت مدة خلافته عشرة سنين و أشهر.

المنصور كان أبخلهم، و فرق المهدي من تلك الأموال التي جمعها المنصور في خزينة الدولة مائة ألف ألف، و ستين ألف درهما، و أعطى شاعرا-مدحه-خمسين ألف ديناراً، و أعطى لأعرابي-سقاء لبنا-خمسمائة ألف (1). و دخل عليه مروان بن حفص، فأشده قصيدة يتعرض بها لآل على عليه السلام منها: هل تطمعون من السماء نجومها بأفكم أو تسترون هلالها

أو تدفعون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية بترائهم فأردتموا إبطالها

فلما سمعها المهدي تراحف من صدر مصلاه، و أخذ الفرح، ثم قال له: كم هي؟ قال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم (2). و اندفع الشعراء بدافع الطمع يمدحون العباسيين، و يضعون من العلويين طلباً للمادة و حبا للصلة، طالما كان صرف الأموال بغير حساب! و مضى عهد المهدي و الهادي (3) و الأموال تتضخم، و جاء دور الرشيد فكان عهده عهد رخاء و سعة إلى أبعد حد، و بالغ الرشيد في البذخ و الترف، و تقنن في حياته حتى بلغ مبلغ الإسراف، و بلغت مظاهر الحياة عنده إلى غايتها، فكان في داره من الجوارى و الخصايا و خدمهن، و خدم زوجته و أخواته، أربعة آلاف جارية. و حضرن عنده يوماً فغنته المطربات منهن، فطرب جدا و أمر بمال فنثر عليهن، و كان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم (4). و غناه مسكين المدني فأطربه، فأمر له بأربعة آلاف دينار (5) و أضحكه ابن مريم فأعطاه ألف دينار. و كانت زوجته زبيدة لا تستطيع أن تقوم لكثرة ما عليها من

ص: 213

1-1 (1) شذرات الذهب ج 1 ص 267. [1]

2-2 (2) الخطيب ج 13 ص 144.

3-3 (3) الهادي هو موسى بن محمد المهدي بن المنصور أبو محمد الهادي، المتوفى سنة 170 هـ كانت مدة خلافته سنة، و يقال في سبب موته: إن أمه الخيزران هي التي تولت قتله بوسادة وضعتها عليه، لأنه أراد قتل أخيه الرشيد و قيل غير ذلك. و كان موسى قاسي القلب جباراً ظالماً.

4-4 (4) تاريخ ابن كثير ج 10 ص 220.

5-5 (5) مروج الذهب ج 3 ص 279. [2]

المجوهرات و الحلل، وقد سلكت في صرف الأموال طريقة الرشيد، فكانت تستهين بالأموال، و لا تحسب لها أى حساب. خرج الرشيد منها يوما يضحك، فسئل عن ذلك فقال: دخلت اليوم على هذه المرأة (يعنى زبيدة) فأقلت عندها فما استيقظت إلا على صوت ذهب يصب، وقالوا هذه ثلاثمائة ألف دينار قدمت من مصر، فقالت: زبيدة هبها لى يا ابن عم. فقلت: هى لك، فما خرجت من عندها حتى عربت علىّ و قالت: أى خير رأيته منك (1). و أهدت لأبى يوسف القاضى لأجل فتوى أفتاها توافق مرادها فكان فيها: حق فضة فيه حقان، فى كل حق لون من الطيب، و جام ذهب فيه دراهم، و جام فضة فيه دنانير، و غلمان و تخوت من ثياب و حمار و بغل (2). و اشترى الرشيد من مسلم بن عبد الله العراقى درة بسبعين ألف دينار، و اشترى فص ياقوت أحمر بثمانين ألف دينار و كان وزنه مثقالا و نصفًا، و كانت بيده سبحة فيها مائة حبة كل حبة اشترت بمائة ألف دينار. و هكذا كانت الأموال تنفق فى البذخ و الإسراف، و توزع بين طبقة خاصة من الناس، و يتنعم بها أفراد قلائل. و قد استغل الولاة هذه الفرصة، فجمعوا الأموال الطائلة، و ادخروا العروض و بنوا الأملاح، و قد ترك سليمان بن جعفر العباسى ستين ألف دينار ما عدا المتاع و الدواب (3) و هكذا غيره من الولاة و الأمراء و من سار فى ركاب الدولة من سائر الناس. على حين أنّ هناك آلاف من المسلمين قد تلاطمت بهم أمواج العسرة، و لعبت بهم عوامل الفقر المدقع، لأن ثروة الأمة و أموال المسلمين أصبحت تحت تصرف الطبقة الحاكمة من نساء و رجال، يتصرفون بها فى لذاتهم بغير مانع و لا رادع، و كانوا يتفننون فى الملابس و المأكّل، فيجلبون لحوم الطيور و لو بعد مكانها، فتأتيهم على البريد و ينفقون على ذلك الأموال الطائلة، ليتنعموا فى المأكّل (4) كما قد جلبت لهم الفواكه من أقصى البلدان. و اتخذوا الأسرّة الذهبية المرصعة بالجوهر، و الحصر المنسوجة بالذهب المكّلة بالدر و الياقوت (5).

ص: 214

1- (1) البداية و النهاية ج 10 ص 219. [1]

2- (2) مروج الذهب ج 3 ص 260. [2]

3- (3) تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 463. [3]

4- (4) ثمار القلوب ج 1 ص 428.

5- (5) ابن خلدون ج 5 ص 106. [4]

وكان شغف نسائهم بالتفنن في ألوان الزينة يبعث على العجب والاستغراب، كما وأنهن اتخذن من الأملاك ما كانت وارداته أكثر من ألف ألف وستمائة ألف دينار. إلى جانب ذلك اتخذهم مجالس الشرب والغناء، وإغداقهم في العطاء على المغنين، حتى أن بعض المغنين الذي كان يغنى لسيدة، أورث ابنا له أربعين ألف ديناراً. وقد جعل الرشيد للمغنين مراتب وطبقات. وكان الأمين لا ينقطع عن الشراب. ووجه إلى جميع البلدان في طلب المغنين، وأجرى لهم الأرزاق. وغناه أحد المغنين فأعطاه أربعين ألف دينار. كما وقد زاد نشاط الجوارى لشغف الخلفاء بهنّ، فكان لهن نفوذ في المملكة وسلطة على الأمر. وكانت لهارون الرشيد جارية تسمى (هيلانة) لها منزلة عنده. فلما ماتت رثاها بأبيات من الشعر، كما رثاها الشعراء تبعاً لرغبته فأجاز بعضهم أربعين ألف دينار (1). هذا في الوقت الذي نجد رجال الأمة وصلحاءها والأحرار من أبنائها يتجرعون غصص الحاجة، وكان نصيب أكثرهم الخوف والتشريد، وظلمة السجون والتعذيب والقتل. كما نجد ألوان العذاب تصبّ على رءوس أهل الخراج من قبل عمال الدولة، ويعاملونهم أسوأ معاملة وأقساها. ولا يسعنا المضي في الموضوع بأكثر من هذا. والغرض الذي سقنا لأجله هذه الأمور، هو إعطاء صورة عن بذخ ذلك العصر، والإسراف الذي بلغ إلى أبعد حد ولم يقتصر ذلك على عصر الرشيد، بل اندفع أحفاده وأولاده إلى التبذير بصورة ربما تكون أوسع وأكبر. فإننا نجد الأمين قد أسرف إلى أبعد حد. وكان المعتصم (2) لا يقل درجة عنه. فقد ترك ثروة طائلة كان منها ثمانية آلاف ألف ديناراً من الذهب، وثمانية عشر ألف ألف درهماً، ومن الخيل ثمانين ألف فرساً، ومن الجمال والبغال مثل ذلك، ومن

ص: 215

1-1) تاريخ ابن كثير ج 10 ص 165.

2-2) هو أبو إسحاق محمّد بن المعتصم بن هارون الرشيد، ثامن خلفائهم، وكان أمياً لا يحسن القراءة، أكثر من استخدام الترك، وكان له من المماليك منهم عشرون ألفاً، توفي في ربيع الأول سنة 227 هـ.



المماليك ثمانية آلاف، و مثلهم من الجوارى (1) وكذلك المتوكل، و الواثق، و قد كان المتوكل ينفق الأموال خاصة في مجالس الشرب، و بناء القصور، و اتخاذ الجوارى. و إنه لمن المؤسف حقا عدم إنكار العلماء الذين نالوا رضا أولئك الملوك و سعدوا بقربهم، و كيف ينتظر منهم الإنكار و قد استخدموهم لمصالحهم الخاصة و أقاموا منهم ستارا تملى من ورائه إرادتهم، و استعانوا بهم في فسح المجال لمؤاخذة الخصوم بالانتقام و الانتقاص، و لو أنهم رفعوا أصواتهم بالإنكار و انضموا لجانب المعارضين لهان الخطب و اعتدل الأمر، سواء من ناحية أحوال العاملين في العلم و الذين يتبوؤن مواقع الإفتاء و الإرشاد، أو من ناحية الحكم، لأن حضور العالم الذي يعرف ما عليه و هو عند الحاكم يجعل الحاكم يراعى و لوقليلا مبادئ العدل و وصايا الإسلام في الرعية، و لقد ضمت مسانيد و صحاح رؤساء المذاهب أحاديث مشهورة جمعت في هذه الفترة، و لم يكن الأمر غريبا على العلم و لا على سيرة العلماء في التصدي للجائرين، فخير الشهداء من قال كلمة حق عند سلطان جائر. لذلك نرى أن تأريخ أهل البيت يثير في نفوس الحكام مشاعر القلق، و سير رجالهم المعاصرين تبعث فيهم الخوف. أضف إلى أن نصيب من انتمى إليهم من العلماء يكون الضيق و السجن، و قد أشرنا إلى وجود العالم عند الحاكم كما هو واقع الحال. أما الإسلام فيدعو إلى احترام العلم و إجلال العلماء من قبل الحكام و العامة، و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يشير إلى هذا الأمر الذي سيحدث لمعالجته، و أن خير الحكام من كان على أبواب العلماء، و شر العلماء من كان على أبواب الحكام. و صفوة القول أن الدولة العباسية قد سارت على طريقة لا تتفق مع نظام الإسلام، مع أنهم قطعوا على أنفسهم عهدا تبعث بمؤاذاها على الارتياح بتحقيق مطالب الأمة، و جعل نفوذهم السياسى يتمشى مع تعاليم الإسلام جنبا إلى جنب، و لكن تلك الجهود ذهبت مع الريح، و كانت أقوالا فارغة و ادعاءات جوفاء. و الذى نود الإشارة إليه هو أن ذاك الوفير و تلك الثروة الطائلة كان أكثره يصرف

ص:216

فى تشجيع معارضة العلويين، و الوقوف أمام نفوذهم، فكانوا يجيزون الشعراء الذين ينالون من العلويين أموالا طائلة. هذا بشار بن برد المعروف بالزندقة و الإلحاد، يتقدم إلى المهدي بأبيات منها: أتى يكون و ليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثه الأعمام

فيجيزه بسبعين ألف درهم. و يقف آخر و هو مروان بن أبى الجنوب، فينشد هذه الأبيات بين يدي الخليفة التي جاء فيها: لكمو تراث محمد و بعدلكم تشقى الظلامه

إلى أن يقول: ما للذين تحلوا ميراثكم إلا الندامة

فيخلع عليه أربع خلع، و ينثر ثلاثة آلاف دينار و يأمر بالتقاطها، و يعطى عشرة آلاف درهم، و يعقد له على ولاية البحرين و اليمامة (1) و كثير من أمثال هذا الشاعر من الذين دفعهم الطمع، و ساقهم الشيطان حبا فى الصلة و رغبة فى المال، و إرضاء للسلطة و إن غضب الله عليهم.

### اضطهاد الدولة العباسية للعلويين:

أما العلويون فكانوا يلاقون أنواع العذاب، و يتجرعون غصص الفاقة، و يتحملون كل ذلك اعتزازا بأنفسهم و حفظا لكرامتهم، و لم يخضعوا يوما لينالوا من ذلك النعيم أو يهنأوا بذلك العيش. فكان نصيب زعمائهم القتل و السجن و التشريد، و كانوا بين آونة و أخرى عرضة لصدور الأمر من عاصمة الملك بتسفيرهم من الأطراف و إليها، ليكونوا تحت الرقابة و ينالوا العقاب هناك، و يصدر مرسوم من بغداد إلى مصر بأن لا يقبل علوى ضيعة، و لا يركب فرسا، و لا يسافر من الفسطاط أو إلى طرف من أطرافها، و أن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، و إن كانت بين علوى و بين أحد من الناس خصومة، فلا يقبل قول العلوى، و يقبل قول خصمه بدون بيّنة (2).

ص: 217

[1-1] الكامل ج 7 ص 38. [1]

[2-2] الولاة و القضاة للكندى ص 198. [2]

و أمر الرشيد عامله على المدينة بأن يضمن العلويون بعضهم بعضاً، وكانوا يعرضون على السلطات كل يوم فمن غاب منهم عوقب، و كانت هذه الأوامر تصدر من المهدي و الهادي قبله. و ما زال آل أبي طالب يكفل بعضهم بعضاً و يعرضون، فغاب أحدهم عن العرض، فطولب به الحسين صاحب (فخ) و يحيى بن عبد الله كافليه، و أغلظ الوالي لهما فحلف يحيى أنه يأتيه به من ليلته، أو يدق عليه الباب يؤذنه به، و ذلك إشارة للخروج و إعلان الثورة التي كان من المقرر القيام بها أيام الموسم، و لكن سوء معاملة الوالي أعجلهم على الخروج في تلك الليلة، و اقتحموا المسجد و أعلنوا الثورة، و بايع الناس الحسين المعروف بصاحب فخ و لقبوه بالمرتضى.

## الحسين صاحب فخ:

هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام (1). كانت نهضته سنة 169 هـ، و كان الحسين من رجال بني هاشم و ساداتهم، و كان ممن روى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام و له منزلة علمية، و كانت أسباب نهضته: أنه لقي عنتاً من والي المدينة، و هو عبد العزيز بن عبد الله من ذرية عمر بن الخطاب، و كان العمري يسىء إلى الطالبين، و أفرط في التحامل عليهم، و طالبهم بالعرض في كل يوم، فكانوا يعرضون في المقصورة، و أخذ كل واحد منهم بكفالة قرينه و نسيبه. و اشتد العمري في أمر العرض، و ولى علي الطالبين رجلاً- يعرف بعيسى الحائك، فحبسهم في المقصورة. إلى آخر ما كان يعاملهم به ذلك الرجل. فثار آل أبي طالب، و اجتمع إليهم ناس كثيرون. فتحصن منهم عاملها، فكسروا السجون و أخرجوا من كان بها، و بويع الحسين بن علي بن الحسن عليه السلام و عظم شأنه، و بقي الحسين واحداً و عشرين يوماً في المدينة، و ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج، فجهز إليه الهادي جيشاً فالتقوا بموضع يقال له (فخ) بين مكة و المدينة، فقتل الحسين و معه جماعة من العلويين (2) و حمل رأس الحسين إلى القائد العباسي،

ص: 218

---

1-1) تاريخ هذا الحادث في مقاتل الطالبين ص 288-308. و [1] الفخرى ص 172. و [2] الطبرى و ابن كثير في حوادث سنة 169 هـ.  
2-2) الآداب السلطانية 172. و [3] تاريخ ابن كثير ج 1 ص 157. و الكامل ج 6 ص 26. [4]

حمله رجل خراسانى و هو ينادى بالبشارة، حتى ألقى الرأس بين يديه، و هو مضروب على الجبهة و القفى، فجمعت رءوس القتلى فكانت مائة و نيفا (1) و أفلت إدريس بن عبد الله، فأتى مصر و على بريدها أفلح مولى صالح بن منصور، فحمله إلى المغرب فبايعه الناس و أسس هناك دولة (2). حدث أبو القراء قال: أرسلنى موسى بن عيسى (قائد الجيش) فقال: اذهب إلى عسكر الحسين حتى تراه و تخبرنى بكل ما رأيت. فذهبت فدرت، فما رأيت خللا و لا فللا، و لا رأيت إلا مصليا أو مبتهلا أو ناظرا فى مصحف أو معدا لسلاح، قال فجننت فقلت: ما أظن القوم إلا منصورين. فقال: و كيف؟ قال: فأخبرته. فضرب يدا على يد، و بكى حتى ظننت أنه سينصرف، ثم قال: هم و الله أكرم خلق الله و أحق بما فى أيدينا منا. كان هذا الحادث من أهم الحوادث التى شغلت بال الدولة، و أقصت مضاجع ذوى الأمر، لأنها كانت فى أهم مركز إسلامى و هو الحجاز. لذلك أسرع الهادى فى مقاومة تلك الحركة خوفا من اتساعها فى البلاد الإسلامية. و تتابعت ثورات العلويين غضبا للحق، و من أهمها-أيضا- ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى الديلم، و قد قويت شوكته، فاحتال الرشيد عليه بإعطائه الأمان، و نقضه بعد ذلك، فسجنه و ضيق عليه إلى أن مات فى السجن، و وجد جسده معلقا قد سمّرت يداه. و مضى العباسيون فى سفك دماء العلويين، و شرّدهم فى البلاد بدون رحمة و لا وازع دينى. و على أى حال فقد كان مجتمع ذلك العصر يموج بعناصر مختلفة، و كانت بغداد هى موطن الحكم و عاصمة المملكة، و حاضرة العالم الإسلامى، و قد قصدها كثير من علماء اليونان و الفرس و الهنود، و نقلت كتب الفلسفة إلى العربية. و ظهر علم الكلام و نضج، فكثرت حلقات الجدل و الخصومات، و ظهرت آراء شاذة، و عقائد فاسدة أثرت على عقول من لا تقوى نفوسهم على هضمها و احتمالها، فكانت هناك فوضى فكرية و اضطرابا و حيرة. و نشطت هنالك حركة المتدائلين فى الإسلام، لبثّ

ص: 219

1-1 (1) تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 457. [1]

2-2 (2) نفس المصدر. [2]

تلك الآراء التي يأملون من ورائها القضاة على العقيدة الإسلامية، أو إثارة فتن بين المجتمع الإسلامي على الأقل. وقد نبغ رجال من علماء المسلمين في علم الكلام، وعرفوا بقوة المناظرة والتفوق في الحجّة، وعقدت المجالس والحلقات للمناظرة دفاعاً عن المبادئ الصحيحة والعقائد الإسلامية، وقابلوا تلك النزعات التي نشرت لواء الشك في عقائد ذلك المجتمع، وكان النصر لمن قرّبهم الخلفاء وأدّوا مجالسهم وفتحوا لهم باب قصورهم، أما الذين لم يكونوا كذلك فترد أقوالهم ولا يصغى لما يدلون به من الحجاج، وما يقيمونه من الأدلّة القوية ذوداً عن الإسلام وذبّاً عن حياضه. وأستطيع أن أوكد أن تلك الحركات الفكرية كانت لها صلة وثيقة بالسياسة، وهي التي تدير كفتها لتلعب دورها من وراء الستار. وكانت هذه الناحية وذلك التطور في الآراء والعقائد من أخطر العوامل التي نجم من ورائها التفكك في المجتمع، وتكوين جماعات تختلف في الآراء، وكلّ يذهب إلى أن الحق في جانبه دون غيره.

### الزندقة في عرف العباسيين:

و من المشاكل ذات الخطورة في ذلك العصر، مشكلة ظهور الزنادقة وانتشارهم. وأهم من ذلك هو أن تشخيص الزنديق بطابعه الخاص، الذي يكشف عن شخصيته، لم يكن واضحاً عند ما أصبح انطباق هذه اللفظة على معانٍ مختلفة، لأن الاتهام بالزندقة كان لأسباب سياسية، عندها اتخذها الخلفاء وسيلة للقضاء على خصومهم، بل كان هناك من الوزراء من يتخذون من الاتهام بالزندقة سبيلاً للكيد والوقيعة بنظرائهم الذين يحقدون عليهم. لذلك أصبح لفظ الزنديق لفظاً مشتركاً غامضاً، فأطلق على معانٍ مختلفة بعد أن كان يطلق على من يؤمن بالمانوية ويثبت أصليين أزليين للعالم: هما النور، والظلمة. وهذا المعنى هو المطلوب أولاً وبالذات، ثم اتسع المعنى حتى أطلق على كل صاحب بدعة وكل ملحد، بل انتهى به الأمر أخيراً إلى أن يطلق على من يكون مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة، أو حتى من كان يحيى حياة المجون!!!. كان شريك بن عبد الله القاضي لا يرى الصلاة خلف المهدي، فأحضره

و تكلم معه، فقال له المهدي في جملة كلامه: يا ابن الزانية! فقال شريك: مه مه يا أمير المؤمنين، فلقد كانت صوامع قوامه. فقال له المهدي: يا زنديق لأفتلنك. فضحك شريك وقال: يا أمير المؤمنين، إن للزندقة علامات يعرفون بها: شربهم القهوات و اتخاذهم القينات. فأطرق المهدي (1). ففرى أن المهدي كان يطلق كلمة زنديق على من لم يعترف بخلافته أو عدالته، و ما أكثر الذين يذهبون لذلك من رجال الأمة و علمائها، كما أن شريكا القاضي أطلق لفظ الزندقة على من كان يحيى حياة المجون، و إن من أوضح الأمور انطباق ذلك على المهدي نفسه، فهو الشخص الوحيد الذي يمثل دور المجون و الاستهتار، فأطلق عليه شريك لفظ الزندقة بالتلميح. و كذلك أطلق لفظ الزندقة على من يناقض أحاديث الصحابة أو يردّها لعدم صحتها (2) و كذلك أطلق لفظ الزندقة على المفكرين الذين يقفون أمام الحوادث التاريخية موقف تثبت، لاستجلاء الواقع و معرفة الحقيقة. فالأمر الذي يتعلّق بالبحث حول بعض الصحابة و ما صدر منهم قد أصبح محظورا، فلا يمكن إلا التسليم بصحة ما صدر منهم- و إن خالف الشرع- لأن البحث عن ذلك أمر يستوجب الاتهام بالزندقة، و ليس وراء ذلك إلاّ السيف. حتى أصبح ذلك من القواعد المقررة المعمول بها طبقا لإرادة الدولة، و تلك القاعدة هي: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم فاعلم أنّه زنديق (3). يقول الدكتور أحمد أمين: (إن الاضطهاد و الرمي بالزندقة عنوان الشخصية. فالرجل إن كان ضعيف الهمة، فائل الرأي، أو ذا رأى و لكنه ملق، يكلم كل إنسان بما يحب فلم يضطهد؛ و إذا كان يسير في العلم حسب رأى الأغلبية، و يرى من النظريات و القواعد و التعاليم ما يراه الناس في عصره فلم يضطهد. إنما يضطهد القوى في الرأي، لا يتنزل عنه لسلطان أو أمير، المستقل الفكر، يؤديه فكره إلى نتائج قد يخالف

ص: 221

1-1 (1) ابن كثير ج 10 ص 153. [1]

2-2 (2) تاريخ بغداد ج 14 ص 7.

3-3 (3) الكفاية للخطيب البغدادي ص 49.

فيها أهل عصره جميعاً، فلا يعاب بمخالفتهم ولا يابى لنقدهم. . . إذ ذاك يكون الاضطهاد وتكون الحرب العوان بين الآراء، فيقف ذو الشخصية وأتباعه القليلون في جانب، وذو الجاه والسلطان أحياناً في جانب آخر، ويكون النضال، وتكون الدسائس والمؤامرات، وما شئت من صنوف القتال؟). فهذه الأسباب كان الاتهام على الزندقة لأقل شبهة، وقد سجل التاريخ كثيراً من تلك الحوادث التي كان مبعثها الحقد والانتقام والتشفى. وصفوة القول: أن تلك الحملة على الزنادقة لو تجردت عن تلك الزوائد لكان أثرها أكثر نفعاً لتطهير المجتمع الإسلامي من أولئك نفر الذين لعبوا دوراً هاماً في نشر الخرافات والأساطير، والتحليل من قيود الشريعة الإسلامية ممن هم زنادقة فعلاً، عند ما وجد أكثرهم طريقاً يسلكون فيه، وكان منهم ذوو مكانة في الدولة: كمطيع بن إياس، وابن المقفع، وابن أبي العوجاء. وقد وضعوا حوادث وأحاديث يقصدون بها إفساد الرأي العام؛ وعند ما قدم ابن أبي العوجاء للقتل قال: (أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيه الحلال وأحل فيه الحرام، والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم) كما أنهم وضعوا كثيراً من القصص في المجون والهزل، وخلقوا شخصيات لا وجود لها، واخترعوا حوادث لا واقع لها، كما أنهم ترجموا كتب الزنادقة ونشروها في المجتمع للتضليل والخداع وقد قام جماعة منهم - وعلى رأسهم سيف بن عمرو - بالدس الشائن في تاريخ الإسلام فحوروا وبدلوا واخترعوا، وقد اشتهر كتاب الردة لسيف بن عمرو، وأصبح مصدراً لكثير من المؤرخين. وسيف هو رأس الزنادقة والكذابين كما نص عليه علماء الرجال و اشتهر عنه ذلك. وكيف كان فإن وضعهم سيئ وأثرهم في المجتمع أسوأ، وكما قلنا فإن لفظ الزندقة أو الاتهام بها لم يكن دقيقاً، فقد اتهم أبرياء، وقتل صلحاء تحت غبار هذه الحملة، وأطلقت هذه اللفظة على بعض من لم يصح أن يكون موضوعاً لمحمولها و لكن ذلك كان لأسباب سياسية أو أغراض انتقامية كما قدّمنا. وقد اعتمد عليها أكثر الباحثين فلم يكلفوا أنفسهم بالبحث عن الحقائق لمعرفة الأسباب. والوقوف على العوامل التي دعت إلى اتهام الكثيرين من رجال الأمة و صلحائها بالزندقة، والحكم عليهم بدون مبرر، لأن تلك اللفظة قد اتسع معناها إلى

حد لا يسمح بتحديدته تحديدا دقيقا. وأصبح الزنديق الواقعي آمنا إن أمنت السلطة سطوته. وهذا ما حمل الكثيرين من الكتّاب على إيجاد رابطة بين الزندقة وبين التحرر الفكرى و النقد للأوضاع، ذهولا منهم عن التوصل إلى الحقيقة، وقصورا عن معرفة الأسباب، التي جعلت الانتساب إلى التشيع دليلا على الزندقة، وداعيا إلى الاتهام بها، ولا شىء هناك إلاّ عدم ارتباط العقائد بالدولة، وإن انفصالهم الروحى و عدم امتزاجهم بالسلطان و أعوانه لأ-كبر دليل على الاستهانة بتوجيه الأسباب التي توجب اتهامهم بذلك. و أهم شىء اتهامهم بسبب الشيخين، فإن هذه التهمة هي فوق جريمة الإلحاد، فإن المتهم بالزندقة تقبل توبته، أما المتهم بهذه التهمة فلا تقبل توبته، ويحكم بكفره و إلحاده مع إيمانه بالله و رسوله و إقامة الفرائض، و لكن للسياسة حكم فوق ما يثبتته الواقع و يقوّه الحق، إذ هي عمياء لا تبصر، و لهذه المشاكل كان ذلك العصر يموج بحوادث لها أهميتها فى تاريخ الإسلام.

### نشاط العلماء و تأييد الدولة:

و كان من أهم مظاهر ذلك العصر انصراف علماء الإسلام إلى دراسة العلوم المختلفة، كما اتسعت حركة التأليف، و زاد نشاط العلماء فى تدوين علوم الإسلام، ورتبوا أبواب الفقه و أنواع الحديث. و كان الخلفاء-مع انغماسهم فى الشهوات و الترف و ارتكابهم المحرمات- يتظاهرون بخدمة العلماء، و يتحلون بالنزعة الدينية، و بهذا تمكنوا من استخدام رجال منهم وسيلة لتوطيد استبدادهم، و ذريعة لإخضاع العامة لهم، و أنهم ملزمون بإطاعة السلطان إطاعة عمياء، و أن تصرفه لا يجوز الاعتراض عليه، و إن انحرف عن حدود طاعة الله؛ و بهذا وقع تطور أوجد مشاكل خطيرة، فكانت فى ذلك العصر للفقهاء و المحدثين درجات عالية عند الخلفاء، و قد كثر الجدل و النقاش فى أهم المسائل الفقهية، كما كثر فى العقائد و المسائل الكلامية. كما و قد اشتدت قضية أهل الرأى و أهل الحديث، و أصبح لكل جانب أنصار، و هم يقيمون الحجج و البراهين على ما يذهبون إليه. إلى غير ذلك من مميزات ذلك العصر الذى نشأ فيه الشافعى. كما و قد أثرت هناك مسائل كثيرة تتعلق بالتوحيد و بالصفات. و رؤية الله بالابصار، و غيرها من المسائل ذات الأهمية فى ذلك العصر. كالبحث حول الحديث



وصحّته، والاجتماع وكيفية الاستدلال به. ولقد جاء عن الشافعي في كتاب الأم أنّه ناظر في كثير من هذه المسائل، وقد كانت طريقة الشافعي في النقل عن كثير من المناظرات، نقل الحجّة عن لسان واحد بدون تعيين، ولعل ذلك طريقة علمية للتوصل إلى إيضاح الأمر وبيانه.

### الخلاصة:

والخلاصة؛ أن العصر الذي نشأ فيه الشافعي كان أزهر العصور من جهة، و من جهة أخرى كان عصر مشاكل للأمم عند ما استبد ولاة الأمر بأمر المسلمين، فاستأثروا بالأموال، و تحكّموا بالرقاب، و خالفوا حدود الله مع ادعائهم-الأجوف-بالمحافظة عليها، وقد تجاوزوا الحد في تعدى حدود الله و مخالفة أحكامه؛ حتى لقد استعملوا في معاملة الرعية أشد أنواع التعسف و الجور، الأمر الذي دعا رجال الإصلاح و المحافظين على نوااميس الإسلام إلى متابعة الإنكار و رفع أصواتهم بالمؤاخذه، فكان نصيبهم القتل و التشريد و ظلمة السجون. وقد أدى ذلك الظلم إلى عواقب و خيمة، كان من ورائها عدم استقرار الأمر و ضياع الحق، و قد حاولنا أن نلمس موقف الشافعي وسط ذلك المعترك، و مواجهته تلك الأوضاع الشاذة، و هو ذلك الرجل الطموح الذي كان يتحسّس إلى النهوض في وجه الظلم، بانضمامه لجانب العلويين كما نقل عنه. فإننا لم نجد للشافعي موقفا يدلنا بصراحة على إنكاره للأوضاع، و لعل قضية اتهامه بذلك حالت بينه و بين نشاطه و شعوره المتوقع، هذا إن كان لقضية الاتهام أصل، و إلا فلا شيء يدل على أي أثر هناك، لأن القضية مكذوبة و لا أصل لها. و لا تهمنا هذه الجهة، و لكن يهمنا معرفة تأثيره بطابع ذلك العصر، من حيث النشاط العلمي، و التقدم بين أقرانه، لما اتصف به من ذكاء و فطنة. و نحن عند ما ندرس تلك الجهة عن طريق المعجبين به نجد أن له نشاطا عظيما و تقدما فائقا يوم كان ببغداد. و لكن هناك أيضا من ينفي هذا و يصفه بالانسحاب عن ميدان المقابلة لعلماء عصره، و يجعل ذلك سببا لخروجه إلى مصر. يقول البراز: كان الشافعي (رض) بالعراق يصنّف الكتب، و أصحاب محمّد (أي الشيباني) يكسرون عليه أقاويله بالحجج و يضعفون أقواله، و قد ضيّقوا عليه،

وأصحاب الحديث أيضا لا يلتفتون إلى قوله، ويرمونه بالاعتزال. فلما لم يقم له بالعراق سوق خرج إلى مصر، ولم يكن فقيه معلوم، فقام بها سوقه (1). ويقول أيضا: عن علي بن حسين الرّازي قال: اجتمع في عرس هو وسفيان بن سحبان، وفرقد، وعيسى بن أبان، وأخذوا في مسألة غامضة وفيهم الشّافعي، فدخل في نكتة من المسألة غامضة، فظن الإمام الشّافعي أنّه فطن للمسألة. ولم يكن ذلك، فجرّه سفيان إلى أغمض منها حتى تحيّر، ولم يتهيا له الكلام، فحكى ذلك لمحمّد فقال: ارفقوا به فإنه جالسنا وصحبنا، ولا تفعلوا به هذا (2). أما الأولون، فقد وصفوه بأنه قد أحدث في بغداد تغييرا محسوسا، وقد ثقل مقامه على أهل الرأي، لأنه كان ينتصر لمذهب أستاذه مالك، ويدفع عنه، وحوّل أكثر المبرزين منهم إلى حلقتة. حدث الفضل الزجاج فقال: لما قدم الشّافعي إلى بغداد سنة 195 هـ وكان في الجامع إماما نيف وأربعون حلقة، أو خمسون حلقة. فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله وقال الرسول. وهم يقولون: قال أصحابنا. حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره (3). ومعنى هذا أن الدراسة توحّدت للشّافعي، ولم يبق لأهل الرأي مجال لمقابلة ذلك النشاط الذي لقيه الشّافعي. وهذا أمر موكول إلى صحة أحد القولين، ولا مجال لنا في تأييد جانب دون آخر؛ على أننا لا ننكر منزلة الشّافعي العلمية، كما لا ننكر مقابلته لأهل الرأي، مع أننا نعلم أنه أخذ أكثر معلوماته عن محمّد بن الحسن الشيباني. وعلى أي حال: فإن أكثر الروايات حول الشّافعي مضطربة-كما قدمت-ولكن مقتضى شرطنا في هذه الدراسة التعرّض لكثير من ذلك، ولنا الحق في المناقشة، وقد رأينا ترك هذا الموضوع، ونريد أن نلتحق بركب صاحبنا لمعرفة أخباره، وأكثرها كانت في مصر، ولناخذ على ضوئها صورة عن طابع شخصيته.

ص: 225

1-1) المناقب للبيهقي ج 2 ص 153.

2-2) نفس المصدر ج 2 ص 150.

3-3) تاريخ بغداد ج 2 ص 68-69. [1]

نشأ الشافعي يتيماً في حجر أمه، وقدمت به مكة خوفاً عليه من الضيعة، و ليتلقى دراسته، فاستقبل عهد دراسته على خالد الزنجي و مالك، و كان بطبيعة الحال شديد الحاجة إلى ما يساعده على مواصلة دراسته، لأنه كان فقيراً لا يجد ثمن القرطاس الذي يكتب عليه دروسه، فكان يتعوض عنه بأكتاف الغنم. و قد ساعده مالك بن أنس لسعة حاله، و بعد وفاة مالك التجأ إلى الوساطة لأن يلي عملاً للدولة، ليستعين به على زمانه. فعين في اليمن، و حمل منها أو من مكة إلى بغداد بتهمة التشيع أو غير ذلك. و كانت بغداد في عنفوان نهضتها العلمية و حركتها الثقافية، و اتجاهاها الفكرى إلى مختلف العلوم. و كان الفقهاء في ذلك العصر قد انقسموا إلى أهل رأى يعتمدون في نهضتهم على سرعة أفهامهم، و نفاذ عقولهم، و قوتهم في الجدل. و أهل حديث يعتمدون على السنن و الآثار، و لا يأخذون من الرأى إلا ما تدعو إليه الضرورة. و كان الشافعي قد تفقه على أهل الحديث من علماء مكة، و على مالك من علماء المدينة. و كان يعترف لمالك بالفضل و المنة فكان يقول: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، ما أحد أمنّ عليّ من مالك بن أنس. و لما ذهب إلى العراق استرعى نظره تحامل أهل الرأى على أستاذة و المنعم عليه مالك بن أنس و على مذهبه. و كان أهل الرأى أقوى سنداً و أعظم جاهاً بما لهم من المكانة عند الخلفاء، و بتوليّتهم شئون القضاء، ذلك لأنهم أوسع حيلة في الجدل من أهل الحديث و أنفذ بياناً (1). و قد وقعت لكثير من الخلفاء و غيرهم مشاكل، فكان لها مخرج عند أهل الرأى، لذا كانت منزلتهم في الدولة أعظم من غيرهم. و كان الشافعي قد لازم محمّد بن الحسن عند قدومه العراق، و درس كتبه و أخذ عنه الشىء الكثير، و اطلع على كتب فقهاء العراق، فأضاف ذلك إلى ما عنده من طريقة أهل الحديث. و عاد الشافعي من العراق إلى الحجاز، و استمر بمكة يواصل استفادته من الوافدين إلى مكة من علماء الأمصار، و اختلط بهم، ثم عاد إلى العراق مرة ثانية سنة

ص: 226

195 هـ في خلافة الأمين، وهناك أملى على من النّف حولته كتبه التي كتبها في مذهبه في العراق- وهو المعروف بمذهبه القديم- وقد رجع عن ذلك عند ما نزل في مصر و حرم الرواية لذلك عنه، و كان نزوله في هذه القدمة على محمّد بن أبي الحسن الزيادي، و مقامه هناك سستان. و قد توفي محمّد بن الحسن، و قام مقامه- من أصحاب أبي حنيفة- الحسن بن زياد اللؤلؤي، ثم عاد إلى الحجاز. و في سنة 198 هـ قدم العراق قدمته الثالثة، فأقام هناك أشهراً، و من العراق سافر إلى مصر فنزل في الفسطاط ضيفاً كريماً على عبد الله بن عبد الحكم. كانت الأسباب التي حملت الشافعي للرحيل إلى مصر كثيرة مختلفة، فبعض يقول: أنّه كان يتشوق إلى مصر دائماً، ورووا له في ذلك شعراً: أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر و من دونها قطع المهامة و القفر

فو الله ما أدري أ للفوز و الغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر

(1)؟ و هذه الأبيات تنسب إلى الحسن بن هاني و هو المعروف بأبي نواس، و أن الشافعي تمثل بها، ذكر ذلك أبو بكر أحمد بن محمّد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب البلدان. و قيل: إنه قدم مصر رغبة منه في معارضة انتشار أقوال أبي حنيفة و مالك، كما حدّث الربيع قال: سألت الشافعي عن أهل مصر. فقلت: هم فرقتان فرقة مالت إلى قول مالك و ناضلت عليه، و فرقة مالت إلى قول أبي حنيفة و ناضلت عليه. فقال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله، فأتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين. فهو إذ ذاك سلك طريقاً وسطاً، فلم يكن على رأي مالك في الحديث و تشدده، و لا كأصحاب الرأي يتساهلون في الحديث و يكتفون بشهرته، و يقدّمون القياس على خبر الآحاد و إن صحّ سنده. فانتقد مالكا لأنه ترك أحياناً حديثاً صحيحاً، لقول واحد من الصحابة أو التابعين، أو لرأى نفسه. و كان أشد نقداً لمالك قد وجهه الشافعي، أنّه ترك قول ابن عباس إلى قول عكرمة في مسألة، مع أن مالكا كان يسيء القول في عكرمة.

ص: 227

و كان قدوم الشافعي لمصر، وقد انتشر مذهب مالك و تركزت دعائمه على أيدي تلامذته، الذين كان لهم في مصر مكانة عظيمة، فأصبح اعتقاد الناس في مالك عظيما، و يقدّمون قوله على السنّة إذ يقال لهم: قال رسول الله. فيقولون: قال مالك. و كانت له قلنسوة يستسقون بها، و قد غلوا بكتابه غلوا عظيما حتى قالوا: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك. و في لفظ آخر: ما على الأرض كتاب أقرب إلى القرآن من كتاب مالك. و نزل الشافعي ضيفا كريما على محمّد بن عبد الله بن عبد الحكم، و كان من أكبر أنصار مذهب مالك، و كانت له مكانة و رئاسة، و كان أهل مصر لا يعدلون به أحدا، فأكرم مثنوى الشافعي و وازره، و تأكدت بينهما مودة و إخاء. و قد عرف الشافعي بأنه تلميذ مالك و ناصر مذهبه و المدافع عنه، و كان هذا أحد الأسباب التي هيأت النجاح للشافعي. يضاف إلى ذلك أنه قدم مصر مزودا بتوصية من خليفة العصر إلى أمير مصر، أو أنه جاء بصحبته على ما في القضية من اختلاف الأسباب. يقول ابن حجر: إن الرشيد سأل الشافعي أن يوليه القضاء فامتنع، فقال: سل حاجتك. قال: حاجتي أن أعطي من سهم ذوى القربى بمصر و أخرج إليها. ففعل ذلك و كتب له إلى أميرها (1). و قيل: إنّه خرج إلى مصر مع أميرها العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى العباسي، و كان العباس هذا خليفة أبيه على مصر، و قد صحبه جماعة من أعيان أهل مصر، كبنى عبد الحكم، و الربيع بن سليمان، و ذلك بعد وفاة الرشيد سنة 199 هـ. فكان الشافعي موضع عناية أصحاب مالك، لأنه من أشهر تلاميذه و المناصرين له فوازروه، و أخذ الشافعي في نشر مذهبه الجديد. و وضع الكتب في الرد على مالك و معارضة أقواله. قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: قدمت مصر و لا أعرف أن مالكا يخالف من أحاديثه إلا ستة عشر حديثا، فنظرته فإذا هو يقول بالأصل و يدع الفرع، و يقول بالفرع و يدع الأصل. ثم ذكر الشافعي في رده على مالك، المسائل التي ترك الأخبار

ص: 228

الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة، أو بقول واحد من التابعين أو لرأى نفسه. وذكر الساجي: أن الشافعي إنما وضع الكتب على مالك بسبب أنه بلغه أن قلنوسة لمالك يستسقى بها، وكان يقال لهم: قال رسول الله. فيقولون: قال مالك. فقال الشافعي: إنما مالك بشر يخطئ. فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه، وكان يقول: استخرت الله في ذلك مدة سنة. وقال أبو عمر: وتكلم في مالك أيضا فيما ذكره الساجي في كتاب العلل، عبد العزيز بن أبي سلمة، وعبد الرحمن بن زيد، وعابوا أشياء من مذهبه. إلى أن يقول وتعامل عليه الشافعي وبعض أصحاب أبي حنيفة في شيء من رأيه حسدا لموضع إمامته (1). فهو قد جعل رد الشافعي على مالك تحاملا عليه وحسدا له، ولما وضع الكتاب على مالك تعصب المالكية عليه وسعوا به عند السلطان وقالوا له: أخرجه وإلا افتتن به البلد. فأتاه الشافعي فكلمه فامتنع الوالي وقال: إن هؤلاء كرهوك وأخشى الفتنة. فقال له الشافعي: أجلنى ثلاثة أيام. فمات الوالي فيها (2). وقال ياقوت: كان بمصر من أصحاب مالك رجل يقال له: فتيان، فيه حدة وطيش، وكان يناظر الشافعي كثيرا ويجتمع الناس عليهما، فتناظرا في مسألة بيع الحر - وهو العبد المرهون - إذا أعتقه الراهن ولا مال له غيره، فأجاب الشافعي بجواز بيعه على أحد أقواله، ومنع فتيان منه. . . فضاق فتيان بذلك ذرعا، فشتم الشافعي شتما قبيحا. فلم يرد عليه الشافعي فرفع ذلك رافع إلى السرى (الوالي) فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه، فأخبره بما جرى وشهد الشهود على فتيان بذلك، فقال السرى: لو شهد آخر مثل الشافعي على فتيان لضربت عنقه، وأمر بفتيان، فضرب بالسياط وطيغ به على جمل، وبين يديه مناد ينادى: هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم إن قوما تعصبوا لفتيان، من سفهاء الناس، وقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه وبقي وحده، فهجموا عليه وضربوه فحمل إلى منزله، فلم يزل فيه عليلا حتى مات (3).

ص: 229

1-1 (1) جامع بيان العلم وفضله. [1]

2-2 (2) توالى التأسيس ص 84.

3-3 (3) معجم الأدباء ج 17 ص 223. [2]

إن هذه الرواية تدل على أن سبب موت الشافعي هو ذلك الضرب المنبعث عن التعصب، وقد نصّ ابن حجر على أنّهم ضربوه بمفتاح حديد فمات (1) بعد ذلك الضرب بقليل، كما جاء في رثاء الشافعي: قال ابن حجر عند ذكره لهذا الحادث: وقد ضمن ذلك شيخ شيوخنا أبو حيان في قصيدته التي مدح بها الشافعي، ثم ذكر القصيدة. ونذكر منها محل الشاهد: ولما أتى مصر انبرى لأذائه أناس طووا كشحا على بغضه طيا

أتى ناقدا ما حصلوه و هادما لما أصلوا إذ كان بنيانهم و هيا

فدسّوا عليه عند ما انفردوا به شقيا لهم شل الإله له اليديا

فشج بمفتاح الحديد جبينه فراح قتيلا لا بواك و لا نعي

نعم قد نعاه الدين و العلم و الحجا و ترداد صوت في الدجا يسرد الوحيا

(2) فالشافعي إذا ذهب ضحية التعصب من المالكية، لأنه كان يعارض أقوال مالك و يرد عليه، و قد وضع كتابا في ذلك، كما وضع كتابا في الرد على أبي حنيفة (3).

### مذهبه الجديد:

و كيف كان فقد جاء الشافعي بمذهبه الجديد، و كان قد درس المذهبين: مذهب أهل الرأي و مذهب أهل الحديث، و قد لاحظ ما فيهما من نقص، فبدا له أن يكمل ذلك النقص، و أخذ ينقض بعض التعريفات من ناحية خروجها من متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط، و ذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاهها جديدا، الذي لا يكاد يعنى بالجزئيات و الفروع. و لعل خير ما يلخص مسلكه في منحاه الاجتهادى هو أنّه قال: الأصل قرآن و سنّة، فإن لم يكن فقياس عليهما، و إذا اتصل الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و صح الإسناد عنه فهو سنّة، و الإجماع أكبر من الخبر المفرد، و الحديث على ظاهره، و ما احتمل معانى فما اشتبه منها ظاهر أو لاها به، و إذا تكافأت الأحاديث فأصحّها إسنادا أو لاها، و ليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب، و لا يقاس أصل على أصل،

ص: 230

1-1 (1) توالى التأسيس ص 86.

2-2 (2) توالى التأسيس ص 87.

3-3 (3) أنكر بعضهم على الخزرجى قوله فى الخلاصة ص 279-: أن الشافعي مات شهيدا سنة 204 هـ. لعدم وقوفه على المصادر التى تنص على ذلك.

و لا يقال للأصل لم وكيف. وإنما يقال للفرع لم، فإذا صح قياسه صح وقامت به الحجة. فهو بهذه الخطة الجديدة قد هاجم مالكا، لتركه الأحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو لرأى نفسه. و هاجم أبا حنيفة وأصحابه، لأنهم يشترطون فى الحديث أن يكون مشهورا، ويقدمون القياس على خبر الآحاد وإن صح سنده، وأنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنها غير مشهورة، و عملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث، بدعوى أنها مشهورة، و وقف فى القياس موقفا وسطا، فلم يتشدد فيه تشدد مالك، و لم يتوسع فيه توسع أبى حنيفة (1). و قال إمام الحرمين: فمالك أفرط فى مراعاة المصالح المطلقة المرسله، غير المستندة إلى شواهد الشرع، و أبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات و الفروع و التفاصيل من غير مراعاة القواعد و الأصول، و الشافعى (رض) جمع بين القواعد و الفروع، فكان مذهبه أفضد المذاهب، و مطلبه أسدى المطالب كما يقول إمام الحرمين. هذا عرض موجز لما يتعلّق بحياة الشافعى و أخباره من حيث اتجاهه الفقهي، و مخالفته لأهل الرأى و أهل الحديث. و تدلنا الحوادث بوضوح أنه لقي أذى كثيرا فى إظهار مخالفته لمالك و رده عليه، كما أنه لم يلق فى مصر ذلك الإقبال المطلوب الذى كان يأمله رجل مثله، فقد جفاه الناس، و لم يجلس إليه أحد، فقال له بعض من قدم معه: لو قلت شيئا يجتمع إليك الناس، فقال: إليك عنى و أنشأ: أنثر درا بين سارحة النعم و أنظم منشورا لرعاية الغنم

(2). ! و كان يظهر التذمر و التآلم، و يدلنا على ذلك قوله: و أنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله

أحامقه حتى تقال سجية و لو كان ذا عقل لكنت أعاقله

(3)

ص: 231

1-1) تمهيد لتأريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ مصطفى عبد الرزاق ص 225. و ضحى الإسلام ج 2 ص 224.

2-2) معجم الأدباء ج 17 ص 319. و [1] تمام الأبيات ص 307.

3-3) المعجم ج 17 ص 310.



و يقول: لعمري لئن ضيعت في شرب بلدة فلست مضيعا فيهم غرر الكلم

لئن سهل الله العظيم بلفظه وصادفت أهلا للعلوم وللحكم

بثت مفيدا و استفدت و دادهم و إلا فمكنون لدى و مكتتم

و من منح الجهال علما أضاعه و من منح المستوجبين فقد ظلم

(1) وقال الكندي: لما دخل الشافعي مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه: يا كذا، . . . دخلت هذه البلدة و أمرنا واحد، و رأينا واحد، ففرقت بيننا، و ألقيت بيننا الشر، فرق الله بين روحك و جسمك (2). و كان أشهب يدعو على الشافعي و يقول في سجوده: اللهم أمت الشافعي و إلا ذهب علم مالك بن أنس. فسمع الشافعي بذلك و أنشأ يقول: تمنى رجال أن أموت و إن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

و مما قال: كل العداوات قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك عن حسد

(3)

### الطعون على الشافعي:

توجهت للشافعي طعون كثيرة في مختلف الأمور، من اعتقاد و استنباط و حديث، فقد رموه بالاعتزال مرة، و التشيع أخرى، أو أنه يروى عن الكذابين، و أنه قليل الحديث. و ألف بعض الحنفية كتابا في الرد و الطعن عليه. سئل يحيى بن معين: الشافعي كان يكذب؟ قال: لا أحب حديثه، و لا أذكره. و في قول آخر: أما الشافعي فلا أحب حديثه. و روى الخطيب عن يحيى بن معين أنه قال: الشافعي ليس بثقة. و عن عبد الله بن وضاح أنه قال في الشافعي: إنه ليس بثقة. و قد ساء هذا القول بعض الشافعية، فهجا ابن معين (4) بقوله:

ص: 232

1-1 (1) معجم الأدباء ج 7 ص 207. [1]

2-2 (2) القضاة للكندي ص 428. [2]

3-3 (3) مناقب الفخر ص 115.

4-4 (4) يحيى بن معين بن عون الغطفاني أبو زكريا البغدادي المتوفى سنة 233 هـ أحد الحفاظ و من رجال الصحاح الستة أخذ عنه أحمد بن حنبل و البخاري و مسلم و خلق كثير. قال أحمد بن حنبل: كل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث. و لما مات نودي بين يديه: هذا الذي كان يذب الكذب عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى آخر ما هو موجود في ترجمته من ثناء و إطراء بالنظر لعوامل الحب و الكراهة.

و لابن معين فى الرجال وقبعة سبسال عنها و المللك شهيد

فإن كان صدقا فهو لا بد غيبة وإن كان كذبا فالعذاب شديد

(1) و على أى حال فلا بد من إعطاء نموذج من تلك الطعون فيما يأتى: 1- إن البخارى و مسلم لم يخرجوا حديثه فى صحيحيهما، و لولا أنه كان ضعيفا فى الرواية لرويا عنه كما روى عن سائر المحدثين (2). 2- أنه كان لا يعرف صحاح الأخبار، فقد روى عن أحمد بن حنبل أنه قال: قال الشافعى هم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمنى حتى أذهب إليه. قالوا: و هذا إقرار منه بالتقصير. و عن أبى ثور أنه قال: الشافعى ما كان يعرف الحديث، وإنما كنا نوقفه عليه و نكتبه (3). 3- إن من مذهبه أن المراسيل ليست بحجة، ثم أنه ملأ كتبه من قول: أخبرنا الثقة، أخبرنى من لا أتهمه (4). و الجمع بين هذه الروايات و ذلك المذهب عجيب (5). 4- أنه كان يروى عن الكذابين و البدعيين، فروى عن إبراهيم بن يحيى مع أنه كان قدريا، و روى عن إسماعيل بن عليّة مع أنه قد طعن فيه. 5- أنه يذهب مذهب الشيعة، و أنه كان يقول الأشعار المشعرة برغبته فى ذلك المذهب، و قد نصّ ابن معين على تشييعه. و روى المزنى قال: قلت للشافعى: أنت توالى أهل البيت، فلو عملت فى هذا الباب أبياتا فقال: و ما زال كتمانك حتى كأنى برد جواب السائلين لأعجم

و أكرم و دى فى صفاء مودتى لتسلم من قول الوشاة و تسلم

(6)

ص: 233

1-1 مناقب الفخر ص 50.

2-2 مناقب الرازى ص 84.

3-3 البداية و النهاية ج 1 ص 327، و طبقات الحنابلة ج 1 ص 282، و [1] آداب الشافعى ص 95.

4-4 بيئا سابقا من يقصد الشافعى بذلك.

5-5 مناقب الشافعى للرازى ص 84.

6-6 الرازى ص 50.

هذه هي أهم الطعون الموجهة إلى الشافعي: وقد دافع الشافعية عن ذلك بما أمكنهم الدفاع عنه سواء وقفوا للنجاح أم لا. ولا بد لنا من إبداء الرأي في ذلك: 1- إن عدم تخريج البخاري و مسلم لحديث الشافعي لم يكن دليلا على الجرح في الشخص الذي لم يخرج حديثه، إذ لم يكن ذلك دائرا مدار الواقع فيكون قولهما الفصل و حكمهما العدل، فإن الصحيح يكون صحيحا في نظرهما لا يلزم منه أن يكون كذلك واقعا، كما لا يلزم أن يأخذ ذلك بطريق التقليد و الاتباع. لأن الحقيقة غير هذا، إذ المؤاخذات على البخاري كثيرة جدا، فمنها في رجاله كروايته عن قوم عرفوا بالكذب و قوم ضعفاء و خوارج. و منها في نفس الأحاديث التي يصدق عليها بعض علامات الوضع. و قد كان البخاري يروي بالمعنى، كما حدّث الخطيب البغدادي: أن البخاري قال يوما: ربّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، و ربّ حديث سمعته بالشام كتبته بمصر!! فقليل له: يا أبا عبد الله بكماله؟!!! فسكت (1). و مهما يكن من شيء فإن ترك البخاري لحديث الشافعي لم يكن دليلا- قاطعا على الوهن، و إن كان في ذلك شيء من الاستغراب، إذ لا مانع للبخاري من تخريج حديث الشافعي، لأن الخوف و الحذر كان يحول بينه و بين تخريج أحاديث كثير من أعلام الأمة، نظرا لعوامل الظروف، و سياسة الوقت. و البخاري لا يستطيع أن يجتاز تلك العقبات، لفقدانه الجرأة و الشجاعة. هذا مع أن نزعة البخاري نحو الشافعي هي غير نزعته نحو أولئك الرجال الذين ترك حديثهم، إما لشيء في نفسه، أو خوفا من سلطان عصره. أما تركه أحاديث أهل البيت و فضائلهم فلا يعترينا شك بانحراف البخاري عن أهل البيت. هذا و الأمر يحتاج إلى تحليل نفسية البخاري على ضوء الحوادث التاريخية. و عسى أن تتاح لنا الفرصة في ذلك. 2- أما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى، فقد كان الشافعي يوثقه و يطمئن إليه. و كان يقول: لئن يخر إبراهيم من بعد، أحبّ إليه من أن يكذب، و كان ثقة في الحديث (2).

ص: 234

[1-1] تاريخ البغدادي ج 2 ص 11. [1]

[2-2] تهذيب التهذيب ج 1 ص 159. [2]

وكذلك ذهب بعض علماء الدين إلى تنزيه إبراهيم بن أبي يحيى عما رُمى به من الكذب. قال أبو أحمد بن عدي: سألت أحمد بن محمد بن سعيد (يعنى ابن عقدة): تعلم أحدا أحسن القول في إبراهيم غير الشافعي؟ قال: نعم، إنى أنظر في حديث إبراهيم كثيرا وليس بمنكر الحديث. قال ابن عدي: وقد نظرت أنا كثيرا في حديثه فلم أجد فيه منكرا، إلا شيوخ احتملون، وإنما يروى المنكر من قبل الراوى، أو من قبل شيخه، وهو (أى إبراهيم) فى جملة من يكتب حديثه وله الموطأ أضعاف موطأ مالك. وكان إبراهيم من تلامذة الإمام الصادق، وله كتاب فى مذهب أهل البيت، وقد روى الشافعي عنه فأكثر، وكان مرة لا يذكر اسمه ويقول: روى عن جعفر بن محمد (الصادق) عن أبيه عن جده على بن الحسين: أن مروان بن الحكم قال له: ما رأيت أحدا أكرم غلبة من أيبك، ما هو إلا أن ولينا يوم الجمل، فنادى مناديه: لا يقتل مدبر ولا يجهز على جريح. وقد جاء فى كتاب الأم كثير من روايات الشافعي عن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام ولعل هذا هو السبب فى الطعن عليه نظرا لما تقتضيه سياسة الوقت.

### الإمام الشافعي والتشيع:

الاتهام بالتشيع خطر عظيم، ومشكلة لا يقوى على تحملها كل أحد، وكيف وقد صوّر التشيع بعدسة الاتهامات الكاذبة فى الابتعاد عن الدين، تلك التهم التى تثير فى النفوس اشمزازا، وفى العواطف ثورة، حتى أصبح من اللازم التظاهر بالعداء لمن يعرف به. وقد أدى الموقف السياسى إلى أن اتهم الرجل بالزندقة والإلحاد أهون عليه من الاتهام بالتشيع. فالزنديق آمن مع كفره، والشيعى مطارذ على إيمانه. وقد مر بيان الدور الأموى، وما اقترفوا فيه من الذنوب، وارتكبوا من وحشية فى معاملة شيعة أهل البيت بالطرق السيئة: فمن دفن للناس وهم أحياء، إلى صلب على جذوع النخل، إلى حرق وحبس، ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوسين. حتى يقضى المسجون نحبه جوعا وعطشا. وكانوا يرتكبون من الآثام فى وحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلا، فيقطعون رأس الابن أو الزوج وبيعون بهذا الرأس إلى الأم أو الزوجة ويلقونه فى حجرها. وكانوا يصلبون الناس ويتركونها حتى تنبعث منهم

الروائح الكريهة، ثم يحرقونهم ويذرونهم في الهواء. ولا ذنب لهم إلا حب أهل البيت واتباعهم. أما في الدور العباسي فالأمر أشد و أعظم. وقد تعرّضنا للبعض من ذلك في مطاوي الأبحاث، و نعود بعد هذا التمهيد إلى أسباب اتهام صاحبنا الشافعي بالتشيع، حتى جعل ذلك طعنا عليه، مما اضطر أتباعه إلى الدفاع عنه وإخراجه من قفص الاتهام. ولا بد لنا من أن نتعرّض لأسباب اتهام الشافعي بعرض موجز فنقول: لقد توسع الناس في تطبيق لفظ الشيعي، فاستعملوه بغير ما وضع له، فهو بعد أن كان لا يطلق إلا على من يوالى عليا وأهل بيته عليهم السّلام و يقدمه بالخلافة و يفضله على الأمة- كما هو رأى كثير من الصحابة و التابعين- أصبح يستعمل في معان كثيرة. و على سبيل المثال نضع بين يدي القراء صوراً من ذلك. في ذكر رجال اتهموا بالتشيع و ليسوا هم من الشيعة في شيء، و هم كما يأتي: 1- خيثمة بن سليمان العابد، ألف في فضائل الصحابة و ذكر فضائل علي عليه السّلام فاتّهم بالتشيع لذلك. و شهد الخطيب البغدادي بأنه ثقة، و أنه ألف في مناقب الصحابة و لم يخص عليا (1). 2- الحاكم أبو عبد الله النيسابوري، اتّهم بالتشيع لأنه ذكر في كتابه (المستدرک) أحاديث في فضل علي عليه السّلام منها: حديث الطائر المشوى. و حديث (من كنت مولاه. . .). (2). و زاد الذهبي: إنه كان منحرفاً عن معاوية و آله (3). 3- عبد الرزّاق بن همام المتوفى سنة 211 هـ الحافظ الكبير، و من رجال الصحاح. قال الذهبي: إنه صاحب تصانيف، و ثقة غير واحد، و حديثه مخرّج في الصحاح، و له ما ينفرد به. و نعموا عليه التشيع، و ما كان يغلو به، بل كان يحب عليا و يبغض من قاتله (4). و يقول في ترجمة جعفر بن سليمان الضبعي: هو من ثقات الشيعة، حدّث عنه سيار بن حاتم، و عبد الرزّاق بن همام، و عنه أخذ بدعة التشيع (5).

ص: 236

- 1-1) لسان الميزان ج 2 ص 411.
- 2-2) تاريخ بغداد ج 5 ص 474. [1]
- 3-3) تذكرة الحفاظ ج 3 ص 233.
- 4-4) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 331.
- 5-5) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 222.

فأنت ترى أنهم تقموا على ابن همام لتشيعة- وهو حب على و بغض قاتله- و بهذا أصبح مبتدعا كما يقولون!! 4-محمد بن طلحة بن عثمان أبو الحسن النعماني، اتهم بالتشيع و تعرض للخطر، لأن أبا القاسم نقل عنه: أنه شتم معاوية (1). 5-قاضي القضاة محيي الدين الأموي المتوفى سنة 268 هـ يرجع بنسبه إلى عثمان، قال ابن العماد في ترجمته: و كان شيعيا يفضل عليا على عثمان، مع كونه أدعى نسبا إلى عثمان و هو القائل: أدين بما دان الوصي و لا أرى سواه و إن كانت أمية محتدى

و لو شهدت صفين خيلى لأعدرت و ساء بنى حرب هنالك مشهدى

(2) انظر كيف جعل مقياس تشييعه أنه يفضل عليا على عثمان فقط. 6-محمد بن جرير الطبري المؤرخ الشهير المتوفى سنة 310 هـ كان من علماء القرن الثالث، و له مذهب انفرد به، و له أتباع يعملون فيه، و قد غضب عليه الحنابلة انتصارا لإمامهم أحمد بن حنبل، و رموه بالحجارة، و لما مات دفن ليلا. قال ابن الأثير في حوادث سنة 310 هـ: إنه دفن ليلا- بداره لأن العامة اجتمعت و منعت من دفنه نهارا، و ادعوا عليه الرفض و الإلحاد. قال: و قال علي بن عيسى: لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض و الإلحاد ما عرفوه و لا فهموه. و هذه التهمة وجهت إليه من الحنابلة، لأنه ألّف كتابا ذكر فيه اختلاف الفقهاء، و لم يذكر فيه اختلاف أحمد بن حنبل، فقبل له في ذلك. قال: لم يكن من الفقهاء، فاشتد ذلك على الحنابلة، و كانوا لا يحصون كثرة في بغداد (3). 7-ابن حبون أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأندلسي المتوفى سنة 305 هـ من علماء الأندلس و عظمائهم. قال ابن سعيد: لو كان الصدق إنسانا لكان ابن حبون. و كان (يزن) أى يتهم فى التشيع لشيء كان يظهر منه فى معاوية. و من أعجب الأمور أن ابن عبد البر قد اتهم بالتشيع على ما فيه من النصب

ص: 237

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 5 ص 384. [1]

2-2 (2) شذرات الذهب ج 5 ص 326. و [2] مرآة الجنان ج 4 ص 169. [3]

3-3 (3) الكامل ج 8 ص 49. [4]

و العداء لأهل البيت، فقد وصفه ابن كثير فى تاريخه بأنه شيعى لرواية نقلها تمس بكرامة الأمويين. و ابن كثير من أهم الذين يحكمون معيارهم الخاص بهم، و هو الموقف من الأمويين أو الرأى فى معاوية، فكل من يقول الحق و ينطق بالصواب و لا يخضع لآراء سابقة كوّنتها أغراض بنى أمية لصيانة ملكهم و إرساء قواعد إمبراطوريتهم فهو يتشيع مهما كان واقع حال القائل بذلك القول، و مهما كانت حقيقة مذهبه، و ابن كثير فى كثير من أحواله يضارع أحسن أهل النصب فمثلا: فى تعليقه على رواية: «لا يزال هذا الأمر قائما حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» فيعدد من يراهم مشمولين بهذه الرواية. ثم يقول: (و ليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرفضة الذين أولهم على بن أبى طالب و آخرهم المنتظر بسرداب سامرا- و هو محمد بن الحسن العسكري (كذا) فيما يزعمون- فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من على و ابنه الحسن بن على حين ترك القتال، و سلّم لأمر معاوية، و أحمد نار الفتنة، و سكن رحى الحرب بين المسلمين. و الباقون من جملة الرعايا، لم يكن لهم حكم على الأمة فى أمر من الأمور) (1). و له من القول زيادة أعرض عن ذكرها لهوسها. و لا بد من القول أنه نظر إلى صلح الحسن ليس من الناحية الإسلامية لأن الحديث عليها يتعلّق بمصلحة الرسالة و مصير أهل البيت الأَطهار عليهم السّلام و لكنه نظر إلى الصلح كتسليم للأمر إلى معاوية و إخماد للفتنة بمفهومها الذى أراه كالمفاهيم الأخرى التى توسّعت عوا فى إطلاقها و تعميمها بغرض النيل من الجماعات التى تثور على الظالمين و تأبى ذل الجور. و من الغريب أيضا خلط كتاب العصر الحاضر بوصفهم ابن أبى الحديد المعتزلى أنه شيعى، إلى غير ذلك من الغرائب. هذا ما ذكرناه على سبيل المثال و التمهيد للوصول إلى أسباب اتهام الشافعى بالتشيع. و لو أردنا أن نتوسع فى ذلك لطلال بنا الحديث فى ذكر الحوادث التى وقعت من وراء ذلك. و صفوة القول: إن الاتهام بالتشيع، و نسبة أناس كثيرين إلى الشيعة أصبح غير منوط بقاعدة و لا مربوط بدليل، حتى أن أبا حنيفة نسبوه إلى التشيع، لأنه كان يذهب

ص: 238

1-1) قصص الأنبياء: [1] قصة إبراهيم الخليل عليه السّلام.

إلى تفضيل على عليه السّلام على عثمان. وقد امتحن كثير من العلماء و أوذوا في ذلك، مثل: النسائي صاحب «السنن الكبرى» لأنه أَلّف في فضل على كتابا و لم يؤلّف في فضائل معاوية. و أمثال هذا كثير لا يسع المقام حصره. و لنعد إلى الحديث عن أسباب اتهام صاحبنا بذلك. و هي أمور: 1- كان الإمام الشّافعي يتظاهر في مدح أهل البيت عليهم السّلام مما يدل على نزعته و ميوله إلى الشّيع- كما ذكرنا- و إنها لشعر بكل صراحة على ذلك، فهو يعلن تمسّكه بآل محمّد و يقول: آل النبي ذريعتي و همو إليه وسيلتي

أرجو بأن أعطى غدا بيدي اليمين صحيفتي

و اشتهر عنه قوله: يا آل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكمو من عظيم الذكر انكمو من لم يصل عليكم لا صلاة له

و يوضح لنا الإمام الشّافعي بواعث اتهامه بالرفض أو التّشيع فيقول: قالوا ترفضت قلت كلا ما الرفض ديني و لا اعتقادي

لكن توليت دون شك خير إمام و خير هادي

إن كان حب الوصي رفضا فإنّي أرفض العباد

فهو بإظهاره حب على بن أبي طالب عليه السّلام قد اتهم بالرفض، و لشدة تظاهره بحب على عليه السّلام فقد هجاه بعض الشعراء بقوله المشهور: يموت الشّافعي و ليس يدري علىّ ربّه أم ربّه الله

و هو لم يقتصر بحبه لعلى فقط، بل كان يوالى أهل البيت عليهم السّلام و يحبهم، و لا يبالي بأن يتهم بالتّشيع الذي كان من أعظم التّهم في عصره و قبل عصره فيقول: يا راكبا قف بالمحصب من منى و اهتف بقاعد خيفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حب آل محمّد فليشهد الثقلان أنّي رافضي

2- إن الشّافعي قد صرّح بتشيّعه، و جعل ذلك فخرا له فيقول: أنا الشّيعي في ديني و أصلى بمكة ثم دارى عسقلّة



(1) فهو بهذه الصراحة يدل على أن تلك التهمة موجهة إليه لا محالة. 3- لقد نص على تشيع الشافعي جماعة من المؤرخين و المحدثين. فهذا يحيى بن معين المحدث الكبير كان يقول: إن الشافعي كان شيعيا، فلما بلغ أحمد بن حنبل ذلك، و كان طبيعيا أن يسوؤه هذا القول في الشافعي، فأحب أن يسأل من ابن معين عن الأدلة التي أدت إلى اتهام الشافعي بالتشيع، فقال أحمد لابن معين: كيف عرفت ذلك؟ فقال يحيى: نظرت في تصنيفه في قتال أهل البغي، فرأيت أنه قد احتج من أوله لآخره بعلي بن أبي طالب (2). هذا هو سبب اتهام الشافعي أو الطعن عليه بأنه كان يحتج بعلي بن أبي طالب!! و قال ابن النديم: و كان الشافعي شديدا في التشيع، و استدل على ذلك بما يلي: 1- ذكر له رجل يوما مسألة فأجاب فيها، فقال له الرجل: خالفت علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فقال الشافعي: أثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي على التراب و أقول قد أخطأت. 2- حضر الشافعي مجلسا فيه بعض الطالبين فقال: لا أتكلم في مجلس أجدهم (أي الطالبين) أحق بالكلام و لهم الرئاسة و الفضل (3). فالشافعي إذا بمجموع هذه الأدلة قد تحققت في حقه تلك التهمة، و هي الانتساب إلى مذهب التشيع، الذي كانت الدولة و أذناها تنظره بعين الغضب، لأن مذهب التشيع كابوس لصدور الدولة، و قذى في عيونها، لعدم امتزاجه بسياستها، فهو يستقى من ينوع أهل البيت، و يأخذ بتعاليمهم. و ناهيك ما لأهل البيت في قلوب المتعطشين على السيادة و الاستبداد من بغض و عدا!! إذا كيف نصنع بهذا الإمام

ص: 240

1- 1) الفخر الرازي في المناقب ص 51.

2- 2) الفخر الرازي في المناقب ص 51.

3- 3) فهرست ابن النديم ص 295. [1]

العظيم، الذى اشتهر ذكره وكثرت أتباعه، مع أنه متهم بانضمامه إلى جانب خصوم الدولة، فلا بد من الدفاع لتبرأته من ذلك.

## نتيجة و حكم:

وقد نستخلص من هذا الاستطراد لاتهام الشافعى ولأقواله، سواء منها الصريحة أو المموهة النتيجة التالية: إن تشيع الشافعى كان تشيعا بالنسبة لمجتمعه الذى أخرجته السياسة عن عقيدة الاستقامة، حيث صيرت أكثر مسلمى ذلك الزمن أناسا يحاربون أهل البيت باليد و اللسان، وقديما قيل: (الناس على دين ملوكهم) لذلك كانت شجاعة الشافعى فى إظهار حبه لعلى وآله هى السبب فى وصفه بالتشيع. أما إذا جردنا ذلك المجتمع من سيطرة الدولة، وكشفنا الستار الذى تعمل من ورائه أيدي العابثين بصفو الأخوة الإسلامية، من قبل المتداخلين فى الإسلام، فإننا لا نجد هناك إنسانا مسلما يبغض أهل البيت فيما عدا الخوارج، و من حذا حذوهم ممن لم يرفع الإسلام ترسبات الشرك و الوثنية من قلبه، و ما هو بمسلم بل مستسلم أو متحين لفرصة الانتقام بالمسلمين، طالما لم يكن فى آل على من يتصف بما يوجب كراهيته فى المجتمع، فحبهم لا يكاد يخلو من قلب مسلم من السنة أو الشيعة، غير أن الفرق الأساسى بين الطائفتين هو قول الشيعة بالإمامة لعلى و الوصاية له، و قول السنة بالشورى و الخلافة و إنكار الوصاية. فالشافعى على هذا ليس شيعيا، وإنما هو مسلم يتمسك بحب أهل البيت و لا يناصرهم العدا، شأن أهل زمانه من السنة. و إن نظرة دقيقة من القارئ إلى قول الشافعى: (ما الرفض دينى و لا اعتقادى) مع ملاحظة أن سبب تسمية الشيعة هو رفضهم للخلفاء و الخلافة توقفه بوضوح، على أن الشافعى نفسه ينكر الرفض و الاعتقاد به، و أنه لم يزل يتمسك بمبدأ التسنن. غير أنه ينكر على مجتمعه إطلاق (لفظ رافضى) على محب على وآله، لعلمه بأن مجرد الحب لا يعنى التشيع، طالما كان التشيع ملزوما بالاعتراف لعلى بالوصاية و أحقيته بالخلافة و أهليته للإمامة و لزوم اتباعه. و لهذا قال على سبيل الفرض: إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

فالشّافعي لا يبالي بتلك التهمة التي وجّهت إليه، لأنه كان يرى أن حب آل محمّد فرض على الأمة الإسلامية. يدلّنا على ذلك قوله: يا آل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله في القرآن أنزله

و هو يشير بذلك إلى قوله تعالى: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ أَجْرٌ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَبِهَذَا قَدْ اتَّضَحَ لَنَا رَأْيُ الشَّافِعِيِّ وَعَرَفْنَا نَزْعَتَهُ، فَهُوَ مُحِبٌّ لِأَهْلِ الْبَيْتِ وَ لَيْسَ بِشِيعِيٍّ. و مما يؤيد ذلك أن الشيعة لم تدع هذه الدعوى و لم تدخله في قائمة علمائها، لأن أمره واضح و مبدأه بين. إذا، فالشّافعي برىء من هذه التهمة. هذا ما استخلصناه على سبيل الاستطراد و الاختصار. و إلى القارئ صورة من دفاع الشّافعية عن هذه التهمة:

### دفاع الشّافعية:

قال الفخر الرازي: أما دعوى الرّفص فباطلة، لأنه قد اشتهر عنه أنه كان يقول بإمامة الخلفاء الراشدين، و كان كثير الطعن في الروافض، قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشّافعي يقول: أجزى شهادة أهل الأهواء كلهم إلا الرافضة فإنهم يشهدون بعضهم لبعض. و قال يونس: كان الشّافعي يعيب الروافض و يقول: هم شر عصابة. و أما مدح علي و حبه و الميل إليه فذلك لا يوجب القدح، بل يوجب أعظم أنواع المدح. و أما طعن يحيى بن معين فالجواب عنه، ما روى البيهقي عن أبي داود السجستاني. أنه قيل لأحمد بن حنبل: إن يحيى بن معين ينسب الشّافعي إلى الشيعة، فقال أحمد: كيف عرفت ذلك؟ فقال يحيى: نظرت في قتال أهل البغي فرأيتهم قد احتجّ من أوله إلى آخره بعلي بن أبي طالب. فقال أحمد: يا عجباً لك!!! فيمن كان يحتج الشّافعي في قتال أهل البغي، فإن أول من ابتلى من هذه الأمة بقتال أهل البغي هو علي بن أبي طالب. قال: فخجل يحيى من كلامه. و أيضاً فإن يحيى بن معين كان شديد الحسد للشّافعي، و كان يلوم أحمد بن حنبل على تعظيم الشّافعي. و لما سمع الشّافعي أن بعض الناس رماه بالشيعة أنشد و قال: إذا نحن فضّلنا علياً فإننا روافض بالفضل عند ذوى الجهل

و فضل أبي بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكراى للفضل

## مذهبه و انتشاره:

كانت مصر هي المكان الذي صدر عنه المذهب الشافعي و منه انتشر في الأقطار، و ذلك بفضل جهود تلامذته المخلصين الذين شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالكي و المذهب الحنفي. و كانا قد انتشرا هناك. قال السبكي في الطبقات عن مصر و الشام بالنسبة للمذهب الشافعي: هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية، منذ ظهر المذهب الشافعي، اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد، لا يكون القضاء و الخطابة في غيرهم، أما الشام فقد كان مذهب الأوزاعي حتى ولي القضاء أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي. و يقول: كان (محمد بن عثمان) رجلا رئيسا، يقال أنه هو الذي أدخل مذهب الشافعي إلى دمشق، و أنه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني منه مائة دينار. و على أي حال، فإن المذهب الشافعي كانت بذرته الأولى في مصر، و منها انتشر بفضل جهود أصحاب الشافعي، و لو لا هم لكان أثرا بعد عين، و لكان مصيره مصير مذهب الليث بن سعد، الذي لم يتهيأ له أصحاب مخلصون يقومون بنشره. و لعل أهم العوامل التي هيأت للشافعي أسباب النجاح في مصر هي كما يلي: 1- أنه كان معروفا بأنه تلميذ مالك و خريج مدرسته، و كان لمالك هناك ذكر و لمذهبه انتشار فقول بالعبادة، و ذلك قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالك و الرد عليه. 2- نشاط الشافعي و علو همته و تفوقه بالأدب و معرفة اللغة، و إحاطته بأقوال مالك و أهل العراق. و ما عرف عنه أنه كان ينتصر لأهل الحديث، و يرد على أهل الرأي. 3- اشتهاه قرشيته و اعتصامه بالانتساب للنبي صلي الله عليه و آله و سلم و هذا له أثره في قلوب المصريين. 4- صلته بحاكم مصر الجديد عبد الله بن العباس بن موسى، و معرفته به يوم

ص: 243

كان بمصر، وأنه سافر معه عند تعيينه، أو أنه حمل له وصية من الخليفة في بغداد. 5-اختياره في النزول عند أقوى بيت في مصر وأعزهم جانبا، وهم بنو الحكم، والتفاف أعيان أصحاب مالک حوله، كأشهب و ابن القاسم و ابن المواز وغيرهم. تغلب المذهب الشافعي على المذهب المالكي بمصر بعد أن كان هو السائد و له السلطان هناك. وقد ذكرنا مقابلة أنصار المذهب المالكي لأصحاب الشافعي: و تمت له الغلبة هناك أيام الدولة الأيوبية، لأنهم كلهم شوافع إلا عيسى بن العادل (1) سلطان الشام، فإنه كان حنفيا، و لم يكن في هذه الأسرة حنفي سواه، ثم تبعه أولاده، و كان شديد التعصب لذلك المذهب، و يعده الحنفية من فقهاءهم، و له شرح على الجامع الكبير في عدة مجلدات. و لما خلفت دولة المماليك البحرية دولة الأيوبيين لم تنقص حظوة المذهب الشافعي، فقد كان سلاطينها من الشافعية إلا سيف الدين، الذي كان قبل بيبرس، فقد كان حنفيا، و لكن لم يكن له أثر في الدولة لقصر مدته.

ص:244

---

1-1) عيسى بن سيف الدين الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ولد في القاهرة سنة 576 هـ. و ملك دمشق ثمان سنين و أشهر، و مات سنة 624 هـ و كان متغاليا في التعصب لمذهب أبي حنيفة. قال له والده: كيف اخترت مذهب أبي حنيفة و أهلک کلهم شوافع؟ فقال: أما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم. و هو قد صنف كتبا كثيرة منها: السهم المصيب في الرد على الخطيب. ترجمته في الفوائد البهية ص 151.

و بعد هذا العرض لأخبار الشافعي و آثاره نود أن نسجل بعض الملاحظات إتماماً لتصوير الشافعي الفقيه و عهده فنقول: إن قضية ادعاء الأفضلية في العلم و التفرد في الفقه لرؤساء المذاهب أو غيرهم أصبحت قضية متعلقة بروح التعصب و العداء تجرى مجراها، و لو انعدمت هذه الروح و لم توجد الأعراض التي خلقت الفرقة و التعدد لما استخدمت أساليب الوضع و اتخاذ البشائر و المقامات بدلاً من موازين العلم و معاييره. فالعالم بآثاره و أعماله و من صفاته العزوف عن التظاهر أو إعلان التفوق إنما يزداد العالم منزلة بزيادة علمه و يعلو شأنه بعلو كعبه في ميدان التصنيف و إحياء الآثار، و لا تتحقق الأفضلية بالادعاء أو الحجب عن الآخرين. و مما يجعل هذه القضية قضية غير موفقة أو غير ناجحة هو وضعها في جملة وسائل التحكم أو التأثير في معتقدات الناس أو أفكارهم، فالأمر العلمي يمضى بخصائصه من دون حاجة إلى دعوى لا برهان عليها. على أن العلماء أنفسهم يندر أن يصدر منهم شخصياً مثل ذلك، و لكن الأعوان أو مصالح الحكام هي التي تقف وراء مثل هذه الادعاءات و نموها لأن العالم الحق بقوة إيمانه و ورعه و بتحصيله و عطائه تصان مكانته و يصون نفسه.

### حول تمييز الشافعي:

إن ما بأيدينا من أخبار الشافعي و ما وقفنا عليه من آثاره، و ما يحكيه هو عن نفسه، لا يدل على ما يذهب إليه الشافعية من القول: بأن الشافعي هو أعلم الأمة. أو فوق علمائها أجمع، و أنه أعلم قریش و أشهرهم ذكراً، بل العلم بالكتاب و السنة له دون غيره، في عصره و قبل عصره، كما جاء في آداب الشافعي لابن أبي حاتم الرازي

عن عبد الرحمن قال: سمعت ديبسا يقول: جئت إلى حسين الكرابيسي فقلت له: ما تقول في الشافعي؟ فقال: ما أقول في رجل ابتدأ في أفواه الناس الكتاب والسنة، نحن ولا الأولون حتى سمعنا من الشافعي الكتاب والسنة والإجماع (1). ويقول السبكي في وصفه إنه: الإمام الأعظم المطلبي، والعالم الأقوم ابن عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه عالم قریش الذي ملأ الله به طباق الأرض علما، ورفع من طباقها إلى طباق السماء بذاته الطاهرة من هو أعلى من نجومها وأسمى، وأثبت باسمه في طباق أجزائها اسم من يسمع آذانا حما، ومن لو قالت بنو آدم: علمه الله الأسماء: كما أبرز منه لكم أبا ومن تصانيفه أمّا، والحبر الذي أسس بعد الصحابة قواعد بيته-بيت النبوة-وأقامها، و شيد مباني الإسلام بعد ما جهل الناس حلالها وحرامها وأيد دعائم الدين (2). وأمثلة هذا كثير، ونحن لا نثب معهم هذه الوثبة، بل نقف عند حدود الواقع ولا نأخذ هذا بعين الاعتبار بدون تثبت، مع العلم بأن هذا بعيد عن الواقع. ولا نفهم من ذلك الاندفاع لتصوير شخصية الشافعي إلا التعصب. ونحن حين نتعرض لأمثال هذه الأمور إنما نقصد إعطاء صورة عن ذلك التدرج إلى إعلاء مكانة الشخص، طلبا للتفوق في ظروف التدافع والتقابل وتلاحي كل فريق مع منافسه. بدون التفات إلى مؤاخذه عند مخالفة الواقع. واتخذ سبيل انتحال الأقوال ونسبة المديح إلى رجال معروفين لتحقيق التفوق. ولكن التدقيق والتمحيص يكشفان حقيقة الادعاء. وإليك مثلا من ذلك: يروى ابن عبد البر بسنده عن سويد بن سعيد قال: كنا عند سفيان بن عيينة بمكة، فجاء رجل ينعي الشافعي ويقول: إنه مات. فقال سفيان: إن مات محمد بن إدريس، فقد مات أفضل أهل زمانه (3).

ص: 246

1-1) المناقب ص 57.

2-2) طبقات الشافعية ج 1 ص 343.

3-3) الانتقاء ص 70.

هذا ما ورد في مناقب الشافعي، وإذا أردنا أن نقف وقفة قصيرة لاستجلاء الواقع فسيتضح لنا كذب هذا القول: لأن وفاة سفيان كانت سنة 198 هـ في جمادى الآخرة أي قبل وفاة الشافعي بستة سنين وأشهر، مع أن سويد بن سعيد هو البورقي - راوى هذا القول - كان من أكذب الناس، و ممن يضع الحديث، كما نص علماء الرجال على ذلك.

### التناقض في التصوير:

و هناك أقوال لا بد لنا من عرض بعضها والنظر إليها بدقّة وتمحيص: جاء عن أحمد بن حنبل أنّه كان يقول: إن هذا الذي ترون (أي العلم) كله أو عامته من الشافعي. ويقول الميموني: قال لي أحمد بن حنبل: ما لك لا تنظر في كتب الشافعي؟ ما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعي. و روى أبو نعيم في مناقب الشافعي: أن أحمد قال ليحيى بن معين: إن أردت الفقه فالزم ذنب البغلة (أي بغلة الشافعي) (1). وهذا وأمثاله ترويه كتب الشافعية. و حينما نظمنا إلى هذا النقل مدة قصيرة، لا نلبث أن نواجه ما يخالفه و يناقضه من الجانب الآخر. قال أحمد بن الحسن الترمذي: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل أأكتب كتب الشافعي؟ فقال: ما أقل ما يحتاج صاحب حديث إليها (2). وقال أبو بكر المروزي: قلت لأحمد بن حنبل: أ ترى الرجل يكتب كتب الشافعي؟ قال: لا. قلت: أ ترى أن يكتب الرسالة؟ قال: لا تسألني عن شيء محدث. . . وقال أيضا: قال أحمد: لا تكتب كلام مالك، و لا سفيان، و لا الشافعي (3). و نحن لا يدهشنا التناقض بعد وقوفنا على الأصل الذي أثر على الآراء و الحقائق، و بعد ما سمعنا في مدح الشافعي وغيره بما هو أكثر من هذا، و في انتقاصه بما هو أعظم كالحديث الذي يرويه أحمد بن عبد الله الجويباري عن عبد بن معدان

ص: 247

1-1 (1) توالى التأسيس ص 57.

2-2 (2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 38. [1]

3-3 (3) طبقات الحنابلة ج 1 ص 57. [2]



عن أنس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس أضمر على أمتي من إبليس، ويكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي (1). وأحمد بن عبد الله الجويباري أمره مشهور و حاله معروف في وضع الأحاديث. وقد استخدموه لصالح التعصب و التنافس. فهذه التيارات من الجانبين تستدعي الوقوف و التريث. و بهذا لا نصغي لأقوال المندفعين وراء العاطفة كقول أحمد بن يسار: لو لا الشافعي لدرس الإسلام (2). و قول البرذعي: سمعت أبا زرعة يقول: ما أعلم أحدا أعظم مئة على أهل الإسلام من الشافعي. و يقول أحمد بن سنان: لو لا الشافعي لا ندرس العلم (3). و لو أردنا أن نبحث بدقة عن هذه الأقوال و غيرها لمعرفة نصيبتها من الصحة فالأمر لا يحتاج إلى تكلف. بعد أن وقفنا على المبادئ الأساسية التي دعت إلى وضع هذه الأقوال، و أهمها ثورة العواطف و تيار التعصب. و ما لنا نستغرب أو نستكثر على أصحاب الشافعي هذه المغالاة في مؤسس فقهم و رئيس مذهبهم و نحن نرى أصحاب أبي حنيفة لم يقصروا عن هذه الخدمة في حق إمامهم؟! و بهذا استوت كفة الميزان في كل ما ورد من مبالغات معتق المذاهب، كالحنفية في حديث: أبو حنيفة محيي السنة. و المالكية في حديث: عالم المدينة. و الشافعية أيضا في حديث: عالم قریش. فجعلوا العلم وقفا على شخصية الشافعي دون غيره من قریش، و حصروه عليه بمعناه الكامل -إن صح الحديث- و إلا فهو موضوع من قبل المتعصبين كغيره من الأحاديث و المناقب التي كثيرا ما تبدو في مظهر جد براق خلاب، و مما يؤدي ذلك أن ذوى الاستقامة من علماء المذاهب لم يجعلوا لأكثرها و زنا كبيرا من الاعتماد و الاحتجاج. أما الحنابلة الذين لم يستطيعوا خلق حديث في إمامهم، فإنهم اعتمدوا على

ص: 248

1-1) اللآلئ المصنوعة للسيوطي ج 1 ص 217.

2-2) توالي التأسيس ص 71.

3-3) توالي التأسيس ص 61.

الأطراف، فوضعوا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كثيرا من ذلك وسيأتي بيانها، وهي أمور كان مبعثها احتدام النزاع الطائفي الذي أصبح ميدانا للخلاف ومحورا للتخاصم آنذاك. تقول هذا بدون طعن على أولئك الرجال، ولا حظًا من كرامتهم، لأن الواقع الذي نلمسه من سيرتهم وما طبعوا عليه يقضى علينا ببراءتهم من ذلك الادعاء الأجوف. وقد دلت آثارهم على خلاف ما يذهب إليه المتعصبون لهم. وقلنا إن العالم بآثاره وأسفاره ومن صفاته البحث في العلم وليس البحث عن التفوق، ولا ادعاء الأفضلية لأن العلم ما تشهد به الحقائق.

### مذهبه الفقهي:

إذا أردنا أن نقف على مدى نشاط الشافعي في فقهه، فلا نستطيع تحديد ذلك بعد أن وقفنا على نشاط أصحابه وتلامذته الذين نما المذهب بجهودهم واجتهادهم بكثرة التخريج. ولهم آراء كثيرة وأقوال متعددة اجتهدوا فيها، ولم يؤثر عن الشافعي نص فيها، ونسبوا الجميع إليه وعدت من مذهبه، وهم وإن كانوا لا يقولون إنها أقوال الشافعي، لكنهم يقولون إنها أوجه بمذهبه. وبفضل جهود أصحابه قد (اكتسب المذهب من البيئات المختلفة والأحوال الاجتماعية المتباينة والشؤون الاقتصادية المتخالفة الشيء الكثير، مما كان يتأثر به المجتهدون عند تخريجهم للمسائل، إذ كانوا بلا ريب متأثرين ببيئاتهم الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، وإنك لو درست ذلك المذهب على ضوء هذا، وفحصت الآراء بين المختلفين على ذلك النور لعلمت أثر البيئات في أقوال المختلفين وآراء المتنازعين، وإن الذين يدرسون فروع ذلك المذهب بل فروع المذاهب المختلفة، درسوها منسوبة لأصحابها، وعرفوا البيئات المختلفة؛ فإنهم حينئذ يرون تلك الآراء صوراً صادقة لعصورها، حاملة ألوانها ومنازعها الاجتماعية والاقتصادية وأعراف الناس فيها) (1). وقد نشأ في عصور الاجتهاد وحرية الفكر رجال لهم الأثر العظيم في التخريج وسعة دائرة المذهب كالأسفرائيني الذين قالوا في حقه: إنه أنظر وأفقه من الشافعي؛

ص: 249

و مثل القفال و أبو العباس و غيرهم ممن اشتهر بالاجتهاد المطلق و نسب إلى الشافعي، و لهم الفضل في الترخيـج للمسائل. و لما أغلق باب الاجتهاد أصبح المذهب مقصورا على دراسة أقوال المتقدمين، و المحافظة على ما ورثوه عنهم، و استخراج الفتاوى و الأحكام من بين الأقوال المختلفة و الآراء المتنازعة. و بمجموعها قد تكوّن المذهب الشافعي. و على أي حال؛ فإننا لا نستطيع تحديد فقه الشافعي من أقواله و آرائه بعد ما أصبح المذهب المنسوب إليه، مجموعة أقوال أئمة مختلفين متباعدة أوطانهم مختلفة آراؤهم، و ضمن تلك الأقوال انضمت أقوال الشافعي و آراؤه، و لا سيما أكثر المؤلفين قد نسبوا ما ألفوه للشافعي طلبا للقبول و دعاية للرواج.

### نهيه عن مذهبه القديم:

إن من أهم الظواهر التي لاحظناها عند دراستنا لحياة الشافعي هي نهيه عن الأخذ بمذهبه القديم الذي أفتى فيه ببغداد، فأصبح المعول على ما أفتاه في مصر، و مثل هذا التطور يوجد لنا إحجاما عن تحقيق ذلك التكامل في تلك المدة القصيرة، التي لا تسمح لمثله من البشر أن يبلغ تلك الدرجة التي ادعت له في بلوغ أعلى منزلة علمية، مع وجود شواغل و موانع تحول بينه و بين استخدام قوته و استعمال فطنته، لاستنتاج مسائل تكون شاملة لأحكام قرون متوالية. لقد كان الشافعي في مصر مشغولا بمرضه الذي اعتوره مدة طويلة، مع وجود مشاحنات و مقابلات بين أصحابه و بين خصومهم من المالكية، بالإضافة إلى ما وصفوه به من طول العبادة و التهجد. يضاف إلى ذلك ما كان يعلوه من دين لعسر حاله، فيقال: إنه مات و عليه من الديون ستون ألف دينار. و هذا له أثره في الطبيعة البشرية، إذ هو بحكم الطبع الإنساني شاغل مجهد، مع أن الشافعي معروف ببلاغته و معرفته بلغة العرب و أشعارهم، و كان هو ينظم الشعر الرائق أيضا، و قد التف حوله كثير من طلاب مصر لمعرفة الآداب و اكتسابها منه. إلى آخر الأمور التي وصفوه بها، و بطبيعة الحال إن ذلك يوجب التوقف عن إعطاء الحكم بما يدعونه له، و كان اللازم أن نوفق بين تلك الروايات الدالة بمنطوقها على تكامله و استعداده و تفوقه الاجتهادي من صغر سنّه، و بين نهيه و تحريمه لمذهبه القديم، لأن هذا التطور الغريب يستلزم

الاستغراب فى تحقيق ذلك التكاملى. ونظرا لضيق المجال أرجأنا الكلام حول هذا الموضوع إلى محل آخر.

## الخصومة المذهبية:

لقد أصبح الخلاف فى المذاهب ميدانا للنزاع و محورا للتخاصم و ماثرا للفتن، وقد تعرضنا لكثير من ذلك، مما يوضح للقارئ النبىه أن الكثير منهم قد استساع الوقعة بمن يخالفه فى المذهب، و كانت المعركة الجدلية بين الحنفية و الشافعية أكثر منها بين سائر المذاهب، حتى خرج الأمر عن حدود الجدل إلى الحروب الدموية، مما أدى إلى خراب البلد من جراء هذا الخلاف. يقول ياقوت-عند الكلام على (أصفهان) بعد أن ذكر مجدها القديم-: وقد فشا فيها الخراب فى هذا الوقت و قبله. و فى نواحيها، لكثرة الفتن و التعصب بين الشافعية و الحنفية، و الحروب المتصلة بين الحزبين. فكلمما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى، و أحرقتها و خربتھا، لا يأخذهم فى ذلك إلّ و لا ذمة. و مع ذلك فقلّ أن تدوم بها دولة سلطان، أو يقيم بها فيصلح فاسدها. و كذلك الأمر فى رساتيقها و قراها التى كل واحدة منها كالمدينة. و يقول عند وصفه للرّى و وقوع العصبية بين الحنفية و الشافعية: و وقعت بينهم حروب كان الظفر فى جميعها للشافعية، هذا مع قلة عدد الشافعية، إلا أن الله نصرهم عليهم. و كان أهل الرستاق-و هم حنفية-يجيئون إلى البلد بالسلاح الشاك و يساعدون أهل نحلتهم، فلم يغنهم ذلك شيئا حتى أفنؤهم (1). و لشدة الخلاف و الجدل بينهم ألّفت الكتب فى بيان الخلاف بين أبى حنيفة و الشافعى، و نشأ من ذلك علم يسمى (آداب البحث و المناظرة) يقصدون منه الشروط التى يتبعها المجادل فى جدله، إذ أصبح الأمر فوضى. و قد ذكر الغزالي شروطا ثمانية لا يسع المجال ذكرها. و على أى حال، فإن ذلك التعصب كان من نتائجه ذلك الاندفاع و الإغراق فى المدح، بحق و بغير حق، إذ لم يضعوا الأمور فى نصابها بالتجرد عن الأهواء و العاطفة، مما شوّه وجه الحقيقة، فأوجد صعوبة كبيرة فى تمحيص الأخبار التى اشتملت عليها المناقب، و بالأخص كتب الشافعية و الحنفية للأسباب المتقدمة، لأنّها

ص:251

غير متناسقة ولا متماسكة، لذلك اقتصرنا في دراسة حياة الشافعي على العرض التاريخي. ونقف عند هذا الحد من البيان عن تاريخ حياته، و سنعود إن شاء الله تعالى إلى استعراض آرائه.

## نتائج الخلافات المذهبية:

وقبل الختام أود الإشارة بإيجاز إلى أن تلك الخلافات المذهبية والنعرات الطائفية قد أوجدت الفرقة بين المسلمين، وكادت تكتسح صروح مجدهم المؤثر، لولا عناية الله تعالى ولطفه بالإسلام وأهله، ولم يكن منشأها سوى وجود الأيدي العابثة من الفئة الفاسدة أو من الذين دخلوا في الإسلام-لا رغبة-بل للوقية بأهله، فإذا بهم وقد فسحت السياسة لهم المجال ليحققوا سوا الأهداف التي لا تتحقق مع وحدة الكلمة ولا تنال إلا بالفرقة، وتحكيم قانون (فرق تسد). فكانت المؤامرات والذسائس تحاك من قبل خصوم الإسلام باتخاذهم شتى الأساليب في تفريق صفوف الأمة. وقد أفصح التاريخ عن كثير من تلك الحوادث المؤلمة والوقائع المفجعة، التي أثارها أعداء الوحدة الإسلامية في شتى الظروف السالفة. ولقد مرت أحقاب من تلك الحياة المضطربة والأدوار المظلمة والمسلمون في نزاع وتخاصم، كل يريد أن يكيل صاع الانتقام للآخر، فكان من ذلك أن أريقت الدماء، ونهبت الأموال بدون مبرر. وبهذا وجدت الأمم المغلوبة غايتها المنشودة، فعملوا بكل إمكانياتهم في زيادة التوتر بين طوائف المسلمين، ولم يسعد المسلمون بيقظة في زمن ما، فيستقبلوا أمرهم بفكر ثاقب وحرية رأى وتجرد عن العواطف، ليرفعوا ذلك الستار الأسود ويقطعوا تلك الأيدي العابثة، التي حملت لهم معاول الهدم وأدوات التخريب أحقابا وقرونا. ولورفع الستار لزال الخلاف، وأوقف ذلك الصراع الناتج من وراء التعصب الجنوني، والجهل بالأمر الواقع، وكان باستطاعة المسلمين أن يوحدوا صفوفهم ليقفوا في وجه الخصم موقفا مشرفا في سبيل المحافظة على العقيدة والدين، ولهدأت تلك الضوضاء التي ذهبت فيها أصوات المصلحين مع الرياح. ولأصبحنا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ كما وصفنا القرآن الكريم.

قلت لورفع الستار: لنظر بعضنا إلى بعض نظر مودة وأخوة بدلا من نظرة البغض والكراهية. ولزالت تلك الرواسب التي أوجدتها عصور التطاحن والتعصب لتكون عقبة كئودا فى طريق وحدة المسلمين. هذا وقد مرّت العصور وذهبت الأيام بما فيها غير مأسوف عليها، و نحن أبناء اليوم، فهل لنا أن نشعر بوجود تيارات دولية تعمل فى السر والعلن، و تتكالب على السيطرة والاستعمار؟! وإن خير طريق لمعالجة الوضع هو الشعور بالمسؤولية تجاه الدين و الوطن، لنذكر الحقيقة الناصعة و نقف على الأمر الواقع و نكون كما أمر الله تعالى دعاء خير موحدين وَ لَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ أَوْ يُعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا؟ . وهذا ما تيسر لنا-بعونه تعالى-بيانه، و نسأله تعالى أن يوفقنا لإكمال بقية الأجزاء إنه سميع مجيب. وقد أُرِخَ نخبة من العلماء لكتابنا الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، ننشر منها ما وردنا من سماحة العلامة الشيخ على السماوى: تحفتك الغراء قد أصبحت بمفرق التاريخ إكليلا

ففقت أقرانك فيها بما أمليت إجمالا و تفصيلا

سفر به حبلك قد صار فى حبل رسول الله موصولا

و حزت خيرا فيه و الخير ما قد كان عند الله مقبولا

فزت بمسعاك لتحقيق ما حق و أبطلت الأباطيلا

و من سنى الصادق قد أشرقته به براهينك تدليلا

لو النصرارى قرأته لما تلت بدنياها الأناجيلا

يا أسد الفضل و من لم يزل يحلل الأبحاث تحليلا

تاريخك العذب بسلساله فاق الفرات العذب و النيلا

أيّدك العلم فدم سالما عضبا بوجه الجهل مسلولا

حسبك من سفرى أنى به أرتل الإطراء ترتيلا

حيث وجدت فيه ما أبتغى (و فوق ما قد كان مأمولا)

حق لك الإطراء فيه بما عانيت-ترحيبا و تبجيلا

و حق إعظامك فيه بما أحسنت تحليلًا و تأويلا

نال الأمانى الغر من قد غدا بالعلم و التاريخ (مشغولا)

1377 ه و من صديقنا الأستاذ الكبير المؤرخ السيد محمد الحلبي: هذا كتاب قد حوى كنزه مباحثا نافعة ممتعه

أبحاثه جاءت لمن أنصفوا دلائلا واضحة مقنعه

نمّتها من أسد مزير لان مع الخصم لكى يقنعه

و يوضح الحق جليا كما لم يخط فى تأليفه موضعه

فهتّه و الثم و أرّخ فما (يحكى عن المذاهب الأربعة)

1377 ه و من صديقنا الأستاذ الخطيب السيد على الهاشمى: خير سفر أظهر الحق لنا (أسد) فيه و للزور محق

فتصفّحه و بالتاريخ (قل مذهب الصادق بالإسلام حق)

1377 ه (انتهى الجزء الثالث بحمده تعالى)

ص:254







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا - مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعْذُ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

[صدق الله العلي العظيم]

ص: 257



بسم الله الرحمن الرحيم >

### نوعية البحث:

يتضمن هذا الجزء، وهو الجزء الرابع من كتابنا الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، لمحة موجزة عن حياة الإمام الصادق، و نبذا من تعاليمه، و أخلاقه، و آدابه، ثم تاريخ حياة الإمام أحمد بن حنبل. و قد اقتصرنا على ذكر نسبه و شيوخه، و أهم حوادث عصره: كمشكلة خلق القرآن و غيرها. و هذه الحادثة هي من أهم الحوادث التي أثارت صراعا فكريا، و جدلا بين المسلمين أعقبه عداء بين الطوائف، ذهب ضحيته خلق كثير. و قد اكتفيت بالإشارة إليها في موجز من البيان في هذا الجزء. لكثرة ما كتب فيها و ما ذكر عنها، لأنها كانت العامل الوحيد في شهرة أحمد و طلوع نجمه، و سنبحثها في الجزء السابع في جملة الأسباب و العوامل التي أثرت في المجتمع الإسلامي. كما أنى أشرت إلى أعيان مذهبه و ناشريه، و حملة فقهه و المؤلفين فيه. و لم أهمل ذكر بعض القضايا الهامة التي تعطينا صورة لها علاقة بموضوع البحث عن الإمام أحمد و مذهبه، كما أهملت الكثير من القضايا التي نقلت عنه من مناقب و مآثر، و أشياء لا تصلح أن تكون تاريخا نستمد منه معلومات خليقة بأن تكشف لنا عن نواحي شخصيته، لأننا نحاول أن نتعرف عليه عن طريق الواقع، و من ضوء الحوادث التاريخية التي لا صلة لها بالموثرات التقليدية و المنازعات الطائفية.

### منهج البحث:

و قد نهجت في هذا الجزء ما نهجته في الأجزاء السابقة من الابتداء بذكر الإمام الصادق، ثم ذكر واحد من أئمة المذاهب الأربعة.

فذكرت الإمام أبي حنيفة في الأول، و مالكا في الثاني، و الشافعي في الثالث، و أحمد بن حنبل في هذا الجزء. و خصّصت الجزء الخامس لأهم المسائل الفقهية المتفق عليها، و المختلف فيها من المذاهب الأربعة، و مذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام مع استدراك ما فاتنا بيانه في تلك الأجزاء المتقدمة عليه. و قد نبهت بأن ترتيب ذكرهم بهذه الصورة إنما هو حسب الرتبة الزمنية لا الرتبة العلمية. فإن الحكم لواحد من الأربعة بالأعلمية هو من الصعوبة بمكان، لوجود الخلاف و الاختلاف، فأتباع كل إمام يدعون أن إمامهم هو الأعلم و الأولي بالاتباع دون غيره، مستدلّين بالنقل و الاعتبار. و ساق كل فريق -عدا الحنابلة- أحاديث عن النبي جعلوها دليلا على لزوم اتباع ذلك الإمام و مبشرة به تصريحاً أو تلميحاً. فالحنفية يروون في كتب مناقبهم أحاديث: يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي. و في لفظ آخر: يكون في أمتي رجل اسمه النعمان و كنيته أبو حنيفة. و في لفظ ثالث: اسمه النعمان بن ثابت. و نحن لا نقف هنا مع هذه المرويات موقف تمحيص و تدقيق بعد أن وقفنا معها في الجزء الأول، فأوضحنا هناك للقارئ نصيبها من الصحة. و لم نحجم عن التصريح بأنها مكذوبة و أنها من وضع رجال أجمع علماء الرجال على تجردهم من الصدق، كما نصّ الكثيرون من علماء الحنفية على كذب هذه الادعاءات و نفوها نفياً باتاً. و ادّعت المالكية انطباق حديث: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة. و قد أطال القاضي عياض في (ترتيب المدارك) القول في الحديث و روايته و رواته بانطباقه على مالك دون غيره، و أن السلف فهموا ذلك. و عدّ هذا من معجزات النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و إخباره بالمغيبات. و قد أصبح عند المالكية من المسلّمات، و أكثر حقّاظ الحديث قالوا: إن هذا الحديث من اختصاص المالكية دون غيرهم، و منهم من وهّنه مرة، و نفى انطباقه على مالك مرة أخرى. لوجود علماء في عصر مالك كانت المدينة تزخر بهم، و هم أعلم منه بل هم أساتذته: كسعيد بن المسيب، و عبد العزيز العمري، و محمد بن مسلم

الزهرى، وربيعة الرأى وغيرهم من شيوخ مالك الذين هم أعلم منه وأرقى درجة فى الفقه، ولو سمحت الظروف القاسية للحقيقة الصامته أن تنطق بالحق وتقوه بالواقع لما تخطت الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الذى هو أستاذ مالك و من شهد له مالك نفسه: بأن عينه ما رأت أعلم ولا أتقى من جعفر بن محمد الصادق. وأما الشافعية فدليلهم فى النقل هو دعوى انطباق حديث عالم قريش: يملأ الأرض علما. على الشافعى وما ذلك إلا تخمينات مبهمه وفرضيات عقيمة، وقد تعرضنا له فى الجزء الثالث فى حديثنا عن الشافعى. أما الحنابلة فقد أهملوا طريق النقل و تمسكوا بالاعتبار، فلم يدعوا وجود حديث فى إمامهم يبشّر به ويفيض على شخصيته قدسية تؤهله لأن يتفرد بالعلم ولزوم الاتباع، ولكنهم اعتمدوا على مبشرات الأحلام، فجعلوها محل اعتماد و من المرجحات للمذهب، وأنها بمنزلة اليقظة فيقولون: إن ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى نوم أو يقظة فهو حق، وقد ندب صلى الله عليه وآله وسلم إلى الاقتداء به-أى بأحمد-فلزنا جميعا امثاله (1). يشيرون بذلك إلى منامات يدعى فيها أن سائلا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى النوم: من تركت لنا فى عصرنا هذا من أمتك نفتدى به يا رسول الله؟ فقال: عليك بأحمد بن حنبل. وبهذا استوت كفتا الميزان فى طريق النقل كاستوائيهما بين جميع المذاهب فى طريق النقل والاعتبار. فإنهم جميعا قد عقدوا فصولا مطولة فى الأحلام لإثبات فضائل أئمتهم، وجعلوها مصدرا من مصادر تاريخ حياتهم، وميزانا من موازين عظمة شخصيتهم وطريقا لإثبات مفاخرهم. كما أننا نلمح فى مناقب الكثير منهم اشتراكا فى المفاخر التى أثبتوها، وأن طابعها واحد لا يتغير وإن تغير الزمن، وقد تجنبنا الخوض فى ذلك وذكر الكلام حولها، إلا ما يتعلّق به غرض من أطراف البحث. وكثرت المنامات فى فضل أحمد حتى كان لها الأثر فى الأدب الحنبلى، فنظم الشعراء ذلك، يقول أبو الخطاب المتوفى سنة 476 هـ: وعن مذهبي إن تسألوا فابن حنبل به أقتدى ما دمت حيا أمتع

و ذاك لأننى فى المنام رأيت يروح ويغدو فى الجنان ويرتع

(2)

ص: 261

1-1) ذيل طبقات الحنابلة ج 1 ص 137.

2-2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 407. [1]

فهذا الرجل قد جعل المرجح لمذهب أحمد و الدليل على لزوم اتباعه هو حلم رآه، و هو: أنه رأى أحمد في الجنة. و مثل هذا كثير ستقف على البعض منه في ترجمة أحمد. و على أى حال فإننا نقرأ فى تاريخ حياة أولئك الأئمة صفحات غامضة، و ألغازا معقدة، و زوائد تتضمن غلوا فى المدح، و تجاوزا فى الإطراء، و مناقب حافلة بالغرائب و العجائب، يقف الباحث حيا لها مدهوشا، و لكنه بعد أن يتوصل إلى معرفة الأسباب التى أوجدت تلك الأوهام، و سببت ذلك الغموض تتضح له الحقيقة التى تبطل الأوهام. و لقد نهجنا فى بحثنا عن أئمة المذاهب نهجا وسطا، فلم نندفع مع المتعصبين لهم فنستوحى معلوماتنا عنهم بما لا صلة له بالواقع، و لا يكشف عن طابعهم الذى طبعوا عليه، و نهجهم الذى ساروا به، كما أننا لم نتنكر للحقائق شأن المتعصبين عليهم فى سلوك طرق ملتوية فرارا من الحقيقة و ابتعادا عن الواقع، فإن كلا من هذا و ذاك لا يكشف لنا عن الحقيقة التى نحاول الوقوف عليها فى دراستنا هذه. و قد التزمنا بأمانة النقل للحوادث التى أثرت فى نتائج المقارنة و الموازنة بينهم، فإننا لم ننته بعد من إجراء تلك العملية، و لا يمكن لنا ذلك إلا بعد التدقيق و التمهيص. و إنى بهذا العرض التأريخى الموجز آمل من ورائه أن أقف على مقدمات صحيحة النتائج.

### التعصب للمذاهب:

و كما قلت إن مشكلة التعصب للمذاهب هى من أعظم المشاكل التى حلت فى المجتمع الإسلامى فقد أدت إلى تفرق و تباعد فى صفوف المسلمين، بانتشار العداء بين الطوائف، و إثارة القلق من جراء الخلافات التى كوَّنتها تلك الظروف القاسية، عند ما أصبح للآراء و الأفكار عصبية تشبه العصبية الجاهلية، و كل يحسب أن مذهبه هو الإسلام، و أن ما عداه انحراف لا يؤخذ به، و ضلال لا يلتفت إليه، و قد نهجوا نهجا أبعدهم عن روح الإسلام، حتى بالغ بعضهم فى طعنه لمن خالف مذهبه، كقول بعض الحنابلة: من لم يكن حنبليا ليس بمسلم. و قول الآخر: لو كان لى من الأمر شىء لأخذت من الشافعية الجزية. و يقول آخر: لو كان لى من الأمر شىء لوضعت على الحنابلة الجزية. و كل هذه الأمور ترجع إلى عوامل سياسية، تحاول تقرييق الصف

و جعل المسلمين فرقا و أحزابا، يشتم بعضهم بعضا، و قد تحكّم التعصّب الطائفي فألقى على العيون غشاوة التمويه و الخداع. و بهذا فقد توالى الحوادث و تعددت الفتن. حتى أدّى ذلك التعصّب أن يجهل بعض الخطباء واجبه الملقى على عواتقهم: من الدعوة إلى الإصلاح، و الألفة و المحبة، و اجتثاث جذور العدا و التشاحن. عند ما سلكوا طريق الفرقة و نشر الشغب و بث روح العدا. بقيامهم على المنابر يلعنون من خالفهم في مذهبهم، مما أثار في نفوس العامة تأثيرا دفعهم إلى النهب و التخريب، و حرق المساجد و الأسواق، كما حدث في كثير من البلدان الإسلامية في سنة 554 هـ و غيرها و مما عظمت به المصيبة و عرض المجتمع إلى خطر ماحق، لأن صفة الخطباء محلها العلماء و الأخيار الذين ينظر إليهم المجتمع باحترام و تجلّه، و عليهم أن يرعوا رسالتهم الدينية لا أن ينحرفوا هذا الانحراف، و قد أشرنا لذلك بإمامة موجزة في أبحاثنا السابقة. إن هذه الأمور المؤلمة هي التي فتحت باب التدخل لأعداء الإسلام في صفوف الأمة ليحاولوا القضاء عليه و الوقيعة بأهله. و بمزيد الأسف أننا نتوارث ذلك الخلاف الذي أوجد الانقسام بيننا، و الفرقة في صفوفنا، فأفقدنا تلك القوة و سلينا ذلك السلطان الذي انتشر في أرجاء المعمورة، عند ما خفق علم التوحيد فحطم هياكل الشرك و معابد الوثنية، و نشر العدل على وجه البسيطة، و انبثق نور المحمدية يبدد سحب الظلام. و ينير للإنسانية طريقها. فأشرق وسط حلك الدياجير المظلمة يزيح حواجز الطريق التي تعترض سير قافلة الإنسانية الصاعد، راميا إيصالها إلى ربوع الخير و شاطئ النجاة، ليفرح المسلمون بذلك النعيم، فتزفر السعادة بديانهم و يعم الرفاه في أرضهم. و المسلمون وسط هذا الرخاء صفا متماسكا. فهل ندرك أثر ذلك الاختلاف؟ و هل يمكننا أن نعمل لإزالة ما خلفه من أثر سيئ في المجتمع الإسلامي؟ فلنطو صفحات ذلك التأريخ الأسود، و نتمسك بتعاليم ديننا، و نسير على منهاجه، تاركين وراءنا خرافات سلف مخدوع و جيل طائش و ترسبات طائفية قذرة. و لا بد أن تعلق كلمة الله و يظهر دين الإسلام على الدين كله و لو كره المشركون. بهذا وعدنا الله، و إن الله لا يخلف الميعاد.



ولقد ذكرت في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب، أن أهم الأسباب التي دعت إلى تأليفه، و تحمّل عناء البحث و مشقة التتقيب عن المذاهب. هو: تطرّف البعض بل تعصّب به على مذهب أهل البيت، فوصفهم بالشذوذ و مذهبهم بالبدعة. وهذا أمر لا مبرّر له ولا يذهب إليه عاقل. و لكن مؤثّرات التعصّب و عوامل السياسة العمياء قد وجهت الواقع إلى الوجهة المعاكسة، و دفعت المخدوعين و ذوى الأطماع لمعاداة أهل البيت، و رمى أتباعهم بكل ما يروق لهم أن يتقولوه. قال الرياشي: سمعت محمّد بن عبد الحميد قال: قلت لابن أبي حفصة ما أغراك ببني علي؟ قال: ما أحد أحب إليّ منهم، و لكن لم أجد شيئاً أنفع عند القوم منه: أى من بغضهم و التحامل عليهم (1). كان ابن أبي حفصة يتحامل على آل علي و يكثر هجاءهم طمعا بجوائز العباسيين، لأنّهم شجعوا الناس على التحامل و البغض لأهل البيت، و قد أنشد ابن أبي حفصة قصيدة أمام المهدي يتعرّض فيها لآل علي، فتزاحف المهدي من صدر مصلاه حتى صار على البساط، إعجابا بما سمع، و قال له: كم بيتا هي؟ قال: مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم. و هذا النهج الذي سار بنو العباس عليه كان بنو أمية ينتهجونه، و هو إثارة الشعور ضد آل علي، و معاقبة المعروفين بالولاء لهم، و لو كان أقرب الناس إليهم. يقول العبلي: شرّدوا بي عند امتداحي عليا و رأوا ذاك فيّ داء دويا

فوربي لا أبرح الدهر حتى تختلي مهجتي بحبي عليا

و بنيه لحب أحمد إنى كنت أحببتهم لحب النبيا

حب دين لا حب دنيا و شرّ ال حب حب يكون دنياويا

صاغنى الله فى الذؤابة منهم لا ذميما و لا سنيدا دعيا

و هذا الشاعر هو من بنى أمية، و لكنه كان يحب أهل البيت، فشرّده و طاردوه، و نقوه من البلاد.

ص: 264

وما أكثر الشواهد التي احتفظ بها التاريخ من تلك الأساليب التي استعملها حكام تلك العصور. لتوجيه الناس في طريق رغباتهم، وإثارة الشعور ضد أهل البيت عليهم السلام ونصب العداة لهم. ولم يكن من الصعب على قوة الحكم وشدة الدعاية، أن تزرع بذور العداة وتشر الكراهة لأهل البيت، ووصف أتباعهم بما يخالف الحقيقة والواقع. فليس من الغريب إذا تجنى ذوو الأطماع والسائرين في ركاب الدولة أن يوصف مذهب أهل البيت بالبدعة. وليس من الغريب أن يجعل التشيع عنوان الزندقة والشذوذ عن الدين، لأن الحقد لهم قام في نفوس الكثيرين وانتشر بطريقة لا شعورية، وقد صوّروا التشيع بصورة لا تقع العين منه إلا على منظر يثير الحقد والكراهة، عند ما شوهته الدعاية الكاذبة، وأسدت على محاسن هذا المبدأ أبرادا من نسيج الخيال، وفسّروا تاريخ الشيعة بتفسير خاطيء لا يتصل بالحقيقة. إنهم فسّروا حب الشيعة لأهل البيت اعتقادا بالتأليه، وأقاموا على ذلك شواهد من الأساطير المضحكة، كأسطورة ابن سبأ (1)، وأضافوا إليها قضايا المتداخلين في صفوف المسلمين من أعداء الدين، ليثيروا بينهم العداة، ولم يهتموا بالخطر الذي ينجم من وراء ذلك. لأن حكام ذلك العصر لا يهمهم شيء سوى نشر سلطانهم بكل وسيلة. كما إنهم فسّروا اعتماد الشيعة على أحاديث أهل البيت وأخذ الأحكام عنهم: بأن الشيعة تدعى نزول الوحي عليهم. وأقاموا شواهد وادعاءات باطلة، إلى غير ذلك من الأمور التي أخذها الكتاب المعاندون، أو المقلدون الذين يسرون في طريق وعر يتعثرون بالأوهام، فكتبوا بما شاءت الدعاية، لا بما شاء الحق والواقع.

ص: 265

1-1) لقد ظهرت مسرحية عبد الله بن سبأ على مسرح الأوهام؛ لينظر إليها ضعفاء النفوس كأنها حقيقة لا تقبل النقاش، وما هي إلا من مهازل التاريخ، وعجائب الزمن، وخرافة يكذبها الوجدان، ويندى منها جبين الإنسانية. إنها أسطورة مضحكة رتبتها أقلام مأجورة، و أخرجها إلى الوجود أبطال فتنة ودعاة شغب، ولقد تصدى الأستاذ الكبير السيد مرتضى العسكري لكشف حقيقة عبد الله بن سبأ، فألّف كتابا قيما صدر إلى الوجود منه جزء واحد، وهو يواصل نشر ما تبقى من بحثه القيم.

نعم ليس من الغريب أن نقف على آلاف الغرائب، ولكن الغريب تجاهل أسباب وجودها، وبواعث انتشارها، على أيدي فئة مخربة عابثة. إن تلك الأيدي قد رسمت للشيعة صورة مشوهة، ووصفهم بصفات بعيدة عن الواقع، وما ذلك إلاّ خضوعاً للعاطفة وطمعاً لما في أيدي خصوم الشيعة من الحكام. وإني أبقى على منهجي في شجب هذه الفرقة والدعوة إلى تحكيم العقل والتنزّه عن الاستسلام والخضوع لتلك الأسباب التي باد دعائها من الحكّام الذين انحرفوا بالخلافة واتخذوها ستاراً لمصالحهم وأغراضهم، وظهر اليوم حكام لكل مَنّا عندهم نصيب من الظلم والاضطهاد دون تمييز، فقد استخذى منهم من استخذى للقوى المعادية للإسلام، وقد استكبر منهم من استكبر، فبات فرعون هذا العصر. ولن تهدأ مني صرخة الاستنكار أو لهجة النقمة على كل من أيّد وأسهم على مدى تأريخنا ودعم الحكام في سياساتهم الرامية إلى تمزيق وحدة الصف وزرع الفتنة. كما أنني أأمل أن تتعدد البحوث وتكثر الكتابات التي تدعو إلى النزول عند حكم العقل والتزام المنطق في معرفة أسباب العداء المتأصل في نفوس العتاة والجبارين لأهل البيت وشيعتهم، ومن يقبل من أبناء عصرنا أن يكون تبعاً لهم في المنهج؛ فقد خان الأمانة الملقاة على عاتقه. ويكفي طرح هذا التساؤل كل مرة ليكون الجواب مقنعاً.

## البحث و الزوائد:

وبدراستي هذه عن المذاهب أخذت نفسي بالابتعاد عن الزوائد قدر الإمكان، فلا أتعرّض إلاّ لما فيه صلة بالبحث، وعلاقة بالموضوع، كما أهملت جانب الهزل والمجون، الحاصل من جراء التعصّب المذهبي، فهناك أشعار كثيرة، وقضايا متعددة، ولذلك أشرت لصلاة القفال (1) إشارة عابرة في الجزء الأول التي ذكرها بعض المؤرخين، وأنها هي صلاة أبي حنيفة بالصورة الصحيحة، كما تركت استقصاء أقوال الناقلين عليه، والناقلين له، وقد ذكرها الخطيب البغدادي وغيره. وإني لم أستوف تاريخ حياة الإمام الصادق عليه السلام ولم أتعرّض لترجمة الآباء

ص: 266

---

1- 1) لم أذكر هذه القضية بالتفصيل لما فيها من الأمور المخالفة للإسلام، وقد ذكرها ابن خلكان، وهو شافعي المذهب، ويقصد بذكرها الطعن على الحنفية في تجوزهم السجود على العذرة، والصلاة بجلد كلب وغير ذلك. كما نقلها كثير من المؤرخين.

و الأجداد و الأبناء و الأحفاد، لأن ذلك يستدعى تعدد أجزاء هذا الكتاب زيادة على ما أعددناه (1)، وقد أفردت مجلدا ضخما يتضمن ذلك تحت عنوان (حياة الإمام جعفر بن محمد) و قد قضيت فيه وقتا من الزمن، فكان هو أحد الأسباب التي أدت أن تطول الفترة بين صدور هذا الجزء و سابقه. و كذلك لم أستوف جميع حكمياته و مواعظه، لأنني قد جمعتها في جزئين على حدة تحت عنوان «الأسس التربوية» لتكون في متناول الجميع و سأنشر منها فصولا في هذا الجزء، لأنني لا أحب خلوه من تلك المآثر العظيمة، و الفكر الخوالد، و لا أقول بأنني قد أحطت بجميع تراثه الفكري، فقد تعمدت ترك الكثير منه اختصارا، و قد بقي الشيء الكثير مبعثرا في بطون الكتب هنا و هناك، و من الله نسأل أن يهيئ لهذه الآثار القيمة من يجهد نفسه في جمعها من مظانها، و يتناولها بالشرح اللائق بها، و الكاشف عن حقائقها، فإن في ذلك أكبر خدمة للأمة، و إحياء أعظم أثر من تراثها الفكري. و إذا أمدنا الله بمعونته، و وفقنا بعنايته، و وهب لنا فسحة من الأمل، و تأخيرا في الأجل، فسنقوم بهذه الخدمة، و نحقق ما نطلب تحقيقه. و من الله نطلب القوة، و به نستعين و بيده التيسير. كما نسأله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين و يوفقهم لاتباع أوامره، و أن يهب لهم اليقظة و الحذر مما يدبره لهم أعداء الدين، لإيجاد المشاكل و الاختلاف فيما بينهم، و اتساع الثغرة التي ينفذون منها إلى مآربهم الخبيثة، و غاياتهم الدنيئة، إذ لا أمل لهم بذلك مع جمع الكلمة و وحدة الصف. فلنطو صحائف التاريخ الأسود، و ننسى مآسى الماضي، و نزيل من نفوسنا آثار التعصب الطائفي، و ترك الخصومة في الدين فإننا أمام خصوم قد تقام خطرهم، و استفحل أمرهم. يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

ص:267

---

1- 1) أدخلنا في الجزء الثامن نبذا قصيرة من تراجم أبناء الإمام عليه السلام لم نتوسع فيها كما يجب لأن الغرض من ذكرهم في سياق البحث و تسلسل الكتاب هو الإشارة إليهم و التنويه بمكانتهم.



لمحات من تاريخ حياته

بعد ثلاثة أجزاء مضت من كتابنا «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» وقد تضمن كل جزء جانباً من حياة الإمام الصادق، ونحن لم نوف شخصية الإمام حقها في أى جانب تناولناه، وهنا نحاول أن نستعرض بعجالة كيفية تمييز الإمام الصادق بهذه الشخصية العظيمة. وبكل اطمئنان فإن التاريخ احتفظ بصورته مجردة من آثار السلطان ونتاج سياسات الحكام، فلم تنجح تلك الحملات فى دفع الناس عن أهل البيت وعميدهم، وفشلت فى الإساءة إليه. وإن رجلاً يعاصر تلك المرحلة وعهودها وأحداثها السياسية وقد تباينت فيها واتسعت و اختلفت المجريات والنتائج، ويخرج منها بمبادئه نقيه وبأهدافه نزيهة لهو من أعظم الرجال الذين يعجز القلم عن إيفائه حقه من البيان والتقدير. وببساطة، فإن صورة الحال أنه كان مع أبيه الباقر عليه السلام غاية بنى أمية، ثم هدم الله ملكهم وثل عرشهم. وبدأت فترة اتجهت فيها الأنظار إليه، فاجتازها، فهو يعلم ما ذا ستسفر عنه الأحداث وكيف ستكون السلطة، إذ علم من بنى العباس ما جهله غيره، ولما قام حكمهم واستقر، لقي منهم بلاء ومحنة حتى كتب الله له النجاة وحفظه. فهو ما بين حماية نفسه وأصحابه وبين رسالته الدينية وواجهه تجاه مجتمعه وأبناء دينه يشيد صرحاً دينياً وثقافياً خالداً ويشق طريقه بما يشق على غيره ويعجزه، لكنها خصائص أهل البيت سلام الله عليهم، فكم لأبى عبد الله الصادق من أعداء؟ وكم جهد الحكام فى الإساءة إليه وإلى أهله وشيعته؟ ولكن تلك الإساءات وذلك العداء فشلت جميعها، واحتفظ التاريخ بصورة متألفة لشخصية الإمام الصادق هى مصداق الأعلمية والأفضلية.

## ولادته:

الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق، ابن محمد الباقر، ابن علي زين العابدين، ابن الحسين سبط رسول الله، ابن علي بن أبي طالب عليهم السلام. ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة، أو الاثنين عند طلوع الفجر 17 ربيع الأول سنة 83 هـ وقيل سنة 80 هـ. وقيل غرة رجب أو منتصفه، وقيل يوم الثلاثاء قبل طلوع الفجر غرة شهر رمضان. والمعتمد الأول وهو يوم 17 ربيع الأول يوم ولادة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما عليه عمل كثير من المسلمين. وأمّه أم فروة، وقيل أم القاسم واسمها قريية، أو فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق. أمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وكانت أم فروة قد ولدت للإمام الباقر ولدين هما: الإمام الصادق عليه السلام وعبد الله أو عبيد الله، وقد قال الإمام الصادق فيها: «إنها ممن آمنت واثقت وأحسنتم، والله يحب المحسنين». وقد روت عن الإمام الباقر أحاديث كثيرة، وكانت لها مكانة علمية، وقد استقت العلم من ينبوع الوحي، ومعدن الرسالة، ومما يدلنا على مكانتها العلمية، ما رواه عبد الأعلى قال: رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متكررة، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى، فقال لها رجل ممن يطوفون: يا أمة الله أخطأت السنة. فقالت: إنا لأغنياء عن علمك. وكان أبوها القاسم بن محمد بن أبي بكر من أعلام الأمة وكبار المحدثين عن أهل البيت، وروى عن عمته عائشة وكثير من الصحابة، وكان من الفقهاء السبعة ومن رواة الحديث، وقد روى حديثه أصحاب الصحاح الستة. وقد استوفينا ترجمة أم فروة وأبيها القاسم وأبيه محمد، في كتابنا الذي أفردناه في ترجمة الإمام جعفر بن محمد الصادق، ولذلك اكتفينا بهذه الإشارة الموجزة.

## نشأته:

نشأ أبو عبد الله عليه السلام بالمدينة المنورة، وقد تولى جده الإمام زين العابدين تربيته في عهد طفولته، ودرج تحت كنفه ورعايته، وكان هو معلمه الأول. قضى مع جده زين العابدين ما يقارب 18 سنة من عمره، وبعد وفاة جده سنة

94 هـ تولى أبوه الباقر تربيته، واستقل بتعليمه، وكان الإمام الصادق مقدما عند أبيه وملازما له في حله وترحاله، ودخل معه الشام ومكة المكرمة، وقد شاهد هناك ازدحام الفقهاء من مختلف الأقطار على أبيه الباقر لاستماع حديثه والسؤال منه، وكانت حلقة درسة تعقد بالمسجد، فتكون هي الحلقة الوحيدة لطلاب العلم، ورجال الفكر، ورواة الحديث، فلا تعقد حلقة هناك إلا بعد انتهاء الإمام الباقر من إلقاء دروسه. وكان الإمام الصادق في طليعة تلامذة أبيه في مدرسته بالمدينة، وهي تضم عددا وافرا من أعلام عصره: كعمر بن دينار الجمحي، وعبد الرحمن الأوزاعي، وابن جريج، ومحمد بن المنكدر، ويحيى بن كثير وغيرهم من رجال الحديث، وهم يسألونه عن أهم المسائل وأعظم المشاكل، ولم يحضر الإمام الصادق حلقة أحد من فقهاء عصره، فهو غنى عن ذلك. وما يدعى أنه روى عن عروة بن الزبير والزهرى وغيرهما فإنه ادعاء فارغ لا يدعمه دليل، لأنه عليه السلام استقى العلم من جده زين العابدين ومن أبيه الإمام محمد الباقر عليه السلام حتى نشأ تلك النشأة الصالحة، ونال تلك الدرجة السامية، وعظم في أعين كبار الفقهاء، لما تحلى به من الخصال الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والإحاطة التامة بثتى العلوم، وظهرت عليه علائم الفضل، وشرف المحتد، وعزة النفس، وصدق اللهجة. قال عمر بن المقدم: إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلاله النبيين. وهكذا بقي مع أبيه عليه السلام بعد جده زين العابدين تسع عشرة سنة. ولما توفي أبوه الباقر سنة 114 هـ تفرّد بالزعامة، وقام بأعباء الإمامة، بوصية من أبيه الباقر عليه السلام وكانت مدة إمامته 34 سنة.

### معاصرته للحكم الأموي:

أدرك الإمام الصادق عليه السلام طرفا كبيرا من العهد الأموي، وعاصر كثيرا من خلفائهم. فقد ولد عليه السلام في عهد عبد الملك بن مروان، وأدرك خلافته ثلاثة سنين أو ستة أي من سنة 80 هـ أو 83 هـ إلى سنة 86 هـ وهي السنة التي توفي فيها عبد الملك بن مروان. ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة وأشهر. ثم ملك الوليد بن عبد الملك سنة 86 هـ وتوفي سنة 96 هـ وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر.



ثم ملك أخوه سليمان بن عبد الملك و توفي سنة 99 هـ و كانت مدة خلافته سنتين و ثمانية أشهر. ثم ملك بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة 101 هـ و مدة خلافته سنتين و ستة أشهر. و ملك بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان المتوفى سنة 105 هـ و كانت مدة خلافته أربع سنين و شهرا. و ملك بعده هشام بن عبد الملك المتوفى سنة 125 هـ و كانت مدة خلافته عشرين سنة إلا شهرا. و ملك بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة 126 هـ و مدة خلافته سنة و ثلاثة أشهر. و ملك من بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة 126 هـ. و ملك بعده أخوه إبراهيم و لم تطل أيامه، و تنازل لمروان الحمار بن محمد بن مروان بن الحكم سنة 127 هـ و كان مروان آخر خلفاء بني أمية، و قتل سنة 132 هـ. و كانت مدته خمس سنين و عشرة أشهر. و لم تكن مدة خلافة أو سلطان، بل أيام حروب متوالية، و ثورات متتابعة، و بموته انتهى العهد الأموي، و انهارت دولتهم، و قامت على أطلالها الدولة العباسية. كانت هذه المدة التي لا تقل عن ثمانية و أربعين سنة قضاها الإمام الصادق عليه السلام في عهد الحكم الأموي، مليئة بأحداث تبعث آلاما تنكد عليه عيشه، لما فيها من المحن و ويلاتها. إنه عليه السلام كان يرى المضطهدين من خيار الأمة و صلحائها، تملأ بهم السجون، و يساقون إلى الموت زرافات و وحدانا، كما يرى بين آونة و أخرى رجال الطالبين و أعيانهم مطاردين و مشردين، يلاقون حتفهم شهيدا بعد شهيد، فكانت مقاتلهم مآسى التاريخ الدامية، و كان كل من ملك الأمر من أولئك الحكام يراقب حركاتهم بعين ساهرة، و أذن سامعة، فإذا ضاقت عليهم الأرض و أنفوا الذل خرجوا بالسيف، و هم يأملون مناصرة الأمة و مؤازرتها، و لكن لم تسعد الأمة بذلك، فكانت الشهادة و سامهم، و القتل نهايتهم.

لقد عاصر الإمام الصادق عليه السلام ملوكا استفحل ضررهم على جميع الطبقات، وقد انحطوا إلى مهاوى الرذيلة، فارتكبوا المنكرات التي يندى منها الجبين، ويتصدع لها قلب ذوى الأنفة والحمية على الدين، وهم يدعون الخلافة للمسلمين ولا يتصفون بأى صفة من صفاتها، فليس منهم أحد إلا وهو ظالم فى حكم، جائر على الرعية، مستبد بأموال الأمة، ينفقها فى شهواته، اللهم إلا إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز فهو نجيبهم، إذ أظهر الزهد والابتعاد عن الظلم. وبادر إلى محو السنة الأموية، ومنع سب الإمام على عليه السلام بعد أن أدخل فى مناهج التعليم، وأعلنوا به على المنابر، وفى الأندية والمجتمعات، لينشئوا جيلا قد تركزت فيه فكرة البغض لعلى وأولاده، فكان سب الإمام على هو علامة الولاء للدولة، والبراءة منه دليلا على الإخلاص وعدم الخيانة، حتى تركزت فى مخيلة كثير من الناس صور معاكسة للحقيقة، ونشئوا على التقليد الأعمى فى اتباع ولاية أمورهم، وتصديق ما صدر عنهم. قال أبو يحيى السكري: دخلت مسجد دمشق فقلت: هذا بلد دخله جماعة من الصحابة. فملت إلى حلقة فيها شيخ جالس. فجلست إليه، فقال له رجل جالس أمامه: من هو على بن أبى طالب؟ فقال الشيخ: خفاق-يعنى ضعيفا-كان بالعراق اجتمعت عليه جماعة. فقصد أمير المؤمنين (يعنى معاوية) أن يحاربه، فنصره الله عليه. قال يحيى: فاستعظمت ذلك وقمت، فرأيت فى جانب المسجد شيخا يصلى إلى سارية، وهو حسن السمى والصلاة والهيئة، فقلت له: يا شيخ أنا رجل من أهل العراق، جلست إلى تلك الحلقة، ثم قصصت عليه القصة. فقال الشيخ: فى هذا المسجد عجائب، بلغنى أن بعضهم يطعن على أبى محمد الحجاج بن يوسف، فعلى بن أبى طالب من هو (1)؟! . هكذا أثرت قوة الدعاية فى مجتمع يتقبل تلك الأباطيل والمفتريات، لضعف الإيمان. وكم للدعاية من أثر فى توجيه الناس إلى ما تهدف إليه السياسة، من تحقيق أهداف وبلوغ مآرب، حتى حملوا السذج على الاعتقاد بكل ما يوحى إليهم، حتى ارتبطت فى نفوس بعض الناس ارتباطا وثيقا، فهى لا تقبل الرد والمعارضة. أما البعض الآخر فقد خضعوا لتلك الأوهام تحت ضغط الإرهاب وقوة الحكم الغاشم.

ص: 273

---

1-1) المدخل إلى مذهب أحمد بن حنبل ص 5 نقلا عن تاريخ ابن عساکر. [1]

و لولا إسهام علماء القصور و فقهاء الملوك فى هذه الحملة لكان أمرها سياسيا يتصل بمصالح السلطة و شئون الحكم، لكن المؤلم أن الظلمة تحكّموا بالناس بوسائل القوة الغاشمة من جهة، و بوسائل الدين من جهة أخرى. يقول الشعبى: ما ذا لقينا من آل على إن أحببناهم قتلنا، و إن عاديناهم دخلنا النار. و قد مرّت الإشارة إجمالاً- فى الأجزاء السابقة- إلى تلك الدعايات و أساليبها، و مدى تأثر المجتمع فيها. و على أى حال فإن الإمام الصادق عليه السّلام قضى من عمره فى الحكم الأموى ما يقارب نصف قرن، و قد شهد انتقال الدولة منهم إلى بنى العباس، و شاهد ذلك النشاط السياسى الذى عصّف بتلك الدولة فهدم أركانها، و محاهها من صفحة الوجود، كما عصّف بأرواح الناس و أموالهم، و قد اتضح لنا رأيه و موقفه وسط ذلك المعترك، و سنرى فيما بعد رأيه فى معالجة المشاكل و موقفه فى إصلاح الوضع. و خلاصة القول إن الإمام الصادق عليه السّلام قد شاهد فى عصر أولئك الحكام أنواع الظلم و ضروب المعن، من سوء السيرة فى الأمة، و جور الحكم فى الرعية. و قد تراكمت المصائب على أهل البيت، و توالى عليهم الحوادث من قتل و تشريد، و فرض مراقبة شديدة، و منع الأمة من الاتصال بهم، و الانتهاك من نمير تعاليمهم. و شاهد جده الإمام زين العابدين عليه السّلام على فراش الموت، متأثراً من السم الذى دسّه الأمويون له، فقضى نحوه صلوات الله عليه سنة 94 هـ. و كذلك شاهد أباه الإمام الباقر عليه السّلام على فراش الموت، و لفظ أنفاسه مسموماً بيد أولئك الطغاة، الذين صعب عليهم انتشار ذكره و اتساع آفاق دعوته، و نشاط مدرسته و ذلك فى سنة 114 هـ. و وافاه نبأ مقتل عمّه زيد بن على عليه السّلام الثائر على الظلم و المنتصر للعدالة الضائعة، فى ظل حكم أولئك الطغاة فى سنة 124 هـ. و حينما أخبر الإمام الصادق عليه السّلام عن مقتله و ما جرى عليه، بكى بكاء شديداً، و قال: «إنا لله و إنا إليه راجعون، عند الله أحسب عمّى» ثم قال: «مضى و الله شهيدا، كشهداء استشهدوا مع رسول الله و على و الحسين».

وقال عليه السلام: «فلعن الله قاتله وخاذله، وإلى الله أشكو ما نزل بأهل بيت نبيه بعد موته، ونستعين الله على عدونا وهو المستعان». و لم تمض على قتل زيد بن علي مدة من الزمن حتى وافته الأنباء بقتل ابن عمه يحيى بالجوزجان سنة 126 هـ و صلب على باب المدينة، إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني فأنزله ودفنه. وهكذا كان في كل آونة يقرع سمعه نبأ مفرج في أهل بيته وشيعته، فقد ملأوا بهم السجون، و صبغوا من دمائهم الأرض، و اهترت بأجسادهم المشاتق. وقد تلقى تلك الفجائع بصبر و ثبات، و عزيمة صادقة. و لا يغيب عن الأذهان عظيم استياء الإمام و محنته من جراء الانحراف العقائدي و السياسي، و بعد الأمة الإسلامية عن واقع الدين، و ابتعادهم من الناحية العملية عن الإسلام، و هو المسئول الأول عن التوجيه، و هداية الأمة. و ما ذا يصنع و هو المحاط برقابة شديدة، و الدولة لا تنفك عن مقابله بالشدّة، و محاولة الفتك به بين آونة و أخرى. و قد نظر عليه السلام إلى واقع الأمر نظرة دقيقة، و سار على خطة محكمة و طريق سوى في معالجة الأوضاع، و إصلاح المجتمع. أما بقية حياته التي قضاها في العهد العباسي، و هي من سنة 132 هـ إلى سنة 148 هـ و هي سنة وفاته، و تكاد هذه المدة أن تكون في بدايتها خير عهد يشهده الإمام من حيث الحرية الكاملة، و رفع الرقابة المشدّدة، و لكن لم يطل الزمن حتى اشتد المنصور في معاملته، و عامله بقسوة لا مزيد عليها، حتى اغتاله بالسم في الخامس و العشرين من شهر شوال سنة 148 هـ. و خلاصة القول: إن الإمام عاش هذه المدة وسط معترك سياسي و فكري، و قد قام بواجبه الإصلاحى، و وجه الأمة إلى ما فيه سعادتها، و لم يخضع لتلك السلطات فيترك عمله، أو يتخلى عن المسؤولية في أداء الرسالة، فلم يتزلف لملوك عصره فيسايرهم، أو يبرّر أعمالهم، بل كان دائما يسلك منهج آبائه في محاربة الظالمين، مظهرًا سخطه عليهم، معلنا غضبه على أعمالهم، داعيا لمقاطعتهم، و كانت عليه من الله جنة واقية، فهو متسلح بإيمانه بالله، متحمّل الأذى في سبيل الدعوة إلى الله. و لا بد لنا هنا-إتماما للبحث عن حياته-من ذكر شيء من سيرته و بعض تعاليمه التي تتجلى فيها روح الصّلاح، و هو يضع في كل منها حجرا لأعظم الأسس التربوية.



قبس من سيرته و تعاليمه

## تمهيد:

لقد كان الإمام الصادق عليه السلام مثالا كاملا لدعاة الإصلاح، وعلما من أعلام الصلاح، يأمر بالأخلاق الفاضلة و السجايا الحميدة، و اكتساب الفضائل، و الابتعاد عن الرذائل، لا يدخر النصيح عن أحد. كان يدعو الناس بلين و رفق، و يجادلهم بالتي هي أحسن، و لا يتشدد على الشاك في الدين، بل كان يوضح له ما أشكل، و يبين له ما أبهم، حتى يظهر له الحق و يجلو له السبيل. و في خضم عداوة الحكام لأهل البيت، و موجات الإرهاب التي يتعرض لها الشيعة من قبل أصحاب السلطان و أذئابهم، كان الإمام عليه السلام حريصا على إبعاد المؤمنين عن مواقع سيوف الظلمة، و كان من نتائج انحراف الحكام عن الدين و بعدهم عن روح الإسلام أن يصرح في المجتمع بالنصب و العدا لأهل البيت، فسئل الإمام عن رجل سبّاه للإمام على عليه السلام فقال عليه السلام: «حلال الدم و الله، لو لا أن تعمّ به بريئا». قال السائل: لأى شىء يعم به بريئا؟ قال: «يقتل مؤمن بكافر». و سئل عليه السلام فى قتل الناصبي؟ فقال: «حلال الدم، و لكنى أتقى عليك، فإن قدرت أن تقلب عليه حائطا أو تغرقه فى ماء لكى لا يشهد به عليك فافعل». و كان يتشدد على أصحابه المتشددين فى معاملة المنحرفين عن الحق، و يأمرهم بأن يدعوهم بالحكمة و الموعظة الحسنة و يقول لهم: «لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم، ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون، و ما يدخل به الأذى علينا، أن تأتوه فتؤنّبوه و تعدلوه و تقولوا له قولا بليغا». فقال له بعض أصحابه: إذا لا يقبلون منا.

قال: «اهجروهم واجتنبوا مجالسهم». فهو يوجب على العالم أن لا يتخلى عن تعليم الجاهل الذى يتردى بجهالته، فيرتكب ما يخالف الدين، ويدخل به الأذى على دعاة الإصلاح وحماة المسلمين، ولا يصح لهم هجره إلا بعد اليأس من إصلاحه، وإزالة الغشاوة التى أعمت بصره، ففى هذه الحالة تكون مواصلته تشجيعاً، ومجالسته إغراء. وكان عليه السلام يبذل جهده فى توجيه الناس وتقويم أخلاقهم، وإصلاح شئونهم ما استطاع، ويريد منهم أن يلتزموا الجوهر ويتركوا العرض، ويأمرهم بالعمل، ويدعو ذوى اليسر إلى الإنفاق على ذوى العسرة، وأن يوسعوا على المضيق منهم حتى يمنعوهم من ذل السؤال، وكان ينفق حتى لا يبقى شيئاً لعياله (1) كما يحدث عنه الهياج بن بسطام. يقول شعيب بن ميثم: قال لى الصادق: «يا شعيب أحسن إلى نفسك وصل قرابتك، وتعاهد إخوانك، ولا تستبد بالشئ فتقول: ذا لنفسى و عيالى، إن الذى خلقهم هو يرزقهم». إلى غير ذلك من أقواله وأفعاله، التى كان يبعث فيها الشعور لسامعيه على لزوم التخلُّق بالسجيا الحسنة اقتداء به، لأنه عليه السلام كان حريصاً على توجيه المجتمع، والتخلُّى بأداب الإسلام، فهو يدعو الأغنياء لمواساة الفقراء والإحسان إليهم، لنزول عوامل العداة والحسد والبغضاء، ويكون الجميع إخوة، كل يحب الخير لأخيه، فلا أثرة ولا بخل، ولا إهانة بعض لبعض، ولا خصومة ولا مشاحنة، إلى غير ذلك مما دعا الإسلام كل مسلم أن يتصف به. ولحرصه عليه السلام على تأليف القلوب وإزالة الشحناء، وإطفاء نار العداوة والبغضاء، كان يدفع إلى بعض أصحابه من ماله ليصلح به بين المتخاصمين على شئ من حطام الدنيا تسوية للخلاف، ودفعاً للتقاطع والتهاجر. ومنعا من الترافع لحكام الجور.

### نهي عن المنازعات و فض الخصومة لدى حكام الجور:

قال أبو حنيفة واسمه سعيد بن بيان: مر بنا المفضل بن عمرو وأنا وختن لى

ص: 278

1-1) القرمانى ص 128. وكشف الغمة للاربلى ج 1 ص 223.

نتشاجر فى ميراث، فوقف علينا ساعة، ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل. فأتيناه وأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا حتى إذا استوثق كل واحد منا صاحبه قال المفضل: أما إنها ليست من مالى، و لكن أبا عبد الله الصادق أمرنى: إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما، و أفنديهما من ماله، فهذا مال أبى عبد الله الصادق. و هكذا يكشف لنا عظيم اهتمامه بجمع الكلمة، و عدم الفرقة أولاً، و إنهاء الخصومات على يد من أقامه من قبله لذلك ثانياً. لأنه عليه السلام منع عن المرافعة إلى حكام الجور، و أمر بمقاطعتهم، و قد أقام جماعة من كبار أصحابه حكماً من قبله، ينظرون فى الخصومات، و يحكمون بحكم الله عزّ و جل، و قد أمر الإمام الصادق بالرجوع إليهم، و المرافعة عندهم و قال: «أيما رجل كانت بينه و بين أخ له ممارسة فى حق، فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه و بينه، فأبى إلا أن يرفعه إلى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عزّ و جلّ فيهم: أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ « . و كان يعلن عليه السلام بأن المرافعة إلى أولئك الحكام إثم، و أن حكمهم غير نافذ، لأن الحكومة للإمام العادل بالحكم، العالم بالقضاء، كنبى أو وصى نبى؛ و هو عليه السلام أحق بالحكم، و أمر بالرجوع لمن جعله من قبله للحكم بين المتنازعين. و قد ورد عنه عليه السلام أنه قال: «يأكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور، و أيما مؤمن قدم مؤمناً فى خصومة إلى قاض أو سلطان جائر، فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه فى الإثم» . و المراد بقوله عليه السلام: «بغير حكم الله» مطلق ما يحكمون به، سواء كان الحكم بالحق أم بالباطل، لأنهم حكام جور، و ليس لهم حق الحكومة بأحكام الله، فحكمهم غير حكم الله. و كما كان ينهى عن المرافعة إليهم، كان ينهى عن معاونتهم و العمل لهم، حتى فى البناء و كراية الأنهر، و قال فى جواب من سأله عن ذلك: «ما أحب أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء، إن الظلمة و أعوان الظلمة فى سرادق من نار، حتى يحكم الله بين العباد» .



و طلب منه مولى من موال جده على بن الحسين عليه السلام أن يكلم والى المدينة - وهو داود بن علي - أن يدخل في بعض الولايات. فقال عليه السلام: «ما كنت لأفعل». فظن الرجل أن امتناع الإمام عليه السلام كان خوفا من أن يظلم أحدا؛ فحلف له بالأيمان المغلظة أنه يعدل ولا يجور، فكان جواب الإمام عليه السلام أن قال له: «تناول السماء أيسر عليك من ذلك». وقد أشرنا من قبل إلى مواقفه ضد الحكام و أحكامهم، وإعلانه المقاطعة لهم. وعلى هذا النهج سار أتباعه، وطبعت مدرسته بهذا الطابع، فكانت عرضة للخطر من قبل حكام الجور، ولكنها واصلت كفاحها في سبيل ترسيخ مبادئها وإعلاء كلمة الحق. وكان يحرص الحرص الشديد على إزالة الشحنة من القلوب، وبث روح الأمانة، فهو ينهى عن التهajer والمقاطعة. قال المفضل: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «لا يفترق رجلان على الهجران إلا استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استوجب ذلك كلاهما». فقال له معتب: جعلت فداك هذا حال الظالم، فما بال المظلوم؟ قال عليه السلام: «لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتغافل عن كلامه. سمعت أبي يقول: إذا تنازع اثنان فعاد أحدهما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول له: أى أخى أنا الظالم. حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فإن الله حكم و عدل يأخذ للمظلوم من الظالم». وقال جابر بن عون: إن رجلا قال لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام: إن بينى وبين قوم منازعة فى أمر، وإنى أريد أن أتركه، فيقال لى: إن تركك له ذلة. فقال عليه السلام: «إن الدليل هو الظالم».

### حثه على صلة الرحم:

فهو عليه السلام يحاول أن يزيل من القلوب ضغائن الأحقاد التى تبعث على الكراهة و الفرقة، وكان هو عليه السلام من حسن سيرته و مكارم أخلاقه أنه يصل من قطعه، ويعفو عن أساء إليه، كما ورد أنه وقع بينه وبين عبد الله بن الحسن كلام، فأغلظ عبد الله

فى القول، ثم افترقا و ذهبا إلى المسجد، فالتقيا على الباب، فقال الصادق عليه السلام لعبد الله بن الحسن: «كيف أمسيت يا أبا محمد؟». فقال عبد الله: بخير- كما يقول المغضب-. قال الصادق عليه السلام: «يا أبا محمد أ ما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟» ثم تلى قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَصِدُّونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . فقال عبد الله: فلا ترانى بعدها قاطعا رحما. و كان يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تقطع رحمك و إن قطعتك». و جاء إليه رجل فشكا أقاربه، فقال عليه السلام: «اكظم غيظهم». فقال الرجل: إنهم يفعلون و يفعلون. فقال عليه السلام: «أ تريد أن تكون مثلهم فلا- ينظر الله إليكم!». و قال عليه السلام: «إن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن لى أهلا قد كنت أصلهم و هم يؤذونى، و قد أردت رفضهم. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله يرفضكم جميعا». قال الرجل: و كيف أصنع؟ قال عليه السلام: «تعطى من حرمك، و تصل من قطعك، و تعفو عمن ظلمك، فإذا فعلت ذلك كان الله عزّ و جل لك عليهم ظهيرا». فكان عليه السلام يصل رحمه، و يبذل لهم النصح، و يدعوهم إلى ما فيه صلاح أنفسهم، و إصلاح الأوضاع التى اضطرب حبل استقامتها فى عصرهم، و كان يصل فقراءهم بالليل سرا و هم لا يعرفونه، كما كان عليه السلام يبذل النصح لجميع المسلمين، و يدعوهم إلى الالتزام بأوامر الدين. و كان يحث فى كثير من تعاليمه على مساعدة الضعفاء و معاونة المعوزين، و صلة الفقراء و المساكين، و يقوم هو بنفسه بصلتهم و معاونتهم، و يوزع عليهم من ماله. و إذا جن الليل قام بصدقة السرّ، يطوف على بيوت الفقراء. قال هشام بن الحكم رحمه الله: كان أبو عبد الله الصادق عليه السلام إذا اعتم و ذهب من الليل شطره، أخذ جرابا فيه خبز و لحم و دراهم فيحمله، ثم يذهب فيه إلى

أهل الحاجة من أهل المدينة، فيقسمه فيهم، وهم لا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله فقدوا ذلك، فعلموا أنه كان هو أبو عبد الله الصادق عليه السلام.

### حثه على مساعدة الضعفاء و أبناء السبيل:

وقال له رجل من أصحابه: جعلت فداك. بلغني أنك تفعل في عين زياد (اسم ضيعة له) شيئاً أحب أن أسمعك منك. فقال عليه السلام: «نعم كنت أمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم، ليدخل الناس ويأكلوا، و كنت أمر أن يوضع عشر بنيات يقعد على كل بنية عرة، كلما أكل عشرة جاء عشرة أخرى، يلقي لكل نفس منهم مد من رطب، و كنت أمر لجيران الضيعة كلهم: الشيخ والعجوز والمريض والصبي والمرأة، و من لا يقدر، أن يجيء فيكون لكل إنسانا مدا، فإذا أوفيت القوام والوكلاء أجرتهم؛ أحمل الباقي إلى المدينة، ففرقت في أهل البيوت والمستحقين على قدر استحقاقهم، و حصل لي بعد ذلك أربعمائة دينار، و كانت غلتها أربعة آلاف». و قال مصادف: كنت مع أبي عبد الله عليه السلام ما بين مكة والمدينة، فمررنا على رجل في أصل شجرة، و قد ألقى بنفسه، فقال عليه السلام: «مل بنا إلى هذا الرجل، فإني أخاف أن يكون قد أصابه العطش». فملنا إليه فإذا هو رجل من النصارى طويل الشعر، فسأله الإمام: «أعطشان أنت؟» فقال: نعم. فقال الإمام: «انزل يا مصادف فاسقه». فنزلت و سقيته ثم ركب و سرنا. فقلت له: هذا نصراني، أفتتصدق على نصراني؟ فقال: «نعم. إذا كانوا بمثل هذه الحالة». و لشدة اهتمامه بمساعدة الضعفاء، و قضاء حوائج المؤمنين، كان يرى عليه السلام أن الإعراض عن المؤمن المحتاج للمساعدة استخفاف به، و الاستخفاف بالمؤمن استخفاف بهم عليهم السلام. و جاء ذلك موضحة في قوله-وقد كان عنده جماعة من أصحابه-: «ما لكم تستخفون بنا؟» فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ الله أن نستخف بك أو بشيء من أمرك. فقال عليه السلام: «إنك أحد من استخف بي». فقال الرجل: معاذ الله أن أستخف بك!!.

فقال له عليه السلام: «ويحك ألم تسمع فلانا ونحن بقرب الجحفة، وهو يقول لك: احملنى قدر ميل فقد والله أعيتت. فوالله ما رفعت له رأساً، لقد استخففت به، و من استخف بمؤمن فبنا استخف، وضيع حرمة الله عزّ وجلّ». وقال صفوان الجمال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فدخل عليه رجل من أهل مكة-يقال له ميمون-فشكى إليه تعذّر الكراء عليه. فقال عليه السلام: «قم فأعن أخاك». فقمت معه فيسّر الله كراه، فرجعت إلى مجلسي، فقال أبو عبد الله: «ما صنعت في حاجة أخيك؟». فقلت: قضاها الله: بأبي أنت وأمي. فقال عليه السلام: «أما إنك إن تعن أخاك المسلم أحب إليّ من طواف أسبوع في البيت». ودخل عليه عمار الساباطي، فقال له: «يا عمار إنك ربّ مال كثير، فتؤدى ما افترض الله عليك من الزكاة؟» قال: نعم. قال عليه السلام: «فتخرج الحقّ المعلوم من مالك؟» قال: نعم. قال عليه السلام: «فتصل قرابتك؟» قال: نعم. قال: «فتصل إخوانك؟» قال: نعم. قال عليه السلام: «يا عمار إن المال يفنى، والبدن يبلى، والعمل يبقى، والديان حتى لا يموت يا عمار ما قدمت فلم يسبقك، وما أخرت فلن يلحقك». وقال المفضل بن قيس: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فشكوت إليه بعض حالي، وسألته الدعاء فقال: «يا جارية هاتي الكيس»، فجاءت بكيس. فقال: «هذا كيس فيه أربعمائة دينار، فاستعن به». قال المفضل: فقلت لا والله ما أردت هذا، ولكن أردت الدعاء لى.

فقال لى عليه السّلام: «و لا- أدع الدعاء، و لكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم». و قال الشقرانى-مولى رسول الله-: خرج العطاء أيام المنصور، فوقف على الباب متحيراً، و إذا بجعفر بن محمّد قد أقبل، فذكرت له حاجتى، فدخل ثم خرج و إذا بعطائى فى كفه و ناولنى إيّاه و قال: «إن الحسن من كل أحد حسن، و إنه منك أحسن، و إن القبيح من كل أحد قبيح، و إنّه منك أقبح لمكانك منا». قال ابن الجوزى: و إنما قال له جعفر ذلك لأن الشقرانى كان يشرب الشراب، فمن مكارم أخلاق جعفر أنه رحب به و قضى حاجته مع علمه بحاله و وعظه على وجه التعريض، و هذا من أخلاق الأنبياء. و قال يوماً لبعض أصحابه: «ما بال أخيك يشكوك؟!» فقال: يشكونى إذ استقصيت عليه حقى. فجلس الإمام مغضباً و قال: «كأنك إذا استقصيت عليه حقك لم تسىء؟! أ رأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن يجور عليهم؟ لا. و لكن خافوا الاستقصاء، فسّماه الله سوء الحساب. فمن استقصى فقد أساء». قال زرارة: قلت لأبى عبد الله: إن لى على رجل ديناً و قد أراد أن يبيع داره فيعطينى. فقال الصادق عليه السّلام: «أعيذك بالله أن تخرجه من ظل رأسه». و كان يسأل القادمين عليه من أصحابه عن معاونة بعضهم بعضاً. قال محمّد بن زيد الشحام: رأيت أبى عبد الله و أنا أصلى، فأرسل و دعانى، فقال لى: «من أين أنت؟» قلت: من الكوفة. فقال: «من تعرف من الكوفة». فذكرت له رجلين. قال: «و كيف صنيعهما إليك». قلت: و ما أحسن صنيعهما إلّى. فقال عليه السّلام: «خير المسلمين من وصل و أعان و نفع. ما بت ليلة قط و فى مالى حق يسألنيّه الله تعالى» ثم قال: «أى شىء معك من النفقة»، قلت: عندى مائتا درهم. قال: «أرنيها». فأتيته، فزاد فيها ثلاثين درهماً و دينارين، ثم قال عليه السّلام: «تعشّ عندى». فتعشيت عنده. قال زيد: فلما كان من السنة القابلة لم أذهب إليه، فأرسل إلّى فدعانى، فقال عليه السّلام: «ما لك لم تأتني البارحة؟»

قلت: لم يأتني رسولك. فقال عليه السلام: «فأنا رسول نفسي إليك ما دمت مقيما في هذه المدة». قال زيد: فقلت له علمني دعاء. قال: «أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، يا من أرجوه لكل خير، وآمن سخطه عند كل عثرة، يا من يعطى الكثير بالقليل، ويا من يعطى من سأله تحننا منه ورحمة، ويا من أعطى من لم يسأله و من لم يعرفه، صلّ على محمّد وأهل بيته، وأعطني بمسألتى إياك خير الدنيا وجميع خير الآخرة، فإنه غير منقوص ما أعطيت وزدني من سعة فضلك يا كريم». ثم رفع يده فقال: «يا ذا المن وال طول، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا النعماء والجود، ارحم شيبتي من النار». ثم وضع يديه على لحيته، ولم يرفعهما، حتى امتلأ كفه دموعا. وقال مصادف: كنت عند أبي عبد الله الصادق، فدخل رجل فسلم عليه، فسأله الإمام: «كيف من خلفت من إخوانك؟» فأجاب الرجل وأحسن الثناء وأطراهم. فسأله الإمام: «كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم!؟» فقال الرجل: قليلة. قال الإمام: «كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟» فقال الرجل: قليلة. قال الإمام: «كيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟» فقال الرجل: إنك تذكر أخلاقا قلّ ما هي فيمن عندنا. قال الإمام: «فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعتنا؟!» وقال إسحاق بن عمار: دخلت على أبي عبد الله الصادق. فنظر إليّ بوجه قاطب، فقلت: ما الذي غيّرَكَ لي؟ قال عليه السلام: «الذي غيّرَكَ لإخوانك، بلغني يا إسحاق أنك أقعدت ببابك بوابا يردّ عنك الفقراء». فقلت: جعلت فداك إنني خفت الشهرة. فقال عليه السلام: «ألا خفت البلية».

قال إسحاق بن إبراهيم: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال: يا ابن رسول الله أنا من مواليكم، و بيني وبينكم شقة بعيدة، وقد قلّ ذات يدي، و لا أقدر أن أتوجه إلى أهلي إلا أن تعينوني، فنظر أبو عبد الله و قال: «أ ما تسمعون ما يقول أخوكم؟ إنما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعد ما سأل إنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه، أفييت ليلته متأرقاً متململاً بين اليأس و الرجاء، لا يدري أين يتوجه بحاجته، فيعزم على القصد إليك، فأتاك و قلبه يجب، و فرائضه ترتعد، و قد نزل دمه في وجهه، و بعد هذا فلا يدري أينصرف من عندك بكآبة الرد، أم بسرور النجاح، فإن أعطيته رأيت أنك قد وصلته، و قد قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: و الّذي فلق الحب، و برأ النسمة، و بعثنى بالحق نبياً، لممّا يتشجم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك». قال إسحاق: فجمعوا له خمسمائة درهم، و دفعوها إليه. و كان عليه السلام يوجه المجتمع بتعاليمه إلى جميع مهمات الحياة، و يحث الإنسان على عزة النفس و عدم الإهانة لها فيقول: «إن الله فوّض إلى المؤمن أموره كلها، و لم يفوض إليه أن يكون ذليلاً أ ما تسمع قول الله تعالى: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ فالؤمن يكون عزيزاً و لا يكون ذليلاً، إن المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه بالمعاول، و المؤمن لا يستقل من دينه شيء». .

### حُتّه على العمل و طلب الرزق الحلال:

وقد حث عليه السلام في جملة من تعاليمه على طلب المال من حلّه، و يدعو أصحابه إلى التكسب في الأسواق، و يجعل ذلك عزّاً للإنسان. يقول المعلى بن خنيس: رأني أبو عبد الله عليه السلام و قد تأخرت عن السوق، فقال لي: «اغدو إلى عزّك». و قال لآخر- و قد ترك غدوّه إلى السوق:- «ما لي أراك و قد تركت غدوّك إلى عزّك؟!» فهو عليه السلام يدعو لكسب المال من حلّه، لينال المرء عزّة في نفسه، و لا يكون كلاً على الناس فيهان.

ولقد أخبر عن رجل قال: لأفعدن ولأصلين، ولأصومن ولأعبدن الله، فأما رزقي فيأتيني. قال عليه السلام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم». وقال له رجل: إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها. قال عليه السلام: «ما ذا تحب أن تصنع بها». فقال الرجل: أوسع بها على نفسي و عيالي، وأصل بها قرابتي، وأتصدق وأحج، وأعتمر. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة». وكان هو بنفسه يطلب الرزق الحلال. قال أبو عمر الشيباني: رأيت أبا عبد الله الصادق وبیده مسحاة يعمل في حائط له والعرق يتصبب، فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك. فقال لي: «إني أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة». وقال المفضل بن قرة: دخلنا على أبي عبد الله في حائط له (أي بستان) وبیده مسحاة يفتح بها الماء وعليه قميص، وكان يقول: «إني لأعمل في بعض ضياعي، وإن لي من يكفيني، ليعلم الله أني أطلب الرزق الحلال». وخرج عليه السلام في يوم صائف شديد الحر، فاستقبله عبد الأعلى -مولى آل سام- في بعض طرق المدينة، فقال له: يا ابن رسول الله عزّ وجلّ وقرابتك من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!! فقال عليه السلام: «يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك».

### نبذ من أعماله وأقواله:

فهو عليه السلام يعلم الناس قولاً وعملاً لأنه ناصح مرشد بأقواله وأفعاله يدعو إلى الخير ويهدي إلى سبيل الرشاد. بلغه عن رجل من أصحابه أنّه وقع بينه وبين أمه كلام، فأغلظ لها، فلما دخل عليه من الغد ابتدأه قائلاً: «يا مهزم ما لك وخالدة (اسم أمه) أغلظت في كلامها البارحة، أما علمت أن بطنها منزل قد سكنته، وأن حجرها مهد قد عمرته، وأن ثديها وعاء قد شربته؟» فقال: بلى. قال عليه السلام: «فلا تغلظ لها».



و دخل عليه صالح بن سهل -و كان يذهب مذهب الغلاة- فلما نظر إليه قال: «يا صالح إنا والله عبيد مخلوقون، لنا رب نعبده. وإن لم نعبده عدّنا». فترك صالح ما كان يذهب إليه. وكان عبد العزيز القزار ممن يذهب لهذا المذهب، فلما دخل على الإمام عليه السلام قال له: «يا عبد العزيز ضع لى ماء أتوضأ به». قال عبد العزيز: ففعلت. فلما دخل، قلت فى نفسى هذا الذى قلت فيه ما قلت؟! فلما خرج قال عليه السلام: «يا عبد العزيز لا تحمل البناء فوق ما لا يطيق. إنا عبيد مخلوقون». و هكذا كان عليه السلام يرشد للحق، و يدعوا إلى سبيل الرشاد، و يعظ جلساءه. و يوجه بأقواله و أعماله من شدّد عن الطريق السوى، و يعلن براءته مما يدعى فيهم من الغلو، و يقول أمام الملائكة: «إنا عبيد مخلوقون لربّ إن عصيانه عدّنا». و كان مجلسه يكتظ بمختلف الطبقات، من علماء الفرق و أهل الآراء، فهو يلقي عليهم دروسا توجيهية بأقواله و أفعاله. قال سدير الصيرفى: كنت أنا و أبو بصير و يحيى البزاز فى مجلس أبى عبد الله، إذ خرج إلينا و هو مغضب، فلما أخذ مجلسه قال: «يا عجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلاّ الله عزّ و جل، لقد هممت بضرب جاريتى فلانة، فهربت منى، فما علمت فى أى بيت من الدار هى». فهو بهذا يردّ مزاعم أولئك المنحرفين عن منهج أهل البيت عليهم السلام و يدعون حبهم، و يزعمون أنّهم يوحى إليهم، و أنهم يعلمون الغيب الذى هو لله وحده، فأوضح عليه السلام لجلسائه بطلان هذه المزاعم ليحملوا ذلك عنه، و ينشروه فى البلاد النائية، لأنه شديد الاهتمام بأمر الغلاة، و إعلان الحرب عليهم، و هم ليسوا من شيعته، و إنما هم أعداء له، يريدون الإساءة له و الوقيعة فى أتباعه. و سأله رجل من جلسائه فقال: إن قوما من مواليكم يلتمون بالمعاصى و يقولون: نرجو.

فقال عليه السّلام: «كذبوا ليسوا لنا بموال، أولئك قوم ترجحت بهم الأمانى. من رجا شيئاً عمل له، و من خاف شيئاً هرب منه». و كما قلنا إن مجلسه كان مكتظاً بمختلف الطبقات من رواد العلم و حملة الحديث، و كان سفيان الثورى و هو أحد أعلام الأمة و من رؤساء المذاهب البائدة، يكثر الترداد عليه، و يطلب منه الموعدة و التوجيه. و يحدثنا سفيان: أنه دخل على الإمام الصادق عليه السّلام و كان عليه جبة خز دكناء قال سفيان: فجعلت أنظر إليها متعجبا. فقال لى: «يا ثورى، ما لك تنظر إلينا، لعلك مما رأيت؟» قال فقلت: يا ابن رسول الله ليس هذا من لباسك و لا لباس آبائك! فقال لى: «يا ثورى، كان ذلك الزمان مقفرا مقترا» ثم حسر عن رदन جبته، و إذا تحتها جبة صوف بيضاء، و قال: «يا ثورى لبسنا هذا لله (و أشار إلى جبة الصوف) و هذا لكم (و أشار إلى الخزّ) فما كان لله أخفينا، و ما كان لكم أبدينا». و كان عليه السّلام يؤوى الضيف، و يدعو الغرباء إلى ضيافته و يكرمهم، و من حسن أخلاقه لا يود أن يسارع الضيف فى رحلته، و يمنع خدمه من المعاونة لهم فى رحلتهم، و هذا من مفاخر العرب، و لهم فيه أشعار كثيرة. و عند ما يسأله ضيوفه عن سبب ذلك يقول: «إنا أهل بيت لا نعین أضيافنا على الرحلة من عندنا». كما أنه يبذل الطعام و يدعو إلى بذله. و سأله محمد بن قيس فقال: إني لا أتغدى و لا أتعشى إلا و معى اثنان أو ثلاث أو أكثر. فقال عليه السّلام: «فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم». فقال محمد: جعلت فداك كيف؟! و أنا أطعمهم طعامى، و أنفق عليهم، و يخدمهم خادمى. فقال عليه السّلام: «إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير، و إذا خرجوا خرجوا بالمغفرة». و قال رجل من الجالسين عنده: إن المنصور منذ صارت الخلافة إليه لا يلبس إلا الخشن، و لا يأكل إلا الجشب. فقال عليه السّلام: «يا ويحه مع ما مكن الله له من سلطان!!»

فقيل: إنما يفعل ذلك بخلا و جمعا للأموال. فقال عليه السلام: «الحمد لله الذى حرمه من دنياه ماله مع دينه». و لما أحضره المنصور فى مجلسه، وقع الذباب على وجه المنصور حتى ضجر، فقال المنصور: يا أبا عبد الله لم خلق الله الذباب؟ فقال عليه السلام: «ليذل به الجبارين». فوجم لقوله. وقد أذب أصحابه بأداب الإسلام، فى جمع الكلمة و عدم الفرقة، و حسن الصحبة لمن يصحبونه. قال أبو بصير: سمع أبا عبد الله الصادق يقول: «اتقوا الله، و عليكم بالطاعة لأئمتكم، قولوا ما يقولون، و اصمتوا عمّا صمتوا، فإتكم فى سلطان من قال الله تعالى: وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّكُمْ فِي هُدًى، صلوا فى عشائهم، و اشهدوا جنازتهم، و أدّوا الأمانة إليهم، و عليكم بحج البيت، فإن فى إيمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم. و أهوال يوم القيامة». و قال أبو ربيع الشامى: دخلت على أبا عبد الله عليه السلام و البيت غاص، فيه الخراسانى و الشامى و من أهل الآفاق، فلم أجد موضعا أقعد فيه، فجلس أبو عبد الله و كان متكئا، ثم قال: «يا شيعة آل محمد إنه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، و من لم يحسن صحبة من صحبه، و مخالقة من خالقه، و مرافقة من رافقه، يا شيعة آل محمد اتقوا الله ما استطعتم، و لا حول و لا قوة إلا بالله العظيم». و قال عليه السلام للمفضل: «من صحبك؟» قال رجل من إخوانى. قال عليه السلام: «فما فعل؟» قال المفضل: منذ دخلت المدينة لم أعرف مكانه. فقال عليه السلام: «أما علمت أن من صحب مؤمنا أربعين خطوة سأله الله عنه يوم القيامة». و بعث الإمام الصادق عليه السلام غلاما له فى حاجة، فأبطأ الغلام، فخرج على أثره فوجده نائما، فجلس عند رأسه يروّحه فانتبه، فقال له الإمام عليه السلام: «و الله ما ذلك لك، تنام الليل و النهار!! لك الليل و لنا منك النهار». و دخل عليه رجل فقال: يا ابن رسول الله أخبرنى بمكارم الأخلاق. فقال عليه السلام: «هى العفو عن ظلمك، و صلة من قطعك، و إعطاء من حرمك». و قال يوما لأصحابه: «إنا لنحب من كان عاقلا، فهما، حلّما، مداريا،

صبراً، صدوقاً، وفيما. إن الله عزّ وجلّ خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك، ومن لم تكن فيه فليتضرع إلى الله عزّ وجلّ، وليسأله إياها». فقال له ابن بكير: جعلت فداك وما هن؟ قال عليه السلام: «هنّ الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء والشجاعة والغيرة والبرء وأداء الأمانة». وهكذا كان عليه السلام يلقي على الناس نصائح، ويغتنم الفرص في التوجيه والإرشاد، لما فيه صلاح أنفسهم، وبذلك يصلح المجتمع. فهو عليه السلام طول حياته يهدى إلى الخير، ويدعو إلى سبيل الرشاد، في امثال أوامر الله، والوقوف عند نواهيه. وقد بذل جهده عليه السلام في بذل النصيح لجميع المسلمين لينتصر المجتمع الإسلامي على ميوله ونزعاته، عند ما تهذب النفوس من أدران الرذائل، وتتحول عن شهواتها. ولم يترك طريقاً للنصح إلا سلكه في أقواله وأفعاله، ولم يدع باباً للتوجيه إلا طرقه، ويدفع بالناس إلى التحلى بفضائل الأعمال، ويحث على الورع والتقوى، والاجتهاد في الطاعة، والإلفة والمحبة والتعاون، ومناصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم، وأخذ الحق للضعيف من القوى، وقال غير مرة: «ما قدست أمة لم تأخذ لضعيفها من قواها بحقه». كما أنه عليه السلام كان يوصي من يريد السفر من أصحابه، أو الوفود القادمين عليه من البلاد النائية بالمرّة، ثم يشرحها لهم بقوله: «هي كثرة الزاد وطيبه، وبذله لمن كان معك، وكتمانك على القوم بعد مفارقتك إيّاهم، وكثرة المزاح في غير ما يسخط الله». ثم يقول: «والذي بعث جدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحق نبياً، إن الله عزّ وجلّ يرزق العبد على قدر المروءة، وإن المعونة تنزل على قدر المئونة، وإن الصبر ينزل على قدر شدة البلاء». ويوصيهم بعد ذلك بما أوصى لقمان ابنه إذ يقول: «إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرهم وأمورهم، وأكثر التبسّم في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنه، واستعمل طول الصّمت، وكثرة الصّلاة وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد، وإذا استشهدت على الحق

فاشهد لهم، وأجهد رأيك إذا استشاروك، ولا تجب في مشورة حتى تقوم بها، فإن من لم يمحض النصيحة لمن استشاره سلبه الله رأيه و نزع عنه الأمانة. وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، وإن تصدقوا أو أعطوا قرضا فاعط معهم، و اسمع لمن هو أكبر منك سنا، وإذا أمروك بأمر أو سألوك شيئا فقل نعم ولا تقل لا، فإن لا عى ولؤم؛ وإذا تحيرتم فى الطريق فانزلوا، وإذا شككتم فى الأمر فقفوا وتامروا، وإذا رأيتم شخصا واحدا فلا تسألوه ولا تسترشدوه، فإن الشخص الواحد فى الفلاة مريب، لعله أن يكون عين اللصوص». إلخ. . .

### حول أخطاء بعض الكتاب:

هذه لمحة موجزة ونظرة خاطفة لبعض سيرته فى حياته التى قضاها فى الدعوة إلى سبيل الخير، قائدا روحيا يوجه المجتمع إلى ما يسعده، و قد رأينا كيف كان فى منهجه مع ولاية عصره، فهو لم يكن مسالما لهم، ولا مبررا أعمالهم. و من الخطأ فى رأى ما يذهب إليه بعض الكتاب من أن الصادق عليه السلام كان مسالما يقعد عن نصره أبناء عمه، كما يقول الأستاذ أمين الخولى: (إن الصادق- كما تشهد حياته- مسالم أو مسرف فى المسالمة، يقعد عن نصره أبناء عمه، فقد خرج ابن عمه محمّد بن عبد الله بن حسين بالمدينة، فهرب هو حتى قتل محمّد، فلما قتل واطمأن الناس وأمنوا، رجع إلى المدينة، وذلك أقصى المسالمة، أو هو يصل إلى شىء وراء المسالمة قد ينتقد) (1). هذا ما يقوله الأستاذ الخولى. و لم يكن هو أول من يسهم فى تجاهل الحقائق والحكم على الشىء قبل معرفته، فهناك الكثير ممن حاولوا أن يلصقوا بأهل البيت وصمات الانتقاد نتيجة للتعصّب، أو لضيق أفق المعرفة أمامهم، فتأهوا فى ببداء التخبط والتعثر، عند ما ركضوا فى طريق الانحراف عن الواقع. و إن مثل هذا القول يرينا إلى أى حد بلغ التأثير بأفكار المنحرفين عن الواقع، فلم يتجاوزوا فى كتاباتهم عن أهل البيت حدود الخطة التى رسمتها لهم أقلام منحرفة، و آراء شاذة.

ص: 292

أشرنا سابقا إلى سوء معاملة الأمويين، وإجحافهم بحق الرعية، وظلمهم الذى لم يسلم منه أحد حتى الشيخ فى محرابه، و الطفل فى مهده، فعم الاستياء جميع الطبقات، و ساد الاضطراب جميع أنحاء المملكة، و قد وصف الشاعر الجعدى تلك الحالة السيئة بقوله: و الناس فى كربة يكاد لها تنبذ أولادها حواملها

فكان الوضع السيئ يفسح المجال للثورة، و أى دعوة إلى الخلاص من تلك المحن وويلاتها تلقى قبولا، و قد قامت الجمعيات السرية للدعوة إلى الرضا من آل محمد، و نالت النجاح بسرعة مدهشة حتى قضى على الدولة الأموية، و قامت على أطلالها الدولة العباسية. و إذا أردنا أن نستنتق الحوادث، و نبحت عن العوامل التى أدت إلى نجاحهم، فإننا لم نجد لهم فى أول الأمر أى نشاط يذكر، و لا يؤمل لهم النجاح بالدعوة و الفوز فى ميدان الكفاح السياسى. إذا كيف بدأت الدعوة و ما هى أسباب طمعهم بالخلافة؟ و أى أسلوب اتخذوه لجلب القلوب؟ هذه أسئلة تجيب عليها الحوادث فلنعرض ذلك بموجز من البيان. كان محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية (1) يعتقد بعض الناس فيه أنه هو الإمام بعد أخيه الحسين بن على عليه السلام و أنه صاحب الدولة المبشّر بها. فلما مات محمد بن على أوصى إلى ابنه أبى هاشم، و كان أبو هاشم، و اسمه عبد الله، من رجالات أهل البيت البارزين، فاتفق أنه قصد هشام بن عبد الملك و أفدا فوصله هشام، ثم رأى من فصاحته و رئاسته ما حسده عليه، و خاف منه، فبعث إليه من ستمه فى الطريق، فلما علم أبو هاشم بذلك، عدل إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس، فأعلمه أنه ميت، و أوصى إليه، و كان معه جماعة من أصحابه فأوصاه فيهم، و ذلك سنة 99 هـ.

ص: 293

1-1) هو أبو القاسم محمد بن على بن أبى طالب، كان من سادات قريش و شجعانهم المشهورين و أقويانهم المعروفين، أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بنى حنيفة، روى الحديث عن أبيه على، و خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، المتوفى سنة 80 هـ أو 81، و دفن بالبقيع.

وكانت هذه الوصية بذرة طمع و بارقة أمل (فهوس محمّد بن علي بن عبد الله منذ يومئذ بالخلافة، و شرع في بث الدعوة سرا، و ما زال الأمر كذلك حتى مات سنة 125 هـ و خلف أولاده و هم جماعة، منهم: إبراهيم المعروف بالإمام و السّفّاح و المنصور) (1). فقام إبراهيم بالدعوة، و أخذ يتحدّث مع المنكوبين في آلامهم، و يشاركهم في التّأثّر، و يعطف على المظلومين، و يلعن الظالمين، و الناس يندفعون وراء من يشاركهم آلامهم، و يميلون لمن يأملون الخلاص على يده من الظالمين. انتشر دعاة إبراهيم في بلاد خراسان، و هم من الرجال الذين لهم الأثر هناك، منهم: زياد مولى همدان، و حرب بن قيس، و سليمان بن كثير، و مالك بن الهيثم و غيرهم، فبعضهم قتلوا في سبيل الدعوة، و مثّل ببعضهم، و حبس البعض الآخر (2) و ما زال الأمر يتفاقم و الناس تتقبل هذه الدعوة. و الجدير بالذكر أن الدعوة كانت على جانب كبير من الغموض و التكتّم باسم الخليفة، و أن الشخص الذي يبايعه الناس لا يعرفه إلاّ الدعاة، و العامة تبايع إلى (الرضا من آل محمّد). و كان في طليعة الدعاة نشاطا و قوة و دهاء أبو مسلم الخراساني، و قد ولاه إبراهيم الإمام على خراسان، و جعله قائدا لتلك الحركة و ذلك سنة 128 هـ. و قد عرف أبو مسلم الخراساني بالدهاء و المهارة الحربية، و كان يبذر بذور الشقاق بين جنود الأمويين؛ ليحصل الانقسام بينهم، و قد استفاد بذلك و نجح في مهمته، فقد انجفل الناس من هرات، و الطالقان، و مرو، و بلخ، و توافروا جميعا مسودين الثياب، و أنصاف الخشب التي كانت معهم (3). و كان السواد هو شعار الدعوة العباسية، جعلوه علامة حزن لما نال أهل البيت عليهم السّلام في العهد الأموي من القتل و التشريد.

## أساليب الدعوة:

تولى الدعاة نشر الدعوة بكل نشاط، و تجاوب الناس لقبولها، و كانت الأساليب

ص:294

1-1 (1) الآداب السلطانية ص 127. [1]

2-2 (2) تاريخ ابن الساعي ص 3.

3-3 (3) الدينوري ص 360. [2]

تستهوى النفوس وتثير الشعور، وأهمّها أن الثورة إنما تقوم على التنظيم و رعاية مصالح الأمة، و الانتصار للعدالة المفقودة و الحق الضائع، و أن الخليفة هو من أهل البيت و من عتره محمّد و ورثته، و ناهيك ما لأهل البيت من أثر في النفوس، و وقع في القلوب، لأنهم أهل العدل و حماة الدين. كان الدعاة يلقون على الناس العبارات التالية: هل فيكم أحد يشك أن الله عزّ و جل بعث محمّدا و اصطفاه؟ قالوا: لا. أفتشكّون أن الله أنزل عليه كتابه فيه حلاله و حرامه و شرائعه؟ قالوا: لا. أفتظنون أنه خلفه عند غير عترته و أهل بيته؟ قالوا: لا. أفتشكّون أن أهل البيت معدن العلم و أصحاب ميراث رسول الله الذي علّمه الله؟ قالوا: لا (1). و عند ما يسمع الناس هذه العبارات المعبّرة عن أمانيتهم في تحقيق سعادتهم تحت ظل دولة تكفل لهم القضاء على آلامهم، و تضمن تحقيق آمالهم بالعمل على إزالة كابوس ذلك الحكم الجائر. يزداد نشاطهم و يكثر حماسهم. و من الأساليب التي اتخذت لنجاح الدعوة هو الشعر الأسود الذي يعبر عن محاربة الضلالة، أو إظهار الحزن و الحداد على أهل البيت، الذين قامت الدعوة باسمهم للانتقام من الأمويين على ما ارتكبه منهم، بدون مراقبة لله و لا احترام لرسوله. و قد أرسل إبراهيم الإمام لواء يدعى الظل أو السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا، و كتب إلى أبي مسلم إنني قد بعثت إليك براءة النصر (2). و قد تأولوا الظل أو السحاب: أن السحاب يطبق الأرض، و كما أن الأرض لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي (3). و إن ذلك اللواء يمثّل لواء رسول الله، لأنهم ذكروا أن لواءه في حروبه و غزواته كان أسودا. على أن للتنبؤات و كشف حجب الغيب عن المستقبل أثر في نشاط الدعوة، و اندفاع المنظمين إليها، و قد جرى على الألسن من تلك النبوءات: (عليه السلام) بن (عليه السلام) بن

ص: 295

1-1) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 17. [1]

2-2) الطبري ج 9 ص 82. [2]

3-3) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 170. و [3] الطبري ج 9 ص 85. [4]



(عليه السلام) سيقتل (م) بن (م) بن (م) و تأولوا أن المراد بالأول هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، والثاني هو مروان بن محمد بن مروان. كما ادّعوا أيضا أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم كان يبشّر بدولة هاشمية، وزعموا أنه قال لعمة العباس: إنها تكون في ولدك. قال محمد بن الأسود: بينما عبد الله بن علي، يسائر أخاه داود بن علي و معهما عبد الله بن الحسن، فقال داود لعبد الله: لم لم تأمر ابنك بالظهور؟ فقال عبد الله بن الحسن: هيهات، لم بأن لهما بعد. فالتفت إليه عبد الله بن علي فقال: كأنك تحسب أن ابنك هما قاتلا مروان. فقال عبد الله: إن ذلك كذلك. فقال عبد الله: هيهات و تمثّل: سيفيك المقالة مستميت خفيف اللحم من أولاد حام

أنا و الله قاتله (1). و غير ذلك من التنبؤات التي كان يروج لها بنو العباس، و يدخلونها في أذهان الأفراد الذين اعتمدوهم في التنظيم، و بثّوهم في الأقطار للدعوة و لكن تحت شعار: الرضا من آل محمد. و لما اتصل أبو مسلم الخراساني بإبراهيم الإمام فسأله عن اسمه، فقال: اسمي إبراهيم بن عثمان. فقال له الإمام: غير اسمك فإنه لا يتم لنا الأمر إلا بتغيير اسمك. على ما وجدته في الكتب. فسَمّي نفسه عبد الرحمن بن مسلم، و كنيته أبو مسلم. و هذا يكشف لنا أن الدعوة كانت محفوفة بدعايات غيبية، و ادعاء وجود كتب تنطق بانتقال الخلافة إلى بنى العباس، و لكنهم تكتموا في إظهار ذلك للناس و لم يطلعوا عليها إلا النقباء من خواصهم، و كان التكتّم باسم الخليفة هو عامل جوهري في نجاح الدعوة، حتى يتم الأمر، و ينتهي كل شيء، عند ما يزول سلطان الأمويين، و هناك يعلن باسم الخليفة الذي يعرفه القواد و النقباء. و قد احتفظوا لأنفسهم بتنازل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية عن الإمامة لهم، و هي دعوى غير معتبرة لأن الإمامة لم تكن و لن تكون لغير أصحابها و القائمين بها بالحق. و على أي حال فإن الدعوة كانت تدعو إلى تحريك الشعور الديني بالانتصار

ص: 296

لأهل البيت، الذين أريقت دماؤهم في سبيل الانتصار للحق، وقدموا أنفسهم إلى الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ولم يجرءوا على كشف مخططهم ونواياهم. وبهذه الآمال انبعث في نفوس المسلمين الأمل بانبثاق فجر العدل الإسلامى الذى يضمن للناس سعادتهم، على يد رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم أئمة العدل وهداة الخلق، ولا سيما فى الولايات التى كان الولاية والعمال يستغلونها لأنفسهم، مدفوعين بعوامل الجشع، وقد أذاقوا الناس أنواع الأذى وضروب المحن، فاستأثروا بالأموال وضاعفوا الضرائب، وأخذوا الجزية على المسلمين. وكذلك انبعث الأمل فى نفوس غير المسلمين ممن لم يعرفوا عن الإسلام فى العهد الأموى سوى الاضطهاد، ودفع الجزية، و جباية الضرائب على اختلاف أنواعها، فاندفع كثير من الدهاقين من المجوس إلى اتباع أبى مسلم وأظهروا الإسلام. كما استجاب كثير من أهل الآراء والعقائد الخارجة عن الإسلام، وغرضهم التخلص من الحكم الأموى، عند ما رأوا العطف من أبى مسلم على مذاهبهم وعقائدهم، وكان الكثير منهم يعتبرونه وحده الإمام، واعتقدوا فيه أنه أحد أعقاب زرادشت الذى ينتظر المجوس ظهوره، حتى أنهم لم يعتقدوا بموت أبى مسلم، بل كانوا ينتظرون رجعتة. و صفوة القول أن العباسيين قد وجدوا الفرصة سانحة للقيام بدعوة الناس إلى الثورة ضد الأمويين، لوجود العوامل الكثيرة التى يأملون بها نجاح دعوتهم لأنفسهم، وقد تستروا بالدعوة لآل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعترته، وهم يخفون من ورائها الآمال والمطامع لأنفسهم. ولهذا التجئوا إلى مجارة أبناء على عليه السلام ليهيؤوا جوا تسوده مشاعر المحبة والوئام، حتى يتم لهم ما يريدونه، بدون عرقلة من جانب أهل البيت الذين هتفت الجماهير بالانتصار لهم، لذلك عقدوا فى بادئ الأمر مؤتمرا بالأبواء يضم العلويين، والعباسيين، ليبايعوا رجلا منهم، يكون هو الخليفة عند ما يفتح الله عليهم فى نجاح الثورة، وأرسلوا إلى الإمام الصادق عليه السلام وقد علموا إياه فى قبول البيعة من قبل. وانتهى المؤتمر بعد مداولة فيما بينهم إلى مبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن وقد جاء فى كلام المنصور يخاطب به الحاضرين:

لأى شىء تخدعون أنفسكم؟ و الله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى (يعنى محمّد بن عبد الله بن الحسن). فقالوا: قد و الله صدقت، فبايعوا جميعا محمّداً، و مسحوا على يده. و بعد ذلك حضر الإمام الصّادق عليه السّلام و قال لعبد الله بن الحسن: «و الله ما هى إليك (أى الخلافة) و لا لابنيك، و إنهما لمقتولان» ثم نهض (1). و يمكننا أن نعتبر هذا المؤتمر من أهم الوسائل التى اتخذها العباسيون لإيقاف أى عرقلة تقف فى طريق سريان الدعوة من جانب أهل البيت و أنصارهم المدفوعين بدافع الولاء، و الانتصار للحق و العدالة، لأن أهل البيت لهم فضيلة السبق إلى الإيمان، و قوة التمسك بالدين، و التضحية فى سبيل الله، و هم أعدل الناس فى الحكم و أولاهم برعاية المصالح العامة، و فى تطبيق نظام الإسلام. و لا يغرب عن البال ما حاوله العباسيون أيضاً فى زج أبناء على فى ذلك المعترك السياسى، و هم يعلمون بالخطة التى اختطها الإمام الصّادق لنفسه، و لأبناء عمومته، من الانعزال عن تلك الاتجاهات و الاحتفاظ بمركزهم الدينى، لأن الظروف غير مواتية للثورة، و كل شىء يقع قبل أوانه فنتيجته الفشل، لكن العباسيين استطاعوا صدع الصف العلوى بجلب البعض إليهم من بنى الحسن فى مبايعة محمّد بن عبد الله المحض. و الخلاصة: أن الدعوة استمرت فى طريقها، و قام دعاة العباسيين بنشاطهم، و أظهروا حماساً شديداً فى الولايات الإسلامية، فكانوا يجوبون بلاد خراسان لبثها، و لا يدعون لشخص معين، و إنما يذيعون بين الناس أنه لا خلاص لكم إلا إذا ولى أمركم آل البيت. و هكذا سار كل ما دبره العباسيون بنجاح مدهش، فقد غلب أبو مسلم على خراسان، و استولى على كورها، و قامت الحروب هناك، و تجمعت الجنود يقاتلون و يبذلون نفوسهم و أموالهم فى سبيل الانتصار، و هم يمثلون الأوامر من قواد يدعون لخليفة لا يعرفه الناس، و لم ينفق عليهم مالا و لم يعط أحدهم دابة، و لا سلاحاً، بل كانوا هم يجوبون إليه الأموال، و يحملون إليه الخراج فى كل سنة، و هو متمسك بعبادته،

ص: 298

و إصلاح شأنه حتى ظهر أمره لمروان، فقبض عليه سنة 131 هـ و حبسه بحران، ثم قتله، فخاف أخواه السفاح و المنصور و جماعة من بنى العباس، و قصدوا الكوفة و لهم بها شيعة و دعاة، و فى طليعتهم أبو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد، فأخلى لهم داراً، و تولى خدمتهم بنفسه، و كتم أمرهم لأنه أراد صرف الخلافة عنهم لآل على. و لكنه غلب على أمره، و وصلت جند أبى مسلم إلى الكوفة، و ظهر أمر بنى العباس، فأخرجوا السفاح إلى المسجد و بايعوه و لقبوه المهدي، و خطب فى الناس أول يوم من خلافته بخطبة استهلها بالتنويه عن الآمال التى بعثها الدعاة فى النفوس بتلك الأساليب الخداعة، أو الكذب المنظم. و على أى حال: فقد فاز العباسيون و اعتلى أبو العباس السفاح عرش الخلافة، و تم لهم ما أرادوا، و قد خابت آمال المندفعين بدافع الإيمان الصحيح، و الولاء لأهل البيت فى إسناد الحكم إليهم لتحقيق العدل الإسلامى، و التكافل الاجتماعى، و تطهير الأرض من آلام الظلم و ويلات الحروب، كما خابت آمال أبى سلمة الخلال فى تحويل الأمر لآل على، و عدوله عن الدعوة للعباسيين، و قد احتجزهم بالكوفة مدة من الزمن، ليكشف رأى العلويين فى قبول البيعة لأنفسهم، و لكنه غلب على أمره، و انتهى كل شىء ببيعة السفاح. و مهما تكن البواعث التى دعت أبى سلمة الخلال إلى تحويله عن فكرة الدعوة لبنى العباس إلى آل على، كما نص عليه كثير من المؤرخين (1) فلا يهمنى البحث عن ذلك، و لكن المهم هو الرد من قبل الإمام الصادق و عدم إجابته له، ففى ذلك دلالة واضحة على نظره الصائب و حدسه الثاقب، و علمه بما وراء الحوادث. فلم يخدع بتلك المغريات، فيعرض نفسه و أهل بيته، بل المجتمع الإسلامى كله لخطر لا قبل لهم على دفعه.

### دعوة الإمام الصادق للخلافة:

ذكر كثير من المؤرخين أن أبى سلمة (2) كاتب ثلاثة من أعيان العلويين و هم: جعفر بن محمد الصادق، و عمر الأشرف بن زين العابدين، و عبد الله بن

ص: 299

1-1) الطبرى ج 9 ص 124. و ابن قتيبة ص 128. و الطقطقى ص 127 و غيرهم.  
2-2) أبو سلمة: حفص بن سليمان، كان مولى بنى الحارث بن كعب، و قد نشأ بالكوفة، و لعب دوراً هاماً فى الدعوة العباسية لما اتصف به من فصاحة و علم بالأخبار و السير و قوة البديهة و حضور الحجة؛ و كان ذا ثروة طائلة ينفق من ماله على رجال الدعوة، و قد اتصل بإبراهيم الإمام بواسطة بكر بن ماهان، أحد أبطال الدعوة المختصين بإبراهيم الإمام، فلما أدركته الوفاة قال لإبراهيم الإمام: إن لى صهراً بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوضى فى القيام بأمر دعوتكم، فلما مات كتب إبراهيم إلى أبى سلمة يأمره بالقيام بالدعوة، فقام بها خير قيام، و تركزت فى الكوفة بجهوده، و قتله السفاح لعلمه بانحرافه و ميله للعلويين بعد أن استوزره مدة.

المحض (1). وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمّد بن عبد الرّحمن بن أسلم مولى لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و قال أبو سلمة للرّسول: العجل العجل فلا- تكونن كوافد عاد. وقال له: اقصد أولا جعفر بن محمّد الصادق، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين. وإن لم يجب فالتق عبد الله المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب فالتق عمرا. فذهب الرّسول إلى جعفر بن محمّد أولا، ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال الإمام عليه السّلام: «ما لى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيرى؟». فقال له الرجل: اقرأ الكتاب. فقال عليه السّلام لخادمه: «ادن السراج منى» فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتى احترق. فقال الرّسول: ألا تجيبه؟ قال عليه السّلام: «قد رأيت الجواب. عرّف صاحبك بما رأيت». فخرج الرّسول من عنده، وأتى عبد الله بن الحسن، ودفع إليه الكتاب، وقراه وابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم الذى وصل إليه فيه الكتاب، ركب عبد الله حتى أتى منزل أبى عبد الله جعفر بن محمّد الصادق، فلما رآه أبو عبد الله أكبر مجيئه، وقال: «يا أبا محمّد (كنية عبد الله المحض) أمر ما أتى بك؟» قال: نعم، هو أجل من أن يوصف. فقال له: «وما هو يا أبا محمّد؟» قال: هذا كتاب أبى سلمة يدعونى إلى الخلافة، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان. فقال له أبو عبد الله: «يا أبا محمّد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان، وأنت أمرتهم بلبس السواد، وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم، أو وجهت فيهم، و هل تعرف منهم أحدا؟» فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام، إلى أن قال: إنما يريد القوم ابنى محمّد لأنه مهدي هذه الأمة، فقال أبو عبد الله جعفر

ص: 300

1-1) هو أبو محمّد عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب، وأمه فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب. لقب بالمحض لأنه أول من جمع ولادة الحسن والحسين من الحسينية. مات فى حبس المنصور سنة 145 هـ وقد تجرع الآلام والويلات هو وأهله كما أشرنا.

الصّادق: «ما هو مهدي هذه الأمة و لئن شهر سيفه ليقتلن» . فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء. فقال الصّادق: «قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أخره عنك، فلا تمنّ نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستم لهؤلاء، وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك» (1). و على ضوء ما تقدم نستطيع أن نكشف كثيرا من الحقائق الناصعة، فإن امتناع الإمام عن إجابة أبي سلمة دليل قاطع على أن خطته الحكيمة و منهجه السديد في عدم امتزاجه بذلك المعترك الذي لا يؤمل من ورائه نجاح تلك المهمة قد أصاب كبد الحقيقة بتلك النظرة الصائبة و الحدس الثاقب و علمه بما وراء الحوادث، فقد فشل أبو سلمة فشلا ذريعا في تلك المحاولة التي جاءت متأخرة عن وقتها. و لقد ابتعد الإمام الصّادق عن ذلك المعترك، و بذل لأبناء عمّه النصح بأن لا يزجوا أنفسهم في ذلك الصراع، و حذّروهم عاقبة الأمر التي لا تعود عليهم إلا بالخيبة، و قد لقي منهم استنكارا، و ربما اتهموه، و لكنه يرى ما لا يرونه و يعلم ما لا يعلمون. إذ الأمر جاء قبل أوانه، و هو عليه السلام يرى التريث إلى حين إعداد العدة و إحكام الأمور و حلول الوقت المناسب. و لم يكن أبو سلمة وحده يتحول عن رأيه في الدعوة لبنى العباس، فقد سبقه أبو مسلم الخراساني لذلك، فإنه تحول عن رأيه، و حاول أن يستميل الإمام الصّادق في إسناد الحكم إليه. فكتب إلى الإمام الصّادق عليه السلام كتابا يقول فيه: إني قد أظهرت الكلمة، و دعوت الناس عن موالاته بنى أمية إلى موالاته أهل البيت، فإن رغبت فلا- مزيد عليك. فكتب إليه الإمام عليه السلام: «ما أنت من رجالي، و لا الزمان زمانى» (2). و ها نحن أولاء نترك تقدير هذا الجواب إلى القارئ النبیه، ليلمس فيه الحقائق التي تدل على الروح المشبعة بالإيمان، و الشخصية المستعصمة بالفكر الثاقب، و النظر الدقيق لعواقب الأمور، و مراعاة المصلحة العامة، و السير على الخطط المحكمة و الآراء السديدة، في تقدير الظروف و مناسباتها، فلم يندفع وراء تيار الأقوال البرّاقة،

ص: 301

1- (1) مروج الذهب للمسعودی ج 3 ص 268 و 269. و الآداب السلطانية ص 137. [1]

2- (2) الملل و النحل للشهرستاني ج 1 ص 241. [2]



الهائج، لأن في ذلك ضياع المصلحة التي يحرص عليها، وإهدار للدماء من غير نتيجة مرضية. ولقد عاش عليه السلام وهو غير بعيد عن مجتمعه الذي يعيش فيه، وقد عرف مقدراتهم الحربية فلا يمكنه الركون إليهم والاعتماد عليهم لأنهم لا ينتصر بهم في حرب، ولا يثبتون في شدة. وأهل الثبات والصدق قلّة في مواجهة قوة الحكام الغاشمة، ولكل دم من آل بيت محمد صلّى الله عليه وآله وسلم رسالة، فلو لا- دم الحسين جدّه لتمكنت أمية من تحقيق ردّتها وتغليب جاهليتها، وها هم آل الرسول يحامون عن وجودهم من دون إعلان للثورة، فلما ذا يقدم نفسه وشيعته طعمة سهلة ولقمة سائغة. وسعى الناس إلى الرضا من آل محمد لا يكف، وثوراتهم لا تتوقف، ولكن ما وهبه الله من محبة في النفوس وانقياد إليه لا يبرر التعرّض لأهل القوة والسلطان، كما لا يكفي الهياج في الأحاسيس والمشاعر. وحدها خطة الإصلاح والدعوة إلى التمسك بأهداب الإسلام هي التي تكفل للمؤمنين النجاح والبقاء. ولم يكن أبو سلمة معروفًا بولائه الصحيح، وعقيدته الصادقة فيكون محل ثقة الإمام ليستجيب له، ولو استجاب لكانت العاقبة أدهى وأمرّ، كما اتضح الحال وظهرت الحقائق. و صفوة القول إن الإمام الصادق عليه السلام قد اعتزل ذلك المعتكف السياسي، لا عن خضوع وتسليم، بل كان انعزال ثورة وتصميم، فقرر أن يدعو إلى الله، لتوجيه الوعي الإسلامي بالقوة الروحية التي جعلها الإسلام هي الأساس الوحيد للحياة الدنيا، وهو أقوى أثرًا في اندفاع الإنسان إلى العمل. والشعور بالمسؤولية، وأن يقوم المصلحون بالدعوة الصامتة، فهي أنجح الوسائل في التبليغ، وأقرب الطرق لهداية الناس. إذا ما هي الدعوة الصامتة؟ . . .





قال الإمام الصادق لأصحابه: «أوصيكم بتقوى الله و اجتناب معاصيه، و أداء الأمانة لمن ائتمنكم، و حسن الصحابة لمن صحبتموه، و أن تكونوا لنا دعاة صامتين» .

### موقف الإمام الصادق و اتجاهه للإصلاح:

تقدمت الإشارة في الأبحاث السابقة عن موقف الإمام الصادق وسط ذلك المعترك السياسى المائج بالفتن و الهائج بالأهواء، فلم يساهم عليه السلام في تلك الحوادث أو يمد يده أنملة للاشتراك فيها، لعلمه بعواقب الأمر، و أن الدعوة لهم أهداف و غايات. فاخط لنفسه و لأهل بيته خطة الاعتزال عن تلك التيارات و الأعاصير السياسية، و اتجه إلى الاحتفاظ بمركزه العلمى، لأداء رسالة الإسلام على أكمل وجه، فذلك وحده كفيل بسعادة المجتمع. فابتعد عن المغامرة رغم إلحاح الكثيرين ممن ينظرون إلى الأمور نظرا سطحيا، و لا يعلمون بعواقب الأمور. فهم يظنون أن الزمن قد حان لإقامة حكومة عادلة تسيير على نظام الإسلام و قوانينه، و هو المؤهل لتلك المنزلة لأنه زعيم أهل البيت و سيدهم، و له المكانة المرموقة في المجتمع بشخصيته الفذة، التى كانت ترعج الفئة الحاكمة، و تثير كل مخاوفها، الأمر الذى جعل الكثير من الناس يرمقونه بعين الإكبار، و يعدّونه الرجل المنقذ الذى تتحقق بشخصه آمالهم بالقضاء على ذلك الحكم الذى أذاق الناس أنواع المحن و الظلم. فكان عليه السلام على جانب كبير من رصانة التفكير، و بعد النظر فى العواقب،

و خبرة فائقة بأحوال الناس و نزعاتهم و ميولهم، و علما بالطّروف و مقتضيات الزمن، فلم يستجب لتلك المحاولات، و لم يتحول عن منهجه فيغامر بنفسه و بأهل بيته مغامرة عقيمة النتائج، تعود على المجتمع بأخطار جسيمة؛ لذلك كان ينهى أبناء عمه عن القيام بكل نشاط ثورى، لثقتة بفشل كل محاولة فى ذلك الوقت. فلم يتجاوز فى نشاطه الحد الذى يهدم جهوده التعليمية، أو يحول دون متابعة دعوته الإصلاحية، و لو أنه أجاب أبا سلمة أو أبا مسلم لما ندباه إليه كما تقدم، لكان عرضة لتلك الأخطار التى حلت بغيره ممن عرف بنشاطه الثورى. فكان لتلك الأحداث أثر سيئ فى نفوس الناس. و لا بد لداعى الإصلاح من أنصار ينصهرون بمبادئ الدعوة و أهدافها يشاركونه بذلك الشعور عن نية صادقة و عزيمة ثابتة، لينتصر بهم و يركن إليهم، و يكونوا أعوانا مخلصين يأمنهم فى كل خطوة يخطوها بطريق الإصلاح. و كم من إنسان يأمل النصر من أناس، و لكنهم يخذلونه عند حاجته إلى النصر، لعدم اختباره لهم و عدم علمه بأحوالهم، لذلك كان من المحزن تحسّس ذلك النوع من الأنصار كما فعل الإمام الصادق، و يظهر أثره فى جوابه لأبى مسلم (1) بقوله: «ما أنت من رجالى و لا الزمان زمانى». و كذلك قوله لرسول أبى سلمة: «ما أنا و لأبى سلمة و هو شيعة لغيرى» فلا

ص: 306

1-1) أبو مسلم الخراسانى: هو عبد الرحمن بن مسلم. اتصل بإبراهيم الإمام و هو غلام، فنشأ فى خدمته و تربى فى نعمته، و كان ذكيا فطنا قوى النفس، فأرسله إبراهيم إلى خراسان داعيا للدولة و هو ابن ثمان و عشرين سنة، و قال لهم: إنه منا أهل البيت. فكان يسمّى أمين آل رسول الله، و قام بدوره فى الدعوة حتى أظهرها سنة 129 هـ و كان شديد البطش سفاكا للدماء حتى أحصى من قتلهم فى أيامه فكانوا ستمائة ألف. ذكر ابن عساكر أن رجلا قام لأبى مسلم و هو يخطب، فقال له: ما هذا السواد الذى عليك؟ قال: حدّثنى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله دخل مكة و عليه عمامة سوداء، يا غلام اضرب عنقه فضربت عنق الرجل السائل. و قد استقل أبو مسلم بالحكم و الناس له تبع، حتى قال بعضهم بإمامته، و لما خشى المنصور من بطشه احتال عليه فقتله سنة 137 هـ فلم تصدق طائفة من تابعيه بموته، و قالوا إنه حى، و ذهب إلى التصديق بموته، و قالوا بإمامة ابنه من بعده. و التاريخ حافل بأخباره و سيرته من بطش و فتك و تقلب فى الرأى و فساد فى العقيدة. سأل بعضهم عبد الله بن المبارك عن أبى مسلم: أ هو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول أن أبا مسلم خير من أحد، و لكن الحجاج شرّ منه.

يمكنه القيام بثورة دموية وقد عرف عواقبها، و اتضح للجميع نتائج القيام بها مع علمه بذلك المجتمع الذى أنهكت قواه الحروب المتتالية و الثورات المتتالية. وقد وجد عليه السلام أن الأمر يدعو إلى الحزم و التريث، و أن يتحىّن الفرص المؤاتية، إذ القيام بأمر فى غير أوانه لا بد و أن يفشل و ينهار، فصمّم على الاحتفاظ بالاتجاه العلمى، و الوقوف موقف المصلح المتسلّح بالإيمان بالله، و نشر تعاليمه، و بعث الوعى الإسلامى بالقوة الروحية، التى هى أقوى العوامل فى الالتزام الدينى و السعى إلى الخير، و قد جعلها الإسلام هى الأساس الوحيد للحياة الكريمة و المجتمع الأمثل، لأن المجتمع الإسلامى حسب تعاليمه و نظمه لا يقوم إلاّ على الإيمان بالله بعقيدة راسخة، و منه تنبعث القوة الروحية، لأداء الواجب و الشعور بالمسؤولية و التضامن بين الأفراد و التكافل الاجتماعى، و بذلك يسعد المجتمع و ينعم أفراده. فكان الإمام الصادق عليه السلام خير داعية للإصلاح لما اتصف به من صدق القول و مثابرة العمل، و لم يقعد به عن ذلك ما لقيه من الأذى و ما نزل به من مصائب، فلم تهن عزيمته و لم تقتر همّته، بل ثبت فى نشر دعوته، و واصل أداء رسالته بالدعوة إلى العمل الصالح، و هو دليل رسوخ العقيدة و الإيمان بالله. و كلما ازداد الإيمان بالله ازداد العمل الصالح، و بذلك تهون المخاطر التى تحوط دعوة المصلح و تهددها، و يكسبها قوة الصمود، و قدرة اجتياز العراقيل و العقبات. و كيف ينجو المصلح من مجابهة الشدائد؟ و مهمته أن يحول بين نفوس الناس و شهواتها، و يباعد بينها و بين ما ألفتها من العادات، فمن العسير أن يخلعوا أنفسهم مما هم فيه، و أن يمدّوا أعناقهم للحق الذى ابتعدوا عنه. و المصلح يحتاج إلى ثبات، فلا يتسرب اليأس إلى نفسه، و لا تهن عزيمته عند ما يصطدم بعقبة تعترض سبيل دعوته. و لا يحصل ذلك الثبات إلاّ بقوة الإيمان بالله. و هناك يستطيع أن يوجد أمة تصرخ بوجه الطغاة الذين استبدوا بالحكم، و ظلموا العباد و خربوا البلاد و مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ فالذين آمنوا بالله حق الإيمان يجاهدون فى الله حق جهاده، لتكون كلمة الله هى العليا، و لا تأخذهم فى الحق لومة لائم.

اتجه عليه السلام منذ تفرّده بالزعامة واستقلاله بمهمة الإمامة إلى الدعوة لله، وقد ألزم دعاة الخير وقادة الصّلاح بأن يدعوا الناس بأعمالهم قبل الدعوة لهم بأقوالهم، لأن الناس من شأنهم أن ينظروا في أعمال من يدعونهم إلى الخير، فإن رأوا منهم العمل بما يدعونهم إليه والوقوف عند حدوده اتبعوهم، وإن رأوا عملهم يخالف قولهم نبذوهم. ولذلك قالوا: إن تأثير العمل على الناس فوق تأثير القول. وإن أمثل قاعدة يسترشد بها في اصطفاء من يتخذه الناس زعيماً لهم وقدوة هي أعماله، فهي التي تجعله أهلاً لأن يسلم إليه الناس قيادهم، ويأتمنوه على عقولهم يثقفها ويغذيها، وعلى أخلاقهم يقومها ويزكّيها، وإن أثر الحكمة الخلقية تسمع من أفواه الوعاظ أو الدعاة إلى الخير ليس بأكثر منها وهي مسطورة في الكتب، أو منقوشة في الجدار، إذ الأقوال الخالية عن العمل من قبل قائلها تدعو الناس إلى عدم الاعتداد بها؛ لأنهم لا يرون أثراً منها على من يأمر بامثالها. فلهم الحق إذا نفروا عنه. وكان ذلك من جملة العوامل التي دعت الإمام إلى تقرير القيام بالدعوة الصامته كما جاء في وصيته لأصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى الله، وأداء الأمانة لمن ائتمنكم، وحسن الصحابة لمن صحبتموه، وأن تكونوا لنا دعاة صامتين». فوق هذا القول عندهم موقع الاستغراب. أجل، كيف يكون الداعي للخير صامتا؟ وكيف يقومون بهذه المهمة وهم لا يتكلمون؟ فطلبوا منه إيضاح الأمر وإزالة الاشتباه ليزول الاستغراب فقالوا: يا ابن رسول الله وكيف ندعو ونحن صامتون؟ قال عليه السلام: «تعملون بما أمرناكم به من العمل بطاعة الله، وتعاملون الناس بالصدق والعدل، وتؤدّون الأمانة، وتأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، ولا يطلع الناس منكم إلا على خير، فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا، فتنازعوا إليه». وبذلك أراد أن تكون الوساطة بينه وبين المجتمع تعكس واقع تعاليمه، وتحبذ منهجه ومبادئه، فركّز على أن ينهج أصحابه منهج العمل الصحيح والقول الصادق. ولم يزل يكرّر هذه القاعدة، ويلزم أصحابه بها، ويحثهم على العمل بما أمرهم به، وقد ورد عنه كثير من الأقوال بهذا المضمون. قال أبو أسامة: سمعت أبا عبد الله الصادق يقول: «عليكم بتقوى الله، والورع

والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الخلق، وحسن الجوار، وكونوا دعاة لأنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زينا، ولا تكونوا شينا». وقال ابن أبي يعفور: سمعت الصادق يقول: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد، والصدق، والورع». فالإمام الصادق عليه السلام كان يحاول أن يكون أساس الدعوة هو العمل الصالح والخلق الطيب، فهي أنجع وسيلة لخوض معركة صامتة، تكافح المظالم بكافة أنواعها، وتقف إلى جنب المظلومين، ليظهر بذلك خطأ أولئك الذين اغتصبوا حقوق الأمة، وترأسوا على المسلمين، وقد انحرفوا كل الانحراف عن مبادئ الإسلام وتعاليمه. فالمسلم الذي يتحلى بصفات الإسلام لا يمكنه النفاق ولا المسايرة لذلك الركب المنحرف عن طريق الحق والرشاد. نعم إنه عليه السلام يرى أن الدعوة الإصلاحية بالأقوال والمواعظ الخلقية والاجتماعية لا يتحقق أثرها إلا إذا كانت الأعمال مظاهر لها، وأن الاتصاف بتقوى الله واجتناب معاصيه، ومعاملة الناس بعاطفة نبيلة وخلق رفيع، وأداء الأمانة وحسن الصحبة والجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل صفة من صفات الخير والصلاح كما جاء في وصيته، لجدير بأن يكون صاحبها مقبولا قوله، مؤثرا بدعوته، لأنه يملك مشاعر أبناء جنسه، فهم يحبونه ويخلصون له بالمودعة، وناهيك بما وراء الحب من أثر في تغيير الطباع لاتباع المحبوب. وقد قرّر علماء الاجتماع: أنه لا يتم إصلاح لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب إلا إذا أفعمت القلوب حبا للمصلح وطاعة لأوامره. وإن الاتصاف بالأخلاق الفاضلة والانتصار على النفس ما هو إلا خطوة نحو الثورة الشاملة لجلب قلوب الناس، لمن اتصف بتلك الصفات، وإن المرء إذا استطاع ضبط نفسه وتنظيمها، لجدير بأن تنقاد الناس إلى دعوته.

### مهمة الداعي:

إن مهمة الداعي إلى الله مهمة عظيمة، وعليه مسؤولية كبرى، ولا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة من ترمى بهم المصادفات، لأنه ليس كل فرد صالحا لهذا العمل الشاق، ولا كل فرد قادرا على تحمّل أعبائه، فيجب أن تتوفر في الداعي صفات عقلية

و أخلاقية تخوّله أداء واجبه على الوجه المطلوب، إذا فلا بد لمن يقوم بالنصح أن يتصف بالصبر و محامده، و يتحمل الأذى و شدائده، فلا يبالي بما يلاقه من أذى فى سبيل أداء رسالته و نشر عقيدته، و أن تكون له برسول الله أسوة حسنة. و كل هذا إنما يتفرع عن الإيمان بالله و العمل بطاعته. و قد تضمنت فقرات تلك الوصية المتضمنة لهذه القاعدة الإصلاحية (الدعوة الصامتة) كل نواحي الخير فى الإنسان الدالة على كماله النفسانى و هى ثلاثة: 1- الناحية الاعتقادية التى تكمن وراءها القوة الروحية، و عليها تبتنى صحة أعماله، و هى تتمثل فى إدراكه بصلته بالله، و امتثال أوامره، و تلك القوة هى أعظم أثرا فى قيام الإنسان بالعمل. و هذا الإدراك العقلى، أو الشعور الوجدانى بصلة الإنسان بالله يجعل الإنسان مدفوعا إلى العمل بطاعته. 2- ناحية خلقه الفردى و تهذيب نفسه بالأخلاق الفاضلة و الخصال الحميدة، لأن بناء المجتمع الصالح إنما هو بصلاح أفراده، و إعدادهم لأن يكونوا أعضاء صالحين، و تزويد كل فرد منهم بما يجب عليه للأسرة و للمجتمع، فإذا صلح الفرد و تهذبت الأسرة صلحت الأمة، و اتجهت لسبيل الصّلاح. 3- الناحية الاجتماعية التى تنشأ عن مخالطة الناس و معاشرته لهم من حسن الصحبة، و حسن الجوار، و أداء الأمانة و غيرها، فإذا كملت فى الشخص هذه النواحي الثلاثة، كان هو الإنسان الذى يصلح لأن يدعو إلى الخير و سواء السبيل. و على هذا فليست العبرة بالصّلاح هى المظاهر التى يكون مرجعها القلب، و ما قد نواه فى ذلك، و لكل امرئ ما نوى، فربما يكون الداعى مظهرا للدعوى بطول السجود و كثرة التسبيح، و لكن باطنه غير ظاهره، بل العبرة بالاستقامة ظاهرا و باطنا، و إتيان الأعمال الصالحة التى تنبعث عن النية الصادقة و الإيمان، بما يعود على المجتمع بالسعادة فى حسن المعاملة مع الناس، و لذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده، فإن ذلك ربما يكون شىء قد اعتاده، و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء الأمانة». و الغرض أنّه عليه السلام كان حريصا على توجيه الأمة توجيها صحيحا لتسير إلى المثل الأعلى فى الحياة، و أن تسعى ما أمكنها السعى إلى تطبيق نظم الإسلام و تعاليمه. ففى ذلك صلاح المجتمع و سعادته، و أى إصلاح أعظم من نشر دين يهدى الناس إلى المحبة و التعاون و الأخوة الصادقة.

الإسلام هو دين الله الذي أنزله رحمة بالإنسانية المعذبة، فهو دين شامل بتعاليمه، يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والفحشاء، و يجعل المجتمع كنفس واحدة، لأنه يبعث في نفس كل فرد شعورا يلزمه احترام جميع الأفراد، كما يشعر بأضرار أبناء جنسه وآلامهم، كشعوره بأضرار نفسه وآلامها، ويحس بمنافع أبناء مجتمعه كإحساسه بمنافع نفسه، طبقا للتعاليم التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ومنها: «أحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك». و يقول الإمام الصادق: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئا منه وجد ذلك في سائر جسده، إن المؤمن أخو المؤمن هو عينه و دليله، لا يخونه و لا يظلمه و لا يغشّه و لا يعده عدة فيخلفه». الإسلام يتناول الحياة كلها بجميع ما تشتمل عليه من تنظيم، و هو يرسم للبشر صورة كاملة لما ينبغي أن تكون عليه حياتهم في هذه الأرض. الإسلام يتناول الإنسان فردا في جميع أحواله يوجهه و يهذبه، و يتناوله و هو يعيش في مجتمعه مع غيره من الأفراد، فأعطى للمجتمع دروسا يبين له كيف تكون الصّلات بين أفراد، و كيف تكون العلاقات و تنشأ المودة و الإخاء و الحب و التكافل و التعاون، و لو نفذ المسلمون دستور دينهم، و ساروا على منهاجه و تعاليمه، لكانوا المثل الأعلى للإنسانية الراقية، و لسادوا العالم بأسره و لأصبح كل فرد منهم مثالا للفضيلة و رمزا للكمال.

### شخصية الداعي:

و صفوة القول إنه عليه السلام اتجه إلى الإصلاح بالدعوة للعمل الصالح، لأن العمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس و بين ظلمهم بعضهم بعضا، و هو أعظم حاجز بينهم و بين الشرور، و من شأنه أن يهذب النفوس و يطهرها من الخبث، لأنه يربط الإنسان بربه بصلة الإيمان به، فهو يخشاه في سرّه و علانيته، و من كان كذلك فلا يخشى ضرره، و لا يقع منه ظلم، و لا يصبح أسير شهواته، و صريع أهوائه. و من كان يدعو الناس إلى دعوة هذا أساسها، فجدير به أن يتحمل الأذى، و يصبر على ما يلاقه من أعداء الحق و أنصار الباطل، فلا يهون لشدة، و لا يضعف لاضطهاد، بل يقابلها بالحزم و العزم، و بقلب لا يعرف الضعف إليه سبيلا، و لا يجد الخوف من الناس فيه مكانا.



فلقد كان عليه السّلام قويا في دينه لا يهن لشدة، و لا يضعف عند النكبة، بل يتلقى كل ذلك بقلب لا يتسرّب إليه الضعف، وفؤاد لا يتزلزل عند النوازل، و هو قوى الثقة برّبّه و خالقه، كثير الرجوع إليه في حاجاته و مهماته، يلجأ إليه في كل شدة، و ينتصر به على أعدائه، و يرد بالالتجاء إليه كيدهم، و ما يريدونه به من سوء و ما يدبرون له من مكائد. و لقد مرّت عليه أيام مختلفة تبدلت فيها سياسات، و تقلّبت فيها أمور، و شاهد أنواعا من الحكم، و كانت الأيام تبسم له مرة و تعبس أخرى، و يقسو عليه الحكم تارة، و يلين تارة أخرى، و هو يتحمّل الأذى و يصبر على المحن، و كيف لا يكون كذلك و هو يحمل رسالة الإصلاح و أعظم مصلح عرفه التاريخ في عصره و بعد عصره. كان هدفه تقويم المعوج و إرشاد الضال و توجيه الشاذ، ليسير بالقافلة في طريق الخير مرحلة إثر مرحلة، و لا تحول دونه و دون عزمته المخاطر و الأهوال، و لا يخشى انفجار مشاعر أعدائه المكبوتة. و غيظهم المتوقد، و قد مرّ غير مرة محاولة أعدائه لفتك به، و القضاء عليه، و ترويح التهم حوله، و لكن الله عصمه ورد كيدهم عنه، و لما حل قضاءه و لا راد لقضائه نفذ ما أرادوه، و تم ما حاولوه من المكيدة. فمضى بعد أن ترك للأجيال دروسا و عبرا لم تكن مقصورة على أتباعه فحسب، بل كانت عامة لجميع الأمة.

### ملاحظات حول دعوته الإصلاحية:

1- إن قوله عليه السّلام: «كونوا دعاة صامتين». لم يكن المقصود منه كون الداعي للعمل الصالح صامتا مطلقا، لأن ذلك يناهى قوله عليه السّلام: «تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر». و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لا يكونان مع الصمت، و لكن المقصود بأن يكون القول مقرونا بالعمل، إذ هو بدونه لغو كما تقدم بيانه، فجعل عليه السّلام الدعوة بالعمل الصالح قبل الدعوة بالقول. 2- إنه كان يأمر بالإقدام على النصح، و أن لا يحول بين الداعي و بين نشر دعوته خوف ظالم؛ لأن الأمر بالمعروف من أهم فروض الإسلام و أكبر واجباته، إذ هو أساس نشر الحق، و إعلان المبادئ السامية. فيقول في الحثّ عليه: «أؤمروا بالمعروف و انهوا عن المنكر، فإن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لم يقربا أجلا و لم يبعدا رزقا». و يقول: «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر».

3- يتجلى لنا أن هذه الدعوة قد وقفت في طريقها عقبات وحواجز، لأن في انتشارها انتشار لمبادئ الإسلام ونظمه و تعاليمه، ولم يبق من وراء ذلك لظالم طمع بالحكم، ولا لمعادى الإسلام من وسيلة يحاربه بها انتصارا لمبادئه، لذلك فقد أحست العناصر المعادية للإسلام بخطر هذه الدعوة، وإنها بدون شك ستقضى على مآربهم التي من أجلها اندسوا في صفوف المسلمين، و تهدم آمالهم المعقودة على ذلك التدخّل، من إثارة الفتنة و تشويه محاسن الإسلام، عند ما يغيرون الحقائق و يقلبون الأوضاع، و لهذا أطلقوا دعواتهم ضد تحقيق هذه الدعوة الإصلاحية، فانتحلوا لأنفسهم حب أهل البيت، و أظهروا ولاءهم للإمام الصادق، الذى انفرد بزعامة ذلك البيت الطاهر. و قد تبرأ منهم و أمر بهجرهم. لأن تلك الفئة المعادية للإسلام انطلقت بكل قوة، فاستغلت جهالة العامة ممن لم تساعدهم ظروفهم على الاتصال بأهل البيت، فصدقوا بما ادعاه أولئك المندسسون فى صفوف الأمة من الغلو فى أهل البيت. 4- إن الناس فى مقابلة الدعوة الإصلاحية ثلاثة طوائف: فطائفة تتقبل الدعوة و تناصرها ظاهرا و باطنا و يضحون فى سبيل مناصرتها، و هم ذوو العقول الراجحة الذين لم تستطع العاطفة أن تسيطر على عقولهم، بل غايتهم اتباع الحق، و الحق أحق أن يتبع. و طائفة أخرى تعادى تلك الدعوة ظاهرا و باطنا، مع اتصاح صدق الداعى و ظهور حجته، و وضوح برهانه، و هم المعاندون، و المعاند لا يقنع بشىء، لأنه لا يطلب حقا و لا يحيد عن باطل، وإنما هو متعنت يخالف الواقع، و يبعد عن سنن الطريق لخبث فى نفسه و فساد فى طويته. و طائفة ثالثة تعادى فى الباطن و تناصر فى الظاهر و هم المنافقون (1) و هؤلاء أشد ضررا على الدعوة من الفئة الثانية، و هم المعادون لها ظاهرا و باطنا، لأنهم شاركوهم بتلك الصفات الخبيثة، و قد امتازوا عليهم بالجبن و الخور و ضعف القلب، فلا

ص: 313

1-1) المنافق مشتق من النافقاء، و هو حجر الضب أو اليربوع، فالمنافق هو مثل ذلك الحيوان الخبيث يعمل له جحرا فى الأرض يسمى النافقاء، له بابان إذا أراد أن يدخل إليه من أحد البابين لوح له بذنبه أنه مقبل عليه ليطمعه، ثم يخرج من الباب الآخر، أو هو كجحر اليربوع التى يعملها فى الأرض ظاهرة يراها الناس، فإذا ذهبوا إليها إذا به قد أعد جحرا آخر قد أخفاها عن الناس. و نافق اليربوع إذا أتى النافقاء.

يستطيعون أن يصارحوا المصلح بأنهم أعداء له، إذ ليست لهم قابلية الجرأة الأدبية، ولا تسمح نفوسهم بأن يظهرها بالمظهر الواقعي، و يتقبلوا تلك الدعوة بقبول حسن عند ما يصطدمون بالواقع، لخبث نفوسهم وفساد نيتهم. 5- نظرا لأهمية هذا الموضوع وما يتعلق به، فإن المجال لا يتسع للإحاطة بجميع أطراف البحث، وإن للإمام الصادق أقوالا كثيرة ومواقف متعددة حول الدعوة بالعمل الصالح، فلذلك اخترنا الوقوف عند هذا الحد من البحث حول الدعوة الصامتة التي قام بها عليه السلام في عصر انطلاق الفكر، وازدهار العلم، وهورئيس أعظم مدرسة إسلامية، وزعيم تلك الحركة العلمية، وكان خير قدوة صالحة في العلم والعمل الصالح، لا يفتر عن تعليم الناس و توجيههم إلى الخير والفضيلة، كما لا يفتر عن عبادة الله والعمل بطاعته ويخشاه في سرّه وعلنه. وقد أشرنا سابقا إلى موقفه تجاه حكام الجور ومقاطعته لهم، وقد أمر الناس بالابتعاد عنهم، كما أبعد عنه المتقرب منهم إليه، و حرم الولاية لهم، لأنه عليه السلام يرى أن ولاية الجائر دروس الحق كله وإحياء الباطل كله. وكان يحرم معاونتهم حتى في بناء المساجد، لأنهم لا يملكون هذه الأموال، فلا يقبل منهم العمل فيها حتى في وجوه الخير، والإمام عليه السلام يهدف بهذه المقاطعة وعدم التعاون مع حكام الجور، الذين ادعوا الخلافة الإسلامية، أن يضيق دائرة نفوذهم، ويوقظ الناس من غفلة اتباع أناس لا يليقون بهذا المنصب؛ لأن المقاطعة لحكام الجور ترغمهم على الاعتدال، أو التخلي عن الحكم بدون إراقة دماء، وقد أمر الله تعالى بقوله: **وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**. فكانت مهمة الإمام الصادق عليه السلام تطبيق هذا الأمر، لأنه أنجع وسيلة تنتصر بها الأمم على حكام الجور، الذين يسرون بغير صواب ويحكمون بغير العدل.

انطباعات عن شخصيته

تمهيد:

للإمام الصادق شخصية قوية، و مكانة مرموقة، و مركز ملحوظ عند سائر الطوائف و جميع الفرق. شخصية أقر لها العدو بالفضل. شخصية هي مثال للصفات الكاملة و المزايا الحميدة، فهو الصادق في لهجته، و المنزه عما لا يليق بمنزلته، و هو زعيم أهل البيت و سيدهم في عصره. لقب بالصادق لأنه عرف بصدق الحديث حتى أصبح مضرب المثل في عصره و بعد عصره. قال ابن الحجاج و هو الشاعر المشهور: يا سيدا أروى أحاديثه رواية المستبصر الحاذق

كأننى أروى حديث النبي محمد عن جعفر الصادق

لقد كان عليه السلام مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط، وإنما بقي منها حتى القيامة صوت صارخ يعلم الزهاد زهدا، و يكسب العلماء علما. لقد كانت له هيبة يخضع لها جلسيه، و صدق لهجة يطمئن إليه من يحدثه، و حسن بيان ينفذ إلى قلوب سامعيه، و قد أعطى من قوة البيان و وضوح الحجّة ما جعل المعاندين يصغون لحسن بيانه، و يخضعون لبرهانه. و كان من السابقين بالخيرات رغبة بما وعد الله، و من دعاة الخير الذين لا يدخرون نصحا عن المسلمين، حتى انطبع في قلوب معاصريه من العلماء تعظيمه و تبحيله. فكانوا يقصدونه من كل الأطراف لاستماع مواعظه و الاستفادة من علومه، و كان مجلسه مكتظا بوجوه الناس من أطراف البلاد النائية، يگتتمون فرصة الاتصال به و الانتهاال من نمير تعاليمه، و يطلبون المزيد من وصاياه و حكمه النافعة.

و هنا نورد بعض الأقوال المجموعة من رجال عصره، و هي تبين انطباعاتهم عنه، لا- على سبيل الحصر، لأن حصر الأقوال و جمع الانطباعات مما يضيق به وسع الكتاب. و قد تقدم في ثنايا الأجزاء المتقدمة شىء منها أيضا. و الغرض أنه كان و حيد زمانه، لا يلحق أثره و لا يبلغ شأوه، و هو المصلح الذى عرف الناس عنه حبه للإصلاح و بذله النصيح لعباد الله، لذلك قصده رجال العلم فى عصره من الأقطار النائية، للانتفاع بوفير علمه و مواعظه و حكمه، و قد كان أبو حنيفة يغتتم الحضور عنده للاستماع منه عند ما دخل الإمام الكوفة كما نصت على ذلك كتب مناقب أبى حنيفة و سيرته. و كذلك حضر عنده فى المدينة سنتين حتى اشتهر عنه قوله: لو لا الستنان لهلك النعمان.

### انطباعات مالك بن أنس:

و كان مالك بن أنس يحضر عند الإمام الصادق و يتأدب بآدابه و يهتدى بهديه، فكانت له انطباعات فى نفسه يحدّثنا عنها بقوله: ما رأيت عين و لا سمعت أذن و لا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علما و عبادة و ورعا.

### انطباعات سفيان الثورى:

قال سفيان الثورى: دخلت على الصادق فقلت له: أوصنى بوصية أحفظها من بعدك. قال: «و تحفظ يا سفيان؟» قلت: أجل يا ابن رسول الله. قال: «يا سفيان لا مروءة لكذوب، و لا راحة لحسود، و لا أخا لملول، و لا سوّدد لسيئ الخلق»، ثم أمسك. فقلت: يا ابن رسول الله زدنى. فقال: «يا سفيان ثق بالله تكن عارفا مؤمنا، و ارض بما قسمه لك تكن غنيا، و أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما، و صاحب بمثل ما يصاحبونك به تزدد إيمانا، و لا تصاحب الفاجر فيعلمك من فجوره، و شاور فى أمرك الذين يخشون الله». قال سفيان: ثم أمسك الإمام فقلت: يا ابن رسول الله زدنى. فقال: «يا سفيان من أراد عزا بلا عشيرة، و غنى بلا مال، و هيبة بلا سلطان، فلينتقل من ذلّ معاصى الله إلى عزّ طاعته». ثم أمسك. فقلت: يا ابن رسول الله زدنى. فقال: «يا سفيان أدبى أبى بثلاث، و نهانى عن ثلاث، فأما اللواتى أدبى بهن فإِنَّه قال لى: يا بنى من يصحب صاحب السوء لا يسلم، و من لا يملك لسانه يندم، و من يدخل مداخل السوء يتهم». قلت: يا ابن رسول الله فما الثلاث اللواتى نهاك عنهن؟

قال: «نهاني أن لا أصحاب حاسد نعمة، و شامتا بمصيبة، و حامل نميمة» ثم أنشد: عود لسانك قول الخير تحظ به إن اللسان لما عودت معتاد

موكل بتقاضى ما سنتت له فى الخير و الشر فانظر كيف تعتاد

و دخل عليه مرة أخرى يطلب المزيد من تعاليمه و وصاياه فقال عليه السلام: «يا سفيان الوقوف عند كل شبهة خير من الاقتحام فى الهلكة، و ترك حديث لم تروه أفضل من روايتك حديثا لم تحصه، إن على كل حق حقيقة و على كل صواب نورا، ما وافق كتاب الله فخذوه و ما خالفه فدعوه». و قال نصر بن كثير: دخلت أنا و سفيان الثورى على جعفر بن محمد الصادق فقلت له: يا ابن رسول الله إني أريد البيت، فعلمنى شيئا أدعوه به، فقال عليه السلام: «إذا بلغت البيت فضع يدك على الحائط ثم قل: يا سابق الفوت، يا سامع الصوت، يا كاسى العظام لحما بعد الموت، ثم ادع بما شئت». فقال له سفيان شيئا لم أفهمه. فالتفت إليه عليه السلام فقال: «يا سفيان إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله، و إذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول و لا قوة إلا بالله؛ و إذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار». و دخل عليه حفص بن غياث، و هو أحد أعلام عصره، و المحدثين فى وقته، فطلب منه أن يوصيه وصية ينتفع بها فقال عليه السلام: «إن قدرتم أن لا تعرفوا فافعلوا، و ما عليكم إن لم يثن الناس عليكم». إلى أن قال: «إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، فإن عليك فى خروجك أن لا تغتاب، و لا تكذب و لا تحسد، و لا ترائى، و لا تداهن».

### انطباعات زيد بن علي:

قال زيد بن علي: فى كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، و حجة زماننا ابن أخى جعفر لا يضل من تبعه و لا يهتدى من خالفه (1). هذا قول رجل من سادات بنى هاشم، و علم من أعلام الأمة، و فقيه من فقهاء

ص: 317

الإسلام، وبطل من أبطال الثورة على الظلم، و من أباة الضيم، إنه يكشف عن منزلة الإمام في نفسه، و اعتقاده فيه، و هو معاصره، و أكبر منه سنا، و كذلك يكشف للناس و يبين لهم منزلة الإمام الصادق، فهو يرى أنه حجة الله في ذلك الزمان، و أن الهداية في اتباعه و الضلال في خلافه، و أن الله لا يحتج إلا بمن بلغ درجة الكمال النفساني، و ارتقى أعلى منزلة من طاعة الله و امتثال أوامره، فابتعد عن الدنيا و زينتها، و صدف عن زخارفها، و أخلص لله فاستخلصه و طهره من دنس العيوب و كدر الذنوب.

### انطباعات مالك بن أنس:

و يقول مالك بن أنس: اختلفت إلى جعفر بن محمد زمانا فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصليا وإما صائما وإما يقرأ القرآن، و ما رأيته قط يحدث عن رسول الله إلا على طهارة، و لا يتكلم بما لا يعنيه، و كان من العلماء العبّاد و الزهّاد الذين يخشون الله (1). هذه شهادة مالك و انطباعاته عن شخصية الإمام، و مالك هو رئيس مذهب من مذاهب الإسلام المعمول بها حتى الآن، و كان معاصرا للإمام الصادق و من تلامذته. و الذي يعنينا من هذه الكلمة قوله: إنه كان من العلماء العبّاد و الزهّاد، الذين يخشون الله. فالعلم وحده غير نافع بدون عمل، فالإمام الصادق عالم عامل زاهد في الدنيا يخشى الله و يتبع أوامره، وإنما يخشى الله من عباده العلماء، و لم يمنعه زهده و تبتله عن الكسب و طلب المعاش من وجوه المشروعة مع الإجمال في الطلب و الاعتدال في الإنفاق و أداء الحقوق، كما أنه ينهى عن الكسل و البطالة، و يمقت صاحبها و يفضل رجل العمل و يشجعه عليه. كما دلّت سيرته على ذلك. فالإمام مالك يكشف لنا انطباعاته عن الإمام الصادق، و ما عرفه عنه و ما اعتقده فيه، بأنه لا ينفك عن عبادة الله و تلاوة كتابه، و لا يتكلم بما لا يعنيه، و كان من العلماء العبّاد و الزهّاد الذين يخشون الله، و ناهيك بما وراء الخشية من الله و العمل بطاعته، فهي أعظم درجة و أرقى منزلة لدعاة الخير و أئمة الهدى، و هو فرع من الشجرة النبوية التي طاب غرسها و زكى ثمرها، قد التقى فيه شرف النسب و شرف النفس، و عزة

ص:318

---

1-1) مالك بن أنس، للخولي ص 94. و كتاب مالك لمحمد أبو زهرة ص 28 نقلا عن المدارك للقاضي عياض ص 212.

الإيمان وقوة الحق، وهو من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا. نعم إنه من السابقين إلى الخير والداعين إليه رغبة بما وعد الله، فهو لم يأل جهدا في التوجيه الصحيح، وحرصه على هداية الأمة إلى سواء السبيل.

### انطباعات أبي حنيفة:

وقد كشف لنا أبو حنيفة قبله انطباعاته عن الإمام الصادق، وما عرفه عنه، وأنه ما رأى أفقه منه بقوله: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهبيّ له من المسائل الشداد. فهيات له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر المنصور وهو بالحيرة، فدخلت عليه و جعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمت وأوماً فجلست، ثم التفت إليه قائلاً: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة. فقال عليه السلام: «نعم أعرفه». ثم التفت المنصور فقال: يا أبا حنيفة الق عليّ أبي عبد الله مسائلك. فجعلت ألقى عليه، فيجيبني فيقول: «أنتم تقولون كذا، وهم يقولون كذا، ونحن نقول كذا» فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ما أخل منها مسألة واحدة، ثم قال أبو حنيفة: أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس (1). وهذه القضية تبين لنا انطباعات أبي حنيفة عن الإمام الصادق، وما عرفه عنه، وأنه ما رأى أفقه منه، وهو أعلم الناس لعلمه باختلاف الناس، ونحن نستظهر من هذه القضية ثلاثة أمور: 1- اهتمام المنصور بشأن الإمام الصادق، لأن الناس افتتنوا به على حد تعبيره، عند ما اشتهر ذكره، حتى سارت به الركبان، والمنصور يعدّ هذا خطراً على دولته، لأنه لا يريد أن يلتفت الناس حول الإمام الصادق، فذلك يثير مخاوفه منه ويجعله حذراً، ولا يروق له تعلقهم بالإمام الصادق، وانتشار علمه الذي بلغ كل بقعة أثارها الإسلام، كما تنبئ عنه معاملته معه وتشدده عليه، و ترقبه فرصة الفتك به والقضاء عليه.

ص: 319

---

1-1) مناقب أبي حنيفة للمكي ج 1 ص 173. و جامع مسانيد أبي حنيفة ج 1 ص 252. و تذكرة الحفاظ للذهبي ج 1 ص 157.



2- وصف أبي حنيفة لهيبة الإمام، و ما داخله منها عند رؤيته له، و هو لا سلطان له، و لكنها هيبة منحه الله إياها، تخضع لها جابرة الأرض و تدل لها ملوكها. هيبة العلم و جلالة الإمامة و عظمة التقوى، هيبة اندكت أمامها هيبة الإمرة و عظمة السلطان، و رهبة البطش. يحدّثنا ابن أبي العوجاء عند ما ناظره الإمام الصادق فسكت ابن أبي العوجاء. قال: فقال لي: «ما يمنعك من الكلام؟» قلت: إجلالا لك و مهابة منك، ما ينطق لساني بين يديك، فإني شاهدت العلماء و ناظرت المتكلمين، فما تداخلى من هيبة أحد منهم مثلما تداخلى من هيبتك. و يقول المفضل بن عمر: إن المنصور قد همّ بقتل أبي عبد الله غير مرة، فكان إذا بعث إليه ليقتله، فإذا نظر إليه هابه (1). فالمنصور صاحب الدولة و السلطة، و الجيش و الحرس، و من عرف بالشدة و التجبر، تندك هيئته أمام هيبة الإمام عليه السلام و عظمته، لأنها لم تكن مصطنعة، بل هي التي يفرضها الله تعالى على من يشاء من عباده. و لا تختلف هذه الهيبة باختلاف الناس معه، فإن كل واحد كان يشعر في نفسه بتلك الهيبة له، سواء الولي و العدو و المؤلف و المخالف. على أنه عليه السلام كان بين أصحابه و جلسائه كواحد منهم، ينسبط لهم بالكلام و يؤنسهم بالحديث، و يجلس معهم على المائدة. 3- نستطيع أن نلاحظ من وراء هذه الرواية أسباب تقرب المنصور للعلماء و تظاهره بمناصرة العلم، و بالأخص من كانت له شهرة في محيطه كأبي حنيفة و قد نوهنا عن هذه الأسباب في الأبحاث السابقة.

### انطباعات المنصور الدوانيقي:

و قد شهد المنصور- و هو أشد الناس خصومة له، و أعظمهم عداوة و تألبا عليه-

ص: 320

1-1) حياة الإمام الصادق، للسببتي ص 25.

بأن الإمام الصادق كان من السابقين بالخيرات، و من الذين اصطفاهم الله من عباده، و أورثهم الكتاب. قال إسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس: دخلت على أبي جعفر المنصور يوماً فرأيتة و قد اخضلت لحيته بالدموع و قال لي: ما علمت ما نزل بأهلك؟ فقلت: و ما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: فإن سيدهم و عالمهم، و بقية الأخيار منهم توفي. قلت: و من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: هو جعفر بن محمد. فقلت: عظم الله أجر أمير المؤمنين و أطال لنا بقاه. فقال لي المنصور: إن جعفر بن محمد كان ممن قال الله فيه ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصَّ طَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا وَ كَانَ مِمَّنْ اصْطَفَى اللَّهُ وَ كَانَ مِنَ السَّابِقِينَ بِالْخَيْرَاتِ (1). و للمنصور كلمة أخرى تعبر عن انطباعاته و ما عرفه عن الإمام الصادق و هي قوله لابن المهاجر: اعلم أنه ليس من أهل بيت إلا و فيهم محدث، و إن جعفر بن محمد محدثنا اليوم. و لهذه الكلمة قصة: و هي أن المنصور قال لمحمد بن الأشعث: يا محمد ابغ لي رجلاً له عقل يؤدي عنى. فقال له محمد: إنى قد أصبته لك، هذا ابن المهاجر خالى. قال: فأتى به، فلما أتاه، قال له أبو جعفر: يا ابن المهاجر خذ هذا المال، و اتى المدينة، و اتى عبد الله بن الحسن، و جعفر بن محمد، و جماعة، و ادفع إليهم هذا المال، و قل لهم: هذا من شيعتكم بخراسان، فإذا قبضوا المال فقل: إنى رسول و أحب أن يكون معى خطوطكم بقبضكم ما قبضتم، فأخذ المال و أتى المدينة، ثم رجع إلى أبي جعفر المنصور، فقال له: ما وراءك؟ قال: أتيت القوم و هذه خطوطهم بقبضهم المال، خلا جعفر بن محمد، فإنى أتيتة و هو يصلى فى مسجد النبى، فجلست خلفه و قلت: ينصرف فأذكر له ما ذكرت

ص: 321

لأصحابه، فتعجّل وانصرف، و تبعته فالتفت إليّ وقال: «يا هذا اتق الله، و لا تغرى أهل بيت محمّد، فإنهم قريبو العهد من دولة بنى مروان، و كلهم محتاج». قلت: و ما ذاك أصلحك الله؟ فأدنى رأسه مني فأخبرني بما جرى بيني و بينك. فقال المنصور: يا ابن المهاجر اعلم أنه ليس من أهل بيت نبوة إلاّ و فيهم محدّث، و إن جعفر بن محمّد محدّثنا اليوم. فالمنصور مع شدة عدائه للإمام الصادق، و بغضه له، فهو يقول الحق في عدة مناسبات، و يصرح بما يخالف أفعاله، فمرة يصفه بأنّه من السابقين في الخيرات الذين اصطفاهم الله من عباده و بأنّه محدث، فكأنه ثابت إليه رشده أو نزع نفسه من مقتضيات السلطان و الإمارة، و مرات يهدد بقتله و يستعد لتنفيذ ما يمليه عليه حقه. و يقول-عند ما يتحدث الناس عن علم الصادق-: هذا الشجى المعترض في حلقي، من أعلم الناس في زمانه. فيجمع بين الحقيقة و بين بغيه و حقه. و يقول: إنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا. و يقول مخاطبا الإمام الصادق عليه السلام: لا نزال من بحرك نغترف و إليك نزدلف، تبصر من العمى، و تجلو بنورك الطخيا (الليلة المظلمة) فنحن نعوم في سحاب قدسك، و طامى بحرك. و قال لحاجبه الربيع: و هؤلاء من بنى فاطمة لا يجهل حقهم إلاّ جاهل، لاحظ له في الشريعة. و مع هذه الاعترافات في حق الإمام الصادق فهو لا يستطيع أن يتغلّب على هواه أو ينتصر على نفسه، فينطلق من عقال حقه، و يعرف للإمام منزلته، و يرمى حقه و يحفظ قرابته من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم. و لكن المنصور كان خصما لا يلين، و جبارا لا يروعى، و متعنّت لا يخضع لحق، و لا يرتدع عن باطل، فقد كان يثقل عليه انتشار ذكر جعفر بن محمّد في أندية العلم و حلقات الدرس، و العلماء يستدلّون بروايته و يستشهدون بقوله، فيكون قوله الفصل و حكمه العدل. و لذلك فقد وقف للإمام بالمرصاد، يحاول الفتك به و القضاء عليه، مع معرفته بمنزلته، قد أخذته العزة بالإثم، و الطمع في الملك، فهو دائما مع شهواته، و أسير هواه و أطماعه.

و تكاد تكون سياسة المنصور تجاه الإمام الصادق أهم وجوه الحكم، فقد كان الإمام الصادق شغل المنصور الشاغل، وقد سلك معه كل السبل حتى كأنه بات يواجه ثورة على وشك الاشتعال بفعل نشاط الإمام الصادق ومكانته، فنرى المنصور يتذرع إما بالحج ليأتي المدينة، ويتحرى أخبار الإمام ويبعث إليه لياتيه، أو يوجه إليه إلى العراق، وفي كل مرة يفقد توازنه ويكشّر عن أنياب حقه فيهدد بقتل الإمام، أو يترك نفسه على سجيتها فيسئ الأدب معه، أو يحاول أن يوقع بالإمام الصادق حيث يوهمه حقه أن يماكانه أن يجد من هو أعلم من الإمام عليه السلام. وسيأتيك في الأجزاء القادمة تفاصيل العلاقة بين رأس النظام المنصور وبين الإمام الصادق عليه السلام وترى وجوه العناية الربانية التي حفظت الإمام من مكائد هذا الطاغية.

## انطباعات ابن أبي ليلى:

قال نوح بن دراج: قلت لابن أبي ليلى (1): أكنت تاركا قولاً قلته وقضاء قضيته لقول أحد؟ . قال: لا إلا لرجل واحد. قلت: من هو؟ قال: هو جعفر بن محمد الصادق. هذا قول فقيه من فقهاء ذلك العصر، وقاض من قضاة الدولتين الأموية والعباسية، وقد وصفوه بأنه أفقه أهل الدنيا، كما وصفوه بأنه صاحب قرآن وسنة، وأنه صدوق، وجائز الحديث، وخرج حديثه الأربعة، وقد أقام قاضياً ثلاث و ثلاثين سنة. ومهما تكن حاله فهو بكلمته هذه يكشف لنا عن انطباعاته بعلم الإمام الصادق

ص: 323

1-1) ابن أبي ليلى: هو عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، المتوفى سنة 148 هـ. روى الحديث عن أخيه عيسى والشعبي وعطاء و نافع، وروى عنه شعبة والسفيانان ووكيع. والشئ الذي نريد أن نوضحه هنا هو أن عبد الرحمن بن أبي ليلى أبو محمد، هو غير عبد الرحمن بن أبي ليلى الأوسى الكوفي المعروف بابن أبي ليلى؛ فإن الأخير من أصحاب الإمام علي وشهد مشاهدته كلها، وهو من التابعين، وقد ضربه الحجاج بن يوسف بالسياط حتى اسودت كتفاه، وذلك عند ما أمره أن يشتم علياً وينتقصه، فامتنع ابن أبي ليلى، فأقامه الحجاج في المسجد وأمر بضربه، وأخذ ابن أبي ليلى يحدث الناس بفضائل علي، ولم يعبأ بتعذيب الحجاج وتهديده، وقد خرج علي الحجاج في وقعة دير الجماجم سنة 183 هـ استنكاراً على الحجاج لتأخيره الصلاة حتى يفوت وقتها، وقيل أن الحجاج قبض عليه مرة أخرى وقتله، و قيل أنه غرق في النهر هو ومحمد بن الأشعث وذلك في سنة 183 هـ.

وعظيم منزلته، وما عرفه عنه من قدم راسخ في العلم، فهو لا يرى أحداً يترك قوله لقوله أو قضاء قضاه لأى أحد إلا لمن هو أعلم منه، ولا يعتقد بهذه المنزلة لأى رجل في عصره، إلا للإمام الصادق عليه السلام.

### انطباعات عمرو بن عبيد:

دخل عمرو بن عبيد (1) على الإمام الصادق، فطلب من الإمام أن يعدد له الكبائر وقال: أحب أن أعرفها من كتاب الله، أو سنة رسوله؛ لأن الخلاف قد تعاضم بين المسلمين، في مسألة مرتكب الكبيرة، واحتدم النزاع في ذلك العصر، وعقدت المجالس للمناظرة فيها. فقال له الإمام: «نعم يا عمرو» و فصلها له: 1- الشرك بالله إن الله لا يغفر أن يشرك به (2). 2- عقوق الوالدين: لأن العاق جبار شقى وبراً بوالدي و لم يجعلني جباراً شقياً (3). 3- قذف المحصنات إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم (4). 4- أكل مال اليتيم إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصملون سجيناً (5). 5- الفرار من الزحف و من يؤلفهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنم وبئس المصير (6). 6- قتل النفس و من يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها و غضب الله عليه و لعنه و أعد له عذاباً عظيماً (7).

ص: 324

1 - 1) عمرو بن عبيد بن باب. ولد سنة 80 هـ و توفي سنة 143 هـ سكن البصرة و جالس الحسن البصرى ثم اعتزله، و هو من رؤساء المعتزلة، لقي الإمام الصادق عليه السلام و روى عنه.

2- 2) سورة النساء آية 116. [1]

3- 3) سورة مريم آية 32. [2]

4- 4) سورة النور آية 23. [3]

5- 5) سورة النساء آية 10. [4]

6- 6) سورة الأنفال آية 16. [5]

7- 7) سورة النساء آية 93. [6]

7-نقض العهد وقطيعة الرحم الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (1). ويستمر الإمام عليه السلام في تعداد الكبائر بأوضح بيان، ويستشهد على كل واحدة منها بآية من كتاب الله أو سنة من رسوله، حتى أتى على آخرها، وعمرو بن عبيد يصغى لبيانه، فلما انتهى الإمام عليه السلام قال عمرو بن عبيد: هلك من سلبكم تراثكم و نازعكم في الفضل والعلم (2). وهذه الكلمة من عمرو بن عبيد، وهو رئيس من رؤساء المعتزلة وعالم من علماء الأمة، قالها بعد أن عرف ما عند الناس حول هذه المشكلة، وهي فعل الكبيرة، وقد ناظر وجادل، وجاء للإمام الصادق ليكون قوله الفصل وحكمه العدل، فهو يرى أن الإمام عليه السلام معدن العلم والفضل، ومن حاول أن يتقدم عليه في هذه المنزلة فهو هالك. وخلاصة القول في هذه الأقوال أنها صدرت عن أناس لا يتهمون بالتحيز، فإن كلمة كل واحد منهم إنما تنطبق على الواقع، وليس فيها ميل ولا تحيز. فمالك بن أنس كان لا يعرف بموالاة أهل البيت، ولا بالدعاية لهم، ولم تكن نزعة شيعية فيتهم، بل كانت نزعة أقرب ما تكون إلى النزعة الأموية، فإنه يميل إليهم، فانطباعاته عن شخصية الإمام بأنه من العلماء الزهاد الذين يخشون الله، وأنه لا يفتر عن طاعة الله، في سره وفي علنه، كل ذلك صادر عن واقع لا تحيز فيه، ولا ميل، بل هو الحق الذي لا شبهة فيه ولا غبار عليه، وقد لازمه مدة من الزمن، وحضر مجالس درسه وعظه، ورافقه في سفره للحج، فلم يجد فيه إلا العالم الزاهد، الذي خالف هواه وعمل بما علم، واتقى الله حق تقاته، فكان من الصادقين الذين يهتدى بهديهم ويقتدى بهم. وكذلك أبو حنيفة و اعترافه بأن الإمام الصادق كان أعلم الناس وأفقههم، فهو قول صادر عن واقع بل عن خبرة ودراية، فهو لا يتهم في قوله، وهو بعيد عن أسباب الاتهام، لأنه لم يعرف بميله للتشيع.

ص:325

[1-1] سورة البقرة آية 27. [1]

[2-2] كتاب الإمام الصادق للأستاذ رمضان لاوند ص 20-22.

و أما المنصور فناهيك به من عدو لدود، و خصم شديد، إذ يشهد بما تقدم فإنما ذلك من باب: و مناقب شهد العدو بفضلها و الفضل ما شهدت به الأعداء

و كما أن هؤلاء لا يهتمون بتصريحهم عما يعتقدونه في نفوسهم عن شخصية الإمام، كذلك لا يهتم عبد الله بن المبارك في مدح الإمام الصادق و تصريحه عن اعتقاده فيه عند ما استقبله في بعض الأيام فقال: أنت يا جعفر فوق ال مدح و المدح عناء

إنما الأشراف أرض و لهم أنت سماء

جاز حد المدح من قد ولدته الأنبياء

و يقول أيضا: الله أظهر دينه و أعزه بمحمد

و الله أكرم بال- - خلافة جعفر بن محمد

و على أي حال فإن استيفاء هذا البحث بالبيان عن جميع ما يلزم به من ذكر انطباعات العلماء و الأدباء عن شخصية الإمام في عصره و بعد عصره أمر يطول شرحه، و قد أشرنا للبعض منه في الجزء الأول. و للمزيد من الوقوف على نواحي عظمته و السير على أضواء تعاليمه، نود هنا ذكر فصول من حكمه و فكره الخوالد، التي أرسلها عبر الدهور معلما للأجيال، و هو يضع في كل منها حجر الأساس لأعظم الأسس التربوية التي يتجلى فيها روح الصلاح و حب الإصلاح.

ص: 326

## تمهيد:

إن للحكم والأقوال التي ينطق بها كبار الرجال والمصلحون، أهمية كبرى في حياة الأمم التي تشد الرقي، لتمهد لنفسها الطريق إلى السعادة، فالحكم التي يوجهها المصلحون بما يتعلّق بمقتضيات الأمور الاجتماعية، والاقتصادية، وبكل شيء يمتّ إلى حياتهم التي يحيونها بصلة، إنّما هي سجل خالد تتلخّص فيه الشخصية، وتبلور فيه الأخلاق والخصائص الفردية والاجتماعية. إن أولئك المصلحون والمرشدون في كل أمة وفي كل عصر يدلون بحكمهم وإرشاداتهم لا يرومون من ورائها إلا سعادة المجتمع الذي يعيشون فيه، فهم ينيرون الطريق بشعلة من الأفكار؛ ليوجهوا الناس إلى مناهج الحياة الصحيحة، والابتعاد عن مهاوى الجهل، ومخاطر الفساد. وقد خلّدت آثارهم عبر القرون تتلقاها الأجيال فتلقى عليهم دروساً نافعة، وتلقى أضواء تكشف عن شخصياتهم فتبعث إلى الوجود من جديد، وتمرّ العصور وهم أحياء بتلك الذكريات الخالدة. وكان أهل بيت النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وخلفاؤه من بعده هم خير من أوجب النصح للمسلمين على أنفسهم، جاعلين نصب أعينهم خدمة الأمة في التوجيه الصحيح، والسير بهم في طريق الهدى والرشاد، فكانت سيرتهم وحكمهم تدل على مدى اهتمامهم في أداء رسالتهم، وقد خاضوا غمرات المحن في سبيل تحقيق ذلك، فكانوا خير قادة للرشاد وأئمة للهدى. جربوا الحياة ومارسوها، وكل منهم واجه ظروفًا خاصة، وخاضوا معترك الحياة، فكانت أقوالهم وحكمهم خلاصة تجارب، وثمره كفاح عانوه.



وكان للإمام الصادق عليه السلام تراث فكري و ثروة كبيرة من الحكم الأخلاقية تعد في الواقع أعظم أثر من آثار دعاة الإصلاح، وقادة الخير و الرشاد فهو عليه السلام لا يهدأ لحظة عن الإرشاد إلى طاعة الله، و لا تفوته فرصة يرحو فيها تنظيم العلاقات الاجتماعية و تهذيب النفوس من كل ما يؤدي إلى قطع تلك الروابط بين أفراد المجتمع، فكانت أقواله عليه السلام في كل مناسبة توجيهها، و وصاياها في كل حين إرشادا. أما إذا استخلص التعاليم و استصفى النظرات فإنه عليه السلام يأتي بموجز من البيان و ينطق بعبارات يسيرة ترقى إلى أعلى مراتب الحكمة، و تسمو إلى أرفع منازل الإيمان، و يتخلل منهجه عليه السلام في الدعوة و الإرشاد بيان مشرق و يضمه سياق محكم. و لقد قدّمنا في أبحاثنا السابقة من هذا الكتاب بعض تلك الحكم، و نجد لزاما علينا أن نزين هذا الجزء ببعض جواهر حكمه التي تضمنت أهم النقاط الاجتماعية و الخلقية، و كل ما يتعلق بأمور الفرد و المجتمع، فهو عليه السلام يعالج الأمور بأسلوب يعجز القلم عن وصفه، و حكمة يتلثم اللسان عن بيانها. لقد عرف عليه السلام بين الناس بكرم الأخلاق و صدق الحديث، و حسن المجالسة. و قد منحه الله سلامة الفطرة، و صفاء الحس، و نفاذ البصيرة و حسن البيان، فكان خير داعية للخير، و مرشد للهدى، يزدحم مجلسه بمختلف الطبقات و الطوائف و ينتهلون من تعاليمه، و يتزوّدون من حكمه و أخلاقه، و قد جدوا فيه المصلح الاجتماعي العظيم، و المرشد الديني الكبير. إنهم وجدوا فيه عالما و إنسانا كاملا، يهدى إلى الرشاد، و يدعو إلى سواء السبيل، و قد خرّجت مدرسته علماء أعلاما و رجال إصلاح خدموا الإنسانية جمعاء خدمة لا تنكر. إنه عليه السلام لم يدخر نصحا عن أحد، و لم يأل جهدا في توجيه النصح لكل أحد، فتجد له في كل مناسبة قولا، و في كل مجال حكمة، و لكل مشكلة حلا، و إن منهجه القويم و طابعه الأخلاقي ليظهران على كل كلمة نقلت عنه، و على كل أثر نسب إليه. إن تلك الفكر الخوالد تتصف بصفة الشمول لجميع نواحي الحياة الإنسانية و توضح للمسلم تعاليم دينه الصحيح، و هي تمتّ إلى واقع المسلمين في كل عصر، و هي الدواء لأمراض المجتمع، و الحل الصحيح لمشكلاته.

و ها نحن نذكر هنا بعض حكمه و مواعظه، فى أمور متفرقة اقتبسناها من تلك الثروة العلمية، بدون شرح و تعليق، لأننا عزمنا على إبراز ما جمعناه من حكمه و تراثه الفكرى على حدة، مع شرح يكشف معانيها، و يبين مرادها، و من الله نستمد العون و هو ولى التوفيق.

## حكمه و أقواله:

\* «اتقوا الله و اعدلوا، فإنكم تعيون على قوم لا يعدلون». \* «إياكم و الخصومة فإنها تشغل القلب، و تورث النفاق، و تكسب الضغائن، قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: ما كاد جبرائيل يأتينى إلا قال: يا محمد اتق شحناء الرجال، و عداوتهم». \* «أولى الناس بالعمو أقدرهم على العقوبة، و أنقص الناس عقلا من ظلم من دونه، و من لم يصفح عمن اعتذر إليه». \* «إن من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحق و إن ضرك، على الباطل و إن نفعك». \* «احفظ لسانك تعز، و لا تمكن الناس من قيادك فتذل رقيبتك». \* «إياكم و سؤال الناس فإنه ذل فى الدنيا و فقر تعجلونه، و حساب طويل يوم القيامة». \* «اطلبوا العلم و لو بخوض اللجج، و شق المهج». \* «إذا أردت أن تختبر عقل الرجل فى مجلس واحد فحدثه فى خلال حديثك بما لا يكون، فإن أنكره فهو عاقل، و إن صدقه فهو أحمق». \* «إن هذا العلم عليه قفل، و مفتاحه السؤال». \* «إن يسلم الناس من ثلاثة أشياء كانت سلامة شاملة: لسان السوء، و يد السوء، و فعل السوء». \* «العاقل من كان ذلولا عند إجابة الحق، منصفًا بقوله جموحًا عند الباطل، يترك دنياه و لا يترك دينه. و دليل العاقل شيئان: صدق القول و صواب الفعل. و العاقل لا يتحدث بما ينكره العقل، و لا يتعرض للتهمة، و لا يدع مداراة من ابتلى به، و يكون العلم دليله فى أعماله، و الحلم رفيقه فى أحواله، و المعرفة تعينه فى مذاهبه. و الهوى عدو العقل، و مخالف الحق، و قرين الباطل. و قوة الهوى من الشهوة. و أصل علامات الشهوة: أكل الحرام و الغفلة عن الفرائض و الاستهانة بالسنن و الخوض فى الملاهى».

\* «أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله، وانصحوا لأنفسكم، وجاهدوا في طلب معرفة ما لا عذر لكم في جهله، فإن لدين الله أركاناً لا ينفع من جهلها بشدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته، ولا يضر من عرفها فدان بها حسن اقتصاده، ولا سبيل لأحد إلى ذلك إلا بعون الله عزّ وجلّ». \* «إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغنى». \* «إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذراً، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعل له عذراً لا أعرفه». \* «إن الله ارتضى لكم الإسلام ديناً، فأحسنوا صحبته بالسخاء و حسن الخلق». \* «إن العمل الدائم القليل على يقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين». \* «أحب إخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبى». \* «إن سرعة ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا وإن لم يظهروا التودد بألسنتهم، كسرعة ائتلاف ماء السماء بماء الأنهار، وإن بعد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا، وإن أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف، وإن طال ائتلافها على مذود واحد». \* «إياك و مخالطة السفلة، فإن مخالطة السفلة لا تؤدى إلى خير». \* «إن مثل الدنيا كمثّل ماء البحر، كلما شرب العطشان منه ازداد عطشاً». \* «إن عيال الرجل أسراؤه، فمن أنعم عليه الله فليوسع على أسرائه، فإن لم يفعل يوشك أن تزول تلك النعمة عنه». \* «اتقوا الله و صونوا دينكم بالورع». \* «انظر إلى من هو دونك في المقدرة، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإن ذلك أقنع لك بما قسم الله لك، وأحرى أن تستوجب الزيادة منه عزّ وجلّ، و اعلم إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين، و اعلم أنّه لا ورع أنفع من تجنّب محارم الله، و الكفّ عن أذى المؤمن، و لا مال أفضل من القناعة باليسير المجزى، و لا جهل أضر من العجب». \* «إن الغنى و العزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطناه» .

\* «ألا- وإن أحب المؤمنين إلى الله من أعان المؤمن الفقير من الفقر في دنياه، و معاشه، و من أعان و نفع و دفع المكروه عن المؤمنين». \*

\* «إن صلة الرحم و البرّ ليهوّنان الحساب، و يعصمان من الذنب، فصلوا أرحامكم، و برّوا إخوانكم، و لو بحسن الجواب و ردّ السلام». \*

\* «احذروا سطوات الله بالليل و النهار» فقليل له: و ما سطوات الله؟ فقال: «أخذة بالمعاصي». \* «إياك و خصلتين: الضجر و الكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق، و إن كسلت لم تؤد حقه». \* «إياك و الرياء فإنه من عمل لغير الله و كله الله إلى من عمل له». \* «باشر كبار أمورك بنفسك و كل ما صغر منها لغيرك». \* «البركة أسرع إلى البيت الذي يمتاز فيه المعروف من الشفرة إلى سنام البعير و السيل إلى منتهاه». \* «إياكم و الخصومة في الدين؛ فإنّها تشغل القلب عن ذكر الله. و تورث النفاق، و تكسب الضغائن، و تستجيز الكذب». \*

\* «إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله عزّ و جلّ و لم يعطكموها لتكنزوها». \* «إذا بلغك عن أخيك شيء فلا تغتم، فإن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، و إن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها». \* «إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه». \* «أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق، فقد وسع الله عليهم في الرزق، و الرفق في تقدير المعيشة خير من سعة المال، و الرفق لا يعجز عن شيء، و التبذير لا يبقى معه شيء، إن الله عزّ و جلّ رفيق يحب الرفق». \* «اصنع المعروف إلى من هو أهله و إلى من ليس هو أهله، فإن لم يكن هو من أهله فكأن أنت من أهله». \* «إن من عرف نعمة الله بقلبه استوجب المزيد من الله قبل أن يظهر شكرها على لسانه» .

\* «تدخل يدك في فم التنين إلى المرفق خير لك من طلب الحوائج إلى من لم يكن له ثم كان». \* «ثلاثة لم يجعل الله لأحد من الناس فيهنّ رخصة: برّ الوالدين، برّين كانا أو فاجرين، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وأداء الأمانة للبر والفاجر». \* «تأخير التوبة اغترار، وطول التسوية حيرة، والاعتدال على الله هلكة، والإصرار على الذنب أمن من مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون». \* «ثلاثة من لم تكن فيه فلا يجرى خيره أبدا: من لم يخش الله في الغيب، ولم يروع عند الشيب، ولم يستح من العيب». \* «تحتاج الأخوة فيما بينكم إلى ثلاثة أشياء فإن استعملتموها وإلا تباينتكم وهي: التناصف، والتراحم، ونفى الحسد». \* «ثلاثة من استعملها أفسد دينه ودنياه: من أساء ظنه، وأمكن من سمعه، وأعطى قياده حليلته». \* «ثلاثة تجب على السلطان للخاصة والعامة: مكافأة المحسن بالإحسان ليزدادوا رغبة فيه، وتغمد ذنوب المسيئين ليتوب ويرجع عن غيه، وتألفهم جميعا بالإحسان والإنصاف». \* «ثلاثة تدل على كرم المرء: حسن الخلق، وكظم الغيظ، وغض الطرف». \* «الجهل في ثلاث: الكبر والمراء والجهل بالله فأولئك هم الخاسرون». \* «حسن الظن بالله أن لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك». \* «الحزم في ثلاث: الاستخدام للسلطان، والطاعة للوالد، والخضوع للمولى». \* «الحياء والإيمان مقرونان، فإذا ذهب أحدهما اتبعه الآخر». \* «خلّوا سبيل المعسر كما خلاه الله» إشارة لقوله تعالى: وَإِنْ كَانَ دُوْ عُسْرَةً فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ. \* «خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم بدرت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك». \* «خذ من حسن الخلق بطرف تروح به أمرك، وتروح به قلبك».

\* «خير السادة أرحبهم ذراعا عند الضيق، وأعدلهم حلما عند الغضب، وأبسطهم وجها عند المسألة، وأرحمهم قلبا إذا سلط، وأكثرهم صفحا إذا قدر». \* «الدين غم في الليل وذل في النهار». \* «داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالدعاء». \* «دراسة العلم لقاح المعرفة، وطول التجارب زيادة في العقل، والشرف والتقوى والقنوع راحة الأبدان». \* «رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: تصغيره، وستره، وتعجيله. فإنك إن صغرته عظمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تمتمته، وإذا عجلته هنأته، فإذا فعلت غير ذلك فإنك سخفته ونكذته». \* «رأيت المعروف كاسمه، وليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه، وذلك يراد منه، وليس كل من يحب إلى الناس يصنعه، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه، ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة؛ فهناك تمت السعادة للطالب والمطلوب». \* «الرجال ثلاثة: عاقل وأحمق وفاجر. فالعاقل إن كلّم أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سمع وعى. والأحمق إن تكلم عجل، وإن حمل على القبيح فعل. والفاجر إن ائتمنته خانك، وإن حدّثته شانك». \* «سرك من دمك، فلا تجره في غير أوداجك». \* «سته لا تفارقهم الكآبة: الحقود، والحسود، وفقير قريب العهد بالغنى وغنى يخشى الفقر، وطالب رتبة يقصر عنها قدره، وجليس أهل الأدب وليس منهم». \* «سيد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك، حتى لا ترضى بشيء إلا رضيت لهم مثله، ومواساة الأخ بالمال، وذكر الله على كل حال» ثم قال: «ليس هو سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فقط، ولكن إذا ورد عليك ما أمر الله به أخذت به، وإذا ورد عليك شيء نهى الله عنه تركته». \* «الصفح الجميل أن لا تعاقب على الذنب، والصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى».

\* «صلة الأرحام تحسن الخلق و تطيب النفس، و تزيد في الرزق، و تنسى الأجل». \* «صدرك أوسع لسرك». \* «الصلاة قربان كل تقى، و الحج جهاد كل ضعيف، و زكاة البدن الصيام، و الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، و استنزّلوا الرزق بالصدقة، و حصّنوا أموالكم بالزكاة، و ما عال من اقتصد، و التدبير نصف العيش، و التودد نصف العقل، و قلة العيال أحد اليسارين، و من أحزن والديه فقد عقّهما، و من ضرب يده على فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره، و الصنعة لا تكون صنعة إلاّ عند ذى حسب و دين، و الله تعالى منزل الصبر على قدر المصيبة، و منزل الرزق على قدر المؤنة، و من قدر معيشته رزقه الله، و من بذّر معيشته حرمه الله». \* «صلة الرحم تهوّن الحساب يوم القيامة، و هى منسأة في العمر، و تقى مصارع السوء». \* «صدقة يحبها الله: إصلاح بين الناس إذا تقاسدوا و تقارب إذا تباعدوا». \* «صلاح حال التعايش و التعاشر على مكيال، ثلثاه فطنة و ثلث تغافل». \* «ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر». \* «احذروا عواقب العثرات». \* «إن المؤمن أخو المؤمن، عينه و دليله، لا يخونه و لا يظلمه، و لا يغشه، و لا يعده عدة فيخلفه». \* «طلب الحوائج إلى الناس استلاب للعزّ و مذهبة للحياء، و اليأس مما في أيدي الناس عز للمؤمن في دينه، و الطمع هو الفقر الحاضر». \* «الطيرة على ما تجعلها إن هونتها تهونت، و إن شددتها تشددت، و إن لم تجعلها شيئاً لم تكن». \* «ما من أحد يتيه إلاّ لذلة يجدها في نفسه». \* «ما من أحد تكبر أو تجبر إلاّ لذلة وجدها في نفسه» .

\* «ما أقبح بالمؤمن من أن تكون له رغبة تذلّه». \* «إن المشورة لا تكون إلا بحدودها، فمن عرفها بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير أكبر من نفعها: فأولها: أن يكون الذى تشاوره عاقلا. و الثانية: أن يكون حرا متدينا. و الثالثة: أن يكون صديقا مواخيا. الرابعة: أن تطلعه على سرّك، فيكون علمه به كعلمك بنفسك، ثم يسر لك ويكتمه، فإنه إذا كان عاقلا انتفعت بمشورته، وإن كان حرا متدينا أجهد فى النصيحة لك، وإذا كان صديقا مواخيا كتم سرّك إذا أطلعتة عليه، وإذا أطلعتة على سرّك فكان علمه به كعلمك به، فهناك تمت المشورة و كملت النصيحة». \* «الصدّاقة محدودة، فمن لم تكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلى كمال الصدّاقة، و من لم يكن فيه شىء من تلك الحدود فلا تنسبه إلى شىء من الصدّاقة: أولها: أن تكون سريرته و علانيته لك واحدة. الثانية: أن يزينك زينه و يشينك شينه. الثالثة: أن لا يغيره مال و لا ولاية. الرابعة: أن لا يمنعك شيئا مما تصل إليه مقدرته. الخامسة: أن لا يسلمك عند النكبات». \* «طلبة العلم على ثلاثة أصناف: فاعرفهم بأعيانهم و صفاتهم: صنف يطلبه للجهل و المرء، و صنف يطلبه للاستطالة و الختل، و صنف يطلبه للفقّه و العقل. فصاحب الجهل و المرء متعرض للمقال فى أندية الرجال يتذاكر العلم، و صفة الحلم، قد تسربل بالخشوع، و تخلّى عن الورع، فدق الله من هذه خيشومه. و صاحب الاستطالة و الختل: ذو خب و ملق، يستطيل على مثله من أشباهه، و يتواضع للأغنياء من دونه. و صاحب الفقّه و العقل ذو كآبة و حزن، يعمل و يخشى، و جلا داعيا مشفقا على شأنه، عارفا بأهل زمانه، مستوحشا من أوثق إخوانه». \* «طلبت الجنة فوجدتها فى السخاء، و طلبت العافية فوجدتها فى العزلة،



و طلبت ثقل الميزان فوجدته فى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله. و طلبت سرعة الدخول إلى الجنة فوجدتها فى العمل لله، و طلبت حب الموت فوجدته فى تقديم المال لوجه الله، و طلبت حلاوة العبادة فوجدتها فى ترك المعصية، و طلبت رقة القلب فوجدتها فى الجوع و العطش، و طلبت نور القلب فوجدته فى التفكير و البكاء، و طلبت الجواز على الصراط فوجدته فى الصدقة، و طلبت نور الوجه فوجدته فى صلاة الليل، و طلبت فضل الجهاد فوجدته فى الكسب للعيال، و طلبت حب الله فوجدته فى بغض أهل المعاصى، و طلبت الرئاسة فوجدتها فى النصيحة لعباد الله، و طلبت فراغ القلب فوجدته فى قلة المال، و طلبت عزائم الأمور فوجدتها فى الصبر، و طلبت الشرف فوجدته فى العلم، و طلبت العبادة فوجدتها فى الورع، و طلبت الراحة فوجدتها فى الزهد، و طلبت الرفعة فوجدتها فى التواضع، و طلبت العز فوجدته فى الصدق، و طلبت الغنى فوجدته فى القناعة، و طلبت الأئس فوجدته فى قراءة القرآن، و طلبت رضا الله فوجدته فى بر الوالدين». \* «إذا كان الله قد تكفل بالرزق فاهتمامك لما ذا؟ و إن كان الرزق مقسوما فالحرص لما ذا؟ و إذا كان الحساب حقا فالجمع لما ذا؟ و إن كان الخلف من الله عز و جل حقا فالبخل لما ذا؟ و إن كانت العقوبة من الله عزّ و جل النار فالمعصية لما ذا؟ و إن كان الموت حقا فالفرح لما ذا؟ و إن كان العرض على الله حقا فالمكر لما ذا؟ و إن كان الشيطان عدوا فالغفلة لما ذا؟ و إن كان كل شىء بقضاء و قدر فالحزن لما ذا؟ و إن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لما ذا؟» \* «إن أحق الناس بأن يتمنى للناس الغنى البخلاء؛ لأن الناس إذا استغنوا كفوا عن أموالهم، و إن أحق الناس بأن يتمنى للناس الصلاح أهل العيوب، لأن الناس إذا صلحوا كفوا عن تتبع عيوبهم. و إن أحق الناس بأن يتمنى للناس الحلم أهل السفه الذين يحتاجون أن يعفى عن سفههم، فأصبح أهل البخل يتمنون فقر الناس، و أصبح أهل العيوب يتمنون معائب الناس، و أصبح أهل السفه يتمنون سفه الناس. و فى الفقر الحاجة إلى البخيل، و فى الفساد طلب عورة أهل العيوب، و فى السفه المكافأة بالذنوب». \* «العاقل لا يستخف بأحد، و أحق من لا يستخف به ثلاثة: العلماء،

و السلطان، و الإخوان. لأنه من استخف بالعلماء أفسد دينه، و من استخف بالسلطان أفسد دنياه، و من استخف بالإخوان أفسد مروءته». \*  
«العافية نعمة خفية إذا وجدت نسيت و إذا عدت ذكرت». \* «العدل أحلى من الماء يصيبه الظمان». \* «العجب يكلم المحاسن، و  
الحسد للصدیق من سقم المودة، و لن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشر عليهم من فضلك». \* «العز أن تذلل للحق إذا لزمك». \*  
«العادة على كل شيء سلطان». \* «عليك بالنصح لله في خلقه فإنك لن تلقاه بعمل أفضل منه». \* «ويل لقوم لا يدينون الله بالمعروف و  
النهي عن المنكر». \* «الغضب ممحقة لقلب الحليم، و من لم يملك غضبه لم يملك عقله». \* «الغضب مفتاح كل شر». \* «فوت  
الحاجة خير من طلبها من غير أهلها، و أشد من المصيبة سوء الخلف منها». \* «من استشاره أخوه فلم يحضه النصح؛ سلبه الله رأيه». \*  
«لا تبد الشماتة لأخيك، فيرحمه الله و يصيرها بك». \* «لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحدا أحدا، و لو يعلم المسئول إذا منع ما  
منع أحد أحدا». \* «لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه، فتسد عليه طريق الرجوع إليك، و لعل التجارب أن ترده إليك». \* «لو علم سيئ  
الخلق أنه يعذب نفسه لتسمح في خلقه». \* «لا- تكن أول مشير، و إياك و الرأي الفطير، و تجنب ارتجال الكلام، و لا تشر على مستبد  
برأيه، و لا على وغد، و لا على متلون، و لا على لجوج».

\* «لا يزال العز قلنا حتى يدخل دارا قد أيس أهلها من أيدي الناس». \* «ليس منّا من لم يحسن مجاورة من جاوره». \* «البر و حسن الخلق يعمران الديار، و يزيدان في الأعمار»، فقيل له: ما حد حسن الخلق؟ قال عليه السّلام: «تلين جانبك، و تطيب كلامك، و تلقى أخاك ببشر حسن». و قال عليه السّلام للمفضل بن عمر: «أوصيك بست خصال». قال المفضل: و ما هي يا سيدي؟ قال عليه السّلام: «أداء الأمانة إلى من ائتمنك، و أن ترضى لأخيك ما ترضاه لنفسك، و اعلم بأن للأمر أواخر فاحذر العواقب، و إن للأمر بغتات فكن على حذر، و إياك و مرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر و عرا، و لا تعدنّ أخاك و عدا ليس في يدك و فاؤه». \* «ثلاثة لا يصيبون إلاّ خيرا: أولو الصمت، و تاركو الشر، و المكثرون من ذكر الله، و رأس الحزم التواضع». فقيل له: و ما التواضع؟ قال عليه السّلام: «أن ترضى من المجلس بدون شرفك، و أن تسلّم على من لقيت، و أن تترك المرء و إن كنت محقا». \* «خمس خصال من فقد منهنّ واحدة لم يزل ناقص العيش مشغول القلب: فأولها صحة البدن، و الثانية الأمن، و الثالثة السعة في الرّزق، و الرابعة الأنيس الموافق، و الخامسة و هي تجمع هذه الخصال: الدعة» فقيل له: و ما الأنيس الموافق؟ قال: «الزوجة الصالحة، و الولد الصالح». \* «الكلام ثلاثة: صدق، و كذب، و إصلاح بين الناس». فقيل له: ما الإصلاح بين الناس؟ قال عليه السّلام: «تسمع في الرجل كلاما إن يبلغه فيخبت نفسه، فتلقاه و تقول: قد سمعت من فلان فيك من الخير كذا و كذا خلاف ما سمعته منه». \* «إن الخمر رأس كل إثم و مفتاح كل شر، و ما عصى الله بشيء أشد من شرب المسكر».

فقال له الرجل: أصلحك الله؛ أشرب الخمر شر أم ترك الصلاة؟ قال عليه السلام: «شرب الخمر». ثم قال له: «أو تدري لم ذاك؟» قال: لا. قال عليه السلام: «لأنه-أى شارب الخمر-يصير في حال لا يعرف ربه». \* وسئل عليه السلام: هل يكون المؤمن بغيضا؟ قال: «لا ولا يكون ثقيلا». \* «لعن الله قاطعي سبيل المعروف». قيل له: و من قاطعو سبيل المعروف؟ قال عليه السلام: «الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره، فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره». \* «لا- يطعن ذو الكبر في الثناء الحسن، ولا الخب في كثرة الصديق، ولا السيئ الأدب في الشرف، ولا البخيل في صلة الرحم، ولا المستهزئ بالناس في صدق المودة، ولا القليل الفقه في القضاء، ولا المغتاب في السلامة، ولا الحسود في راحة القلب، ولا المعاقب على الذنب الصغير في السؤدد، ولا القليل التجربة المعجب برأيه في الرئاسة». \* «لا يصلح من لا يعقل، ولا يعقل من لا يعلم، والصدق عز، والجهل ذل، والفهم مجد، والجود نجح، وحسن الخلق مجلبة للمودة، والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوايس، والحزم مشكاة الظن، والعاقل غفور والجاهل ختور؛ وإن شئت أن تهان فأخشن، ومن كرم أصله لان قلبه، ومن خشن عنصره غلظ كبده، ومن فرط تورط، ومن خاف العاقبة تثبت». \* «لا غنى بالزوج عن ثلاثة فيما بينه وبين زوجته: الموافقة ليجتلب بها موافقتها ومحبتها وهواها وحسن خلقه معها، واستعماله استماله قلبها بالهيئة الحسنة في عينها، وتوسعته عليها. ولا غنى للزوجة فيما بينها وبين زوجها عن ثلاث خصال وهن: صيانة نفسها من كل دنس حتى يطمئن قلبه إلى الثقة في حال المحبوب والمكروه. وحياطته ليكون ذلك عاطفا عليها عند زلة تكون منها. وإظهار العشق له بالخلافة والهيئة الحسنة لها في عينه» .

\* «لا- تتكلم فيما لا- يعينك، ودع كثيرا من الكلام فيما يعينك حتى تجد له موضعا، فربّ متكلّم تكلم بالحق بما يعنيه في غير موضعه فتعب، ولا تمارين سفيها ولا حليما فإن الحليم يغلبك و السفیه يرديك، و اذكر أخاك إذا تغيب بأحسن ما تحب أن يذكرك به إذا تغيبت عنه، و اعمل عمل من يعلم أنه مجزى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام». \* «ليس من أحد، و إن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروه، و من انتصر بمعالجة الفرصة مواجهة سلبته الأيام فرصته، لأن من شأن الأيام السلب، و سبيل الزمن الفوت، و لا تحدث من تخاف أن يكذبك، و لا تسأل من تخاف أن يمنعك، و لا تأمن من تخاف أن يغدر بك، و من لم يواخي من لا عيب فيه قل صديقه، و من لم يرض من صديقه إلا بإيثاره إياه على نفسه دام سخطه، و من عاتب على كل ذنب كثر تعبه». \* «لا تغرنك الناس من نفسك فإن الأمر يصل إليك دونهم، و لا تقطع النهار عنك بكذا و كذا، فإن معك من يحصى عليك، و لا تستصغرنّ حسنة تعملها فإنك تراها حيث تسرك، و لا تستصغرنّ سيئة تعملها فإنك تراها حيث تسوؤك، و أحسن فإني لم أر شيئا أشد طلبا و لا أسرع دركا من حسنة محدثة لذنب قديم». \* «لا تعدد بمودة أحد حتى تغضبه ثلاث مرات». \* «لا تثقن بأخيك كل الثقة، فإن سرعة الاسترسال لا تقال». \* «ليس لك أن تأمن الخائن و قد جربته، و ليس لك أن تتهم من ائتمنت». \* «ليس لملول صديق، و لا- لحسود غني، و كثرة النظر في الحكمة تلقح العقل». \* «ليس الإيمان بالتحلى و لا بالتمنى، و لكن الإيمان ما خلص في القلوب و صدقته الأعمال». \* «ليس فيما أصلح البدن إسراف». \* «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول فيه». \* «كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان». \* «كفى بالحلم ناصرا». \* «كسب الحرام يبين في الذرية»

\* «من سعادة الرجل أن يكون القيم على عياله». \* «من أمل أحدا هابه، و من قصر عن شيء عابه». \* «من صدق لسانه زكى عمله، و من حسنت نيته زيد في رزقه، و من حسن بره بأهل بيته مد في عمره». \* «من حق أخيك أن تحمل له الظلم في ثلاث مواقف: عند الغضب، و عند الذلة، و عند السهو». \* «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه خصال ثلاث: الفقه في الدين، و حسن التقدير في المعيشة، و الصبر على الرزايا». \* «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعد الخلق منه في الله، و يبغض أقرب الخلق منه في الله». \* «لا تكون مؤمنا حتى تكون خائفا راجيا، و لا تكون خائفا راجيا حتى تكون شاملا لما تخاف و ترجو». \* «لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه، و من أين ملبسه أمن حلال أم من حرام؟». \* «من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله و تبغض في الله، و تعطى في الله و تمنع في الله». \* «من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضى الناس بسخط الله، و لا يحسد هم على ما آتاهم الله، و لا يلومهم على ما لم يؤته الله، فإن رزقه لا يسوقه حرص حريص، و لا يرده كره كاره. و لو أن أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت». \* «من لم يحب على الدين و لا يبغض على الدين فلا دين له». \* «ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء و لا يتحمل الأصدقاء، بدنه منه في تعب، و الناس منه في راحة». \* «يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل، و التعاون، و التعاطف، و المواساة لأهل الحاجة، و تعاطف بعضهم على بعض» .

\* «يا شيعة آل محمد إنه ليس منّا من لم يملك نفسه عند الغضب، ولم يحسن صحبة من صحبه، و مرافقة من رافقه، و مصالحة من صالحه، و مخالفة من خالفه. يا شيعة آل محمد اتقوا الله ما استطعتم، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم». \* «المغرور في الدنيا مسكين و في الآخرة مغبون، لأنه باع الأفضل بالأدنى، و لا تعجب من نفسك فر بما اغتررت بمالك و صحة جسدك لعلك تبقى، و ربما اغتررت بطول عمرك و أولادك و أصحابك لعلك تنجو بهم، و ربما اغتررت بجمالك و إصابتك مأمولك و هواك فظننت أنك صادق و مصيب، و ربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة و لعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك، و ربما أقمت نفسك على العبادة متكلفا و الله يريد الإخلاص، و ربما توهمت أنك تدعو الله و أنت تدعو سواه، و ربما حسبت أنك ناصح للخلق و أنت تريد لهم لنفسك، و ربما ذممت نفسك و أنت تمدحها على الحقيقة». \* «إن الله خبأ ثلاثا في ثلاث: رضاه في طاعته فلا تحتقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه، و غضبه في معاصيه فلا- تحتقروا شيئا فلعل غضبه فيه، و خبا ولايته في عباده فلا تحتقروا منهم أحدا فلعله ولي الله». \* «إذا استقبلت القبلة فأيس من الدنيا و ما فيها، و الخلق و ما هم فيه، و استفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن ذكر الله، و عاين بسرک عظمة الله عزّ و جل، و اذكر و قوفك بين يديه قال تعالى: هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسَّ لَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَ قَفَّ عَلَى قَدَمِ الْخَوْفِ وَ الرَّجَاءِ». \* «لا ينبغي للمؤمن أن يجالس مجلسا يعصى الله فيه و لا يقدر على تغييره، و من ابتلى بحضور طعام ظالم إكراها و تقية، فليقلل الأكل و لا يأكل أطايب الأطعمة». \* «المؤمن هو الذي إذا غضب لم يخرج غضبه من حق، و إذا رضى لم يدخله رضاه في باطل، و الذي لم يأخذ أكثر مما له». \* «الصمت كنز وافر و زين الحليم و ستر الجاهل». \* «قلة الصبر فضيحة». \* «كل ذى صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يجتلب بها المكسب: أن يكون

حاذقاً بعمله، مؤدياً للأمانة فيه، مستميلاً لمن استعمله». \* «كم من مغرور بما أنعم الله عليه، وكم من مستدرج يستر الله عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه». \* «من اتّمن خائناً على أمانة لم يكن له على الله ضمان». \* «من دعا الناس إلى نفسه وفيهم من هو أعلم منه فهو مبتدع ضال». \* «من زرع العداوة حصد ما بذر». \* «من أخلاق الجاهل: الإجابة قبل أن يسمع، و المعارضة قبل أن يفهم، والحكم بما لم يعلم». \* «من سأل من غير حاجة فكأنما يأكل الجمر». \* «إياك و ملاحات الشعراء، فإنهم يضنون بالمدح و يحدون بالهجاء». \* «الأدب عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل، كلما ازداد رياء ازداد مرارة». \* «من عظمت نعمة الله عليه اشتدت مؤونة الناس إليه». \* «إن الله يحب معالي الأمور، و يكره سفاسفها». \* «دعامة الإنسان العقل، و بالعقل يكمل، و هو دليله و مبصره و مفتاح أمره». \* «ثلاثة يجب على كل إنسان تجنبها: مقارنة الأشرار، و محادثة النساء، و مجالسة أهل البدع». \* «القضاة أربعة: قاض قضي بالحق و هو لا يعلم أنه الحق فهو في النار، و قاض قضي بالباطل و هو لا يعلم أنه باطل فهو في النار، و قاض قضي بالباطل و هو يعلم أنه باطل فهو في النار، و قاض قضي بالحق و هو يعلم أنه الحق فهو في الجنة». \* «ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلا الله». \* «من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه، و إن دعا لم يستجب له، و لم يؤجره الله على ظلامته». \* «من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به». \* «من أعان على قتل مؤمن و لو بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله» .



\* «من ولى شيئا من أمور المسلمين وضيعه ضيعه الله». \* «من ظلم مظلما أخذ بها فى نفسه أو فى ماله أو فى ولده». \* «من كان الحزم حارسه و الصدق جليسه عظمت بهجته و تمت مروته. و من كان الهوى مالكة و العجز راحلته عاقاه عن السلامة و أسلماه إلى الهلكة». \* «ثلاثة يحتاج إليها الناس طرا: الأمن، و العدل، و الخصب». \* «ثلاثة تكدر العيش: السلطان الجائر، و جار السوء، و المرأة البذية». \* «إذا أراد الله برعية خيرا، جعل لهم سلطانا رحيفا و وزيرا عادلا». \* «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم. إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، و من سمع رجلا ينادى يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم». \* «إياكم و ظلم من لا يجد عليكم ناصرا إلا الله». \* «العامل بالظلم و المعين له و الراضى به كلهم شركاء». \* «اتقوا الظلم فإن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء». \* «إن الإمامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، و حلم يملك به غضبه، و حسن الخلافة على من ولى حتى يكون له كالوالد الرحيم». \* «وجدنا بطانة السلطان ثلاث طبقات: طبقة موافقة للخير و هى بركة عليها و على الرعية. و طبقة غايتها المحاماة على ما فى أيديها فتلك لا محمودة و لا مذمومة، بل هى إلى الذم أقرب. و طبقة موافقة للشر و هى مشئومة مذمومة عليها و على السلطان». \* «نجوى العارفين تدور على ثلاثة: الخوف، و الرجاء، و الحب. فالخوف فرع العلم، و الرجاء فرع اليقين، و الحب فرع المعرفة، فدليل الخوف الهرب، و دليل الرجاء الطلب، و دليل الحب إثارة المحبوب على ما سواه، فإذا تحقق العلم بالصدر خاف، و إذا صح الخوف هرب، و إذا هرب نجا». \* «المعروف زكاة النعم، و الشفاعة زكاة الجاه، و العلل زكاة الأبدان، و العفو زكاة الظفر، و ما أدبت زكاته فهو مأمون السلب» .

\* «لو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا». \* «إن من بقاء المسلمين والإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف حقها، و يصنع فيها المعروف. وإن من فناء الإسلام و المسلمين أن تصير الأموال فى أيدى من لا يعرف فيها الحق، و لا يصنع فيها المعروف». \* «إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله، و لم يعطكموها لتكنزوها». \* «إنما وضعت الزكاة اختبارا للأغنياء، و معونة للفقراء، و لو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا، و لا مستغن بما فرض الله عزّ و جل عليه. و إن الناس ما افتقروا و لا احتاجوا و لا جاعوا إلاّ بذنوب الأغنياء، و تحقيق على الله عزّ و جل أن يمنع رحمته ممن منع حق الله فى ماله، و أقسم بالله الذى خلق الخلق و بسط الرزق، أنه ما ضاع مال فى بر و لا فى بحر إلاّ بترك الزكاة، و إن أحب الناس إلى الله عزّ و جل أسخاهم كفاً، و أسخى الناس من أدّى زكاة ماله، و لم يبخل على المؤمن بما افترض الله عزّ و جل لهم فى ماله». \* «من وقف نفسه موقف التهمة فلا يلومن من أساء الظن به، و من كتم سره كانت الخيرة بيده، و كل حديث جاوز اثنين فاش، وضع أمر أخيك على أحسنه، و لا تطلبن بكلمة خرجت من أخيك سوءا و أنت تجد فى الخير لها محملا، و عليك ياخوان الصديق فإنهم عدة عند الرخاء، و جنة عند البلاء، و شاور فى حديثك الذين يخافون الله و أحب الإخوان على قدر التقوى، و اتق خيار النساء و كن من شرارهنّ على حذر، و إن أمرن بكم فى المعروف فخالفوهنّ حتى لا- يطمعن منكم فى المنكر». هذا عرض موجز لحكميات الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام انتزعتها من الكتاب الذى أعدناه لجمع تراثه الفكرى، و أسميناه (بالأسس التربوية).

### حكمه تعاليم إسلامية:

و من المؤسف أن هذه الحكم لا تزال مبعثرة فى بطون الكتب، هنا و هناك، و لم نجد من تصدّى لجمعها و شرح غوامضها، فهى غذاء روحى، و رصيد ضخم من

الأخلاق، و الثقافة، و الآداب، و لا بد لكل منصف أن يعترف بأهمية ذلك، و عسى أن يأتي اليوم الذي تبرز فيه هذه الآثار، بالصورة المطلوبة لتكون منهجا أخلاقيا، يعتز المسلمون به، و تكون موضع اهتمام و تقدير. و هذه الفصول التي أوردناها هي بعض من ذلك الرصيد الضخم، و جزء من ذلك التراث القيم، فإننا ذكرناها لا على سبيل الحصر بل في معرض التمثيل عما يكشف لنا وجهة نظره في كثير من قضايا الإنسان و المجتمع. و قد رأينا كيف كان حرصه على معالجة المشاكل الاجتماعية، و بأى طريقة يحاول أن يصلح النفوس، و يحارب العادات المضرة و يدعو إلى اعتناق الفضائل. إنه عليه السلام يصور لنا أحوال النفس الإنسانية في جميع حالاتها و يكشف، ف لنا ما يكمن فيها من عقد و انفعالات، و يجعل لها حدودا و مقاييس، في حالة اطمئنانها و قلقها، و رضاها، و غضبها، و خوفها، و أمنها. فإصلاحها صعب إذا لم تتخذ الطرق الناجحة لذلك، و قد بينها في كثير من تعاليمه. و على كل حال فإن هذه الحكم التي يقرها العقل، و يرتاح لها الضمير الحر، و يعترف بها الوجدان، و يشهد لها الواقع. هي خلاصة تعاليم إسلامية تهدف إلى سعادة الإنسان في حياته، و بعد مماته. و الإمام الصادق يرسل هذه النصائح لجميع المسلمين، و يضعها بين يدي الأحفاد، كما وضعها بين يدي الآباء و الأجداد، فهو ناصح يرسل عظاته عبر الدهور معلما و فيصلا بين الحق و الباطل. إنه عليه السلام من أعظم الشخصيات التي أدت واجبها و مثّلت دورها في الدعوة إلى الله، فبرزت في معترك الحياة ببطولة تبعث في نفوس الأمة قوة الإيمان، و صحة العقيدة، و الإقدام على التضحية. إنه عليه السلام يريد أن يعالج تلك المشاكل التي كان يموج بها العالم الإسلامي في عصره على ضوء ما جاء في الإسلام من مبادئه القويمة، و تعاليمه السمحة. فكان يدعو الناس إلى التسليح بالقوى المعنوية، التي لا تقف أمامها أى قوة، إن الإيمان بالله و رسوله و اليوم الآخر، أعظم قوة تضمن للأمة النصر و النجاح، فإن المؤمن قوى القلب قوى الإرادة، واثق بنصر الله و تأييده، فهو الذي يذلل له كل صعب، و يهون عليه كل خطب، و به يستطيع الإنسان أن يتغلب على شهواته و ميوله

ونزعاته، وينشأ عن ذلك: الإيثار والمحبة، والتضحية، ونكران الذات، والتفانى فى صالح المجتمع و كل فضيلة يتحلى بها الفرد المسلم. والإيمان بالله يجعل فى نفوس المؤمنين وعيا، يعثهم على محاولة الرذيلة بشتى أنواعها، وبالوعى الإسلامى يزول خطر العابثين بمقدرات الأمة، كما أن فقدانه يعرضها لكل خطر، ويجعلها فريسة لكل طامع و خاضعة لكل متسلط، و مدفوعة فى أمواج الفتن و تيارات الآراء، فلا تمييز بين الحق و الباطل و الضار و النافع.

### جهاده و دفاعه عن الإسلام:

و على أى حال: فإن الإمام الصادق عليه السلام كان من أعظم الشخصيات الإسلامية التى خدمت الأمة بنشر العلم، و بثّ روح الفضيلة، و حثّ الناس على التمسك بمبادئ الإسلام التى تكفل للإنسانية سعادتها، و تحريرها من قيود الاستغلال و العبودية. و إن الظروف التى تحيط بالشخصيات التاريخية هى الشاهد على ما تتمتع به و ما تمتاز، و لقد كانت الأحداث التى واجهها الإمام الصادق، و الظروف التى مرّ بها صعبة و مرّة تمكن عليه السلام من اجتيازها بمنهج ثابت و خطة قوية حفظت للأمة جوهر مبادئها و لباب عقائدها. و قد حارب الخرافات و الأوهام، و المعتقدات الخبيثة، و حفر لها قبورا بمعاول الحق. كان الناس ينظرون إليه نظرة إجلال و إكبار، لما منحه الله من فضل القربى، و شرف المحتد، و طهارة النفس، و قوة الإدراك، و صدق الحديث، و الفقه فى الدين، و العمل بطاعة الله، و الدعوة إلى الحق، و مجانبة الباطل، و محاربة الظالمين. و كانت مدرسته أعظم جامعة إسلامية، يقصدها طلاب العلم من مختلف الجهات، و قد أخذ على عاتقه أداء الرسالة الملقاة على كاهله، فى توجيه الناس توجيها صحيحا، و سلك بهم طريق الاستقامة و التماسك، و نحى ناحية الأخلاق و التهذيب، على ضوء تعاليم الإسلام، فكانت له شهرة علمية تتحدث بها الركبان، و نفوذ روحى يخضع له العدو و الصديق. و لقد عظم ذلك على الحكام الذين أرادوا إخماد الشعور بجرائمهم، و السكوت عن معارضتهم، بما ارتكبه من العبث بكرامة الإنسانية، و إهدار القيم الرفيعة، و لا

يريدون أن يرتفع صوت الاستنكار على أعمالهم، لأنهم يدعون أنهم أئمة عدل، وأنصار حق، ولهم أهلية وراثية النبي، والاختصاص بسلطانه. والواقع أنهم على خلاف ما يدعون، ولكنهم يريدون إغراء البسطاء من الناس. لقد عظم عليهم مركز الإمام الصادق، وكانت شخصيته تثير مخاوفهم، ولم يستطيعوا أن يؤاخذوه بما يبرر لهم الانتقام منه، والانتفاضة عليه، وقد التجأ المنصور إلى خلق اتهامات و تزوير كتب، يحاول من ورائها أن يفسح له المجال في الوقيعة فيه، ولكن محاولته باءت بالفشل وسعيه بالخسران. وهكذا بقي عليه السلام عرضة للخطر، ولكنه مؤمن بالله فلا يخشى من دونه أحدا. وفي ذلك العصر المضطرب بدأ التنازع بين الدين والفلسفة، وبين الإسلام والعقائد التي جاء الإسلام لمحاربتها، وظهرت بوادر الجدل العقلي وعلم الكلام، فكان موقفه من تلك التيارات وسط ذلك النزاع والجدل موقف العالم المناضل عن الدين، والمدافع القوي بحجته ووضوح برهانه، الراجح في عقله واستدلاله يدافع عن الإسلام بما يقره العلم الصحيح، ويخضع له العقل السليم، ويرتاح له الضمير، ويدلى بآرائه على خصومه، بمنطق يدخل إلى آذان سامعيه، فينفذ إلى قلوبهم فلا يجدون بدا من التسليم لقوله الحق ومنطقه الصائب. فكان عليه السلام لا يجارى في استدلال، ولا يغلب في برهان، بل كان هو المتفوق والسابق في كل مضمار. وقد شعر دعاة الإلحاد بخطر موقفه لرد كل شبهة، ومحاربة كل فكرة من طريق العلم والمنطق فعظم عليهم ذلك، ونظروا إليه نظرة ملؤها غضب وحقد، وحاولوا أن يقفوا في طريق دعوته الإصلاحية كما وقف هو عليه السلام في طريق نشر مبادئهم الإلحادية، وتوصلوا إلى حل ناجح وهو انضمام بعض دعاة الإلحاد إلى مدرسته، وادعاء حب أهل البيت لكي يفسدوا بذلك بعض الأمور بروايتهم عنه وكذبهم عليه، وارتكابهم أمورا لا تتفق مع مبادئ الإسلام. وبهذا يلزمنا أن نشير إلى مشكلة الغلاة في عصره. ونود هنا أن نستعرض حركة الغلاة ونشأتها، وتطورها، لنقف على العوامل التي جعلت الكثير من المؤرخين والكتّاب، يذهبون إلى وجود العلاقة بينهم وبين شيعة أهل البيت، بل ذهب البعض إلى وصف الشيعة بالغلو، وكل ذلك ناشئ عن التجنى

على الحقائق، و البعد عن الواقع. فليس بين الشيعة وبين الغلاة رابطة تجمعهم، و ما تلك التهم إلا من أغراض السياسة العمياء، التي تريد تشويه الحقائق، و قلب الأوضاع، و اتهام الأبرياء. و قد التجأت هنا إلى ذكر مشكلة الغلاة و دوافع حملها على المذهب الشيعي بعد أن أشرت لها في الجزء الأول، لأنني و قفت على عبارات لبعض المؤلفين و قد وصفوا الشيعة بأوصاف يندى لها الجبين، و يحترق لها قلب المسلم الحريص على جمع كلمة الإسلام، في عصر يجب أن تتوحد الكلمة فيه و تزول الضغائن و الأحقاد التي خلقتها النعرات الطائفية الأولى، و التي يقدها زنادها أعداء الإسلام، الذين يريدون أن يفرّقوا الصفوف، لتحقيق آمالهم عند ما اندسوا في صفوف المسلمين. و من العجب أن يبدو هذا التهجم الشائن ممن يدعى المعرفة، و يتزّى بزى العلم، و قد دلت أقواله على ما تنطوى عليه نفسه من الخبث و الجشع، و قلة المعرفة بالأمر، إنه العار و إنه الدمار. أن تبلى الأمة الإسلامية بأمثال هؤلاء الذين قدموا أنفسهم لخدمة أعداء الدين. و على كل حال فإننا نحاول بهذه الدراسة السريعة عن حركة الغلاة في عصر الإمام الصادق، أن نوفق لإقناع من استساغ الطعن على الشيعة، بوصفهم في الغلو و دعوى التأليه لأهل البيت، و ما ذلك إلا تخرّصا و تقوّلًا و افتراء و تزويرًا، و سيقف القارئ الكريم على موقف أهل البيت و شيعتهم من الغلاة و براءتهم منهم مما لا يدع مجالًا لمتقول، و لا طريقًا لمتفرق. و الله نسأل أن يمدّنا بالتوفيق و عليه الاتكال.



## المؤرخون و مشكلة الغلاة:

يأبى كثير من المؤرخين إلا أن يتأثروا بالدعايات الكاذبة، ويأخذوا بأقوال المنحرفين عن الحق، الذين أصبحوا آلة طيعة بيد حكام دفعتهم شهواتهم و حرصهم على سلطان الاستبداد بأمر الأمة، ألا يروا فضيلة لأهل البيت إلا ضيَعوها، و لا مكرمة إلا أخفوها، حسدا منهم، و خوفا على سلطانهم. نعم يأبى كثير من المؤرخين إلا أن يسيروا مع التيار الجارف من آراء قوم يصعب عليهم وحدة الصف، و يثقل على أنفسهم جمع الكلمة، فتعمدوا إثارة الفتن، و تشويه الحقائق بالدس و الافتراء و القول بالباطل، و هدفهم فى ذلك أنهم لا يريدون أن يحصل صفاء بين المسلمين، فربطوا تاريخ الغلاة بتاريخ الشيعة، و عقائدهم بعقائد الشيعة. رغم الحقائق الدالة على خلاف ما يذهبون إليه من التجنى على الشيعة. إن من الواجب على المؤرخ أن يتصدى للتمييز بين الأشياء التى يدونها، و أن يضع كل شىء فى مكانه، لئلا يحصل الخلط الشنيع بين الأمور المتناقضة. و إنى لا أستطيع أن أتصور بعدا عن الحق، و مكابرة للواقع، مثل مكابرة من يصف الشيعة بالغلو، لأن البعض منهم نسبوه إليهم، و ما ذلك إلا خطأ فى الرأى و ابتعادا عن الحق. إن مشكلة الغلاة هى أعظم مشكلة أوقعها خصوم الإسلام بين أهله، و لم تعالج هذه المشكلة بحل صحيح، على ضوء الواقع من حيث هو، بل استمرت تعمل عملها، و تؤثر أثرها فى شق وحدة الصف، و بث روح العداء بين المسلمين. و إن مشكلة الغلاة توقع الباحث فى صعوبة لا يذللها إلا حرية رأيه و إنصافه.



و ابتعاده فى البحث عن التقليد الأعمى، و التعصّب الطائفى الذى جرّ على هذه الأمة، بلاء الفرقة و محن البغضاء و التطاحن. إن أكثر المؤرخين لم يدرسوا الظروف التى نشأت فيها طوائف الغلاة، و لم يعرفوا أسباب ذلك، كما أنّهم لم يقفوا على العوامل التى بعثت النشاط فى دعوتهم فأثرت أثرها فى تفريق الصفوف، و إيقاد نار البغضاء فى القلوب، و إثارة الفتن فى المجتمع، و لو أن أولئك المؤرخين الذين ربطوا تاريخ الغلاة بتاريخ الشيعة و استعملوا الأقيسة المعكوسة، و درسوا ظروف نشأة تلك الأفكار، و أسباب ذلك الاعتقاد، و بواعت ذلك النشاط، لوجدوا أنفسهم خاطئين فى سلوكهم، بعيدين عن الواقع، و لا تصح لهم البون الشاسع، بين الغلاة و بين الشيعة، و بذلك تظهر الحقيقة فى البحث -إن كانوا يطلبونها- و إذا ظهرت الحقيقة بطلت الأوهام. و قد قلت سابقا إن خصوم الإسلام فى عصر الإمام الصادق عليه السلام قد عظم عليهم موقفه فى نشر الدعوة الإسلامية، عند ما نشطت الحركة العلمية، حيث اتجه الناس إلى التدوين و البحث، و ظهر علم الكلام و الفلسفة، و برزت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام فى نشر العلم و بث تعاليم الإسلام، و كثر المنتمون إليها، و انتشر ذكرها فى جميع الأقطار الإسلامية، و قام أصحابه بأداء الرسالة، و كان للكوفة النصيب الأوفى من حملة العلم، و رجال الإصلاح، المنتسبين لتلك المدرسة، فكان عددهم يربو على الألف، منهم تسعمائة محدّث فى مسجد الكوفة، كل يقول: حدّثنى جعفر بن محمّد. و حيث كانت الكوفة مركزا هامّا للتجارة و الصناعة ملحوظا فى حياة المجتمع الإسلامى فى القرن الأول الهجرى، و ازدهرت فيها المنسوجات الحريرية و هى ما سموها عمل الوشى و الخز، و كانت هذه المصنوعات تلقى رواجاً فى الأقطار الإسلامية (1) و كانت محاطة بقرى كثيرة، و فيها من غير المسلمين عدد كبير كالنصرانية فى الحيرة و غيرها، و وفد عليها أربعة آلاف من رعايا الفرس عرفوا بحمراء الديلم (2) كما كثرت الهجرة إليها من الأقطار النائية من ذوى العقائد الفاسدة و الآراء الشاذة،

ص: 352

1-1) الأغاني ج 2 ص 172.

2-2) فتوح البلدان للبلاذرى ص 289.

و اختلطوا بمجتمع الكوفة، فكان نشاطهم محسوسا فى استغلال الفرصة لبتّ آرائهم ونشر عقائدهم، وربطها بالعقائد الإسلامية عن طريق الخداع والتضليل حقدًا على الإسلام وأهله، و اندس البعض منهم فى حلقات العلم مدّعيًا انتماءه لمدرسة الإمام الصادق، و هم يكذبون عليه فيما ينسبونه إليه، و غرضهم فى ذلك هو الطعن على أهل البيت، و تشويه سمعة أوليائهم، لكى ينفروا القلوب، و يثيروا البغضاء، لتقع الفرقة بين صفوف المسلمين. فكان الأجدر بالمؤرخين و الكتّاب أن يتحرّوا حقيقة الأشخاص الذين بثوا تلك الأفكار و دعوا إلى تلك العقائد، و يخضعوا أقوالهم و أفعالهم للنقد و التمحيص حتى يتبينوا الدوافع و الأغراض التى تكمن وراء نشاطهم. و إن استعصى عليهم ذلك فما أسهل الإصغاء إلى مواقف أئمة الشيعة و آراء رجالهم فى دحض تلك الآراء و فضح تلك العقائد.

### أسباب نشأة الفلاة:

و يجب أن لا يغيب عن بالنا سبق هذا العداء للإسلام و قدمه قبل عصر الإمام الصادق عليه السّلام فهو متأصل منذ فجر الدعوة الإسلامية يتوارثه الأبناء و الأحفاد، و ذلك لأن دعوة النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم منذ البداية موجهة إلى الناس كافة، سواء منهم العرب و غير العرب، و ثيون أو يهود، نصارى أو مجوس، فهى لم تختص بطائفة دون أخرى، و لا يقوم دون قوم، و لا يقطر دون آخر، بل هى رسالة عامة، و لا بد أن تجابه دعوته صلّى الله عليه و آله و سلّم بأقوى عدة و بأكثر عدد من المعارضين الذين قضى الإسلام على عقائدهم الفاسدة، و هدم هياكل عبادتهم التى يعبدونها من دون الله، كما هدم صروح الكبرياء و الأنانية و أزال عروش الظلم و الاستبداد، و أذلّ قوما اعتزوا بسلطانهم فاستدلّوا الآخرين. إلى آخر ما جاء به الإسلام من الإصلاح للعالم، الذى كان يموج بالفتن و تسوده نزعات مختلفة و نحل متنوعة، و كان الناس يتخبّطون فى ظلام حالك كله شر و مخاوف، إذ يتغلب القوى على الضعيف، فتشن الغارات لنهب الأموال و انتهاك الحرمات فى التكالب على السيادة، و الاثرة و الاستغلال. فلم يخضع لهذه الدعوة جابرة قريش الذين ملكت الأنانية قلوبهم، و استولى حب الذات و الاثرة على مشاعرهم، و جعلوا من عبادة الأصنام قواما لحياتهم. و لأن محمّدا صلّى الله عليه و آله و سلّم يدعو إلى عبادة رب واحد لا شريك له، كما جاء بنظام العدل

والمساواة الشاملة، وهدم الفروق الظالمة بين الناس، وسوى بينهم فى الحقوق والواجبات، وقرّر أن أصل الإنسان واحد والجميع أخوة فى الإنسانية، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وجاء بأحكام شاملة لم يستثن منها إنسانا ولا طائفة، بل الكل سواء فى تطبيقها، وكان طبيعيا أن تصطدم تلك المبادئ بعادات العرب القديمة التى ورثوها عن الآباء والأجداد شأن كل دعوة ناشئة، كما أزعجتهم سرعة انتشار الدعوة فى قلوب الناس. وقد أحست العناصر الأخرى بخطر دعوة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فرمقت ما كسبه الإسلام من تقدم وانتشار بعين الحقد والحسد، وكانت للنصرانية قوة فى الشمال ولها أتباع منبثون فى مهد الدعوة، وللإهود عدة قوية فى بلد الهجرة، وللمجوس دولة ومعابد، وكل هذه العناصر لا يروق لها انتشار هذا الدين وظهوره، فتظاهر الكل بالعداء للإسلام، وانتظم عقدهم وتكتلوا لحرب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعارضة دعوته، وبذلوا جهودهم، وعملوا أقصى ما يمكن أن يعملوه، فكانت هناك حروب دامية وغزوات متوالية بينه صلى الله عليه وآله وسلم وآله وسلم ومعارضة دعوته، وبذلوا جهودهم، وعملوا أقصى ما يمكن أن يعملوه، فكانت هناك حروب دامية وغزوات متوالية بينه صلى الله عليه وآله وسلم وآله وسلم ومعارضة دعوته، وهو يزداد قوة وثباتا رغم المعارضة فى الحروب الدامية. ودخل البعض منهم فى الإسلام اعترافا بعجزهم عن مقاومته، وآخرون اعتقدوا صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاستجابوا له، وفئة ثالثة دخلوا نفاقا وخداعا فأظهروا الإسلام وأضمروا الكفر، وبقي الحقد يأكل قلوبهم والغيب يحز فى نفوسهم، فهم يتحيتون الفرص ويتأهبون للوثبة، ويعملون من وراء الستار، وينتظرون اليوم الذى ينتقمون فيه من الإسلام وأهله. وبعد أن عجزوا عن مقابلة الإسلام وجها لوجه راحوا يعملون من وراء الستار بأيد عابثة، ولعل أول عهد حقق آمالهم هو العهد الأموى، لأن ملوكهم قد رفضوا الخضوع لقوانين الإسلام، ولم يلتزموا بتعاليمه، كما أنّهم من المغلوبين على أمرهم يوم أعلنوا الحرب على النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وكانت قيادة تلك العناصر المختلفة بيد زعيمهم أبى سفيان (1) وبهذا لا يمكننا أن نجزم بزوال تلك الأحقاد عن قلوبهم، وإن أعمالهم

ص: 354

---

1- 1) يقول الدكتور على سامى النشار: (ولا شك أن الأمويين كانوا فى أعماقهم جزءا من مؤامرة كبرى على الإسلام، ولم يذهب على الإطلاق حقد جدهم الغنوصى القائم، ولم يكن أبو سفيان وثيا بل كان مانويا وزرع الحقد الدفين فى عقولهم وقلوبهم).

شاهدة على وجودها و ما كانت مجزرة الحرّة إلا جولة من جولات المواجهة بين الإسلام و بقايا الشرك. و ما مأساة كربلاء إلا صفحة أخرى من صفحات الحرب بين أئمة الإسلام و بين المتلبسين بلبوس الدين لإخفاء وثنيتهم و شركهم، فكان دورهم فتحا لتلك العناصر المعادية للإسلام، فقد سنحت الفرصة و كان لهم فى الأمر متسعاً، و قد قرّب الأميون إليهم بعض المتدخلين فى صفوف المسلمين، و جعلوا منهم أداة سياسية يستعينون بها على ترويح دعاياتهم، و إظهار مقاصدهم، كما أقام معاوية بن أبى سفيان كعب الأخبار- و هو يهودى أسلم فى عهد عمر- قصاصاً. فغيّر مجرى الحوادث و التاريخ و أدخل الإسرائيليات فى تاريخ الإسلام. و على كل حال فلا تعنينا حركة خصوم الإسلام فى العهد الأموى، الذى كان مسرحاً تظهر على لوحته الأمور المتناقضة للإسلام، و المخالفة لمبادئه، و إنما الأمر الذى يهّمنا هو التعرّض لحركتهم فى عصر الإمام الصّادق عليه السّلام و أثر براءته منهم، و إعلان ذلك للملأ، و كيف أثر ذلك فى إبادتهم و محوهم من صفحة الوجود، و لم يبق منهم إلا صوراً خيالية ينظر إليها من أكل الغيظ قلبه.

### الدعوة الإسلامية و خصومها:

تبين مما قدّمناه فى هذه الأبحاث أن الدعوة الإسلامية قد ثقلت على كثير من ذوى النفوس المريضة من مختلف العناصر و شتى الطوائف، و قد قابلوا ذلك بالعداء السافر و الحرب الدموية، و لما عجزوا عن المقابلة للإسلام و جها لوجه، التجئوا إلى الحرب السرية، و حمل معاول الهدم و التخريب، و استعمال الوسائل التى تدعو إلى إثارة الفتنة بين المسلمين، و قد وجدوا أن أقرب طريق يوصلهم إلى غاياتهم و تحصيل أمنيتهم هو التدخّل فى صفوف المسلمين، و العمل على تفريق الكلمة و بث روح العداء، و تفرّقوا لهذا الغرض فرقا و أحزاباً، فمن مستجلب و د السلطة لينال مركزاً هاماً فى الدولة يستطيع بواسطته أن يفسد بعض الأمور و يغيّر بعض الحقائق. و منهم من سلك طريق إظهار المحافظة على الإسلام، و الانتصار له، و الرد على ما يلصقه به إخوانه، الذين سلكوا سبيله فى تشويه سمعة الإسلام. و منهم من ضرب على وتر حسّاس يستطيع به أن يستميل القلوب، و يحرك الشعور، و هو إظهار حب أهل البيت عليهم السّلام الذين تألّبت جميع الفئات الحاكمة على ظلمهم من دون مراقبة لله و لا مراعاة لحرمة رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم.

وصفوة القول إنهم توزعوا على جميع الطوائف الإسلامية، فاندسوا في صفوفهم وامتزجوا في مجتمعهم. هذا سوسن النصراني كان أول من نطق بالقدر وقد أظهر الإسلام، وعنه أخذ معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد (1) ثم عاد سوسن إلى نصرانيته بعد أن بث فكرته. وهذا ابن كلاب من بايئة الحشوية، وكان عباد بن سليمان يقول إنه نصراني. قال أبو عباس البغوي: دخلنا على فيثون النصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي، فجرى الحديث إلى أن سألته عن ابن كلاب فقال فيثون: رحم الله عبد الله (اسم ابن كلاب) كان يجيئني فيجلس إلى تلك الزاوية-وأشار إلى ناحية من البيعة- وعنى أخذ هذا القول، ولو عاش لنصرتنا المسلمين (2)-أى لجعلناهم نصارى-. ذكرنا هذا على سبيل المثال لما يفعله أصحاب الديانات الأخرى الذين كانوا يستغلون الفرص للتدخل في صفوف المسلمين، فلم يتحد غرضهم في الدخول بطائفة أو الانضمام إلى جماعة، بل كانوا متفرقين في أهل الحديث والفقهاء والمؤرخين، وأهل الكلام والفلسفة، وسائر العلوم، وما أكثر الوسائل التي يتبعونها والأثواب التي يتنكرون بها لحماية أنفسهم وتحقيق أهدافهم. فقد يتنكر اليهودى في ثوب الإسلام ويدعى لنفسه أهداف المسلمين وأساليبهم، فيندس وسط جماعات وهيئات وهو أبعد ما يكون أن يؤمن بمبادئها ومثلها، ويأخذ على عاتقه هدم هذه المبادئ والمثل والتشكيك في قيمها وجدواها، فهو إذ يتظاهر في الانضمام إلى طائفة معينة، ويكون حريصا على تحقيق مبادئها ونشر تعاليمها، إنما يفعل ذلك لينجح في مهمته، وهى تحقيق أهدافه الدينية عن طريق آخر، وكذلك غير اليهودى من نصراني ومجوسى وثنى ومشرى، وكل من فى قلوبهم حقد على الإسلام وأهله. فهم يدعون الإسلام من جهة، ويعملون على هدمه من جهة أخرى، ولهم أساليب كثيرة يتوسلون بها لتحقيق أهدافهم وتحصيل أمانهم. وقبل أن نأتى على استقصاء أساليبهم فى المكر والخداع والتضليل، نود أن نشير إلى إبطال حركة الغلاة

ص:356

1-1) انظر الفرق للبغدادى ص 70.

2-2) الفهرست لابن النديم 255-256. [1]

فى عصر الإمام الصادق عليه السلام و معارضة دعوته الإصلاحية، التى قام بها فى عصر ازدهار العلم و اتساع نطاق النهضة الفكرية.

## رؤساء الغلاة و مواقف الإمام ضدهم:

### أبو الخطاب الأسدى:

و هو محمد بن مقلص الأسدى الكوفى، كان رجلا من الموالى اشتهر بكنيته دون اسمه؛ فالشهرستانى يذكره على أنه محمد بن زينب الأسدى الأجدع. و المقرزى يثبته: محمد بن أبى ثور، و يذكر أنه قيل فى اسمه محمد بن يزيد الأجدع. و أبو جعفر بن بابويه يذكر أن اسم أبى الخطاب زيد، إلى آخر ما فيه من الاختلاف. ظهر هذا الرجل فى الكوفة، و كان المجتمع يموج بالتيارات السياسية، و الدعوة العباسية تشق طريقها إلى النجاح بسرعة، فاستغل ذلك الظرف الذى يأمل فيه نجاح مهمته فى نشر دعوته الإلحادية، فدعى إلى عقيدة عرف أتباعها بالخطابية، و ساعدته الظروف المواتية أن يجمع حوله تلاميذ يلقنهم تعاليمه، و يرسم لهم خطط الدعوة و التجمع و الظهور، و كانت حركتهم سرية محكمة و هى حركة سياسية من جهة و عقائدية من جهة أخرى، و تلتقيان فى نقطة العداء للإسلام. و لم تدون عقائد أبى الخطاب فى كتاب سطرتها أقلام أتباعه، و إنما أخذت من غيرهم، و هذا ما يجعلنا نتردد فى بعض ما نسب إليه. و قد أجمعت الشيعة على لعن أبى الخطاب و تكفيره و البراءة منه، و إنه غال ملعون كما هو مذكور فى كتب الرجال و الحديث و التاريخ. قد اتسعت حركة أبى الخطاب فى ذلك الجو المضطرب، و استغل فرصة الدعوة لأهل البيت، و الانتقام من أعدائهم، فأعلن مبدأه و أظهر عقيدته المخالفة لروح الإسلام، و التى لا تتصل بأهل البيت بأى صلة، و لما بلغ ذلك إلى الإمام الصادق عليه السلام اهتم غاية الاهتمام بفتنة أبى الخطاب، و خاف عاقبتها السيئة التى تعود على صفوف المسلمين بالفرقة و على جمعهم بالشتات، و هو عليه السلام فى ذلك العصر يبذل جهده فى التوجيه إلى الالتزام بتعاليم الدين لتجتمع كلمة المسلمين، فيكونوا صفا واحدا يردون كل خطر يهدد المجتمع الإسلامى.

ووقف الإمام الصادق تجاه هذه الدعوة الإلحادية موقفا مهتماً، وأعلن استنكاره على أبي الخطاب، فكان موقفه عليه السلام صدمة لموجة الغلو الجامحة، وقضاء مبرماً على مزاعم الملحدين، ويتجلى عظيم اهتمامه من أقواله، وأمره للناس بالابتعاد عنهم. قال عيسى بن أبي منصور: سمعت أبا عبد الله الصادق يقول -وذكر أبا الخطاب-: «اللهم العن أبا الخطاب، فإنه خوِّفني قائماً وقاعداً وعلى فراشي، اللهم أذقه حر الحديد». وعن عنبسة بن مصعب قال: قال لي أبو عبد الله: «أى شيء سمعت من أبي الخطاب؟» قلت: سمعته يقول: إنك وضعت يدك على صدره وقلت له: عه ولا تنس. وأنت تعلم الغيب، وأنك قلت: هو عيبة علمنا وموضع سرنا، أمين على أحيائنا وأمواتنا. فقال الإمام الصادق: «لا والله ما مسّ شيء من جسدي جسده، وأما قوله إنني قلت: إنني أعلم الغيب فوالله الذي لا إله إلا هو ما أعلم الغيب. ولا أجرني الله في أمواتي، ولا بارك لي في أحيائي إن كنت قلت له؛ وأما قوله إنني قلت: هو عيبة علمنا وموضع سرنا وأمين أحيائنا وأمواتنا، فلا- أجرني الله في أمواتي ولا بارك لي في أحيائي إن كنت قلت له من هذا شيئاً». وقال المفضل بن يزيد قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام وذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة: «يا مفضل لا تقاعدوهم ولا تاكلوهم ولا تشاوروهم، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم». وقال مرزوم: قال لي أبو عبد الله: «قل للغالية تولوا إلى الله، فإنكم فساق مشركون». وقال أبو بصير: قال لي أبو عبد الله: «يا أبا محمّد أبرأ ممن يزعم أنا أرباب»، قلت: برىء منه. قال عليه السلام: «أبرأ ممن يزعم أنا أنبياء». قلت: برىء منه. وعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله: إنهم (أى الخطابية) يقولون: إنك تعلم قطر المطر وعدد النجوم وورق الشجر ووزن ما في البحر، وعدد ما في التراب. فرفع الإمام الصادق يده وقال: «سبحان الله، سبحان الله، والله ما يعلم هذا إلا الله».

وعن سدير عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن قوما يزعمون أنكم آلهة يتلون علينا بذلك قرآنا يا أيها الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ  
اعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ قال عليه السلام: «يا سدير سمعي و بصري و شعري و بشرى و لحمى و دمي من هؤلاء براء، برأ الله  
منهم و رسوله، ما هؤلاء على دينى و دين آبائى، و الله لا يجمعنى و إياهم يوم إلا و هو عليهم ساخط». و قال ميسرة: ذكرت أبا الخطاب  
عند أبي عبد الله عليه السلام و كان متكئا فرفع إصبغه إلى السماء ثم قال: «على أبا الخطاب لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، فأشهد  
بالله أنه كافر فاسق مشرك، و أنه يحشر مع فرعون فى أشد العذاب غدوا و عشيا»، ثم قال: «و الله و الله إنى لأنفس على أجساد أصيبت معه  
النار». إننا نلاحظ فى الفقرة الأخيرة تأسفه على أولئك القوم الذين غرر بهم دعاة الإلحاد، فأوردوهم موارد الهلكة، عند ما انضموا تحت لواء  
تلك الدعوة الباطلة، و لذلك وقف عليه السلام فى أداء واجبه لشل ذلك النشاط المعادى للإسلام، فرفع صوته باستنكار مذهب الغلاة،  
فكان إعلان براءته صدمة للإلحاد، و قام رجال الشيعة فى شل تلك الحركة و معارضة ذلك التيار، و أبعدهم عن مجتمعهم، و كشفوا  
الستار الذى كانوا يعملون من ورائه، فأحدث ذلك صدعا فى صفوف الغلاة، أدى إلى فرقتهم و إبادتهم بسرعة. و قد وقف أبو الخطاب موقف  
المتصلب تجاه براءة الإمام الصادق منه، و تمكن من إغراء البسطاء من أصحابه بأن يعلن نفسه أنه نبي رسول، و أن كلمة الرسل واجب  
إطاعتها، و يذهب بعض نقلة العقائد أنه أعلن عن نفسه أنه إله (1)، و طفق أبو الخطاب يدعو لعقيدته، و قد أحاط به الفشل لأن موقف الإمام  
الصادق عليه السلام و تكذيبه لما يدعيه أبو الخطاب كان له الأثر العظيم فى شل تلك الحركات التى جاءت لإغواء المسلمين، و محاربة  
الدعوة الإسلامية و تشويه سمعة أتباع أهل البيت، فكانت معارضة الإمام الصادق ضربة قاضية، و خاب أمل أبا الخطاب و تفرق أصحابه،  
بعد براءة الإمام الصادق عليه السلام منه، و قد أسف أبو الخطاب أن يتفرق الآخرون عنه فتمحى دعوته، و أراد أن يخاطر بهم فى الكريهة، و  
أن يوردهم حياض المنية، و هم على غير

ص: 359



دين الإسلام، فحاول الخروج على الدولة بتلك القلة، وأغراهم بقوله: قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح، ورماحهم وسيوفهم و سلاحهم لا تضركم ولا تعمل فيكم، و خرج بهم إلى مسجد الكوفة ودعا الناس إلى نبوته. وفي المسجد لزموا الأساطين كأنهم يرون الناس أنهم قد لزموها للعبادة. وكان عيسى بن موسى قائد المنصور المشهور واليا، ولم يكذب يسمع حتى أرسل إليهم قوة من جيشه العباسي للقضاء عليهم، فحاربوا عيسى محاربة شديدة بالحجارة والسكاكين، وهم يعتقدون صدق أبي الخطاب بأن السلاح لا يضرهم، فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلا قالوا: ما ترى ما يحل بنا من القوم؟ فقال لعنه الله: إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبي؟ وأسر أبو الخطاب، فأتى به إلى عيسى بن موسى فقتله في دار الرزق، وصلبه مع جماعة من أصحابه، وذلك سنة 138 هـ. وبهذا انتهى دور أبي الخطاب وأصحابه، إذ لم يبق من جماعته سوى سالم بن مكرم الجمال الملقب بأبي خديجة الذي سقط بين القتلى، فلما جئ الليل خرج ثم تاب، و كناه الإمام الصادق بأبي سلمة، و صلح أمره.

### بزيع بن موسى:

وهو أحد أبطال الدعوة الإلحادية، وإليه تنسب الفرقة البزيعية، وقد أفروا بنبوته كما زعموا أنهم كلهم أنبياء، وأنهم لا يموتون، وأنهم يرفعون، وزعم بزيع أنه صعد إلى السماء، وأن الله مسح على رأسه، و مج في فيه، وأن الحكمة تثبت في صدره، إلى آخر خرافاته وأكاذيبه. وزعم جماعة من أصحابه أنه الإمام بعد أبي الخطاب، ولهذا عدت فرقة البزيعية من فرق الخطابية، مع أن لكل منهما بدعة مستقلة وآراء على حدة (1). ولما بلغت مقالته للإمام الصادق عليه السلام أعلن للملأ لعنه، والبراءة منه و من أضرا به وقال: «لعن الله بزيعا، والسرى، ومعمرا، وبشار الشعيري، و حمزة الزيدى، و صائد النهدي». وقال عليه السلام: «إن بنانا والسرى و بزيعا لعنهم الله قد تراءى لهم الشيطان».

ص:360

وقال عليه السلام عند ذكر هؤلاء: «لعنهم الله، فإننا لا نخلو من كذاب يكذب علينا، أو عاجز الرأي، كفانا الله منونة كل كذاب، وأذاقهم حر الحديد». ولا زال الإمام يرسل كتبه ويوجه رسله للأقطار، في التحذير من هؤلاء الذين أقصّوا مضجعه، في بث سمومهم في المجتمع الإسلامي.

### بشار الشعيري:

وكان بشار الشعيري من أهل الكوفة من دعاة الإلحاد، و ممن يقول بمقالة العليوية، وهم الذين قالوا إن عليا رب، و ظهر بالعلوية الهاشمية، وقالوا بالتناسخ و التعطيل، و كان لبشار جماعة يتبعوه على أضاليله و أباطيله. قال مرزم: قال أبو عبد الله: «يا مرزم من بشار؟» قلت: الشعيري. قال عليه السلام: «لعن الله بشارا. يا مرزم قل لهم: ويلكم توبوا إلى الله، فإنكم كافرون مشركون». و كان بشار جارا لمرزم، فقال له الصادق عليه السلام: «يا مرزم إن اليهود قالوا و حادوا الله، و إن النصارى قالوا و حادوا الله، و إن بشارا قال قولاً عظيماً، فإذا قدمت الكوفة فأتته و قل له يقول لك جعفر: يا فاسق، يا كافر، يا مشرك، أنا برىء منك». قال مرزم: فلما قدمت الكوفة، فوضعت متاعى و جئت إليه، و دعوت الجارية، و قلت قولى لأبى إسماعيل، هذا مرزم، فخرج إلى. فقلت له: يقول لك جعفر بن محمد: «يا كافر، يا فاسق، يا مشرك، أنا برىء منك». فقال بشار: و قد ذكرنى سيدى. قال: قلت نعم ذكرك بهذا الذى قلت لك. فقال: جزاك الله خيراً، و جعل يدعو لى. و من هذا يتجلى لنا أن هؤلاء الناس كانوا يخفون أغراضهم وراء حب آل البيت، فمن عدم اكتراث بشار ببراءة الإمام منه و لعنه له، ندرك أنهم يحملون عقائد غرضها الإساءة إلى الإسلام، و ليس الأمر حب أهل البيت. لأن الحب يؤدى إلى اتباع تقاليدهم و أوامرهم، و المودة تعنى عدم مخالفتهم، و إنما الأمر يتعلّق بجذور دفينة و بذور كامنة حالت دون إيمانهم الصحيح. و قال إسحاق بن عمار: قال أبو عبد الله لبشار الشعيري: «اخرج عنى لعنك الله. لا و الله لا يظلمنى و إياك سقّف أبدا»، فلما خرج قال أبو عبد الله: «ويله ألا قال بما قالت اليهود؟ ألا قال بما قالت النصارى؟ ألا قال بما قالت المجوس؟ أو بما قالت الصابئة؟ و الله ما صغّر الله تصغير هذا الفاجر أحد، إنه شيطان ابن شيطان، خرج من

البحر ليغوى أصحابي فاحذروه، و ليبلغ الشاهد الغائب، أنى عبد الله بن عبد الله، ضمتنى الأصلاب والأرحام، وإنى لميت ومبعوث، ثم مسئول، والله لأسألن عما قال فى هذا الكذاب و ادعاه، ما له غمه الله، فلقد أمن على فراشه، وأزعنى وأقلقنى عن رقادى». و خلاصة القول إن بشارا تزعم حركة إلحادية، وقد اهتم الإمام الصادق بهم أعظم اهتمام كما تدل عليه أقواله فى ذلك، لأن هؤلاء الملحدين أرادوا الوقعة فى أهل البيت، و معارضة الدعوة التى قام بها الإمام الصادق، فى إصلاح ما أفسدته الظروف القاسية، التى مرّت بالمسلمين. أما الذين ذكرهم عليه السلام مع بشار و لعنهم، و تبرأ منهم، وهم: بزيع و تقدمت الإشارة إليه، و معمر، و السرى، و حمزة الزيدى، و صائد النهدى و بيان، فكانوا من دعاة الإلحاد، و أبطال إثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، و الكذب على أهل البيت. و كان لكل واحد من هؤلاء دور هام فى إثارة الفتنة، و إشغال مجتمع الشيعة فى مقاومتهم، لأن أولئك نفر من الغلاة قد أجهدوا أنفسهم فى التلفيق و الكذب، و إيجاد سلسلة أفكار تنافى واقع الإسلام، فلم تنجح تلك الخطط، لأن أهل البيت أمروا أتباعهم بمقاومتهم.

### معمر النهدى:

فأما معمر فهو زعيم الفرقة المعمرية التى ألفت بعد قتل أبى الخطاب، و قد ألفوا لهم عقيدة مستقلة، على نحو ما فعل بزيع، و خرج ابن (اللبان) يدعو إلى معمر، و قال إنه الله، و صلّى له و صام، و أحل الشهوات كلها، ما حل منها و ما حرم، كشرب الخمر، و الزنا، و السرقة، و الميتة، و لحم الخنزير، و غيرها. و قالوا بالتناسخ، و إنهم لا يموتون، و لكن يرفعون بأبدانهم إلى الملكوت، و توضع للناس أجساد شبه أجسادهم (1). إلى آخر ما هنالك من أقوالهم الفاسدة و دعاوهم الإلحادية. و أما السرى: فهو الذى قال فيه أصحابه: إنه رسول مثل أبى الخطاب: و قالوا: إنه قوى أمين، و هو موسى القوى الأمين، و فيه تلك الروح إلخ.

ص: 362

## حمزة الزيدى:

وأما حمزة الزيدى فكان يكذب على أبى جعفر الباقر عليه السلام وقد أعلن عليه السلام للناس لعنه و كذبه. و كان حمزة يقول لأصحابه: إن أباً جعفر يأتينى فى كل ليلة، وقد وصفه الإمام الصادق بأنه شيطان و لعنه، و حذّر الناس من كذبه، و الذى يظهر أن الرجل استعمل سلاح الافتراء و الكذب على أهل البيت، و لا شك أن أثره عظيم فى الإغراء و التضليل، و لم توجد له آثار تدل على ادعائه بعقيدة خاصة، أو مبدأ مرسوم، أو تأليف جماعة معينة، وإنما كان داعية ضلال و عدواً لأهل البيت يذيع عنهم ما لا يقولونه.

## صائد النهدى:

و كذلك صائد النهدى، فالذى يظهر أنه كان من الكذابين، و لم نقف على ترجمة وافية له نستمد منها آراءه و نزعاته (1)، و كان من جملة من لعنهم الإمام الصادق و قال عليه السلام لأصحابه فى قوله تعالى: هَلْ أُنبئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ 221 تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ قال: «هم سبعة: المغيرة بن سعيد، و بيان، و صائد، و الحارث الشامى، و عبد الله بن الحارث، و حمزة بن عمارة الزيدى». و قد أظهر الإمام الصادق عليه السلام نوايا هؤلاء الذين اتخذوا الكذب على أهل البيت سلاحاً يفتكون به. قال عليه السلام: «إننا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذاب يكذب علينا ليسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس» .

## بيان التبان:

و أما بيان فالذى يظهر أنه كان من الكذابين أيضاً، لأن الإمام كان يقول: «لعن بيان التبان، و إن بيانا كان يكذب على أبى». و لا بد هنا من التنبيه إلى شىء، و هو: أن هذا الاسم يشتبه مع بيان بن سمعان التميمى أو النهدى الذى قام بحركة إلحادية فى عصر الإمام الباقر و الصادق، و إليه تنسب الفرقة البيانية، و قالوا بنبوّة بيان و قالوا فى ذلك قول الله عزّ و جل: هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى . و ادعى بيان النبوة بعد أبى هاشم بن محمّد بن الحنفية، و كتب إلى الإمام أبى

ص:363

جعفر الباقر عليه السلام يدعو إلى نفسه والإقرار له؛ ويقول في رسالته للإمام الباقر عليه السلام: أسلم تسلم وترتقى في سلم، وتنج وتغنم، فإنك لا تدري أين يجعل الله النبوة والرسالة وقد أعذر من أنذر. وحاول بيان أن تكون له شخصية لتركيز دعوته ونشر مبادئه، فكان يظهر قدرته على السحر، وأن عنده الاسم الأعظم، وبه يهزم العساكر، ويدعو به الزهرة فتجيبه، وادعى بنفسه الربوبية، وقال: أنا البيان، وأنا الهدى، وأنا الموعظة. واختلف أصحابه في عقيدتهم فيه: فمنهم من زعم أنه كان نبيا نسخ بعض شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنهم من زعم أنه كان إلها (1). ويقول النوبختي: إن بيانا كان تبارنا يتبن التبن بالكوفة، ثم ادعى أن محمد بن علي بن الحسين أوصى إليه، وأخذه خالد بن عبد الله القسري هو وخمسة عشر رجلا من أصحابه، فشدّهم في أطنان القصب، وصب عليهم النفط في مسجد الكوفة، وألهب فيهم النار، فأفلت منهم رجل فخرج بنفسه، ثم التفت فرأى أصحابه تأخذهم النار، فكر راجعا إلى أن ألقى نفسه في النار فاحترق معهم (2).

**المغيرة بن سعيد:**

**إشارة**

وهو مولى بجيلة، خرج في أيام أبي جعفر الباقر عليه السلام وقتل في أيام الإمام الصادق عليه السلام سنة 119 هـ. وقد استطاع أن يموه على كثير من المتطرفين، وأن يخدع جملة من الناس، وكان ماهرا في دس الأحاديث ووضعها على أهل البيت عليهم السلام. وقد نسبت إليه عقيدة تأليه على عليه السلام ولم يثبت ذلك لأن الثابت أنه قال: بأن عليا مخلوق (ويبدو أن المغيرة ألها عليا متأثرين بالخطابية) (3). وذكر عنه الرواة: أنه ذهب إلى أن ماء الفرات محرم، وأن كل نهر أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسة فهو أيضا محرم.

ص: 364

1-1) الفرق بين الفرق للبغدادى ص 145. [1]

2-2) الفرق للنوبختي ص 28. [2]

3-3) الملل والنحل ج 1 ص 294.

و يقول الشهرستاني: إن المغيرة ادعى لنفسه الإمامة بعد محمد المعروف بالباقر بن علي بن الحسين، وبعد ذلك ادعى النبوة لنفسه وغلا في حق علي (1). و يقول الطبري: كان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم، فيرى مثل الجراد على القبور. و يقول الأشعري: إنه زعم أنه يحيى الموتى بالاسم الأعظم، و أراهم أشياء من النيرنجات و المخاريق (2). و قال جرير بن عبد الحميد: كان المغيرة بن سعيد كذابا ساحرا. و قال الجوزجاني: قتل المغيرة على ادعاء النبوة، كان أسعر النيران بالكوفة على التمويه و الشعبة حتى أجابه خلق كثير. و قال معاوية: أول من سمعته يتنقص أبا بكر و عمر المغيرة المصلوب. و قد كانت حركة المغيرة حركة قوية، و كان لخروجه مناديا لعقيدته دوى أزعج خالد القسري و الى الكوفة و أذهله، و قد سمع به و هو على المنبر، فنادى أن أطعموني ماء، يريد أن يشرب، فهجاه يحيى بن نوفل بقوله: تقول من النواكه أطعموني شرابا ثم بلت على السرير

لأعلاج ثمانية و شيخ كليل الحد ذى بصر ضرير

(3) و كان المغيرة أعمى، و قول الشاعر: لأعلاج ثمانية: هو أن أصحاب المغيرة الذين خرج بهم و يدعون الوصفاء كانوا ثمانية، و قيل: سبعة.

### براءة الإمامين الباقر و الصادق من المغيرة:

و مهما يكن من حديث هذا الرجل، فإننا نود أن نكشف واقعه على أضواء أقوال أهل البيت فيه، و فى أضرابه الذين تنكروا للمسلمين، و تأمروا عليهم قصد الواقعة فيهم. قال كثير النواء: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول «برى الله و رسوله من المغيرة بن سعيد، و بنان بن سمعان، فإنهما كذبا علينا أهل البيت» (4).

ص: 365

1-1 (1) الملل و النحل ج 1 ص 294. [1]

2-2 (2) المقالات الإسلامية للأشعري ج 1 ص 7-8.

3-3 (3) لسان الميزان ج 6 ص 76.

4-4 (4) لسان الميزان ج 6 ص 76.

وقال محمّد بن عيسى بن عبيد: إن بعض أصحابنا سأل يونس بن عبد الرّحمن (1) وأنا حاضر: وقال له يا أبا محمّد ما أشدك في الحديث؟ وأشد إنكارك لما يرويه أصحابنا! فما الذى يحملك على رد الأحاديث؟ فقال يونس: حدّثنى هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد الله الصّادق عليه السّلام يقول: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلّا ما وافق القرآن والسنة، وتجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها، فاتقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا، وسنة نبينا صلّى الله عليه وآله وسلّم». وفي رواية أخرى: عن يونس عن هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد الله عليه السّلام يقول: «كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي، ويأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب، فيدفعونها إلى المغيرة، وكان يدس فيها الكفر والزندقة، ويسنّها إلى أبي، ثم يدفعها إلى أصحابه، ثم يأمرهم أن يبتئوها في الشيعة، فكل ما كان في كتب أبي من الغلو فذاك مما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم». وعن عبد الرّحمن بن كثير قال: قال أبو عبد الله عليه السّلام يوماً لأصحابه: «لعن الله المغيرة بن سعيد، ولعن الله يهودية كان يختلف إليها، يتعلّم منها السحر والشعبذة والمخاريق، إن المغيرة كذب على أبي فسلبه الله الإيمان، وإن قوماً كذبوا على ما لهم؟ أذاقهم الله حر الحديد. فوالله ما نحن إلّا عبيد خلقنا واصطفانا، ما تقدر على ضرر ولا نفع، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، والله ما بنا على الله من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون، ومقبورون، ومنشورون، ومبعوثون، وموقفون،

ص: 366

1-1) يونس بن عبد الرّحمن، أبو محمّد مولى على بن يقطين، المتوفى سنة 208 هـ كان من تلامذة الإمام موسى بن جعفر و على بن موسى الرضا عليه السّلام وكان الإمام الرضا يشير إليه في العلم والفتيا، وكان من خاصة الإمام الرضا و وكيله، وله تصانيف كثيرة منها: كتاب الإرث، كتاب الزكاة، كتاب جوامع الآثار، كتاب الشرائع، كتاب الصلاة، كتاب العلل الكبير، كتاب علل الحديث، كتاب الجامع الكبير في الفقه؛ كتاب تفسير القرآن، كتاب الرد على الغلاة. وغيرها يبلغ عددها الثلاثين كتاباً. قال أبو جعفر البصرى: دخلت مع يونس بن عبد الرّحمن على الرضا عليه السّلام فشكى إليه ما يلقي من أصحابه: فقال عليه السّلام: «دراهم فإن عقولهم لا تبلغ»، توفي يونس بالمدينة المنورة سنة 228 هـ.

و مسئولون، ما لهم لعنهم الله، فلقد آذوا الله، و آذوا رسول الله في قبره، و أمير المؤمنين، و فاطمة، و الحسن، و الحسين، و ها أنا ذا بين أظهركم، أبيت على فراشي خائفا، يأمنون و أفرع، و ينامون على فراشهم و أنا خائف. ساهر و جل، أبرأ إلى الله مما قال في الأجدع، و عبد بنى أسد أبو الخطاب لعنه الله، و الله لو ابتلوا بنا و أمرناهم بذلك لكان الواجب أن لا يتقبلوه، فكيف و هم يروني خائفا و جلا أستعدى الله عليهم، و أبرأ إلى الله منهم! و إني امرؤ ولدني رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و ما معي براءة من الله، إن أطعته رحمني، و إن عصيته عذبنى عذابا شديدا». و على أى حال فهو عليه السلام كان مهتما غاية الاهتمام بأضرار هؤلاء المندسين بين صفوف الأمة، فكان قلقا منهم، و يعلن للناس براءته منهم، و يبين لهم كذب ما يدعيه أولئك المخربون، الذين أرادوا أن يفسدوا المجتمع و أن يثيروا الفتنة، بادعاء التأليه لأهل البيت مع أنه عليه السلام يعترف بأنه عبد من عبيد الله، و أنه ميت و مبعوث. كما يتجلى لنا عظيم اهتمامه بفتنة هؤلاء، و ألمه مما يقومون به من الحال التي بات عليها. فهو خائف و جل يبيت على فراشه قلقا، لا يقر به قرار، خشية اتساع هذه الفتنة، و تطاير شررها، فلا يعود ذلك على المسلمين إلا بأوخم العواقب. هذا و قد نشط المغيرة في دعوته الإلحادية، كما قدمنا، و أمر أصحابه بإظهار الدعوة و الانتقال من السر إلى العلن، و كانوا سبعة نفر يدعون الوصفاء، و كان خروجهم بظهر الكوفة. فأخبر خالد القسرى بخروجهم و هو على المنبر، فقال: «أطعموني ماء». لانزعاجه و خوفه، فهجاه ابن نوفل كما تقدم. و لما ظفر به خالد أتى به مع سبعة نفر، ثم أمر بسريه فأخرج إلى المسجد، و أمر بأطنان القصب و نطف فأحضروا، ثم أمر المغيرة أن يتناول، فكع عنه، و تأنى. فصبت عليه السياط، فتناول طنا فاحتضنه فشد عليه، ثم صب عليه و على الطن نطف، ثم ألهبت فيهما النار فاحترقا، ثم أمر الرهط ففعلوا (1). و قال أبو بكر بن عياش: رأيت خالد بن عبد الله القسرى حين أتى بالمغيرة بن سعيد و أتباعه، فقتل منهم رجلا، ثم قال للمغيرة: أحيه- و كان يريهم أنه يحيى الموتى- فقال: و الله ما أحىي الموتى. فأمر خالد بطن قصب، فأضرم نارا، ثم قال

ص: 367



للمغيرة: اعتنقه. فأبى، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه و النار تأكله. فقال خالد: هذا و الله أحق منك بالرياسة، ثم قتله و قتل أصحابه، و ذلك حدود سنة 119 هـ.

### أبو منصور العجلي:

و هو أبو منصور مشهور بكنيته، نشأ في البادية ثم استوطن الكوفة، و له بها دارا، و كان عربيا من عبد القيس. جاء هذا الرجل ببدع، و دخل في ميدان ذلك الصراع العنيف، و ادعى أن الله عزّ و جل عرج به إليه، فأدناه منه و كلمه، و مسح على رأسه، و قال له: أى بنى. و ادعى أيضا أنه نبي و رسول، و أن جبرائيل عليه السلام يأتيه بالوحي من عند الله عزّ و جل، و أن الله بعث محمّدا صلّى الله عليه و آله و سلّم بالتنزيل، و بعثه هو «يعنى نفسه» بالتأويل. و كان يرى و جوب قتل من خالف دعوته، لأنهم مشركون فيقول لأصحابه: من خالفكم فهو مشرك كافر فاقتلوه. فإن هذا جهاد خفى. قام هذا الرجل بنشاط، و علم أصحابه الثبات و الشجاعة، و راح يطلب الوسائل التي ينجح بها في تقوية حركته، و تركيز زعامته، و أعلن أولا أنه من أتباع أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين، و لكن أمله لم يتحقق، فإن الإمام أبو جعفر عند ما بلغه أمره أظهر لعنه، و البراءة منه، و طرده من حظيرة أتباعه. و لما فشل في حيلته هذه ادعى أنه إمام وحده، و دعى الناس إلى اتباعه، و أنه الإمام الشرعى المستقل، ثم تراءى له الأمر فأصبح نبيا، و قال: إن الرسالة لا تنقطع أبدا. بمعنى أن الأنبياء يظهرون في جميع العصور و الأوقات. و هذه المقالة تبرر ادعاءه بالنبوة، و كذلك ادعى أن النبوة في ستة من ولده. و قد تنبأ ابنه من بعده، و ادعى مرتبة أبيه، و تابعه على رأيه بعض السفلة، و كان مصيره القتل. و استمر أبو منصور ببدعته و غوايته، و قد لقبه الإمام الصادق عليه السلام بأنه رسول إبليس عند ما أعلن للناس خبث سريره، و عظم خطره، و قد حذر الناس منه و أمرهم بالابتعاد عنه، و لعنه ثلاثا (1) و دعا عليه، و لم يكذب يوسف ابن عمر الوالى زمن هشام بن عبد الملك يقف على أمرهم، حتى تصدّى له و لأصحابه، فقتلهم صلبا،

ص: 368

و تزعم ولده فيمن لقي من أصحاب أبيه، و ادعى النبوة أيضا، فأخذه المهدي، و قتله و تتبع أصحابه. و هكذا ينتهي آخر دور يلعبه دعاة الفرقة من أعداء الإسلام، الذين أرادوا أن يفتكوا بأهله، انتصارا لمبادئهم، و حبا للسلطة و النفوذ، فاستعملوا شتى الوسائل في تحقيق ذلك، و لكن محاولتهم فشلت، لقيام دعاة الإصلاح في إيضاح مفاسدهم، و بيان خطرهم، و سوء نواياهم، حتى زالوا من صفحة الوجود. و قد أخطأ الأستاذ محمّد جابر عبد العال مؤلف كتاب (حركات الشيعة المتطرفين)، حيث يذهب إلى بقاء تلك الحركة، و أن جابر الجعفي تزعمها بقوله: قتل المغيرة و صلب بجوار بيان بواسط، كما قتل أصحابه، و لكن حركته لم تخدم، إذ تزعمها من بعده جابر الجعفي، و أنزله أصحاب المغيرة بمنزلة المغيرة نفسه (1). و هذا القول خارج عن حدود الصحة، و بعيد كل البعد عن الواقع، و هو تهجم شنيع، و افتراء فاضح، فإن علماء الحديث هم أدرى بجابر و أعرف بمنزلته، و ليعرني الأستاذ سمعه لأنقل له شهادة علماء الرجال الأعلام: يقول ابن المهدي: ما رأيت في الحديث أورع من جابر. و قال ابن عليه: جابر صدوق في الحديث. و قال شعبة: إذا قال جابر حدّثنا و سمعت فهو من أوثق الناس. و قال وكيع: مهما شككتم فلا تشكوا في أن جابرا ثقة. و قال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول قال سفيان الثوري لشعبة: لأن تكلمت في جابر لأتكلمن فيك (2). و لا نطيل الكلام حول منزلة جابر العلمية، فقد روى عنه خلق كثير، منهم: شعبة، و الثوري، و إسرائيل، و الحسن بن حي، و شريك، و مسعر، و أبو عوانة، و غيرهم. و خرّج حديثه الترمذي في صحيحه و أبو داود في سننه و ابن ماجه. هذا و إن مدحه و الثناء عليه من أهل البيت ثابت متواتر، و لا أدرى من أين جاء الأستاذ بهذه الفكرة الخاطئة، و لعله اعتمد على البغدادي في الفرق إذ يقول عند ذكره

ص: 369

1-1) حركات الشيعة المتطرفين ص 41.

2-2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 48. [1]

لمن ذهب إلى رجعة محمّد بن عبد الله بن الحسن، ويقال لهم المحمدية لانتظارهم محمّد بن عبد الله؛ وكان جابر على هذا المذهب، و كان يقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل القيامة (1)اه. و البغدادي معروف بقوله و كذبه في نقله، فقد أورد في كتابه أموراً لا صحة لها. و لنتفرق هنا تاركين الحديث عن كثير من الأخطاء التي وقفنا عليها في مؤلّفه، و نقله أموراً لا صحة لها، و حكمه على أشياء بدون تثبت، و إن الأستاذ عبد العال قد خالف الحقيقة، فلقد غرب و شرق، و تقول و تأول، و الكتاب بمجموعه نقد لاذع، و كذب فظيع، و لقد مثل في كثير من آرائه أفكاره الضيقة، و نظرتة القاصرة، لأنه أثبت أشياء على غير تأمل للواقع، بل إعراضاً عن الحق، و تجاوزاً عن الحقيقة، و استسلاماً للهدف الذي من أجله يقصده في تأليفه. و لقد مرتت على تلك الأخطاء المتراكمة مر كرام، و عسانا نلتقى به مرة أخرى، و هو واحد من مجموعة كبيرة من الكتّاب، الذين يقولون بدون تدبر، و أكثرهم يتقول انتصاراً لمذهبه، أو خضوعاً لعاطفته.

## دراسة حركة الغلاة ناقصة:

### إشارة

و على أى حال فإن حركة الغلاة هي من أخطر العوامل التي لعبت دوراً هاماً في المجتمع الإسلامي، و إن دراستها لا تزال حتى اليوم ناقصة بل غامضة، لوجود الكثير من التشويه و اللبس، فالوقوف عليها ببيان و وضوح من المشقة بمكان، إذ لم تدون آراء أولئك القوم بأقلام دعائهم، فلم تكن لهم مؤلّفات تدون بها عقائدهم، و ذلك لأن حركتهم كانت قصيرة العمر سريعة الزوال، لما قام به أهل البيت عليهم السلام في تفريق صفوفهم، و صدع شملهم عند ما أعلنوا البراءة منهم، و لعنواهم، و حذروا المجتمع الإسلامي من نواياهم الخبيثة، فكانت عاقبتهم إلى الزوال، و جمعهم إلى الشتات. و إن كثيراً ممن كتب في هذا الموضوع و تناوله بالبحث، لم يقصد جلاء الغامض، و إظهار الحقيقة، و إنما القصد من ذلك هو التشويه، و التضليل، و نشر ما يساعد أعداء الدين الإسلامي على الوقيعة بأهله، لأن أولئك الذين تناولوا حركة الغلاة بالبحث لم يتحرّوا الدقة في إيراد ما جاء في كثير من الروايات، و لم يدرسوا الظروف التي ساعدت على نشر تلك الأفكار الخاطئة و العقائد الفاسدة، التي حاولوا نشرها في

ص:370

المجتمع الإسلامي، وإن أولئك الكتاب يجهلون العوامل التي أدت إلى قيام تلك الحركة، أو أنهم يتعصبون فيحيدون عن الواقع ويتكبرون للحقيقة، وإن الجهل والتعصب هما اللذان يجعلان كثيرا من الكتاب والمؤرخين يتجاهلون قيمة إظهار الحقيقة وبيان الواقع. وأنهم يكتبون لا للتاريخ والحقيقة، وإنما يكتبون للمغالطة والوقعة، ولم يدركوا خطر أخطائهم وعظيم جنايتهم على الإسلام، في فتح باب التدخل لأعداء الإسلام.

### الغلاة والشيعية:

وكيف كان فقد ظهر لنا أن حركة الغلاة كانت ضد أهل البيت عليهم السلام بصورة خاصة، وضد الإسلام بصورة عامة، فإن ما يدعون إليه إنما هو ضد ما دعى إليه الإسلام، وأهل البيت هم أقطاب الإسلام ودعائه، والذين بذلوا أنفسهم في سبيل إعلاء كلمته، والمحافظة على مبادئه، ونشر تعاليمه، وإن التشيع بمفهومه الواقعي هو اتباع الإمام على عليه السلام ومشايعته، مع أن بعض الفئات من الغلاة كانوا يكفرون عليا عليه السلام كالكاملية فكيف يصح عدّهم في عداد الشيعة. وقد علمنا من أقوال الإمام الصادق كيف كانت حالته وهو يواجه هذه الحركة حتى وصف قلقه بما يعطينا صورة عن اهتمام الإمام بخطرها واعتبارها من المحن التي أرقت. وكيف يصح أن تجعل البيانية من فرق الشيعة، وهذا زعيمهم (بيان) يحاول أن يكون الإمام الباقر من أتباعه، عند ما يكتب إليه يدعو لنفسه، والإقرار له، فيقول في رسالته للإمام الباقر: أسلم تسلم، وتنج وتغنم، فإنك لا تدري أين يجعل الله النبوة والرسالة، وقد أعذر من أنذر. فهل بعد هذا من مجال لمتقول أو زاعم، بأن تجعل هذه الحركة من حركات الشيعة، ولكن الخصومة توجد من لا شيء شيئا، وتفسد الحوادث بما تشتهي. والمغيرية و أتباعها يذهبون إلى تكفير أهل البيت والشيعة أجمع، لأنهم يرون كفر من خالفهم، وجوب قتله، وهل وجدت دعوتهم معارضة من قبل فئة كما وجدت من قبل الأئمة وشيعتهم، فكيف يصح عدّهم في سجل الشيعة؟ وهكذا إلى آخر ما وقفنا عليه.

و الشيء الذى نريد أن نقوله هو: إن حركة الغلاة قد شلت فى تلك المعارضة التى صدرت عن الإمام الصادق و زالت آثارهم بسرعة. و لكن الأعراس السياسية العمياء عند ما حاولت الحط من كرامة أهل البيت قد جعلت حركة الزنادقة مرتبطة بالشيعة (و أنه كانت هناك رابطة بين الزندقة و الشيعة، إذ رأينا كيف كان الانتساب إلى الشيعة الراضة دليلا على الزندقة، و داعيا إلى الاتهام بها) (1). و قد قامت الدولة فى أيام المهدي بمطاردة من يتهم بالزندقة و القضاء عليه، فقتل بتلك التهمة خلق كثير، و لم يكن كل هؤلاء الذين يتهمون بالزندقة زنادقة حقا، و إنما كان منهم من يتهم بالزندقة لأسباب سياسية، فقد اتخذ الخلفاء من هذا الاتهام وسيلة للقضاء على خصومهم، ممن لم يساير ركبهم أو يتحسسون فيه عدم الميل إليهم، كما كانوا يتهمون بذلك بعض الهاشميين الذين يريدون القضاء عليهم، فقد اتهم ابن من أبناء داود بن على العباسى، ثم يعقوب بن الفضل و أتى بهما إلى الخليفة المهدي. و على هذا النحو فقد فتح باب التشفى و الانتقام بتهمة الزندقة، ليكون ذلك مبررا لقتلهم، و لم يقتصر الأمر على الخلفاء فى اتهامهم الخصوم بالزندقة، بل كان هناك من الوزراء من يتخذون الاتهام-الباطل غالبا-بالزندقة سبيلا للكيد و الوقيعة بنظرانهم، أو خصومهم الذين يحقدون عليهم (2). و بهذا فتحت أبواب التهم على الشيعة لأنهم الحزب المعارض للدولة و الخصوم لحكام الجور، فكان ما كان من تهم و تقول و افتراء.

### حركة الغلاة ضد الإسلام:

عرفنا أن هذه الفئة الضالة، تكمن وراء قوة الدس و الوقيعة و التفرقة، و بعث الشك و الريبة فى النفوس، و لو طال بها الزمن لاستطاعت أن تؤثر، بطريق مباشر أو غير مباشر، على ذوى العقول الضعيفة، و تجرفهم بتيارها، و لكن لم يثبت التاريخ أنهم أثروا على أحد ممن له صلة بأهل البيت، فمال إلى أقوالهم.

ص: 372

1-1) تاريخ الإلحاد فى الإسلام لعبد الرحمن بدوى ص 39.

2-2) الطبرى. و الجهشيارى ص 89-90. [1]

وليس في مقدور أى أحد أن يغفل حقيقة هامة، وهى أن هؤلاء المتداعلين فى صفوف الأمة، قد دفعهم بغضهم للإسلام على أى لون كان، وأن الذين انتحلوا حب أهل البيت منهم إنما كان الباعث لهم هو العداء لأهل البيت، وبغض دعوتهم الإصلاحية، وهم يعلمون ما لأهل البيت من أثر فى نفوس المسلمين، وإن اتساع شهرة الإمام الصادق العلمية، وكثرة الوفود على مدرسته لانتهاج العلم، إنما هو دليل قاطع على قوة تمسك المسلمين بمبادئهم، وهذا أمر لا يروق لفئة تحاول محو تلك المبادئ، وتضليل الناس. وإنهم اتخذوا الكوفة مقراً لنشر الدعوة الإلحادية، لأن فى الكوفة نشاطا شيعيا، وحركة فكرية، وفيها ما يزيد على ألف محدث، يحدث عن الإمام الصادق، وفيها من العناصر المختلفة، من غير المسلمين، ولكن الكوفة، بصفتها العامة، عربية مسلمة، توالى أهل البيت. لهذا جعلت الدعوة فى مركز من المراكز الحساسة، لكى يبشوا سمومهم، وينشروا آراءهم وعقائدهم الفاسدة، فيتناقلها الناس ومصدرها الكوفة. والكوفة. شيعية فتسجل تلك العقائد على سجل الشيعة، الذين هم شوكة فى عيون السلطة، التى يحلو لها أن توسع هذه الشقة وتؤيد هذه الدعاية. ولقد راح أولئك الخصوم يشيعون الأكاذيب ويتقولون الأقاويل على أهل البيت، طبقا للمخطط الذى رسموه فى محاربة الدعوة الإصلاحية، التى قام بها الإمام الصادق عليه السلام- كما تقدم ذكرها- وقد وجدوا العون والحماية، من قوم يروق لهم ذلك، وتحلو لهم الوقعة لشيعية على عليه السلام عند ما ترتبط الزمرة الملحدة بعجلة التشيع، فيكون ذلك دليلا على ما يتقولونه فى ذم الشيعة، وشل نشاط حركتهم، فى عصر تحرر الفكر وازدهار العلم. ولا يفوتنا أن نقول بأن هذا التعاون مع خصوم أهل البيت قد بقى إلى العصور المتأخرة، فهم ينشرون تلك الافتراءات البالية، ويلبسونها ثوبا جديدا، تضليلا للناس وحا فى إثارة الشغب، فكلما أراد المصلحون حل مشكلة الفرقة والدعوة إلى التقارب، ذهب الكثيرون- ممن لا يروق لهم الصفاء والتقارب- إلى زيادة التعقيد، واتساع شقة الخلاف، فى نشر دفاين السلف، وعرض الأفكار البالية، وهو أسلوب يتخذونه لشل كل محاولة ساعية نحو الإصلاح، بحيث يجعلون من المستحيل على القوى المتخاصمة أن تتفق أن تتعاون.

إنهم يريدون أن نبقى متخاصمين إلى أن يحطم أحدنا الآخر، وهذا هو ما يصبو إليه أعداء الإسلام ويسعون بكل جهدهم لتحقيقه. إنهم يريدون أن يبقى المسلم لا يطمئن إلى أخيه المسلم ولا يتعاون معه. إننا في أيامنا هذه يتهددنا عدو قد تزايد خطره، عدو قد سطى على مبادئنا ومجتمعنا، يئس سمومه ويتستر بمختلف الأثواب، ويستعمل شتى الأساليب، فجرف بعض شبابنا بدعايته الكاذبة، وأقواله الفارغة. إننا أمام موجة إلحادية عارمة (1) تسندها أمة ذات قوة وعدة، تحاول أن تفصل بيننا وبين قوتنا الروحية، وعقيدتنا الإسلامية. إنها قوة تنذر بالخطر، وتدعو إلى الاهتمام، واتخاذ التدابير في ردها ودفع خطرها، ولا يمكننا ذلك ونحن يكفر بعضنا بعضا، ويتعد بعضنا عن بعض، ويتهم بعضنا الآخر، بأمور أكل الدهر عليها وشرب، تلك أشياء وجدت لغاية التفرقة بين المسلمين، لأن في اتحادهم هدمًا لمعاقل الحكم الجائر، ولا يمكن لحكام الاستبداد أن يعيشوا في مجتمع تسوده مشاعر المحبة والوئام. إننا أمام تيارات دولية، وأطماع استعمارية، وأعاصير فكرية، فهل ننتبه لهذه الأخطار المحيطة بنا، ويكفيينا ما حل بنا من وراء المنازعات الطائفية، التي اتخذها المتعشون على السيادة أقوى وسيلة لتحقيق أهدافهم وإشباع رغباتهم. يجب علينا أن ندرس الظروف القاسية التي حلت بالمسلمين فأدّت بهم إلى هذا التأخر والانحطاط، فكل ذلك ناجم عن التفرقة والخصومة والتعصب. يجب علينا أن نتفاهم وأن نسعى لإزالة الحواجز التي تحول بيننا وبين تقاربنا، إننا على حق والحق يعلو ولا يعلى عليه، والإسلام فوق كل شيء، وتحت رايته تتحقق السعادة، وفي مبادئه تسعد الإنسانية. نحن أبناء اليوم والمطلوب منا أن نحفظ بأمانة الإسلام، وأن ندافع عنه بكل ما نتمكن، فإن أماننا أخطار المبادئ الهدامة، التي تحارب التوحيد، وتنصر الإلحاد،

ص:374

---

1-1) قلنا ذلك ونحن في خضم مواجهة مد إلحادى و موجة غربية قذفت إلينا بالسوء و أساءت إلى مجتمعنا و قيمنا، و إذ هدأت فإن من الإلحاد ألوانا تهدد مجتمعنا الإسلامى فى الصميم يتهافت الحكام و كثير من الناس على أدواتها و وسائلها بوعى أو بدون وعى.

وقد أعدت العدة و أكملت القوة و نحن نبقى عاكفين على نبش الدفائن، و إثارة الضغائن بأفكار بالية و آراء شاذة. إن تلك الخرافات و الأوهام قد أصبحت فى خبر كان، و قد زالت على أيدى دعاة هدى و أئمة رشاد، إذ حفروا لها قبورا بمعاول الحق، فزال أثرها و نسى خبرها. دعونا من فتح سجلات الماضى، و ليقف كل واحد منا إلى جانب أخيه المسلم، يشد أزره، فإن الأمة الإسلامية أحوج إلى وحدة الصف أكثر من أى وقت مضى، لأنها تمر بنفس المراحل الأولى التى تعرّضت فيها لحمولات دعاة الفرقة.

### حوار و تصويب:

و يطول بنا المقام إن أردنا أن نطيل الحديث عن الأساليب التى اتخذت لاتهم الشيعة بأمر هو أبعد ما تكون عن الواقع، و قد دعانا إلى استعراض هذا البحث، ما وقفنا عليه من الشذوذ عند بعض الكتّاب الذين انحرفوا أقلامهم عن تسجيل الحقائق العلمية و جرت فى ميدان التعصب، و لم تجعل للواقع أى قيمة، و نحن لم نحاسبهم على ذلك الانحراف و الانعطاف نحو جهة معينة، لا الجهة التى يقتضيتها الحق و يدعوا إليها البحث العلمى. و ليس فى استطاعتى الآن تعداد أولئك الكتّاب و مناقشتهم، و لكنى أود أن أناقش بعضا منهم ممن صدرت كتبهم فى العهد القريب، ففىها من التعصب و التحيز، و نكران الحق، ما يدعونا إلى الأسف الشديد أن يصدر هذا من علماء مثقفين. و على أى حال فإننا نقف معهم وقفة قصيرة، و نلتقى بهم لقاء وديا، و نعاتبهم عتابا أخويا، و نطلب منهم التثبت فيما ينقلونه، و أن يتحروا الصدق فيما ينقلونه، فإن وراءهم حساب الأجيال، و حساب الله أعظم. و ها نحن نلتقى بالأستاذ الشيخ على الغرابى، و هو أستاذ فى كلية الشريعة بمكة المكرمة، و مؤلف كتاب (الفرق الإسلامية و نشأة علم الكلام عند المسلمين). يتحدث هذا الشيخ عن تاريخ العقيدة، و عن نشأة علم الكلام، ثم يتحدث عن الفرق، و يطيل الحديث عن المعتزلة، و لا نود أن نطيل الوقوف معه، فالوقت أثمن من ذلك، و لكننا نريد أن نتعرض لهفواته فى ذكر فرق الشيعة، و بذلك نعرف مدى تأثر الأفكار بالإحياءات الكاذبة، كما نلمس تراكم الترسبات الطائفية، التى لم يستطع



الواقع إزالتها من بعض القلوب، وإن التنور و انكشاف الأمور لم يزد لها إلا زيفا و ضلالا. يقول الشيخ: (ب) الشيعة: 1-نبذة عن فرقهم و بعض آرائهم: أصناف الشيعة و علة تسميتهم: إنما سموا شيعة لأنهم شايعوا عليا و قدّموه على أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هم ثلاثة أصناف: (1) الغالية و سبب تسميتهم: و إنما سموا غالية لأنهم غالوا في علي، و قالوا فيه قولا عظيما، و هم خمس عشرة فرقة. ثم يعدّد الفرق بأسمائها، و هي أسماء بلا مسميات، مع أن أكثر هذه الفرق لا ينطبق على تعريفه الأول، فهم يغالون في علي و لم يدعوا ألوهيته، و لكن الشيخ لم يكن باحثا متبنا. ثم ينتقل الشيخ بحديثه إلى الصنف الثاني من أصناف الشيعة، و هم الرافضة، فيقول: و إنما سموا رافضة برفضهم أبا بكر و عمر إلى أن يقول: و الرافضة أربع و عشرون فرقة سوى الكاملة، و يسمون الإمامية كقولهم بالنص على بن أبي طالب. ثم يقول: الفرقة الأولى من الرافضة (القطعية) : و إنما سموا قطعية لأنهم قطعوا على موت (موسى بن محمّد بن علي) و هم جمهور الشيعة، و هم يقولون بالنص على إمامة علي بن أبي طالب، و إن عليا نص على إمامة ابنه الحسن، و إن الحسن نص على إمامة أخيه الحسين، و هكذا يقولون بانتقال الإمامة بالنص في أبناء الحسين إلى (محمّد بن الحسن بن علي) و هو الغائب المنتظر عندهم و إنه سيظهر فيملا الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا. ثم يذكر الكيسانية و إن فرقهم إحدى عشرة فرقة. و يتحول الشيخ إلى ذكر فرقة الزيدية و يذكر بعض آرائهم. و لا يهمننا حديثه عن ذلك، و المهم أن ننبهه على بعض أخطائه و ما أكثرها، و لا نريد أن نشدد الحساب

عليه فهو مقلد لغيره أو متعصب، وكلا الأمرين يحولان دون إظهار الحقيقة وبيان الواقع. ونحن أولاء نترك إطالة الوقوف معه لنناقشه على آرائه التي استمدتها من مصادر غير موثوق بها إن كان ينقل عن مصدر، وإلا فهو جاهل بحقيقة الحال. إن الشيخ يريد أن يتحف المسلمين بهذا العصر المكفهر بسحب العداة لهم، والمزدهم بأفواج النعمة منهم والسخط عليهم من قبل خصوم يريدون أن يفرقوا الشمل ويثيروا الفتنة. نعم لا- نريد نقاشه، ولكننا نود أن ننبه لبعض الأخطاء التاريخية عساه أن يتقبل ذلك فيرجع عن طريق الانحراف: إنه يقول في القطعية: إنهم قطعوا على موت (موسى بن محمد بن علي). وهذا خطأ من عدة جهات: 1- أنه لا يوجد إمام من أئمة أهل البيت اسمه موسى بن محمد بن علي، ولا نعرفه ولا يعرفه كل أحد، فمن أين جاء الشيخ بهذا الاسم؟! فهل كان يقصد به الإمام موسى بن جعفر، فإن كان كذلك ولكنه يجهله ولم يتعرف عليه، ولا يدري من هو، فكيف يرجى الصواب من باحث يجهل إماما له منزلة عظيمة، ومكانة اجتماعية، وشخصية أخافت الدولة، وأقضت مضاجعها، وهي في عظمتها وأيام عزتها. فكان الرشيد أيام عظمته وقوة سلطانه يخشى صولة الإمام موسى بن جعفر وهو في محرابه ومجلس علمه. إذا فلا يصح وصف القطعية بأنهم قطعوا على موت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لأن القطعية هم الذين قالوا بأن الإمامة انقطعت على الإمام جعفر الصادق في حياته، وصارت في ولده إسماعيل. فقول الشيخ إن القطعية قطعوا على موت موسى أمر مقطوع بكذبه وبطلانه. 2- مع التنزل من أنهم قطعوا على موت موسى، فما معنى قوله في وصفهم بأنهم يقولون بانتقال الإمامة بالنص في أبناء الحسين إلى محمد بن الحسن بن علي، وهو الغائب المنتظر. وعلى هذا فلا يصح القول بالقطع على موت الإمام موسى، بل ساقوا الإمامة إلى ولده الرضا عليه السلام ومن بعده بولده الهادي، ثم إلى الإمام العسكري ثم إلى

الغائب المنتظر عليه السلام فهم على هذا يعدّون من الشيعة الاثني عشرية لا القطعية، فكيف يحصل الاتفاق في قوله الأول بأنهم قطعوا الإمامة على موت موسى؟؟ 3-يقول: وهم-أى القطعية-جمهور الشيعة. ونحن نساأله هل وقف على مؤلفات الشيعة فوجد أثرا يذكر للقطعية، و هل عرف منهم جماعة حتى يصبح له أن يعبر عنهم بأنهم جمهور الشيعة، نعم جمهور الشيعة هم الاثني عشرية، ولعل الشيخ لم يفرّق بين قوله بالقطع على موت الإمام موسى، وبين القول بسوق الإمامة إلى من بعده من أولاده وأحفاده.

### موقف مع شيخ أزهرى:

وهذا عالم آخر من علماء الأزهر الشريف وأستاذ بكلية أصول الدين وهو الشيخ محمّد أبو زهو نلتقى معه فى كتابه (الحديث والمحدثون. المطبوع سنة 1378 هـ. 1959 م). تعرض الأستاذ فى كتابه إلى ذكر الشيعة، ونقل بعض ما قاله ودوّنه يقول: كانت الفكرة الأولى فى التشيع: أن جماعة من الصحابة يرون بعد موت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن الخلافة ميراث أدبى لعلّى بن أبى طالب، وأنّه أولى بها بعدة أمور منها: إنه أقرب عاصب لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعد عمه العباس. ثم يعدد مزايا أمير المؤمنين إلى أن يقول: رأينا أن فكرة التشيع لعلّى تلبس ثوبا جديدا وينضم إليها كثير من الزنادقة، وأرباب الأهواء والمنافقين بقصد الإفساد فى الدين. ثم يقول: وعلى الجملة فقد افتقرت الشيعة ثلاث فرق: (الكيسانية) وتولوا محمّد بن الحنفية، والإمامية (الجعفرية) وتولوا جعفر الصادق (و الإمامية) الزيدية وتولوا زيد بن على بن الحسين. ويذكر بعد ذلك عقائد الشيعة ويعددها: 1-الرجعة. 2-النبوة: ادعى بعض الشيعة النبوة لعلّى. 3-الألوهية: ذهب فرقة من الشيعة إلى تأليه على. إلى أن يقول فضيلته تحت عنوان التشيع ستار لأعداء الإسلام: و يقينى أن

التشيع كان ستارا احتجب وراءه كثير من أعداء الإسلام من الفرس، و اليهود، و الروم، و غيرهم، ليكيدوا لهذا الدين، و يقلبوا نظام هذه الدولة الإسلامية، فقد كان الفرس يزعمون أنهم الأحرار و السادة، و كانت لهم الدولة من قديم الزمان، فلما بدل الله عزهم ذلا، و صير ملكهم نهبا، على يد العرب الذين كانوا فى نظرهم أقل الأمم خطرا . . . إلخ. ثم يقول: أخذوا-أى الفرس-يتحسسون أبواب الضعف عند المسلمين فلم يجدوا بابا أنجع لهم من الحيلة و الخداع، فأظهر جماعة منهم الإسلام، و انضموا إلى أهل التشيع، مظهرين محبة أهل البيت، و سخطهم على من ظلم عليا رضى الله عنه. ثم يستمر أبو زهو فيذكر صفات الشيعة بما يروق له و ما يوحيه إليه وهمه، إلى أن يقول- و ما أعظم ما يقول-: كان من وراء الشيعة و الخوارج و من على شاكلتهم الجمهور الأعظم من المسلمين الذين لم يتدنسوا بالتشيع و لا بالخروج و تمسكوا بالسنن. نضع هذه الفقرات التى اقتطفناها من حديث الشيخ بين يدي كل منصف متجرد عن التعصب و التحيز. إننا نذكر هذه الأقوال و الألم يحز بنفوسنا، و الاستغراب يستولى على مشاعرنا، عجيب-و كم أرانا الدهر من عجب-أن يصدر مثل هذا التعبير النبأى! و القول الشائن، من رجل ينتمى لأكبر مؤسسة إسلامية، لها مكانتها فى المجتمع الإسلامى، و قد خدمت الأمة على ممر العصور، و لا شك أنها تحرص على جمع الكلمة، و محاربة الفرقة، إنها مؤسسة الأزهر الشريف، التى قطعت شوطا بعيدا فى خدمة الإسلام. و نشر مآثره. عجيب أن تصدر مثل هذه الهفوات، من رجل يعد من كبار علمائها، إذ أنيط به تدريس أصول الدين، و تلك أكبر مهمة ينحو الأزهر بتحقيقها. عذرنا تجاهل الشيخ بنص حديث الغدير الذى هو من أهم الأحداث الإسلامية، و الوقائع التاريخية التى لا يمكن جحودها، و من الصعب إنكارها. فلا نريد أن نذكر الشيخ بالمصادر التى ذكرت هذا النص الجلى، و لا نريد أن نقدم له قائمة بأسماء الصحابة الذين شهدوا بسماعهم من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يوم قام بذلك الحفل الرهيب، و الجمع الحاشد، و فى ذلك الهجير المضطرم، فى غدير خم حيث

مفترق المدنين و المصريين، و العراقيين، و عدد الجمع لا يقل عن مائة ألف، و أعلن للملا الحاشد بخطبته العظيمة، التي قال فيها: «من كنت مولاه فهذا على مولاه». نعم لا نريد أن ننبه الشيخ لمراجعة الصحاح التي روت ذلك، كصحيح مسلم، و الترمذى، و الحاكم و غيرها، أو نرشدته إلى مراجعة الكتب التي ذكر فيها هذا الحديث، و عددها يربو على ستمائة مؤلف و كتاب. إن حديث الغدير هو نص صريح و لم يستطع أحد إنكاره، و إن كان الكثيرون قد وقعوا في كثير من التمحلات و التأويلات في المعنى اللغوي للفظ المولى، و لكن ذلك لم يصل بهم إلى نتيجة مرضية. نحن نترك هذا للباحث الحر المتجرد عن العاطفة و التحيز، و لا نطيل الحديث مع الشيخ في هذا الموضوع، كما أننا لا نطيل الحديث في قوله: و يقينى أن التشيع كان ستارا احتجب وراءه أعداء الإسلام من الفرس و اليهود و الروم و غيرهم إلى آخره (1). لأن هذه العبارة قد مرّت على أسمعنا من كثير ممن يريد أن يثير الفتنة، و ينشر الشغب، و قد ردها المستشرقون الذين يريدون في أبحاثهم الواقعة بين المسلمين، و إن فضيلة الشيخ لكثرة اتباعه لأولئك الكتاب، و اقتباسه في تعبيره من عباراتهم، وضع هذه الآراء الشاذة في إطار اليقين، كما أن يقينى فيه أنه قاصر عن إثبات ما يدعم دعواه من الطرق العلمية. و يحق لنا أن نسأل فضيلة الشيخ فنقول: لأى شىء لا يكون التدخل من قبل أعداء الدين في صفوف سائر الطوائف هدمًا للدين، و تأمرًا على أهله؟ أليست فرق الكرامية التي يبلغ عددها اثني عشر فرقة و أصولها ستة و هم: العابدية، و النونية، و الزرنية، و الإسحاقية، و الواحدية، و أقربهم الهيصمية و هم منتسبون لأهل السنة (2). و هؤلاء قد ابتدعوا في الدين، و أضلّوا خلقًا كثيرًا، و قد اندسوا في الحنابلة، و انتسبوا لأحمد بن حنبل. و كان مؤسس هذه الفرقة (الكرامية) هو محمّد بن كرام السجستاني المتوفى سنة

ص:380

1-1) الحديث و المحدثون ص 91.

2-2) الملل و النحل ج 1 ص 159. [1]

255 هـ كان أصله من زرنج، ونشأ بسجستان، ثم دخل بلاد خراسان، وجاور بمكة خمس سنين، ثم أظهر بدعته، وتبعه خلق كثير، وشاع ذكره، حتى قال الشاعر في مدحه: الفقه فقه أبي حنيفة وحده والدين دين محمد بن كرام

إن الذين لجهلهم لم يقتدوا في الدين بابن كرام غير كرام

(1) ذهب محمد بن كرام إلى أن الإيمان قول باللسان، وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن. وزعم ابن كرام وأتباعه: أن معبودهم محل الحوادث ووصفوه-تعالى الله عما يصفون-بالثقل وذلك أن ابن كرام قال في كتاب عذاب القبر في تفسير قوله إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ إنها انفطرت من ثقل الرحمن عليها، ولهم مزاعم كثيرة وآراء باطلة (2) ولهم في الفقه أقوال. منها: صلاة المسافر يكفيه تكبيرتان من غير ركوع ولا سجود، ولا قيام ولا قعود، ولا تشهد ولا سلام. ومنها: صحة الصلاة في ثوب كله نجس، وعلى أرض نجسة، ونجاسة ظاهر البدن، وإنما أوجب الطهارة عن الأحداث دون الأنجاس. ومنها: أن غسل الميت والصلاة عليه سنة غير مفروضة، وإنما الواجب كفنه، ودفنه. و منها: القول بصحة الصلاة المفروضة، والحج المفروض بلا نية. قال الشيخ زاهد الكوثري: وكثير من الكرامية قالوا بحلول الحوادث في الله تعالى وحلوله في الحوادث، اندسوا بين الحنابلة، فأضلوا خلائق، ولله في خلقه شؤون، وكذلك فعل البرهارية والسالمية (3). ونحن لا نريد أن نتناول بالبحث جميع الفرق التي نسبت لأهل السنة وتزعمها رجال من الدخلاء، كالمشبهة والمجسمة والمرسية وغيرهم، لأننا لا نود أن نتبع

ص: 381

1-1 (1) لسان الميزان ج 5 ص 354.

2-2 (2) الفرق للبغدادى ص 130-137. [1]

3-3 (3) الفرق بين الفرق ص 121.

طريقة من يسطو على القديم من الشبه والآراء، ويطلوه بطلاء حديث، تغريرا للبسطاء، واستمالة للدهماء، فجمعوا بين جريمتين: جريمة الخيانة وجريمة الخداع، فوق ما اقترفوا من جريمة الطعن في سيرة أهل البيت المنزهين من كل عيب والمطهرين من كل دنس، وهم حماة الدين وأعلام المسلمين. عذرنا من ذهب لذلك من السلف، وعفى الله عما سلف، ولكن ما عذر أبناء العصر الحاضر الذين وقفوا على بواغث تلك الاتهامات الموجهة إلى الشيعة، وعرفوا أهداف السياسة في ذلك؟ وهم يتجاهلون حقيقة لا يمكنهم جهلها. وعلى أي حال فإننا لا نريد إطالة الوقوف مع الشيخ (أبو زهو) في هذا الموضوع، إذ الأمر يدعونا إلى إطالة البحث، وتقديم قوائم بأسماء رجال من أبناء فارس، دخلوا في صفوف فرق المسلمين من غير الشيعة، ونشروا كثيرا من المذاهب، ولو أنه أطل ببحثه على تراجم رجال المذهب الحنفي وأعيانه، لوجدهم من أبناء فارس، فقد قاموا بنشر المذهب الحنفي، وساندوا حركته بكل عصر، ولعل ذلك يكفي لإقناع الشيخ في بطلان قوله. نعم لا نريد إطالة النقاش فيما تقوله على الشيعة، ولم يكن هو أول من يسهم في تجاهل الحقائق، فكم رأينا كثيرا من أمثاله وأعرضنا عن نقاشه. والشيء الذي يلزمنا أن نقف عليه وقفة أسف وتآلم وهو قوله بالمبحث الرابع إذ يقول: كان من وراء الشيعة، والخوارج ومن على ساكلتهم، الجمهور الأعظم ممن لم يتدنسوا بالشيعة (1). . . هكذا يقول وما أعظم ما يقول. إنه يرى أن الانتساب إلى التشيع دنس، ونحن لا نقول في رده أي شيء، إلا أننا نطلب ممن قرظوا الكتاب ومدحوه، أن يراجعوا ضمائرهم في صحة هذا القول وهل ارتضوا ذلك؟ ومن العجيب أن يكون كذلك!! أ يكون التشيع دنس وقد انتمى إليه كبار الصحابة وخيار التابعين؟! أ يكون التشيع دنس وهو اتباع على و حبه وبغض أعدائه، وقد دعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لذلك في بدء دعوته؟!!

ص:382

غريب وأيم الحق أن تصدر كلمة كهذه من إنسان يدعى العلم والمعرفة، ويتصدر للتدريس في أصول الدين. إنها كلمة خرجت من قلب يحترق غيظاً عند ما يبلغه تقارب المسلمين، في عصر يلزمهم ذلك، إنه يفقد معنوية لا ينالها إلا بالتفرقة، وإثارة الفتنة. أى قلم استطاع أن يسطر هذه الحروف لكلمة عظيم وقعها على المنصفين من المسلمين، الذين يسوؤهم ما حل بمجتمعهم، من شحناء وبغضاء، جرتهما عليهم طائفية رعناء وعصبية عمياء. فلنترك حساب هذا الشيخ على ما تجناه في كتابه، وما افتعله في أبحاثه، ولنا معه عودة إن شاء الله. كما أننا نترك الوقوف مع غيره من أمثاله، ومن على شاكلته، ممن تجردوا للكذب والافتراء، ونظروا إلى الشيعة من زاوية التعصب الطائفي أو غير ذلك، فسألوا عليهم سيوف النعمة. **وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .**

### **الناقمون على الإسلام وأهل البيت:**

وعلى أى حال إننا إذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقاً للمنطق الصحيح، على مواقع الخطأ في اتهام الشيعة بأمر لا صلة لها بالواقع، ولا نصيب لها من الصحة، فإن الأرقام تقف عن مسايرتنا، وربما تقف عن الإحصاء، ولا نريد ذلك، ولكننا نريد منهم التوسع في التفكير الحر، وترك المغالطات، والتثبت في النقل، فقد مرّت العصور التي تدعوهم إلى إثارة الفتن، وإيقاد نار البغضاء بين المسلمين. لقد رأينا كيف نشأت تلك الفئات، وعرفنا الأسباب التي دعتهم إلى الادعاء بالتقرب من أهل البيت. إن العداة المتأصل في قلوب أولئك المنهزمين أمام قوة الإسلام الذاتية، حملهم على مقابله من طريق غير مباشر، وإن انتحال البعض منهم حب أهل البيت، والتظاهر بالولاء لهم إنما كان هدفهم في ذلك تغرير البسطاء، وتضليل العامة، ممن ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية، مع أنهم لمسوا رغبة السلطة الحاكمة في تشويه سمعة أتباع أهل



البيت، ليحملوا الناس على الابتعاد عنهم، وأن يحرموا أغلبية الأمة من الأخذ بتعاليم آل محمّد، لما يدسونه في أحاديثهم، وما يشوهونه من أقوالهم، وقد أدرك الأئمة عليهم السّلام هذا الخطر العظيم، فقاموا بمحاربة تلك الفئة الضالة والزمرة الملحدة، وقد وقف الشيعة إلى جنب أهل البيت في إعلان الحرب على تلك الفئة، والبراءة منهم، و حكموا بنجاستهم وعدم الامتزاج معهم، فكان نصيب تلك الحركة التي قام بها الملحدون ضد الإسلام بصورة عامة، وضد أهل البيت بصورة خاصة، الفشل والانهيار، وإن نالت الفوز الموقت، وأثرت في عقول لم يكن لها نصيب من الرجحان، فذلك أمر يعود للظروف، ومقتضيات الزمان، وأنه يدور على تلك القوة الغاشمة، قوة السلطة المتعسفة، التي قضت على الأفكار بالجمود لكي يشغل المسلمون فيما بينهم بالتناحر والتطاحن، ويسكتوا عما هو أخطر وأجدر بالمقاومة والمحاربة، وهو نظام حكمهم الذي وضعوه حسب أهوائهم الجائرة، ورغباتهم الجشعة، ونزعاتهم المتعسفة، والذي جعلوه مرتبطين بالإسلام، وإنه النظام الذي لا يمكن مخالفته، لأنهم انتحلوا لأنفسهم حق وراثته الحكم، وحماية الدين وصيانة الإسلام. وفي النهاية ينبغي أن نضع أمام أعيننا الغاية التي من أجلها التحق أولئك الغلاة بركب الشيعة في نظر الكثير من الكتّاب والمؤرخين، مع بعد المسافة وعدم التقارب، فإن ذلك لا يعدو نظرة التعصّب والانتقاص، نظرا لمقتضيات الزمن وعوامل السياسة، كما هو ملموس لمن يطلب الحقيقة، ويحاول الوقوف على الواقع، ويجعل نفسه حرا في ميدان البحث، ولا يعتمد على أقوال من يحاولون بنشر تلك الدعايات الكاذبة غرضا معيناً، ويدبرون أمراً مرسوماً، وهم يلتقون جميعاً على هدف واحد، ويجمعون على غرض واحد، وينسون في سبيل ذلك كل ما يقتضيه العلم ويتطلبه الحق والإنصاف، من عدم التحيز وترك التعصّب، والبعد عن المغالطة ليبدو وجه الحقيقة سافراً ويتضح الحق (و الحق أحق أن يتبع). ولكن بمزيد من الأسف أن يستولى سلطان التعصّب على بعض الناس، فيسلبهم حرية الرأي، ونزاهة النقل، فيقعون في مأساة الجمود الفكرى، بفقد المرونة والصراحة وخدمة الحقيقة، لأنهم يتحرّكون وسط غيرهم من الناس، ويتنكرون للحقائق، و يبتعدون عن الواقع، الأمر الذي أدى إلى عواقب وخيمة لا يحمد عقبائها.

و نعود إلى أولئك المنحرفين عن الصواب، الذين جعلوا من التشيع ستارا لأعداء الدين، بل زاد بعضهم فجعل التشيع مبدأ تفرق هذه الأمة، لأن أصول التشيع من ابتداع اليهود، كما يقول السيد رشيد رضا: (كان التشيع للخليفة الرابع على بن أبي طالب رضى الله عنه مبدأ ترق هذه الأمة في دينها وفي سياستها: وكان مبتدع أصوله يهودى اسمه عبد الله بن سبأ، أظهر الإسلام خداعا. ودعا إلى الغلو في على كرم الله وجهه، لأجل تفريق هذه الأمة وإفساد دينها و دنياها) (1). نعم نعود فنسألهم عن هذا التجنى الفاضح هل أخذوه من مصدر يوثق به؟ أم هل وقفوا على شىء من ذلك فى كتب الشيعة مما يؤيد ما ذهبوا إليه؟ ما ذنب الشيعة عند ما اقتضت الظروف القاسية أن تحمل أعداءهم على التدخل فى صفوفهم، لتشويه السمعة وفتح باب المؤاخذة؟ و هل كل من يدعى الانتساب لقوم يؤخذون بجرمه مع بيان الفارق، و عدم العلاقة و إظهار البراءة منه و الابتعاد عنه. أى علاقة بين الشيعة و بين الغلاة، و هل يوجد ربط فى العقائد بين الفئتين؟ اللهم إلا من باب المغالطة و التجاهل، فما هذا التجنى يا أيها الكتاب؟ لقد أبيتُم إلا أن تجعلوا حب أهل البيت غلوا، و ثبوت الوصاية لعلى خروجا عن الإسلام. انظروا إلى عواقب هذا التطرف و الشذوذ، و كيف أدى إلى تفريق الصف و تشتيت الشمل، و تغلب أعداء الإسلام عليهم، و حكمهم لبلادهم و استغلالهم لثرواتهم. و إن تلك الافتراءات التى يصوغها المتحاملون، و يحوكها المتعصّيون، لا تقوى على مقابلة الحق، بل تذوب أمام أضوائه، و تنحطم تحت ضرباته، و الذين يصرون

ص: 385

---

1-1) كتاب السنّة و الشيعة أو الوهابية و الرافضة ص 4-6 طبع مصر سنة 1366 هـ 1947 و الكتاب يقع فى 281 صفحة و كله سباب و تهجم و تقول بالباطل على رجال الشيعة و أعيانهم، و قد وضع له (الشيخ أحمد حامد الفقى) خاتمة، و أى خاتمة هى أنه قد تكلم بلسان لا عهد له بالأداب، و لا صلة له بالصدق، و قد أعرضنا عن مناقشته تهاونا و احتقارا.

على مثل هذه الأمور، ويأبون التورع عن مثل هذا الانحدار، إنما هم أعداء الأمة الإسلامية جمعاء، وجعلوا من الشيعة هدفا لأغراضهم، ليثيروا الفتنة والبغضاء بين صفوف المسلمين، فتحققت بذلك أغراضهم السيئة. أما قضية ابن سبأ فهي أسطورة قديمة ولعبة سياسية، وتهمة اتهم بها كبار الصحابة من حملة لواء التشيع، كأبي ذر وعمّار وغيرهم. يقول الدكتور أحمد أمين في فجر الإسلام بعد ذكر مزدك (1) ومذهبه الثنوي: وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس، ولكن قبّاذ نكل به وبقومه، ودبر لهم مذبحه سنة 523 هـ كاد يستأصلهم بها. ومع هذا فقد ظل قوم يتبعون مذهبه، حتى إلى ما بعد الإسلام، إلى أن يقول: ونلمح وجه شبه بين رأى أبي ذر الغفاري، وبين رأى مزدك في الناحية المالية فقط، فالطبري يحدثنا أن أبا ذر؛ (قام بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشّر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وظهرهم) (2). من هذه الدعوة التي قام بها أبو ذر الغفاري يستنتج الأستاذ أحمد أمين أن أبا ذر أخذ هذا الرأي من مزدك أو قريب من رأيه. وبعد ذلك يتساءل الأستاذ عن كيفية أخذ أبي ذر لهذا الرأي، فيستدل بما رواه الطبري: أن ابن السوداء لقي أبا ذر فأوعز إليه بذلك ثم يقول: ونحن نعلم أن ابن السوداء هذا لقب به عبد الله بن سبأ، وكان يهوديا من صنعاء، أظهر الإسلام في عهد عثمان، وأنه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم، وبث في البلاد عقائد كثيرة ضارة، قد تعرّض لها فيما بعد، وكان قد طوّف في بلاد كثيرة: في الحجاز والبصرة، والكوفة، والشام ومصر، فمن المحتمل القريب

ص: 386

1-1) ظهر مزدك في فارس سنة 487 هـ وهو من أهل نيسابور، ودعا إلى مذهب ثنوي جديد، وكان يقول بالنور والظلمة، وامتاز بتعاليمه الاشتراكية، وأحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، فقوى أمره وعظمت شوكته، واتبعه السفلة، واغتنموا دعوته فرصة، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله.

2-2) فجر الإسلام ص 110.

أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن، واعتنقها أبو ذر حسن النية، وصبغها بصبغة الزهد التي كانت تجنح إليها نفسه. .  
و يقول الدكتور حسن إبراهيم في كتابه (تاريخ الإسلام السياسي) بعد أن ذكر بيان الحالة التي كان عليها المسلمون في أخريات خلافة عثمان: فكان الجو ملائماً تمام الملاءمة، و مهيباً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ، و التأثر بها إلى أبعد حد. و قد أذكى نيران هذه الثورة صحابى قديم، اشتهر بالورع و التقوى، و كان من كبار أئمة الحديث، و هو أبو ذر الغفارى (1) الذى تحدى سياسة عثمان، و معاوية واليه على الشام، بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ، و كان يهودياً فأسلم، ثم تنقل فى البلاد الإسلامية، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، فالكوفة، و الشام و مصر. فأنت ترى أن هذا الصحابى الجليل، الذى امتاز بصدق اللهجة، و وضوح الحجّة، فاستحق أن يقول الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم عن أخلاقه: «ما أقلت الغبراء و لا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر» (2) قد تجنّى عليه بما نسبوه إليه من التأثر بآراء مزدك بواسطة ابن السوداء عبد الله بن سبأ، كما يزعم هؤلاء الأساتذة الذين لا خبرة لهم بالتاريخ و لا معرفة بأحوال الرجال. و نحن إذ نستعرض مثل هذه الآراء، لا نريد من ورائها إلا إعطاء صورة عن الشذوذ الفكرى، و الخروج عن قواعد الاستنتاج. كيف يصح القول بأن أبا ذر قد اعتنق رأى (مزدك)؟؟ و هو خريج مدرسة

ص: 387

1-1) أبو ذر هو جندب بن جنادة الغفارى، المتوفى سنة 31 هـ أم رملة بنت الوقيعة الغفارية، و هو رابع أربعة سبقوا إلى الإسلام، و كان من المتألهين فى الجاهلية الذين عبدوا الله و تركوا الأصنام، و لما أسلم أجهز فى إسلامه فى البيت الحرام بمكة، فضربه رجال من قريش حتى ضرجوه بدمه، و أغمى عليه فتركوه ظناً منهم أنه مات، و قد ورد عن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم أحاديث كثيرة فى مدحه، و رحل إلى الشام فى خلافة عثمان، فأنكر على معاوية سيرته و سوء عمله، و أعلن بالإنكار عليه، فشكاه معاوية إلى الخليفة، و أخرجه من الشام و نفاه إلى الريدة حيث توفى بها وحده، فكان كما قال فيه النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم: «رحم الله أبا ذر يعيش وحده و يموت وحده و يبعث وحده». و لما انتقل رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى جوار ربه كان أبو ذر غائباً فعاد و قد ولى أبو بكر، فقال: أصبتم قناعة و تركتم قرابة، لو جعلتم هذا الأمر فى أهل بيت نبيكم ما اختلف عليكم اثنان.

2-2) الاستيعاب بهامش الإصابة ج 1 ص 216. و [1] الإصابة ج 1 ص 64. [2]

محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّمَ والمنتهل من علومه، والممثل لتعاليمه، وقد وصفه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّمَ بما سمعت أنفا كما وصفه الإمام علي عليه السَّلَام بقوله: «أبو ذر وعاء ملئ علما ثم أوكئ عليه» (1). ومن كان كذلك أ يحتاج بأرائه وأقواله إلى يهودى، فيتأثر بأقواله وآرائه؟ فتكون أساسا لدعوته التى قام بها. ولكن عوامل السياسة، ومؤثرات الدعاية قلبت المفاهيم وغيّرت من نظرة الناس إلى الحقائق، إذ اقتضت الظروف تبرير عمل معاوية، وحمله على الصحة، وأن إنكار أبى ذر عليه كان بدافع عن اعتقاد خارج عن الإسلام، و لهذا فقد التجأ أنصار معاوية والمدافعون عنه إلى أن يصبغوا دعوة أبى ذر بصبغة التأثير بآراء غير المسلمين. ليسلم معاوية من الطعن، وإن أصاب الطعن صميم تعاليم الإسلام. هذا ومع التنزل فى صحة قصة ابن سبأ الذى جعلوا منه بطلا لجميع الحركات فى ذلك العهد، فهو الذى رفع صوته بالكوفة إنكارا على عثمان، فاستجابت له الجماهير، ورحل إلى مصر فغير القلوب، و جهز الجيوش لحرب عثمان، وأقام فى المدينة، فحوّل الأمور عن مجراها وأغرى بعض الصحابة، أمثال أبى ذر، وعمار بن ياسر (2) و محمد بن حذيفة (3) و عبد الرحمن بن عديس (4) و محمد بن أبى بكر (5)

ص: 388

1-1 (1) الإصابة ج 4 ص 64. [1]

2-2 (2) هو أبو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن قيس من بنى ثعلبة وأمه سمية، وهو سابع سبعة أظهروا الإسلام وجاهروا به، و قد قال فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّمَ: «إن عمارا ملئ إيمانا إلى مشاشه». و كان من المعذبين فى الله هو وأبوه وأمه، و قد مات والده متأثرا من تعذيب قريش إياه على إسلامه، و كان عمار مع على فى حرب الجمل و صفين؛ و قتل بصفين مساء الخميس 9 صفر سنة 37 هـ قتله أهل الشام، فكان قتله مصداقا لقول رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّمَ: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية».

3-3 (3) هو أبو القاسم محمد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه سهلة بنت سهيل بن عمر العامرية، ولد بأرض الحبشة على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّمَ، و كان من أشد الناس إنكارا على عثمان، و ذهب إلى مصر، فأخرج نائبه عبد الله بن أبى سرح من مصر، و بايعه أهل مصر، و لما ولى على (عليه السلام) أقر محمد بن حذيفة على مصر، و بقى على إمارته، و قد غدر به معاوية و سجنه بدمشق و قتله.

4-4 (4) عبد الرحمن بن عديس البلوى المقتول سنة 36 هـ كان ممن شهد الحديبية، و بايع تحت الشجرة، و كان ممن أظهر الإنكار على عثمان، و قاد جيش المصريين لحربه يوم الدار، و قد سجنه معاوية، و غدر به بعد المهادنة و قتله.

5-5 (5) محمد بن أبى بكر وأمه أسماء بنت عميس، نشأ فى حجر على، و شهد معه حروبه، ثم ولاه مصر سنة 37 هـ فجهز إليه معاوية جيشا و قتل صبرا، و ادخلوا جسده فى بطن حمار ميت فأحرقوه، و ذلك فى سنة 38 هـ.

وصعصعة بن صوحان العبدي (1) و مالك الأشتر (2): وغيرهم من صلحاء الصحابة و كبار التابعين. إلى آخر ما نسبوه إليه من أعمال، و كل ذلك لا يمتّ إلى الواقع بصلة، لأن قصة ابن سبأ هي من القصص الخرافية، و قد تفرد الطبري بذكرها مستندا إلى سيف بن عمرو التميمي البرجمي الكوفي، و إذا رجعنا إلى ترجمته لنقف على قيمة ما يرويه، فإننا نجدهم يصفونه بالواضع للحديث، ساقط الرواية، يروي الموضوعات عن غير الثقات، عامة أحاديثه منكرة، متهم بالوضع و الزندقة (3) إلى آخر ما ورد في وصفه عن علماء الرجال كابن معين، و أبي حاتم، و أبي داود، و الدارقطني، و ابن عدى، و ابن يحيى، و ابن حبان وغيرهم. و ذلك لا يدع مجالاً للشك بأن هذا الرجل قد وضع هذه القصة، و لا يقصد من ورائها إلا الوقعة في رجال المسلمين، و إثارة الفتنة فيما بينهم، طبقاً للخطة التي وضعها الزنادقة في ذلك العصر، و قد نجح هذا المخطط، فأصبح ابن سبأ بطلا مشهورا يردده الكتاب و المؤرخون. و تجدر الإشارة هنا إلى ارتباط هذا الاتهام بذلك التحسس الديني الذي أثارته سياسة عثمان، و التي كانت أول البوادر للتحكم و الاستبداد، و أول ظاهرة في الحكم الإسلامي، و من أجل ذلك قام أولئك الصحابة الذين تخرجوا من مدرسة الرسول الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأنكروا تلك الأفعال، و عارضوا تلك السياسة، فعظم ذلك على الأمويين، و قابلوا أعمالهم بالعنف من جهة، و بالحط من كرامتهم من جهة أخرى. و إن نظرة بسيطة إلى واقع الأمر، فإننا نجد اتهام الصحابة بتلك الأمور إنما هو من أعمال أنصار الأمويين، لتشويه سيرة أولئك العظماء الذين تقموا على عثمان، و أنكروا عليه سياسته التي جرت عليه نقد الصحابة و إعلان الثورة.

ص: 389

- 
- 1-1) صعصعة بن صوحان بن حجير بن الهجرس العبدي، أسلم على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و كان خطيباً فصيحاً، شهد مع علي (عليه السلام) و لما استولى معاوية بعد الصلح نفاه إلى البحرين فمات بها.
- 2-2) هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن الحرث بن جذيمة بن مالك النخعي، أدرك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و كان رئيس قومه، شهد اليرموك فشتت عينه بها؛ و لقب بالأشتر، صحب علياً و شهد الجمل و صفين، و أرسله علي والياً على مصر، ففسد معاوية إليه السم في العسل على يد رجل صحبه في الطريق، أرسله معاوية لهذا الغرض، و توفي متأثراً من السم و ذلك سنة 38 هـ.
- 3-3) ميزان الاعتدال للذهبي ج 1 ص 438. و تهذيب التهذيب ج 4 ص 297. و [1] فهرست ابن النديم ص 137.

و الحاصل أن وضع أسطورة ابن سبأ هي لغرض الحط من كرامة المنكرين على عثمان، ولكن المنصفين من الباحثين لم يستطيعوا السكوت عن هذه الخرافة البالية، والأسطورة المضحكة، والفرية الباطلة، فصرحوا بما هو الحق، وأظهروا للناس بطلانها، وناقشوا نقاط الضعف التي تحوط بها، فنحن نشكر للمنصفين انتباههم، كما أننا نأسف لأولئك المخدوعين لانزلاقهم في هوة التعصب، و انقيادهم للهوى و استجابتهم لداعية التفرقة، فنحن نمر بلغوهم من الكرام، و لنسدل الستار عن فضائح جناياهم على الحقيقة، و نكل أمرهم لذوى العقول الراجحة، و الأفكار الثاقبة الذين يقيسون الأمور بمقياس العلم، و تقتزن أقوالهم بالواقع، و لا يقيمون للخرافات وزنا و لا يجعلون للتقليد الأعمى قيمة، على غرار ما يفعل الشيعة و هم يتلقون هذه التهم و كأنهم لا تعنيهم لأنها معروفة المنشأ و مكشوفة الغرض، و إنما تناقش من باب الغيرة على العلم الذى راح البعض ممن لا علاقة له به إلا بالألقاب و المراكز يستسلمون هذا الاستسلام الشنيع، و قد أشرنا فى كل مرة إلى أقوال ممن هم من بنى جلدتنا، أو تجمعنا و إياهم روابط العقيدة-إن شاءوا-و لم نقم وزنا للأصل الذى اعتمده أحمد أمين و غيره مما تجنى به المستشرقون على تاريخ الإسلام و أهل الإيمان و الولاء للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و عترته الطاهرة. إن الشيعة يقصدون للغلاة، و يقوم أئمتهم بحملة مضادة لوأد حركتهم و القضاء عليها، و قد أقص مضجعهم نشاط هؤلاء و لم يستقرّوا حتى هدم وجودهم، و لكن غيرهم يستمد معلوماته من كتاب لا تجمعهم بالإسلام جامعة و لا تربطهم رابطة، و يتقبلون ما يفعله هؤلاء المستشرقون بوقائع التاريخ و تدخّلهم فى أحداث الأمة الإسلامية. فإذا أخذنا الألمانى يوليوس فلهوزن فى كتابه: (الخوارج و الشيعة)، لرأينا كيف يستنتج و يربط الأحداث وفق غرض ظاهر لا يخفى على ذى نظر، فهو يسمح لنفسه أن يرجح ما بين الأكاذيب و الافتراءات، و أن مذهب الشيعة يرجع إلى اليهود أقرب من أن يرجع إلى الفرس، و لو كان لى غير البيان بأبلغ من هذا لعبّرت عن الاستخفاف و الاستهزاء العميقين لمثل هذه الأقوال، و ليتهأ صدرت من مسلم. ثم يؤخذ قول فلهوزن مصدرا-و ما أبعد عن الحقيقة. و سنأتى فى الجزء الخامس على مناقشة آراء المستشرقين. و لقد بحثنا فيما مضى موقف أئمة الشيعة من الغلاة بما لا مزيد عليه من

الوضوح والواقعية و بما يجعل قول فلهوزن أضحوكة عند ما يقول: (إن عبادة الشيعة لله كانت عبادة لبني الإنسان، و النتيجة لذلك قيصرية بابويه معا. كانوا يعترضون على إمامة السلطة القائمة، و لكن إمامتهم الشرعية القائمة على دم الرسول (ذرية آل البيت) لم تكن أفضل منها إذ كانت تفضى إلى إهدار لقانون و كسر لشريعة). و لا نناقش أمرا هو من مفاخرنا و رموز مسيرتنا حتى يظهر صاحب الأمر، و الذى قدّم الأئمة الأطهار أنفسهم من أجله، فأكدوا سياسة محاربة الظلم و مقاطعة الظالمين. و لا التقاء بين إمامة الدين التى هى صلة الرسالة و منهج النبوة و بين سلطة الظالمين و القتلة: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .





## تمهيد:

تقدم القول أن عصر الإمام الصادق عليه السلام كان عصر مجادلات و نظر، إذ اتسعت فيه دائرة الخلافات العقائدية، و انتشرت فيه المقالات المختلفة، و ظهرت هناك عقائد و مذاهب لا تتمشى مع روح الإسلام، كما أن شبه الزنادقة و الملحدين قد ظهرت بصورة علنية، و وجد يومئذ من ينكر وجود الله، مستعينا على إثبات وجهة نظره بالمنطق اليوناني، إذ ظهرت نتائج التفاعل الفكري بين المسلمين و حضارة اليونان، و انتشرت مبادئ المنطق اليوناني و الفكر الإغريقي. و دار الجدل و النقاش حول مسائل أهمها مسألة التشبيه و التجسيم و الصفات و مسألة تحمل الإنسان مسؤولية عمله، أو رفع كل مسؤولية عنه، و براءته من كل إثم، إلى غير ذلك من المسائل: كقدم العالم و حدوثه، و فكرة العدل، و الكبائر، مما هو مذكور في أمهات الكتب من الخلافات عند ما ظهرت التيارات المختلفة، التي ارتسمت في آفاق الفكر الإسلامي. و قد رأينا فيما سبق موقف الإمام في ردّ تلك المزاعم، و دفع تلك الشبهات، و أول ما كان يسعى إليه هو إثبات وجود الله و وحدانيته، و علاقة صفاته به، بأدلة عقلية مبتنية على أسس منطقية صحيحة، يحاول فيها إظهار الحق، و كشف الحقيقة بما أوتى من مواهب غزيرة، و مقدره على البيان، فمرة يأتي بأوجز بيان في برهانه مع الوفاء بالقصد، و أخرى يطنب في الدليل و يوضح الحجة، و يسترسل في البيان كما في توحيد المفضل و غيره، فمن إيجازه حينما يسأل عن الدليل على الخالق يقول عليه السلام: «ما بالناس من حاجة».

فما أوجزها من كلمة وأكبرها من حجة، فإننا نجد الناس في حاجة مستمرة في كل شأن من شئون الحياة، وهذه الحاجة تدل على وجود مآل لهم في حوائجهم، غنى عنهم بذاته، وأن ذلك المآل واحد، وإلا لاختلف السير والنظام. ويسأله مرة هشام بن الحكم بقوله: ما الدليل على أن الله واحد؟ فيقول عليه السلام: «اتصال التدبير، وتمام الصنع» (1). وكان ما يوحيه وجود الإمام الصادق من ثقة في النفوس، وما يبعثه من اطمئنان من أكبر عوامل التماسك والاحتفاظ بالارتباط بالأصول وفهم المبادئ الكبرى في العقيدة الإسلامية. و مع ما يتمتع به أفراد مدرسة الإمام الصادق وتلامذته من قدرة على الحجاج والمناظرة، فإن أصالة المنهج وبناء الأسلوب جعلاً من تلك التيارات- التي غمرت الآخرين وراحوا معها متأثرين بها أو مقلدين لها في منهجها مع الاحتفاظ بالمضمون الإسلامي- ضعيفة أمام قوة برهانها، غير قادرة على زحزحة المناظرين والمنافحين عن الفكر الإسلامي، بل إن طريقة الإمام الصادق تمكنت من التحكم في تأثير تلك التيارات وردّها.

### موقف الإمام من الزنادقة و الشبه الفكرية:

وإن موقف الإمام الصادق في الدفاع عن الإسلام في رد شبه الزنادقة والدهرية، وخصومه من أهل الأديان الأخرى- وقد دبجت فيه آلاف الصفحات في مئات الكتب- وهي ثروة فكرية لا غنى لأى أحد من المسلمين عنها، كما أنه عليه السلام قد وجه أصحابه على قدر كفاءتهم ومقدرتهم، ليخوضوا تلك المعارك الفكرية، ويقفوا في صد تلك التيارات والأعاصير، فكانوا خير معين على حل المشاكل الفكرية و ما يتبعها من مشاكل اجتماعية كان الإمام يهتم بها غاية الاهتمام، يقومون بتنفيذ الخطط التي يرسمها لهم، و تحت إشرافه يكون القيام بها و السير عليها، فهو المصدر الأول و المنتهى الأخير لتلك التعاليم التي تقوم بها النخبة الصالحة من أصحابه. فكانت لهم اليد الطولى في خوض تلك المعارك و محاربة أهل الإلحاد و الزندقة و مناظرة أهل العقائد الفاسدة و الفرق الشاذة. و كان عليه السلام ينهى عن الكلام في ذات

ص:394

[1-1] الإمام الصادق للشيخ المظفر نقلا عن توحيد الصدوق. [1]

اللّٰه فيقول: «تكلّموا في خلق اللّٰه، و لا- تتكلّموا في اللّٰه؛ فإنّ الكلام في اللّٰه لا- يزيد صاحبه إلاّ تحيرا». و يقول عليه السّلام لمحّمّد بن مسلم: «يا محّمّد إنّ الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلّموا في اللّٰه، فإذا سمعتم ذلك فقولوا لا إله إلاّ اللّٰه». و يقول عليه السّلام: «تكلّموا في كل شيء، و لا تتكلّموا في ذات اللّٰه». و يقول عليه السّلام: «إياكم و التفكير في اللّٰه، و لكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمتة فانظروا إلى عظيم خلقه». و أشرف عليه السّلام بنفسه على ما يدور بين أصحابه، فأخضع الجدل و المناقشة لأسس تجعل ما يدور عنده مختلفا و متميزا حتى إنه كان لا- يتردد في النهي عن علم الكلام الذي يجري على الأهواء و الرغبات، ففي رواية يونس بن يعقوب قلت: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام و تقول: ويل لأصحاب الكلام، يقولون هذا ينقاد و هذا لا ينقاد، و هذا ينساق و هذا لا ينساق، و هذا نعقله و هذا لا- نعقله، فقال عليه السّلام: «إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولي و ذهبوا إلى ما يريدون به» (1). فهو عليه السّلام يقصد بالنهي: النهي عن الكلام الجدلي الذي تاه به كثير من الناس، لاعتمادهم فيه على خواطر توحيا إليهم نفوس ساقها إلى الكلام حب الغلبة دون أن يستندوا إلى ركن و ثيق، أو يأخذوا هذا العلم من معدنه الصحيح. لقد كان الإمام الصّادق محط آمال الأمة و معقد أمانيتها، و كانت مدرسته يؤمّها كبار العلماء و رجال الفلسفة و طلاب العلوم على اختلاف أنواعها، فهو لم يختص بعلم دون آخر، و لم يقتصر على منهج واحد، فكان كل وارد يجد عنده ما يطلبه، و كل سائل يأخذ عنه أحسن الجواب، لذلك أصبحت الوفود تنهال على مدرسته من جميع الأقطار؛ لأنهم وجدوا فيه المعلّم الصادق و الإنسان الكامل. يقول الأستاذ رمضان لاوند: إن الإمام الصّادق أبا عبد اللّٰه هو نموذج لإنسانية المعرفة في العصر الإسلامي الذهبي، بل بداية رائعة له، هيأت له أسباب هذه الأمة، بالإضافة إلى ذكائه الوقاد و جهوده البالغة في البحث و التأمّل و الدراسة، كان من أولئك الملهمين الذين لا يوجد

ص: 395

التاريخ الإنسانى بهم، إلا فى فترات متباعدة، يضاف إلى هذا أيضا أنه ثمرة من ثمرات أهل البيت النبوى الشريف، ممن كانوا فى الذروة من قادة العرب وأئمتهم. والحق أن إمامته العلمية لم تكن مقصورة على أتباعه كما ذكرت آنفا، فلقد رأينا فى مجموعة الأخبار الواردة فى الفصول السابقة أن عمرو بن عبيد، وهو من رجال السنّة، قد أتاه يسأله عن أمر دينه ويستفتيه فى شئون مختلفة، من الأوامر والنواهي الواردة فى القرآن والسنة، كما أثبتت الأخبار التى أصبحت لها صفة التواتر، وأن أبا حنيفة النعمان، وهو صاحب أحد مذاهب السنّة الأربعة، قد لازمه مدة سنتين من حياته الدراسية، وأن سفيان الثورى، وهو صاحب مذهب من مذاهب السنّة، قد لازمه وناقشه وجاوره، وكان منه كما يكون التلميذ من أستاذه. ولئن كان سواه من علماء العصر العباسى الذين تميزوا بالثقافة الإنسانية الشاملة، قد برز فى علم دون آخر، فإن الإمام الصادق لم يكن فى علم من هذه العلوم مقصرا به عن الآخر أبدا، لقد كانت الركائب تحمل إليه طلاب الحكمة، وأصحاب الفقه والفلسفة، وعلم الكلام، والعلوم الطبيعية، واللغة، والنحو، والصرف، والبيان والآداب فى شعرها ونثرها، والتفسير والسنّة النبوية، وأيام عرب الجاهلية والإسلام. يضاف إلى هذا كله وقار وهيبة واستقامة، وصدق وصراحة، وحسن بيان، وتصرف وقيادة حازمة لأتباعه، وسياسة ماهرة لأنصاره (1). وعلى أى حال فإن الإمام الصادق عليه السلام كان وحيد عصره فى مختلف العلوم والفنون، وظهرت فى شخصيته آثار الوراثة بأجلى صورها، وأبرز معانيها، إذ هو رضيع ثدى الإيمان، ووليد بيت الوحي ووارث علم النبى، وحافظ تراثه. لقد كان عليه السلام عالما من أعلام الهدى ودعاة الرشاد، يدعو للخير ليوجد قوة فعالة تتجه نحو الخير، ليحيى المسلمون حياة طيبة. ومهما تكن العوامل التى اتخذها أعداؤه فى صرف الناس عنه، فإنها لم تؤثر الأثر الذى يطلبونه فى تحويل الناس عنه، إذ العقيدة أكبر مؤثر فى تكوين العقل الإنسانى-رقيا وانحطاطا-فإن الناس لا يجهلون ما لأهل البيت من الأثر العظيم فى المجتمع الإسلامى، وقد منحهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم صفة لا يشاركهم فيها أحد: وهى الاقتران

ص:396

بالكتاب، وعدم افتراقهما إلى يوم القيامة، وقد مرّت الإشارة لذلك. ولقد انهال الناس على مدرسة الإمام الصادق من كل قطر على اختلاف نزعاتهم وآرائهم، فكان هو المعلم الأول، والمرشد الناصح، والمحدث الصادق. وليس بالإمكان حصر أجوبته عن المسائل التي وجهت إليه من طلاب العلم، ولا بيان مناظراته التي ناظر بها أهل الأديان المختلفة والفرق المتفرقة. ونحن هنا نشير للبعض منها لئلا يخلو هذا الكتاب عن إثبات شيء منها: سأله أبو حمزة عما يقال من أن الله جسم. فقال عليه السلام: «سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا يحد، ولا يحس، ولا تدركه الحواس، ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا تخطيط ولا تحديد». ودخل عليه نافع بن الأزرق فقال: يا أبا عبد الله أخبرني متى كان الله؟ فقال عليه السلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان، سبحان من لم يزل ولا يزال فردا صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا». وقال ابن أبي يعفور سألت أبا عبد الله عن قول الله: هو الأول والآخِر، فقلت أما الأول فقد عرفناه، وأما الآخر فبيّن لنا تفسيره. . . فقال عليه السلام: «إنه ليس شيء يبىد أو يتغير ويدخل التغيير والزوال والانتقال من لون إلى لون، ومن هيئة إلى هيئة، ومن صفة إلى صفة، ومن زيادة إلى نقصان، ومن نقصان إلى زيادة، إلا رب العالمين، فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، وهو الأول قبل كل شيء على ما لم يزل، لا تختلف عليه الصفات والأسماء» الحديث. . . (1). وقال محمّد بن مارد لأبي عبد الله عليه السلام: حديث روى لنا أنك قلت: (إذا عرفت فاعمل ما شئت). فقال عليه السلام: «قد قلت ذلك». قال محمّد: وإن زنوا وإن سرقوا أو شربوا الخمر. فقال عليه السلام: «إن الله وإنا إليه راجعون، والله ما أنصفونا أن نكون أخذنا بالعمل ووضع عنهم، إنما قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره».

ص: 397

ومثله عن فضيل بن عثمان: قال: سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام عما روى عن أبيه: (إذا عرفت فاعمل ما شئت) وإن بعضهم يستحل بعد ذلك كل محرّم. فقال عليه السلام: «ما لهم لعنهم الله؟ إنما قال أبي إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منك» (1). وقد كان لإشاعة هذا الحديث من قبل أعداء أهل البيت أثر كبير في نفس الإمام الصادق، فإن أولئك القوم الذين يريدون الوقعة والتشويه قد تأولوا هذا الحديث، وقلبوا حقيقته، وأذاعوا بين العامة أن معرفة الإمام كافية عن العمل، وقالوا: إنما الدين المعرفة، فإذا عرفت الإمام فاعمل ما شئت. وقد اهتم الإمام الصادق عليه السلام لهذه الإشاعة الكاذبة، والتأويل الباطل، فأعلن البراءة ممن ذهب لذلك، ولعنهم على رءوس الأشهاد، وبسط القول في معنى هذا الحديث ومدلوله، وقال عدة مرات: «إنا لله وإنا إليه راجعون، تأول الكفرة ما لا يعلمون، وإنما قلت: أعرف واعمل ما شئت من الطاعة، فإنه مقبول منك، لأنه لا يقبل الله عملاً من عامل بغير معرفة، لو أن رجلاً عمل أعمال البر كلها، وصام دهره، وقام ليله، وأنفق ماله في سبيل الله، وعمل بجميع طاعة الله، ولم يعرف نبيه الذي جاء بتلك الفرائض، فيؤمن به و يصدقها، وإمام عصره الذي افترض الله طاعته فيطيعه، لم ينفعه الله بشيء من عمله، قال الله عزّ وجلّ في مثل هؤلاء: وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا». وكتب إلى الآفاق بذلك كتاباً قال فيه: «وإنما يقبل الله العمل من العباد بالفرائض التي افترضها عليهم، بعد معرفة من جاء بها من عنده، ودعاهم إليه: فأول ذلك معرفة من دعى إليه، وهو الله الذي لا إله إلا هو، وتوحيده، والإقرار بربوبيته، ومعرفة الرسول الذي بلغ عنه، وقبول ما جاء به، ثم معرفة الأئمة بعد الرسول الذين افترض طاعتهم في كل عصر وزمان على أهله، والإيمان والتصديق بجميع الرسل والأئمة، ثم العمل بما افترض الله عزّ وجلّ على العباد من الطاعات، ظاهراً وباطناً، واجتناب ما حرّم الله عزّ وجلّ عليهم ظاهراً وباطناً» الخبر (2).

ص: 398

1-1 (1) الوسائل ج 1 ص 116، ص 117. [1]

2-2 (2) الوسائل ج 1 ص 139.

وقال سليمان بن مهران: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ؟ فقال عليه السلام: «يعنى ملكه لا يملكها معه أحد» والقبض من الله تعالى فى موضع آخر المنع، والبسط منه الإعطاء والتوسع، كما قال عزّ وجلّ: وَاللَّهُ يَبْضُغُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يعنى يعطى ويوسع ويمنع، والقبض منه عزّ وجلّ فى وجه آخر الأخذ، والأخذ فى وجه القبول منه كما قال تعالى: وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ أَى يقبلها من أهلها ويثيب عليها». قال سليمان فقلت: فقوله تعالى: وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ؟ قال عليه السلام: «اليمين اليد، واليد القدرة والقوة، فقوله عزّ وجلّ: وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ أَى بقدرته وعونه، سبحانه وتعالى عما يشركون». وسأله هشام بن الحكم بقوله: ما الدليل على أن الله واحد؟ فقال عليه السلام: «اتصال التدبير وتمام الصنع». وسأله أبو شاعر الديصانى بقوله: ما الدليل على أن لك صناعا؟ فقال عليه السلام: «وجدت نفسى لا تخلو من إحدى جهتين: إما أكون صنعتها أنا أو صنعتها غيرى، فإن كنت صنعتها فلا أخلو من أحد معينين، إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة، فقد استغنيت عن صنعتها، وإن كانت معدومة فإنك تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئا، فقد ثبت المعنى الثالث أن لى صناعا، وهورب العالمين». فقال الديصانى و ما أحرار جوابا. وعنه عليه السلام فى جواب من سأله عن معنى قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى قال: «استوى من كل شىء، فليس شىء أقرب إليه من شىء، لم يبعد منه بعيد، ولم يقرب منه قريب»، ثم قال: «من زعم أن الله عزّ وجلّ من شىء أو فى شىء أو على شىء فقد كفر». فقال له السائل: فسّر لى ذلك. فقال عليه السلام: «من زعم أن الله من شىء فقد جعله محدثا، و من زعم أنه فى شىء فقد جعله محصورا، و من زعم أنه على شىء فقد جعله محمولا». و سئل عن شبهة المجسمة فقال عليه السلام:



«إن الجسم محدود متناه، و الصورة محدودة متناهية، فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة و النقصان، وإذا احتمل الزيادة و النقصان كان مخلوقاً». فقال السائل: فما أقول؟ فقال عليه السلام: «لا جسم ولا صورة، و هو مجسم الأجسام، و مصور الصور، لم يتجزأ، و لم يتناه، و لم يتزايد، و لم يتناقص، لو كان كما يقولون لم يكن بين الخالق و المخلوق فرق و لا بين المنشئ و المنشأ» (1). و قال عليه السلام: «فمن زعم أن الله في شيء أو على شيء، أو يحول من شيء إلى شيء، أو يخلو منه شيء، أو يشتغل به شيء؛ فقد وصفه بصفة المخلوقين، و الله خالق كل شيء لا يقاس بالقياس، و لا يشبه الناس، لا يخلو منه مكان، و لا يشغل به مكان، قريب في بعده، بعيد في قربيه، ذلك الله ربنا لا إله غيره» (2). و سأله سليمان بن مهران الأعمش: هل يجوز أن نقول أن الله عزّ و جلّ في مكان؟ فقال عليه السلام: «سبحان الله و تعالى عن ذلك، إنه لو كان في مكان لكان محدثاً، لأن الكائن في مكان محتاج إلى المكان، و الاحتياج من صفات المحدث لا من صفات القديم». و سئل عليه السلام عن قوله عزّ و جلّ: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ قال عليه السلام: «يعنى أرشدنا إلى الطريق المؤدى إلى محبتك، و المبلغ إلى دينك، و المانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك» (3). قال هشام بن الحكم: كنت عند الإمام الصادق عليه السلام إذ دخل عليه معاوية بن وهب، و عبد الملك بن أعين، فقال له معاوية: يا ابن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم ما تقول في الخبر الذي روى أن رسول الله رأى ربّه؟ على أي صورة رآه؟ و عن الحديث الذي رووه أن المؤمنين يرون ربهم في الجنة، على أي صورة يرونه؟ فتبسم عليه السلام ثم قال: «يا معاوية ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله و يأكل من نعمه، ثم لا يعرف الله حق معرفته!»

ص:400

- 
- 1-1) الكافي باب النهي عن الجسم و الصورة. [1]  
2-2) البحار ج 3 ص 90. [2]  
3-3) الإمام الصادق لرمضان لاوند ص 63. [3]

ثم قال: «يا معاوية إن محمدا لم ير الرب تبارك وتعالى بمشاهدة العيان، وإن الرؤية على وجهين: رؤية القلب ورؤية البصر، فمن عنى برؤية القلب فهو مصيب، ومن عنى برؤية البصر فقد كفر بالله وآياته، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من شبّه الله بخلقه فقد كفر. ولقد حدثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي عليهما السلام: سئل أمير المؤمنين عليه السلام فقيل له: يا أبا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: وكيف أعبد من لم أره؟ لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، فإذا كان المؤمن يرى ربه بمشاهدة البصر فإن كل من جاز عليه البصر فهو مخلوق، ولا بد للمخلوق من الخالق. فقد جعلته إذن محدثا مخلوقا، ومن شبهه بخلقه فقد اتخذ مع الله شريكا. ويلهم أو لم يسمعوا بقوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ وقوله: لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ إِسْمَهُ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَإِنَّمَا طَلَعَ مِنْ نوره على الجبل كضوء يخرج من سم الخياط، فدكت الأرض، وصعقت الجبال، فخرّ موسى صعقا، فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك من قول من زعم أنك ترى، ورجعت إلى معرفتي بك، إن الأبصار لا تدركك، وأنا أول المؤمنين وأول المقربين بأنك ترى ولا ترى وأنت بالمنظر الأعلى». ثم قال عليه السلام: «إن أفضل الفرائض وأوجبها معرفة الرب، والإقرار له بالعبودية، وحد المعرفة أن يعرف أنه لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير، وأن يعرف أنه قديم مثبت موجود غير مقيد، موصوف من غير شبيه، ليس كمثل شئ وهو السميع البصير، وبعده معرفة الرسول والشهادة بالنبوة». وله عليه السلام كثير من الحجج في الرد على من جوزوا الرؤية لله في البصر سواء في الدنيا أو في الآخرة، لأنهم اختلفوا في ذلك، إذ جوزها قوم في الدنيا والآخرة، ومنعها آخرون في الدنيا وأجازوها في الآخرة، كما هو مذهب الشافعي. وذهب أهل البيت عليهم السلام إلى استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة، وعدم إمكانها مطلقا لأنه تعالى لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (1). لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا، كالأجسام والهيئات، وعلل

ص: 401

ذلك بأن الباصرة لا تكون في حيز الممكنات ما لم تتصل أشعة البصر بالمرئي ويمتنع اتصال شيء بذاته جلّ وعلا. ولما اشتهرت مقالة المفوضة: وهم الذين يقولون بتفويض الأفعال إلى المخلوقين، ورفعوا عنها قدرة الله وقضاءه، عكس المجبرة الذين أسندوا الأفعال إليه تعالى، وأنه أجبر الناس على فعل المعاصي، وأجبرهم على فعل الطاعات، وأن أفعالهم في الحقيقة أفعاله، فكان أثر هاتين الفكرتين سيئا في المجتمع الإسلامي. فتصدى الإمام عليه السلام لرد هؤلاء، وأعلن العقيدة الصحيحة في جوابه البليغ ورده الشهير وهو قوله: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين». و خلاصته: أن أفعالنا-من جهة-هي أفعالنا وتحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرى هي مقدورة لله تعالى، داخلية تحت سلطانه فلم يجبرنا على أفعالنا، حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي، لأن لنا القدرة على الاختيار في ما نفعل، ولم يفوض إلينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق والأمر وهو قادر على كل شيء ومحيط بالعباد. وبهذا تعتقد الشيعة، ومذهبهم وسط بين المذهبين كما بيّنه أئمة الهدى ودلت عليه كلمة الإمام الصادق عليه السلام في جوابه هذا. وقال محمّد بن عجلان: قلت لأبي عبد الله الصادق: فوض الله الأمر إلى العباد؟ فقال عليه السلام: «الله أكرم من أن يفوض إليهم». قلت: فأجبر العباد على أفعالهم؟ فقال عليه السلام: «الله أعدل من أن يجبر عبدا على فعل، ثم يعذبه عليه». وبلغه عليه السلام مقالة الجعد بن درهم (1) وهي أنه جعل في قارورة ترابا وماء، فاستحال دودا وهواما، فقال الجعد: أنا خلقت هذا لأنى سبب كونه.

ص: 402

1-1) الجعد بن درهم: أصله من خراسان، ويقال أنه من موالى بنى مروان، سكن دمشق وكانت له بها دار، وإليه ينسب مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية، لأنه كان معه أو مؤدبه، فيقال: مروان الجعدى؛ والجعد هو أول من أظهر القول بخلق القرآن، وقد غضب عليه بنو أمية فتطلبوه وهرب إلى الكوفة، فقبض عليه خالد القسرى فقتله يوم الأضحى سنة 124 هـ وقال للناس: ضحوا يقبل الله منكم فإني مصح بالجعد. فنزل إليه وذبحه تحت المنبر.

فقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ليقل كم هي وكم الذكران و الإناث إن كان خلقها، و كم وزن كل واحدة منهنّ، و ليأمر الذى سعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره» (1)! . قال ابن حجر: فبلغه ذلك-أى قول الإمام الصادق-فانقطع ورجع. و سأله سدير الصيرفى عن معرفة الله تعالى. فأجابه عليه السلام عن المعرفة بالوهم، و المعرفة بالاسم، و المعرفة بالصفة، و فصل له جميع هذه الأنواع، و ذكر له المعرفة الصحيحة. ثم ذكر صفة الإيمان الصحيح، و كيف يصبح الرجل مؤمنا حقا، و أن ذلك لا يحصل إلا بالإقرار و الخضوع لله و التقرب إليه، و الأداء له بما فرض من صغير و كبير. ثم أخذ فى التفصيل و البيان، و ذكر بعد ذلك صفات الإسلام العامة، و الأشياء التى يستحق الإنسان بها إطلاق الإسلام عليه. ثم ذكر أسباب الخروج من الإيمان، و ذكر معنى الفسق، و بين الكبائر التى يكون بها فساد الإيمان إلى آخر ما ذكر فى الجواب عن ذلك تفصيلا (2).

### طرق معيشة العباد:

و سأله سائل فقال: كم جهات معاش العباد التى فيها الاكتساب و التعامل و وجوه النفقات؟ فقال عليه السلام: «جميع المعاش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيها المكاسب أربع جهات من المعاملات». فقال السائل: أكلّ هذه الأربع جهات حلال، أو كلها حرام، أو بعضها حلال و بعضها حرام؟ فقال عليه السلام: «فى هذه الأجناس الأربعة حلال من جهة، و حرام من جهة، و هذه الأجناس معروفة، فأول هذه الجهات الأربع: الولاية و تولية بعضهم على بعض.

ص: 403

1-1) لسان الميزان لابن حجر ج 2 ص 105.

2-2) تحف العقول ص 325-329.

ثم التجارة في جميع البيع والشراء بعضهم من بعض، ثم الصناعات من جميع صنوفها. ثم الإجازات، وكل هذه تكون حلالاً من جهة وحرماً من جهة، والفرص من الله على العباد في هذه المعاملات: الدخول في جهات الحلال منها، والعمل بذلك الحلال واجتتاب جهة الحرام منها». ثم أخذ عليه السلام في التفصيل: فذكر الولاية وقسمها إلى حلال، وهي ولاية ولاية العدل الذين أمر الله بولايتهم وتوليتهم على الناس. وأما الحرام منها، فهي الولاية لأئمة الجور والعمل لهم، والكسب معهم بجهة الولاية لهم، فهو حرام ومحرم، معذب من فعل ذلك قليلاً أو كثيراً. وعلل ذلك عليه السلام بأن ولاية الوالي الجائر دروس للحق كله، وإحياء الباطل كله، وإظهار الظلم والفساد، وإبطال الكتب، وهدم المساجد، وتبديل سنة الله وشرائعه، ولذلك حرم العمل معهم ومعونتهم، والكسب معهم إلا بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم والميتة. ثم ذكر التجارة وما يحل من البيع وما يحرم منه، فالحلال ما هو غذاء العباد وقوامهم في أمورهم، في وجوه الصلاح الذي لا يقيمهم غيره إلى آخر بيانه في ذلك. والحرام منه هو كل أمر يكون فيه الفساد مما هو منهي عنه من جهة أكله وشربه، أو كسبه أو نكاحه، أو ملكه، أو إمساكه، أو هبته أو عاريته. ثم ذكر عليه السلام بقية الجهات من الصناعة والإجارة، ووجوه إخراج الأموال وإنفاقها وما يحل للإنسان أكله وما لا يحل، وما يجوز من اللباس وما لا يجوز، إلى آخر بيانه وتفصيله في جوابه لسائله.

### سلوك الوالي مع الرعية:

وسأله عبد الله النجاشي (1): عمّا يقربه إلى الله تعالى وإلى رسوله بما يعمل في ولايته مع الرعية.

ص:404

---

1-1) هو أبو بجير عبد الله بن غنيم بن سمعان الأسدي البصري. كان والياً للمنصور على الأهواز، وكان يرى رأى الزيدية، وقدم المدينة و دخل على الإمام الصادق، و [1]سأله بمسائل عديدة فخرج منه وقد عدل عن رأيه وقال: هذا عالم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا زال يراسل الإمام ويسأله عن أهم الأمور.

فأجابه عليه السّلام بجواب طويل ورسالة مفصلة منها قوله: «فإني ملخص لك جميع ما سألت منه، إن أنت عملت به ولم تجاوزه رجوت أن تنجو إن شاء الله تعالى؛ أخبرني أبي عن آبائه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم يمحصه النصيحة سلبه الله لبه، واعلم أني سأشير عليك برأى إن أنت عملت به تخلصت مما أنت متخوفه، واعلم أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء، وكفّ الأذى عن أولياء الله، والرفق بالرعية، والتأني وحسن المعاشرة، مع لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، ومداراة صاحبك ومن يرد عليك من رسله، وارتق فتق رعيتك بأن توافقهم على ما وافق الحق والعدل إن شاء الله. وإياك والسعاة وأهل النمائم، فلا يلتزقنّ منهم بك أحد، ولا يراك الله يوماً و ليلة وأنت تقبل منهم صرفاً ولا عدلاً فيسخط الله عليك. . . .» ومنها: «ولا تستصغرنّ من حلوا أو فضل طعام تصرفه في بطون خالية، ليسكن بها غضب الله تبارك وتعالى، واعلم أني سمعت من أبي يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنه سمع النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانا و جاره جائع. فقالوا: هكلنا يا رسول الله. فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: من فضل طعامكم ومن فضل تمركم و رزقكم تطفون بها غضب الرب. . . يا عبد الله إياك أن تخيف مؤمنا، فإن أبي محمّد حدّثني عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب أنّه كان يقول: من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها، أخافه الله يوم لا ظل إلا ظله». ثم أخذ عليه السّلام يوجه له نصائحه، ويذكر له مكارم الأخلاق وما يلزم أن يتحلى بها كل مسلم، ويروي له أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في ذلك، ويختم جوابه بقوله: «أوصيك بتقوى الله، وإيثار طاعته، والاعتصام بحبله، فإنه من اعتصم بحبل الله فقد هدى إلى صراط مستقيم، فاتق الله ولا تؤثر أحدا على رضاه، واعلم بأن الخلائق لم يوكلوا بشيء أعظم من التقوى، وأنه وصيتنا أهل البيت، فإن استطعت ألا تنال شيئا من الدنيا تسأل عنه غدا فافعل». وذكر الحلواني في نزهة الناظر أن كاتب المهدي المعروف بأبي عبد الله سأل الإمام الصادق عما يستطيع به مداراة السلطان وتبدير أمره، فأجابه الإمام عليه السّلام بما يرشده لذلك، وشرح له طرق السلوك في مداراة السلطان، وأوصاه بأمر هامة،

و نصحه فى أشياء كثيرة، و لا يخفى أن السائل كان كاتباً للمهدى و هو فى ولاية عهده، و كان ممن يوالى أهل البيت شأنه شأن كثير من القواد و الأمراء و الكتّاب، الذين دخلوا فى سلطان بنى العباس لمساعدة الضعفاء، و دفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم.

## التوحيد فى أجوبة الإمام للمفضل بن عمر:

### إشارة

و هو جوابه للمفضل بن عمر (1) حينما سمع كلام ابن أبى العوجاء و إنكاره للصانع، فناظره المفضل، ثم بادر إلى الصادق عليه السلام و طلب منه أن يملى عليه ما يقوى به على مناظرة الزنادقة، فأجابه بتلك الدروس القيمة، و الحكم النافعة، التى تحتوى على دلائل التوحيد، و محكم البراهين على وجود الصانع الحكيم، من بيان هيئة العالم، و تأليف أجزائه، مما يلزم الكل رفض فكرة المصادفة فى تجمع هذه الكائنات، و فكرة خلود المادة التى يقول بها الدهرية و الملحدون. و بعد ذلك ذكر كيفية خلق الإنسان و تكوينه، و كيفية ولادته و تغذيته، و غرائزه، و طبائعه، و بيان الدماغ و عظمته، و ما فيه من سائر الأعضاء من عجب الصنع، و عظيم القدرة، إلى آخر ما يتعلّق بالحلقة الأولى من حديثه، و هو المجلس الأول. و فى الحلقة الثانية تحدث عن الحيوان و أنواعه، و الحكمة فى خلقه مفصلاً موضحاً، مفنداً أقوال الخصوم، ثم ربط تفصيله لخصائص الكائنات الحية، أنواعها و طبقاتها بفكرة الله و وجود الخالق و المخلوق. و فى اليوم الثالث بدأ يملى حلقة الثالثة فتحدث مطولاً عن نظام الكواكب العجيب، و عقلانية تنظيم الأجواء، و علاقة الإنسان بهذه و تلك، رابطاً هذا كله أيضاً بفكرة الوجود الإلهى و وحدانية الله. و فى اليوم الرابع تحدّث عن الأوبئة و الأمراض، و الآفات المختلفة التى تصيب الإنسان، و الحيوان و النبات، و عقلانية علاقتها بخالق الوجود و وحدانيته أيضاً.

ص: 406

1- 1) هو أبو عبد الله المفضل بن عمر الجعفى الكوفى، ولد فى الكوفة فى نهاية القرن الأول أيام الإمام الباقر عليه السلام و توفى فى أواخر القرن الثانى عن عمر يناهز الثمانين سنة، و قد أدرك أربعة من أئمة أهل البيت، و هم: الباقر، و الصادق، و الكاظم، و الرضا عليهم السلام. و لم يرو عن الباقر لأنه كان صغيراً فى أيامه، و اتصل بالإمام الصادق اتصالاً وثيقاً، و كان من ثقة أصحابه، و كان وكيلاً على أمواله بعد موت عبد الله بن أبى يعفور.

ونرى من اللازم الإشارة لذلك اختصاراً إذ لا سبيل لنقل النصوص كاملة كما وردت لطولها، ولذلك نكتفى بذكر البعض من آيات علم الإمام الصادق التي تحوى خصائص منطقته ومزايا أسلوبه في بحث دلائل التوحيد من خلال عرض الدقائق التي ليس بمقدور الآخرين التعرف عليها، فضلاً عن التدليل وجعلها مادة في المناظرة، ولا بد لهذه الأجوبة أن تجد حظها من البحث والبيان فهي من آثار الإمام التي يجدر بالباحثين تناول مضامينها ومنهجها الذي قامت عليه.

### المجلس الأول في خلق الإنسان:

قال عليه السلام بعد أن ذكر الملحدين وأسباب شكهم وتهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه: «نبتدى يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى، ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات، فلا يزال ذلك غذاءه حتى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه، وقوى أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقات الضياء، هاج الطلق بأمه، فأزعجه أشد إزعاج وأعنفه حتى يولد، وإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها، فانقلب ذلك الطعام واللون إلى ضرب آخر من الغذاء، وهو أشد موافقة للمولود من الدم، فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد تلمظ وحرك شفثيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدى أمه كإداوتين لحاجته إليه، فلا يزال يغتذى باللبن ما دام رطب البدن رقيق الأمعاء لين الأعضاء، حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشدد ويقوى بدنه، طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس، ليمضغ بها الطعام ويسهل له إساغته، فلا يزال كذلك حتى يدرك. . .». ثم قال عليه السلام: «اعتبر يا مفضل فيما يدبر الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل يمكن أن تكون بالإهمال؟». إلى أن يقول عليه السلام: «فمن هذا الذي يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآب؟ إلا الذي أنشأه خلقاً بعد أن لم يكن، ثم توكل له بمصلحته بعد أن كان، فإن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير فقد كان يجب أن يكون العمد والتقدير يأتیان بالخطأ والمحال، لأنهما ضد الإهمال، وهذا فطيع من القول،



و جهل من قائله، لأن الإهمال لا- يأتى بالصواب، و التضاد لا يأتى بالنظام، تعالى الله عما يقول الملحدون علوا كبيرا». ثم قال عليه السلام: «و لو كان المولود يولد فاهما عاقلا لأنكر العالم عند ولادته، و لبقى حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، و ورد عليه ما لم ير مثله، من اختلاف صور العالم من البهائم و الطير، إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد ساعة و يوما بعد يوم. ثم لو ولد عاقلا كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولا مرضعا، معصبا بالخرق مسجى فى المهد لأنه لا يستغنى عن هذا كله لرقه بدنه و رطوبته حين يولد، ثم لا يوجد له من الحلاوة و الوقع من القلوب ما يوجد للطفل، فصار يخرج إلى الدنيا غيبيا غافلا عما فيه أهله، يتلقى الأشياء بذهن ضعيف، و معرفة ناقصة، ثم لا يزال يتزايد فى المعرفة قليلا قليلا، و شيئا بعد شىء، و حالا بعد حال، حتى يألف الأشياء و يتمرن و يستمر عليها، فيخرج من حد التأمل لها و الحيرة فيها إلى التصرف و الاضطرار إلى المعاش بعقله و حيلته، و إلى الاعتبار و الطاعة، و السهو و الغفلة و المعصية، و فى هذا أيضا وجه آخر: فإنه لو كان يولد أتم العقل مستقلا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، و ما قدر أن يكون للوالد فى الاشتغال بالولد من المصلحة، و ما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر، و العطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلك منهم، ثم كان الأولاد لا يألون آباءهم، و لا يألون الآباء أبناءهم، لأن الأبناء إذا كانوا يستغنون عن تربية الآباء و حياطتهم، فيتفرون عنهم حين يولدون، فلا يعرف الرجل أباه و أمه». ثم ذكر عليه السلام فوائد البكاء للطفل، و ساق البيان إلى ذكر أعضاء البدن على الشكل الموجود. فقال المفضل: يا مولاي إن قوما يزعمون أن هذا من فعل الطبيعة. فأجابه الإمام عليه السلام: «سلهم عن هذه الطبيعة أهى شىء له علم و قدرة على هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم و القدرة، فما يمنعهم من إثبات الخالق، فإن هذه صفته، و إن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم و لا عمد، و كان فى أفعالها ما قد تراه من الصواب و الحكمة، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، و أن الذى سموه طبيعة هو سنته فى خلقه الجارية على ما أجراه عليه». و يستمر عليه السلام فى بيان وصول الغذاء إلى البدن، و كيفية انتقال صفوه من

المعدة إلى الكبد، في عروق رقاق، ثم كيفية تقسيمه في البدن، و بروز الفضلة منه، و ذكر نشوء الأبدان و نموها، و الحواس التي خصّ الله بها الإنسان. إلى أن يقول: «لورأيت تمثال الإنسان مصورا على حائط فقال لك قائل: إن هذا ظهر هاهنا من تلقاء نفسه، لم يصنعه صانع. أ كنت تقبل ذلك؟ بل كنت تستهزئ به، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور جماد، و لا تنكر في الإنسان الحي الناطق؟» ثم أخذ في البيان عن خلقه الإنسان و عجب صنعه و ما أودع فيه من القوى.

### المجلس الثاني في ذكر الحيوان:

قال عليه السلام: «ابتدى لك بذكر الحيوان ليتضح لك من أمره ما وضح لك من غيره، فكر في أبنية الحيوان و تهيتها على ما هي عليه، فلا هي في صلابة كالحجارة، و لو كانت كذلك لا تنشى و لا تتصرف في الأعمال، و لا هي على غاية اللين و الرخاوة، فكانت لا تتحمل و لا تستقل بأنفسها، فجعلت من لحم رخو ينشى، تتداخله عظام صلاب، يمسكه عصب، و عروق تشده، و تضم بعضه إلى بعض، غلفت فوق ذلك بجلد يشمل على البدن كله». إلى أن يقول عليه السلام: «و فكر بعد هذا في أجساد الأنعام، فإنها خلقت على أبدان الإنس من اللحم، و العظم و العصب، و أعطيت السمع و البصر، ليبلغ الإنسان حاجياته منها، و لو كانت عميا صما لما انتفع بها الإنسان، و لا تصرفت في شىء من مآربه، ثم منعت الذهن و العقل لتدل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا كدّها الكدّ الشديد». ثم أخذ عليه السلام يذكر مميزات كل نوع من أنواع الحيوان الثلاثة و هي: الإنسان، و آكلات اللحوم، و آكلات النبات، و ما يقتضى كل نوع منها حاجته، من كيفية الأعضاء و الجوارح، فيأتيك بلطائف الحكمة و بدائع القدرة. ثم يستمر عليه السلام في كلامه للذرة، و النملة، و الليث. و استطرذ ذكر الطائر و كيف خفف جسمه، و أدمج خلقه، و جعل له جؤجؤا ليسهل عليه أن يخرق الهواء، إلى غير ذلك من خصوصيات خلقته، و هكذا في خلق تلك الخصوصيات، و يستطرذ الحكمة في خصوصيات خلقة الدجاجة، ثم العصفور، ثم الخفاش، ثم النحل و غيرها من صغار الطيور، و ما جعل الله فيها من الطبائع، و الفطن، و الهداية لطلب الرزق.

ثم استعرض خلق السمك و مشاكلته للأمر الذى قدر أن يكون عليه فيقول: «فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق، وقصر علم المخلوقين، فانظر إلى ما فى البحار من ضروب السمك، ودواب الماء، والأصداف، والأصناف، التى لا تحصى منافعها إلا الشئ بعد الشئ، يدركه الناس بأسباب تحدث». ثم ينهى كلامه على وحدانية واجب الوجود.

### المجلس الثالث فى ذكر السماء:

قال عليه السلام بعد أن تحدث عن السماء ولونها، وما فيها من صواب التدبير وعظم الحكمة: «فكر يا مفضل فى طلوع الشمس وغروبها، لإقامة دولتى الليل والنهار، فلو لا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فلم يكن الناس يسعون فى معاشهم ويتصرفون فى أمورهم والدينا مظلمة عليهم، ولم يكن يتهننون مع فقدهم لذة النور وروحه، والإرب فى طلوعها ظاهر، مستغن بظهوره عن الاطباب فى ذكره والزيادة فى شرحه، بل تأمل المنفعة فى غروبها، فلو لا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة، لسكون أبدانهم وجوم حواسهم، وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل ومطاولته، على ما يعظم نكايته فى أبدانهم، فإن كثيرا من الناس لو لا جثوم هذا الليل لظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء ولا قرار، حرصا على الكسب والجمع والادخار، ثم كانت الأرض تستحمى بدوام الشمس، وتحمى كل ما عليها من حيوان ونبات، فقدّرها الله بحكمته وتدبيره، تطلع وقتا وتغرب وقتا». ثم تعرض لبعض العقاقير وخواصها ومنافعها إلى آخر الفصل.

### المجلس الرابع فى ذكر آفات الدهر:

تحدث فيه عليه السلام عن الآفات الحادثة فى بعض الأزمان التى اتخذها الناس من الجهال ذريعة إلى جحود الخالق والخلق، وأنكرت المعطلة والمانوية من المكاره والمصائب وما أنكروه من الموت والفناء، إلى أن انتهى فى البيان إلى الخالق فى شبه الملحدين، إلى آخر بيانه ونير برهانه، وقال فى آخر كلامه للمفضل: «خذ ما آتيتك وكن لله من الشاكرين، فقد شرحت لك من الأدلة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير، قليلا من كثير، وجزءا من كل، فتدبره وفكر فيه واعتبر به».

ولهذه الأجوبة-الموجزة والمطولة منها-أمثال كثيرة منشورة في كثير من الكتب بمختلف العلوم من تفسير وفقه، وحكمة و كلام و طب، و غير ذلك، و قد اقتصرنا على هذا القدر في ناحية واحدة و هي ناحية التوحيد، و ما يتعلّق بصفاته تعالى مما هو مذكور في محله بكثرة، و قد تركنا الكثير منها نظراً لما ألزمتنا أنفسنا من الاختصار.

### مناظرات الإمام حول الإسلام و مبادئه:

أما مناظراته و احتجابه على كثير من أهل الأديان المختلفة؛ و الفرق المتعددة، فهي كذلك في الكثرة و التعدد بمختلف العلوم و شتى المواضيع، فقد ناظر عليه السّلام علماء الأديان الأخرى حول الإسلام و نبيه، بأسلوب الإقناع و الحجّة الدامغة. و كذلك ناظر المرتابين و أهل الزيغ و الضلال و الملحدين و الزنادقة، بمناظرات عديدة يدعوهم فيها إلى سبيل الله و توحيده، و نبذ الخضوع لغير الله، و عدم الشرك به، ليخرجهم بذلك من الظلمات إلى النور، و يهديهم إلى صراط مستقيم، و الاستقامة عليه، بأسلوب قوى نافذ للعقول و القلوب معاً، مراعيًا في ذلك قابلية المخاطب و استعداده. و له مناظرات كثيرة مع رؤساء الفرق الإسلامية، من معتزلة و مجسمة، و قدرية و جبرية، و مفوضة، و غيرهم. و هو يحاول بذلك نبذ الآراء المختلفة، و ترك الهوى و الانقسام في الدين، و التفرّق فيه، فكان له عليه السّلام من الحجج البوالغ ما رفع به العذر، و أزال الريب، و على سبيل المثال نذكر بعضاً من مناظراته، و من أراد الاستزادة فليرجع إلى كتب العقائد و الكلام و الحديث، فقد تضمنت الشئ الكثير منها. جاء أحد الزنادقة ممن يثون الشبهات حول الدين إلى الإمام الصادق و هو في البيت الحرام، و بعد أن قابله و تبادل حديثاً قصيراً قال له الإمام عليه السّلام: «انتظر حتى أفرغ من الطواف، ثم ائتنا نحدثك فنرى ما عندك». و لما فرغ أبو عبد الله من طوافه و صلاته، أتاه الرجل و جلس و تلامذة الإمام- و منهم هشام بن الحكم- مجتمعين عنده. فقال أبو عبد الله عليه السّلام: «أتعلم أن للأرض فوقاً و تحتاً؟» قال: نعم. قال أبو عبد الله: «فهل دخلت تحتها؟»

قال: لا. قال الإمام عليه السلام: «ما يدريك ما تحتها؟» قال: لا أدري إلا أنى أظن أن ليس تحتها شيء. قال أبو عبد الله: «فالظن عجز، فلم لا تستيقن؟». ثم أردف الإمام الصادق يقول: «أفصعدت إلى السماء؟» قال: لا. قال: «أفتدري ما فيها؟» قال: لا. قال الإمام عليه السلام: «عجبا لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب، ولم تصعد إلى السماء ولم تجز هناك، فلم تعرف ما خلفهنّ وأنت مع ذلك جاحد بما فيهنّ؟؟» ثم قال عليه السلام: «أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل، فيا عبد الملك -وهو اسم الرجل- افهم عتًا فإنا لا نشك في الله أبدا، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان فلا يشتبهان، ويرجعان واضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما؟ فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم لا يصير الليل نهارا والنهار ليلا؟ لقد اضطرا إلى دوامهما، والذي اضطرهما هو أعظم منهما وأكبر». ثم أخذ عليه السلام يناظره في أمور كثيرة حتى أدّى به الأمر إلى الاعتراف بخطئه ورجع عن مقالته، فأمر الإمام عليه السلام هشام بن الحكم أن يتولى توجيهه (1). وله مناظرات مع ابن أبي العوجاء (2) في التوحيد وغيره، وكان ابن أبي العوجاء

ص: 412

---

1-1) كتاب الإمام الصادق للأستاذ رمضان لاوند ص 183-185. وكتاب حياة الإمام الصادق للسببتي ص 77-79. وكتاب الإمام الصادق للشيخ المظفر ج 1 ص 211-212.

2-2) ابن أبي العوجاء: هو عبد الكريم بن أبي العوجاء، خال معن بن زائدة، وكان من الزنادقة المشهورين، يقول جرير بن حازم: كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: واصل بن عطاء، وعمر بن عبيد، وبشار بن برد، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد. فكانوا يجتمعون في مجلس الأزد، فأما عمرو وواصل فقد صارا إلى الاعتزال، وأما عبد الكريم وصالح فصححا الثنوية، وأما بشار فبقى متحيرا، وكان عبد الكريم يفسد الأحداث، فتهدده عمر بن عبيد، فلحق بالكوفة، فدل عليه محمد بن سليمان، فقتله وصلبه وذلك سنة 161 هـ ولما أخذ لتضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحلّ الحرام. لسان الميزان ج 4 ص 51-52.

من الزنادقة المشهورين، وقتل على الزندقة، و اعترف عند قتله بدسّه الأحاديث الكاذبة فى أحاديث النبى صّلّى الله عليه وآله وسلم. فمن تلك المناظرات: أنّه كان هو وابن المقفع (1) فى المسجد الحرام يلاحظان الجمع الذى كان يقوم بالطواف حول الكعبة، فقال ابن المقفع لأصحابه: لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلاّ هذا الشيخ الجالس (وأشار إلى جعفر بن محمّد الصّادق) أما الباقر فرعاع وبهائم، فقام ابن أبى العوجاء إلى الشيخ و تحدث معه ثم رجع وقال: ما هذا ببشر! وإن كان فى الدنيا روحانى يتجسد إذا شاء ظاهرا، و يتروح إذا شاء باطنا فهو هذا. و حينما اقترب من الإمام و أصبحا منفردين قال له الإمام الصّادق: «لو كان الأمر كما يقول هؤلاء (وأشار إلى الجمع القائم بالطواف) - و هو حق كما يقولون-نجا هؤلاء و عطبتهم، أما إذا انعكس الحال و كان على ما تقولون-و هو ليس كما تقولون-فأنتم و إياهم سواء». فسأله ابن أبى العوجاء: رحمك الله أيها الشيخ أى شىء نقوله نحن، و أى شىء يقولونه هم؟ فأجابه الإمام جعفر: «أنى لما تقولون أن يكون كما يقولون!؟ هم يقولون بالمعاد، و الوعد و الوعيد، و أن للسماء إلهًا، و بها عمرانًا، بينما تزعمون أن السماء خراب و ليس بها أحد». فقال ابن أبى العوجاء: لو كان الأمر كما تقول، فما منع الله من الظهور لجميع خلقه، و دعوتهم إلى عبادته حتى لا يصيح اثنان فيهم على خلاف؟ لما ذا اختفى عنهم، و مع ذلك أرسل إليهم رسلا؟ لو كان قد ظهر بذاته لهم، لكان ذلك أسهل إلى الاعتقاد به.

ص:413

1-1) هو عبد الله بن المقفع، ولد سنة 106 أو 107 هـ فى قرية من قرى فارس اسمها (جور) و موضعها فيروزآباد، و يقول ابن النديم: أنه اسمه بالفارسية (روزبه) و معناه (المبارك) و اسم أبيه (داذويه) فلما أسلم تسمى بعبد الله و تكنى بأبى محمّد، و كان حسن الأدب، واسع العلم، حاد الذكاء، و يعد فى طليعة الكتّاب الحاذقين، و قد استعمله بعض الولاة و الأمراء للكتابة فى دواوينهم. رمى بالزندقة و الإلحاد، و حقد عليه المنصور لأمر كثيرة، و قد قتله سفيان بن يزيد قتلة شنيعة، و ذلك أنه أمر بتنوير فاسجر، ثم أمر بابن المقفع فقطع و ألقى فى التنور و أطبق عليه.

فأجابه الإمام جعفر: «كيف اختفى عنك من أظهر قدرته في نفسك أنت، وفي نماذك؟!» وكان جوابا بليغا حتى قال ابن أبي العوجاء لأصحابه: وظل يحصى لى قدرة الله التى فى نفسى، و التى لم أستطع رفضها حتى ظننت أن الله قد نزل بينه و بينى (1). و له مناظرة أخرى: كان ابن أبى العوجاء و ابن طلوت و ابن المقفع فى نفر من الزنادقة مجتمعين فى الموسم بالمسجد الحرام، و أبو عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام فيه إذ ذاك يفتى الناس و يفسر لهم القرآن، و يجيب عن المسائل بالحجج و البيّنات، فقال القوم لابن أبى العوجاء: هل لك فى تغليط هذا الجالس و سؤاله عما يفضحه عند هؤلاء المحيطين به، فقد ترى فتنة الناس به و هو علامة زمانه؟ فقال لهم ابن أبى العوجاء: نعم. ثم تقدم ففرق الناس فقال: يا أبا عبد الله أفتأذن لى فى السؤال؟ فقال له أبو عبد الله: «سل إن شئت». فقال ابن أبى العوجاء: إلى كم تدوسون هذا البيدر، و تلوذون بهذا الحجر، و تعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب و المدر، و تهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكّر فى هذا و قدّر علم أنه فعل غير حكيم و لا ذى نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر و سنامه، و أبوك أسسه و نظامه. فقال له الإمام الصادق عليه السلام: «إن من أظله الله و أعمى قلبه، استوخم الحق فلم يستعذبه، و صار الشيطان وليه، يورده مناهل الهلكة و ثم لا يصدره. و هذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم فى إتيانه، فحثهم على تعظيمه و زيارته، و جعله محل أنبيائه و قبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، و طريق يؤدى إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، و مجتمع العظمة و الجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفى عام، فأحق من أطيع فيما أمر، و النهى عما نهى عنه و زجر، هو الله المنشئ للأرواح و الصور». فقال له ابن أبى العوجاء: ذكرت يا أبا عبد الله فأحلت على غائب. فقال الإمام الصادق عليه السلام: «كيف يكون غائبا من هو مع خلقه شاهد، و هو أقرب إليهم من حبل الوريد، يسمع كلامهم، و يعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان و لا

ص:414

يشغل به مكان، و لا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان، تشهد بذلك آثاره، و تدل عليه أفعاله، و الذى بعث بالآيات المحكمة و البراهين الواضحة محمد صلى الله عليه و آله و سلم الذى جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت فى شىء من أمره فاسأل عنه أوضحه لك». فأبلس ابن أبى العوجاء و لم يدر ما يقول، فانصرف من بين يديه، فقال لأصحابه: سألتكم أن تلتمسوا لى خمرة فألقيتمونى على جمرة. فقالوا له: اسكت فوالله لقد فضحتنا بحيرتك و انقطاعك، و ما رأينا أحقر منك اليوم فى مجلسه. فقال: ألى تقولون هذا؟ إنه ابن من حلق رءوس من ترون، و أوما بيده إلى أهل الموسم. هذا أنموذج من أجوبته عليه السلام و مناظراته فى باب التوحيد، و قد اقتصرنا على هذا البعض و لا يسعنا ذكر أكثر منه لضيق المجال و رعاية للاختصار.

## خلاصة الصراع بين دعوة الإمام الإصلاحية

و دولة المنصور العباسية

رأينا فيما مضى من الأبحاث السابقة عن حياة الإمام الصادق عليه السلام كيف كانت دعوته الإصلاحية فى ذلك العصر الذى سادت فيه موجة عاتية من الفتن، عند ما انطلقت الأفكار، و عصفت الآراء، و اختلف الناس فيما بينهم، فتكالبوا على حب الذات و الظفر، و تطاحنوا على الغلبة و التفوق، فانتشرت البدع و الخرافات، و ظهرت الفرق التى تتشعب بثوب الإسلام، و لكنها تتجافى عن تعاليمه و تتنكر لمبادئه، و التى هى فى الواقع أشد ضررا على الإسلام من سائر الملل و الديانات الأخرى، و كان أعظمها عليه أولئك المندسين فى صفوف المسلمين، و فيهم من يدعى حب أهل البيت، و الانتماء إليهم، و لكنهم خصوم لهم و أعداء لدعوتهم، لذلك كان اهتمامه عليه السلام فى أمرهم عظيما، و موقفه تجاههم حاسما، فحاربهم حتى استأصل شأفتهم و محى صفحتهم، و قد أشرنا لذلك فيما سبق. و لكن المغرضين من خصوم الشيعة اتخذوا ذلك وسيلة للتحامل عليهم و الوقيعة بهم، و وصفهم بكل ما هو شائن. و بمزيد الأسف أن يتأثر بتلك الدعاية كثير من ذوى الثقافة، فوقعوا فى إثم الاتهام الكاذب، و تلبسوا بجريمة مخالفة الواقع. و على أى حال: فقد كان الإمام الصادق يدعو إلى الإصلاح بين الناس و التمسك بتعاليم الدين، و الأخذ بمبادئ الإسلام لحياتهم الفردية و الاجتماعية

ص: 415



و الاقتصادية، و نبذ الآراء المختلفة، و ترك الهوى و الانقسام فى الدين، و التفرق فيه، لتتكون وحدة إسلامية تجمع المسلمين تحت راية القرآن. و تعاليم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و لتحصل الأخوة العامة، و المساواة التامة، و التضامن الاجتماعى، و ما يقوم عليه من تعاون و تعاطف، و تراحم و عدل و إحسان، و صدق و صبر، و بر و خير، إذ أن الدين الإسلامى قد وضع نظام المعاونة و المساعدة بين أفرادة لتحصل بينهم روابط الإلفة و المحبة، و قد سبق جميع الأمم إلى هذا النظام. كما قد رأينا فيما سبق كيف اعتزل الإمام الصادق عليه السلام السياسة، و نهج منهج التماسك، و احتفظ بمكانته العلمية، و هو الشخصية التى كانت الأنظار متجهة إليه، و الناس ينظرون إليه نظرة إجلال و إكبار، لما منحه الله تعالى من طهارة النفس، و شرف المحتد، و فضل القربى، و قوة العقل و الإدراك، و الفقه فى الدين، مما جعل مدرسته يؤمها طلاب العلم من مختلف الأقطار، على اختلافهم فى النزعات و الآراء، فكان يعلم الجاهل، و يرشد الضال، و يهدى إلى سواء السبيل. و حسبنا دلالة على ذلك انتماء العلماء المبرزين لمدرسته من الذين أصبحوا رؤساء مذاهب، و أئمة فرق، و كل معترف بفضله و مقرّ بعلمه، و مفتخر بانتمائه لمدرسته. حتى كان أهل العلم الذين سمعوا منه إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم (1). سار الإمام الصادق فى طريق الدعوة الإصلاحية، و ترك الجانب السياسى، و لم يزج نفسه فى المعترك الذى عظم خطره، لأنه كان يرى أن الوقت غير ملائم. و لم يكن له من العدة و العدد ما يستطيع أن يخوض تلك المعركة، فأراد عليه السلام أن يخوض معركة علمية عن طريق التوجيه و الإصلاح الاجتماعى، ليهذب النفوس من نزعات الشر و الفساد، و قد رأينا كيف كانت دعوته، و كيف أنه ألزم الدعاة إلى العمل بما يدعون إليه، كما عبر عن ذلك عليه السلام بالدعوة الصامتة. و قد كان أثر هذه الدعوة إلى الإصلاح الذى كان ينشده الإمام الصادق عظيما على المنصور، فلم ترق فى عينه، و لم تقع منه موقعا حسنا، بل كان يظهر غضبه مرة و يكتمه أخرى، لأنه يعتبر إقبال الناس على الإمام الصادق عليه السلام و انتشار دعوته إلى الإصلاح الاجتماعى، منهاج ثورة يستفحل خطرها، و ليس فى إمكانه إخمادها.

ص:416

لذلك بقى المنصور متخوفاً من آل علي بصورة عامة، و من الإمام الصادق بصورة خاصة، و كان يعبر عنه (بالشجي المعترض بحلقه) فلم يزل يقلب وجوه الرأي و يدبر المكيدة و ينصب له حبال الحيل، لكي يقع الإمام الصادق في قبضته، فزور الكتب، و أرسل إليه من يستميله إلى الثورة، و لكنه عليه السلام كان أمتع من عقاب الجوّ، فحلّق بسداد رأيه و صفاء تفكيره، و علمه بما وراء الحوادث، و كشف القناع عن تلك الدسائس، و فشل المنصور بما افتعله من تهمة لبيدين الإمام بذلك فيأخذه بحجة الخروج على الدولة التي ادعى أنها دولة شرعية، و الخروج عليها خروج على سلطان الله. و لقد استعمل المنصور تلك الخطط مع زعماء آل علي، فكانت هناك ثورات دموية استطاع المنصور أن يقضى بواسطتها على البقية من آل علي و الظفر بهم، و قتلهم بصورة بشعة، بعد أن أذقهم أنواع الأذى و ضروب التنكيل و المحن، و هذا ما كان يخشاه الصادق عليهم عند ما أمرهم بالترث و عدم الاستجابة للدعاة في الثورة. فلقد كان الإمام الصادق يدفع عن نفسه سيف المنصور بكل السبل، و يحذر أن يصدر منه ما يتذرع به ذلك الطاغية للقضاء عليه، فكان يلح عليه بالطلب. و لو لا معرفة المنصور و يقينه بأنه عليه السلام كان يتحاشى أن يجعل للسلطان سيلاً عليه و يحذر ذلك كل الحذر لما كانت استدعاءاته التي قاربت العشرة لاستفزازه و إثارة حفيظته حتى لجأ إلى إساءة الأدب و التناول عسى أن يبدر من الإمام ما يعتذر به المنصور لقتله. فهذا حال الإمام مع المنصور، و هو على هذا الاحتراز و الاحتياط، فكيف يفعل المنصور بمن يشهر السيف؟ و كان المنصور يحجج و لا يهّمه إلا أمر الإمام و وجوده، فرواية الربيع صاحب أبي جعفر: حججت مع أبي جعفر المنصور، فلما صرت في بعض الطريق قال لي المنصور: يا ربيع، إذا نزلت المدينة فاذكر لي جعفر بن محمد، فوالله العظيم لا يقتله أحد غيري، احذر أن تدع أن تذكرني به. و في إحدى المرات كان المنصور ينتضى سيفه شيئاً فشيئاً و هو يخاطب الإمام الصادق (1). و كانت الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى تنتحل وراثته النبي، و أنهم أولى الناس بأمر الأمة، و هم الذين يمثلون الخلافة الراشدة، من العدل في الحكم، و الاستقامة في

ص: 417

الأمر، والمحافظة على الإسلام، لأنهم حاولوا أن يصبغوا دولتهم بصبغة الدين، وأن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظة على مبادئه، وأن سلطانهم هو سلطان الله، ويحكمون بأمره، ويسيرون على هدى الرسول، فمنحوا أنفسهم ألقاب الحماية عن الدين، وإمامة المسلمين، بدعوى احتفظوا بها لأنفسهم وأنهم يسيرون بالعدل، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأنهم أهل بيت النبي وورثته، إلى غير ذلك من الألفاظ الفارغة التي يحاولون من ورائها الاستئثار بالحكم، وعدم السماح لأى أحد أن يصيح في وجوههم مطالباً بحق، أو يرفع صوته استنكاراً لسوء السيرة التي ساروا عليها في حكمهم، لأنهم يريدون أن يبقى الناس مسخرين لإرادتهم، وأداة طيعة لهم، إذ يزعمون أن الله أوجب حقهم، وأن سلطانهم هو سلطان الله، وأنهم جاءوا لخير الناس ولا يعملون إلا الصالح، ويتجنبون الضار. فالخليفة عندهم ليس ملكاً على دولة سياسية فقط، بل هو ملك على دولة دينية تحيط به رسوم دينية، ويريد أن يعتبر إماماً للمسلمين، وأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قيادة الأمة قيادة روحية، وأن الله منحه منزلة خاصة، فبينما كان الأمويون يتقلدون الصولجان ويلبسون الخاتم رمزا على الحكم، وعلى أنهم ورثوا ذلك عن أسلافهم، ترى العباسيين يتقلدون البردة، التي كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منحها لكعب بن زهير، عند ما مدحه بقصيدة (بانت سعاد) وكان الخليفة العباسي الأول هو أول من سن هذا التقليد، ثم ورثها الخلفاء من بعده، فكانوا يلبسون هذه البردة في حفلات البيعة وغيرها، حتى في الحفلات الحربية، وكثيراً ما كانوا يلبسونها في صلاة الجماعة. يقول هلال الصّابي عند كلامه عن جلوس الخلفاء وما يلبسونه في المواكب: الذي جرت به العادة أن جلوس الخليفة على كرسى مرتفع، ويكون لباسه السواد، ويجعل على رأسه عمامة سوداء رصافية، ويتقلد سيف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويلبس خفاً أحمر، ويضع بين يديه مصحف عثمان رحمه الله، الموجودة في الخزائن، وعلى كتفيه بردة النبي صلى الله عليه وآله وسلم (1). وبهذه الصفة والمظاهر الخلافة استطاعوا التأثير على مشاعر الكثير من الناس، لينظروا إليهم نظرة التقديس والاعتقاد بأنهم ورثة النبي وهم أحق بالأمر، وهنا يعتبر كل من أنكر أعمالهم أو خرج عليهم خارجاً على المسلمين، متعد لحدود الله.

ص: 418

وسرى هذا الاعتقاد فى نفوس البسطاء منذ نشأة الدولة، يحدثنا الطبرى: أن وفدا دخل على أبى العباس السفاح يقدمهم غيلان بن عبد الله الخزاعى، فقال للسفاح: أشهد أنك أمير المؤمنين و أنك حبل الله المتين، و أنك إمام المتقين. فقال السفاح: حاجتك يا غيلان. قال: أستغفرک. قال السفاح: غفر الله لك. و الواقع أن نجاح العباسيين فى مهمة هذه الادعاءات كان بحاجة إلى بذل الجهد و إلى دعاية قوية، لتركيز هذه العقيدة، و وضع كثير من الأساطير حولها، و ادعاء البشارة بالدولة الجديدة التى تكفل للناس سعادتهم، و تقضى على الشقاء الذى عاناه الناس فى العهد الأموى، و قد قام علماء السوء فى الدولة-و هم الذين تمكن الضعف من نفوسهم و أخذ الطمع بزمام عقولهم- بنشر تلك الدعوة الكاذبة، و حياكة الأساطير و خلق الأحاديث، حتى استمر الاعتقاد يعمل عمله فى نفوس كثير من الناس، فأصبح من لا يؤمن بشرعية السلطان العباسى زنديقا، و هذا ما نعبّر عنه بالزندقة السياسية التى و سم بها كثير من الناس الذين استنكروا على العباسيين سوء سيرتهم، و أدركوا على مرور الأيام و تكرر الحوادث زيف ما يدّعون من العدل الشامل و الحكم العادل، و أنهم ورثة النبى و أهل بيته، و هم أحق الناس بالأمر و أولاهم بالحكم، فكان المنكرون لتلك الأوضاع يتهمون بالزندقة، و يكون نصيبهم القتل، لأنهم عارضوا سلطان الله و خليفة رسوله، مع تظاهره بما يخالف ذلك، و أنهم أبعد ما يكون عن اتباع أوامر الإسلام، ففى عهد السفاح سفكت دماء بريئة، و هدمت قرى آمنة، و استبيحت حرمان و هتكت أعراض. و كان القواد يستعملون مادة الفناء و الإبادة اتباعا لأمر الخليفة العباسى و هى: من اتهمته فاقتله (1). و لما ولى يحيى بن محمّد العباسى على الموصل من قبل أخيه السفاح، بعد أن أنكروا أعمال عامله السابق و هو محمّد بن صول، فلما دخل يحيى بلد الموصل لم يظهر لأهله شيئا ينكرونه، و لم يعترضهم فيما يفعلونه، ثم دعاهم فقتل منهم اثنى عشر رجلا، فنفر أهل البلد و حملوا السلاح فأعطاهم الأمان، و أمر فنودى من دخل الجامع فهو آمن، فأتاه الناس يهرعون إليه، فأقام يحيى الرجال على أبواب الجامع، فقتلوا الناس قتلا ذريعا أسرفوا فيه، فقتل أنه قتل عشرين ألفا ممن لهم

ص:419

خواتيم، فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قتل رجالهنّ فسأل عن ذلك فأخبر به، فقال: إذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان. ففعلوا ذلك واستباح الزنوج نساء البلد، فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل ركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلوقة، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته فأراد أصحابه قتلها فنهاهم عن ذلك فقالت له: ألسنت ابن عم رسول الله؟ أما تأنف للعرييات المسلمات! فأمسك عن جوابها، وسير معها من يبلغها مأمنها، فلما كان من الغد جمع الزنوج للعطاء وكان عددهم أربعة آلاف فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم (1) إلى غير ذلك من الأمور التي جرت في عهده على قلة أيامه. أما في عهد المنصور فكان الأمر أدهى وأمر، فقد واجه الناس في عهده ألوانا من الظلم، مما لا عهد لهم به من قبل، كما صبّ جام نقمته على العلويين، فعاملهم معاملة لم يشهد التاريخ مثلها، وطاردهم وضيّق عليهم الدنيا، وأذاقهم أنواع الأذى وضروب المحن، فلم يرحم كبيرا، ولم يعطف على صغير، ولم ينكسر لصوت تاكل ونياح امرأة. ومع هذا كله فقد كان يسبغ على أعماله أبراد القداسة، وينتحل السلطان الشرعي، وأن ما يفعله بإرادة الله وإذنه، فقد صرح بذلك على المنبر في عدة مواطن، وكما جاء في بعض خطبه يوم عرفة بقوله: أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه أعمل بمشيئته، وأعطيكم بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلا، إذا شاء أن يفتحني لأعطيأتكم وقسم فينكم فتحنى، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني، فارغبوا إلى الله أيها الناس، وسلوه في هذا اليوم الشريف أن يوفقني للصواب، ويسدني للرشاد، ويلهمني الرأفة فيكم، والإحسان إليكم (2). فأنت ترى أن المنصور يحاول أو يوجه الناس إلى الاعتقاد بشخصيته، اعتقادا يجعلهم يؤمنون بصحة أعماله، لأنها تصدر بمشيئة الله، إذ جعله واليا للأمر، حاكما للأمة، ليركز بذلك عرشه الذي بات يضطرب فوق تيارات المؤاخذات، بل الثورات

ص: 420

1-1) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 212 [1] حوادث سنة 135 هـ.

2-2) الطبرى ج 9 ص 310. [2]

المتلاحقة، لسوء سيرته التي لا تتناسب مع واقع ادعائه، ومع علمه بأن قلوب أكثر الناس مع أهل البيت، كما أزعجه موقف الإمام الصادق و انتشار ذكره. ويمكننا أن نعتبر ما يصدر منه من تقريب العلماء و التظاهر بالزهد، و الإصغاء للوعظ، إنما هي أساليب يستعين بها على تحقيق أهدافه، و ليجعل في شخصيته ثقة للناس الذين تخدعهم المظاهر، و تسحرهم الألفاظ، كما يحاول أن يهدم ثقة الناس بمن هو أولى به من أهل البيت. فزاه يصغى لوعظ عمرو بن عبيد، و يبكي أمامه من خشية الله كأنه لم يرتكب جريمة، خشية من الله و خوفا من عقابه. و يحاول أن يؤثر على عمرو بن عبيد فلا يميل إلى ما يدعوه محمد بن عبد الله الثائر الذي هزّت ثورته أركان سلطانه و جعلت المنصور لا يهدأ ليلا و لا نهارا. فقد بلغه أن محمد بن عبد الله، النفس الزكية، كتب إلى عمرو بن عبيد-رئيس المعتزلة- يستميله، فضاق المنصور بذلك ذرعا و أرسل إلى عمرو بن عبيد، فلما وصله أكرمه و شرفه، و قال: بلغني أن محمد بن عبد الله كتب إليك كتابا، قال عمرو: قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه، فقال المنصور: فبم أحبته؟ قال عمرو: لم أحبه إلى ما أراد. ثم قال المنصور لعمرو: عطنا يا أبا عثمان. فقال عمرو: أعود بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد. . . إلى آخرها. فبكى المنصور بكاء شديدا كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا الساعة. ثم قال عمرو: اتق الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فافتد نفسك ببعضها، و اعلم أن الأمر الذي صار إليك إنما كان بيد غيرك ممن كان قبلك، ثم أفضى إليك. إلخ. فعاد المنصور إلى بكائه حتى كادت نفسه تفيض (1). هكذا أظهر المنصور نفسه أمام رجل من العلماء، و زعيم من زعماء الطوائف بمظهر السلطان الخائف من الله، الباكي من خشيته، لتتطبع في ذهنه صورة عن إمام المسلمين، فيبلغها أصحابه حتى تبرد عزائمهم عن مؤاخذته، و الإنكار على أعماله، و قد نجحت حيلة المنصور، فلم يلتحق عمرو بثورة النفس الزكية، كما أن المعتزلة لم

ص: 421

يخرجوا عليه ولم يستنكروا أعماله حتى مات عمرو بن عبيد. وعلى أى حال: فالمنصور لم يزل يقلّب وجوه الرأى، ويدبر الحيل فى القضاء على الإمام الصادق، ولا تروق له تلك الشهرة العلمية التى اكتسبتها مدرسته، ولذلك حاول أن يحصر الفتوى بمالك بن أنس عند ما رفع منزلته، ونوه باسمه، و نادى مناديه (أن لا يفتين إلا مالك) كما طلب من مالك أن يضع كتابا يكون هو المرجع فى الفقه رسميا، فلا يمكن الرجوع لغيره، أو الأخذ عن أحد سواه. وإنما خص مالكا بذلك دون غيره من علماء المدينة لعلمه بانحرافه عن آل على، وأن نزعته نزعة أموية. واستمر المنصور فى تقديم العلماء ليسند عرشه الذى أصبح مهددا من خطر الدعوة لأهل البيت، وعدم الاعتراف له بأهلية الخلافة، لما اتصف به من العسف والجور، ومخالفة أحكام الإسلام. وقد اشتهرت كلمة الإمام الصادق عند ما سئل عمن يصلح للخلافة فأجاب عليه السلام: «إن الإمامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من ولى حتى يكون له كالوالد الرحيم». وهذه الكلمة تجرّد المنصور من أهلية الخلافة، لعدم اتصافه بواحدة منها، فلا يمكن الاعتراف له بذلك. كما أنه عليه السلام منع الناس من الترافع إلى الحكام، و وصفهم بأنهم حكام جور و أئمة ضلال، فحكمهم غير نافذ، و طاعتهم غير لازمة، و أن الركون إليهم، و العمل لهم ضياع للحق و معاونة على الظلم. و كان يؤنب أصحابه الذين يتعاملون مع رجال الدولة، و ينهاهم عن ذلك. قال لعذافر: «بلغنى أنك تعامل أبا أيوب و الربيع (1) فما حالك إذا نودى بك فى أعوان الظلمة» .

ص: 422

1-1) أبو أيوب هو سليمان بن مخلد كاتب المنصور و المقرب عنده، ثم قلّده الدواوين و الوزارة و أصبحت له عند المنصور منزلة عظيمة دون سائر الناس، حتى قالت العامة إنه قد سحر أبا جعفر، و بعد ذلك غضب عليه و نكبه و صادر أمواله، و ذلك فى سنة 153 هـ. أما الربيع بن يونس: فهو الربيع بن يونس بن أبى فروة مولى كيسان، كان من أعيان الدولة و تولى نفقات المنصور، ثم قلّده الوزارة و قلّده ابنه الفضل بن الربيع الحجابة.

ونهى عن العمل لهم حتى فى بناء المساجد و كراية الأنهر، وعند ما سئل عن ذلك أجاب بقوله: «ما أحب أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء». و يقول عليه السّلام: «العامل بالظلم و المعين له و الراضى به شركاء». و يقول عليه السّلام: «من أعان ظالما على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطا حتى ينزع عن معونته». و لم يهن على الدولة كل هذه الأمور التى تقف فى سبيل تحقيق أهدافها، كما عظم عليها اختصاص مدرسة الإمام بطابع الانفصال عن الدولة، فلم يمكنهم التدخل فى شئونها، أو تكون لهم يد فى توجيهها، و تطبيق نظامها، و لم تكن بينها و بين الدولة رابطة من روابط الإلفة و الانسجام، و معنى ذلك عدم الاعتراف بشرعية الدولة، و أنّها دولة جائرة لا يمكن الركون إليها، و إن تظاهر الحكام بالمحافظة على المبادئ الإسلامية، فتلك أمور سياسية لا واقع لها فى نفس الواقع. و كما قدمنا بأن الصراع بين مدرسة الإمام و بين الدولة يشتد على مر الأيام، و قد اتخذت أنواع الأساليب، و استعملت شتى الحيل لإخضاع تلك المدرسة لأوامر الدولة، و السير فى ركابها، فلم تنجح الوسائل و لم تنفع الأساليب. و هكذا يستمر هذا الصراع عبر الدهور و مدرسة الإمام الصّادق عرضة لأخطار النقمة، و هدفا لسهام الاتهام، و قد رمى المنتمون إليها بالزندقة و الإلحاد و الخروج على سلطان الله، و ذلك طبقا لمنطق السياسة. و لعل الرجوع إلى ما كتبناه سابقا عن هذا الصراع، يغنى عن الإسهاب فى ذلك، فإننا قد ذكرنا هناك عوامل انتشار المذاهب، و مقومات شخصيات رؤسائها، و أن العامل الوحيد هو قوة السلطان و مناصرة الدولة، كما أشرنا إليه فى البحث عن عوامل المذهب الحنفى، و المالكى، و الشافعى. و الآن نشرع فى ذكر المذهب الرابع، و هو الحنبلى، فلنتقل بك أيها القارئ الكريم إلى دراسة صحيحة عن حياة رئيس المذهب الحنبلى-الإمام أحمد بن حنبل-لنرى على ضوء المعلومات التاريخية، مقومات شخصيته، و عوامل انتشار مذهبه، و الله المسدد للصواب.





نحن الآن مع الإمام أحمد بن حنبل، الإمام الرابع من أئمة المذاهب الإسلامية، وقد حاولنا قدر الجهد والإمكان التعرف على كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة، في دراسة مجردة عن التحيز، كما أهملنا الكثير من الزوائد التي لا نلمس من ورائها شيئاً جوهرياً عن شخصية كل واحد منها، فهناك كثير من الأساطير التي وضعت في ظروف خاصة، حول تكوين تلك الشخصية، وإبرازها في إطار الإعجاب، والخروج عن حدود الواقع. وقد ظهر لنا فيما سبق أسباب إيجاد تلك الأمور، كما وقفنا على عوامل انتشار مذاهبهم، دون غيرهم، ولنا فيما سبق من البحث في الأجزاء السابقة كفاية عن الإطالة، وقد بقيت أمور تتعلق في البحث عنهم ستأتي في الأجزاء القادمة إن شاء الله. أما الإمام أحمد فإن دراسة حياته لا تخلو من الأساطير والحكايات والأطراف، التي جعلت في جدول تكوين شخصيته، مما لا تتفق مع الواقع، ولا يمكن قبولها من دون تمحيص، ولا بد لنا من الوقوف على الحقيقة من طريق البحث العلمي، لا التخمين والوهم. كما أن هناك آراء وعقائد نسبها الحنابلة إلى أحمد بن حنبل، وهي بعيدة عن الاعتقاد الصحيح، وقد عدّ هذا من ابتلاء أحمد في أصحابه، لأن نسبتها إليه مما يثير الشك والريب في أمره. وفي عصر أحمد ماجت المدن الإسلامية بعناصر مختلفة، من أمم متباينة الأرومة، وترجمت العلوم الفلسفية من اللغة السريانية واليونانية وغيرهما، وامتزجت مدنيات وتصادمت حضارات.

و من طبيعة العصر الذى تكثر فيه المنازعات، و يضطرم باحتكاك المدنيات المختلفة بعضها ببعض، أن تظهر فيه آراء و أخلاق منحرفة، و  
يكثر الشذوذ الفكرى و الشذوذ الاجتماعى، حتى يصبح الشاذ هو الكثير، و الغريب هو المألوف. فالبحث عن شخصية علمية عاشت فى  
ذلك العصر، المائج بالاختلاف و شذوذ الآراء، لا بد من أن يتصف بصعوبة أمام الباحث الذى يتجرد عن العاطفة، و الغلو و التحيز. و  
نحن الآن ندرس حياة الإمام أحمد على ضوء الواقع، تاركين وراءنا كثيرا من زوائد المغالين، لأنها لا تكشف عن ناحية من نواحي تلك  
الشخصية التى يتطلبها البحث المتجرد عن العاطفة.

#### نسبه:

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن  
ثعلبة بن عكاب بن صعيب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن قصي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار. هكذا ساق ابن الجوزى  
هذا النسب فى مناقب أحمد (1) و كذلك ذكره القاضى ابن أبى يعلى فى الطبقات (2). و قد اختلف فى مازن بن ذهل بن شيبان، فبعضهم  
يقول: مازن بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة. و بعضهم يقول: مازن بن شيبان بن ثعلبة. و لا يهمنا هذا الاختلاف فقد ورد نسبه بهذه الصورة، و  
لكن المهم فى ذكر هذا النسب على طوله، و الاختلاف فيه، أنه جعل من مناقب أحمد و من مؤهلاته العلمية. يقول ابن رجب بعد ذكر هذه  
السلسلة: و هذا النسب فيه منقبة عميمة، و رتبة من وجهين: أحدهما حيث تلاقى فى نسب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: لأن نزارا  
(و هو الجد السابع و العشرين لأحمد) كان له ابنان أحدهما مضر- و نبينا من ولده- و الآخر ربيعة و إمامنا أحمد من ولده.

ص: 426

1-1) المناقب ص 16.

2-2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 4. [1]

و الوجه الثانى أنه عربى صحيح النسب، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أحب العرب لثلاث: لأنى عربى، و القرآن عربى، و لسان أهل الجنة عربى. فهذا النسب على ما ذكره هو أول مناقب أحمد، لأن الاتصال برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإن بعدت الوسطة، و اتسعت الدائرة، هو منقبة عظيمة، و لعل ذلك هو أحد المرجحات عندهم لمذهبه، و لزوم اتباعه، و نحن لا ننكر أن الاتصال برسول الله شرف عظيم، و لكننا نستغرب هذا التمثل فى الاستدلال و التكلف فى الإثبات، لأن هذا أمر لا يختص به أحمد بن حنبل، فهو شامل لملايين من البشر، فلا يمكن جعله مرجحا لمذهبه، و عدّه فى مناقبه. و أما الوجه الثانى و هو كونه عربيا ليكون الحديث المذكور كالبشارة بأحمد و لزوم محبته، مع أن هذا الحديث قد نص كثير من الحفاظ على وضعه، و مع صحته فليس من الصحيح الاستدلال به، و جعله من مقومات شخصية الإمام أحمد.

## ولادته و نشأته:

ولد أحمد فى المشهور فى ربيع الأول من سنة 164 من الهجرة النبوية، و قد ذكر ذلك ابنه صالح و حكاه ابنه عبد الله أيضا، قال: سمعت أبى يقول: ولدت فى شهر ربيع الأول سنة أربع و ستين و مائة، و ذلك فى عهد المهدي. و اختلفت الروايات فى محل ولادته، فقيل أنه ولد ببغداد، إذ جاءت به أمه حملا من مرو، و قيل إنها ولدت فى مرو، و الأول أشهر كما تضافرت الروايات فى ذلك، و قد روى عنه أنه قال: قدمت بى أمى حملا من خراسان، و ولدت سنة 164 هـ. و فى رواية أخرى أنه قال: قدم بى من خراسان و أنا حمل، و لم أر جدى و لا أبى. و روى صالح العجلي عن أبيه: أن أحمد بن حنبل سدوسى بصرى، من أهل خراسان، ولد ببغداد و نشأ بها. و قول العجلي إنه بصرى: لأن شيبان كانت منازلها بالبصرة و باديتها، و كان أحمد إذا جاء إلى البصرة صلى فى مسجد مازن، و هم من بنى شيبان، فقيل له فى ذلك، فقال: مسجد آبائى (1).

ص: 427

أما أمه فيقال أنها شيبانية أيضا، واسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني، وقيل أنها ليست بشيبانية. وعلى الجملة فقد نشأ أحمد يتيما في حجر أمه، وهي التي تولت تربيته، لأنها دخلت به بغداد حملا فولدته، وليس له كافل غيرها. وما يقال من أنه كان يعيش على عقار أبيه في بغداد، فهو قول بغير مستند. ولا نعلم هل أن عمه تولى شؤنه لأنه كان حيا عند ما قدمت أم أحمد من خراسان، وكان عمله إيصال الأخبار إلى الولاة بأحوال بغداد، ليعلم بها الخليفة إذا كان غائبا عنها، وكان أحمد يتورع عن حملها، وإيصالها إلى الولاة. ونشأ أحمد ببغداد وتربى بها تربيته الأولى، وكانت بغداد حاضرة العالم الإسلامي، وعاصمة دولته، وهي تموج بأناس اختلفت مشاربهم، وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع المعارف والفنون، وكانت تموج برجال العلم وحملة الحديث، ففيها القراء والفقهاء والمتصوفة، وعلماء اللغة، والفلاسفة، والمحدثون، وقد توجه إلى علم الحديث، بعد أن قرأ القرآن وتعلم اللغة والكتابة، ولقد قال هو في ذلك: كنت وأنا غلام أختلف إلى الكتاب، ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن عشرة سنين. ثم اتجه إلى طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة، وبعد ذلك رحل إلى الأقطار، وكتب عن شيوخها، وأخذ عن الشافعي واتصل به اتصالا وثيقا، وقويت بينهم عرى المودة، ولأزمه مدة إقامته في بغداد، وكان يعترف للشافعي بعلو المنزلة ويقول: ما من أحد مس بيده محبرة وقلما إلا وللشافعي في عنقه منة. وقال: إنه لم يبت مدة ثلاثين سنة إلا ويدعو للشافعي ويستغفر له. وكان أول تلقيه العلم على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة 182 هـ فقد قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف (1). وابتدأ رحلاته لتلقى الحديث في سنة 186 هـ فرحل إلى الحجاز، والبصرة واليمن، والكوفة، وكان يود أن يرحل إلى الري ليستمع إلى جرير بن عبد الحميد، ولم يكن قد رآه في بغداد، ولكن أقعده عن الرحلة إليه عظيم النفقة عليه في هذا السبيل، وكان يقول: لو كان عندي تسعون درهما لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد

ص: 428

لأنه كان في ضنك عيش، يتحمل في سبيل ذلك المتاعب، إذ لم يكن له كافل من أسرته كما تقدم بيانه. كما أنه لم يتمكن من الرحلة إلى الشافعي في مصر إذ وعده بذلك.

### نبوغه و شهرته:

ونبغ أحمد في مجتمعه، وعرف بين أقرانه، ولكن شهرته لم تكن تبلغ حدها الذي بلغت إليه في آخر حياته إلا بعد وقوع المحنة، فهو في ذلك المجتمع الذي كان يزخر برجال العلم وحملة الحديث لم يكن مبرزاً، أو له شهرة تفوق غيره، لذلك لم يكن في أول الأمر معدوداً في قائمة الرجال من أهل العلم الذين تهتم الدولة في موافقتهم بمشكلة خلق القرآن، أو يسوؤها مخالفتهم، فقد جاء في كتاب المأمون الأول ذكر جماعة من العلماء، ولم يكن أحمد فيهم، ولكنه ورد بعد ذلك. ومهما يكن من أثر الأسباب في شهرة أحمد فإن ذلك لا يتعدى حدود صموده في الامتناع عن القول بخلق القرآن، وكما سيأتي أنه لم يكن الوحيد في ذلك، فإن جماعة من العلماء، قد وقفوا موقفا مشهوداً، وقد تحملوا في سبيل ذلك الأذى، وقد تجرعوا الغصص؛ وكانت خاتمة المطاف أن لقوا حتفهم في السجون، وتحت ضرب السياط و حد السيوف. وبطبيعة الحال أن يكون ذلك الصراع العقائدي قد فسح المجال لمعرفة الأشخاص الذين يبرزون في هذا الميدان، ومن حسن الحظ أن يبقى أحمد إلى عهد المتوكل، الذي غير مجرى الحوادث بمحاولته جلب الرأي العام الذي كان مستاء من تصرفات المعتزلة، وشدة سطوتهم، وتنكيلهم بمن يخالف عقيدتهم، فكان انتصار المتوكل للمحدثين قد أحدث انقلاباً في سياسة الدولة وتوجيه الرأي العام، فانهمز المعتزلة، وانتصر المحدثون، و سطع نجم أحمد في ذلك الأفق المتلبّد بسحب الخلافات والمنازعات العقائدية، واتجه الرأي العام إلى تعظيمه، والالتفاف حوله، وقد أبدى المتوكل عنايته التامة في احترام أحمد و تعظيمه، وأصبحت له منزلة سامية، و ظهر أتباعه بمظهر العظمة. كما ظهر المتوكل بمظهر محيي السنة، وراحوا يمجّدون عرشه و يبألغون في مدحه، و لم يقصّر هو في رعايتهم و الاعتماد عليهم، فبدأت موجة من الكبت و الاضطهاد كانت رد فعل لما وقع فيه المعتزلة الذين كانوا يدعون إلى حرية

الرأى واحترام العقل، لكن السلطة عدلت بهم إلى السياسة التي كانوا يستنكرونها، وكان بطل هذا الدور القاضى أحمد بن أبى دؤاد. وكان المتوكل يصل أحمد بصلات سنوية، ويعطف عليه، وعين له فى كل شهر أربعة آلاف درهم (1) وطلبه إلى سامراء ليتبرك برؤياه، وينتفع بعلمه، فامتنع أحمد ولكنه أجبر على الموافقة. وكان الأمراء يدخلون عليه ويبلغونه سلام الخليفة، ولا يدخلون عليه حتى ينزعون ما عليهم من الزينة، وقد بلغ من تقدير المتوكل لأحمد واحترامه أنه أصبح لا يسمع عليه وشاية، ولا يصغى لقول خصم فيه، إلا الاتهام بالميل للعلويين، فإن المتوكل كان يأخذ فى ذلك على الظنة والتهمة، وقد تمكن الوشاة بأن يبلغوا المتوكل عن أحمد بالميل للعلويين، وأنه يبيع لرجل منهم سرًا، فكبست داره وفتشت أدق تفتيش (2). فلم يجدوا ما يدل على ذلك. وبهذا برأت ساحتها من هذه التهمة، التى كادت أن تطيح بكيانها، وتعود عليه بالعذاب والنكال، شأنه شأن غيره من العلماء، الذين أخذوا بهذا الاتهام الذى ليس من ورائه إلا القتل بدون رحمة.

### صلته بالمتوكل:

وكان المتوكل يوصى الأمراء باحترام أحمد وتقديره، ولما مرض أحمد كان المتوكل يبعث إليه برسله يستعلم أخباره، ويسأل عن حاله، ولما مات اهتم أمير البلد بأمره، وتولت رجال الدولة القيام بواجب تجهيزه، وحضر من بنى العباس نحو مائة رجل مع سائر القواد والأعيان والوزراء، فكان يوما مشهودا. والذى يظهر من سيرة أحمد أنه كان منكمشا من المتوكل، غير مرتاح إلى مودته، فهو لا يقبل هديته إلا خوفاً، ويقال أنه كان يفرقها سرا على المحتاجين، ولا يجلس على بساطه، ولم يظهر عليه ذلك أو يتظاهر بالمخالفة، ولكنه كان يذهب إلى صحة خلافته وإمامته ولزوم طاعته.

ص: 430

1-1) تاريخ ابن كثير ج 10 ص 239.

2-2) مناقب أحمد لابن الجوزى ص 36.

لم تكن عناية المتوكل هذه بالإمام أحمد لدافع ديني، فهو أبعد الناس عن تعاليم الدين، ولكنها أمور سياسية دعت لذلك، وظروف خاصة اقتضت إظهار هذه المودة، لأن العامة أصبح لهم تعلق بشخصية أحمد، الأمر الذي جعل الدولة تلاحظ ذلك، و تقيم له وزنا، كما أنه كان يساير الدولة. ولقد كانت سياسة الدولة العباسية إبان قوتها تؤكد طابعها الديني، فقربت إليها العلماء و الفقهاء و المشتغلين بالعلوم الإسلامية، و كانت ترقب أيضا حركات فريق منهم، ممن يؤدي اشتهارهم بالعلم و الورع إلى تعلق الجماهير بهم، إذ قد يؤثر ذلك في مركز الخلفاء، و قد يزعزع ولاء المسلمين لهم، فكان الخلفاء يهتمون بما يجري في حلقات الفقهاء و المحدثين، و يراقبون من يتعرض منهم بالنقد للنظام القائم، و قد يبطشون به، كما رأينا في اهتمام المنصور بأمر الإمام الصادق و محاولة القضاء عليه عند ما وقف عليه السلام موقف المعارضة لحكمهم، و وصفهم بحكام جور، و أئمة ضلال، و أمر بمقاطعتهم و الابتعاد عنهم. و كذلك فعل الرشيد مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقد اهتم بأمره و سجنه و عذبه، حتى مات في السجن مسموما. و قد رأينا ما لقيه أحمد نفسه من تعذيب و تنكيل عند ما خالف رأى الدولة، و أنه امتحن و نكل به، كما ستقف عليه قريبا، و بعد أن اتحد الرأى و تغير الوضع، فلم يكن من أمر أحمد ما يخشى منه على الدولة، بل كان يؤيد موقفها و يشد أزرها، فقد جاء في إحدى رسائله: و السمع و الطاعة للأئمة، و أمير المؤمنين، البر و الفاجر، و من ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه، و رضوا به، و من غلبهم بالسيف حتى صار خليفة، و سمي أمير المؤمنين، و الغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة، البر و الفاجر، و قسمة الفىء، و إقامة الحدود إلى الأئمة ماض ليس لأحد أن يطعن عليهم و لا ينازعهم، و دفع الصدقات إليهم جائزة نافذة، من دفعها إليهم أجزاء عنه، برا كان أو فاجرا، و صلاة الجمعة خلفه، و خلف كل من ولى، جائزة إمامته، و من أعادها فهو مبتدع تارك للأثار، مخالف للسنة، ليس له من فضل الجماعة شىء، إذ لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا، برهم و فاجرهم، فالسنة أن تصلى معهم ركعتين، و تدين بأنها تامة، لا يكن في صدرك شك، و من خرج على إمام من أئمة المسلمين، و قد كان الناس اجتمعوا عليه، و أقرّوا له بالخلافة بأى وجه كان بالرضا أو بالغلبة، فقد شق عصى



المسلمين، و خالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية (1). فأقول أحمد ناطقة نطقاً صريحاً بأنه يرى لزوم الطاعة لمن يتولى الأمر، لا فرق بين البر والفاجر، فطاعة الكل لازمة حتى في أمر محض للمعصية، ولكن يؤخذ من أفعاله الخاصة كما أسندوا إليه ذلك، أنه لا يرى الطاعة في المعصية، أما أقواله فهي عامة لا تخصيص فيها، ولم يكن له موقف معارضة أو دعوة إلى مخالفة. ويقول محمد أبو زهرة: لم يؤثر عنه أنه عمده إلى دعوة الأمراء والحكام إلى الامتناع عن الظلم وإلى توجيههم إلى إقامة السنة، بل كان موقفه سلبياً، لا يسايرهم فيما هم فيه، ولا يدعوهم بالقول إلى غيره، فهل كان ناشئاً من أنه كان يمتنع عن الخوض في السياسة، ومعالجة شئونها، وترك الأمر والدعوة إلى السياسة الصالحة للصالحين من أهل الخبرة فيها (2). وقد عرض القضاء على أحمد بن حنبل، فرفض قبوله، وذلك أن الشافعي رشحه للقضاء في اليمن عند ما سافر أحمد إليها، للاستماع من عبد الرزاق بن همام، وكان الشافعي هناك يتولى بعض وظائف الدولة، فامتنع أحمد عن القبول، ولم يكن امتناعه لعدم شرعية الدولة، فهو يرى أن الخلافة في ذلك الوقت صحيحة، ويجب الطاعة لمن يتولى الأمر برا كان أم فاجراً، وذلك بخلاف امتناع الإمام أبي حنيفة عن تولي القضاء في عهد الدولة الأموية، وقد ضربه ابن هبيرة ليرضخه على قبول هذه الوظيفة فامتنع؛ وفي أيام المنصور عرض عليه القضاء فرفضه حتى سجنه المنصور و ضربه بالسياط، وكان ذلك سبب موته كما يقال لأن أبا حنيفة لا يرى صحة خلافة العباسيين والأمويين، وكان رأيه عدم المعاونة معهم. ولكن الإمام أحمد يرى لزوم المعاونة وجوب الطاعة، فامتناعه عن قبول القضاء يبعث على التساؤل، ولعل هذه القضية لا أصل لها.

ص: 432

---

1-1) مناقب أحمد لابن الجوزي ص 75-76. وانظر رسالة أخرى برواية الأصبخري. طبقات الحنابلة ج 1 ص 26 و 27. [1]  
2-2) مالك ص 152.

ظهرت مقالة القول بخلق القرآن في بداية القرن الثاني للهجرة، فقد أعلن بها الجعد بن درهم، وقتل من أجلها. قتله خالد بن عبد الله القسري حاكم العراق. وبقيت هذه الفكرة في طي الكتمان، ولم يكن لها أي أثر أو تطور في التاريخ، إلى زمن هارون الرشيد عند ما نبغت المعتزلة، ونشطت الحركة الفكرية، وثاروا على الجمود، ولم يستطيعوا أن يجاهروا في ذلك، لأن هارون الرشيد كان يحارب هذه الفكرة، حتى أنه قال يوماً: بلغني أن بشر المريسي يقول: القرآن مخلوق. والله والله لئن أظفرتني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد. ولما علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد (1). وقال بعضهم: دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق، والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق (2). واستمرت المسألة في دور الكتمان والتستر إلى زمن المأمون، ولما ظهرت الفلسفة. وأثيرت مسائل حول صفات الله من المتكلمين والمعتزلة، كان أهمها مسألة كلام الله، وخلق القرآن، وهي أبرز شىء في تاريخ المعتزلة، لما اتصل بها من أحداث تاريخية وسياسية. وكما قلنا أن المسألة وجدت في آخر الدولة الأموية، وبقيت تنمو ويدور حولها الجدل، وتوسع فيها المناظرة، وتؤلف فيها الكتب، حتى جاء عصر المأمون فإنه كان

ص:433

1-1) النجوم الزاهرة ج 1 ص 647. [1]

2-2) تاريخ ابن كثير ج 1 ص 215.

يميل إلى حرية الفكر، وبذلك استطاع المعتزلة أن يواصلوا نشاطهم، فقد كانوا يتحرّقون إلى نشر أصولهم، فوجدوا في المأمون بغيتهم، و نظروا إليه بعين الإكبار؛ لأن الإصلاح الذى يرومونه يتحقق على يديه، فالتفوا حوله، إذ وجدوا فيه ركنا شديدا. فكان مذهبهم أقرب المذاهب إلى نفس المأمون، فقربهم وأصبحوا ذوى نفوذ فى القصر، وكان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبى دؤاد، وكان هو حامل لوائهم إذ رجحت كفته وتولى القضاء، و بقيت هذه المسألة من سنة 218 هـ إلى 234 هـ و سميت فى التاريخ بالمحنة، وهى فى الأصل الخبرة. واستغل المعتزلة الموقف، و اغتتموا فرصة استمالة المأمون و المعتصم و الواثق لهم، فأطلقوا أيديهم فى السياسة، فنكلوا بخصومهم، و أذاقوا الناس العذاب، إذ هم لم يقولوا بخلق القرآن، و أقاموا ضجة ليس لها مثيل من محاكم تقام، و يعرض فيها على العلماء و القضاء القول بخلق القرآن، فمن لم يقل عذب و أهين، و سمي المؤرخون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن، و كانت سطوتهم-أى المعتزلة- فى ذلك بلغت الذروة، فلما بلغوها أخذوا ينحدرون عنها. و جاء المتوكل فرأى نارا تقد فى كل مكان، و امتحانات و محاكمات، و ضربا، و نفيا، و تشريدا، و رأى العام ساخط على هذه الحالة، و من لم يقل بخلق القرآن و تحمّل العذاب عدّ بطلا. فأراد الخليفة المتوكل أن يحتضن رأى العام، و أن يكتسب تأييده، فأبطل القول بخلق القرآن، و أبطل الامتحانات و المحاكمات، و نصر المحدثين (1). اتسع الأفق أمام المعتزلة، و واصلوا نشاطهم العلمى و السياسى، عند ما عزل يحيى بن أكثم عن منصب قاضى القضاة سنة 217 هـ و تولى مكانه ابن أبى دؤاد، و هو كبير المعتزلة و فى رعيّتهم الأول، و فى سنة 206 هـ مات يزيد بن هارون، و كان هو و يحيى بن أكثم يحولان بين المأمون و بين إظهار القول بخلق القرآن، فقد جاء فى تصريح للمأمون قال فيه: (لو لا يزيد بن هارون (2) لأظهرت القول بخلق القرآن).

ص:434

1-1) ظهر الإسلام ج 4 ص 8.

2-2) يزيد بن هارون أبو خالد الواسطى، المتوفى سنة 206 هـ كان من الحفاظ و العلماء المشهورين، قال على بن المدينى: ما رأيت رجلا قط أشهر من يزيد بن هارون. و كان له مكانة فى المجتمع و أثر فى قلوب الناس.

فقال له بعض جلسائه: و من يزيد بن هارون حتى يتقيه أمير المؤمنين؟ فقال المأمون: إني أخاف إن أظهرته يردّ عليّ، فيختلف الناس، فتكون فتنة، وأنا أكره الفتنة. وبهذا يظهر أن الفكرة أخذت من المأمون مكانها من قديم، ولكنه كان يمانع من قبل خواصه، وهو يحذر الفرقة و يخشى الفتنة، و بعد أن وجد الطريق قد مهد لذلك أعلن رأيه، و حمل الناس بالقوة إلى تأييده و اتباع رأيه، و بدأ بذلك في سنة 218 هـ. و على أى حال: فإن المأمون قد اشتد في امتحان الناس، و لزوم إقرار الفقهاء بما يراه، فجعل يرسل لعامله الكتب، و كانت تزداد شدة و عنفا و تهديدا و توعيدا، و كان من نتائج هذا الامتحان أن أجاب جميع الفقهاء لذلك، و لم يمتنع منهم إلا نفر قليل، منهم: أحمد بن حنبل، و محمّد بن نوح، و أحمد بن نصر الخزاعي، و أبو يعقوب البويطي، و نعيم بن حماد. و هؤلاء قد ذاقوا حتفهم لامتناعهم عن الإجابة، و بقي أحمد و لم يكن حظه كحظهم من السجن و القتل، فتركزت شخصية أحمد، فكانت أنظار المحدثين تتجه إليه، بعد أن غلبوا على أمرهم، و أصبحوا مضطهدين أمام ذلك التيار الذي يحاول القضاء على الجمود الفكرى، و إعطاء العقل حرية التصرف في نصوص الشريعة، إن لم تكن مؤيدة بالكتاب أو صحيحة السند من السنّة.

## أدوار المحنة:

### إشارة

كانت الخطوة الأولى التي خطاها المأمون ليضمن انصياع رعيته بالنحلة التي انتحلها، و الرأى الذي ارتآه، أن دعى الفقهاء و المحدثين إلى أن يقولوا بمقالته في خلق القرآن، فيقولون إن القرآن محدث، كما يقول المعتزلة الذين اختار منهم وزراء و صفوته، و جعلهم بمنزلة نفسه، فأرسل كتابا إلى عامله على بغداد: إسحاق بن إبراهيم، و هو ابن عم طاهر بن الحسين، و قد أمره فيه أن يشخص لديه القضاة و المحدثين، و أن يمتحنهم في موضوع خلق القرآن. كما أرسل كتبه إلى الأقطار لحمل الناس على ذلك، و إرغامهم على الأخذ بهذه الآراء، و اتباع الأمر الذي يدعو فيه إلى التفكير الحر، و استخدام العقل في فهم العقائد الدينية، كما تشير لذلك كتبه، و خاصة كتابه الأول الذي أطل فيه بذكر السبب الذي ألجأه إلى حمل الناس على القول بخلق القرآن، حيث قال فيه:

(إن خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين وإقامته، والعمل بالحق في الرعية، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية، وسفلة العامة، ممن لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده، والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه، وواجب سبيله، وقصور عن أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفونه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكير والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين على أنه (أى القرآن) قديم أزلى لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه. وقد قال الله عزّ وجلّ في محكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمة: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا فَكُلْ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ فَقَدْ خَلَقَهُ. وقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ . وقال عزّ وجلّ: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ . فأخبر أنه قصص لأمر قد أحدثها، وتلا به متقدمها، فقال تعالى: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ و كل محكم مفصل، و الله محكم كتابه و مفصله، فهو خالقه و مبتدعه، ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته، مبطل قولهم و مكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم و نحلّتهم، ثم أظهروا ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، و غرّوا بهم الجهال، حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب، و التخشع لغير الله، و التقشف لغير الدين، إلى موافقتهم عليه، و مواطأتهم على سيئ آرائهم، تزينا بذلك عندهم، و تصنعا للرئاسة و العدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، و اتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم) . ثم ذكر أن هؤلاء قد زكوا أمثالهم، و قبلت شهادتهم، و نفذت الأحكام بهم، مع دغل دينهم و فساد عقيدتهم: (و أولئك شرّ الأمة، و رعوس الضلالة المنقرضون من التوحيد، و أحق من يتهم

فى صدقه و تطرح شهادته، و لا يوثق بقوله و لا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، و لا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام و إخلاص التوحيد). ثم قال: (فاجمع من بحضرتك من القضاة، و اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، و تكشفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن و إحدائه، و أعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله، و لا واثق فيما قلده الله و استحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، و خلوص توحيد و يقينه، فإذا أقرأوا بذلك. . . فمرهم و من بحضرتهم من الشهود على الناس، و مسألهم من علمهم فى القرآن و ترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث. . . و اكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله). فكان هذا الكتاب خطوة أولى لامتحان الرعية فى انصياعهم و تسليمهم لما ينتحله من هذه المقالة، التى يرى القيام بها واجبا عليه، لأن ذلك يستلزم تصحيح عقائد الناس، و لا سيما إذا تغلغل الفساد إلى أصل من أصول الدين، كالإشراك مع الله شيئا آخر و هو القرآن، و بهذا لا يصح أن يستقصى من ضعفت عقيدته، و لا تقبل شهادته، إذ لا يوثق بمن ضعف إيمانه، و لا سلطان لمن لا تصح عقيدته و إشراك فى توحيد، فهو غير مأمون من الظلم و الحيف على الرعية و السلطان مسئول عنه أمام الله. و هذه الخطوة مقصورة على التوحيد و العزل عن القضاء، و عدم قبول شهادة من لا يتبع رأى الخليفة، فلا تعذيب و لا تنكيل، فهو يحاول الإصلاح بهذه الأمور، و إن تعذر ذلك فإنه يستعمل القوة. و أرسل نسخة من الكتاب إلى مصر، و كان قاضيا يومئذ هارون بن عبد الله الزهرى، فأجاب لذلك، كما أجاب الشهود المعتمدون، و من توقف منهم أسقطت عدالته، و أبطلت شهادته. و قد أصدر المأمون أمرا عاما يأخذ الناس بالمحنة فى كافة أرجاء المملكة الإسلامية، ففى سنة 218 هـ ذهب المأمون بنفسه إلى دمشق، و ربما كان فى طريقه و هو ذاهب إلى حملته الأخيرة على آسيا الصغرى. و هناك فى دمشق أشرف بنفسه على امتحان الفقهاء و العلماء، فى مسائل حرية الإرادة، و وحدانية الذات الإلهية، أى العدل و التوحيد، و عنده أن عقيدة التوحيد تعد اختبارا يودى إلى القول بخلق القرآن، و بذلك سُمى المعتزلة أنفسهم أهل التوحيد و العدل.

وسارع إسحاق بن إبراهيم والى بغداد إلى تنفيذ رغبة المأمون، فأحضر المحدثين و الفقهاء و المفتين، و أنذرهم بالعقوبة الصارمة و العذاب العتيد إن لم يقرأوا بما يطلب منهم، و ينطقوا بما سنلوا أن ينطقوا به، و يحكموا بالحكم الذى ارتأه المأمون من غير تردد أو مراجعة، فنطقوا جميعاً بما طلب منهم، و أعلنوا اعتناق ذلك المذهب. و يعلل ابن كثير: أن إجابتهم كانت مصانعة، لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه، و إن كان له رزق على بيت المال قطع، و إن كان مفتياً منع من الإفتاء، و إن كان شيخ حديث ردع عن الاستماع (1). و إليك ثبتي فى أسماء بعض من أجاب من العلماء منهم: يحيى بن معين المتوفى سنة 232 هـ و هو من شيوخ أحمد بن حنبل و البخارى و غيرهم، و قال فيه أحمد: حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث. و إسماعيل بن أبى مسعود البصرى المتوفى سنة 248 هـ. و على بن الجعد الهاشمى مولاهم أبو الحسن الجوهري المتوفى سنة 230 هـ و أبو حسان الزيادى المتوفى سنة 242 هـ و على بن مقاتل، و أبو معمر القطيفى المتوفى سنة 236 هـ و أحمد بن الجوزى المتوفى سنة 246 هـ و محمد بن سعد كاتب الواقدي مؤلف الطبقات المتوفى سنة 230 هـ و أبو خيثمة زهير بن حرب المتوفى سنة 234 هـ و أبو مسلم المستملى، و أحمد بن الدورقى المتوفى سنة 246 هـ و قتيبة بن سعيد المتوفى سنة 240 هـ و بشر بن الوليد الكندى المتوفى سنة 238 هـ و أبو على بن عاصم، و أبو شجاع، و إسحاق بن إسرائيل المتوفى سنة 225 هـ و سعدويه الواسطى المتوفى سنة 225 هـ و محمد بن حاتم بن ميمون المتوفى سنة 235 هـ و غيرهم: كاهن العوام، و يحيى بن حميد العمري، و أبو نصر التمار. و قد ذكر ابن كثير منهم: النضر بن شميل. و هذا خطأ لأن ابتداء الدعوة إلى القول بخلق القرآن كانت فى سنة 218 هـ و كانت وفاة النضر فى سنة 203 أى قبل المحنة بخمس عشرة سنة.

ص:438

جاء في كتاب المأمون الرابع لعامله إسحاق يأمره بأن يستدعى بشر بن الوليد، فإن أصر على الامتناع تضرب عنقه، وكذلك أمره في إبراهيم بن المهدي، و أما الباقر يعيد عليهم الكرة، فمن أبي منهم يحمل موثقاً إلى عسكر المأمون مع من يقوم بحفظهم. فجمعهم إسحاق، وقرأ عليهم كتاب المأمون، فأجاب كافة الفقهاء ما عدا أحمد بن حنبل، و سجادة، و القواريري، و محمد بن نوح. فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم، فشدوا في الحديد، فلما أصبحوا أعاد امتحانهم، فاعترف سجادة بخلق القرآن فأطلقه. و بعد يوم آخر أجاب القواريري بأن القرآن مخلوق فأخلى سبيله، و لم يبق إلا أحمد بن حنبل و محمد بن نوح. فكتب حاكم بغداد إلى المأمون بذلك، فأمره بأن يشخص إليه أحمد بن حنبل، و محمد بن نوح موثقين في الأغلال، و لما و صلا في طريقهما إلى قرب الأنبار، و في أثناء الطريق جاءهم نعي المأمون. فأما محمد بن نوح فقد مات و هو عائد إلى بغداد بعد موت المأمون، فكف قيده و صلى عليه أحمد بن حنبل، و بهذا ينتهي دور أحمد في عصر المأمون.

### في عهد المعتصم:

لم تنقطع المحنة عن العلماء بوفاة المأمون، بل اتسع نطاقها، و زادت ويلاتها، و كانت شرا مستطيراً، فقد بلغ البلاء أشده، و المحنة أقصاها في عهد المعتصم، ثم في عهد الواثق. لقد أوصى المأمون قبل وفاته أخاه المعتصم بالاستمسك بمذهبه في القرآن، و دعوة الناس إليه بقوة السلطة، و كأنه فهم أن تلك الفكرة دين واجب الاتباع، لا يبرأ عنقه منها من غير أن يوصى خلفه به فوصاه، فقد جاء في مطلع وصيته: هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون الرشيد. أمير المؤمنين بحضرة من حضره، أشهدهم جميعاً على نفسه. أنه يشهد هو و من حضره، أن الله عزّ و جلّ وحده لا شريك له في ملكه، و لا مدبر لأمره غيره، و أنه خالق، و ما سواه مخلوق، و لا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل كل شيء، و لا شيء مثله تبارك و تعالى. و جاء في وسط الوصية: يا أبا إسحاق



أدن منى (كنية المعتصم) واتعظ بما يرى، وخذ بسيرة أخيك في خلق القرآن (1). فاشتد المعتصم في امتحان الناس، اتباعا لسيرة أخيه و جريا على نهجه الذي لم يتصف بصفة الرأفة، ولا يحول بينه وبين إيقاع المكروه بمن يريد أى حائل، مع ما فيه من النشاط العسكرى، وقوة الإرادة والشجاعة التى امتاز بها، لم يكن رجل علم، بل رجل سيف لا يضعه عن عاتقه. ولا حاجة لنا بذكر جميع أطراف المحنة (2)، و المؤاخذة، و لكننا نشير لما يخص صاحبنا-أحمد بن حنبل-فى ذلك، و موقفه فى مجابهة تلك الشدة، و كيف نجا من سطوة المعتصم، و شدّه ابن أبى دؤاد، و هو كبير المعتزلة، و بطل هذه المعركة، فهل أجاب أحمد لما أراد الخليفة فخلى سبيله؟ أم أن المعتصم خشى وقوع الفتنة عند ما يقتله إن أصر على الامتناع؟ أم أنه رق عليه و أعجب بشجاعته و ثباته؟ و قد ذكر بعض المؤرخين أن أحمد أجاب فى المحنة، و انقطع عن المناظرة كما سنبينه قريبا. و على وجه الإجمال فإن المعتصم اشتد فى امتحان الناس، و كان أحمد سجينا عنده فأمر بحمله إليه، و قال حاكم البلد: إن الخليفة قد أقسم إلا أن يقتله بالسيف، و أنه سوف يضربه ضربا بعد ضرب، و أنه سيزجّه فى مكان مظلم لا يرى فيه النور. و سار أحمد إلى المعتصم، فلما دخل عليه و ابن أبى دؤاد و أصحابه فى حضرته، و الدار غاصة بأهلها و بالقضاة و الفقهاء من أتباع الدولة، ناظروه و لم يستطيعوا إخضاعه. فقال ابن أبى دؤاد: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل مبتدع. و بقى أحمد ثلاثة أيام يؤتى به كل يوم للمناظرة، عسى أن يرضخ لحكم السلطة، و لكنه استعصم و لم يجب، فلما يئس المعتصم منه أمر بضربه بالسياط، و قد اختلف فى عددها، فقيل ثمانية و ثلاثين، و قيل أقل من ذلك. و على أى حال: فإن تعذيب أحمد لم يدم، بل أن المعتصم أطلق سراحه، و خلع عليه، و قد ذكر بعضهم أن السبب هو أن العامة قد تجمعوا على دار السلطان أو

ص:440

1-1) ابن حنبل لمحمد أبو زهرة ص 47.

2-2) مقدمة كتاب أحمد بن حنبل و المحنة ص 14 نقلا عن هامش الكامل ج 3 ص 131-139.

همّوا بالهجوم، فأمر المعتصم بإطلاقه، وهذا لا- يتمشى مع واقع الأمر، فإن المعتصم لم يعرف بضعف الإرادة، وكانت دولته في إبان عظمتها وقوة سلطانها، فلا يؤثر فيها استنكار عدد قليل من الناس، على ما يفعله من الأمور. وذهب بعض إلى أن أحمد أجاب الخليفة، فأطلق سراحه كما جاء في رسالة الجاحظ التي تمثل وجهة نظر المعتزلة تمثيلاً صادقاً، فهي تنسب لأحمد انقطاعه عند ما ناقشه أحمد بن أبي دؤاد بمحضر المعتصم، وأقام عليه أدلة من الكتاب و أدلة عقلية. قال الجاحظ في رسالته مخاطباً أهل الحديث بعد أن ذكر المحنة و الامتحان: وقد كان صاحبكم هذا (أى الإمام أحمد) يقول: لا تقية إلاّ في دار الشرك، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن، كان منه على وجه التقية، فلقد أعملها في دار الإسلام. وقد أكذب نفسه، وإن كان ما أقر به على الصحة و الحقيقة، فلست منه و ليس منكم، على أنه لم ير سيفاً مشهوراً، و لا ضرب ضرباً كثيراً، و لا ضرب إلاّ بثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار، مشبعة الأطراف، حتى أفصح بالإقرار مراراً، و لا كان في مجلس ضيق، و لا كانت حاله مؤيسة، و لا كان مثقلاً بالحديد، و لا خلع قلبه بشدة الوعيد. و لقد كان ينازع بألین الكلام و يجيب بأغلظ الجواب، و يرزنون و يخف، و يحلمون و يطيش (1). هذا ما أردنا إثباته من هذه الرسالة التي تعتبر وثيقة معاصرة نجت مما أتلفه أهل السنّة من مؤلفات المعتزلة، و هي تدلنا على إقرار أحمد و اعترافه بأن القرآن مخلوق، مؤيدة بما ذكره اليعقوبى في تاريخه. و امتحن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن، فقال أحمد: أنا رجل علمت علماً و لم أعلم فيه بهذا، فأحضر له الفقهاء و ناظره عبد الرحمن بن إسحاق و غيره، فامتنع أن يقول أن القرآن مخلوق، فضرب عدة سياط، فقال إسحاق بن إبراهيم: ولنى يا أمير المؤمنين مناظرته. فقال: شأنك به. فقال إسحاق: هذا العلم الذى علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال؟ فقال أحمد: بل علمته من الرجال.

ص: 441

فقال (إسحاق) : شيئاً بعد شيء أو جملة؟ قال: علمته شيئاً بعد شيء. قال (إسحاق) : فبقي عليك شيء لم تعلمه؟ قال أحمد: بقي على شيء لم أعلمه. قال إسحاق: فهذا مما لم تعلمه، و علمكته أمير المؤمنين. قال أحمد: فإني أقول بقول أمير المؤمنين. قال إسحاق: في خلق القرآن؟ قال أحمد: في خلق القرآن. فأشهد عليه و خلع عليه، و أطلقه إلى منزله. هذا ما يستدل به على إجابة أحمد للمعتصم، من أقوال رجال هم أقرب الناس من عهده، و أطلعهم على حوادثه. و بدون شك أن امتحان أحمد كان من أكبر العوامل لانتشار ذكره و اتجاه الناس إليه، و أنه بعد أن استقر في بيته بعد ما عفى عنه المعتصم، التف حوله جماعة للسمع منه في المسجد يدرس مدة بقاء المعتصم، و بعد وفاة المعتصم تقلد ولده الواثق الخلافة، و صار أحمد محدثاً مشهوراً، فعظم ذلك على قاضى بغداد الحسن بن علي بن الجعد، فكتب إلى ابن أبي دؤاد (1) بذلك، فلما سمع أحمد امتنع من تلقاء نفسه. و لما قام الواثق بالأمر، أعاد امتحان أحمد، و لكنه لم يتناوله بأذى، كما فعل المعتصم، و اكتفى بمنعه من الاجتماع بالناس، فأقام أحمد مخفياً لا يخرج إلى صلاة و لا غيرها حتى مات الواثق.

ص:442

1-1) أحمد بن أبي دؤاد بن جرير القاضى الايادى، المتوفى سنة 240 هـ كان من أقوى شخصيات عصره، و له الأثر الكبير فى المجتمع، و كان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال. و هو بطل الثورة الفكرية أيام المحنة، لمكانته فى الدولة و نفوذه، و قد اتصل بالمأمون فأعجب به لعقله و حسن منطقته؛ فقربه و أصبح ذا نفوذ كبير فى قصره، و كان من وصية المأمون للمعتصم: (و أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة فى المشورة فى كل أمر، فإنه موضع ذلك). فلما ولى المعتصم جعل بن أبي دؤاد قاضى القضاة مكان يحيى بن أكثم، و كان كذلك قاضى القضاة فى أيام الواثق، فلما ولى المتوكل أصيب بالفالج و أفل نجمه، فكانت مدة عظمة بن أبي دؤاد و نفوذه نحواً من ثمان و عشرين سنة، أى من سنة 204 هـ إلى سنة 232 هـ. و قد تابع ابن أبي دؤاد بنفسه معاينة الناس المخالفين للمعتزلة، و أشرف على إنزال الأذى بهم.

و من الحق و الإنصاف أن نقول أن المحنة لم تكن مقصورة على أحمد بن حنبل، وإن كان تصوير موقفه قد أخذ يتسع و يتطور، و حيكته حوله أساطير و أقوال، فإن هناك من فقهاء ذلك العصر من كان موقفهم أشد من موقف أحمد في الامتناع، و مواجهة الخطر، و مكابدة المحنة، فقد استشهد الكثير منهم في سبيل معتقده، و قاوم حتى لقي حتفه، كما رأينا في موقف محمد بن نوح و موته و هو مثقل بالحديد، و إليك ذكر البعض منهم:

### شركاء في المحنة:

1- أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي المقتول سنة 231 هـ و هو مروزي من مدينة مرو، ينتمي لإحدى العشائر الكبيرة في قبيلة خزاعة، و من تلامذة مالك بن أنس، روى عنه ابن معين و محمد بن يوسف الطباع. و كان من أهل العلم، صلبا في عقيدته، قويا في معارضته، و قال أحمد بن حنبل فيه بعد أن قتل: (لقد جاد بنفسه) كما أن له مكانة في المجتمع، فقد شغل أبوه و جدّه المناصب العالية في عهد الخلفاء العباسيين، كما اشتهر هو في الوقت نفسه بالأمانة، و العدالة بين المحدثين من أهل السنّة. قبض عليه والي بغداد، و امتحنه الوثائق و سأله: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله ليس بمخلوق. فحمله أن يقول إنه مخلوق، فأبى. و سأله عن رؤية الله يوم القيامة (و المعتزلة ينكرونها) فقال بها، و روى له الحديث في ذلك. فقال الوثائق: و يحك هل يرى كما يرى المحدود المتجسم، و يحويه مكان، و يحصره الناظر، إنما كفرت برب هذه صفته. و لما أصر أحمد الخزاعي على رأيه، دعا الخليفة بالسيف المسمى الصمصامة و قال: إنني احتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربا لا نعبد، و لا نعرفه بالصفة التي وصفه بها. ثم مشى إليه بنفسه، فضرب عنقه، و أمر به فحمل رأسه إلى بغداد، فنصب بالجانب الشرقي أياما، ثم بالجانب الغربي أياما، و لما صلب كتب الوثائق ورقة و علقت في رأسه: (هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك دعاه عبد الله الإمام هارون - و هو الوثائق - إلى القول بخلق القرآن و نفى التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فعجل الله به إلى ناره).

و وكل بالرأس من يحفظه و يصرفه عن القبلة (1) و قد تنقلت قصة خرافية فحواها: أن الرأس منذ أن نصب إلى أن دفن كان يتلو القرآن، و تضاهيها قصة أخرى تحكى: أنه بعد مقتل أحمد بن نصر بسنين طويلة وجد رأس أحمد بن نصر و جسده مطمورين فى الرمال، لم يلحقهما أى أثر (2). و قتل أحمد بن نصر فى آخر شعبان سنة 231 هـ و ظل رأسه و الجذع الذى نصب عليه معروضين للأنظار طيلة ست سنوات، و لا يعقل ترك رأس قتل لجريمة الكفر فى نظر الدولة، يتلو القرآن طيلة هذه المدة، مما يدل على فضيحة تلك الدعوى، و استنكار الناس، و لكن الاندفاع العاطفى خلق حول كثير من الأشخاص أساطير و خرافات يكذبها الوجدان. 2- يوسف بن يحيى البويطى تلميذ الشافعى و خليفته على حلقة درسه، حمل من مصر إلى بغداد، مثقلاً بأربعين رطل من الحديد، و امتحن فأبى أن يقول إن القرآن مخلوق، و قال: و الله لأموتن فى حديدى هذا، حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم، و لئن دخلت عليه-يعنى الواصل- لأصدقته، و مضى على امتناعه حتى مات فى سجنه سنة 232 هـ. و كان و هو فى الحبس يغتسل كل جمعة، ثم يخرج إلى باب السجن إذا سمع النداء، فيردّه السجنان و يقول له: ارجع رحمك الله. فيقول البويطى: اللهم إني أجبت داعيك فمنعوني (3). 3- عمرو بن حماد بن زهير التيمى مولى آل طلحة الكوفى، المتوفى سنة 219 هـ و هو من شيوخ أحمد و البخارى و يحيى بن معين، و قد امتحن و عذب لأجل امتناعه عن القول بخلق القرآن، لما بلغ كتاب المأمون إلى الكوفة، سئل عن فحواه فقال: إنما هو ضرب الأسواط، ثم أمسكهم بزر ثوبه، و قال: رأسى أهون علىّ من هذا. و لم يزل مصرّاً على امتناعه حتى مات سنة 219 هـ. 4- نعيم بن حماد بن معاوية بن الحرث الخزاعى أبو عبد الله المروزى،

ص:444

- 
- 1- (1) تاريخ بغداد ج 5 ص 177. و [1] طبقات الشافعية ج 1 ص 270.
  - 2- (2) أحمد بن حنبل و المحنة ص 166.
  - 3- (3) طبقات الشافعية ج 1 ص 276. [2] أحمد بن حنبل و المحنة ص 367.

المتوفى سنة 228 هـ كان من الذين ثبتوا في المحنة، ولم يجب إلى ما طلب منه عند ما أمر الواثق بحمله من مصر، و امتحن في القول بخلق القرآن، فلم يقل أن القرآن مخلوق، وأصرّ على التمسك بعقيدته، فزج في السجن إلى أن مات فيه. ونعيم هذا هو الذي ألف كتابا في الرد على أبي حنيفة، وكان يعرف بوضع الحديث في تقوية السنة في مقابل المعتزلة وغيرهم (1). 5- عفان بن مسلم بن عبد الله الأنصاري أبو عثمان البصرى الصفار، أحد الأئمة الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة، وعنه أخذ أحمد بن حنبل و البخارى، وابن معين، وابن المدينى، قال أبو حاتم: هو إمام ثقة متقن متين. وقال ابن عدى: عفان أوثق من أن يقال فيه شيء (2). نزل عفان بغداد، ونشر بها علمه، و حدث عن شعبة و أفرانه، قال يحيى بن معين: أصحاب الحديث خمسة: ابن جريج، و مالك، و الثورى، و شعبة. قال حنبل: كتب المأمون إلى متولى بغداد يمتحن الناس، فامتحن عفان. وقال المأمون: فإن لم يجب عفان فاقطع رزقه. و كان له في الشهر خمسمائة درهم، فلم يجبهم عفان لذلك وقال: وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوَعَّدُونَ (3). فقطع المأمون رزقه الذى كان يتقاضاه منه، و ثبت على عقيدته في المحنة، و قد غضب عليه أهل بيته، لأنه حرمهم بامتناعه مما يقيم أودهم، إذ كان يعول أربعين نفسا، و لكن ذلك لم يقع عنده موقع الاهتمام، و أصرّ على امتناعه، إلى أن مات سنة 220 هـ. 6- عبد الأعلى بن مسهر الغسانى أبو مسهر الدمشقى، المتوفى سنة 218 هـ عالم الشام و عظيم القدر عند أهلها، و لعظيم مكانته عندهم أنه كان إذا خرج اصطف الناس يقبلون يده، و هو من رجال الصحاح الستة، و من شيوخ أحمد بن حنبل، و ابن معين. قال أحمد: ما كان أثبتة. وقال ابن معين: منذ خرجت من باب الأنبار إلى أن رجعت لم أر مثل أبى مسهر. و قال أبو حاتم: ما رأيت أفصح منه و ما رأيت أحدا في

ص: 445

- 
- 1-1) شذرات الذهب ج 2 ص 67. [1]
  - 2-2) الخلاصة للخزرجى ص 137.
  - 3-3) الشذرات ج 2 ص 47. [2]

كورة من الكور، أعظم قدرا ولا أجل عند أهلها من أبي مسهر بدمشق، إذا خرج اصطف الناس يقبلون يديه. وقد ثبت عبد الأعلى ولم يجب في المحنة، فحبسه المأمون ببغداد في شهر رجب لمحنة القول بخلق القرآن، ومات في الحبس سنة 218 هـ (1) وأما قول ابن سعيد أنه مات سنة 210 هـ فهو خطأ، لأن المحنة ابتدأت في سنة 218 هـ. هؤلاء الرجال هم أشهر من وقف في ذلك المعترك العقائدي، الذي أثارته الدولة، وحملت الناس على الخضوع لإرادتها بالتهديد والتوعيد، والضرب بالسياط، والقتل والسجن. وإن من ظلامه التاريخ أن تخصص هذه المحنة بأحمد بن حنبل فيكون فارسها المحنك، وبطلها الأول، وموقفه الوحيد في نصرة الإسلام منذ بزوغ شمسهِ في الجزيرة العربية، ونحن لا ننكر موقفه ولا نبخس حقه، ولكننا نقول: أن هناك زوائد يجب أن تهمل، وأطواق وأساطير لا تزيد البحث إلا تعقيدا كما نشير إليها في المناقب.

## أوضاع المحنة في عصر الإمام أحمد:

إن ما يمتاز به عصر أحمد هو وجود معسكرين متخصصين كل يحاول أن ينال السبق والتغلب، ويحاول القضاء على الطرف الآخر، وهم: المعتزلة، وأهل الحديث. ولقد بلغ الصراع أشده، وقامت ثورة فكرية، وعاطفية، والسياسة من وراء ذلك تلعب دورها، وكان كل من المعسكرين، يأمل آمالا واسعة، فالمعتزلة كانوا يأملون أن يصبح الاعتزال مذهب الدولة الرسمي، كما أن الإسلام دينها الرسمي، فإذا تم ذلك، انتشر الاعتزال تحت حماية الدولة، وأصبح أكثر المسلمين معتزلة، فوحدوا الله كما يوحدون، واعتنقوا أصول الاعتزال كما يعتنقون، وتحرر المسلمون في أفكارهم، فأصبح المشرعون لا يتقيدون بالحديث تقيد المحدثين، وإنما يستعملون العقل، ويزنون الأمور بالمصالح العامة، ولا يرجعون إلى نص إلا أن يكون قرآنا أو حديثا مجمعا عليه، وتحرر عقول المؤرخين من المسلمين، فيتعرضون للأحداث الإسلامية، بعقل صريح، ونقل حر، فيشرون أعمال الصحابة والتابعين، ويضعونها

ص: 446

---

1-1) الخلاصة للخزرجي ص 187. وشذرات الذهب ج 2 ص 44. [1]

فى نفس الميزان الذى توزن به أعمال غيرهم من الناس (1). ولقد تدخلت الحكومة فى مناصرة المعتزلة، وأخذوا الناس إلى اتباع آرائهم بالقوة. و مر المعتزلة فى نشاطهم أيام المأمون و المعتصم و الواثق، و كان المحدثون يقفون أمام هذا الرأى بشتى الأساليب، و ظهر القول بخلق القرآن و قدمه، فكانت هناك محنة عامة، فأجاب من أجاب و امتنع من امتنع، حتى جاء عهد المتوكل فأراد أن يستجلب الرأى العام، لأن المسألة بلغت إلى أقصى حد من العنف و الشدة، فأعلن إبطال ذلك فى سنة 234 هـ و هدد من أثار هذه المسألة، و أظهر الميل للمحدثين، و وقف بجانبهم، فكانت لأصحابهم الغلبة، و فى ذلك العهد طلع نجم أحمد بن حنبل، و ظهر اسمه لأنه بقية الرجال المبرزين الذين امتنعوا من الإجابة كما هو المشهور. و انتصر المحدثون و شملهم المتوكل بعطفه و رعايته، و أشخص منهم مائتين، و كان فيهم: مصعب الزبيرى، و إسحاق بن أبى إسرائيل، و إبراهيم بن عبد الله الهروى، و عبد الله و عثمان ابنا أبى شيبه. فقسمت بينهم الجوائز، و أجزيت عليهم، و أمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، و أن يحدثوا بالأحاديث التى فيها الرد على المعتزلة و الجهمية، و أن يحدثوا بالأحاديث فى الرؤية. فجلس عثمان بن أبى شيبه فى مدينة المنصور، و وضع له منبر و اجتمع عليه الناس. و جلس أبو بكر بن أبى شيبه فى مسجد الرصافة، و قام القصاصون بنشاط واسع، و وضعت الأحاديث عن صاحب الرسالة صلى الله عليه و آله و سلم و نسبوا له زورا أنه صلى الله عليه و آله و سلم قال: ما قيل من قول حسن فأنا قلته. و التف الناس حول أنصار الدولة من المحدثين، و استمعوا إلى القصاص الآمنين من المؤاخذات، لأن الدولة لهم تحرسهم و الظروف تساعدهم، و قد أنكر أحمد بن حنبل على ابن أبى شيبه، و على مصعب و الهروى و ضعّفهم، و كان انتصار المتوكل للمحدثين حدثا هاما، فقد أفل نجم المعتزلة، و سقطت دولتهم، و قام أهل الحديث باغتنام هذه الفرصة، فارتفع لواؤهم و تبوؤوا المكانة الرفيعة، و انتقموا من خصومهم المعتزلة، بل من كل من يتهم بالميل إليهم، و حدثت حوادث انتقامية بدون تدبر و ترو، و هكذا شأن من انتصر بعد ظلم، و اعتر بعد ذلة، فأوقع الحنابلة تقمّتهم على كثير ممن لم يشارك المعتزلة فى سلطانهم.

ص: 447



أما الإمام أحمد فقد علت منزلته عند المتوكل وقربه إليه وطلب منه أن يتولى تعليم ولي العهد، كما كان يتعاهده بالإكرام ويشيد بذكوره و يتشوق لرؤيته، وطلب أن يزوره في عاصمة ملكه ليراه ويتبرك بقربه. وعند ما لمس الناس هذا العطف من المتوكل الذي عرف بقساوة القلب، والظلم والاستبداد وسفك الدماء، والانهماك في الشهوات، انهال الناس على أحمد من مناصريه وغيرهم، وازدحموا على بابه، وتهافت رجال الدولة وأعيانها عليه، فكان الطريق إلى بيته مزدحما بالناس، وإذا سار في الطريق احتشدوا خلفه، و تحدثوا في الأندية و المجتمعات عن عظمته وعلو مكانته، ويأتون إليه بالمنامات المباشرة والحوادث الدالة على عظمته، فهذا يقول: إن أمي كانت مقعدة فأقسمت على الله باسم أحمد بن حنبل فعوفيت. وهذا يقول: إن الجندی المسلم في غزو الروم أيام أحمد إذا رمى وذكر اسم أحمد أصاب، وإن الفارس الرومي المتحصن بدرعه وترسه وخوذته لا يصيبه السهم إلا إذا ذكر اسم أحمد. ومن الغرائب: أنه زار تلميذه (بقي بن مخلد) في خان بأطراف بغداد، فازدحم الناس عليه، وبعد أن رجع أحمد تهافت الناس على ذلك الخان للتبرك بالمكان الذي جلس فيه، و المكان الذي وقف فيه، فربح صاحب الخان لكثرة الوفود وكتب ألواحاً وعلقها وفيها: هنا جلس أحمد، وهنا تكلم، وهنا وقف (1) إلى غير ذلك من الأمور التي شاعت في بغداد.

ص:448

تقدم الكلام حول المناقب، والمؤلفين فيها، وأنهم جاءوا بأشياء لا واقع لها، وأنها من نسيج الوهم وتصوير الخيال، وأن أكثرهم اندفع وراء العاطفة العمياء، فحال بينهم وبين التفكير الحر والوصول إلى الواقع، حتى جعلوا من لا شيء شيئاً، ووضعوا أحاديث تدل بمنطوقها على عظمة الشخصية التي يحاولون إبرازها في إطار العظمة التي خرجت بهم عن نطاق البشرية، وارتفعت بها إلى أسمى رتبة من الكمال النفساني. وقد تعرضنا في الأجزاء السابقة إلى ذكر بعض المناقب لرؤساء المذاهب الثلاثة بصورة إجمالية، وأنهم أوردوا أحاديث مبشرات عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كل ذلك نتيجة التطاحن الطائفي والصراع العقائدي. أما الحنابلة فلم يأتوا بشيء من تلك المبشرات تصريحاً، لتكون في قائمة المرجحات للأتباع، ولكنهم استندوا إلى البعض منها تلميحاً، أو على وجه العموم دون تخصيص، ولكنهم امتازوا بوضع المنامات، وكثرة الأطياف، ولعل الكثير منهم جعلها هي المرجحة لاتباع أحمد واعتناق مذهبه، ويشهد لذلك قول أبي الخطاب المتوفى سنة 476 هـ: وعن مذهبي إن تسألوا فابن حنبل به اقتدى ما دمت حيا أمتع

وذاك لأنني في المنام رأيته يروح ويغدو في الجنان ويرتع

(1)

ص: 449

و يقول بعضهم: رأيت أبا الخطاب في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فأشدد: أتيت ربي بمثل هذا فقال ذا المذهب السديد

محفوظ ثم في الجنان حتى ينقلك السائق الشهيد

و محفوظ هو اسمه و هو من كلواذ، و كان من شيوخ الحنابلة و أعيانهم، لما مات دفن إلى جنب قبر أحمد. و كثرت المنامات التي تعطي بمؤداها صورة عن عظمة شخصية أحمد، و تعلق العامة به. نقل ابن الجوزي عن علي بن إسماعيل أنه قال: رأيت أن القيامة قد قامت و كأن الناس قد جاءوا إلى موضع عند قنطرة، لا يترك أحد يجوز حتى يجيء بخاتم، و رجل ناحية يختم للناس و يعطيهم، فمن جاء بخاتم جاز، فقلت: من هذا الذي يعطي الخواتيم؟ فقالوا: هذا أحمد بن حنبل (1). و قد سبقتهم الحنفية لهذه المنقبة في الاختراع، فقد ذكر المكي في المناقب أن أبا حنيفة رأى على سرير في بستان، و معه رق يكتب جوائز قوم، فسئل عن ذلك فقال: إن الله قبل عملي و مذهبي و شفيعني في أممي، و أنا أكتب جوائزهم. فقيل له: إلى أي غاية يكون علمه حتى تكتب جوائزته؟ فقال أبو حنيفة: إذا علم أن التيمم لا يجوز بالرماد (2). و ناهيك ما لهذه الأمور من أثر في توجيه شعور العامة. و تعلق قلوبهم بمن يكون اتباعه نجاة من عذاب يوم القيامة، و ما أكثر هذه الترغيبات في كتب المناقب، و التساهل في نقلها، كما أن المالكية يدعون أن مالكا يمنع منكرا و نكيرا عن مساءلة أصحابه في القبر. و نحن لا نطيل الحديث عن هذه الأمور، و لكننا نشير للبعض منها مما جعل كالبشارة بأحمد و ترجيح اتباعه. و يقول الأسود بن سالم: أتاني آت و قال لي: يا أسود الله يقرأ عليك السلام و يقول لك هذا أحمد بن حنبل يرد الأمة عن الضلالة فما أنت فاعل؟ و إلا هلكت.

ص:450

1-1) ابن الجوزي ص 446. [1]

2-2) مناقب أبي حنيفة للموفق ج 2 ص 207.

و يقول الحسن الصواف: رأيت رب العزة في المنام فقال لى يا حسن من خالف أحمد بن حنبل عدب. و يقول أبو عبد الله السجستاني: رأيت رسول الله في المنام، فقلت: يا رسول الله من تركت لنا في عصرنا هذا من أمتك تقتدى به في ديننا؟ قال: عليك بأحمد بن حنبل. إلى غير ذلك من المنامات و الأطياف التي وضعها أنصار المذهب الحنبلى، ليوجهوا الناس إليه في عصر طغى فيه تيار التعصب، و جعلت الطائفية أداة لأغراض الولاة، و ستارا تعمل من ورائه الأيدى العابثة التي تحمل معول الهدم و أداة التخريب. و قد حذبوا القصاصين في استخدام هذه الوسائل تحقيقا للهدف، و نيلا للغرض الذي يحصل من وراء ذلك. فتراهم يقومون في الأندية، و المساجد و الطرقات، يحدثون بما يعضد المذهب و انتشاره، فهذا يقص عمن لا يعرفه: بأنه رأى في المنام بعض الصالحين في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى. قيل: من وجدت أكثر أهل الجنة؟ قال: أصحاب الشافعى: فقال له: فأين أصحاب أحمد بن حنبل؛ فأجابه: إنك سألتنى عن أكثر أهل الجنة، و ما سألتنى عن أعلى عليين، أصحاب أحمد في أعلى أهل الجنة، و أصحاب الشافعى أكثر أهل الجنة. و يقول الحسين بن أحمد الحربى: رأيت في المنام كائى في جماعة، و كأننا قد اعتقلنا، و كائى مكروب من الاعتقال، فإذا بقائل يقول: أى شىء أنتم؟ فقلت: حنابلة. فقال: قوموا فإن الحنابلة لا يعتقلون، و كأن قائلا يقول: ما من أحد اشتمل على هذا المذهب فحوسب. و عن يحيى الحماني قال: رأيت في المنام كائى في صفة لى إذ جاء النبى صلى الله عليه و آله و سلم فأخذ بعضادتى الباب، ثم أذن و أقام، و قال: نجا الناجون و هلك الهالكون. فقلت: من الناجون؟ قال: أحمد بن حنبل و أصحابه (1). و بهذا النشاط استغل كثير من الكذابين وضع منامات لجلب قلوب العامة، كما

ص: 451

ترى من رواية الحماني، وهو المعروف بالوضع، والمشهور بالكذب، كما نص الحفاظ على ذلك. وعلى وجه الإجمال فقد كثرت المنامات في شخصية أحمد مرة، وفي مذهبه أخرى، وفي قبره وفضل زيارته الثالثة. وبذلك انتشر لأحمد ذكر، ورفع عن مستوى البشر. قال أحمد بن حسين: سمعت رجلا من خراسان يقول: عندنا أحمد بن حنبل يروونه أنه لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة. وقال رجل: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة. وقال بعضهم: ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصل على الإمام أحمد (1). وآخر يقول يوم دفنه: دفن اليوم سادس خمسة وهم: أبو بكر، و عثمان، وعلى، وعمر بن عبد العزيز، وأحمد بن حنبل. إلى كثير من الأقوال التي صدرت عن أناس تأثروا بدعايات دعاة المذهب عند ما سنحت الفرصة، ورجحت الكفة وانتصر أهل السنة على خصومهم، وفسح الطريق أمامهم لمناصرة السلطة لهم بكل شيء. يحدثنا ابن الجوزي: أنه ذكر عند المتوكل بعد موت أحمد أن أصحاب أحمد يكون بينهم وبين أهل البدع (وهم غيرهم من الطوائف) الشر، فقال لصاحب الخبر: لا ترفع إلي من أخبارهم، وشد على أيديهم، فإنهم و أصحابهم من سادة أمة محمد. وكذلك كان لا يصغى لقول أي أحد في أحمد عند ما رفع منزلته وقربه، يحدثنا ابن كثير أن بعض الأمراء أخبر المتوكل أن أحمد لا يأكل لك طعاما، ولا يشرب لك شرابا، ولا يجلس لك على فراش، ويحرم ما تشربه. فقال المتوكل: والله لو نشر المعتصم، وكلمني في أحمد ما قبلت منه. وكتب رجل للمتوكل: إن أحمد يشتم أبائك ويرميهم بالزندقة. فكتب المتوكل جوابا يتضمن عدم الاعتناء، وأمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط، فأخذ عبد الله بن إسحاق فضربه خمسمائة سوط. فقال له المتوكل: لم ضربته خمسمائة سوط؟

ص:452

فقال: مائتين لطاعتك و ثلاثمائة لكونه قذف هذا الشيخ الصالح أحمد بن حنبل (1). و كما ذكرنا أن المتوكل أمر القصاصين و بعض الفقهاء بالحديث عن الرؤية و ما يتعلق بدم المعتزلة و الجهمية، فلا غرابة أن يقولوا على الشافعي أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له: تطلق عليه اسم الكفر؟ فقال: نعم من أبغض أحمد بن حنبل عاند السنّة، و من عاند السنّة، قصد الصحابة، و من قصد الصحابة، أبغض النبي، و من أبغض النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم كفر بالله العظيم (2). فيكون الناتج: من أبغض أحمد كفر بالله العظيم. و بعد وفاته حدثوا عن رؤيتهم أحمد بن حنبل في النوم، عن إسحاق بن إبراهيم: رأيت أحمد بن حنبل في النوم فقلت: يا أبا عبد الله أليس قد متّ؟ قال: بلى. قلت: فما فعل الله بك؟ قال: غفر لي و لكل من صلّى عليّ. قلت: يا أبا عبد الله فقد كان فيهم أصحاب بدع؟ قال: أولئك أجروا (3). و لسنا نريد هنا استقصاء ما وضع في تلك الفترة حول شخصيته، و لا نطيل الحديث في ذلك بعد أن أظهر لنا التحقيق مدى ذلك النشاط الذي سار عليه كثير من رواة المناقب، فهي لا تعطى لنا صورة واقعية. إننا نريد التعرف على تلك الشخصيات من طريق الواقع، و ستقف على أقوال العلماء في الإمام أحمد كما وقفت على أقوالهم في غيره.

### شيوخه:

ابتدأ أحمد في طلب العلم في سنة 179 هـ أي بعد مضي خمس عشرة سنة، و أول شيخ تلقى عليه العلم هو: هشيم بن بشير السلمى المتوفى سنة 183 هـ أبو معاوية الواسطي نزل بغداد و كان مدلسا. استغرقت دراسة أحمد على هشيم ثلاث سنوات أو أكثر، و قد كتب من إملاء هشيم كتاب الحج نحو ألف حديث، و جانبا من التفسير و القضاء و كتبها صغارا.

ص: 453

1-1 (1) البداية و النهاية ج 10 ص 340. [1]

2-2 (2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 13. [2]

3-3 (3) طبقات الحنابلة ج 1 ص 110. [3] و انظر مناقب أحمد لابن الجوزي ترى سيلا من الأحلام و المنامات.

وقد رحل أحمد في طلب الحديث إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والعراق، وممن تلقى عليهم: سفيان بن عيينة، وإبراهيم بن سعيد، ويحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة 198 هـ ووكيع المتوفى سنة 196 هـ وابن علية المتوفى سنة 193 هـ وابن مهدي المتوفى سنة 198 هـ وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة 211 هـ وجريز بن عبد الحميد المتوفى سنة 188 هـ وعلي بن هشام بن البريد، ومعمربن سليمان المتوفى سنة 187 هـ ويحيى بن أبي زائدة، وأبو يوسف القاضى المتوفى سنة 182 هـ وابن نمير المتوفى سنة 206 هـ والحسن بن موسى الأشيب المتوفى سنة 209 هـ وإسحاق بن راهوية المتوفى سنة 238 هـ وعلي بن المدينى المتوفى سنة 234 هـ ويحيى بن معين المتوفى سنة 233 هـ. واجتمع أحمد بالشافعى، وأخذ عنه الفقه وأصوله، وبدأت علاقته بالشافعى فى سنة 195 هـ حين قدم الشافعى بغداد، ودام هذا الاتصال إلى سنة 197 هـ وهى السنة التى توجه فيها الشافعى إلى مكة. ولما كان أكثر هؤلاء المشايخ قد تعرضنا لترجمتهم فى أبحاثنا المتقدمة فى الأجزاء السابقة، فقد رأينا أن لا نتعرض لترجمتهم هنا. أما الشخصية الأولى التى استقبلته ووجهته و نمت نزوعه. وجعلت منه طالب سنة، دءوبا فى طلبها، يجوب الأقطار، وهى شخصية هشيم بن بشير بن حازم المتولد سنة 104 هـ والمتوفى سنة 183 هـ. كان هشيم بخارى الأصل، أقام أبوه فى واسط، وكان طباحا للحجاج بن يوسف، ولما انتقلت أسرته إلى بغداد كان يصطنع هذه الصناعة، وقد اشتهر بإعداد بعض أنواع السمك وإجادته، فلما نزع ابنه منزع العلم لم يكن ذلك مألوفاً فى أسرته. وقد تلقى هشيم على بعض التابعين كعمر بن دينار والزهرى، ومغيرة بن مقسم، وغيرهم. وروى عنه شعبة وأحمد وعلي بن المثنى الموصلى وابن معين وخلق آخرون. وقد اختص به أحمد، مدة طويلة قبل أن يتصل بالشافعى، وبعد وفاة هشيم اتصل بالشافعى عند ما التقى به فى مكة، وأثار إعجابه به، فهو يعدّ الموجّه الثانى لأحمد بن حنبل، وكانت بينهما صلة ومودة.

وقد ذكرنا أن أول شخصية تلقى أحمد عنه العلم. هو أبو يوسف القاضى، و لكن لم تطل ملازمته له كما لازم هشيم و الشافعى، فهما فى طليعة شيوخه و الموجهين له. و لكن الغريب من الحنابلة هو جعل المشايخ تلاميذ، فقد ذكروا أن الشافعى و عبد الرزاق بن همام و ابن مهدي، و يزيد بن هارون، و الحسن بن موسى الأشيب، و هم من شيوخ أحمد، كانوا من تلامذته. و ذكروا أن البخارى من تلامذة أحمد، و أنه روى عنه الحديث، مع أن البخارى لم يرو له إلا حديثا واحدا فى آخر كتاب الصدقات تعليقا، و روى له مسلم و أبو داود فى صحيحيهما، و الباقون لم يخرجوا حديثه.

## تلامذته:

## إشارة

كان لأحمد بن حنبل أصحاب كثيرون: منهم من روى الحديث عنه، و منهم من روى الحديث و الفقه، و منهم من اشتهر برواية الفقه، و قد أحصاهم صاحب (المنهج الأحمد) فى عدد كبير، و لعل الحنابلة يبالغون العدد، و أنه إذا ذهب قدر المبالغة يبقى بعد كثيرا و لا يكون قليلا (1). و يجب أن نلاحظ هنا أمرا هاما و هو: أنه لا خلاف بين العلماء فى عد الإمام أحمد من المحدثين، لكن الخلاف فى عدّه من الفقهاء، فإن أكثرهم لم يذكره فى عداد الفقهاء، فابن جرير الطبرى لم يعد مذهبه فى الخلاف بين الفقهاء، و كان يقول: إنما هو رجل حديث لا رجل فقه. و ثارت عليه الحنابلة من أجل ذلك، و لم يذكره ابن قتيبة فى كتابه (المعارف من الفقهاء)، و ذكره المقدسى فى المحدثين لا فى الفقهاء، و اقتصر ابن عبد البر فى كتاب الانتقاء على الأئمة الثلاثة: أبى حنيفة و مالك و الشافعى. و من هذا يتبين أن مدرسته الفقهية لم تكن ذات أثر فى عصره، فمن الصعب تحديد نشاطها، و إعطاء صورة عن رجالها فى عصره، و إنما اتسعت بعد مدة من وفاته. و لذلك كان موضوع درجه مع المحدثين، و تردد بعض الأعلام فى عده من

ص: 455



الفقهاء، فأحمد اعتنى جلّ العناية بالحديث، و صرف همّه إلى الاهتمام بالرواية و الحفظ. فكان مسنده حصيلة عمره، حرر على يد غيره من تلامذته، و لقد كان شياخ ذكره و احتلاله مكاتته فى بغداد لملايسات المحنة و أحداث القول بخلق القرآن. و على أى حال: فإن أشهر أصحاب أحمد و رواة حديثه هم:

### أحمد بن محمد بن هانى المعروف بالأثرم:

المتوفى سنة 261-262 هـ الإسكافى، كان جليل القدر عظيما عند الحنابلة، قال سعد بن عتاب: سمعت يحيى بن معين يقول: كان أحد أبوى الأثرم جنيا (1). و قال إبراهيم بن الأصبهاني: أحفظ من أبى زرعة و أتقن. و قد نقل الأثرم عن أحمد بن حنبل مسائل كثيرة، كجواز المسح على العمامة، و إغناؤه عن المسح على الرأس، و أن قراءة القرآن بالألحان بدعة لا تستحسن، و أن المضمضة و الاستنشاق ركنان من أركان الوضوء، و غير ذلك من المسائل كما ذكر ابن أبى يعلى.

### أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبد العزيز المروزي:

المتوفى سنة 275 هـ و كان أخص أصحاب أحمد به و أقربهم إليه، و أدناهم منه، و هو الذى تولى غسله لما مات، و كان عنده أثيرا، و هو الذى روى كتاب الورع عن أحمد، و نقل الخطيب البغدادي تكذيب رواية كتاب الورع عن غيره. و كان أحمد يثق بورعه و عقله، حتى أنه كان يقول: كل ما قلت على لسانى، فأنا قلته. قال المروزي: قلت لأبى عبد الله أحمد بن حنبل: أ ترى أن يكتب الرجل كتب الشافعى؟ قال: لا. قلت: أ ترى أن يكتب الرسالة؟ -أى رسالة الشافعى- قال: لا تسألنى عن شىء محدث. قلت: كتبتها؟ قال: معاذ الله. و قال أيضا: قال أحمد: لا تكتب كلام مالك، و لا سفيان، و لا الشافعى، و لا إسحاق بن راهويه، و لا أبى عبيد. توفى المروزي فى جمادى أولى سنة 275 هـ.

ص: 456

[1-1] طبقات الحنابلة ج 1 ص 73. [1]

## إبراهيم بن إسحاق الحربي:

المتوفى سنة 285 هـ كان من أعيان تلامذة أحمد و المختص به، وقد لازمه مدة عشرين سنة، وأخذ عنه الحديث و الفقه. و صنف كتباً كثيرة منها: غريب الحديث، و دلائل النبوة، و كتاب الحمام، و سجد القرآن، و ذم الغيبة، و النهي عن الكذب و غير ذلك.

## صالح بن أحمد بن حنبل:

و هو أكبر أولاده، و قد تلقى الفقه و الحديث عن أبيه، و عن غيره من معاصريه، و نقل إلى الناس كثيراً من مسائل الفقه التي أفتى فيها أبوه، و كان الناس يكتبون إليه من خراسان ليسأل أباه عن مسائل، فكان يرسل إليهم الأجوبة التي يتلقاها عنه، و كان قد تولى القضاء بأصبهان و طرسوس، و مات بأصبهان سنة 266 هـ.

## عبد الله بن أحمد بن حنبل:

المتوفى سنة 290 هـ روى الحديث عن أبيه و عن كثيرين غيره، كعبد الأعلى بن حماد، و كامل بن طلحة، و يحيى بن معين، و أبي الربيع و غيرهم. و هو الذي روى المسند و تممه كما سيأتي بيانه، و قد روى عن أبيه مسائل كثيرة، و من غريب ما رواه عنه أنه قال: قبور أهل السنة من أهل الكبائر روضة، و قبور أهل البدعة من الزهاد حفرة. فساق أهل السنة أولياء الله، و زهاد أهل البدعة أعداء الله (1). و هذا القول لا يمكن أن يصدر من رجل كأحمد بن حنبل و اتصافه بالورع و التقوى، فإن مؤدى هذا القول إبطال العمل، و ترك الواجبات، و التحلل من كل شيء، فإذا كان مرتكب الكبيرة هو ولي الله لأنه من أهل السنة، فما معنى السنة هنا، و كيف يصح ذلك؟ و العهدة على الرواة. و لنكتفى بذكر هؤلاء من أصحاب أحمد الذين نقلوا فقهه كأنموذج. و سنتعرض لذكر آخرين عند حديثنا عن رجال المذهب و المؤلفين فيه.

ص: 457

لم يصنف أحمد بن حنبل كتاباً في الفقه يعد أصلاً يؤخذ من مذهبه أو يعتبر مرجعه، ولم يكتب إلا الحديث، وقد ذكر العلماء أن له بعض كتابات في موضوعات فقهية منها: المناسك الكبير، و المناسك الصغير، و رسالة صغيرة في الصلاة قصيرة، ظهرت في عدة طبعات في القاهرة. وهذه الكتابة هي أبواب قد توافر فيها الأثر، و ليس فيها رأى أو قياس أو استنباط فقهي، بل اتباع لعمل، و فهم للنصوص. فرسالته في الصلاة، و المناسك الصغير و الكبير و هي كتب حديث، و إن كانت في موضوعات مما تناولها بالبسط و الشرح (1). و على الجملة فإن المشهور عن أحمد أنه كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع و الرأى. فقد قال يوماً لعثمان بن سعيد: لا تنظر إلى ما في كتب أبي عبيد، و لا فيما وضع إسحاق، و لا في ما وضع سفيان و لا الشافعي و لا مالك و عليك بالأصل. قال ابن بدران الدمشقي: و حيث أن الإمام أحمد كان يحب توفر الالتفات إلى النقل، و يختار التواضع، استغل أوقاته في جمع السنّة و الأثر و تفسير كتاب الله، و لم يؤلف كتاباً في الفقه، غاية ما كتب فيه رسالة في الصلاة، كتبها إلى إمام صلّى وراءه فأساء في صلاته، و هي رسالة قد طبعت و نشرت في أيامنا هذه، فعلم الله من حسن نيته و قصده فكتب عنه أصحابه من كلامه و فتواه أكثر من ثلاثين سفراً انتشرت كلها في الآفاق. ثم جاء أحمد بن هارون الخلال المتوفى سنة 331 هـ فصرف عنايته إلى جمع علوم أحمد و إلى كتابة ما روى عنه، و طاف لأجل ذلك البلاد، و سافر للاجتماع بأصحاب أحمد، و كتب ما روى عنه بالإسناد و صنف كتباً في ذلك (2). و الغرض أن أحمد كان ينهى عن التدوين لأقواله و آرائه، و قد صرح بذلك مراراً.

ص: 458

1-1) أحمد بن حنبل ص 168.

2-2) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص 46-47.

روى ابن أبي يعلى: أن رجلا قال لأبي عبد الله: أريد أن أكتب هذه المسائل. فقال له أحمد: لا تكتب شيئا فإنني أكره أن أكتب رأبي. وأحسن مرة بإنسان يكتب و معه ألواح في كفه. فقال أحمد: لا تكتب رأبي، لعلى أقول الساعة بمسألة، ثم أرجع غدا عنها. وقال: إنما كانوا يحفظون ويكتبون السنن إلا الواحد بعد الواحد الشيء اليسير منه، فأما هذه المسائل تدون و تكتب من ديوان الدفاتر فلست أعرف فيها شيئا، وإنما هو رأى لعله قد يدعه غدا، و ينتقل عنه إلى غيره. . . انظر إلى سفيان و مالك حين أخرجوا و وضعوا الكتب و المسائل كم فيها من الخطأ؟ و إنما هو رأى يرى اليوم شيئا و ينتقل عنه غدا و رأى قد يخطئ (1). هذا ما علل به من كراهيته، و مرة أخرى أنه كان يرى أن كتابة الرأى محدثة أو بدعة.

### مسند الإمام أحمد:

و المسند هو مجموعة كبيرة من جملة أصول السنّة يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف، و منها ثلاثمائة حديث ثلاثية الإسناد (أى بين روايتها و الرسول ثلاثة رواة). و قد سئل أحمد عن حديث فقال: انظروه فإن كان فى المسند، و إلا فليس بحجّة. و كان أحمد قد شرع فى جمع المسند فكتبه فى أوراق منفردة، و فرقه فى أجزاء متفرقة، فمات قبل تنقيحه و تهذيبه، فبقى على حاله. ثم أن ابنه عبد الله ألحق به ما يشاكله، و ضم إليه من مسموعاته ما يشابهه و يماثله. و كثر الخلاف حول المسند و أحاديثه، و جمعه و ترتيبه، و رتبته من كتب الأسانيد. و حكم ابن الجوزى على عدة أحاديث بالوضع، و قال الذهبى فى سيرة النبلاء: فيه-أى مسند أحمد-جملة من الأحاديث الضعيفة مما لا يسوغ نقلها و لا يجب الاحتجاج بها، و فيه أحاديث معدودة شبيهة بالموضوعة، لكنها قطرة فى بحر. و اعتذر ابن تيمية: بأن عبد الله بن أحمد قد زاد على مسند أحمد زيادات، و زاد

ص: 459

أبو بكر القطيعي زيادات، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة، فظن الجهال أنه من رواية أحمد، رواها في المسند وهذا خطأ قبيح. وخالفه العراقي وادعى أن في مسند أحمد موضوعات وصنّف جزءاً مستقلاً. وصنّف الحافظ ابن حجر كتاب: القول المسدد في الذب عن مسند أحمد، نقل فيه جزء شيخه العراقي حرفاً حرفاً، وأجاب عنه حديثاً حديثاً. ورتبة مسند أحمد في الطبقة الثانية من كتب الأسانيد، ولا يلحق بالصحيحين وموطأ مالك، وقيل بعد الصحاح الخمسة، وبعد موطأ مالك، وصرح الخطيب وغيره بأن الموطأ مقدم على كل كتاب من الجوامع والمسانيد. وقال ابن حزم: أولى الكتب الصحيحان، ثم صحيح سعيد بن السكن، والمنتقى لابن الجارود، ثم بعد هذه الكتب كتاب أبي داود، وكتاب النسائي، ومصنف الطحاوي، ومسانيد أحمد واليزار (1). ونرى من المناسب نقل بعض ما ذكره الأستاذ محمود أبو رية في كتابه (أضواء على السنة المحمدية) بعد ذكره لرتبة بقية المسانيد: أما مسند أحمد خاصة فإننا نقل بعض كلام أئمة المحدثين فيه مبتدئين بقول شيخ الإسلام وإمام الحنابلة بعد أحمد، ابن تيمية، وليس علينا بعد أن نقل ما نقل أن يغضب أحد ممن يدعون في عصرنا أنهم من رجال الحديث، لأن الحق أحق أن يتبع، وما سويها هذا الكتاب إلا لنرضى الحق وحده، فإذا ما غضب غاضب فليكن غضبه من الحق لا منّا. قال ابن تيمية رحمه الله من كلام له عن أبي نعيم: أنه روى (أبو نعيم) كثيراً من الأحاديث التي هي ضعيفة، بل موضوعة باتفاق العلماء المحدثين أمثاله، يروون جميع ما في الباب لأجل المعرفة بذلك، وإن كان لا يحتج من ذلك إلا ببعضه، والناس في مصنفاتهم، منهم من لا يروى عن من يعلم أنه يكذب، مثل: مالك وشعبة وأحمد بن حنبل. فإن هؤلاء لا يروون عن شخص ليس بثقة عندهم، ولا يروون حديثاً يعلمون أنه عن كذاب، من الذين يعرفون بتعمد الكذب، لكن قد يتفق فيما يروونه ما يكون صاحبه أخطأ فيه، وقد يروى الإمام أحمد وإسحاق وغيرهما أحاديث تكون ضعيفة عندهم لاتهام رواها بسوء الحفظ ونحو ذلك ليعتبر بها ويستشهد بها،

ص:460

فإنه قد يكون لذلك الحديث ما يشهد له أنه محفوظ، وقد يكون له ما يشهد بأنه خطأ، وقد يكون صاحبه كذاباً في الباطن، ليس مشهوراً بالكذب، بل يروى كثيراً من الصدق فيروى حديثه، وكثيراً من المصنفين يعز عليه ذلك على وجهه، بل يعجز عن ذلك. فيروى ما سمعه كما سمعه، و الدرر على غيره لا عليه (1) وقال رحمه الله: وليس كل ما رواه أحمد في المسند وغيره يكون حجة عنده، بل يروى ما رواه أهل العلم، و شرطه في المسند أن لا يروى عن (المعروفين بالكذب عنده) وإن كان في ذلك ما هو ضعيف. . . و أما كتب الفضائل فإنه لم يقصد أن لا يروى في ذلك إلا ما ثبت عنده. ثم زاد ابن أحمد زيادات، وزاد أبو بكر القطيعي زيادات، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة (2). ويقول رحمه الله، أي ابن تيمية، يرد على من استشهد بحديث رواه أحمد وهو كذب: و بتقدير أن يكون أحمد روى الحديث، فمجرد رواية أحمد لا-توجب أن يكون صحيحاً يجب العمل به، بل الإمام أحمد روى أحاديث كثيرة لتعرف و يبين للناس ضعفها. . . وهذا الكتاب (مسند أحمد) زاد فيه ابنه عبد الله زيادات، ثم أن القطيعي الذي روى عن ابنه عبد الله (أي ابن أحمد) زاد عن شيوخه زيادات فيها أحاديث موضوعة باتفاق أهل المعرفة (3). ثم ذكر بقية كلام ابن تيمية في كتاب التوسل و الوسيلة، و ذكر قول ابن كثير في كتاب اختصار علوم الحديث ثم قال: و أما قول الحافظ بن موسى محمد بن أبي بكر المديني في مسند أحمد أنه صحيح فقول ضعيف، فإن فيه أحاديث ضعيفة بل موضوعة كأحاديث فضائل مرو، و عسقلان، و البرث الأحمر عند حمص، و غير ذلك، كما نبه عليه طائفة من الحفاظ. ثم إن الإمام أحمد قد فاته في كتابه أحاديث كثيرة جداً، بل قد قيل إنه لم يقع له جماعة من الصحابة الذين في الصحيحين إلا قريباً من مائتين. ثم قال: و قال بعض الناظرين في مسند أحمد: الحق أن في المسند أحاديث كثيرة ضعيفة، و قد بلغ بعضها في الضعف إلى أن أدخلت في الموضوعات.

ص: 461

1-1 (1) منهاج السنة ج 1 ص 15.

2-2 (2) منهاج السنة ج 4 ص 27.

3-3 (3) نفس المصدر ص 61.

ولما قال الإمام أحمد: هذا الكتاب جمعته وانتقيته من 750 ألف حديث، فما اختلف المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فارجعوا إليه، فإن وجدتموه وإلا فليس بحجة. قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: هذا القول منه على غالب الأمر، وإلا قلنا أحاديث قوية في الصحيحين والسنن والأجزاء ما هي في المسند! وقد رآه تعالى أن الإمام قطع الرواية قبل تهذيب المسند، وقبل وفاته بثلاث عشرة سنة، فوجد في الكتاب أشياء مكررة ودخول مسند في مسند، وسند في سند وهو نادر (1). وللحافظ ابن الجوزي كلمة في كتابه (صيد الخاطر) بشأن المسند نقلها بحروفها عن مقدمة الجزء الأول من المسند طبع دار المعارف. قال: فصل: كان قد سألتني بعض أصحاب الحديث هل في مسند أحمد ما ليس بصحيح؟ فقلت: نعم. فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب، فحملت أمرهم على أنهم عوام! وأهملت فكر ذلك، وإذا بهم قد كتبوا فتاوى، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان منهم أبو العلاء الهمداني، يعظمون هذا القول ويردونه ويقبحون قول من قاله! فبقيت دهشا متعجبا. وقلت في نفسي: وا عجا صار المنتسبون إلى العلم عامة أيضا! وما ذاك إلا أنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه، وظنوا أن من قال ما قلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد وليس كذلك؛ فإن الإمام أحمد روى المشهور والجيد والردى، ثم هو قد رد كثيرا مما روى ولم يقل به، ولم يجعله مذهبا له. أليس هو القائل في حديث الوضوء بالبيد: مجهول! ومن نظر في كتاب العلل الذي صنفه أبو بكر الخلال رأى أحاديث كثيرة كلها في المسند، وقد طعن فيها أحمد. قال القاضي: وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه في المسند، فمن جعله أصلا للصحة فقد خالفه وترك مقصده. قلت: (القول لابن الجوزي) قد غمى في هذا الزمان (2) أن العلماء لتقصدهم في العلم صاروا كالعامة، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا: قد روى (3)، والبكاء ينبغي أن يكون على خسارة الهمم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ص: 462

1-1) ص 30 و 31 مقدمة مسند أحمد. [1]

2-2) ولد ابن الجوزي سنة 510 هـ و مات سنة 597 هـ.

3-3) مقدمة المسند ص 56-57.

هذا ما رأينا نقله مما قال الأئمة الكبار في مسند أحمد، وهو كاف في التعريف به وبيان قيمته في نفسه لا فيما هو مشهور عنه، وأنه من المصادر التي لا يعول عليها أو يحتج بها شأنه شأن سائر المسانيد (1). وأحاديث المسند تنقسم إلى ستة أقسام: 1- قسم رواه عبد الله عن أبيه سماعاً، وهو المسمى بمسند الإمام أحمد. 2- وقسم سمعه عبد الله من أبيه و من غيره. 3- وقسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى عند المحدثين بزوائد عبد الله وهو كثير بالنسبة للأقسام كلها عدا القسم الأول. 4- وقسم قرأه عبد الله على أبيه ولم يسمعه منه وهو قليل. 5- وقسم لم يقرأه ولم يسمعه، ولكنه وجد في كتاب أبيه بخطه. 6- وقسم رواه أبو بكر القطيعي من غير عبد الله وأبيه، وكل هذه الأقسام من المسند إلا الثالث والسادس فإنهما من زوائد عبد الله والقطيعي. وقد تولى شرحه واختصاره جماعة من العلماء منهم: أبو الحسن بن عبد الهادي السندي، المتوفى سنة 1129 هـ نزيل المدينة المنورة. واختصره زين الدين عمر بن أحمد السماع الحلبي، وسمى مختصره (در المنتقد من مسند أحمد) ولذلك اختصره سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقني الشافعي المتوفى سنة 805 هـ.

ص: 463

---

(1-1) أضواء على السنة المحمدية [1] للأستاذ محمود أبو ريه ص 293-298. [2]





يمتد عصر الإمام أحمد من عهد المهدي العباسي إلى عهد المتوكل، أي من سنة 164 هـ إلى سنة 241 هـ. و كان عصره عصر ازدهار، فقد أخذت الدولة العباسية مكائنها في المجتمع، و ثبتت قواعدها على عهد الرشيد، و المأمون، و المعتصم، فعظم شأنها و امتد سلطانها. و في عهده كانت حادثة الخلاف بين الأمين و المأمون سنة 195 هـ و قيام حرب طاحنة بينهما على الملك، فسالت الدماء في العراق و خراسان، و استقر الأمر للمأمون بعد ذلك. و في أيامه ابتدأت محنة القول في خلق القرآن سنة 218 هـ التي كانت من أعظم عوامل شهرة أحمد، كما قلنا أنه لم يكن لأحمد نشاط يذكر في أيامه الأولى، أو اشتهر ذكره و نشر اسمه، و إنما شهرته كانت في أيام المحنة بعد عهد المأمون. و قد كان عصره أزهر العصور لقوة الدولة، و امتداد سلطانها، و قد فاضت الثروة، و امتلأت خزائن الدولة، و زاد العمران، و امتدت الحضارة، و تنعم أرباب المناصب و المقربون للسلطان بمباهج الحياة، و نعموا بخيرات البلاد و كانت لهم الثروات الطائلة، و عمرت مجالس العلم و الأدب، و أمست دور الكبراء مدارس يغشاها أرباب الفكر و حملة الآثار و الأشعار، و قادة الفكر، و أمراء البلاغة و البيان. كما و قد تفنن أرباب النعيم و ذوى الشراء في اتخاذ مجالس اللهو، و تباروا في اقتناء المغنيات، و تنافسوا في شرائها بأغلى الأثمان، كما كانت بيوت الخلفاء مجالس للغناء و الشراب، يتبارى فيها المغنون في إطراب الخلفاء، و في إتحافهم بكل صوت.

وقد احتفظت كتب الأدب بكثير من أخبارهم، فهم يتذوقون الغناء ويطربون عليه، ويجيزون المغنين ويصلونهم بأسنى الصلوات، وكان معظمهم يحسن الغناء ويعرف أصوله، ويصنع أصواتا يغنيها هو أو يلقيها على جواريه أو على المغنين ليغنوها، كما كان هارون الرشيد والوائق أكثر ما كان في حاشيتهما من المغنين. وكان إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد قد بلغ منزلة في الغناء وعرف بشيخ المغنين، وكانت عليه بنت المهدي تغني أحسن غناء، وكان أخوها يعقوب يزمر لها على الغناء (1) وكان الرشيد يعلم ذلك، وقد غنت جارية ذات يوم: يا موري الزند قد أعت قوادحه اقبس إذا شئت من قلبى بمقباس

ما أقبح الناس فى عينى واسمجهم إذا نظرت فلم أبصر فى الناس

فأراد الرشيد أن يعرف لمن الصوت، فأسرت إليه الجارية أنه لعلية أخته. وروى أبو الفرج عن أحمد بن زيد قال حدثنى أبى قال: كنا عند المنتصر فغناه منان لحننا من الرمل الثانى: يا ربه المنزل بالبرك وربه السلطان والملك

تخرجى بالله من قتلنا لسنا من الديلم والترك

فضحكت، فقال لى: مم ضحكت؟ قلت: من شرف قائل هذا الشعر، وشرف من عمل اللحن فيه وشرف مستمعه. قال: وما ذاك؟ قلت: الشعر فيه للرشيد، والغناء لعلية بنت المهدي، وأمير المؤمنين مستمعه (2). وكان اهتمام الرشيد بالغناء والمغنين عظيما، فقد قرب منهم عددا وافرا،

ص: 466

1-1) الأغاني ج 9 ص 84. [1]

2-2) الأغاني ج 9 ص 81. و [2] رحم الله أبا فراس الحمداني إذ يقول مقارنا بينهم وبين بنى علي: تنشى التلاوة فى أبياتهم سحرا وفى بيوتكم الأوتار والنغم منكم عليه أم منهم وكان لكم شيخ المغنين إبراهيم أم لهم إذا تلوا سورة غنى أمامكم قف بالطلول التى لم يعفها القدم ما فى بيوتهم للخمر معتصر وفى بيوتكم للسوء معتصم الركن والبيت والأستار منزلهم وزمزم والصفاء والحجر والحرم

وأجزل العطاء عليهم، و كان يجمعهم في مجلس واحد و يقترح عليهم في الأصوات ليضطرب، فمن أطربه نال أسنى الجوائز و أعظم الصلات (1) و قد اختار له إسحاق الموصلي من الغناء مائة صوت، و قد عرفت بالأصوات المائة المختارة، التي وضع أبو الفرج الأصبهاني فيها كتاب الأغاني (2). كما كانت في بغداد نواد للغناء و اللهو، فيها القيان اللاتي يحسنّ الغناء، و يقصدهنّ الفتيان الطرفاء يتغازلون و يشربون و يلهون. و كان الأمين شديد الطرب إلى الغناء، واسع العطاء إذا طرب، و قد وصفه إسحاق الموصلي فقال: ما كان (أى الأمين) يبالي أين قعد و مع من قعد، و لو كان بينه و بين ندمائه مائة حجاب خرقتها كلها، و ألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا، و كان من أعطى الخلق لذهب و فضة، و أوهبهم للأموال إذا طرب أو لهدى، و قد رأيتُه أمر لبعض أهل بيته بحمل زورق ذهباً، و أمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار. و حتى في أعسر ساعات حياته عند ما أحيط به كان يستمع إلى الغناء. فبينما كانت حجارة المنجنيق تصل بساطه كانت إحدى الجوارى تغنيه (3). و قد كان البذخ و الإسراف و تبذير الأموال في وجوه الملذات أمر يبعث على الدهشة و الاستغراب، و بلغ الترف إلى أقصى حد. و لم يكن هذا الترف و البذخ يعم طبقات الناس، بل كان هناك ملايين من أبناء الأمة يعانون الحرمان، و يقاسون ألم الفاقة، و منهم المظلومون الذين جار عليهم جباة الأموال فسلبوهم ما يسدون به الحاجة، و منهم من غصبهم السلطان و أعوانه أموالهم و ضياعهم، و لا يجدون من يسمع أصواتهم إذا رفعوها بالتظلم، كما ليس لهم طمع في رد ظلامتهم. و سار العمال في إرهاق الرعية على الوجه الذي يخالف نظام الإسلام، فأصبحت الأموال تجبى بأقسى وسائل الظلم، و تصرف في ضروب من الإسراف و أنواع من الترف.

## أحداث عصره:

### إشارة

و ظهرت في عصر أحمد العصبية العنصرية، فاشتد النزاع بين العرب و الفرس

ص: 467

1-1 (1) مروج الذهب ج 3 ص 278.

2-2 (2) الأغاني ج 1 ص 1 و ما بعدها. [1]

3-3 (3) التاج ص 42-43.

و الترك (و كان العرب قد ضعف أمرهم فى نزاع مع الفرس، فجاءت قوة الترك ضغثاً على إبالة). و استولى الأتراك على الأمور عند ما كثر جمعهم و عظمت شوكتهم، و بدأت العصبية ضد الأتراك من عهد دخولهم بغداد فى عهد المعتصم، و شكى إليه الناس من جورهم و سوء تصرفهم، و قد هجاه دعبل الخزاعى بقوله: لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم و صيف و اشناس و قد عظم الخطب

و إنى لأرجو أن ترى من مغييها مطالع شمس قد يغص بها الشرب

و همك تركى عليه مهانة فأنت له أم و أنت له أب

و اشتدت محنة أهل بغداد من عبث الأتراك و تعسفهم، و كانوا لا يستطيعون مقابلتهم، لأن السلطان قد لحظهم بالعناية و جعلهم محل ثقته، حتى بلغ الأمر بالمعتصم أنه كتب إلى واليه على مصر، و هو كيدر- و اسمه نصر بن عبد الله- يأمره بإسقاط من فى الديوان من العرب و قطع أعطياتهم. و على أى حال: فقد أصبحت الأمور فى يد الأتراك، و أصبحوا مصدر قلق و اضطراب، فهم يكرهون العرب، و هم أنفسهم ليسوا فى وفاق بعضهم مع بعض، و هم لا ينقطعون عن المؤامرات و الدسائس، و تعصب كل فريق لقائد منهم، و بهذا أصبحت دار السلام و ما حولها ليست دار سلام، إذ غلبت على ذوى السلطة شهواتهم الآثمة، فلا تطرق سمعهم صرخات المفجوعين و لا استغاثة المتظلمين، و لا ينفذ بصرهم إلى ما يعانیه ذلك المجتمع المنكوب الذى دب فى جسمه داء الجهل و الفوضى و حب الشهوات، و هم ساهون يعدون أنفسهم سعداء فى شقاء الأمة و أغنياء بافتقارها. و قد ثارت فى عصر الإمام أحمد عاصفة العدا بين الطوائف، و اشتدت الخصومة بينها. مما أدت إلى حلول الكراهية و وقوع الشر بين أفراد و طبقات المجتمع آنذاك. و كان المحدثون يغذون روح الكراهية تجاه أعدائهم و خصومهم، فذهبوا إلى تكفير المعتزلة و كل من يقول بخلق القرآن. إذ يقول أبو عبد الله الدهلى المتوفى سنة 255 هـ: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر و بانث منه امرأته، فإن تاب و إلا ضربت عنقه، و لا يدفن فى مقابر المسلمين. و من وقف و قال: لا أقول مخلوق أو

غير

مخلوق فقد ضاهى الكفر، و من زعم أن لفظى القرآن مخلوق فهو مبتدع و لا يدفن فى مقابر المسلمين. و على أى حال: فقد قويت. روح الكراهية بين أفراد المجتمع فاشتدت المنازعات و كثرت الخصومة، و تطور الأمر و ازدادت الحوادث، و سارت العامة من أبناء الأمة على هذا النهج، حتى أن امرأة تقدمت إلى قاضى الشرقية عبد الله بن محمد الحنفى فقالت: إن زوجى لا يقول بمقالة أمير المؤمنين، ففرق بينى و بينه (1). و من تلك الحوادث: أن الواثق لما استفك من الروم أربعة آلاف من الأسارى اشترط فيهم أن من قال: القرآن مخلوق يخلص من الأسر و يعطى دينارين، و من امتنع عن ذلك فترك فى الأسر و لا يفك (2). و هذا محمد بن الليث قاضى مصر كان حنفياً، فانتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب الإمام مالك و الشافعى، و منع فقهاءهم من الجلوس فى المسجد، و قال شاعر مصر الحسين بن عبد السلام الجمل يخاطبه: و ليت حكم المسلمين فلم تكن برم اللقاء و لا بفظ أوزور

و لقد بجست العلم فى طلابه و فجرت منه ينابعا لم تفجر

فحميت قول أبى حنيفة بالهدى و محمد و اليوسفى الأذكر

و حطمت قول الشافعى و صحبه و مقالة ابن علية لم تضجر

و المالكية بعد ذكر شائع أخلتها فكأنها لم تذكر

(3) و مما تقدم يتبين أن مشكلة خلق القرآن قد زادت من إحداث الفرقة فى المجتمع الإسلامى، و من جراء هذه الحوادث التى صاحبت هذه المحنة العامة و المشكلة الاجتماعية فتح باب التدخل من قبل أعداء الإسلام، و كانت الخصومة و الفرقة التى منى بها المسلمون آنذاك، هى الدافع الرئيسى الذى نشط القوى المعادية للإسلام، فقد عملوا على توسيع رقعة الخلاف بين أفراد المجتمع و طبقاته، لإيقاع الفتنة تحقيقاً لأهدافهم.

ص: 469

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 10 ص 74. [1]

2-2 (2) طبقات الشافعية ج 3 ص 22. و تاريخ يعقوبى ج 3 ص 194.

3-3 (3) القضاة للكندى ص 371. [2]

وقد نجحت أساليبهم التي اتبعوها، والوسائل التي اتخذوها، لأنها كانت تحمل طابع الحرص على الإسلام، لتجتذب إلى صفوفهم أناس دفعتهم سلامة ضمائرهم إلى الدفاع عنها وكأنها دفاع عن الإسلام، ولم تقتصر فتاتهم على هذه الطائفة فقط، بل انضم في سلكهم انتهازيون وجدوا بذلك خير فرصة لتحقيق أغراضهم، ونيل مآربهم للوقية بخصومهم، إذ خرجت المنازعات عن حدودها، فتجنى كل فريق على الآخر، وأخذ كل أحد يرمى الآخر بالكفر. وفي وسط ذلك التيار الجارف من الخصومة والعداء، استطاعت الأغراض والأهواء أن تنفذ إلى الأحاديث النبوية، وهي إحدى الدعائم التي يقوم عليها الدستور الإسلامي، ليتم لهم آنذاك التلاعب بمقدرات الإسلام وتوجيهها صوب تحقيق أغراضهم وأهدافهم. فلقد وضع الوضاعون أحاديث تتفق مع هذه النزعة، ونسبوا لرسول الله صلى الله عليه وآله و سلم وهم يدعون أن ذلك نصرة للدين، وتقوية للمسلمين، فإذا ما حوججوا وأمروا بالكف عن ذلك قالوا: إنما نقول له لا عليه. و ناهيك بما قام به الدعاة على المنابر، لتوجيه الرأي العام نحو جهة معينة، و حصر الإسلام عليها، و تخصيصها به، فلم يكن فيه نصيب لغيرهم، و لا في الجنة مكان لسواهم، و قد غرق الناس في تلك المنازعات الدينية و السياسية مدة طويلة، حتى امتدت جذور تلك الفتنة إلى عصور متأخرة عن عصر الإمام أحمد، فاشتد الموقف حراجة، و وقف كل يتربص بالآخر، مما أدى إلى نشوب حروب دموية و وقوع الخراب في كثير من البلاد الإسلامية، فأحرقت جوامع، و هدمت مساجد، و نهبت أموال، و أريق دماء. إلى غير ذلك من الأمور التي خلفت أوضاعا سيئة، و مع كل هذا و المجال يتسع أمام المتدخلين في صفوف المسلمين للعمل على تمزيق وحدة الصف و اتساع دائرة الخلاف. يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (1).

ص: 470

و بقى شىء يتعلق بعصر أحمد، و هو ترجمة الملوک الذين جرت المحنة على أيديهم، فلا بأس أن نلم بذلك إماما و إن كان خارجا عما رسمناه.

## المأمون:

هو عبد الله بن هارون الرشيد، كنيته أبو جعفر أو أبو العباس، و أمه أم ولد، يقال لها مراجل الباذغيسية، ولد فى ربيع الأول سنة 170 هـ و توفى سنة 218 هـ و كان أدبيا شجاعا، له ولع و مشاركة فى كثير من العلوم، متعطشا للآداب، محبا للنقاش و الجدل، و كان المعتزلة معروفين بالفلسفة و الأدب، مما أدى إلى تقريبهم و الأئس بمحادثتهم. و كان يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء من سائر أهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة، و قيل لهم انزعوا أخفافكم، ثم أحضرت الموائد (1). و كان المأمون يتهم بالشيعة مرة، و بالاعتزال أخرى، و سيرته تدل على ذلك. أما تشييعه فقد كان يحب عليا و يفضلّه على جميع الصحابة، و قد أمر مناديه أن ينادى بأن أفضل الخلق بعد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم على بن أبى طالب، و أن لا يذكر معاوية بخير. و روى ابن عساكر عن النضر بن شميل قال: دخلت على المأمون فقال: كيف أصبحت يا نضر؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين. فقال: ما الإرجاء؟ فقلت: دين يوافق الملوک، يصيبون به من دنياهم، و ينقصون به من دينهم. قال: صدقت. ثم قال: يا نضر أ تدرى ما قلت فى صبيحة هذا اليوم؟ قلت: إني من علم الغيب لبعيد. فقال: قلت أبياتا و هى: أصبح دينى الذى أدين به و لست منه الغداة معتذرا

حب على بعد النبى و لا أش تم صديقا و لا عمرا

ص:471



ثم ابن عفان فى الجنان مع الأبرار ذاك القليل مصطبرا

ألا ولا أستم الزبير ولا طلحة إن قال قائل غدرا

وعائش الأم لست أستمها من يفتريها فنحن منه برا

قال ابن كثير فى تاريخه: وهذا المذهب ثانى مراتب الشيعة، وفيه تفضيل على على الصحابة. وقال بشر المريسي يمدح المأمون بما أظهره من تفضيل على عليه السلام: قد قال مأمونا وسيدنا قولاً له فى الكتب تصديق

أن علياً أعنى أبا حسن أفضل من قد أقلت النوق

بعد نبى الهدى وإن لنا أعمالنا والقرآن مخلوق

(1) وفى سنة 201 هـ بايع بولاية العهد من بعده للإمام على الرضا الإمام الثامن من الأئمة الاثنى عشر، ابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام وأمر بخلع السواد الذى كان شعار الدولة العباسية، وأمر بلبس الخضرة. ولقد أقدم المأمون على هذا العمل مع شدة امتناع الإمام الرضا عليه السلام عن ذلك. ولكنه ألزمه بالقبول، فشرط الإمام شروطاً على ذلك. ولا بد من طرح التساؤل أولاً عن الأسباب التى حملت المأمون على القيام بهذا العمل، الذى يعد من أعظم الأعمال التى قام بها. فهل أن حبه لأهل البيت دفعه إلى ذلك لأنه يعتقد أنهم أولى بهذا الأمر؟ أو أنه فكّر فى أمر الأمة - وهو المعروف بقوة الفكر وحرية - وأراد أن يجعلها تحت رعاية رجل يصلح لذلك، ولم ير أفضل من الإمام الرضا عليه السلام؟ أم أنها فكرة سياسية أراد بها جلب قلوب ملايين من الناس يدينون بالاعتراف للإمام الرضا عليه السلام بالولاية؟ وهم أولو قوة وبأس، رغم الدعايات الكاذبة ضدهم، واتخاذ شتى الوسائل فى القضاء عليهم، وبهذا يحاول أن يكسر شوكة بنى العباس، وينتقم منهم فى نقل الملك من بيتهم إلى البيت العلوى، وهم خصوم لا - هوادة بينهم، وبذلك يستطيع أن يضرب المأمون ضربته، ويحقق سياسته فى تحقيق الغرض الذى من أجله قام بهذا الأمر، وبالفعل تحققت أهدافه - إن كان يقصد ذلك - فقد خضع له كثير من الناس وأحبّوه لهذا العمل. كما أعلن العباسيون وأنصارهم

ص: 472

غضبهم عليه، و تقضوا بيعته، و بايعوا شيخ المغنين إبراهيم بن المهدي، و قامت بعد ذلك حرب قضى المأمون عليها بالقوة، لضعف خصومه و كثرة أنصاره. و الذي يظهر أنه أراد جلب الرأي العام ضد بنى العباس، و أن الأمر سياسى يقصد به توسيع قاعدة حكمه و جذب الشيعة إليه، فإن أهل البيت لهم مكانة و هم المعنيون بإسناد الخلافة إليهم عند ما قامت الثورة ضد الأمويين، و قد نص كثير من المؤرخين على تشييع المأمون و ميله إلى آل على عليه السلام. و قد أجاب المأمون عن أسباب بيعته للإمام الرضا عليه السلام و ذلك أنه عند ما دخل بغداد ظافرا، اجتمعت به زينب بنت سليمان، و كانت من طبقة المنصور، و كان بنو العباس يعظمونها، فقالت: يا أمير المؤمنين ما الذى دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت على؟ قال: يا عمّة إنى رأيت عليا حين ولى الخلافة أحسن إلى بنى العباس، فولى عبد الله البصرة، و عبيد الله اليمن، و قثم سمرقند، و ما رأيت أحدا من أهل بيتى حين أفضى إليهم كافوه على فعله فى ولده، فأحببت أن أكافيه إحسانه. فقالت: يا أمير المؤمنين إنك على برّ بنى على و الأمر فيك أقدر منه على برّهم و الأمر فيهم. و أنت ترى أن هذا الجواب لا يتمشى مع الواقع، لعلم المأمون بأن عليا لم يكن من أولئك الحكام الذين يولون أمر الأمة أناسا لا أهلية لهم، إلا لأنهم أقرباء و ذوو رحم، بل كان ينظر للكفاءة و المقدرّة، و الناس عنده سواء. و قضية جعل الإمام الرضا وليا للعهد ينكشف باعثها السياسى من خلال تردد الإمام الرضا عليه السلام فى القبول و محاولته رفض ذلك، و لما وجد إصرار المأمون اشتراط الرضا شروطا تنأى عن مشاركة المأمون فى سياسته و حكمه، و تجعل ولاية العهد اسمية، كما أن المأمون غلبت عليه طبيعة الحاكم و ترك تطبعه ذاك، فمات الإمام الرضا مسموما. و سنأتى على بيان ذلك فى الأجزاء القادمة. و على أى حال: فقد أظهر المأمون إحسانه إلى آل على، و قد ثار فى أيامه محمّد ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام فأرسل المأمون إليه جيشا، فكانت الغلبة للمأمون، فظفر به و عفى عنه مستمرا على سياسته من الميل إلى العلويين. قال أبو العباس أحمد بن عمار: كان المأمون شديد الميل إلى العلويين

و الإحسان إليهم، و خبره مشهور معهم، و كان يفعل ذلك طبعاً لا تكلفاً، فمن ذلك أنه توفي يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي، فحضر الصلاة عليه بنفسه، و رأى الناس عليه من الحزن و الكآبة ما تعجبوا، ثم إن ولدا لزينب بنت سليمان و هي عمّة المنصور توفي بعده فأرسل له المأمون كفنًا، و سير أخاه صالحاً ليصلى عليه و يعزى أمه، فإنها كانت عند بنى العباس بمنزلة عظيمة، فأناه و عزاها عنه، و اعتذر عن تخلفه (أى المأمون) عن الصلاة عليه، فظهر غضبها و قالت لابن ابنها: تقدم فصلى على أيبك. و تمثلت: سكبناه و نحسبه لجينا فأبدى الكبير عن خبث الحديد

ثم قالت لصالح: قل له يا ابن مارجل أما لو كان يحيى بن الحسين لو وضعت ذيلك على فيك و عدوت خلف جنازته (1). و فى سنة 210 هـ أمر المأمون بردّ فدك إلى أولاد فاطمة عليها السلام و كتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة كتاباً يقول فيه: أما بعد فإن أمير المؤمنين بمكانته من دين الله و خلافة رسول الله، و القرابة به أولى من استنّ و نفذ أمره و سلم لمن منحه منحة و تصدق عليه بصدقة؛ و منحته و صدقته بالله توفيق أمير المؤمنين و عصمته و إليه فى العمل بما يقربه إليه رغبته، و قد كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أعطى فاطمة بنت رسول الله فدكا و تصدق بها عليها، و كان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لم تدعى منه ما هو أولى به من صدق عليه، فرأى أمير المؤمنين أن يردها إلى ورثتها، و يسلمها إليهم تقرباً إلى الله بإقامة حقه و عدله، و إلى رسول الله بتنفيذ أمره و صدقته، فأمر بإثبات ذلك فى دواوينه و الكتاب به إلى عماله، فلئن كان ينادى فى كل موسم بعد أن قبض الله نبيه أن يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة أو عدة فيقبل قوله و تنفذ عدته. إن فاطمة لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله لها، و قد كتب أمير المؤمنين (أى المأمون) إلى المبارك الطبرى مولاه بردّ فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله بحدودها و جميع حقوقها المنسوبة إليها من الرقيق و الغلاة. . . إلخ (2).

ص:474

[1-1] الكامل لابن الأثير ج 6 ص 179. [1]

[2-2] فتوح البلدان للبلاذرى ص 46. [2]

و فى سنة 201 هـ أخصى المأمون جميع العباسيين، فبلغوا ثلاثة و ثلاثين ألفا بين ذكور و إناث. و كان المأمون يتحرى العدل، و يتولى بنفسه الحكم بين الناس و الفصل. جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس و هو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه، فأدعت بأنه أخذ ضيعة لها و استحوذ عليها، فتناظرا ساعة، فجعل صوتها يعلو على صوته، فزجرها بعض الحاضرين. فقال المأمون: اسكت فإن الحق أنطقها و الباطل أسكته. ثم حكم لها بحقها، و أغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم (1). و اشتهر عنه أنه كان يقول: لو يعلم الناس ما أجد فى العفو من لذة لتقرّبوا إلىّ بالذنوب. و حدّث المرزبانى: أن دعبل الخزاعى هجا المأمون بقوله: أيسومنى المأمون خطة عاجز أو ما رأى بالأمس رأس محمّد

إنى من القوم الذين هم هم قتلوا أخاك و شرفوك بمقعد

فطلبه المأمون فاستتر منه، إلى أن بلغه أنه هجا إبراهيم بن المهدي بقوله: إن كان إبراهيم مضطلعا بها فلتصلحنّ من بعده لمخارق

فضحك المأمون و قال: قد وهبته ذنبه فليظهر. فسار إليه، فكان أول داخل عليه. و لما قدم على المأمون و أمنه استشده القصيدة الكبيرة، و هى الرائية و عدد أبياتها 24 بيتا و مطلعها: تأسفت جارتى لما رأت زورى و عدّت اللحم ذنبا غير مغتفر

فأنكرها، فقال المأمون: لك الأمان أيضا على إنشادها فأنشدها، حتى إذا بلغ إلى قوله: يا أمة السوء ما جانيت أحمد عن حسن البلاء على التنزيل و السور

خلفتموه على الأبناء حين مضى خلافة الذئب فى أبقار ذى بقر

قتل و أسر و تحريق و منهبة فعل الغزاة بأرض الروم و الخزر

ص: 475

أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر

قوم قتلتم على الإسلام أولهم حتى إذا استمكنوا جازوا على الكفر

قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم هذا من العبر

ما ينفع الرجس من قبر الزكي ولا على الزكي بقبر الرجس من ضرر

هيهات كل امرئ رهن بما كسبت يده فخذ ما شئت أو فذر

قال: فضرب المأمون بعمامته إلى الأرض وقال: صدقت يا دعبل. ولما أنشد قصيدته الثائية الشهيرة أمام الإمام الرضا عليه السلام و المأمون حاضر يسمع استحسناها، فأمر له الإمام الرضا بخمسين ألف درهم، وأمر له المأمون بمثلها (1). و مهما يكن من أمر فإن المأمون قد أثرت فيه ثقافة عصره، فمال إلى الفلسفة و حرية الرأي حتى جهر بأمر هي من عقائد الشيعة كان أسلافه و أخلافه يرونها كفرا أو زندقة، و يظهر أنه التزم الحقيقة. أما بيعته للإمام الرضا فهي خطوة سياسية عرف الإمام الرضا الغرض منها و قبلها مشروطا. و قد ختم المأمون علاقته بالإمام الرضا بخاتمة عاد بها إلى سنة أهله و سياستهم العدائية.

## المعتصم:

هو أبو إسحاق محمد المعتصم ابن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، المتوفى سنة 227 هـ كان موصوفا بالشجاعة و قوة البدن، و سداد الرأي، و كان إذا غضب لا- ييالي من قتل، و كان أميا لا يقرأ و لا يكتب. ذكر الخطيب أن ملك الروم كتب إلى المعتصم كتابا يهدده فيه فقال للكاتب: أكتب: قد قرأت كتابك و فهمت خطابك، و الجواب ما ترى لا ما تسمع، و سيعلم الكفار لمن عقبى الدار. و غزا بلاد الروم في سنة 223 هـ فأنكى نكايه عظيمة في العدو، و هو الذي فتح عمورية و قتل من أهلها ثلاثين ألفا و سبى منهم، و كان في سببه ستون بطريقا، قال الخطيب: و جاء بباب عمورية و هو منصوب حتى الآن على أبواب دار الخلافة مما يلي المسجد الجامع في القصر. و كان له من المماليك الترك 50 ألف، و هو الذي بنى سامراء، و سبب ذلك أنه لما كثرت عساكره من الترك في بغداد و زاحموا أهلها، و عاشوا فيها فسادا، فكان في كل يوم ربما قتلوا جماعة، فركب

ص: 476

المعتصم يوماً، فلقية رجل شيخ فقال للمعتصم: يا أبا إسحاق. فأراد الجند ضربه، فمنعهم المعتصم وقال له: ما لك يا شيخ؟ قال: لا جزاك الله خيراً عن الجوار جاورتنا مدة فرأيناك شرّ جار، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكتتهم بيننا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت نساءنا، والله لتقابلنك بسهام السحر (الدعاء). هذا والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله ولم ير راكبا في يوم مثل ذلك اليوم، ثم ركب و صلى بالناس العيد، وسار إلى موضع سامراء فبناها وكان في سنة 221 هـ. ولم يكن المعتصم كأخيه المأمون. أو كولدته الواثق في العطف على العلويين، ولم يكن كالرشيد في تشدده، بل كان معتدلاً وسطاً. والذي يظهر أن اعتداله كان بوصية من المأمون، فقد جاء فيها: وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم، وأقبل من محسنهم، و صلاتهم فلا تغلها في كل سنة، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى (1). وحدث أحمد بن سليمان بن أبي شبح قال: قدم الزبير بن بكار العراق هاربا من العلويين لأنه كان ينال منهم فهددوه فهرب منهم، وقدم على عمه مصعب بن عبد الله بن الزبير، وشكى إليه حاله وخوفه من العلويين، وسأله إنهاء حاله إلى المعتصم، فلم يجد عنده (أي عند عمه) وأنكر عليه حاله ولا مه. قال أحمد: فشكى ذلك إليّ وسألني مخاطبة عمّه في أمره، فقلت له في ذلك، وأنكرت عليه إعراضه فقال لي: إن الزبير فيه جهل وتسرّع فأشعر عليه أن يستعطف العلويين، و يزيل ما في نفوسهم منه، أما رأيت المأمون ورفقه بهم، وعفوه عنهم، وميله إليهم؟ قلت: بلى. قال: فهذا أمير المؤمنين (أي المعتصم) مثل ذلك أو فوقه، ولا أقدر أن أذكرهم عنده بقبيح، فقل له ذلك حتى ينتهي عن الذي هو عليه في ذمهم (2). ولما حضرت المعتصم الوفاة جعل يردد هذه الآية: حَتَّى إِذَا فَرِحُوا فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ .

ص: 477

1-1 (1) الطبري ج 10 ص 295. [1]

2-2 (2) الكامل لابن الأثير ج 7. [2]

وقال: لو علمت أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت. وقال: ذهبت الحيل فلا حيلة. وقال: اللهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي. وقال: إني أخذت من بين هذا الخلق (1). ومن أغرب الأمور في سيرة المعتصم أنه قد فوّض أمر الدولة إلى أخوين مسيحيين وهما: سلمويه وإبراهيم. وكان سلمويه يشغل منصبا قريب الشبه من منصب الوزارة في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها، وقد عهد المعتصم إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين، وقد بلغ من ميل الخليفة إلى سلمويه أن عاده في مرضه فغمره الحزن عند وفاته، حيث أقيمت الطقوس المسيحية في خشوع مهيب (2).

## الوثائق:

أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد المتوفى سنة 232 هـ كان شاعرا فطنا يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته، وكان حسن السيرة مع أبناء عمه آل أبي طالب. قال يحيى بن أكثم: ما أحدث أحسن من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالب ما أحسن إليهم الوثائق، ما مات و فيهم فقير (3). وكان شديد القول بخلق القرآن، حتى بلغ الأمر به أنه لما وقع الفداء بين المسلمين والروم في الأسرى أمر الوثائق أن يمتحنوا أسرى المسلمين، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة، فودى به وأعطى دينارين، ومن لم ينل ذلك ترك في أيدي الروم. و لما حضرته الوفاة أمر بالبسط فطويت، وألصق خده على الأرض، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه، وكان يردد هذين البيتين: الموت فيه جميع الخلق مشترك لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ص: 478

1-1 (1) الطبري ج 11 ص 7. [1]

2-2 (2) الدعوة إلى الإسلام ص 81. وابن أبي أصيبعة ج 2 ص 164.

3-3 (3) ابن كثير ج 10 ص 310. [2]

ما ضرَّ أهل قليل في تفارقهم وليس يغنى عن الملاك ما ملكوا

(1) قال أحمد بن محمد الواثقى، وكان فيمن يمرض الواثق: فتقدمت إليه فلما صرت عند رأسه فتح عينيه، فكادت أموت من خوفى، فرجعت إلى خلف، فتعلقت قائمة سيفى بشىء فكادت أهلك، فما كان عن قريب حتى مات، وأغلق عليه الباب، وبقي وحده، فسمعت حركة من داخل البيت. ، فدخلت فإذا جرد قد أكل عينيه-التي لحظ إلى بها-و ما كان حولها من الخدين (2).

### المتوكل:

جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسى، المتوفى سنة 247 هـ و أمه أم ولد يقال لها شجاع، وكانت ولادته بقم الصلح سنة 207 هـ و بويغ بالخلافة بعد أخيه الواثق، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة، وكان مولعا بالشراب و باقتناء الجوارى، و كان بمكانة من الترف و البذخ ربما لا يمتاز بكثير عن جده الرشيد. عرف المتوكل ببغضه لأهل البيت و مطاردته لمحبيهم، و قتل زعمائهم، و كان لا تأخذه فى ذلك رحمة، و لا يمنعه خوف من الله، و من يتهم بميله للعلويين فإن مصيره القتل أو السجن المؤبد، حتى ظهر النصب فى عصره، و انتشر بغض أهل البيت فى أيامه، و تقرب الكثير إليه بدم أهل البيت أو محبيهم، طلبا لرفده و طمعا فى صلته. مدحه أبو السمط مروان بن أبى الجنوب بأبيات يذم فيها العلويين منها: يرجو التراث بنو البنات و ما لهم فيها قلامه

ما للذين تنحلوا ميرا تكم إلا الندامة

فخلع عليه المتوكل أربع حلل، و أمر له بثلاثة آلاف دينار، فنثرت على رأسه، و عقد له على البحرين و اليمامة. و تقدم إليه هذا الشاعر مرة أخرى بشعر يذم فيه آل محمد و شيعتهم، فنثر عليه عشرة آلاف درهم (3).

ص:479

1-1 (1) تاريخ ابن الساعى ص 60.

2-2 (2) الكامل لابن الأثير ج 7 ص 12. [1]

3-3 (3) الكامل لابن الأثير ج 7 ص 38. [2]



و كان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليا و أهله بأخذ المال و الدم. حتى عم الاستياء، و واجه الناس موجة تعصب فاحش، و عذب الموالون لأهل البيت أشد العذاب، و منع الناس من زيارة قبر الحسين، كما أمر بهدم ما حوله من المنازل و الدور، و أن يبذر و يسقى موضع قبره، و نادى فى الناس: من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاث حبسناه فى المطبق (1) حتى هجاه الشعراء، و مما قيل فيه: تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد آتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا فى قتله ففتبعوه رميما

و يقول ابن الوردي: و كم قد محى خير بشر كما انمحت ببغض على سيرة المتوكل

تعلمق فى عدل و لما جنى على مقام على «حطه السيل من عل»

و كان واليه على مصر يزيد بن عبد الله التركى يتتبع الموالين لأهل البيت بكل أذى، كما حمل جماعة منهم إلى العراق. قال الكندى فى كتاب الولاية و القضاة: إن يزيد التركى أمر بضرب جندى فى شىء و جب عليه عشرة درر، فتوسل الجندى إلى يزيد بحق الحسن و الحسين أن يعفو عنه فزاده ثلاثين درة، و رفع أمره إلى المتوكل فى العراق، فورد أمر المتوكل بضرب الجندى مائة سوط و حمله إلى العراق، و ذلك فى سنة 243 هـ و فى سنة 248 هـ أخرج جماعة من العلويين من مصر إلى العراق. و كان أخص الناس به و أقربهم عنده من اشتهر بالنصب، و عرف بالعداء لأهل البيت أمثال: على بن الجهم الشاعر الشامى (من بنى شامه بن لوى) و عمر بن فرخ الرحبي، و أبو السمط من ولد مروان بن أبى حفص من موالى بنى أمية، و غيرهم و سيأتى ذكرهم فى القائمة السوداء التى ستتضمن أسماء من عرفوا بالنصف لأهل البيت عليهم السلام. قال المسعودى: و لم يكن المتوكل من يوصف فى عطائه و بذله فى الجود، و لا بتركه و إمساكه بالبخل، و لم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس، ظهر فى

ص: 480

مجلسه اللعب والمضاحك والهزل، مما استفاض في الناس تركه إلا المتوكل، فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له، وأحدث أشياء من خواصه، فلم يكن من كتابه وقواده من يوصف بجدود ولا إفصال، أو يتعالى عن معجون وطرب (1) وكان منهمكا في اللذات والشراب انهماكا كبيرا (2) وكان بنان وزنان لا يفارقانه، هذا يضرب وذاك يزمر (3). ولم يفارق لذاته وشرابه حتى في آخر لحظة من حياته، فقد قتل بين الناي والعود. ولقى الناس في عهده أنواع البلاء والامتحان، وزلزلت الأرض وتناثرت الكواكب كالجراد، وكان أمر مزعجا، واهتزت الأرض بتونس وأعمالها، والرى وخراسان ونيسابور وأصبهان، وشققت الأرض بقدر ما يدخل الرجل في الشق، وضربت المدن والقلاع والقناطر، وسقط من أنطاكية جبل في البحر، ورجمت قرية بناحية مصر بحجارة من السماء وزن الواحدة منها عشرة أرتال، و هبت ريح بالعراق شديدة السموم لم يعهد مثلها أحرقت زرع الكوفة والبصرة وبغداد، وقتلت المسافرين، ودامت خمسين يوما، ومنعت الناس من طلب المعاش في الأسواق، والمشى في الطرقات، وزلزلت دمشق، والجزيرة والموصل وقوس ونيسابور وغيرها (4) في جميع أنحاء المملكة الإسلامية حتى ذهب ضحية ذلك خلق كثير، والخليفة المتوكل يتنعم في بذخه، ويمرح في أنسه، بين رقص جواريه و غلمانه، ونغم عيدانه ومجونه بل جنونه، ومجلسه عامر بالهزل والطرب، وقد نشط الروم في عهده فهاجموا على دمياط، ونهبوا وأحرقوا وسبوا ستمائة امرأة. وكان يبذل الأموال الطائلة على القصور والعمارات، وقد أنفق ألف ألف وسبعمائة ألف دينار على بناء قصر البرج وحده. ولما عزم على المسير إلى دمشق أمر باتخاذ القصور، وإعداد المنازل، وإصلاح الطريق، وإقامة المرافد (5).

ص: 481

- 
- 1-1 (1) مروج الذهب ج 4 ص 47. [1]
  - 2-2 (2) السيوطي تاريخ الخلفاء ص 137. [2]
  - 3-3 (3) ثمار القلوب للثعالبي ص 134.
  - 4-4 (4) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 138. و [3] الشذرات لابن العماد ج 2 ص 96. و [4] تاريخ اليعقوبي ج 3 ص 215. و [5] الطبري في حوادث سنة 241 و 242 وغيرها.
  - 5-5 (5) اليعقوبي ج 3 ص 215. [6]

و مع هذا فقد وصفوه بالصلاح و نصرة الدين، و إحياء السنّة، و إمارة البدعة. و قد مدحه ابن الخبازة بقوله: أطال لنا رب العباد بقاءه سليما من الأهوال غير مبدل

و جامع شمل الدين بعد تشتت و فارى رءوس المارقين بمنصل

و لما مات وضعت المنامات و الأطياف فى عظمتها، و علو درجته فى الجنة، و قام القصاصون و الوعاظ بذلك يقصون أحلامهم لتحقيق أحلامهم. و مما لا ريب فيه فإن الفرق بين المتوكل و من سبقه من الخلفاء بيّن: فالمأمون لم يكن بالخليفة المستضعف، و المعتصم كان على جانب عظيم من القوة و حسن التدبير، و كرم الخلق، و كذلك ابنه الواثق، فقد كان يجالس العلويين و يحسن إليهم و إلى أهل الحرمين، حتى لم يبق منهم من يسأل الصدقة. و فى أيام المعتصم و الواثق لم يقتطع شىء من جسم الدولة العباسية، و لم يظهر بها أى ضعف، و لكن عهد المتوكل فتح باب الفرقة، و تقلصت أيام العز فى بنى العباس.

### **الدولة العباسية و بداية الضعف:**

و على كل حال فقد بدأ الضعف فى جسم الدولة العباسية فى أيام المتوكل، لضعفه فى التدبير و السياسة، و إساءته لكثير من طبقات المجتمع، و بالأخص العلويين، و من عرف بموالاتهم، فكانت الرقابة عليهم شديدة، و الحساب عسيرا، فالشيعى فى نظر الخليفة و أعوانه مصدر خطر دائم، و تهديد للدولة لا ينقطع. و قام أنصاره و أعوانه بدور البطولة فى القضاء على المذهب الشيعى، و بذلوا كل جهد، و استعملوا كل وسيلة لحصول ذلك الغرض، فراحوا يهولون فى انحراف المذهب عن الحق ليغضوا من قيمته، و يشوهوا من جماله، و يستنزله من مستواه الرفيع، و ليس من الميسور عليهم حصول ذلك إلا بعد بذل جهود و مواصلة و دعاية التهويل، ليقتربوا ذلك إلى العقول و لطالما سلبت أهواء السياسة من ذوى الفضل فضلهم و من أجلها جردهم أرباب اللؤم عن محامدهم، و قد استطاع المذهب الشيعى أن يتغلّب بقوته الروحية على تلك المقاومات العنيفة، و جاهد جهادا متصلا، فتخطى الحواجز و اجتاز العقبات بتلك القوة، فلا سلطان يعضده، و لا

سيف ينشره، وفشل المتوكل وأعوانه، فكان ضحية نصبه وتعصبه، حتى قتل بيد ولده وقواده، وهو أول خليفة قتل جبهة من بنى العباس، و كثر بعد ذلك القتل في المستخلفين من بعده. وكان المتوكل لشدة نصبه وعدائه لعلى عليه السلام أن ندماءه في مجلسه يفيضون في ثلب على عليه السلام فينكر ولده المنتصر ذلك- وكان ولي عهده- ويتهددهم ويقول للمتوكل: إن عليا هو كبير بيتنا، و شيخ بنى هاشم، فإن كنت لا- بد ثالبه فتول ذلك بنفسك و لا تجعل لهؤلاء سبيلا إلى ذلك، فيستخف المتوكل به و يشتمه و يأمر وزيره عبيد الله بصفعه، و يتهدده بالقتل و يصرح بخلعه عن ولاية العهد، فأعدّ المنتصر جماعة من الأتراك و بعث معهم ولده صالح و أحمد و عبد الله و نصر، فدخلوا على المتوكل و هو بين ندمائه و كئوس شربه، فأخرجوا الندمان حتى لم يبق مع المتوكل إلا أربعة من الخاصة و أغلقوا الأبواب إلا باب دجلة، و قتلوا المتوكل و ألقى الفتح بن خاقان نفسه عليه ليقيه، فقتلوه (1). و رثاه البحترى في قصيدة يقول فيها: هكذا فلتكن منايا الكرام بين ناى و مزهر و مدام

بين كأسين أورثاه جميعا كأس لذاته و كأس الحمام

لم يذل نفسه رسول المنايا بصنوف الأوجاع و الأسقام

هابه معلنا فذب إليه في كسور الدجى بحد الحسام

(2) و على أى حال: فقد كان المتوكل فى جانب المحدثين، و أصبحت لهم الصولة و النفوذ، استغل العوام هذه الفرصة فأوقعوا برجال الفكر، و نشروا الخرافات، أما أصحاب أحمد بصورة خاصة، فلهم المنزلة السامية، و المقام الرفيع لأنه رفع منزلة الإمام أحمد و قرب أصحابه، و اتسع المجال أمامهم فى الانتقام من خصومهم و الانتصار لمبادئهم، و كما رأينا كيف كان المتوكل يعظم أحمد و يجله، و يشيد بذكره و يصله بهداياه، حتى بلغ به الأمر أنه كان يستشيريه فى تعيين القضاة، و قد بعث إليه مرة يسأله فى تولية ابن الثلجى القضاء. فقال أحمد: لا و لا على حارس. لأن أحمد كان

ص: 483

[1-1] العبر لابن خلدون ج 3 ص 592. [1]

[2-2] ابن الساعى فى تاريخه ص 64.

يرى أن ابن الثلجى - وهو من كبار أصحاب أبى حنيفة - مبتدع صاحب هوى (1).

### اتهام أحمد بالميل للعلويين:

ومع اتصاف المتوكل بالتودد لأحمد بن حنبل، وإظهار فضله، وعدم سماع أى وشاية عليه، فإن أحمد لم يسلم من الاتهام بالميل للعلويين، فقد ارتأى خصومه أن يسلكوا طريقا يمكنهم أن يغيروا قلب المتوكل بتهمة لا يغفرها المتوكل، ولا يقف دون عقابه لمن اتهم بها أى حاجز، وهى الاتهام بالتشيع أو الميل للعلويين، فاخترعوا من عند أنفسهم أن أحمد يبايع لعلوى، أو أنه أخفى علويا فى بيته، لينالوا منه ويحولوا قلب المتوكل منه، فأخذ المتوكل بالتحرى على أحمد بشدة، وطوقت المحلة التى كان يسكنها، وأحاط الجند بداره ودخلوها، فقال أحمد: ما أعرف من هذا شيئا، وإنى لأرى طاعته فى العسر واليسر، والمنشط، والمكره، والأثرة، وإنى أتأسف على تخلفى عن الصلاة فى جماعة، وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين. فقال له ابن الكلبي: قد أمرنى أمير المؤمنين (أى المتوكل) أن احلفك أن ما عندك طلبته فتحلف؟ قال: إن استحلقتمنى حلفت. فأحلفه بالله وبالطلاق أن ما عنده طلبه أمير المؤمنين. ثم قال له: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك. فقام ابن مظفر وابن الكلبي وامرأتان معهما فدخلا، ففتشا البيت، ثم فتش الامرأتان النساء، ثم دخلوا منزل ولده صالح ففتشوه، ودلوا شمعة فى البئر ونظروا ووجهوا النسوة، ففتشوا الحرم ثم خرجوا (2). وإن الناظر فى سيرة أحمد يجد أنه لا يستبعد اتهامه بما يسوء العباسيين عامة والمتوكل خاصة، فقد كان جريئا فى رواية مناقب أهل البيت، وقد روى فى مسنده ما لم يروه كثير من أهل المسانيد والصحاح، كما كان يظهر فضائل على ويحدث بها. قال عبد الله بن أحمد سمعت أبى يقول: ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلوى رضى الله عنه.

ص: 484

1-1) المنتظم لابن الجوزى ج 5 ص 57. [1]

2-2) مناقب أحمد لابن الجوزى ص 360-362.

وقال عبد الله: قلت لأبي (أحمد بن حنبل) ما تقول في التفضيل؟ قال: في الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان. فقلت: فعلى؟ قال: يا بني، على بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد (1). وقال محمد بن منصور: كنا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل: يا أبا عبد الله ما تقول في هذا الحديث الذي يروى: أن عليا قال: «أنا قسيم النار»؟ فقال أحمد: وما تتكرون من ذا؟ أليس روينا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»؟ قلنا: بلى. قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنة. قال: وأين المنافق؟ قلنا: في النار. قال أحمد: فعلى قسيم النار (2). وقال عبد الله بن أحمد: كنت بين يدي أبي جالساً ذات يوم، فجاءت طائفة من الكرخية. فذكروا خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وخلافة علي بن أبي طالب، فزادوا وأطالوا، فرفع أبي رأسه إليهم فقال: يا هؤلاء قد أكثرتم القول في علي والخلافة، إن الخلافة لم تزين علياً، بل علي زينها (3). قال ابن أبي الحديد: وهذا الكلام دال بفحواه ومفهومه على أن غيره ازدان بالخلافة، وتمت نقيصته، وإن علياً لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمم بالخلافة، والخلافة ذات نقص في نفسها، فتمم نقصها في ولايته إياها (4). ولما سأله إسحاق بن إبراهيم عن القرآن وأنه ليس بمخلوق - عمن تحكى أنه ليس بمخلوق؟ فقال: جعفر بن محمد الصادق قال: ليس بخالق ولا مخلوق. فسكت إسحاق (5). على أن حال الأخبار عن أحمد لا تمضى على هذا المنوال، بل نجد بينها أخباراً ربما يصعب معها الجزم أو الترجيح، ولكننا آثرنا ما هو أقرب إلى الحق وأليق

ص: 485

1-1) المناقب ص 163. و [1] طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج 2 ص 120. [2]

2-2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 320. [3]

3-3) مناقب أحمد ص 163.

4-4) شرح نهج البلاغة ج 1 ص 17.

5-5) مناقب أحمد ص 359.

برجل عالم كأحمد، وقد تكون صحيحة لتأثره بأجواء المتوكل، أو قد تكون من صنع آخرين. سنشير إليها في محلها.

## شيوخ الإمام أحمد من الشيعة:

كما أن لأحمد صلة برجال الشيعة، وقد أخذ العلم عن كثير منهم، فكانوا في عداد شيوخه وأساتذته، وكذلك أخذ عن عدد وافر من العلماء الذين انتموا إلى مدرسة الإمام الصادق عليه السلام. وربما لآمه بعض من تأثر بدعاية خصوم الشيعة على اتصاله بمن عرف بالشيعة. يحدثنا الخطيب البغدادي: أن عبد الرحمن بن صالح الشيعي (1) كان يغشى أحمد بن حنبل، فيقر به أحمد و يدينه، فقيل له: يا أبا عبد الله عبد الرحمن رافضى. فقال: سبحان الله! رجل أحب قوما من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم نقول له لا تحبهم: هو ثقة (2). أما العلماء الذين أخذ عنهم أحمد فقد ذكر علماء الرجال كثيرا من الشيعة أنهم كانوا من شيوخ أحمد، وكذلك ذكرهم ابن الجوزي في مناقب أحمد، منهم: 1- إسماعيل بن أبان الأزدي أبو إسحاق الكوفي، المتوفى سنة 216 هـ وهو من شيوخ البخارى وابن معين أيضا. 2- إسحاق بن منصور السلوى أبو عبد الرحمن الكوفي، المتوفى سنة 205 هـ وقد خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة. 3- تليد بن سليمان المحاربى أبو سليمان الكوفي، المتوفى سنة 190 هـ روى له الترمذى في صحيحه وقال فيه أحمد: إن مذهبه التشيع ولم أر به بأسا. 4- الحسين بن الحسن الفزارى أبو عبد الله الأشقر الكوفي، المتوفى سنة 208 هـ خرج حديثه النسائى.

ص: 486

1-1) هو عبد الرحمن بن صالح أبو محمّد الأزدي، المتوفى سنة 230 هـ كان من أهل العلم سكن بغداد، وكتب عنه أهلها. قال محمّد بن موسى: رأيت يحيى بن معين جالسا في دهليز عبد الرحمن غير مرة، يخرج إليه أجزاء يكتب منها عنه. وقال فيه يحيى: عبد الرحمن بن صالح ثقة صدوق شيعى، لأن يخرّ من السماء أحب إليه من أن يكذب في نصف حرف.

2-2) تاريخ بغداد ج 10 ص 261. [1]

5- خالد بن مخلد القطواني أبو الهيثم، المتوفى سنة 213 هـ كان من كبار شيوخ البخارى و خرّج حديثه فى صحيحه، و مسلم و النسائى و مالك بن أنس فى مسنده. 6- سعيد بن خيثم بن رشد الهلالى أبو معمر الكوفى، المتوفى سنة 180 هـ خرّج حديثه الترمذى و النسائى و ابن ماجة. 7- عبد الله بن داود أبو عبد الرحمن الهمدانى، المتوفى سنة 212 هـ خرّج حديثه البخارى و أبو داود و الترمذى و قال فيه أحمد: هو أثبت من شريك. و قال ابن سعد: كان ثقة يرحل إليه. 8- عبيد الله بن موسى العيسى أبو محمّد الكوفى، المتوفى سنة 213 هـ صاحب المسند. خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة. 9- عبد الرزّاق بن همام الصنعانى المتوفى سنة 211 هـ من كبار شيوخ أحمد و البخارى. خرّج حديثه أصحاب الصحاح. 10- عباد بن العوام بن عمر بن عبد الله بن المنذر الواسطى، المتوفى سنة 185 هـ قال ابن سعد: كان يتشيع، و كان من نبلاء الرجال. و قد حبسه الرشيد زمانا ثم خلى عنه، و أقام ببغداد و سمع منه البغداديون، و هو من رجال الصحاح الستة. 11- محمّد بن فضيل بن غزوان الضبى، أبو عبد الرحمن الكوفى، المتوفى سنة 195 هـ و هو مصنف كتاب الزهد و الدعاء، قال أحمد بن حنبل: محمّد بن فضيل: حسن الحديث، شيعى. و خرّج حديثه أصحاب الصحاح. 12- عائذ بن حبيب الملاح الكوفى، المتوفى سنة 190 هـ يباع الأقسمة الهروى، خرّج له النسائى و ابن ماجة. 13- على بن غراب الفزارى أبو الحسن الكوفى، المتوفى سنة 184 هـ سئل عنه أحمد بن حنبل فقال: حديثه حديث أهل الصدق. و خرّج حديثه النسائى و ابن ماجة. 14- على بن هاشم بن البريد العابدى مولا هم أبو الحسن الكوفى، المتوفى سنة 180 هـ خرّج حديثه البخارى فى الأدب المفرد. و مسلم فى صحيحه، و الترمذى و النسائى، و ابن ماجة، و أبو داود.



15- على بن الجعد أبو الحسن الهاشمي مولا هم البغدادي الجوهري، المتوفى سنة 230 هـ روى له البخاري وغيره. 16- الفضل بن دكين المعروف بأبي نعيم، المتوفى سنة 219 هـ من رجال الصحاح الستة، وهو شيخ البخاري وأحمد وابن معين وإسحاق. قال فيه أحمد: الفضل ثقة يقظان عارف بالحديث. 17- محمد بن عبد الله بن الزبير بن عمر أبو أحمد الأسدي الزبيري مولا هم المكي، المتوفى سنة 202 هـ. وقد نص ابن قتيبة في معارفه على تشيع جماعة هم من كبار شيوخ أحمد أمثال: يحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة 198 هـ ووكيع بن الجراح المتوفى سنة 197 هـ وحميد بن عبد الرحمن الرواسي المتوفى سنة 190 هـ وهشيم بن بشير الواسطي المتوفى سنة 183 هـ (1) وغيرهم. كما أن الإمام أحمد أخذ العلم عن جماعة من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام. والمنتمين لمدرسته، أمثال: إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهري المتوفى سنة 183 هـ وإبراهيم بن زياد المتوفى سنة 228 هـ وجريز بن عبد الحميد المتوفى سنة 188 هـ ومكي بن إبراهيم المتوفى سنة 215 هـ والضحاك بن مخلد الشيباني أبو عاصم النبيل المتوفى سنة 131 هـ وغير هؤلاء عدد كبير من الذين عرفوا بالتشيع وانتسبوا لمدرسة أهل البيت. والغرض أن الإمام أحمد لم يسلم من التصاق التهمة به بالميل للعلويين، والجنوح للشيعة وهم خصوم الدولة، وأعداء ذلك المجتمع الذي سادت به موجة من الفوضى والإرهاب. لأنه أظهر ما يدل على اتهامه من تفضيله للإمام علي ورواية مناقبه، واتصاله برجال الشيعة وأخذه عنهم، كما أنه وضع كتابا خاصا في فضائل علي ومناقبه، خرّج أحاديثه بالطرق الصحاح، وروى عنه جمع غفير.

## أقوال العلماء:

رأينا كيف امتاز أحمد من بين أقرانه، فهل كان هو المنفرد بمنزلة لا يدانيه فيها

ص: 488

أحد؟ أم أن الظروف رفعتهم دونهم وقدمته على من هو أعلم منه، ولعل فيما تقدمه من أقوال معاصريه جواباً عن ذلك: قيل لأبي داود: أحمد أعلم أم علي بن المديني؟ قال: علي أعلم باختلاف الحديث من أحمد. وقال أحمد بن حنبل: سمعت رجاء بن جابر المرجي يقول: رأيت ابن حنبل وإسحاق، وابن المديني والشاذكوني، فما رأيت أحفظ من عبد الله، يعني عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي المتوفى سنة 250 هـ والذي كان يسميه أحمد بالسيد. وقال فيه ابن أبي حاتم إنه إمام أهل زمانه (1). وقال أحمد: يحيى بن معين أعلمنا بالرجال. وقال ابن المديني: لا نعلم أحدا كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين (2). وقال ابن سلام: انتهى الحديث إلى أربعة: إلى أبي بكر بن شيبه، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني. وقال الدارقطني في إبراهيم الحربي: إنه ثقة يقاس بأحمد في زهده وعلمه وورعه، وهو إمام مصنف عالم بكل شيء، بارع بكل علم صدوق (3). وقال أبو زرعة: ما رأيت أحفظ من أبي بكر بن شيبه. فقال له ابن خدّاش: يا أبا زرعة فأصحابنا البغداديون؟ قال: دع أصحابك إنهم أصحاب مخاريق، ما رأيت أحفظ من أبي بكر (4). وفي ترجمة عبد الله بن أحمد بن حنبل أن بعضهم قدمه على أبيه في الحفظ والسماع وعلل الحديث (5). وقال ابن المديني غير مرة: والله لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت بالله أني لم أر أحدا قط أعلم بالحديث من عبد الرحمن (6).

ص: 489

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 10 ص 31. [1]

2-2 (2) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 17.

3-3 (3) معجم الأدباء ج 1 ص 125. [2]

4-4 (4) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 19.

5-5 (5) تاريخ بغداد ج 1 ص 125. [3]

6-6 (6) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 19.

وقال ابن المديني: أعلم الناس لقول الفقهاء السبعة: الزهري ثم بعده مالك ثم بعده ابن مهدي (1). وقال أحمد في أبي الوليد الطيالسي: أبو الوليد اليوم شيخ الإسلام ما أقدم عليه من المحدثين أحدا. وقال أبو عمران الطرسوسي في أبي مسعود الرازي: ما تحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول الله من أبي مسعود الرازي (2). وقال أبو الخصيب في البخاري: أنه أفقه وأبصر من ابن حنبل. وقال أبو عمر الخفاف: هو (أي البخاري) أعلم بالحديث من إسحاق وأحمد وغيرهما بعشرين درجة (3). وقال صالح بن محمد: أعلم من أدركت بالحديث وعلته: علي بن المديني، وأعلمهم بتصحيح المشايخ: يحيى بن معين، وأحفظهم عند المذاكرة: أبو بكر بن شيبه (4). وقال إسحاق بن إبراهيم: إن الله لا يستحي من الحق؛ أبو عبيد أعلم مني، ومن أحمد والشافعي! وأبو عبيد هذا من طبقة أحمد وأقرانه، فإن وفاته سنة 224 هـ وأما إسحاق فهو المعروف بابن راهويه المتولد سنة 164 هـ والمتوفى سنة 238 هـ وهو في سن أحمد ومن أقرانه. وسئل أحمد عنه فقال: من مثل إسحاق. وقال النسائي: ابن راهويه أحد الأئمة. وقال ابن خزيمة: لو أن إسحاق بن إبراهيم كان في التابعين لأقرؤوا له بحفظه وعلمه وفقهه. وقال محمد بن يحيى الذهلي: إن إسحاق اجتمع بالرصافة مع أعلام الحديث منهم أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهما فكان صدر المجلس لإسحاق (5).

ص: 490

1-1 (1) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 303.

2-2 (2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 53. [1]

3-3 (3) تهذيب التهذيب ج 9 ص 67. [2]

4-4 (4) تاريخ بغداد ج 10 ص 70. [3]

5-5 (5) تاريخ بغداد ج 6 ص 353. [4]

وقال إبراهيم بن أبي طالب سألت أبا قدامة عن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد فقال: الشافعي أفهمهم إلا أنه قليل الحديث، وأحمد أورعهم وإسحاق أحفظهم، وأبو عبيد أعلمهم بلغات العرب (1). وقال محمد بن أسلم الطوسي لما بلغه موت إسحاق بن راهويه: ما أعلم أحدا كان أخشى لله من إسحاق يقول الله: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ وكان أعلم الناس، ولو كان الحمادان والثوري في الحياة لاحتاجوا إليه. وقال أحمد بن حنبل: لا أعلم لإسحاق بالعراق نظيرا (2).

### مذهبه و انتشاره:

لم ينل المذهب الحنبلي شهرة كغيره من المذاهب، وكانت خطى انتشاره قصيرة جدا، أما في بغداد فلم تكن له شهرة إلا بين طبقة عرفوا بالعنف والشدّة في سيرتهم، وتحاملهم على غيرهم من المذاهب، أما خارج بغداد فهو غير معروف ولا منتشر، وكان يعتنقه في مصر أفراد معدودون، وذلك في القرن السابع. ولما ولي القضاء موفق الدين عبد الله بن محمد بن عبد الملك الحجازي المتوفى سنة 769 هـ انتشر المذهب بواسطته، وقرب فقهاء الحنابلة وأصبح لهم شأن يذكر. وفي سائر الأقطار الإسلامية كانت الغلبة للمذهب الحنفي و الشافعي، وفي المغرب ساد مذهب مالك، وكان في الري عدد قليل من الحنابلة، وكذلك في الشام. وقد علل ابن خلدون أسباب قلة أتباع أحمد بقوله: أما أحمد فمقلده قليل لبعده مذهب عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها (3). ويذهب غيره إلى أن السبب يعود لعدم تقلد الحنابلة للقضاء، لأن ذلك هو سبب انتشار مذهب أبي حنيفة و مالك. ومهما تكن الأسباب فإن المذهب الحنبلي انتشر في بغداد، وكانت الغلبة فيها

ص: 491

1-1) تهذيب التهذيب ج 8 ص 316. [1]

2-2) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 20.

3-3) مقدمة ابن خلدون. [2]

للمذهب الشيعي (1) وقد قام الحنابلة بدور صراع عنيف مع الشيعة، ولكن لم يستطيعوا التغلب عليه. وفي سنة 323 هـ عظم أمر الحنابلة و قويت شوكتهم و صاروا يكسبون دور القواد و العامة، و إن وجدوا نبیذا أراقوه، و إن وجدوا مغنية ضربوها فأرهبوا بغداد، و أقلقوا بال الحكومة، كما استظهروا بالعميان الذين يأوون إلى المساجد، فإذا مرّ بهم شافعی ضربوه بعصیهم حتى يموت (2). فخرج توقيع الخليفة الراضی ينكر على الحنابلة فعلهم و يوبخهم باعتقاد التشبيه و غيره، فمنه: (تارة إنكم تزعمون صورة و جوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين، و هيئتكم الرذيلة على هيئته، و تذكرون الكف و الأصابع و الرجلين و النعلين و المذهبيين . . . و الصعود إلى السماء، و النزول إلى الدنيا: تعالی الله عما يقول الظالمون و الجاحدون علوا كبيرا، ثم طعنكم على خيار الأمة، و نسبتكم شيعة آل محمد صلی الله عليه و آله و سلّم إلى الكفر و الضلال، ثم استدعواكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة، و المذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن، و إنكاركم زيارة قبور الأئمة و تشنيعكم على زوارها بالابتداع، و أنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذی شرف و لا نسب و لا سبب برسول الله و تأمرون بزيارته، و تدعون له معجزات الأنبياء و كرامات الأولياء، فلعن الله شیطانا زين لكم هذه المنكرات و ما غواه. «و أمير المؤمنین (أی الراضی) يقسم بالله قسما جهدا إليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم، و معوج طريقتكم، ليوسعنكم ضربا و تشريدا، و قتلا و تبديدا، و ليستعملنّ السيف في رقابكم و النار في منازلكم و محالكم). و من هذا نستظهر أن أفكار المجسمة و الحشوية كان انتشارها في الحنابلة مشهورا، و هذا مما يؤدي إلى نفرة كثيرة من النفوس على ما في الحنابلة من شدة في الدعاية لنشر مذهبهم و إثارة الفتن، و غلظة المعاملة و العنف. كما أن وقوع الفتن بين الحنابلة و الشافعية أدت إلى تقلصه، و وقفت دون انتشاره، و خصوصا أن العامة من الحنابلة قد اشتهروا في الأمر الذي يعتقدونه،

ص: 492

1-1) انظر أحسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشاري.

2-2) الكامل لابن الأثير ج 8 ص 117. [1]

و اتخذوا العنف ذريعة لإظهار ذلك التشدد، و أن مقابلتهم للشيعنة و نسبتهم لهم إلى أمور لا تليق بهم قد أثر أثره في انتكاس الحنابلة و عدم انتشار مذهبهم، لأن أغلبية بغداد هم شيعة و الحنابلة قلة اتخذوا العنف وسيلة لانتصار مذهبهم. و لما قامت الدولة الأيوبية، كان ملوكها شديدي التعصب للمذهب الشافعي، فحاربوا غيره من المذاهب، و لم يسمحوا لغيره من المذاهب إلا ما كان له من العامة كالمذهب المالكي. و عند ما أخذ نفوذ الدولة الأيوبية يضعف، أخذ ذلك المذهب ينتشر في مصر، و لقد جاء في الخطط للمقريزي أنه لم يكن له و للمذهب الحنفي كبير ذكر بمصر في الدولة الأيوبية و لم يشتهر إلا في آخرها. و لما امتد سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلي ضربة قاضية (لأن العثمانيين كانوا حنفية) و أخذ ذلك يتضاءل شيئاً فشيئاً. أما في مصر فلم يكن له أى شهرة هناك، فقد كان في العصور المتأخرة عدد شيوخ الأزهر 312 شيخاً من جميع المذاهب، و عدد طلابه 9069، و كان من بينهم 28 طالباً من الحنابلة و 3 شيوخ منهم فقط، و لكن ظهر في القرن الثامن عشر ميلادية بصورة قوية جديدة، بظهور الوهابيين الذين يتبين في مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية، و قد تطرفوا في ذلك إلى حد بعيد.

## الفقه الحنبلي:

### إشارة

قلنا سابقاً إن الإمام أحمد لم يدون كتاباً فقهياً يأخذ أتباعه عنه مذهب، و هو محدث أكثر منه فقيه، و كان ينهى عن تدوين أقواله و آرائه، و لكن أصحابه أخذوا آراءه الفقهية من أقواله و أفعاله و أجوبته و رواياته، فكانوا إذا وجدوا عنه في مسألة قولين عدلوا أولاً إلى الجمع بينهما بطريقة من طرق الأصول، إما بحمل خاص على عام، أو مطلق على مقيد، فإذا أمكن ذلك كان القولان مذهب، و إن تعذر الجمع بينهما و علم التاريخ فقد اختلف أصحابه في ذلك، فقال قوم: الثاني مذهبه. و قال آخرون: الثاني و الأول. و قالت طائفة: الأول و إن رجع عنه. و من أجل هذا كانت المجموعة الفقهية المنسوبة لأحمد قد اختلفت فيها الأقوال و الروايات عن أحمد بكثرة عظيمة، فإنهم قد يستنبطون من فعل أحمد أو أجوبته قولاً لا يدل عليه الجواب أو الفعل، و قد يحكى آخر خلافه، لأنه سمع من أحمد ما يناقض

استنباطه الأول، و هكذا تكثر الروايات و تختلف الأقوال المنسوبة إلى أحمد. و كذلك اختلفوا في تعبير عبارات جاءت على لسان أحمد في إجابته عن مسائل سنن عنها، فكانت عباراته ليست صريحة في إثبات الحرمة، أو في بيان أن الحكم هو الطلب على سبيل الوجوب أو على سبيل الندب، فمثلا كلمة (لا ينبغي) في كثير من إجاباته، فقد ذكروا أنه يستجيب فراق غير العفيفة و احتجوا بقول أحمد: لا ينبغي أن يمسكها، فحملوا ذلك على الكراهة. و سأله أبو طالب: عن الرجل يصلى إلى القبر و الحمام و الحش. قال أحمد: لا ينبغي. قال أبو طالب: فإن كان؟ قال: يجزيه. و سأله أبو طالب فيمن يقرأ في الأربع كلها بالحمد و سورة؟ قال: لا ينبغي أن يفعل. فحملوا هذا على الكراهة، و كذلك قوله: أكره، أو لا يعجبني، أو لا أحبه، أو لا أستحسنه، حملوا ذلك كله على الكراهة. و منهم من يحملة على الحرمة، و قد نقل ابن القيم الجوزية روايات كثيرة عن أحمد جاءت بلفظ الكراهة، و المقصود التحريم. و إذا جاءت رواية عن أحمد بلفظ: أحب، و يعجبني، أو أعجب إليّ، فعند الأكثر من الحنابلة يكون ذلك محمولا على الندب، و قيل يحمل على الوجوب. و كذا إذا قال: هذا حسن أو أحسن. أما إذا قال أحمد: أخشى أو أخاف أو يكون أو لا يجوز، أو أجبن عنه فقيل: يحمل على التوقف لتعارض الأدلة، و قيل: هو على ظاهره. و إن أجاب عن شيء، ثم قال عن غيره: أهون، أو أشد، أو أشنع فقيل هما سواء، إلى آخر ما لديهم من الاصطلاحات في تفسير أقوال أحمد إذ هي عمدة المذهب، و عليها ابتنى التخريج و العمل، فهي بمثابة ما يروى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. قال ابن أبي يعلى: و ليست جوابات إمامنا في الأزمنة و الأعصار إلا بمثابة ما يروى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الآثار، لا يسقط نهايتها موجبات بدايتها إلا بأمر صريح بالنسخ أو التخفيف، فإذا عدم ذلك كان على موجبات رعايته، فكذلك في جواباته إذ العلماء أنكروا على أصحاب الشافعي من حيث الجديد و العتيق، و إنه إذا ثبت القول فلا يرد إلا باليقين، فكذلك في جوابات إمامنا (1).

ص: 494

و على أى حال فقد وردت فى أجوبة أحمد ألفاظ حملها بعضهم على الكراهة، وبعضهم على الحرمة، فمثلاً أنه قال: أكره لحم الحية و العقرب، لأن الحية لها ناب و العقرب لها حمة. فحملوا ذلك على الحرمة. و قوله: و يكره أن يتوضأ الرجل فى آنية الذهب و الفضة، و قوله فى الجمع بين الأختين بملك اليمين: أكرهه و لا أقول هو حرام. قالوا: إن مذهبه الحرمة. و مثل لفظ أكره قوله: لا يعجبني. و قد ساق ابن قيم الجوزية أمثلة كثيرة لحمل ذلك على الحرمة، و من ذلك: أنه سئل عن رجل أكثر ماله حرام أو يؤكل ماله و يغصب منه؟ فقال: إذا كان أكثر مال الرجل حراماً فلا يعجبني أن يؤكل ماله. و سئل عن الخمر يتخذ ليكون خلا فقال: لا يعجبني. إلى آخر ما ورد من تعبير هذه الألفاظ و حملها على أحد الوجهين، استناداً للقرائن. و قد ثبت عن أحمد أنه كان يجيب عن بعض المسائل بلا أدري، نقل أبو داود أنه سئل عن المرأة تعدم الماء، و يكون مجتمع الفساق، فتخاف أن تخرج أ تميم؟ قال: لا أدري (1).

### كتب الفقه الحنبلي:

و قد ألفت رجال المذهب الحنبلي كتباً فى تدوين أقوال أحمد و الروايات عنه، و التخريج عليها، و من مجموع ذلك تكونت مجموعة فقهية نسبت إليه شأنه شأن غيره من المذاهب كما تقدم. و من أشهر الكتب التى تعد أصلاً من أصول الفقه الحنبلي: هو مختصر الخرقى، و هو عبد الله بن أبى بكر بن البدر الخرقى المتوفى سنة 620 هـ و قال فيه: أنه لم يخدم كتاب فى المذهب مثل ما خدم هذا المختصر، و قد توافر عليه علماء الحنابلة بالشرح و التعليق، و أعظم شروحه المغنى لموفق الدين المقدسى، قال الشيخ عبد القادر الدمشقى المعروف بابن بدران: و قد اطلعنا له (أى للمختصر) ما يقرب من عشرين شرحاً، و سمعت من شيوخنا و غيرهم أن من قرأه حصل له ثلاث خصال: إما أن يملك مائة دينار، أو يلى القضاء، أو يصير صالحاً.

ص: 495



و منها: المستوعب، تأليف محمّد بن عبد الله بن الحسين السامري المتوفى سنة 610 هـ. و الكافي للشيخ موفق الدين المقدسى صاحب المغنى. و العمدة له أيضا، و الهداية لأبى الخطاب الكوذانى، و قد تقدمت ترجمته. و المحرر لابن تيمية. و المقنع لموفق الدين المقدسى، و غيرها من كتب المذهب.

### أصول الفقه الحنبلى:

وقد ذكر ابن قَيِّم الجوزية: أن الأصول التى بنى عليها الإمام أحمد فتاويه خمسة: أحدها: النصوص، فإذا وجد النص أفتى بموجبه و لم يلتفت إلى ما خلفه، و لذلك قدم النص على فتاوى الصحابة. الثانى: ما أفتى به الصحابة، و لا يعلم مخالفا فيه، فإذا وجد لبعضهم فتوى، و لم يعرف مخالفا لها لم يعدها إلى غيرها، و لم يقل إن ذلك إجماع، بل يقول من ورعه فى التعبير: لا أعلم شيئا يدفعه. الثالث: أنه إذا اختلفت الصحابة تخير من أقوالهم أقربها إلى الكتاب و السنة، و لم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف و لم يجزم بقول. الرابع: الأخذ بالمرسل و الحديث الضعيف إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه، و هو الذى رجحه على القياس. الأصل الخامس: إذا لم يكن عند الإمام أحمد فى المسألة نص، و لا قول الصحابة أو واحد منهم، و لا أثر مرسل أو ضعيف، ذهب إلى القياس فاستعمله للضرورة، و قد نقل الخلال عن أحمد أنه قال: سألت الشافعى عن القياس فقال: إنما يصار إليه عند الضرورة (1). و لكن كتب الأصول عند الحنابلة قد زادت على هذه الأصول، فذكروا الاستصحاب و المصالح و الذرائع، و ربما ذكروا الإجماع، و قبل الختام نعود إلى إيضاح الموقف بين المعسكرين، المعتزلة و المحدثين.

ص: 496

كان النزاع بين المحدثين و المعتزلة شديداً، وقد استطاع المعتزلة أن يتغلبوا على خصومهم، وأصبحت أمور الدولة بأيديهم، فمنهم الأمراء والقضاة، وهم أهل الحل والعقد، عند ما وقع المأمون تحت سيطرتهم، وخضع لنفوذهم، وارتاح لأحاديثهم، لأنه كان متعطشا إلى العلم والفلسفة و حرية العقل، و مشغوفاً بالمناقشة و الجدال، و المعتزلة في وقته هم أقطاب الأدب، و أرباب الجدل، و طلاب العلم و الفلسفة. قال الدميري: كان المأمون نجما لبني العباس في العلم، و الحكمة، و قد أخذ من العلوم بقسط وافر، و ضرب فيها بسهم، و هو الذي استخرج كتاب أقليدس، و أمر بترجمته و تفصيله، و عقد في خلافته للمناظرة في الأديان و المقالات، و كان أستاذه أبو الهذيل العلاف (1). و كان لأحمد بن أبي داود أكبر الأثر في تحقيق مآرب المعتزلة و أهدافهم، فهو قاضى الدولة، و صاحب السلطة التشريعية، و له عند المأمون مكانة لا- يزاحمه بها غيره، فاستطاع بلباقته و غزارة علمه، و ذلاقة لسانه، أن يحمل المأمون على القول بخلق القرآن. و إظهار ما يذهب إليه المعتزلة من آراء. و كان المعتزلة يرون أن القول بقدم القرآن فكرة مسيحية، دست بين الجماهير الإسلامية، فيما كان يدس فيهم من أفكار، و قد تلقاها الجمهور بالقبول لما فيها من تقديس للقرآن الكريم، كما جاء في رسالة النصارى للجاحظ المعتزلى: إن الكائدين للإسلام يرتضون و يرحبون بمقالة الفقهاء و المحدثين الذين يروجونها عند العامة، لأنهم يتخذون من الحكم بأن كل كلام الله قديم، سبيلا لأن يقيموا الحجة على أن المسيح قديم، و تكون تلك الحجة من الكتاب الكريم، إذ فيه أن المسيح كلمة الله، و كل كلام الله قديم، و كلمة الله قديمة فالمسيح قديم. و إن الأخبار الصادقة تثبت أن النصارى الذين كانوا يعيشون بين المسلمين، يؤلمهم أن يدخل المسيحيون في دين الله أفواجا، و كانوا يثيرون أفكارا بين المسلمين، و يتخذون من هذه الأفكار حججا لهم يجادلون بها عن دينهم. و قد جاء في كتاب تراث الإسلام عن يوحنا الدمشقى الذى كان فى خدمة

الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملك: أنه كان يلقت بعض المسيحيين ما يجادلون به المسلمون فيقول: (إذا سألك العربي: ما تقول في المسيح؟ فقل إنه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني المسلم: بم سمي المسيح في القرآن؟ و ليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم، فإنه سيضطر إلى القول إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فإذا أجاب بذلك، فاسأله عن كلمة الله وروحه، أو مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة، فليرد عليه بأن الله كان ولم تكن كلمة ولا روح، فإن قلت ذلك فسيفحم العربي، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين). فالمعتزلة يرون أن من يقول إن القرآن قديم يمد النصراني بحجة يجادلون بها، وأن من الواجب ألا يقال ذلك، لأنه يعطى للخصوم حجة على الإسلام، ويفتح الثغرة لمن ينالون منه، وليس هو الحق، و من قاله فقد ضاهى قول النصراني في المسيح، و حكم بتعدد القدماء، و جعل القرآن الذي ينطق به الناس قديما كشأن الله سبحانه و تعالى (1). و كان المحدثون يرون ألا يخوضوا في شيء لم يخض فيه السلف، كما أنهم يمنعون عن الفلسفة والكلام، لأنهم يرون أن العامة إذا تفلسفوا أهدوا. وإذا قيل لهم إن القرآن مخلوق فذلك يساوي أنه يصح الرد عليه، يجوز الإتيان بمثله؛ أو أنه يؤدي إلى الاستهانة به، إلى غير ذلك مما توحى إليهم عواطفهم و ما يرونه لازما عليهم. و هذه المسألة في الواقع مسألة علمية يجب أن تبحث و تناقش نقاشا منطقيًا، ليظهر للملأ أحقية أي الحزبين. و كذلك الخلاف في رؤية الله سبحانه و تعالى و صفاته، ينبغي أن تناقش بعلمية و يترك الأمر للبراهين و الحجج ليتضح الحق. و قد سلك المعتزلة في تأييد مذاهبهم طريق القوة، و استعملوا الشدة و أخذوا الناس بالمحنة، و جاءوا بالعلماء من أطراف البلاد، ليحاكموهم، و يمتحنوهم في عقائدهم، و يتحكمون في ضمائرهم. فمالوا عن توجههم الفكري، و وقعوا في تناقض عملي صريح.

ص:498

فأصبح الناس لا يرون أن ذلك يرجع إلى قواعد علمية، أو أنها مسألة تنزيه الله سبحانه وتعالى، أو مغالبة رأى برأى، بل جعلوا ذلك محنة نزلت في الإسلام والمسلمين، فهم يرون السجنون قد ملئت برجال المحدثين، والولاية في كل مكان يمتحنون الناس بقوة السلطان، فالجنود يسوقون الناس بسياطهم وسيوفهم إلى مجالس الامتحان، بل إلى محاكمات المعتزلة، وبهذا فقد كره الناس الاعتزال لأن الحكومة احتضنته، وأرادت فرضه بالقوة، والعقائد لا ينشرها التعذيب والإرهاب، وإنما ينشرها الإقناع والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد وقع المعتزلة في سلوك يجافى ما ادعوه. وبهذا استغل المشتعون على المعتزلة الفرصة، فأساءوا إلى سمعتهم، وشوهوا دعوتهم، ودخلوا على أذهان العامة من الباب التي يتفق وعقليتهم. كما أنهم التفوا حول المعارضين لهذه الدعوة، والثابتين في المحنة، وكلما ازدادت المحنة ازدادت العامة إيماناً بعقيدتهم، وتأييداً للرجال الذين لم يجيئوا إلى ما طلب منهم. وكان امتحان أحمد بن حنبل لم يصل إلى حد السيف كغيره من العلماء الذين كانت نهايتهم القتل، والتأييد في السجن، فقد نجا من ذلك وكان هو بقية الفئة التي ثبتت من المحدثين على الامتناع-بأى صورة كان-فكانت العامة تنظر إليه كبطل قارع خصمه وثبت على إيمانه. فأصبح بعد رفع المحنة شخصية لها أثرها، لا سيما وأن السلطة قد لحظته بالعناية أيام المتوكل، عند ما رفع المحنة، فكان محل ثقة الجماهير، واحترام العلماء من المحدثين، حتى أصبح حبه علامة الإيمان، وبغضه علامة الكفر. وأن من وثقه ابن حنبل وثق، ومن ضعفه ضعف. وانتصرت العامة أيام المتوكل بانتصار المحدثين.

### انتصار المحدثين:

انتصر المحدثون بعد أن أفل نجم المعتزلة بانحراف المتوكل عنهم، وبذلك انفجر بركان غيظهم وظهر حقدهم الدفين، وانطلقت حركة الانتقام جامحة، فجاهروا بلعن المعتزلة وصفوهم بكل قبيح، بل تجاوزوا الحد إلى سواهم ممن لم يكونوا على رأى أصحاب ابن حنبل.

و اتخذوا تشييع الجنائز كمظاهرات لإظهار الشعور، و التظاهر بالسب لمن خالفهم، كما صنعوا فى تشييع جنازة أحمد بن نصر التى مشى فيها جماهير العامة فى بغداد، و صاروا يتمسحون بالنعش حتى أن المتوكل تخوف من اجتماع العامة و تجمهرهم على ذلك النحو، فكتب إلى عامله يأمره بمنعهم من الاجتماع و الحركة فى مثل هذا و شبهه. و كذلك فعلوا فى جنازة ابن حنبل، فإنه يقال أن خلقا كثيرا مشوا فيها، و حدث أحد الذين شهدوها قال: إنه مكث طوال الأسبوع رجاء أن يصل إلى القبر فلم يتمكن إلا بشق النفس لكثرة ازدحام الناس عليه. و هكذا تحولت تلك الجنازة إلى مظاهرة عظيمة، أظهر القوم فيها التفجع على الإمام الراحل، و طعنوا فى أهل البدع (كما يرون) و لعنواهم (كما يشاؤون) و لزم بعضهم القبر و باتوا عنده، و جعل النساء يأتين إليه، فاضطرت السلطة إلى أن أرسلت حامية إلى ذلك الموضع منعا لوقوع الفتنة (1). و على أى حال: فقد كان المحدثون يصبون جام غضبهم على أعدائهم لعنا و قتلا و تكفيرا، و تمادوا فى مهاجمة المعتزلة حتى قالوا: إن المعتزلى لا تجوز الصلاة عليه، و إن دماءهم و أموالهم حلال للمسلمين، و فيه الخمس، و ليس على قاتل الواحد منهم قود و لا- دية و لا كفارة، بل لقاتله عند الله القربة و الزلفى (2). و قد وضع بعضهم من الأحاديث ما شاءوا، و من المنامات ما أرادوا، و قام القصاصون فى نشرها على ذلك المجتمع الذى سادت فيه روح النقمة بعد نشوة الانتصار. كما حكموا على من لم يقل بمقالتهم فى خلق القرآن بالكفر و الخروج عن الدين، و كان أحمد نفسه يرى ذلك، فقد حكم على جماعة ممن أجاب فى المحنة بالكفر. و كان لا يرى أجزاء تحرير رقبة عبد يقول بخلق القرآن.

ص: 500

1-1) المعتزلة لزهدي حسن جار الله ص 185-186.

2-2) الفرق بين الفرق ص 151. [1]

روى عبد الله بن أحمد قال: سئل أبي عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة فكان عنده مملوك لقنه أن يقول بخلق القرآن. فقال أحمد: لا يجزى عنه عتقه، لأن الله تبارك وتعالى أمره بتحرير رقبة مؤمنة وليس هذا بمؤمن، هذا كافر (1). وسئل عمن قال لفظي بالقرآن مخلوق، فقال: هذا لا يكلم، ولا يصلى خلفه، وإن صلّى أعاد. وبلغ أحمد أن القواريري سلم على ابن رباح، فلما أراد القواريري أن يزور ابن حنبل قال له: ألم يكف ما كان من الإجابة حتى سلّمت على ابن رباح؟ ورد الباب في وجهه، ونهى الشهود عن أن يشهدوا أمام قاض جهمي (يريد معتزليا) ولو استعدى عليه. وقال في إحدى رسائله: إنهم يكفرون بالذنب. . . و حكمهم ألا يكلموا ولا يناكحوا ولا تؤكل ذبائهم ولا تقبل شهادتهم حتى يتوبوا (2). وكان يتهم من يتعرض لأصحاب الحديث بالزندقة (3). وكان أحمد لا يشيع جنازة من يقول بخلق القرآن، ولا يصلى عليه، ويرتب عليه أحكام الكفار. كما أن أنصاره حكموا على من بغض أحمد بالكفر والبدعة. يقول قتيبة بن سعيد: أحمد بن حنبل إمامنا، من لم يرض به فهو مبتدع (4). وراحوا يرفعون من شأن المتوكل على ما فيه من مخالفة الدين، وبالغوا في الثناء عليه حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السنة (5). ومدحوه بأشعار كثيرة، واغتفروا له سوء فعله، لرفعه المحنة، ورأى كثير من المحدثين رؤى في المنام تذكر أن الله غفر له.

ص: 501

1-1 (1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 131. [1]

2-2 (2) المدخل إلى مذهب ابن حنبل ص 10.

3-3 (3) الطبقات ج 1 ص 138. [2]

4-4 (4) طبقات الحنابلة ج 1 ص 15. [3]

5-5 (5) المناقب ص 356.

و كذا نشط الحنابلة نشاطا عظيما فى نظم الشعر الذى يرفع من شأن إمامهم و يقوى دعائم مذهبهم، و يحط من شأن أعدائهم، يقول مزاحم الخاقانى فى مدح أحمد: لقد صار فى الآفاق أحمد محنة و أمر الورى فيها فليس بمشكّل

ترى ذا الهوى جهلا لأحمد مبغضا و تعرف ذا التقوى بحب ابن حنبل

و يقول ابن أعين: أضحى ابن حنبل محنة مأمونة و بحب أحمد يعرف المتسك

و إذا رأيت لأحمد متنقضا فاعلم بأن ستوره ستهتك

(1) و قال محمّد بن أحمد بن الحسين الموصلى قصيدة طويلة منها: و انظر بعين الاعتبار و لا تكن ذا غفلة عن طاعة الديان

و اقصد لمذهب أحمد بن محمّد أعنى ابن حنبل الفتى الشيبانى

فهو الإمام مقيم دين المصطفى من بعد درس معالم الإيمان

إلى أن يقول: فعلى ابن حنبل السّلام و صحبه ما ناحت الورقاء بالأغصان

إنى لأرجو أن أفوز بحبه و أنال فى بعثى رضى الرّحمن

(2) و يقول عبد الله بن محمّد الأنصارى فى قصيدة يرثى أحمد: و إمامى القوام لله الذى دفنوا حميد الشأن فى بغداد

أنا حنبلى ما حييت و إن أمت فوصيتى ذاكم إلى إخوانى

و يقول جعفر بن أحمد السراج: لله رب الناس مذهب أحمد فإن عليه ما حييت معولى

(3) و يقول أبو على بن المتوكل على الله: يا ذا الذى أضحى يصول ببدعة و تشيع و تمشعر و تمعزل

ص: 502

1-1) جلاء العينين للآلوسى ص 115.

2-2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 257. [1]

3-3) المناقب لابن الجوزى ص 332-333.

لا تنكرن تحنبلى و تسنى فعليهما يوم المعاد معولى

إن كان ذنبى حب مذهب أحمد فليشهد الثقلان أنى حنبلى

(1) وهكذا يستمر الحنابلة فى نصرة المذهب بالأقوال والأفعال، فهم يثون فضائل أحمد و مزاياه، و وجوب تفضيل مذهبه على غيره، بشى الوسائل و الطرق. و لما قويت شوكة المحدثين-و على رأسهم الحنابلة-و تعالت سلطتهم حتى كانوا حكومة داخل حكومة، أخذوا ينشرون المذهب بكل نشاط و قوة، و يوقعون الشر بمن يخالفهم بالرأى حتى ذكروا: أن محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير و التاريخ ألف كتابا فى اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فسئل عن ذلك. فقال: لم يكن أحمد فقيها إنما كان محدثا، و ما رأيت له أصحابا يعول عليهم. فأساء ذلك الحنابلة، و قالوا: إنه رافضى. و سأله عن حديث الجلوس على العرش؟ فقال: إنه محال و أنشد: سبحان من ليس له أنيس و لا له فى عرشه جليس

فمنعوا الناس من الجلوس إليه، و من الدخول عليه، و رموه بمحابرهم. فلما لزم داره، رموه بالحجارة حتى تكدست، و حتى ركب صاحب الشرطة، و معه ألوف من الجند لمنع العامة عنه، و رفع الحجارة. و هذا مما يدل على تعصب الحنابلة و شذوذهم فى نشر مذهبهم، و ما أكثر الحوادث التاريخية التى دلت على أن حركتهم فى غالب الأحوال حركة جماهيرية و هى لا-شعورية. و كانت نشوة الانتصار على خصومهم قد جعلتهم يتشددون و يتعصبون، و قد استمسكوا بألفاظ لا يفهمون معانيها. و كان موضوع مناقشتهم مسألة خلق القرآن، فخاصوا فى هذه المسألة على غير علم، و لقد كان يكفى أن يقول الرجل القرآن غير مخلوق حتى يستجاز قوله، و إن تردد و لو للتروى و التفكير نبذ و ردّ (2). و لقد استنكر المفكرون من الأمة تلك الحال، حتى لقد ألف ابن قتيبة-الذى كان يعيش فى ذلك العصر-رسالة وصف فيها كيف كانت الاختلافات تجرى بحدة و عنف، بين الذين لا يعلمون فى هذه المسألة، و يتكلمون من غير بينة، و كيف كان

ص: 503

1-1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 235. [1]

2-2) ابن حنبل لمحمد أبو زهرة ص 394.



المحدثون و على رأسهم الحنابلة يكفرون أو يحكمون من غير بينة على كل من لم ينطق بكلمة قديم، مضافة إلى أى شىء يتصل بالقرآن. و قال فى وصف المحدثين، ثم الحنابلة: كان آخر ما وقع من الاختلاق أمر أخص بأصحاب الحديث، الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين، و بالاتباع قاهرين، يداجون بكل بلد و لا يداجون، و يستتر منهم بالنحل و لا يستترون، و يصدعون بحقهم الناس و لا يستغشون لا يرتفع بالعلم إلا من رفعوا، و لا يتضع فيه إلا من وضعوا، و لا تسير الركبان إلا بذكر من ذكروا، إلى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها الله تعالى أصلا فى الدين، و لا فرعا فى جهلها سعة، و فى العلم بها فضيلة، فنى شرها، و عظم شأنها. حتى فرقت جماعتهم، و شتت كلمتهم، و وهنت أمورهم، و اشممت حاسديهم. و هذه المسألة التى كانت بهذه الشدة و اللجاجة فى الخصومة و العداوة، فإنها كانت محنة لأحمد فى حياته من الأمراء و الخلفاء، ثم كانت محنة الفكر من بعده، فالعامه لا يقبلون قولا من أحد إلا إذا قدمه بوصف القدم لما يتصل بكتاب الله تعالى. و يقول ابن قتيبة: ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث، فيبدءونه قبل الكتابة بالمحنة، فالويل له إن تلعثم أو تمكث، أو سعل أو تنحج قبل أن يعطيهم ما يريدون، فيحمله الخوف من قدحهم فيه، و إسقاطهم له، على أن يعطيهم الرضا، فيتكلم بغير علم، و يقول بغير فهم، فيتباعد من الله فى المجلس الذى أمل أن يتقرب فيه، و إن كان ممن يعقد على مخالفتهم سام نفسه إظهار ما يحبون ليكتبوا عنه. و إن رأوا حدثا مسترشدا، أو كهلا متعلما سألوه، فإن قال: أنا أطلب حقيقة هذا الأمر، و أسأل عنه، و لم يصح لى شىء بعد، و إنما صدقهم عن نفسه، و اعتذر بعذره و الله يعلم صدقه، كذبه و آذوه، و قالوا خبيث فاهجروه (1). و من هذا يظهر أن للعوام سلطة لا يمكن لأحد من ذوى الفهم أن يقف أمامها، و ليس للعلماء رأى فى ذلك الصراع، و مما يؤيد ذلك: إن شيخ الحنابلة أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى، توفى و أراد العوام أن ينبشوا قبر أحمد و يدفنوه معه، و لم يستطع أحد أن يقول للعوام لا تنبشوا قبر أحمد و ادفنوه

ص:504

بجنبه، فقال أبو محمد التميمي من بين الجماعة: كيف تدفونوه في قبر الإمام أحمد و بنت أحمد مدفونة معه! فإن جاز دفنه مع الإمام فلا يجوز دفنه مع بنته؟ فقال بعض العوام: اسكت فقد زوجنا بنت أحمد من الشريف (أى أبو جعفر) فسكت التميمي (1) ودفنوه مع أحمد في قبره! وهكذا تسير الأمور على غير ترو و تدبر و يتلى المسلمون بهذا البلاء، و تقع تلك الحوادث المؤلمة التي صدعت وحدة الصف، و فرقت الكلمة، و فسحت المجال لخصوم الإسلام للتدخل في ذلك المعترك، لبت أفكارهم المسمومة و نشر آرائهم الفاسدة. لقد كان هذان المعسكران في صراع فكري و نزاع عقائدي، و كان الأولى ألا يتعدى ذلك حدود المنطق و النقاش العلمي، و أن يقتصر ذلك على العلماء المفكرين، و من الخطأ أن يفرض تقبل الآراء الفلسفية على العوام، و يراد منهم أن يعرفوا الجوهر و العرض، و الكمية و الكيفية، و المحدود و اللامحدود، و المكان و الجهة. . . فالمعتزلة-وهم قادة تلك الحملة-كانوا الداعين إلى حرية الفكر، و القائلين بسلطة العقل، قد خالفوا دعوتهم فعاملوا الناس بالشدّة، و قوة السلطنة، و التعذيب و التنكيل و الإهانة، مما حمل العامة على التذمّر و الالتفاف حول من يعهد به مقاومة تلك الشدة، و مخالفة السلطنة حتى كان ما كان من تعلق الجماهير بشخصية أحمد و جعلها في هالة القداسة و العظمة، و ازداد نشاطهم في المنامات كثرة هائلة، حتى توصلوا إلى تأييد قولهم في خلق القرآن إلى إيجاد منام أشبه بمحاكمة، و تكون النتيجة أن الله سبحانه و تعالى يصدق قول أحمد، و يصوّب رأيه. و جعلوا جنة عدن و قفا على الحنابلة لا يدخلها إلا من أحب أحمد (2) إلى غير ذلك مما نشط فيه العوام، و تلقوه من القصاصين في لزوم التمسك بمذهب أحمد، و اعتبار غيرهم مبتدعة كفر، و بهذا الاندفاع فقد تغيرت الأحوال، و انعكست المفاهيم، و حدث من وراء ذلك ما لا-تحمد عقباه. فعمل المعتزلة و تشددهم يعد في الواقع هو السبب في إثارة تلك الأعاصير،

ص:505

1-1) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج 3 ص 337. [1]

2-2) مناقب أحمد لابن الجوزي ص 447-448-449.

وهم مسئولون عن انتكاسهم بعد ذلك النشاط، وهزيمتهم أمام قوة المحدثين، ورجوع الأثرية إلى الجمود، والتسليم خضوعاً للعاطفة، وامتثالاً لأمر السلطة، يقول المسعودي: لما أفضت الخلافة للمتوكل أمر بترك النظر، والمباحثة في الجدل، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر الشيخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنّة والجماعة. وقال الدكتور أحمد أمين: ولما ذهب ضوء المعتزلة، وقع الناس تحت سلطان المحدثين وأمثالهم من الفقهاء، وظلوا تحت هذا السلطان من عهد المتوكل إلى ما قبل اليوم بقليل، فكانت النتيجة جموداً بحثاً، وعلم العالم أن يحفظ الأحاديث ويرويها كما سمعها ويفسرها تفسيراً لغوياً، ويشرح رجال السند كما شرحه الأقدمون: هذا ثقة، وهذا ضعيف. من غير نقد عقلي؛ وفقه الفقيه أن يروي أقوال الأئمة قبله، فإذا عرضت مسألة جديدة لم تكن، فقصارى جهد المجتهد أن يخرجها على أصول إمامه، فهذه طبائع العلماء من عهد المتوكل، تسليم بالقضاء والقدرة، وتسليم بما كان ويكون، وتقليد للسابقين، وتقليد في الفتاوى والآراء، ومن ثمة تكاد تكون الكتب المؤلفة في الحديث والفقه والتفسير، بل والنحو واللغة من عهد المتوكل صورة واحدة، وإن اختلفت في شيء فاختلاف في الإطناب والإيجاز، والبسط والاختصار، أما الترتيب فواحد وأما الأمثلة فواحدة، وأما العبارة الغامضة في الكتاب الأول فغامضة في الكتاب الأخير، كلها خضعت لأمر المتوكل بالتسليم والتقليد، وانعدمت فيها كلها الشخصية. لأن الشخصية عدوة التسليم والتقليد، ولو بقي الاعتزال لتلون المسلمون بلون آخر أجمل من لونهم الذي تلونوا به (1).

### ملاحظات حول انتصار الحنابلة:

وعلى ضوء ما تقدم يجب أن نلاحظ الأمور التالية: 1- إن ذلك الضغط الذي فرضه المعتزلة كان سبباً في زيادة النتائج السيئة التي أدت إلى أفول نجمهم وهدم كياناتهم. كما وأن المحدثين قد نفعهم ذلك بالتفاف الجماهير حولهم، حتى اكتسبوا النصر ورجحت كفتهم، فقابلوا المعتزلة بالمثل؛ بل زادوا على ما فعل أولئك من الانتقام من خصومهم، وازدياد نشاطهم إلى إيجاد أمور

ص: 506

لا تتمشى مع روح الإسلام، من التهجم على من لم يوافقهم فى الرأى، و الطعن على كثير من الشخصيات و إكفار من شاءوا تكفيره، بدون ميزان شرعى. و لو سار المعتزلة فى غير طريق الشدة، و لم يجعلوا للقوة دخلا فى نشر مبادئهم فى دعوة الناس إلى حرية الفكر، و إعمال العقل، لكان أولى و أجدر، و لم يحدث ما حدث من تلك الانتكاسة الفظيعة، التى كان من ورائها انطلاق الأحقاد، و انفجار الضغائن الكامنة. و كذلك المحدثون بعد انتصارهم لو أنهم نهجوا نهجهم الذى كانوا يسيرون عليه من المحافظة على العادات و التقاليد الموروثة، و عدم الخوض فى شىء لم يخض فيه السلف، لكان ذلك أجدر و أنفع، و بهذا يكون كل معسكر قد أدى واجبه و حقق أهدافه على ضوء المنطق. و لكن ذلك الصراع الذى أوجد تلك الثورة العقائدية، و انتصار طائفة على طائفة، و استعمال القوة فى تطبيق المبادئ، كل ذلك أوجد تلك العوامل التى حلت بالمجتمع الإسلامى مما أدى إلى العدا و الاتهام بالباطل، و الخروج عن الموازين العلمية، و الحدود الشرعية. 2- لم يكن المذهب الحنبلى من المذاهب المنتشرة أو ذات الأهمية، و كاد يمحو أسوة بغيره من المذاهب، لو لا قيام ابن تيمية و انتصاره لمذهب أحمد، و ربطه بعقائد السلف الذين لا يرون تأويل ما ورد فى الصفات، و مبالغته فى الإنكار على الأشاعرة، فافترق الناس فيه إلى فرقتين، فريق يقتدى به، و يقول بأقواله، و يعمل برأيه، و يرى أنه شيخ الإسلام، و أجلّ حفاظ الأمة الإسلامية، و فريق يبدعه و يضللّه، و يزرى عليه بإثبات الصفات، و ينتقد عليه مسائل ما له فيها سلف. و فى القرن الثانى عشر ظهر الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب (1) المتولد سنة

ص: 507

1 - 1) و ولد محمّد بن عبد الوهّاب فى بلدة العينية بنجد سنة 1115 هـ 1703 م و درس الفقه الحنبلى، و اقتدى بابن تيمية، و رحل إلى المدينة و البصرة، و بغداد، و كردستان، و همذان، و أصفهان و عاد إلى بلاده و أظهر طريقته و أنه يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر و يحارب البدع، و استعان بمحمّد بن سعود فى تأييد دعوته إلى أن توفى سنة 1206 هـ 1791 م و اعتنق آل سعود هذه الدعوة، و حاربهم الدولة العثمانية و هزمهم و إلى مصر محمّد على باشا، و لم يتمكن من القضاء على هذه الحركة و بقيت لها السيادة فى نجد و فى أصقاع المملكة العربية السعودية إلى اليوم.

1115 هـ و المتوفى سنة 1206 هـ فأنكر على الناس استغاثتهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عند قبره، و أظهر أنه يأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و كان قد درس الفقه على أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان على المذهب الحنبلي، فأهل نجد حنابلة لأنهم وهاوية. قد اعتنقوا فى العقائد مذهب ابن عبد الوهاب، و هو يعتنق فيه مذهب ابن تيمية فى العقائد و الفقه، و ابن تيمية لم يكن مقلدا، بل كانت له مسائل ينفرد بها، و يفتى على رأيه، و لكنه معدود من الحنابلة، مع أن له أقوالا و فتاوى يخالف بها المذاهب الأربعة، أو يخالف المشهور منها فمن ذلك: القول بقصر الصلاة فى كل ما يسمى سفرا طويلا كان أو قصيرا، كما هو مذهب الظاهرية. القول بأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء كما يشترط للصلاة. و أن من أكل فى شهر رمضان معتقدا أنه ليل، فبان نهارا لا قضاء عليه. و جواز الوضوء بكل ما يسمى ماء مطلقا كان أو مضافا، و أن المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيه، إلا أن يتغير قليلا كان أو كثيرا. و كان يذهب إلى التكفير بالحلف بالطلاق، و أن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة، و أن الطلاق المحرم لا يقع (1). و قد امتحن بسبب فتواه بالطلاق و سجن، و من هذا يظهر أن ابن تيمية لم يكن مقيدا بمذهب معين، فقد كان يفتى فى بعض الأحكام بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، و فى بعضها يفتى بخلافهم أو بخلاف المشهور من مذاهبهم، كما كان ينهى عن التقليد، أو الالتزام بقول واحد من الأئمة (2) كأنه لم يكن حنبليا إذا قسناه برجال المذاهب الأخرى فى التزامهم و تقيدهم، و إنما كان يلتقى معهم فى مسائل الصفات و عدم تأويلها. 3- و لا يفوتنا أن نلاحظ نشاط الوضاعين للأحاديث على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و يقصدون بذلك تأييد السنّة و الانتصار على المبتدعة- و هم كل من خالفهم فى الرأى- فهذا أحمد بن عبد الله الأنصارى يحدث عن نافع عن ابن عمر فى قول الله تعالى:

ص:508

1-1) العقود الدرية فى مناقب ابن تيمية ص 332.

2-2) جلاء العينين للآلوسى ص 107.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ. وَهَذَا أَحْمَدُ بْنُ حَرْبٍ الْمَلْحَمِيُّ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَقَدْ وَضَعَ حَدِيثًا عَلَى رَأْيِ الْحَنْبَلَةِ بِسَنَدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: (مَنْ قَالَ إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ فَهُوَ كَافِرٌ) (1). وَمِثْلُهُ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِ بْنِ مَصْعَبٍ بْنِ بَشْرِ بْنِ فَضَالَةَ الْمَرْوَزِيُّ فَقِيهٌ كَذَابٌ. قَالَ الدَّارِقُطْنِيُّ: كَانَ حَافِظًا عَذِبَ اللِّسَانِ فِي السُّنَّةِ وَالرَّدِّ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ، لَكِنَّهُ يَضَعُ الْحَدِيثَ. وَقَالَ ابْنُ حَيَّانٍ: كَانَ مِمَّنْ يَضَعُ الْحَدِيثَ وَيَقْلِبُ الْأَسَانِيدَ، لَعَلَّهُ قَدْ قَلَبَ عَلَى الثَّقَاتِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ حَدِيثٍ (2). وَمِنْ أَبْطَالِ الْوَضَّاعِينَ لِنَصْرَةِ الْمُبَادِئِ وَحُبِّ الْغَلْبَةِ: أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَوِّيَّارِيُّ، وَيُقَالُ: الْجَوْبَارِيُّ، وَجَوْبَارٌ مِنْ عَمَلِ هَرَاتٍ، نَقَلَ الْحَاكِمُ عَنِ الْحَافِظِ سَهْلِ بْنِ السَّرِيِّ: أَنَّ أَحْمَدَ الْجَوِّيَّارِيَّ، وَمُحَمَّدَ بْنَ عَكَاشَةَ وَضَعُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَشْرَةَ آلَافٍ حَدِيثًا. وَمِنْ آفَاتِهِ أَنَّهُ رَوَى أَنَّ حَضْرَةَ مَجْلِسِ عَالَمِ خَيْرٍ مِنْ حَضْرَةِ أَلْفِ جَنَازَةٍ، وَمِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ، وَمِنْ أَلْفِ حِجَّةٍ، وَمِنْ أَلْفِ غَزْوَةٍ. وَرَوَى أَيْضًا مَرْفُوعًا: أَنَّ السُّنَّةَ تَقْضَى عَلَى الْقُرْآنِ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: لَا نَعْرِفُ أَحَدًا أَكْثَرَ وَضْعًا لِلْأَحَادِيثِ مِنْهُ. وَكَانَ يَضَعُ الْحَدِيثَ لِمُحَمَّدِ بْنِ كِرَامٍ -رئيس فرقة الكرامية من الحنابلة- على ما يريد، فكان ابن كرام يخرجها في كتبه، ويسميه أحمد بن عبد الله الشيباني (3). وَمِنْهُمْ أَبُو بَشْرِ الْحَافِظِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْكِنْدِيِّ، الْمَتُوفَى سَنَةَ 324 هـ وَكَانَ أَحَدَ الْوَضَّاعِينَ وَمَشْهُورًا بِالْكَذْبِ، وَكَانَ إِمَامًا فِي السُّنَّةِ وَالرَّدِّ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ (4) كَمَا يَقُولُونَ. وَغَيْرَ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ يَضَعُونَ الْأَحَادِيثَ انْتِصَارًا لِمُبَادِئِهِمْ وَالْوَقِيعَةَ فِي خُصُومِهِمْ. وَقَدْ سَأَلَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفَ بِغَلَامِ خَلِيلٍ، فَأَجَابَ بَأَنَّهَا نَضَعُهَا لِنَرْتَقَ بِهَا قُلُوبَ

ص: 509

1-1) لسان الميزان ج 1 ص 202-259.

2-2) انظر تذكرة الحفاظ ج 3-23. و تاريخ بغداد ج 5 ص 72. [1]

3-3) لسان الميزان ج 1 ص 293.

4-4) مرآة الجنان ج 2 ص 287. [2]

العامة. وقد وضع هؤلاء أكثر من أربعين ألف حديث، أكثرها يعود لنصرة المبدأ و التغلب على الخصم. 4- إن ذلك التهجم والانتهاج بالباطل لم يقتصر على الفئتين المتخاصمتين، بل تعداه إلى كل من لم يشاركهم في الرأي حول الرؤية و خلق القرآن من جميع الطوائف، و كان للشيعة النصيب الأوفى من ذلك التهجم، و الرمي بالباطل، و إصاق التهم زيادة على ما هم عليه من معاداة السلطة لهم، و مطاردتهم في جميع الأدوار، لأنهم يحملون فكرة مقاطعة الدولة، إذ لا يعترفون بشرعية سلطان يتركز على الجور و يحكم بغير ما أنزل الله. و كان دور المتوكل هو أعظم الأدوار، لأنه كان يبغض أهل البيت و يتبع الشيعة بكل أذى، حتى ملأ بهم السجون، و صبغ الأرض من دمائهم. و لم يخضعوا لآرائه أو يقفوا عن مقاومته. و قد أمر عامله على مصر، و هو يزيد بن عبد الله، أن يطاردهم. فكانت سيرته معهم قاسية، فعاقبهم أشد العقاب، و قتل أكابرهم، و حمل منهم جماعة على أخشن مركب، و سيّرهم إلى بغداد. و لم يزداهم ذلك إلا ثباتا في العقيدة و تمسكا في المبدأ. و معارضة لسلطة المتوكل و إعلان الغضب عليه. كما أنه التفت إلى العلويين، فجرت عليهم منه شدائد من الضيق، و أخرجهم من مصر و ذلك في سنة 242 هـ (1). و قد أشرنا إلى الحوادث المؤلمة بين السنة و الشيعة، أو بين الشيعة و الحنابلة على الأخص، لأن الحنابلة هم أعداء المعتزلة بصورة عامة قد ربطوا بين الاعتزال و التشيع، و لم يجعلوا فارقا بينهم على ما بين المعتزلة و الشيعة من خلاف، و لكنه لم يتعد حدود المنطق و الموازين العلمية، و كان أبطال الشيعة يقابلونهم بحجج واضحة و براهين قاطعة، و كان هشام بن الحكم يناظر علماءهم فيفحمهم. و إن كان المعتزلة يلتقون مع الشيعة و يشاركونهم في كثير من المسائل، و أهمها مسألة خلق القرآن و الرؤية و التفضيل، فجعلوا من ذلك روابط تصلح لأن يتخذ أساسا للتفاهم بين التشيع و الاعتزال، أو أنهم كانت تجمعهم المصالح المشتركة، و بهذا

ص:510

نظروا إلى الشيعة و المعتزلة بمنظار واحد، ولم يفرقوا بينهم حتى قال الذهبي: إن الرفض و الاعتزال تصادقا و تواخيا. و لما ضعف الاعتزال و زالت قوته بقي المذهب الشيعي يتمتع بقوته الروحية و صفاته المعنوية منفصلا عن السلطة، و لم يخضع لها منذ نشأته، و لم تصدع الدعايات كيانه، و لم يهبط عن مستواه بما قوبل به من كتل معادية، تحاول نزوله عن المستوى الذي هو فيه، و بقي يصارع الحوادث، و يتلقى الصدمات، من أجل الحق. و قد اتجه الحنابلة بكل ما لديهم من قوة لمحاربة الشيعة و إصاق التهم بهم، و وصفهم بما لا يليق بهم، فترى المؤرخين و علماء الرجال منهم إذا أرادوا أن يؤرخوا لرجال الشيعة من أهل العلم و الأدب، تجد هناك تقولا بالباطل، و لعل الوقوف على ما كتبه ابن الجوزي و ابن كثير و غيرهم شاهد على ما نقول. و قد أفتى البعض منهم بكفر الشيعة و وجوب قتلهم و إبادتهم، كابن تيمية و غيره (1). و قد توارث الأجيال تلك النعرة، و سرت تلك الفكرة في الأدمغة التي تحكّم فيها الجمود، و وجد أعداء الإسلام في ذلك أكبر عون لحلول الفرقة، و زيادة العدا و التباعد. و بمزيد الأسف أن بعض المؤلفين في العصر الحاضر لم ينظروا لتلك الظروف التي نشأت فيها الخلافات، فتقبّلوا كل ما وجدوه مكتوبا عن تاريخ الشيعة من طعون و تقولات، و لو أنهم وقفوا وقفة مؤرخ منصف لبان لهم الحق. 5- كان بودي أن أشرح كثيرا من الأمور التي نجمت عن مشكلة خلق القرآن، و لكنني خشيت أن يطول الموضوع و تتسع أطراف البحث. كما كنت أرغب في الحديث عن قبر أحمد و تاريخ غرفه في دجلة، و الإشارة إلى تعظيمه، و نقل رفات الموتى إليه، و لكنني أرجأت ذلك إلى الأجزاء القادمة إن شاء الله.

### نظرة عامة:

و نعود و العود أحمد، نعود لنلقى نظرة حول المذاهب و انتشارها، بعد دراسة طويلة، و بحث واسع مجهود، و ترويض للنفس على تحمّل الصعوبات، و اجتياز العقبات، التي تحول بين الباحث و بين الوصول إلى الغاية.

ص: 511



وإن الناظر إلى تاريخ المذاهب يلزمه أن يروض نفسه على أن يسير وفق الأمور التي يقتنع بصحتها، فإن هناك عاطفة و تعصبا، و هناك سياسة و تدخلا، و هناك عدا و تحزبا، فلا بد إذا من الوقوف وقفة المتبصر الطالب للحقيقة، المتجرد عن التحيز و التعصب، ليسهل عليه أن يقتطف زهرة الحقيقة من بين تلك الأشواك، و يعرف وجه الصواب، و تتضح له الأغراض التي كمننت وراء ستار شفاف من المظاهر. لذلك ينبغي أن أشير إلى الصعوبة التي يلقاها الباحث عن المذاهب لوجود عقبات التعصب، و ترسبات الطائفية، و أن أكثر من كتب في هذا الموضوع لم يساعده التوفيق على ترويض نفسه لتحمل الصعوبات، و قد استعرضنا في أبحاثنا هذه إلى كشف الحقيقة و إظهار الواقع، و إن كنا قد تعمدنا ترك أشياء كثيرة ربما يكون بذكرها احتمال تحامل أو طعن، و نحن نبرأ إلى الله من ذلك، فلم نقصد إلا الخدمة للمصلحة العامة، و محاربة تلك النعرات التي من ورائها خصومات و تشاجر، و فرقة و تباعد، و اتهام بالباطل و هضم للحقائق و ظلم للتاريخ. و قد رأينا كيف انقسم العلماء في القرن الثاني إلى قسمين: أهل حديث و أهل رأى. و كان أهل المدينة يمثلون القسم الأول، و أهل العراق يمثلون القسم الثاني، و أصبح لكل جانب أنصار و متعصبون، و اشتهر أبو حنيفة بالقياس و قلة الحديث. سئل رقية بن مسقلة عن أبي حنيفة فقال: هو أعلم الناس بما لم يكن، و أجهلهم بما كان. و قد روى هذا القول عن حفص بن غياث. يريد أنه لم يكن له علم بآثار من مضى (1). و أصبح أهل الحديث ينقمون على أهل الرأي، حتى خرج ذلك النزاع عن حدود المقاييس العلمية، و بلغ إلى التهاجي و التعصب، فكان كل فريق يحاول الانتصار على الآخر، فهذا يهجو خصمه بشعره، و ذلك يردّ عليه بالمثل، و تحيز لكل فريق جماعة، و تعددت عوامل الفرقة حتى أدى ذلك إلى الطعن في العقائد، و الحط من الكرامات. قال أحمد بن الحسن لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله: ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث فقال: أصحاب الحديث قوم سوء. فقال أبو عبد الله- و هو

ص:512

ينفض ثوبه- ويقول: زنديق، زنديق، زنديق، ودخل البيت (1). وفي ذلك العصر اتسع نطاق النشاط العلمي، فكان في كل بلد إمام له مذهب ينسب إليه، ففي الشام مذهب الأوزاعي، وفي مصر مذهب الليث بن سعد، وفي الكوفة مذهب سفيان الثوري وابن عيينة، وغيرها من المذاهب التي انقرضت ولم يكتب لها البقاء. ولكن المذهب الحنفي قد سعد دون غيره برجال دونوا فيه و ألفوا، وكانت لهم السلطة التشريعية، فأبو يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية كان يتولى نشر المذهب بقوة سلطانه، ونفوذ أمره. وإذا أردنا أن نقيس شهرة أبي حنيفة في عصره، و منزلته في مجتمعه، فلا يعدو أن يكون واحدا من الشخصيات التي نبغت في ذلك العصر، بل كان الكثير منهم يفوقه شهرة. ولكنه على مر الزمن أصبح أبو حنيفة يذكر اسمه بالإعجاب في العالم الإسلامي، ويجب أن يلاحظ. وذلك كنتيجة للعصور المتأخرة و لتلامذة أبي حنيفة، وعلى الأخص لمحمد بن الحسن الشيباني. فقد كتبوا كتباً و دونوا فيها كل العلوم و التجارب، وأضافوها إلى السلف و ختموا كل ذلك بخاتم راويهم الأخير وهو أبو حنيفة، فكان من أجل ذلك عند الأجيال المتأخرة هو المبدع الوحيد، و المؤسس لعلم الفقه و طريقته، و الفقهاء الكبار الذين عاشوا قبله، و الذين عاصروه لا يعرف عنهم شيء، من أجل نقص الكتب التي تحمل اسمهم. و من ناحية أخرى فقد كانت مساهمة تلامذة أبي حنيفة في تكوين الروايات و تكميلها غير منفصلة عن عمل أستاذهم (2). و كان لتلامذة أبي حنيفة آراء خاصة، فإنك تجد في كتب الحنفية أقوال أبي يوسف، و محمد بن الحسن، و زفر بن الهذيل، حسب ما يظهر لهم من المعاني و الآثار فوافقوا أبا حنيفة في بعضها، و خالفوه في كثير من الآراء و الأقوال، و قد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المخالفة لأبي حنيفة أقوالاً له رجع عنها، أو أن أبا حنيفة جعل ما يصح من الحديث مذهباً له، فتكون أقوال تلامذته التي اجتهدوا فيها

ص: 513

1-1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 38. [1]

2-2) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص 235.

و استخرجوها من الأحاديث هي أقوال أبي حنيفة وآرائه، وبهذا تكوّن المذهب ونسب المجموع إليه. وهكذا مذهب مالك بن أنس فقد تولى نشره سلطان الأندلس، عند ما بلغه ثناء مالك عليه، وكان يحيى بن يحيى المتوفى سنة 233 هـ مكينا عنده، قال أحمد بن خالد: لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس -منذ دخلها الإسلام- من الحظوة وعظيم القدر، و جلالته الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى. وكان السلطان لا يولى قاضيا في أقطار الأندلس إلا بمشورته واعتباره، ولا يشير إلا بأصحابه، والناس سراع إلى الدنيا. فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ ما يرضيهم (1). كما أن مالك نفسه كان مكينا عند العباسيين يصلونه بجوائزهم، ويرفعون من شأنه، حتى أن الأمراء كانوا يخشون سطوته، والحرس يأمرون بأمره، بسجن من يريد سجنه، وإطلاق من يريد إطلاقه، وكان يحضر عند الوالي، فيعرض عليه السجن فيأمره بضرب هذا مائة، وهذا مائتين، وقطع هذا، و صلب ذاك (2). و حاول المنصور أن يجعل مالك هو المصدر للتشريع، فنهى غيره من العلماء عن الإفتاء، و طلب منه أن يضع كتابا يحمل الناس على العمل به. و قد رأينا فيما سبق أن المنصور قد غضب عليه قبل ذلك لفتوى تخالف غرضه، فعذب مالك، و ضرب خمسين سوطا حتى انخلعت كتفه. و هذا ما يدلنا على أن المنصور يناصر العلماء ما لم تمس تعاليم أحدهم بصالح سلطانه، فهو يرى أن مركز الخلافة فوق كل شيء، و قد طارد العلماء الذين انتقدوا أعماله. أما الشافعي -و هو تلميذ مالك و من عداد أهل الحديث- فقد انتشر مذهبه بمصر بواسطة تلامذته، و مكاتبتهم في مجتمعهم، و قد زاحم مذهبه مذهب مالك حتى تعصب عليه أصحاب مالك فقتلوه شهيدا (3) و جاءت الدولة الأيوبية، و كان ملوكها شافعية، فناصروا مذهب الشافعي و نشره، و بنوا له المدارس، فأقبل الناس عليه.

ص: 514

1-1) ابن خلكان ج 2 ص 116. [1]

2-2) مالك بن أنس لأمين الخولى ص 319.

3-3) توالى التأسيس لابن حجر ص 86.

وقد أشرنا عن قريب في هذا الجزء إلى مذهب أحمد وانتشاره، وكيف تكون، فلا نطيل الحديث بذلك. و صفوة القول أن المذاهب الأربعة المعمول بها كانت تنتشر تحت تأثير عوامل لو ساعدت غيرها من المذاهب السنية المعمول بها في ذلك الزمن لطال عمرها، و امتد الزمن بها، كمذهب الأوزاعي، و الظاهري، و ابن جرير، و الأعمش، و الليث بن سعد وغيرهم. و كان من وراء تأثير الدعاية القوية للمذاهب الأربعة و مناصرة السلطات لها أن أقبل الناس عليها و هجروا ما سواها، و قد صدر مرسوم في عهد المنتصر العباسي، يقضى بالالتزام بقول المشايخ السابقين، و أن لا يذكر قول مع أقوالهم، و أفتى علماء الأمصار بوجوب اتباع المذاهب الأربعة، و تحريم ما عداها، و بهذا أغلق باب الاجتهاد في وجوه اتباع المذاهب الأربعة. و لا قائل من السلف بغلق باب الاجتهاد، و بهذا سارت المذاهب الأربعة في طريق الانتشار دون غيرها من المذاهب السنية المعمول بها كما تقدم. و قد تكفلت أبحاثنا في هذا الكتاب بأجزائه جميعا، كل ما له علاقة بتكوين المذاهب و انتشارها. و في الختام أبتهل إلى الله تعالى أن يتقبل أعمالنا، و منه وحده عزّ و جل أطلب المكافأة و الجزاء، و هو حسبنا و نعم الوكيل، كما نسأله تعالى مكافأة من شجعنا من الأدباء في تقرّظ هذا الكتاب نظما و نثرا، و سننشر ذلك في كلمة الختام مع الشكر و التقدير لهم. و إلى هنا ينتهي الجزء الرابع و إلى اللقاء في الجزء الخامس إن شاء الله.

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

## تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي  
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباه اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الالكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
اصبهان  
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

